THE BOOK WAS DRENCHED

UNIVERSAL
LIBRARY

OU_190537

UNIVERSAL
LIBRARY

شعراء الأندلس

ديوان
ابن زيدون

رسائله أخباره شعر المكين

« ابن زيدون عبقريّ زمانه قصر المحسنون عن إحسانه
أخذ الروم في الحزيرة عنه ومشوا في خياله وافتنانه . »
« شوقي »

شرح وضبط وتصنيف

كامل كيلاني و عبد الرحمن خليفة

الطبعة الأولى

١٣٥١ هـ — ١٩٣٢ م — رقم ٤٧٤

كل الحقوق محفوظة

طبع بمطبعة

مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

وناشر طبعه محمد أمين عمران

فهرس

مقدمة ديوان ابن زيدون

	صفحة		صفحة
تصدير	٨	ابن جهور – بنو عباد	١٧
مقدّمة الديوان	١٠	المناهج الأدبية	٢٧
تحريف للديوان	١٠	نشأة ابن زيدون	٣٠
أمثلة من التحريف	١٠	بحترى المغرب	٣٣
أثر التحريف	١٢	شاعرية ابن زيدون	٣٧
لماذا بدأت بهذا الديوان .	١٣	لماذا سجن ابن زيدون	٤٢
تنفيذ الفكرة	١٥	حساد ابن زيدون	٤٤
رسائل ابن زيدون وأخباره	١٦	حب ولادة	٥٠
إلمامة	١٧	أدب ابن زيدون	٥٥
ملوك الطوائف	١٧		

فهرس ديوان ابن زيدون

	صفحة		صفحة
فى السجن	١	جواب كتاب	٣٨
ذكرى أيام الوصال	٤	فى العزل	٣٩
فى مدح ابن جهور	٩	فى مدح ابن جهور	٤٠
ذكرى ولادة	١٢	بعد خمسمائة يوم فى السجن	٤٩
بعد الفرار من السجن	١٣	من قصيدة صنعها ببطليوس	٥٤
فى مدينة بطليوس	١٩	فى العزل	٥٧
يوم بوصل ساعة	٢٢	بين صديقين	٥٨
فى عيد الأضحى	٢٣	دعوة	٥٩
فى طرطوشة	٣٤	قال فى الوزير الشيخ أبى الحزم	٦٠
إلى الوزير أبى عبد الله	٣٥	وصال	٦٠

	صفحة
وقال معاتبا من قصيدة	٦١
موقف وداع	٦١
وقال أيضا يمدح أبا الوليد بن جهور	٦٢
مداعبة	٦٦
جرب الناس وامتحن	٦٨
فى مدح ابن جهور	٦٩
عتاب	٧٤
رثاء فتاة	٧٥
فى الغزل	٧٦
تهنئة	٧٧
تهنئة بفصد	٧٨
فى مدح ابن جهور	٧٩
شكر	٨٢
شفاعة	٨٩
هدية تفاح	٩١
لا يهنأ الشتم	٩٢
أترع الكأس	٩٨
لا حيلة فى الحب	٩٨
فى مدح ابن جهور	٩٩
الى ابن جهور	١٠٥
مجلس أبى على	١٠٦
جواب	١٠٧
كن كيف شئت	١٠٨
حنين	١٠٩
فى الغزل	١١١
فى بعض مجالس الأنس	١١١
شكوى وألم	١١٢
جواب	١١٨

	صفحة
حبيب	١١٩
فى مدح ابن جهور	١٢٠
الى المظفر	١٢٢
فى نكبة بنى ذكوان	١٣٠
تهنئة بقران	١٣٦
عهد	١٣٩
مدح ورثاء	١٤٠
الى ابن ذكوان	١٤٨
الى المعتمد	١٤٩
مدح ورثاء وتهنئة	١٥٠
هدية عنب	١٥٢
رثاء ابن ذكوان	١٥٣
فى مدح المعتضد	١٥٨
هدية تفاح	١٦٥
شكر على زيارة	١٦٧
تهنئة	١٦٨
اهداء قصيد	١٦٩
الى أبى القاسم	١٧٠
مدح ابن جهور ورثاء أمه	١٧٤
فى مدح ابن جهور	١٧٧
رثاء أم المعتضد	١٨٤
قل للعداة	١٨٨
ذكرى قرطبة	١٩٢
سلوى المضطر	١٩٥
فى مدح المعتضد	١٩٧
فى « «	٢١٦
دولة عباد	٢٢٣

	صفحة
الى حبيب	٢٢٣
فى مدح أبى المظفر	٢٢٤
ذكرى قرطبة وأيام الصبا	٢٢٩
الى ابن عبدوس	٢٣٦
مدح ابن جهور وشكر باديس	٢٤١
اسم من أحب	٢٤٣
الى أبى العطاف	٢٤٤
بين ابن زيدون والمعتمد	٢٤٧
الى المعتمد	٢٤٨
جواب للمعتمد	٢٤٨
جواب آخر للمعتمد	٢٤٩
وقال للمعتمد يستهديه خمرا	٢٤٩
وقال مجاوبا المعتمد	٢٥٠
وقال	٢٥٣
وقال	٢٥٣
مهنئة	٢٥٤
ذكرى ولادة	٢٥٧
الى ولادة	٢٥٨
الى أبى حفص بن برد	٢٥٩
ليل أنس	٢٥٩
دواء	٢٦٠
حسبى رضاك	٢٦١
عودى الى الوصال	٢٦٢
أبو القاسم	٢٦٣
وقال	٢٦٣
آلام المحب	٢٦٤
كيف السلو	٢٦٤

	صفحة
قسم	٢٦٥
خداع الأمانى	٢٦٥
فى العزل	٢٦٦
الى هاجر	٢٦٦
دعاء محب	٢٦٦
أنت حسبى	٢٦٧
ما الذى أنكروه ؟	٢٦٧
شوق بعد سلوان	٢٦٧
أسر الهوى	٢٦٨
معذرة	٢٦٨
وصف الكأس	٢٦٨
غاية المحسن	٢٦٩
صفح المدنف	٢٦٩
لا يأس	٢٦٩
عتب	٢٦٩
تجنى الحبيب	٢٧٠
لا يأس فى الحب	٢٧٠
بقية المسواك	٢٧٠
غرور المنى	٢٧١
صلنى	٢٧١
شكوى ضائعة	٢٧١
وفاء المحب	٢٧١
عذر الحبيب	٢٧٢
حذر العاشق	٢٧٢
قناعة المحب	٢٧٢
كيف السلو	٢٧٣
أنت المنى	٢٧٣

	صفحة
بقاء على العهد	٢٧٣
أين وفاؤك	٢٧٤
صريع الحب	٢٧٤
وفاء المحب	٢٧٥
أنت حسبي	٢٧٥
الى هاجر	٢٧٥
لاسهيل الى السلو	٢٧٦
أنت الحياة	٢٧٦
ذكرى معاهد قرطبة	٢٧٦
غدر الحبيب	٢٧٧
اصنع ما شئت	٢٧٨
أمنية	٢٧٨
نفسي فداؤك	٢٧٨
دين الحب	٢٧٨
وفاء	٢٧٩
في سبيل الهوى	٢٧٩
صلة المحب	٢٧٩
مقيم على العهد	٢٨٠
آلام المحب	٢٨٠
المعميات والألغاز	٢٨١
الى المعتمد	٢٨١
الى المعتمد على الله	٢٩٩
جواب	٣٠١
الى المعتمد	٣٠٣
جواب على بيت مطير	٣٠٦
البيت المطير	٣٠٧
حلّ البيت المطير	٣٠٧
جواب على بيت مطير	٣٠٨

	صفحة
الى المعتمد	٣١١
صرعى الحب	٣١٣
ذكرى قرطبة	٣١٢
رسائل ابن زيدون وأخباره وشعر الملكين	٣١٣
الرسالة الهزلية	٣١٤
الرسالة الجدّية لابن زيدون	٣٣٣
رسالة الى المظفر	٣٤٦
رسالة الى ابن مسلمة	٣٥٥
رسالة الى المعتضد	٣٥٧
رسالة من قرطبة	٣٥٨
من رسالة	٣٦٠
شعر المعتضد	٣٧٠
شعر المعتمد	٣٧٧
ابن عمار	٣٧٩
معارضات الشعراء لابن زيدون	٤٠١
معارضة أبي بكر	٤٠١
معارضات أمير الشعراء	٤٠١
صفحات من كتاب الذخيرة	٤٠٩
صفحات من كتاب نفح الطيب	٤٢١
ابن جهور	٤٢٣
جهور	٤٢٥
بنو عباد	٤٢٥
صفحات من كتاب العيني	٤٢٦
ملوك الطوائف	٤٢٧
دراسة الدكتور أحمد ضيف لابن زيدون	٤٣٠
دراسة الأستاذ السكندري « «	٤٣٨
دراسة الأستاذ علام سلامه « «	٤٤٢
دراسة الأستاذ أحمد زكي باشا « «	٤٤٣
فهرس القوافي	٤٥٥

(تمت الفهرست)

مقدمة ابن زيدون

تصدير

لحضرة صاحب السعادة أمير الشعراء

يَا ابْنَ زَيْدُونَ مَرْحَبَا ... قَدْ أَطَلْتَ التَّغَيُّبَا
إِنَّ دِيوَانَكَ الَّذِى ... ظَـلَّ سِرًّا مُحَجَّبَا
يَشْتَكِى الْيُتْمَ دُرُّهُ ، ... وَيُقَاسِى التَّغَرُّبَا
صَارَ - فى كُلِّ بَلْدَةٍ - ... لِلْأَلِبَّاءِ مَطْلَبَا
جَاءَنَا « كَامِلٌ » بِهِ ... عَرَبِيًّا مُهَذَّبَا
تَجِدُ النَّصَّ مُعْجِبًا ... وَتَرَى الشَّرْحَ أَعْجَبَا

* * *

أَنْتَ فِى الْقَوْلِ كُلِّهِ ... أَجْمَلُ النَّاسِ مَذْهَبَا
بِأَبِى أَنْتَ هَيْكَلاً ... - مِنْ فُنُونٍ - مُرَكَّبَا
شَاعِرًا أَمْ مُصَـوِّرًا ... كُنْتَ، أَمْ كُنْتَ مُطْرِبَا؟
تُرْسِلُ اللَّحْنَ كُلَّهُ ... مُبْدِعًا فِيـهِ مُغْرِبَا
أَحْسَنَ النَّاسِ هَاتِفًا ، ... بِالْغَوَانِى مَشَبِّبَا
وَنَزِيلَ الْمُتَوَّجِيـ ... ـنَ النَّدِيمَ الْمُقَرَّبَا
كَمْ سَقَاهُمْ بِشِعْرِهِ ... مِدْحَـةً أَوْ تَعَتُّبَا
وَمِنَ الْمَدْحِ مَا جَزَى ... وَأَذَاعَ الْمَنَـاقِبَا

* * *

وَإِذَا الْهَجْوُ هَاجَهُ ... - لِمُعَانَاتِهِ - أَبَى

وَرَآهُ رَذِيلَةً لاَ تُمَاسِي التَّأَدُّبَا
مَا رأَى النَّاسُ شَاعِراً فَاضِلَ الخُلْقِ طَيِّبَا
دَسَّ لِلنَّاشِقِينَ - فِي زَنْبَقِ الشِّعْرِ - عَقْرَبَا

* * *

جُلْتَ - فِي الْخُلْدِ - جَوْلَةً هَلْ عَنِ الْخُلْدِ مَنْ نَبَا ؟
صِفْ لَنَا مَا وَرَاءَهُ مِنْ عُيُونٍ وَمِنْ رُبَى
وَنَعِيمٍ وَنَضْرَةٍ وَظِلاَلٍ مِنَ الصِّبَا
وَصِفِ الْحُورَ مُوجِزاً - وَإِذَا شِئْتَ - مُطْنِبَا »

* * *

قُمْ تَرَ الْأَرْضَ - مِثْلَ مَا كُنْتُمُو أَمْسِ - مَلْعَبَا
وَتَرَى الْعَيْشَ لَمْ يَزَلْ - لِبَنِي الْمَوْتِ - مَأْرَبَا
وَتَرَى ذَاكَ - بِالَّذِي عِنْدَ هٰذَا - مُعَذَّبَا

* * *

« إِنَّ مَرْوَانَ عُصْبَةٌ يَصْنَعُونَ الْعَجَائِبَا
طَوَّقُوا الْأَرْضَ مَشْرِقاً - بِالْأَيَادِي - وَمَغْرِبَا
آلَةٌ أَطْلَعَتْكَ فِي ذِرْوَةِ الْمَجْدِ كَوْكَبَا
أَنْتَ لِلْفَتْحِ تَنْتَمِي وَكَفَى الْفَتْحُ مَنْصِبَا
لَسْتُ أَرْضَى بِغَيْرِهِ لَكَ جَدًّا وَلاَ أَبَا »

« شوقي »

مقدمة

١ تحريف الديوان

كان أيسر ما فى هذا الديوان نسخه وضبطه وشرحه : فقد أنسانا ما كابدناه فيه من عناء التحريف كل عناء آخر كابدناه فيه ، ولقد وفق الساح أيما توفيق فى تشويه محاسن هذا الديوان الفذ ، وتحريف أبياته ، وطمس غرره وعيونه .

ولقد كنا نقرأ القصيدة عدة مرات ، وكأنا — لشدة ما فيها من تحريف واضطراب — أمام طلسم غامض لاسبيل إلى حله ، ثم لايلبث الصبر أن يذال من العقبات ما كنا نوقن باستحالة تذليله ، وكانت تعرينا لدة الفوز والانتصار — كلما اجتزنا عقبة — أن تقتحم أخرى حتى انتهينا من هذا الديوان ونحن لانكاد نصدق بأننا قد اجتزنا هذه المفازة المخيفة ، ورفعنا عن ذلك المنجم الرائع كثيرا من الهضاب والكثبان المتراصة فوقه .

وما نزعم أننا قد برأنا هذا الديوان من كل عيب ، ونزهناه عن كل تحريف ، ولكننا نجرؤ فنزعم أننا لم نأل جهدا فى تبرئته من كل عيب وتنزيهه عن كل تحريف ، فاذا ند عن خاطرنا معنى أولحق بذهننا كلال فى تصحيح بيت أو تجلية غامض فهو الذهن الانسانى يحلق ثم يسقط ، ويبدع ثم يسخف ، ويعتوره النقص والكلال ، أقوى مايكون رغبة فى تونخى الابداع والكمال .

٢ — أمثلة من التحريف

فلنا إن نسخ هذا الديوان وضبطه وشرحه كانت أيسر ما لقيناه من العناء ، وهذا الكلام ربما لمح فيه القارئ الحالى الذهن نوعا من الزهو والخيلاء ، ولكنه الحقيقة التى لا أثر للمغالاة فيها ، ولو أننا أردنا أن نسرد كل ماأصلحناه من تحريف أو تشويه لاضطررنا إلى ذكر أكثر أبيات الديوان ، وقد أشرنا إليها فى مواضعها من الكتاب ، فلنجتزئ بذكر القليل منها عن الكثير ، ليرى القارئ المنصف مقدار ماجنى الساخ على شعر هذا الشاعر العظيم ، ونحن لانرى فى مثل هذا العمل إلا أنه زكاة يؤديها الأديب للأدب العربى الزاخر بأروع الخوالج النفسية وأسمى المعانى الرائعة .

وليمثل القارئ نفسه أمام هذا البيت مثلا .

« لم يدع منى شنا من جلد مع أنى لم أرل ثبت العرر . »

أو البيت التالى :

« كأنا لم يوالينا زمان لين الأخدع . »

أو قوله فى نفس القصيدة : « وأنف الحمل لايجدع . »

أو قوله فى قصيدة أخرى :

« حياء هو الليل ادلهم ظلامه . »

أو قوله :

« زمن كما لون الرضا ع يشوق ذكراه الفطيم »

أو قوله : « لم أدع حظى منها بالحيل . »

أو قوله :

« فما ابنك إلا عدل نفسك إن يسر فللجسم لا للنفس منك مقام »

فى قصيدة لم يرد فيها ذكر امه نتاتا :

فاذا قرأت البيت الأوّل قراءة صحيحة . قلت :

« لم يدع منى سقامى جلدا مع أنى لم أزل تحت المرر »

والبيت الثانى :

« كأنا لم يؤالفنا زمان لين الأحدع »

والشطر الثالث : « وأنف الحمل لايجدع »

والبيت الرابع :

« جعاء هو الليل ادلهمّ ظلامه »

والبيت الخامس :

« زمن كمألوف الرضا ع يشوق ذكراه الفطيم »

والبيت السادس :

« لم أرغ حظى منها بالحيل »

والبيت السابع :

« فما ابنك إلا عدل نفسك ان يعب فللجسم لا للنفس منك مقام »

فاذا أضفت إلى هذا العماء عماء آخر هو بعض تكملة الأبيات الناقصة بما يلائمها ظهر لك أننا لم نكن مغالين فى وصف ما كابدناه من المشقة والتعب.

ومن أمثلة ذلك قوله : « . . . . فى جواركم ذليل . »

وقد أتممناه بما يلائم المعنى فقلنا : « [جناحى] فى جواركم ذليل »

وقوله :

« . . . . . شافعا لأياديك التى بعضها يفوق الثناء »

وقد أتممناه وأصلحناه كما يلى :

« [فتقبـله] شافعا لأياديـ ـك التى بعضها يفوق الثناء »

وانما اجتزأنا بهذه الأمثلة القليلة لأن الثمرة ـ كما يقول شيخ المعرة ـ تدل على الشجرة . ولأن الديوان كله ماثل بين يدى القارئ فلا حاجة بنا إلى الافاضة فى ذكر الأمثلة .

٣ .. أثر التحريف

وكثير مما يرويه أساتذة الأدب فى المدارس من شعر ابن زيدون محرّف أو مشوّه ، فمن ذلك ما أثبته الأستاذ علام سلامة فى مذكراته المطبوعة لطلبة دار العلوم :

« وبيت ملك كأن الله أنشأه مسكا وقد أنشأ الله الورى طينا . »

والبيت فى وصف ولادة . وصوابه . « ربيب ملك » ، وقد أكثر شعراء الأندلس ـ ومنهم ابن زيدون ـ من هذا التعبير، والرواية التى أخذ بها الاستاذ علام هى رواية نفح الطيب الذى لايقل تحريفه وتصحيفه عن تحريف الديوان وتصحيفه . وقد أثبتنا هذا البيت كما يلى :

« ربيب ملك كأن الله أنشأه مسكا وقدر إنشاء الورى طينا »

وبهذا يظهر جمال أسلوب ابن زيدون وروعة أدائه .

وقد روى بعض الأدباء البيت التالى لابن زيدون هكذا :

« سنون من الأيام خمس قطعتها أسيرا ، وإن لم يبد شد ولا قمط . »

وصوابها « مئون من الأيام خمس قطعتها » فان سنين من الأيام أو سنين من الليالى أو سنين من الساعات لامعنى لها ـ ويؤيد هذا الرأى قول ابن زيدون نفسه من قصيدة أخرى فى رسالة لابن جهور :

« أقصيرا مئين خمسا من الأيام ؟ »

وقد وقع فى هذا التحريف الأستاذ أحمد زكى باشا ثم تابعه فى ذلك الأستاذ أحمد السكندرى.

وظن الاستاذ زكى باشا ان ابن زيدون قد سجن مرتين، الأولى خمس سنوات ، واستدل على ذلك بالبيت الأوّل ، والثانية خمسمائة يوم ، واستدل على ذلك بالبيت الثانى .

أما الأستاذ السكندرى فقد قرر أن ابن زيدون سجن خمس سنوات (١) ، وهو لم يسجن إلا خمسمائة يوم كما يدل على ذلك شعره .

---

(١) قال الاستاذ السكندرى :

« لبث ابن زيدون فى السجن بضع سنين ، ولكن كم كانت مدتها ؟ ومتى كان مبدؤها ؟ »

أما الأول فيجيبنا هو عليه بقوله من قصيدته الطائية البليغة :

« سنون من الايام ـ خمس قطعتها أسيرا، وإن لم يبد شد ولا قط »

وأما الثانى فيجيبنا هو أيضا عليه بقوله من قصيدته الرائية التى كتب بها من السجن الى أبى الحزم جهور :

« لم يطو برد شبابى كبرة وأرى برق المشيب اعترانى فى عارض الشعر »

وقد جنى تحريف النساخ على أدباء العربية وشعرائها جناية لا تغتفر فاضطربت بسببه آيات البلاغة ودقائق البيان وعزف الكثيرون عن أدبهم بعد أن رأوا مافيه من الخلط والتشويه والتحريف ولاموهم على ذنوب لم يجترموها وآخذوهم بعيوب لايد لهم فيها :

« وذنب جرّه سفهاء قوم وحل بغير جارمه العقاب »

ولا يزال رجال الأدب وأساتيذه الأفاضل مسؤلين عن إصلاح هذه الروائع وتنظيم هذه الكنوز النفيسة وردّها إلى الصواب، حتى يظهر جلال الأدب العربي وروعته وتبرأ ذمم القدماء مما لحق آثارهم الأدبية من الخلط والتشويه .

٤ — لماذا بدأت بهذا الديوان

كانت فكرة موفقة سديدة تلك الفكرة التي خطرت ببال الأستاذ الكبير الدكتور «أحمد ضيف» مدرس الأدب العربي بالجامعة المصرية القديمة حين طلب الىّ عام ١٩٢٢ أن أترجم لطلبة الجامعة الفصل الرائع الذي كتبه الأستاذ المستشرق « نيكلسون » عن الأدب الأندلسي وتاريخه ، فقد كان من آثار تلك الفكرة أنني نشطت إلى إلقاء تلك المحاضرات التي أظهرتها للقراء في ذلك العام بعنوان « نظرات في تاريخ الأدب الأندلسي (١) » ووعدت في مقدمة ذلك الكتاب بالعودة إلى البحث .

قل للثلاثين إذ عهد الصبا كثب وللشبيبة غصن غير مهتصر »

ونحن نعلم أن انقطاع دعوة بني أمية عن قرطبة كان سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة، ونعلم أن قد ولد ابن زيدون في سنة أربع وتسعين وثلاثمائة فاذا كان بدأ خدمته في دولة آل جهور وهو في الثانية والعشرين من عمره وإذا قدرنا أنه بعث بهذه القصيدة في مبدأ اعتقاله كما هو الظاهر إذ قد صرح فيها بأنه لم يبلغ الثلاثين ، كانت مدة خدمته لآل جهور لا تزيد على سنتين وكان بدء اعتقاله في نهاية سنة أربع وعشرين وأربعمائة أو أول خمس وعشرين وأربعمائة .

لبث ابن زيدون في السجن خمس سنين استطعف فيها أبا الحزم جهورا واستشفع عنده بابنه أبي الوليد محمد بن جهور ، وكان أليفه وصديقه من قبل وغيره من الرؤساء ووجوه قرطبة وبث إليه وإليهم شكواه بعدة قصائد أبدعها ورسائل استعد فيها جهده فما ألانت له قلبا اه

(١) وقد جاء في مقدمة ذلك الكتاب مايلي

طلب الى حضرة الدكتور أحمد ضيف ، أن أترجم الفصل التاسع من كتاب « تاريخ آداب العرب للاستاذ نيكلسون » لألقيه في الجامعة المصرية ، وهو الفصل الذي أفرده من كتابه الممتع ، بالكلام على تاريخ الأدب العربي في أسبانيا .

لم أكد أقرأ هذا الفصل حتى بدا لي خطره ونفاسته وعرضت لي عدة ملاحظات على بعض ماجاء فيه ولم أكد أشرع في مناقشة فقط الجوهرية حتى اتسع أمامي مجال البحث وشحمني على مواصلة ماراينه من النقص الشديد الذي يكاد يلمسه كل مطلع على الكتب العربية التي تناولت الكلام في هذا الموضوع وما علمته من الحاجة الماسة الى كتاب ييسر على طلبة الأدب الأندلسي وغيرهم من المشتغلين به ، قليلا مما يتكبدونه من عناء البحث في الأسفار العربية الضخمة المهوشة ويحفظ وقتهم الثمين من الضياع .

فالآن أعود إلى الكتابة بعد عشر سنوات مضت على تلك البحوث التمهيدية الأولى .

***

ولكن لماذا اخترت ابن زيدون وبدأت به قبل غيره من الشعراء ؟

لقد كنت أسيء الظن بشعر ابن زيدون وأدبه ، ويخيل إليّ - كما يخيل إلى كثير من أدبائنا الذين يتسرعون فى الحكم على الشعراء من غير أن يعنوا أنفسهم بدرس آثارهم وعصورهم دراسة مستفيضة - أنه شاعر صنعة مولع بالبديع والمقابلات اللفظية لايسمو إلى درجة الفحول الممتازين .

فلما وصلت الى قول « نيكلسون » فى فصله الرائع : « وكانوا يلقبون ابن هانئ بأنه متنبى العرب، كما يلقبون ابن زيدون بأنه بحترى العرب (١) » صارحت القارئ حينئذ بأنى لا أستطيع الحكم على الجزء الثانى من هذه التسمية ، وقد عقدت فصلا موجزا فى المقارنة بين ابن هانئ والمتنبى، لأنى درست ديوانيهما، وقد عدلت الآن عن بعض آرائى فى ذلك الفصل . ولم أستطع المقارنة بين ابن زيدون والبحترى ، لأنى قرأت ديوان الثانى ولم أقرأ للأول إلا بضع قصائد لاتكفى للحكم على شاعر .

وذكرت أن خلال نهضتنا القومية لايناسب مع جهلنا عظماء لغتنا الذين تركوا أوضح الأثر فى بلاغة نستمد منها الحياة والقوة ، ومن كان من الواجب ألا يجهل الانسان عظماء الأمم ذوى الأثر الكبير فى الحضارة العالمية فهو أجدر ألا يجهل عظماءه قبل كل شيء .

ودفعتنى هذه الاعتبارات إلى قصر الاقتصار على ترجمة هذا الفصل المتمم وثم اتخذته مرجعا من المراجع الكثيرة التى رجعت اليها بدلا من أن اتخذه موضوع المحاضرة .

وقد اقتصرت فى هذا الكتاب على ترجمة القسم الأول من هذا الفصل ، وقد ألغيت القسم الأكبر من هذه المحاضرات بعد أكثر من عامين فى الجمعية المصرية ، ثم نشرت بعضها فى احدى الصحف الأدبية فلقيت من الاستحسان والرضا ماشجعنى على طبعها .

ولم يعتنى ان أورد فى حواشى الكتاب كثيرا من التعليقات الضرورية التى اضطرنى ضيق الزمن إلى الاكتفاء بالاشارة اليها دون ذكرها وقت القاء المحاضرات .

وقد تعمدت ذكر أمثلة وتحديد شعلت مكانا من الكتاب ماكانت لتشغله لو أنى كتبتها حديثا سعيا الى الاستشهاد بها أو لو أنى وثقت أن جمهور الأدباء قد سمعها يرويها .

(و بعد) فهذه طفرات سريعة ألقيت بها الى نابغ الأدب الاندلسى وسأتبعها بعد قليل بالقسم الثانى منها فليقرأها القارئ على انها مقدمة لدراسة الأدب فى ذلك العصر ، ولتعدها مواد لكتاب نتناول فيه ذلك التاريخ شيئا من التوسع والاسهاب اذ أمكننا الفرص ، وكان فى الأجل بقية .

(١) قال الأستاذ نيكلسون :

« إن قائمة العلماء الذين رحلوا فى طلب العلم الى افريقيا ومصر والى المدن المقدسة فى بلاد العرب والى حواضر سوريا العظيمة والعراق ، والى خراسان وتركستان والى بلاد السند بين أميناها - كانت تحوى كل نابهى الأدباء ورجال اللباقة العربية الذين أنجبهم اسبانيا لا لامعة كما يرى ذلك من يمسح القسم الخامس من كتاب المقرى . لهذا كانت حركة تبادل الآراء فى دؤب ونشاط فلم يستأثر أحد من رجال الشرق والعرب بشيء خاص ، وعرف الناس قبل كل شيء أن مشاهير شعراء الاندلس كان هانيء وابن زيدون كان يعتمها النقاد الشرقيون المحبون لهواء عربى العرب وخلقه . »

ورأيت أن واجب الأمانة يقضى علىّ أن أدرس ابن زيدون كما درست المحترى ليتسنى لى أن أنصفه .

وما كدت أبدأ فى درس ابن زيدون ، شعره ونثره، وأتقصى أخباره وأخبار عصره، حتى رأيت ما راعنى وأدهشنى ما رأيت، لقد كنت أستكثر عليه اسم شاعر عادى فصرت أستقل له الآن اسم شاعر كبير وكنت أكرهه لكلفه بالصنعة التى بغضت إلينا أكثر شعراء ذلك العصر وأفسدت علينا أكثر الأدب العربى ، فاذا بى أحب هذا اللون الرائع من الصنعة المحببة التى تمتزج بالنفس وتهيمن على القلب وتحبب فيها أشد الناس بغضا لها، وقد عرف ابن زيدون كيف يتخذ من الصناعة والبديع أدوات للإفتنان فى الأداء والتعبير والابداع فى تصوير أروع المعانى الساحرة وأدق الخوالج النفسية ، وإذا بها نفس تطرب إلى الجمال وتفتن فى التعبير عنه ، وطبيعة سمحة صناع لا التواء فيها ولا تكلف ، وقد صدق القائل : « كل طعام يتناوله الصحيح ينقلب إلى صحة ، وكل طعام يتناوله المريض ينقلب إلى مرض » وهكذا كرهنا المقلدون فى الصنعة والبديع ، كما حبب إلينا المبدعون كثيرا من ألوان الصنعة والبديع .

الحق أن ابن زيدون ساحر بيانى حلاب يتخذ من الصنعة وسيلة للروعة والدقة وحسن الأداء ، كما يتخذ المصور الماهر ـ من مختلف الألوان والأصباغ ـ وسيلة للتعبير عن أدق وأخفى الأسارير واللمحات .

ولا أكتم القارئ أنى من ألد أعداء الصنعة اللفظية ، ولكننى من أشد أنصارها إذا جاءت عن هذه الطريق .

ولقد أراد بعض الكتاب أن يعيب على ابن زيدون وأباتول فرانس أنهما من رجال الأساليب، ونسوا أن الأسلوب العالى هو غاية تتخلع دونها الرقاب، وأن طول المرانة والدرس تخلق من صاحبها الكاتب الحاذق والشاعر اللسن ولكنها أعجز من أن تخلق الكاتب الموهوب والشاعر العبقرى أو تلهمهما الأسلوب العالى الذى يحاول بعض الأدباء أن يزرى به ويحقره .

٥ تنفيذ الفكرة

ولم أكد أبدأ فى قراءة ديوانه ونسخه حتى أكبرت الرجل وفتنت بشعره وسحرت ببيانه الرائع و إن قطع على إعجابى وفتنى ما اعتوره من التحريف والتشويه ـ وهما من جنايات النساخ على الأدب العربى ـ ولكنى اعتزمت المضى فى هذه الطريق الوعرة وصممت على اجتياز هذه المفازة التى لا أعلام فيها ولا صوى (١) نسترشد بها فى السير ، ثم شغلتنى أعمالى الكثيرة عن المضى فيها لما تتطلبه من عناء لا تحتمله صحتى المنهوكة ، وفراغ من الزمن يضيق عنه وقتى المزدحم بالفروض والواجبات .

---

(١) الصوى : علامات الطريق التى يطلق عليها اسم « Milestones »

ولم يكن من اليسير عليّ أن أظفر بأديب تدفعه الغيرة على الأدب العربي الى التضحية بصحته ووقته فى عمل مضن شاق لايفهم منه القارئ العادى إلا أنه هين سهل لايتجاوز شرح ديوان شاعر وضبطه .

ولكن صديقى الأديب العالم الفاضل الشيخ عبد الرحمن خليفة تقدم الىّ مظهرا لى استعداده لمعاونتى فى هذا العمل والسير معى فى هذه المفازة .

ولصديقى الفاضل ولع شديد بدرس الأدب العربى،وغيرة نادرة على اللغة العربية. وحرص بالغ على كنوز البيان العربى ، وصبر لايشركه فيه الا القليل من الأدباء المخلصين ، وعزيمة لاتعرف للتردد والنكوص معنى ، وهذه هى الصفات التى كنت ولازال أبشدها فيمن يتصدى لمثل هذه الأعمال المضنية .

وكان صديقى عند حسن ظنى به ، فقد كان يقضى معى الساعات الطوال دائبا لا يكلّ ولا ينى ولا يفتر عزمه الا ريثما يتجدد ، ويعود إلى أقوى مما كان عليه نشاطا وهمة ، وهكذا مضينا معتزمين فى شرح الديوان وضبطه وإصلاح تحريفه حتى أظهرناه للقارئ فى هذا المظهر الأنيق .

٦ — رسائل ابن زيدون وأخباره

ولما كان التحريف قد لحق نثر ابن زيدون كما لحق أشعاره وان خففت عناية الأدباء وتعاونهم وشروحهم عناء التحريف فى الرسالتين الجدية والهزلية فقد رأينا أن نثبت كل ماوقع لنا من نثر ابن زيدون وشعره وأخباره كما أثبتنا ماوصل الينا من شعر « المعتمد » و « المعتضد » و « ابن جهور » و بعض المعاصرين لابن زيدون كابن عمار وغيره ، وأتبعناهم بدراسات الأدباء المعاصرين تتمة للبحث .

وقد اتسع النطاق حتى ضاقت صفحات هذا الديوان — على كثرتها فاضطررت إلى فصل سفرين عنه واخراجهما مستقلين ليعاونا القارئ على درس هذه الفكرة من كل وجوهها. وسأفرد — ان شاء الله — كتابا يظهر بعد انتهاء طبع هذا الديوان الحافل . بعنوان « ابن زيدون — أدبه وعصره » وكتابا آخر بعنوان « ملوك الطوائف » ، يتناول ماسهاب الكلام فى عصر ابن زيدون الذى عاش فيه ، حتى لاينطبق علينا قول المتنبى :

« ولم أر فى عيوب الناس عيبا كنقص القادرين على التمام »

فاذا انتهيت من ذلك بدأت فى إظهار ديوان « ابن حديس » فى الحلقة الثانية من سلسلة شعراء الأندلس ، إن ساعفت الظروف وكان فى الأجل بقية .

كامل كيلانى

الإمامة

١ — ملوك الطوائف [١]

ابن جهور — بنو عباد

منذ سنين عديدة تقلص ظل السلطة العامة عن الولايات الاسلامية ، وأصبح أمرها بيدها ، ولم يكن تفكك السلطة أمرا مرغوبا فيه عندأهل تلك الولايات عامة ، فقد ذهب بهم التفكير إلى أبعد مداه جزعا من المستقبل وأسفا على الماضى . ولم يستفد من هذا الانحلال فى البلاد إلا ملوك الافرنج وحدهم . وكان من نتائج هذا الانحلال أن اقتسم قوّاد البربر جنوب الجزيرة فيما بينهم ، وحكم الصقالبة الشرق ، وصار ماتبقى بعد ذلك نهبا مقسما بين الطارئين المتوثبين على الحكم ، وآخرين من بقايا الأسر العريقة ممن سنحت لهم الفرصة وساعدتهم على الثبات أمام ضربات « عبد الرحمن الثالث والمنصور » التى كانت مصوبة إلى الأرستوقراطية ، وانتهى الأمر بأن تكوّن من المدينتين الكبيرتين : قرطبة ، واشبيلية . حكومتان شوريتان ، أما قرطبة فقد حدث بعد إلغاء الخلافة أن اجتمع كبار أهلها وعمدوا الى إسناد السلطة التنفيذية إلى «ابن جهور »الذى عرف عند الجميع بالجدارة والاستحقاق لتقلد هذا المنصب والاضطلاع بالحكم فرفض-بادئ ذى بدء- هذا المركز السامى الذى عرض عليه ، و بعد إلحاح من جماعة المنتخبين له ، رضى بقبول هذا المنصب ، ولكن على شريطة أن يكون عضوان من أسرته زميلين له فى مجلس الشورى،وهما : محمود بن عباس ، وعبد العزيز بن حسن ، فأجابه الجماعة إلى ماطلب ، ولكن على شرط أن يكون لهذين الاثنين صوت استشارى .

وقد حكم السفير الأوّل الحكومة الشورية الجديدة بطريقة عادلة رشيدة ، و إليه يرجع الفضل فى أن أهل قرطبة لم يعودوا يشكون شيئا من المظالم التى كانت تقع عليهم من قسوة البربر . فكان أوّل ما وجه إليه نظره أن صرفهم عن الخدمة ، واحتفظ بنى

---

(١) ارجع إلى ما نشرناه فى آخر الديوان للأستاذ « نيكلسون » « ص ٤٢٧ » أما هذا الفصل فهو للعلامة دوزى وقد نقلناه من كتاب « ملوك الطوائف » الذى نظهره قريباً إن شاء الله .

ايفورين» « Beni - Iforen » وحدهم ، وهم الذين يستطيع أن يعتمد على ولائهم وطاعتهم، واستبدل بالآخرين الذين سرحهم من البربر حرسا وطنيا . وكان يظهر بمظهر من يريد استقرار نظام الحكم الجمهوري ، فكان إذا طلب إليه تنفيذ أمر يقول : « ليس من شأني أن أقرر أمرا هو من اختصاص مجلس الشورى ، وما أنا إلا منفذ لأوامره وقراراته . »

وكلما وردت عليه قصة أو كتاب رسمي يكون موجها إلى شخصه أبى تسلمه وأمر بتوجيهه إلى مجلس الوزراء. ولم يكن ليصدر قرارا قبل عرضه على مجلس الشورى ، أضف إلى هذا أنه لم يكن يتظاهر البتة بمظهر الحاكم ، فهو ـ بدلا من أن يقيم بقصر الخلافة ـ بقي مقيما بمسكنه المتواضع الذي اعتاد سكناه دائما. وكانت العقيدة في نزاهته ثابتة قوية لا تحوم حولها الشكوك والريب، وقد رفض ـ مع هذا ـ أن يكون بيت المال في داره وتحت إمرته ، فعهد بحراسته الى أكبر الناس مقاما وأكثرهم احتراما في المدينة . ومع حبه ـ في الحقيقة ـ للمال، قضت عليه المصلحة ألا يرتكب عملا غير شريف، ولما كان مقتصدا بل وحريصا حرصا يكاد يصل به إلى درجة البخل فقد أثرى حتى صار أغنى رجل في قرطبة ، ولكنه في الوقت نفسه بذل من الجهد المحمود ما وفر به اليسر والرخاء على الناس كافة .

وكان يبذل ما في وسعه لتحسين العلاقات الودية بينه و بين الممالك المجاورة ، وقد كتب له النجاح في ذلك . فلم يمض وقت طويل حتى توطد الأمن ، وأمنت السبل ، وانتشرت التجارة والصناعة وهبطت أسعار المواد الغذائية . وأمّ قرطبة طوائف كثيرة من السكان أعادوا بناء الأحياء التي دمرها البربر أو أحرقوها حينما أوقعوا النهب والسلب في المدينة .

وعلى الرغم من هذه الأعمال التي قام بها، فان قرطبة ـ عاصمة الخلافة القديمة ـ لم تسترد مكانتها السياسية ، ومنذ ذلك الحين بدأت اشبيلية ـ التي سنعنى بتاريخها عناية خاصة ـ تحرز الشأن الأوّل في المركز السياسي .

كانت اشبيلية ـ منذ أمد بعيد لا تزال ـ مرتبطة الحظ بقرطبة متأثرة بما يجري من الحوادث فيها ، متأسية بالعاصمة خاضعة لملوك الدولة الأموية على التعاقب ثم لدولة بني حمود ، ومن جراء ذلك كان للثورة التي وقعت في قرطبة أثرها السيء في اشبيلية ، فقد ثار القرطبيون على قاسم بن حمود وطردوه، فعوّل هذا الأمير على الالتجاء الى اشبيلية حيث يقيم بها ولداه ، ومعهما حامية من البربر تحت قيادة محمد بن زيري من قبيلة بني ايفورين .

وأرسل إلى الاشبيليين يأمرهم باخلاء مانة مسكن لجنوده القادمين معه . وقد ترك هذا الأمر أثرا سيئا في نفوس أهل إشبيلية هذا إلى ما عرف عن جنود قاسم الذين هم أقفر أبناء جنسهم من أنهم من كبار اللصوص . وقد أظهرت قرطبة للاشبيليين أن من الممكن أن يتحرروا من هذا النير الذي يضجون بالشكوى منه. فعوّلوا على أن يحدوا حذو قرطبة، إلا أن خوفهم من حامية البربر المقيمة بين ظهرانيهم حال بينهم و بين تحقيق أمانيهم ، و بعد

جهد نجح قاضي المدينة «أبو القاسم بن عباد» في كسب قائد الحامية وضمه إلى جانبه بعد أن صرح له بأنه من الهين السهل أن يصبح ملكا على اشبيلية ، فأعلن حينئذ محمد بن زيرى استعداده لمساعدته، وسارع القاضي فعقد بينه و بين قائد بربر «قرمونة» محالفة تقلدوا السلاح ـ على أثرها ـ ضد ولدى قاسم وحاصروا قصره .

ووصل قاسم إلى أبواب اشبيلية التي كانت مغلقة ، وحاول أن يجتذب سكان المدينة إليه بالوعود الخلابة ، ولكنه أخفق في هذه المحاولة ، ولما أوجس خيفة من نفسه على ولديه اللذين كانا معرضين للهلاك داخل المدينة ، قطع على نفسه عهدا أن يجلي ـ هو ومن معه من الجند ـ عن أراضي اشبيلية، اذا ما أسلموا اليه ولديه وأموالهما وممتلكاتهما، فضمن له الاشبيليون تنفيذ هذا الشرط ، وعلى أثر ذلك انسحب قاسم وعاد أدراجه، وثم سنحت للقاضي أول فرصة ليرضي حامية البربر.

ولما حصلت المدينة على حريتها اجتمع كبارها ليختاروا حاكما يولونه عليهم ، إلا أن الخواطر في هذه الحال لم تكن هادئة والنفوس لم تكن مطمئنة خشية أن تتمخض الحوادث عن ثورة ، أو أن يعيد بنو حمود الكرة عليهم ، وحينئذ لا يتوانون لحظة عن معاقبة المجرمين الثائرين ، ولهذا لم تبد من أحد منهم أية رغبة قط في أن يأخذ على عاتقه تحمل عبء المسؤولية عما وقع .

واتفق عامتهم على أن يلقوا عبء المسؤولية على عاتق القاضي وحده الذي حسدوا ثروته واستشعروا سرورا خفيا في أعماق نفوسهم بدنو الساعة التي تصادر فيها هذه الثروة الطائلة .

فعرضوا على القاضي أن يتولى حكم المملكة، وكان ـ مع ما يجيش بصدره من مطامع وآمال ـ حكيما حازما ، فرفض في إباء أن يتولى الحكم في وقت غير مناسب . ولم يكن القاضي متصل النسب بالسلالات العريقة، إلا أنه امتاز بحيازته أكبر ثروة ، فقد كان يملك ثلث أرض اشبيلية ، وفوق ذلك فقد كانت له منزلة سامية من الاعتبار نظرا لمواهبه العلمية ، وكان يعوزه أن يضم الى هذه المؤهلات أن تتدرج أسرته ضمن السلالات العريقة القديمة . وقد تم له ذلك ـ فيما بعد ـ تدريجا ، وكان يدرك أنه في حاجة ماسة إلى وجود عدد من الجند تحت إمرته ، وليس لهذا العدد وجود، ولم يشك في أن الارستقراطية العظيمة المجيدة في اشبيلية لابد أن تثور على صعلوك مثله غير معروف النسب ، يسمو مكانه إلى تسنم ذروة الخلافة ، ولم يكن ثمة شيء غير هذا في الواقع ، وقد وقع هذا حقيقة عندما أوشك بنو عباد أن يؤسسوا الخلافة لأنفسهم .

وثمة زعم آل عباد أنهم من سلالة ملوك « لخم » الذين كانوا يحكمون الحيرة قديما قبل ظهور محمد (صلى الله عليه وسلم) وكان الشعراء الذين يريدون إشباع بطونهم يتحينون الفرص للاشادة بهذا النسب العريق المزعوم ، على أنه لم يوجد ما يبرر هذا الزعم، لأن بني عباد والمتزلفين إليهم ومن يتملقونهم لم يستطيعوا أن يقيموا الدليل على ذلك، وكل ما يربط هذه الأسرة بملوك الحيرة أنها تنتسب الى قبيلة لخم اليمنية التي ينتسب إليها ملوك الحيرة . ولكن فرع أسرة آل عباد الذي

تسلسل منه آباؤهم لم يقطن على مايظهر الحيرة بتاتا ، ولكنهم كانوا يقيمون أخيرا بالعريش الواقعة على حدود مصر وسوريا فى قسم إيميز « Emese » .

وعلى الرغم من أن آل عباد بذلوا مافى استطاعتهم كى يصلوا نسبهم بملوك الحيرة فانهم لم يستطيعوا أن يصعدوا به إلى أبعد من نعيم والد عطاف ، وكان عطاف هذا على رأس كتيبة من جنود ايميز وقد رحل الى أسبانيا مع بلج حيث أعطيت لجنود إيميز أراض على مقربة من اشبيلية وأقام على ضفاف الوادى الكبير ، وقد انحدر عن أصل هذه الأسرة فروع فيما يقرب من سبعة أجيال أخرجت بطء من ظلمة الماضى أناسا صالحين عاملين مقتصدين ، واسماعيل والد القاضى هو عنوان مجدها وهو الذى خط بيمينه فى الصحيفة الذهبية لنبلاء اشبيلية اسم عباد [1] . ولا غرو فقد كان اسماعيل من حملة الأقلام والسيوف ، وكان رجل فقه ودين كما كان رجل حرب وطعان ، فقد تولى قيادة فرقة فى حرس هشام الثانى ، ثم صار فيما بعد إماما لمجلس قرطبة الكبير ، ثم قاضيا لاشبيلية ، واشتهر بالفقه والذكاء والورع و إرشاد العامة ، و إسداء النصح للكافة ، وكانت شهرته فى النزاهة تربو على شهرته فى غير ذلك من الأمور ، فهو على الرغم من انتشار الفساد والرشوة كان يتورع عن أن يقبل هبة من سلطان أو وزير ، وكان كريما الى أبعد غايات الكرم ، وقد لقى القرطبيون منه كرم الضيافة ، وحسن العشرة ، فجعلته كل هذه المزايا والصفات حريا أن يحرز أكبر ألقاب النبل والسؤدد فى العرب .

وقبيل العهد الذى نحن بصدده توفى الى رحمة الله فى غضون سنة ١٠١٩ .

وربما كان ابنه أبو القاسم محمد يماثله علما وأدبا و إن كان لايدانيه خلقا وفضلا ، فقد كان أنانيا ذا أثرة وطمع وصلف وتكبر و إنكار للجميل ، وقد حدث على أثر وفاة أبيه أن طمع فى أن يخلفه فى منصب القضاء ، ولكن القوم آثروا عليه غيره ، فتقدم بالرجاء الى قاسم بن حمود فنال بفضل قاسم منصب القضاء الذى كان يؤمله ، وقد يرى المتتبع للحوادث فيما بعد كيف كان نكرانه لهذا الجميل .

وفى مفتتح هذا العهد الذى نحن بصدده أشار نبلاء أشبيلية وأصحاب الرأى فيها على أبى القاسم قاضى اشبيلية أن يتبوأ عرش المملكة ، ولما أدرك الغاية التى يرمون اليها أظهر لهم أنه لايستطيع أن يقبل هذا الشرف الذى يولونه إياه إلا بشرط أن يشرك معه فى الحكم أفرادا يعينهم هو بنفسه على أن يكونوا وزراءه وأعوانه فى الاضطلاع بأعباء الحكم بحجة أن هؤلاء الاشخاص الذين يشركهم معه فى الرأى ستتألف منهم هيئة شورية تقوم على تدبير المملكة بحيث لايصدر إلا عن رأيهم ، ولا يتخذ أى قرار بدون مشاورتهم ، فقبل الاشبيليون ماشترطه القاضى من أن يكون حكمه على قواعد الشورى فلا يحكم بمفرده ، وطلبوا إليه إنفاذ ما التزمه من تعيين أولئك الزملاء والأعوان ، فعين بعض كرام الأسر العريقة مثل ابن حجاج وآخرين كانت تسمو إليهم الأنظار وترمقهم العيون من نصرائه الذين أنجبهم العصر ،

(١) وكان عباد الجدّ الثالث لإسماعيل .

وأطلعهم كواكب فى سماء المصر ، كأبى بكر الزبيدى العالم النحوى الشهير مؤدب هشام الثانى ، و بعد أن تم له ما أراد من ذلك انصرف همه الى تكوين جيش للملكة ، رفع أعطيات وأرزاق الجند ، فانضوى تحت لوائه كثير من العرب والبربر ، ثم اشترى عددا كبيرا من المماليك ودربهم على القتال وجرّد منهم حملة على الشمال ، وهى فى الكثير الغالب كانت موجهة الى أمراء آخرين ، وقد حاصر قصرين فى شمال فيزى أنشئا متقابلين على صخور يفصلهما سور وأطلق عليهما اسم الأخوين وهما معروفان الآن باسم «ألافوين» وكان يقطنهما اسبانيون مسيحيون كان أسلافهم قد عقدوا معاهدة مع موسى بن نصير ، والظاهر أن هذين القصرين لم يكونا فى العصر الذى نتحدث عنه فى حيازة ملك ليون ولا فى حيازة أمير مسلم ، ولذلك استولى القاضى عليهما وأرغم الذين كانوا يدافعون عنهما — وهم زهاء ثلاثمائة فارس على — الانضواء تحت لوائه ، و بذلك زادت نواة جيشه فبلغت خمسمائة فارس ، وثمة اجتمع لديه من الجند ما يكفى للاغارة على الممالك المتاخمة له ، إلا أن حالته هذه لم تكن لتمكنه من صدّ هجمات قوية جدية ضدّ اشبيلية ، وهذا ما وقع له سنة ١٠٢٧ ، ففى هذه السنة جاء الخليفة الجودى يحيى بن على وأمير بربر قرمونة محمد بن عبد الله وحاصرا اشبيلية ، ولما كان فى منتهى الضعف بحيث لا يستطيع المقاومة طويلا أخذ الاشبيليون يفاوضون يحيى وأعلنوا أنهم مستعدون للاعتراف بسيادته عليهم على شرط ألا يدخل البربر مدينتهم فقبل يحيى هذا الشرط ولكنه شرط عليهم — ضمانا لوفائهم و إخلاصهم — أن يرسل بعض أعيان ونبلاء اشبيلية أولادهم ليكونوا عنده رهائن يضمن بها ولاء الاشبيليين ، فلم يستطع أحد منهم أن يقدّم ابنه خشية من البربر الذين يقضون على حياته لأقل شبهة ، والقاضى وحده هو الذى لم يتردد فى إجابة الطلب إذ أرسل الى يحيى نجله عباد. ولعلم الخليفة بما للقاضى من الجاه والنفوذ اكتفى بقبول ابنه رهينة لديه ، و بفضل هذا العمل المجيد الدال على الاخلاص للبلاد ازدادت مكانة القاضى عند الاشبيليين عامة ، وأصبح — منذ ذلك الحين — لا يخشى شيئا لا من جانب الشعب ، ولا من جانب الخليفة الذى اعترف بسيادته شكلا وخيل إليه أن الفرصة السانحة قد أمكنته من الانفراد بالحكم .

ولما كان قد أبعد من مجلس الحكم مثل ابن حجاج وغيره ولم يبق معه سوى زميلين ثم رأى أن يصرفهما عن خدمته ، ونفى زبيدى ، وعين رجلا من خواص أشبيلية اسمه « حبيب » رئيسا للوزارة ، ولم يكن حبيب هذا من رجال المبادئ إلا أنه مع هذا كان ذكيا مخلصا بكل معانى كلمة الاخلاص لمولاه ، منصرفا الى مصلحته .

وعلى أثر ذلك أراد القاضى أن يزيد فى رقعة المملكة بالاستيلاء على باجة ، وقد حلت أخيرا بهذه المدينة المصائب فى غضون القرن التاسع عشر من جراء الحرب التى نشبت بين العرب والحائنين . إذ نهبت وخرب البربر جزءا منها ، وعاثوا فيها سلبا ، وأحرقوا ماصادفوه فى طريقهم ، وكان فى نية القاضى إعادة تشييد ماخرب منها ، ولكن لما اتصل بعبد الله بن الأفطس أمير « باداجوز » عزم القاضى ، جرد جيوشه تحت إمرة ابنه محمد « الذى خلفه فيما بعد باسم المظفر » وتمّ استيلاء هذه الجيوش على باجه فى الوقت الذى جاء فيه اسماعيل بن القاضى بجيش اشبيلية وجيش حليف أبيه أمير قرمونه ، فبدأ حصارها فى الحال وأمر فرسانه بالسلب والنهب فى القرى الواقعة بين ايفورا والبحر ، وعلى الرغم من المدد الذى جاء من ابن طيفور ، فان محمدا كان سيىء الحظ كثيرا إذ بعد أن فقد نخبة فرسانه المحاربين وقع أسيرا بين يدى أعدائه وأرسل الى قرمونه .

زادت هذه الانتصارات فى حماسة القاضى وحليفه الأمير ، فلم يكتفيا بالاغارة على باداجوز وحدها بل أغارا على قرطبة أيضا فاضطرت حكومتها أن تستخدم للدفاع كثيرا من بربر ولاية سيدونا .

وبعد فترة من الزمن أبرم القاضى وحليفه صلحا أو سمه — إن شئت — هدنة مع الافتازيد وحينئذ أطلق محمد من الأسر برضا القاضى (مارس سنة ١٠٣٠) ولما أبلغه أمير قرمونه نبأ اطلاق سراحه عرض عليه أن يعرج فى طريقه على اشبيلية ، ويبلغ القاضى شكره ، ولكن محمدا لفرط اشمئزازه من القاضى ، قال لأمير البربر : « إنى أوثر أن أظل سجينك على أن أقوم بما أشرت به علىّ ، فاذا كنت مدينا لغيرك باطلاق سراحى ، وكان على أن أشكر قاضى اشبيلية وفاء لهذا الحق ، فانى أفضل أن أبقى حيث أنا سجين » فاحترم الأمير شعوره وأرسله الى باداجوز مشيعا بما يليق برجل عظيم مثله من واجب الاجلال والتكريم .

وبعد بضع سنين أى فى سنة ١٠٣٤ انتقم عبد الله بطريقة قد تعتبر غير شريفة وثأر لنفسه من تلك الشدائد التى نالته ، وذلك بأن أباح للقاضى أن تمرّ بأرضه جنوده بقيادة ابنه اسماعيل وهى ذاهبة فى طريقها للاغارة على مملكة ليون ، ولما كان اسماعيل وجنوده فى مضيق لايبعد كثيرا عن الحدود الليونية باغته جيش الافتازيد فقتل من جنود اشبيلية مقتلة عظيمة ، وقتل فرسان ليون فلول الجيش عند لياذهم بالفرار ، وأفلت اسماعيل من هذه المذبحة ومعه نفر يسير من رجاله ، وفيما كان موليا وجهه شطر مدينة لشبونه الواقعة على حدود مملكة أبيه من الجهة الشمالية الغربية تحمل هو ومن معه أشدّ آلام الحرمان من حاجات المعيشة الضرورية .

ومنذ هذه الآونة صار القاضى الخصم الألدّ لأمير « باداجوز » وليس لدينا معلومات تفصيلية عن

المعارك التى دارت بعدذلك بين أمير «باداجوز» وخصمه، ومما لاريب فيه أن هذه الحروب لم يكن لها نتائج ذات شأن عظيم لأسبانيا المسلمة ولم تترك فيها أثرا يضارع ماتركه فيها حادث آخر سنتناوله فيما يلى.

قلنا ان القاضى اعترف بسيادة الخليفة الحودى يحيى بن على ولكن هذا الاعتراف عبارة عن تعهد غير مجد وقد بقى كذلك مدّة طويلة فقد قام القاضى بحكم أشبيلية بلا سلطان عليه ولا رقابة وكان يحيى من الضعف بحيث لا يستطيع أن يلزمه بالمحافظة على حقوقه وقد تبدّلت هذه الحال تدريجا اذ وفق يحيى لأن يضم حوله جميع أمراء البربر تقريبا ، فأصبح من الآن بحق زعيم عامة الحزب الافريقى بعد أن كانت هذه الزعامة فيمامضى اسمية ، ولما كان معسكره العام فى قرمونة التى طرد منها محمد بن عبد الله فقد أصبحت جيوشه تهدّد قرطبة وأشبيلية فى آن واحد ، وقد أوحى هذا الخطر المخيف المحدق الى القاضى بفكرة وطنية لها خطرها وقيمتها لو لم يشبها الحرص والطمع والأنانية والجشع.

فقد رأى من الضرورى أن يجتمع العرب والصقالبة تحت راية حاكم واحد حتى لا يعزو البربر الذين اتحدوا الاملاك التى سبق لهم غزوها .

وهذه هى الوسيلة التى تجعل البلاد بمنجاة من حلول مثل ماحلّ بها من المصائب من قبل ، وكان القاضى يشعر من أعماق نفسه بهذه الضرورة ، فقويت عنده الرغبة فى أن يتألف حزب قوىّ كبير يندمج فيه جميع العناصر المعادية للحزب الافريقى ، وهوفى الوقت ذاته يتمنى أن يكون رئيسه ، ولم تكن العقبات التى عليه أن يذللها لنيل تلك الغاية بخافية عليه . فقد كان يدرك أن ملوك الصقالبة وأمراء العرب ، وشيوخ قرطبة يجرحون فى كرامتهم اذا ماحاول أن يبسط سلطانه عليهم ، على أن شيئا من ذلك لم يثبط همته ولم يجعل اليأس يتسرّب الى نفسه .

ولما كانت المصادفات ستخدمه ، فهوسيتمكن الى حدّ ما من الوصول الى الغاية التى يرمى اليها ، والمشروع الذى يعمل على تحقيقه ، وسنرى فيما بعد على أى نحو يتم له ذلك .

أسلفنا أن الخليفة التعس «هشام الثانى» فر من القصر فى عهد سليمان الثانى . وقلنا ان أكثر الظواهر تدلّ على أنه مات فى آسيا مجهولا غير معروف . ومع هذا فقد بقى الشعب غير مصدّق بوفاته لتعلقه المفرط بالدولة الأموية التى درت عليه أخلاف اليسر والرخاء، وكسته حلل الشرف والمجد ، وكان عامّة أفراد الشعب يتلقون الاشاعات التى كانت ترد اليهم من الخارج منبئة ببقائه على قيد الحياة باهتمام وشغف ، وهناك أفراد كانوا يزعمون أنهم واقفون على تفاصيل حياته بآسيا فقد أشاع بعض أولئك الزاعمين أنه رحل أوّلا إلى مكة ومعه خريطة مملوءة بالنقود والنفائس ، فسلبه الزنوج الذين كانوا برفقته مامعه ، وأنه استمر يومين لا يتذوّق طعاما ولاشرابا ، إلى أن رآه رجل يصنع الفخار فرق له ورثى لحاله ، فعرض عليه أن يعجن له الصلصال على أن يعطيه فى اليوم درهما ورغيفا ، فرجا صانع الفخار أن يعطيه الأجر سلفا إذ قد مضى عليه يومان لم

يتناول فيهما طعاما و بعد لأى استطاع هشام على كسل وفترة فى العمل أن يكسب قوت يومه ، إلا أنه أنف من هذه الحالة فهرب ، وسار مع قافلة ذاهبة الى فلسطين ، ووصل الى أورشليم ، وهو فى أشدّ حالات الاملاق ، وهناك بينما هو يتنقل فى بعض طرق المدينة إذ وقف على حانوت حصرى ، وأخذ ينظر الى عمله بانتباه شديد ، فسأله الحصرى : هل تعرف هذه الصناعة ؟ فأجابه بحزن كلا ، وأنا آسف لأنه لا سبيل الى العيش وكسب ما أسدّ به الرّمق ، فقال الحصرى : اذن فابق معى لحاجتى اليك فى احضار الخيزران ، ولك أجرك ، فقبل مسرورا و بقى عند الحصرى الى أن حذق الصناعة ، وما زال على هذه الحال بضع سنين ، وقد أذاعوا بعد ذلك أنه عاد الى أسبانيا فى سنة ١٠٣٣ ونزل مالقه ثم تحوّل عنها الى المريه ، فوصل اليها سنة ١٠٣٥ فاضطر الأمير زهير الى إبعاده خارج حدود مملكته ، فرحل الى كالاترافا وثمة التقى بها عصا التسيار .

هذه الرواية التى صادفت رواجا وقبولا من الشعب لا تستحق ـ على مايظهر ـ أن تنال شيئا من الثقة ، والذى وقع حقيقة هو أنه فى العهد الذى كان فيه يحيى يهدّد إشبيلية وقرطبة ، كان فى كالاترافا رجل حصرى اسمه خلف يشبه تمام الشبه الخليفة هشاما الثانى ، ولكن لم يقم دليل على أنه هو بعينه ، وقد نفى الأمويون شيعة هشام ومعهم ابن حيان وابن حزم المؤرخان ما دار حول هشام المزعوم من الروايات والاراجيف وعدوه ضربا من الحيلة السياسية والخداع والقحة ، وان كان من مصلحتهم لو أمكن الوقوف لهشام على أثر ، ولم يتوقف خلف حين طرق سمعه كثيرا أنه شبيه هشام عن ادّعاء أنه هو نفسه الخليفة هشام الثانى ، وقد جارت هذه الحيلة على أهالى كالانزا ، لان خلفا لم يكن معروف النسب عندهم ، والأغرب من هذا أنهم دخلوا فى طاعته ، وثاروا على أميرهم اسماعيل بن دهمان ـ نون أمير طليلة لجاء هذا وحاصرهم ولم تطل مدّة مقاومتهم ، وأخرج هشاما المزعوم من المدينة فهدأ ثائر الأهالى ، وعادوا الى السكينة والخضوع .

ولم ينته دور خلف عند هذا الحدّ ، بل رجع عودا على بدء حين علم قاضى اشبيلية بخبره وعلم الفائدة التى يجنيها من وراء ذلك الرجل اذا هو أحضره الى إشبيلية ، وكان الذى يهمه إنما هو استغلال الموقف بقطع النظر عن شخصية الرجل ، كما كان يسره كثيرا أن يرتضى الناس أنه هشام ، ليستطيع أن يكون باسمه حزبا ضدّ البربر ويكون هو بعنوان كونه رئيس الوزراء زعيم روح هذا الحزب ، ولهذا بادر الى دعوة الخليفة المزعوم الى إشبيلية ، ووعده بتعضيده اذا نجح فى اثبات شخصيته ، ولما حضر الحصرى الى اشبيلية قدمه القاضى الى نساء هشام بالقصر ، فصرحن جميعهن تقريبا بأنه هو بعينه الخليفة السابق ، وعوّل القاضى على قولهن ، وبعث الى شيوخ اشبيلية وأمراء العرب والصقالبة يعلمهم بأن هشاما الثانى عنده ، ويدعوهم الى حمل السلاح معه دفاعا عن حقوقه ، ومؤازرة لقضية الخلافة وقد كان الله هذا المسعى

بالنجاح ، واعترف بسيادة هشام محمد بن عبد الله أمير قرمونة المخلوع الذى لجأ إلى اشبيلية ، وعبد العزيز أمير بلنسية ، ومجاهد أمير دانية ، وجزر بليار ، وأمير ترتوزا (طرطوشة) .

وعلم عامة الشعب فى قرطبة علما مقرونا بالسرور أنه لايزال على قيد الحياة ، إلا أن كبيرهم أبا الحزم بن جهور كان أقلهم تصديقا للخبر حرصا على الحكم ، فلم ينخدع ، ولم تجدهذه الحيلة الى نفسه مساغا ، ولكنه لم يجد سبيلا إلى مقاومة إرادة الشعب ، ومخالفة ميوله ، ورأى ضرورة اتحاد العرب والصقالبة تحت راية حاكم واحد ، لأنه كان يخشى فى ذلك الحين أن يهاجم البربر قرطبة ، فلهذه الأسباب لم يناقض أغراض مواطنيه ، وسمحت نفسه بأن تتجدد البيعة لهشام الثانى من جديد .

وكان من نتيجة هذه الحوادث أنه بينما كان الحزب العربى الصقابى يتسلح ضدّ يحيى ، كان هذا محاصرا إشبيلية ، مجدّا فى تخريب ما يتصل بها من العمران ، موطنا النفس على الانتقام الهائل من القاضى الخائن ، ولكن الملتفين حوله ـ من بربر قرمونة الذين أكرههم على الانضواء تحت رايته ـ كان هواهم مع هشام الثانى خليفتهم السابق ، وكانت المخابرة بينهم و بينه سائرة ، وفى اكتوبر سنة ١٠٣٥ ذهب فريق منهم خفية الى إشبيلية ، وأبلغوا القاضى ومحمد بن عبدالله أنه من السهل مباغتة يحيى لأنه لا يكاد يفيق من السكر ، ولم يدع القاضى وحليفه هذه الفرصة تمر دون أن يستفيدا منها ، وهنا وجه القاضى ابنه اسماعيل ومعه محمد بن عبد الله على رأس الجيش الاشبيلى ، وعند ما أرخى الليل سدوله كمن اسماعيل مع أكثر الجند فى كمين ، وأرسل كوكبة لمناوشة قرمونة ليغرى يحيى بالخروج الى ظاهرها وقد نجح فى خطته هذه ، اذ كان يحيى حين بلغه مجىء ابن عباد على رأس جيش ثملا ، فنهض وكان متكئا على سريره وصاح قائلا : « يالها من فرصة سعيدة ، هذا ابن عباد مقبل لزيارتى ، والآن أيها الجند ، خذوا أسلحتكم وامتطوا جيادكم قبل ضياع الوقت ، وخرج فى ثلاثة آلاف فارس ، وكان النبيذ قد لعب برأسه فلم يتمهل ريثما يعبىء جنده و ينظم خططه ، يضاف الى ذلك أن ظلام الليل الحالك كان يحجب عنه كل شىء ، وفوجىء الاشبيليون منه بهذا الهجوم المباغت فقابلوه من جانبهم بجلد وعنف ، وأخذوا يتقهقرون بنظام نحو المكان الذى كمن فيه إسماعيل ، ومن هذه اللحظة سعى يحيى الى حتفه بنفسه ، فان إسماعيل انقض عليه بكل قوّات الجند ، واضطره الى التقهقر ، وقتل يحيى نفسه فى المعركة ، وكاد يأتى القتل على أكثر رجاله لو لم يحل محمد بن عبدالله دون ذلك ، وقاله : « إن أغلب هؤلاء المساكين من بربر قرمونة الذين أكرههم هذا الطاغية على الدخول فى خدمته مع كراهتهم واحتقارهم له . » فأبقى عليهم وأمر جنده بترك تعقبهم وخف محمد ابن عبد الله إلى قرمونة على ظهر جواده ليسترد ملكه ، وأراد زنوج يحيى الذين استولوا على أبواب المدينة أن يحولوا بينه و بين الدخول لو لا أن ساعده الأهالى على دخولها من ثغرة ، وسار الى قصر الامارة وسلم نساء الأمير يحيى الى بنيه ، واستولى على ما فى القصر من كنوز ونفائس « نوفمبر سنة ١٠٣٥ »

وقد أحدث نبأ وفاة يحيى سرورا عظيما فى اشبيلية وقرطبة ، وعند ما وصل الخبر الى مسامع القاضى خرّ ساجدا شكرا لله ، وحذا حذوه جميع من كانوا حوله والآن أصبح القاضى لايخشى شيئا من جانب الجوديين، وقد نودى بادريس أحد أشقاء يحيى خليفة فى مالقه ، وقد كان يعوزه الوقت الكافى الذى يستطيع فيه أن يكسب بقوّة نفوذه ، وما يقدّمه من وعود ، قلوب زعماء البربر ، ليجعلهم فى صفه ، ولهذا لم يعد فى استطاعته أن يخضع الجزيرة بعد أن نادى الزنوج فيها بابن عمه محمد ، خليفة .

ولما رأى القاضى أن الظروف خدمته، همّ بأن يقيم هو وهشام الثانى المزعوم بقصر الخلافة فى قرطبة ، إلا أن يقظة ابن جهور ، وتصميمه على عدم التخلى عن الحكم ، وقفا حجر عثرة فى طريقه ، فقد نجح فى اقناع أهل قرطبة أن الخليفة المزعوم لم يكن سوى رجل ماكر مخادع وأن اسم هشام قد ألغى من الامامة ، وعرف أن القاضى عند مجيئه بهشام الى قرطبة سيلقى أبوابها معلقة فى وجهه ، وثمة لا يستطيع التغلب على مدينة منيعة حصينة مثلها ، فيضطر أن يعود من حيث أتى .

وعوّل فى بداية الأمر على أن تعسكر جيوشه عند الأمير الصقلبى ، وهو الامير الوحيد الذى أبى الاعتراف بهشام الثانى ، ذلك الأمير هو زهير أمير المرية ، وعند أراد الخليفة فاسم أن يهوّن على الأمير ، واقطعه عدّة أملاك بدأ زهير يناصر الجوديين ، ولما نودى بادريس خليفة بادر بالاعتراف به ، ولما صار الآن مهدّدا من القاضى عقد محالفة مع حيوس الغرناطى ، ثم زحف جيش إشبيلية ، وذهب لمقابلته بجنوده وجنود حليفه إذ اضطره إلى التقهقر .

ومن المحقق أن القاضى قد بالغ فى الاعتداد بقوّته ، ولم يحسب حساب أعدائه ، وكان عليه أن يخشى مجىء الوقت الذى تغزو فيه جيوش المرية وغرناطة بدورها إشبيلية .

وكثيرا ما خدمته محاسن الصدف التى شاءت أن يخلصه أحد أعدائه من عدوه الآخر .

٢ ـ المناهج الأدبية [١]

كل ما يكتب فى هـذا العصر إنما هو محاولات أوّلية ترمى الى المثـل الأعلى الذى ننشده جميعا ، ولايزال الأدب العربى وتاريخ الأدب العربى فى أشد الحاجة الى جهود الأدباء المتواصلة لتنظيمه وتمحيصه و إصلاح تحريفه والكشف عن الاغلاط الكثيرة التى ألحقها به النساخ .

ولازال كل جهد يبذل فى ازاحة الستور عن هذه المآجم النفيسة مفتقرا الى جهد آخر يشدّ أزره و يساعده .

قد كنا الى عهد قريب لانكاد نؤمن بأن فى العربية كلها شاعرا واحدا يجارى المشهورين من شعراء الغرب . فلما انصرف الأدباء والعلماء الى الدرس والتمحيص والبحث والتحليل ، اكتشف الشباب نخبة من مادة الفكر العربى الممتازين ، ولا زلنا نطمع فى ازاحة الستور عن بقية اعلام الفكر العربى القدماء .

وقد كان من الطبيعى أن يصحب نهضتنا وهى فى أوّلها ما يصحب كل نهضة أخرى من العلوّ والاسراف فى بعض النواحى ، وفى نهضتنا الأدبية عيب جوهرى نخشى أن يعوق سيرها حينا من الزمن نحن فى أشدّ الحاجة الى الانتفاع به واستعلاله بأقصى مافينا من قوّة . ذلك العيب الجوهرى هو أن أكثر من يكتب فى تاريخ الأدب العربى ينقسم قسمين : فريق من المحافظين الجامدين وفريق من المجدّدين المسرفين .

يأبى الفريق الأوّل الا أن يتقيد بالنصوص القديمة و يأخذ بآراء القدماء فى النقد والادب بالغة مابلغت من الاضطراب والفساد من غير أن يعنى نفسه ببحثها وتمحيصها ولا يكاد يردّد الا عبارات محفوظة و (كليشيهات) قد أبلاها الدهر ولا يكاد يجرؤ على استخلاص نتيجة واحدة من بحوثه الطويلة واطلاعه الواسع ؛ فامرؤ القيس أكبر مزاياه أنه وقف واستوقف ، و بكى واستبكى ، وذكر الحبيب والمنزل فى شطر بيت واحد وذلك فى قوله :

« قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل »

والنابغة الذبيانى قد برز الشعراء بقوله :

« فانك كالليل الذى هو مدركى وان خلت أن المنأى عنك واسع »

الى آخر هـذه العبارات التى حان الوقت لاراحتها بعد أن أنهكها طول الاستعمال وكثرة الاستشهاد والتكرار .

الفريق الثانى من غلاة المجددين أو ـ على الأصح ـ دعاة التجديد ، لايبالون بالنصوص ولايعنون أنفسهم بدرس الموضوع الذى يتصدّون لبحثه ، وربما اكتفى بعضهم بالخلاصات المدرسية التافهة فى الحكم على الشعراء والأدباء والأدب العربى كله .

فالعرب ـ فى رأى أحدهم ـ لم يطرقوا نوعا بعينه من الشعر ، لأنه لم يقرأ هذا النوع فى تلك

---

(١) نشرت فيما يلى فصولا مختارة من رسالتنا عن ابن زيدون ، تيسيرا للقراء .

الخلاصات المدرسية ، وهذا الشاعر لا يسمو الى مرتبة الفحول لأن الأبيات القليلة التى قرأها فى تلك الخلاصات لا تبرر وضعه فى مصاف الممتازين والنوابغ .

وهم لا يرون اذا تصدّوا للكتابة إلا وسيلة واحدة للطرافة والابداع وهى الخيال ، فهم لا يبالون اذا أعوزتهم النصوص أن يخلقوا تاريخ الشاعر خلقا ، وأن يدبجوا حياتهم فى حياته وينحلوه نقائصهم ومايتخيلونه فى نفوسهم من مزايا ، فتراهم يخلقون من الشاعر صورة هى أصدق مرآة نستشف فيها نفوسهم .

فاذا كان أحدهم حليفا تلمس شاعرا مشهورا بالخلاعة ولم يعن نفسه بشرح أسباب خلاعته مقدار عنايته بتبرير الخلاعة والتمدح بها ، واذا كان أحدهم حاقدا تلمس شاعرا مشهورا بالحقد ، ولم يعن بالأسباب التى أحفظته على معاصريه عنايته بتبرير هذه الخلة فيه .

ولست أنكر على الباحث أن يتصدّى لتحليل أية نفس إنسانية ماجنة أو جادة ، راضية أو ساخطة ، ولكنى أنكر عليه أن يخلق التاريخ خلقا ليؤيد رأيا — صالحا كان أو فاسدا — فان أمانة المؤرخ ودقته هما أوّل واجبه نحو الحقيقة والانصاف .

اما أن يصر هوى أو يجرى وراء خيال أو نطق لما — بلا روية ولا أناة — نظريات مغلوطة وآراء فاسدة خاطئة تلقفها بلا روية ولا تدبر ، فذلك أضرّ على الحقيقة من أولئك الجامدين الذين لا يتقدّمون بالأدب خطوة واحدة .

وقد بلغ من تهوّس وشطط بعض دعاة التجديد أنهم أنكروا كلّ خيال عربى — لماذا ؟ لأنهم سمعوا أن أحد المستشرقين قال: « إن العرب ضيقو الخيال و إن سعة الخيال وعمق الفكر وقف على الآريين » .

فابن الرومى مثلا واسع الخيال . لا لأنهم اقتنعوا بسعة خياله ، بل لأن جدّه رومى .

والمعرّى لا خيال له وان كان خياله أوسع من خيال ابن الرومى — لماذا ؟ لأنه عربى قح ، ولكن المعرّى هو صاحب رسالة الغفران التى تعدّ آية من آيات الخيال العربى ، فماذا يقولون فيها ؟

الأمر غاية فى اليسر ، ليس فى رسالة الغفران كلها خيال وانما هى كتاب أنشأه المعرّى فى جغرافية الجنة والنار .

ومن اليوم الى أن يظهر للمعرّى جدّ رومى تبقى رسالة الغفران كتاب جغرافية ، ومتى ظهر له جدّ آرى أصبحت « رسالة الغفران » كتابا من أروع كتب الخيال .

هكذا يحكمون من غير أن يحاسبوا نفوسهم على مايقولون .

وقد حاولنا جهدنا أن نتلمس لابن زيدون جدّا آريا نتقدّم به الى هذه الفئة لنكبر من مواهبه وخياله ، فلم نظفر بذلك .

على أن فى ابن زيدون مزية قد تشفع له عند هؤلاء المفتونين بالغرب ومايمت إلى الغرب .

فقد نشأ ابن زيدون فى بلاد الأندلس : وهى فى صميم أوروبا ، فهو شاعر أوروبى البيئة وقد مدحه كثير من المستشرقين ، ولعلّ هذا يشفع له عند هؤلاء المقلدين .

أما الشباب المنصف الذى لا يعنى إلا بالحقائق ، فانا نتقدم إليه بديوان ابن زيدون ورسائله، وسيرى فيها أمثلة من الابداع والافتنان ، ونماذج من الروعة والاحسان ، وصفحات رائعة من صفاء الديباجة وسحر البيان ـ وكلنا ثقة بأن درس ابن زيدون سيكون أكبر حافز على درس غيره من فحول الأدب العربى والبيان العربى .

وما أجدر الباحثين أن يتوخوا الانصاف فان آفة الرأى الهوى، وأكثر الناقدين لا يفسد عليهم بحوثهم إلا التحيز وتنكب الجادة و إرضاء النزوات الفكرية الطائشة . وفى يقينى أن الناقد كالقاضى يجب أن يتوخى النزاهة التامة ، ويسمو بنفسه عن منازلق الأهواء ، ولا يألو جهدا فى البحث عن الحقيقة ، أما أن ينقلب الناقد محاميا للدفاع أو نائب اتهام ـ كما يفعل أكثر الكتاب ـ فذلك ما لا نرضاه له ، ولعل أكبر عقاب يناله هو فقدانه الثقة بما يكتب .

٣ ـ نشأة ابن زيدون

ولد ابن زيدون فى قرطبة سنة ٣٩٤ هـ فى زمن الدولة العامرية ، فى أول عهد المظفر ابن المنصور بعد سنة واحدة من موت المنصور بن أبى عامر . وهو من أسرة مجيدة من بنى مخزوم [١] ، وهو أحد ثلاثة تسموا بابن زيدون وهم :

١ ـ أبوه : عبد الله بن أحمد بن غالب بن زيدون وكنيته أبو بكر ، وكان فقيها بقرطبة وكان قاضيا وعالما مشهورا وأديبا واسع الثقافة .
وقد مات [٢] سنة ٤٠٥ هـ ، وترك ابنه وسنه حينئذ إحدى عشرة سنة وهكذا أصاب ابن زيدون اليتم وهو صغير .

٢ ـ أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب بن زيدون صاحب هذا الديوان الذى بين يدى القارئ وكنيته أبو الوليد .

٣ ـ ابنه أبو بكر بن زيدون الذى تولى بعد وفاة أبيه وزارة المعتمد بن عباد وقتله يوسف بن تاشفين ، بعد أن استولى على ملك بنى عباد سنة ٤٨٤ هـ .

***

وكان ابن زيدون صاحب هذا الديوان أشهر هؤلاء الثلاثة وقد كرّس حياته للدرس والتحصيل وساعده نبوغه ومواهبه على ذيوع صيته وشهرته وهو لم يتجاوز العشرين من سنيه ، وكان عصره أزهى عصر أدبى فى الأندلس وقد تتلمذ على أساتيذ الأدب فى زمنه وألمّ من كل علم بطرف ، وفرض الشعر وسبغ فيه وهو فى العشرين من عمره ، واشترك فى الفتنة القرطبية ، وقام بنصيب كبير فى تلك الثورة التى اندلعت نيرانها فى قرطبة .

وكان ابن زيدون من زعماء تلك الفتنة التى زلزلت دولة بنى أمية ودولة بنى حمود والعلويين ، وانتهى الأمر بالقضاء عليهم جميعا وقيام ملوك الطوائف على انقاضهم .

وكانت سنه وقت الثورة ثمانيا وعشرين سنة [٣] .

---

(١) بطن من قريش ، وهم عشيرة خالد بن الوليد .

(٢) مات أبوه بمدينة البيرة ، ونقلت جثته الى قرطبة فدفن بها ، ومما وصل الينا من رثاء الشعراء فيه قول بعضهم :

«أى ركن من الرياسة هد ما وجموم من المكارم فيضا
حملوه من بلدة نحو أخرى ليوافوا به ثراه الأريضا
مثل حمل السحاب ماء صبيبا ليداوى به مكانا مريضا»

(٣) بدأت الثورة سنة ٤٢٢ هـ وكانت ولادته فى سنة ٣٩٤ هـ فتكون سنه حينئذ ٢٨ عاما .
وقد ظل ملك بنى أمية فى الاندلس ٦١٢ سنة وثلاثة وأربعين يوما . وقد انقسمت ممالك الأندلس بعد

فقربه اليه ابن جهور [1] وأعلى قدره ثم لم يلبث أن منحه لقب « ذى الوزارتين » .

وكانت بين ابن زيدون وابن عبدوس منافسات كثيرة لاشترا كهما فى حب ولادة ، فأخذ يكيد له ابن عبدوس هو وأصحابه الناقمون على ابن زيدون عند أبى الحزم حتى غيروا عليه قلبه وسجنوه بتهمة التآمر على قلب الملك واعادته الى بنى أمية كما سنفصل ذلك فى رسالة خاصة .

وقد أنشأ ابن زيدون فى سجنه كثيرا من القصائد الرائعة والرسائل البليغة التى يراها القارئ فى ديوانه . وحاول أن يستعطف بها ابن جهور متوسلا اليه تارة بابنه أبى الوليد وتارة بغيره من أصدقائه ، فلم تلق شكواه أذنا صاغية ، على أن السجن لم ينس ابن زيدون حبه ولادة فنظم فيها نخبة من أروع قصائده ، ولما يئس من عفو أبى الحزم ، لجأ الى الفرار من السجن ، ولم ينس ولادة التى كان يهيم بحبها ، ولكنها أغفلته واشتغلت عنه بحب ابن عبدوس [2]

على أن ابن زيدون لم ينسها طول حياته ، وما زال ينظم الأشعار متغزلا بها ، شديد الحنين الى أيام وصالها وظل حبها المعين الثرار الذى لاينضب ، وما زال يلهمه أروع خواطره الثائرة وعواطفه المتأججة ، وكان من أكثر الأسباب فى وصول ابن زيدون الى مرتبة الزعامة بين شعراء الغزل الممتازين .

سقوط الدولة الأموية الى تسع عشرة مملكة منها ، قرطبة ، واشبيليه ، وحيان ، وقرمونة ، والعرب ، والجزيرة الحضراء ومرسية وبلنسية ، ودانية ، وطرطوشة ، ولاردة ، وسرقسطة ، وطليطلة ، وباجة ، ولشونه الخ

قال ابن حزم : كانت طرطوشة وسرقسطة وفراغة ولاردة وقلعة أيوب فى يد بنى هود . وبلنسية فى يد عبد الملك بن عبد العزيز . والثغر الاعلى طليطلة — من جهة الشمال — فى يد بنى رزين . وطليطلة فى يد بنى ذى النون . وقرطبة فى أيدى أشاع جهور . واشبيلية فى يد بنى عباد . ومالقة والجزيرة الخضراء فى يد بنى برزال من البربر . والمرية فى يد زهير العامرى ثم ابن صمادح . ودانية وأعمالها والجزائر الشرقية فى يد مجاهد العامرى . و بطليوس و بيارة وشنترين ولشبونه فى يد بنى الأفطس . وأصبح كل امرئ وما اختار من الألقاب والاسماء ، حتى أن المسمين ، لما جلس على كرسى الخلافة ، قال للناس أجمعين : « ارتعوا كيف شئتم وارتسموا بما أحببتم من الخطط » فتسمى بالوزارة فى أيامه — معردة ومشاة — أراذل الدائرة ، وأحاث الطارة ، فضلا عن زعانف الكتاب والخدمة .

(١) هو أبو الحزم بن جهور الذى استولى على المملكة بعد خلع الجند آخر خلفاء بنى أمية ، ولم يتحول عن داره الى قصر الخلافة ، وجعل الأمر شورى ، وساس الأمور بحزمه وحسن تدبيره ، وكانت مدته فى الحكم أربع عشرة سنة وبضعة أشهر ، ثم خلفه ابنه أبو الوليد محمد بن جهور الذى مات فى شوال سنة ٤٣٣ هـ

(٢) وفى ذلك يقول ابن زيدون .

« أكرم بولادة ذخرا لمدخر لو فرقت بين بطار وعطار
قالوا : أبوعامر أضحى بلم بها قلت : الفراشة قد تدنو من النار
عيرتمونا بأن قد صار يخلفنا فيمن نحب ، وما فى ذاك من عار
أكل شهى أصبنا من أطايبه بعضا ، وبعضا صفحنا عنه للغار »

ولما مات أبو الحزم عاد ابن زيدون الى قرطبة وانضمّ الى أبي الوليد وقام بالسفارة بينه وبين ملوك الطوائف فأعجبوا به وتمنوا استئثارهم به لبراعته وحسن سيرته وتمكن من دولة ابن جهور وابتسم له الحظ ثانية حتى أفسد الحساد ماصلح ، وخشي ابن زيدون أن يلقى من الابن ما لقي من الأب من النكال والسجن ، ففرّ هاربا من قرطبة . وظلّ ينتقل فى أرجاء الأندلس من رنده إلى باداجوز إلى اشبيلية أخيرا حيث اتصل بعباد ابن محمد صاحبها الملقب بالمعتضد(١) ولم يكن يخفى أدبه وشهرته ومكانته عليه فهش له و بش وألقى اليه مقاليد وزارته ، و بعد أن مات المعتضد حاول الوشاة وعلى رأسهم ابن عمار أخلص أصدقاء المعتمد أن يغيروا قلبه عليه وأن يدسوا له عنده فلم يفلحوا ، وأقصاهم المعتمد بن عباد عنه وقرّب اليه ابن زيدون وأعلى مكانته عنده وظلّ ابن زيدون يزين له غزو قرطبة حتى ملكها عنوة بفضل تدبير ابن زيدون وسعة حيلته ، وانتقل المعتمد وابن زيدون اليها وجعلها عاصمة ملكه .

***

ولما وقعت الثورة ضد يهود أشبيلية ، انتهز ابن عمار وابن مرتين وأنصارهما هذه الفرصة لاقصاء ابن زيدون عنهم تخلصا من منافسته ، فزينوا للمعتمد أن يوفده إلى اشبيلية لشدّة تعلق أهلها به واستعلال حبهم فى تسكين الاضطراب وتهدئة الخواطر ، وكان المعتمد يعلم مايكنه أهل اشبيلية لابن زيدون من الحب وماله عندهم من المكانة والحظر .

وكان ابن زيدون مريضا فاضطره المعتمد الى السفر ، فلم يستطع إلى مخالفته سبيلا ، ولم يلبث أن اشتدّت به الحمى وألح عليه السقم فلحقت به أسرته.

ولكن الشيخوخة والمرض تكاتفا عليه فأهلكاه فى ١٥ رجب سنه ٤٦٣ هـ فحزن عليه أهل اشبيلية أشدّ الحزن ودفن فيها باحتفال مهيب .

وقد مكث فى خدمة آل عباد تسعة عشر عاما ، ولو طال عمره قليلا لأفلح حساده ومنافسوه فى تغيير قلب المعتمد عليه والتنكيل به كما أفلحوا فى مثل ذلك من قبل ، ولكن الموت أنقذه من دسائسهم وكيدهم ورحمه من شرّهم .

---

(١) استطاع المعتضد أن يتغلب على كل ماواجهه من الدقات وبذل أقصى مابذل داهية من الدهاة حتى صاله الجو وسلم له الملك وكان أكبر من يناوئه من المتغلبين وأشدهم عليه صهاجة و هو برزال الذين كانوا يقرمونه وأعمالها من نواحى اشبيلية ، فلم يزل يصرف الحيلة تارة — كما يقول المراكشى — ويجهز الجيوش أخرى الى أن استدهم ففرق كلمتهم ، وشتت منتظم أمرهم ، ونهاهم عن جميع تلك البلاد ، وصفت له أموره .

بحترى المغرب

« ويقول بعض أدبائنا : إن ابن زيدون بحترى زماننا، وصدقوا لأنه حذو الوليد فى بعض قصائده » « ابن بسام »

قلت فى فصل سابق : إننى تردّدت فى مشايعة « نيكلسون » حين وصلت إلى قوله : « وقد أطلقوا على ابن هانىء لقب متنبى الغرب ، كما أطلقوا على ابن زيدون لقب بحترى الغرب . »

وقد قلت حينئذ :

« ولما كنا لم ندرس ابن زيدون دراسة تمكننا من الحكم عليه حكما صحيحا ، فاننا نترك مناقشة القسم الثانى من هذه التسمية ونكتفى الآن بالكلام على النقطة الأولى وهى تشبيه ابن هانىء بالمتنبى لاستطاعتنا الكلام فى هذا الموضوع . »

والآن بعد عشر سنوات أستطيع أن أقرّر مستوثقا : أن هذه التسمية صادقة فى تفصيلها و إجمالها، وأن من يدرس ابن زيدون والبحترى يطلق على ابن زيدون لقب بحترى المغرب، ولو لم يعرف أن القدماء قد أطلقوا عليه ذلك اللقب، فكلاهما رائع النظم ساحر الأداء ، وأكثر الصور الشعرية التى أبدعاها جديرة بأن تنال أعزّ مكان فى أرقى المتاحف الشعرية .

ولقد يسر علينا ما لقيناه من الجهد والعناء فى اظهار هذا الديوان أن به من الصور الشعرية الرائعة والبيان الساحر الخلاب مايفخر به الأدب العربى والشعر العربى فى أزهى عصورهما وأنضرها ، فقد كان ابن زيدون فى سموّه وافتنانه ـ وما أكثر سموّه وافتنانه ـ مثالا رائعا للشاعر المبدع القادر المتصرّف بفنون القول وأساليب البيان .

وأحب أن أصارح القارىء أننى كدت أتسرّع فى الحكم حين عرضت لهذه التسمية فى كتابى « نظرات فى تاريخ الأدب الأندلسى » ، فأقرّر أن فى هذه التسمية كثيرا من الاسراف والمبالغة ، وقد كنت حينئذ متشبعا بروح البحترى مأخوذا بسحر بيانه ، وكنت لا أكاد أصدّق أن شاعرا ـ كابن زيدون ـ جدير أن يوضع معه فى ميزان أو يشركه فى إحسان .

ولكنى رأيت أن من الظلم والغبن أن أفاضل بين شاعرين درست أحدهما دراسة مستفيضة ولم أقرأ لثانيهما إلا عشرات من الأبيات و بضع صفحات من النثر ، فأرجأت الحكم حتى أتم الدرس.

وهذه حالة نفسية تعرض لأكثر المشتغلين بالأدب فى هذا العصر ، وهى آفة من الآفات التى تفسد على الباحثين بحوثهم ، فان أكثرهم لا يتورع فى الحكم على شاعر لم يدرسه ولم يعن بقراءة آثاره وتقصى أخباره ، بأنه شاعر ممتاز أو سخيف ، و بعضهم يكتفى بالمختصرات المدرسية والمختارات الشائعة المقتضبة فيصدر الأحكام السريعة على الشعراء والأدباء وربما عكف أحدهم على درس شاعر ولم يدرس غيره ، فراح يملأ الأرض تمجيدا له و يسرف فى اظهار مزاياه وتفضيله على جميع شعراء العربية حتى ليقول أحدهم فى وصف بعض الشعراء :

« فهو الشاعر من فرعه إلى قدمه وهو الشاعر فى جيده ورديفه ، وهو الشاعر فيما يحتفل به وما يلقيه على عواهنه » الى أن يقول « فما تحرك حركة الا كان للعقرية فيها أوفى نصيب » (١)

وقد كان المرحوم الشيخ محمد شريف سليم شارح ديوان ابن الرومى ، يرى بعد أن درسه دراسة مستفيضة أن ابن الرومى أشعر شعراء العربية . وأكثرهم تصرفا بفنون القول وكان الباعث له على ذلك أنه عكف على درسه زمنا طويلا فظهرت له مزاياه الباهرة فحسب أن أحدا من الشعراء مهما سما لن يصل الى مكانة ابن الرومى .

ولهؤلاء الباحثين عذرهم فى اصدار هذه الأحكام وان لم ينصفوا الحقيقة، فان كل شاعر من هؤلاء المحول يترجم لنا عن حضارة هائلة ويخلق بنا فى أجواء ساحرة تنسينا — حين نحلق فيها — كل شاعر سواه ، فالبحترى والمتنبى والمعرى وابن الرومى وابن زيدون وابن حمديس وأضرابهم يكاد يعميك واحد منهم ويملأ نفسك جمالا وروعة اذا اقتصرت على درسه وحده .

ولكنك بعد ذلك جدير ألا تحكم بتفضيل أحد هؤلاء على الآخرين والازراء بهم لأنك لم تدرسهم جميعا دراسة مستفيضة .

وأذكر بهذه المناسبة أنى كنت فى مجلس يضم صفوة من رجال الأدب الممتازين كانوا يتناقشون فى الأدب فقال أحدهم :

« إن سيد كتاب العربية وإمام البيان العربى هو ابن المقفع » ثم راح يطريه ويخلع عليه كل عبارات الثناء ، فقال له الآخر : « أما أنا فلست من رأيك ، فان أبا الفرج الاصبهانى بشره المعجز قد برز كل كتاب العربية » فقال الثالث : « أين أنتم من عبد الحميد الكاتب فهو سيد هؤلاء جميعا » فالتفت له الرابع قائلا :

« الحق أن امام البيان العربى هو الجاحظ » ثم سألونى رأيى فقلت :

« بل سيد كتاب العربية هم هؤلاء جميعا وأضرابهم ولكن كل واحد منكم عكف على درس كاتب من هؤلاء فخيل اليه أن أحدا لا يدانيه بلاغة وسحرا »

وهذا مثال لا يزال يتكرر ولازلنا نرى فى كل يوم باحثا يأبى الا أن ينتصر لنابغة بعينه ويفضله على جميع الناس ، وفى هذا ما فيه من الاسراف والمغالاة وظلم الحقيقة .

وما رأيك فى قروى لم يغادر قريته الحقيرة طول عمره ، فلما سافر إلى مدينة كبيرة ورأى ما فيها من قصور فخمة وحدائق غناء ، ظن أن هذه المدينة الكبيرة — التى جمعت ألوان الحضارة والترف وجالبات السرور — هى أجمل مدن العالم ، وليس من الضرورى أن يزور الانسان كل المدن الشهيرة ، فله أن يكتفى بواحدة أو أكثر ، ولكن من الضرورى لمن يريد المقارنة بينها وبين سائر المدن أن يزورها ويتعرفها جميعا .

كذلك ليس من الضرورى أن تقرأ كل شعراء العالم ، ولكن من الضرورى الا تفضل أحدا من الشعراء عليهم جميعا من غير أن تقرأهم جميعا .

---

(١) ارجع إلى كتابى « صور جديدة من الأدب العربى » « ص ٢٢٣ »

ماذا ، بل أنت اذا توخيت الانصاف والدقة والنزاهة عاجز ـ بعد طول الأناة والدرس ـ عن البتّ فى تفضيل شاعر من الفحول على آخر ، وإن المنصف النزيه ليتردّد فى أن يجزم بتفضيل قصيدة رائعة على أخرى كما يتردد فى تفضيل حسناء بارعة فى الجمال على شبيهتها ، ورحم الله الأعرابى الذى طلب اليه أن يفاضل بين نوعين من الحلوى ، فظلّ يتذوّق أحدهما تارة ، ويتذوّق الثانى تارة أخرى ثم يعود إلى الأول ويرجع الى الثانى ثم قال :

« إننى كلما أردت أن أحكم لاحدهما أدلى الآخر بحجته »

وليس فى قدرة ناقد غربىّ نزيه أن يسخف شاعرا خلا كشكسبير وإن كان فى قدرته أن ينتقده ويظهر عيوبه .

أما عندنا فعلى العكس من ذلك ، لا يتحرّج كاتب عن تسخيف شاعر خل كالمتنبى أو إنكار شاعرية المعرى أو تحقير مواهب ابن الرومى أو ابن زيدون أوابن حديس أو البحترى الى آخر هؤلاء الفحول .

ثم ما ذا ، عندنا من يجرؤ على انكار شاعرية عصر بأكمله كعصر ملوك الطوائف (١) الذى يعدّ أزهى عصر أدبى فى الأندلس ، بل عندنا متهوّسون يجرؤون ـ فيزعمون بلاحيطة أو مبالاة ـ أن ينكروا الأدب العصرى كله فى جميع عصوره المختلفة ، وعندنا آخرون ينكرون روعة الأدب العربى فى شتى لغاته وعصوره من غير أن يجشموا أنفسهم قراءة شىء من آثار هؤلاء أو أولئك .

وما كنا لنعرض لمناقشة أمثال هؤلاء المتسرعين فى الحكم لولا أن عدواهم كادت تسرى إلى اكثر شبابنا وبعض شيوخ الأدب واعلام الفكر عندنا .

وقد ساعدت الخلاصات المدرسية التى كتبها مدرّسو الآداب عندنا على إصدار هذه الأحكام السريعة ، فان أحدهم ليكتب كتابا يعرض فيه لتاريخ أدب اللغة فى جميع عصوره ويقتبس من أحكام القدماء ما شاء من غير أن يقرأ ديوان شاعر واحد بأكمله ، ومن غير

---

(١) ومن هذه الأحكام قول أديب من هذا الطراز العجيب فى هجاء هذا العصر الذهبى ـ عصر ملوك الطوائف ـ الذى لا يكاد يعرف منه غير اسمه :

« دلكم عصر الاسرحاء والترف . عصر تزيغ فيه الأبصار والبصائر فتكل عما وراء القشور والظواهر تهجم المشاعر فى ذلك العصر فتعربد الحواس ، ويموت الحب الفطرى فتسرح فى رفاته ديدان الشهوات . وناهيك بعصر تكون فيه البهائم أصدق حباً من الناس ، لأن البهائم لا تلعب بالحب ولا تبتذله فى مثل هاته العصور يأخذ الناس من كل شىء بأيسره ، ويقنعون من كل مطلب بأقربه إلى الحسن وأصغره . لا يكون الجمال فيها إلا صبغة فى البشرة تلحسها الألسنة حتى تزول ثم تمجها بصاقا ، ولا تكون البساتين والأمواه إلا مجالس شراب ومراوح هواء ، ولا الطبيعة بكائها ورياحينها وأثمارها إلا طفسة مطررة بمختلف الألوان والأشكال ، ولا الشعر إلا هرجا براقاً لو صوّر بشرا سوياً لنالت منه العيون ما لا تنال النفوس ، وما الأخلاق والمروءة والشرف إلا آدابا يصطلح عليها المعاقرون ليدوم لهم صفو المجلس ، ثم ماشاء المعاقر بعد ذلك من غى وشنار ، وما طاب له من عبث واستهتار لايشينه ذلك ولا يقدح فى آدابه . »

ان يدرس عصره و يتقصى أخباره ، وهو لو فعل لما استطاع اصدار فصل واحد من كتابه .

وعندنا أن الخلاصات المدرسية لا يمكن كتابتها الا بعد أن يستوفى الباحثون درس العصور والشعراء والأدباء و يقطع كل منهم لشاعر بعينه أو كاتب بعينه ، فيدرسه من جميع نواحيه ، فاذا تمّ ذلك كله أمكن اختصار بحوثهم المستفيضة فى صفحات قليلة للناشئين .

وقد تكاتفت فئة من أعلام الباحثين فى العصر الحديث ـ كما قلنا ـ على درس المتنبي وابن الرّومى والمعرى ، وظفروا بنتائج باهرة أقنعت كثيرا من الشباب المصف بأن عندنا من الشعراء من نباهى بهم ونفخر معتطين ولا نتردّد فى مقارنتهم بأكبر شعراء الغرب .

وما كان فى قدرة انسان أن يفهم جلال شعراء الغرب وكتابه و يقدّر مواهبهم الممتازة وعبقرياتهم الفذة لو لم يعرض النقاد والشراح والباحثون لتجلية كل غامض وتوضيح مناحى اتجاهاتهم الفكرية ، ولن يقتنع الشباب العربىّ بأن أدبا زاخر بالشعراء الذحول الذين لا يتخلفون عن أكبر شعراء الغرب ، الا بعد أن يتصدى أدباؤنا و باحثونا لتحليل آثار القدماء وتنظيمها وشرح غامضها و إزاحة الستور عن مناحى العقرية فيها وتقديم ثمار جهودهم الناضجة للشباب العربىّ ، وثمّ يرى شبابنا أن هذه العقول العربية الكبيرة التى استوعبت أرقى الحضارات فى أزهى العصور وعبرت عن أخفى الخوالج النفسية وأدقّ الاحساسات وأروع الأفكار وأعمق الآراء ، جديرة بالانصاف والاقبال عليها والتمتع بسحرها الفاتن .

وسيرى الشباب ـ الذى نعلق عليه أكبر الآمال ـ فى ديوان ابن زيدون بحترى المغرب ، إذا درسه بعناية وأناة . ولم يكتف بتصفحه والمرور به ـ على عادته ـ مرورا سريعا ، أن ابن زيدون كان جديرا بما بذلنا من عناء وجهد ، وأنه جدير بمعاودة الكرة لدرسه دراسة مستفيضة فى رسالتنا التى أفردناها لتحليل أدبه وعصره والتنويه على دقائقه ومزاياه والالمام بعصره الزاهى .

و بعض الناس يفضلون البحترىّ على ابن زيدون ، لأن ابن زيدون كان يعجب به ، وهو رأى مردود عليهم . فان إعجاب ابن زيدون بالبحترى كاعجاب المعرى بالمتنبى ، إعجاب عظيم بعظيم ، ولو تقدّم ابن زيدون زمنه على زمن البحترى لفتن البحترى بشعره ، واتخذ منه مثالا ينسج على منواله و إماما يهتدى به فى فنه الرائع .

شاعرية ابن زيدون

« ابن زيدون عبقريّ زمانه قصر المحسنون عن إحسانه
أخذ الروم ــ فى الجزيرة ــ عنه ومشوا فى خياله واقتانه »
« شوقى »

لكل شاعر من الفحول طابع خاص يمتاز به شعره فاذا امتاز المعرّى بالفلسفة فى شعره وامتاز المتنبى بالحكمة ، وامتاز ابن الرومى بالغوص على المعانى النادرة ، وامتاز أبو العتاهية بالزهديات ، وأبو نواس بالخمريات ، والبحترى بحسن النظم ، وأبو تمام بالصناعة وابن حديس بالوصف فاى ميزة امتاز بها شعر ابن زيدون ؟

ميزة ابن زيدون التى تكاد تفرده من شعراء العربية هى الفنّ . فهو شاعر فنى قبل أن يكون فيلسوفا أوحكيما أوغوّاصا على المعانى أو وصافا .

الفنّ وحده هو الذى أكسب ابن زيدون زعامة الشعر فى عصره ، وأغرى فحول الشعراء فى زمنه و بعد زمنه بمحاكاته والانضواء تحت رايته . فهو شاعر الفنّ الذى أبدع أمير الشعراء فى وصفه حين قال :

« بأبى أنت هيكلا من فنون مركبا »

و إنك لترى صوره الفنية قد وصلت الى الذروة ، وقلما اشترك ابن زيدون مع شاعر آخر من الفحول فى معنى من المعانى إلا برّه ابن زيدون بفنه ، وأعجزه ببيانه الساحر المعجب . حتى البحترى الذى كان النقاد يلقبون ابن زيدون به ، كثيرا ما اشترك معه ابن زيدون فى صور شعرية وتفوّقت صور ابن زيدون على صور البحترى .

وانما خصصنا البحترى بالذكر ، لأن البحترى هو المثال الذى اختاره ابن زيدون ونحا نحوه حتى غلب عليه اسم بحترى المغرب .

ومن العجيب أن ابن زيدون قد اشترك مع البحترى فى عدّة صور شعرية ــ كما اشترك مع غيره من الشعراء ــ فكان ماذا ؟

كانت الصور الكلامية التى يبدعها الشاعران جديرة أن توضع فى أرقى المتاحف حين يشتركان فى غرض واحد ، ولكن الصور التى أبدعها ابن زيدون جديرة بالجائزة الأولى فى أغلب الأحايين .

قال البحترى :

«ولما حضرنا سدة الاذن أخرت رجال عن الباب الذى أنا داخله
فأفضيت من قرب إلى ذى مهابة أقابل بدر التم حين أقابله
كما انتصب الرمح الردينى . ثقفت أنابيبه ، واهتز للطعن عامله
وكالبدر ، وافيناه ، تم سناه وتم سناه واستهلت منازله
وساءت ، فاعتاقت جنانى هيبة تنازعنى القول الذى أنا قائله
فلما تأملنا الطلاقة ، وانثنى إلىّ بيشر آنستنى مخايله

دنوت فقبلت الدى من يد امرئ كريم محياه سباط أنامله
صفت ـ مثل ما تصفو المدام ـ خلاله ورقت ـ كما رق النسيم ـ شمائله »

وقال ابن زيدون :

« فلما قضينا ما عنا أداؤه وكل بما يرضيك داع فملحف
قرنا بحمد الله حمدك ، إنه لأوكد ما يحظى إليه ويزلف
وعدنا إلى القصر الذى هو كعبة يغاديه منا ناظر أو مطرف
إذا نحن طالعناه والأفق لابس بجاجته والأرض بالخيل ترجف
رأيناك فى أعلى المصلى كأنما تطلع من محراب داود يوسف
ولما حضرنا الاذن والدهر خادم تشير فيمضى ، والقضاء مصرف
وصلنا وقبلنا الدى مك فى يد بها يتلف المال الجسيم ويخلف
لقد جدت حتى ما بنفس خصاصة وأمنت حتى ما بقلب تخوّف »

فأىّ الصورتين يفضل القارئ ؟

الحق ان الانسان ليحار فى تفضيل إحدى الصورتين على الأخرى ، فقد كادتا تصلان الى أقصى درجات الكمال . وتجلى إبداع الشاعرين فيهما إلى أقصى حدّ ، ولكن المنصف لا يلبث بعد طول الروية والأناة ، أن يؤثر تلك الصورة الشعرية التى أبدعها ابن زيدون بحترى المغرب على صورة صاحبه بحترى المشرق .

وقد وقع كثير من النقاد المعاصرين فى خطأ شنيع حين تسرّعوا فى الحكم على ابن زيدون بأنه مقلد فى أكثر معانيه غير مبتدع ، وحسبوه لذلك تخضاح الفكر لا ينفذ ببصره إلى الأعماق ، وقد عاب بعض المتسرّعين فى الحكم مثل ذلك على أناتول فرانس ، وعيروه بأنه كاتب أسلوب لا أكثر ، كما عيروا ابن زيدون بذلك ، ونسوا أن الفنّ ـ كما يقول أناتول فرانس ـ ليس فى الابداع والاختراع بقدر ما هو فى حسن التأليف ودقة الانسجام . وكثيرا ما اتخذ أناتول من الحوادث التافهة وسيلة إلى حلق قصة رائعة . وإنما يمتاز الشاعر على الشاعر ـ إذا اشتركا فى معنى من المعانى ـ بما يبدعه أحدهما من الألوان وما يوفق اليه من التعبير عن ظلال المعانى ودقائقها .

فان أمّهات المعانى ـ كما قلت فى كتابى «صور جديدة من الأدب العربى» مشتركة بين الناس ـ على اختلاف لغاتهم وأزمانهم وبيئاتهم وأجناسهم ـ وانك لو حاولت أن تجد لأكثر المعانى أشباها لما أعياك ذلك . وربما قلت المعنى تحسب أنك انفردت به ثم عثرت على شبيهه ـ بعد عام أو عامين ـ فى شعر قديم أو حديث عربى أو غربى وقديما قال عنترة :

« هل غادر الشعراء من متردم ؟ . » وذلك أن النفس الانسانية ـ على اختلاف نزعاتها وشتى أحاسيسها وشعورها ـ تكاد لا تختلف فى الشعور بأمهات المعانى ، وثمة تتوارد الخواطر . وانما يمتاز الشاعر على الشاعر بالافتنان فى أداء هذه المعانى ، وروعة الأداء وحسن

التعبير عن دقائقها وظلالها والابداع فى صوغ الخواطر النفسية والصور الشعرية المشرقة بالحياة والقدرة على تهيئة الجو الرائع الذى تخلو فيه شاعريته وعرض معانيه فى أبهى صورها وأجل حليها .

ولنضرب للقارئ مثلا واحدا من أمثلة عدّة لايتسع لها المقام :

لعلّ كثيرا من الناس يدركون من أمثلة الحياة ونظمها أن مايضرّ واحدا قدينفع الآخر . هذا معنى شائع ميسور لكل متأمل وليس للسرقة مجال فيه . وقد افتن كثير من الشعراء فى صوغه فظهرت فى ذلك ميزاتهم ومواهبهم وتجلت قدرتهم على الخلق والابداع .

وقد صاغه المتنبي فى أبسط صوره فقال . « مصائب قوم عند قوم فوائد . »

وتناوله ابن الرومى من قبله فجلاه فى صورة أخرى وهى قوله :

« فاشقنى انما هجاؤك عندى ضحكات تزيد فى السرّاء

ومحال أن يسعد السعداء الد هر الابشقوة الأشقياء . »

فلما طرقه المعرّى جلاه فى أبدع صوره وأجلها فقال :

« وسخط الطاء بما نالها تولد منه رضى الحابل . »

فمثل لنا — من ذلك المعنى الشائع المطروق — صورة رائعة دقيقة مشرقة بالحياة وأظهر لنا — بريشة المصوّر الفطن — ظبية يوقعها القدر وسوء الحظ ونكد الطالع فى حبالة الناعس فتدرك أن حينها قد اقترب وأن هلاكها وشيك ، وصيادا يراها — فى هذه الحال من الألم والسخط — فيرى فرصة ثمينة نادرة بات يحلم بها طويلا .

ولقد أحسن الجرجانى حين مثل فى ضمن فصل طويل يحب أن يرجع القارئ اليه فى كتابه:

« وقد يتفاضل مدعو هذه المعانى — بحسب مراتبهم — فتشترك الجماعة فى الشيء المتداول وينفرد أحدهم بلفظة تستعذب أوترتيب يستحسن أونأ كيد يوضع موضعه أو زيادة اهتدى اليها — دون غيره — فيريك المتنذل فى صورة المبتدع والمخترع . »

وقد ضرب الجرجانى لذلك أمثلة كثيرة ثم قال :

« ولم يبق عليك الا أن تحترس من التفريط — كما احترست من الافراط — فلا تكن ممن يرى السرقة لاتتم الا باجتماع اللفظ والمعنى ونقل البيت جملة والمصراع تاما ، بل لايعرف إلا من يفعل فعل عبد الله بن الزبير بأبيات معن بن أوس . »

إلى أن قال بعد كلام طويل :

« والسرق — أيدك الله — داء قديم وعيب عتيق ، ومازال الشاعر يستعين بخاطر الآخر ويستمدّ من قريحته ويعتمد على معناه ولفظه . »

ومن أجل ماأورده فى ذلك الفصل قوله :

« ومتى انصفت علمت أن أهل عصرنا — ثم العصر الذى بعدنا — أقرب فيه الى المعذرة وأبعد من المذمة ، لأن من تقدمنا قد استغرق المعانى وسبق اليها وأتى على معظمها ، وانما يحصل

على بقايا إما أن تكون تركت رغبة عنها واستهانة بها أولبعد مطلبها واعتياص مرامها وتعذر الوصول اليها .

ومتى أجهد أحدنا نفسه وأعمل فكره وأتعب خاطره وذهنه فى تحصيل معنى — يظنه غريبا مبتدعا ونظم بيت يحسبه فردا مخترعا ، ثم تصفح عنه الدواوين — ثم لم يحظ أن يجده بعينه أو يجد له مثالا يغض من حسنه .

ولهذا السبب أحظر على نفسى ولا أرى لغيرى بت الحكم على شاعر بالسرقة . وقد أحسن أحمد بن أبى طاهر فى محاجة البحترى لما ادّعى السرق فى قوله : —

« والشعرظهروطريق أنت راكبه فنه منشعب أو غير منشعب
وربما ضم بين الركب منهجه وألصق الطنب العالى على الطنب »

فاذا شئت أن نمثل لك من شعر ابن زيدون بما يؤيد هذا الرأى، عرضنا لك نخبة موجزة من أقوال رجال البيان فى بعض المعانى التى طرقها ابن زيدون . قال معاوية: « السرو التغافل »

وقال المتنبى : « ليس العيى بسيد فى قومه لكن سيد قومه المتغابى »

وقال زهير :

« ومن لم يصانع فى أمور كثيرة يضرّس بأنياب ويوطأ بمنسم »

وقال بشار :

« اذا أنت لم تشرب مرارا على القذى ظمئت وأىّ الناس تصفو مشاربه
فعش واحدا، أوصل أخاك، فانه مقارف ذنب مرة ومجانبه »

وقال أحد الشعراء :

« ومن يتتبع جاهدا كل عثرة يجدها ، ولا يسلم له الدهر صاحب »

وقال آخر :

« اقبل معاذير من يأتيك معتذرا ان برّ عندك فيما قال أو فجرا
فقد أجلك من أرضاك ظاهره وقد أطاعك من يعصيك مستترا »

الى آخر ماقالوه فى هذا المعنى وهو كثير نجتزئ منه بما ذكرنا ، فهل ترى فى كل ماقالوه أروع من قول ابن زيدون :

« إن السيادة بالاغضاء لابسة بهاءها وجمال الحسن فى الخفر »

ألا ترى أن فنّ ابن زيدون قد غلب فنون هؤلاء الفحول الأفذاذ وتفوّق عليهم فى هذه الصورة الرائعة ؟

وانظر الى ذلك البيت الرائع الذى طالما تغنينا به وحسبنا قائله قد تخطى به درجات الكمال والابداع حين قال :

« يزيدك وجهه حسنا اذا مازدته نظرا »

وقد أخذه ابن الرومى فقال فى «وحيد» المغنية :

« ليت شعرى ، اذا أعاد الينا كرة الطرف مبدئ ومعيد
أهى شيء لا تسأم العين منه ؟ أم لها كل ساعة تجديد ؟
بل هى العيش لا يزال غضا رضى يملى غرائبا و يفيد »

انظر كيف تلطف ابن زيدون فى نظمه وتحويره! وفى أى صورة مشرقة بالحياة رائعة الحسن صاغه ذلك الشاعر العقرى فقال :

« حسن أفانين لم تستوف أعيننا غاياته بأفانين من النظر . »

ومن اليسير على كل انسان أن يقرّر أن حبيبه قد هجره وأنه لا يزال باقيا على عهده . ولكنه ليس من اليسير عليه أن يؤدّى هذا المعنى كما أدّاه المجنون يقول :

« وأدنيتنى حتى اذا ما فتنتنى بقول يحل العصم سهل الأباطح
تناءيت عنى حين لا لى حيلة وغادرت ما غادرت بين الجوانح »

ولا أن يقول مثل قوله أيضا :

« أليس وعدتنى يا قلب أنى إذا ما تبت عن ليلى تتوب
فها أنا تائب عن حب ليلى فمالك كلما ذكرت تذوب . »

أو يقول كما قال ابن زيدون :

« كان التجارى بمحض الودّ مذ زمن ميدان أنس جرينا فيه أطلاقا »
فالآن أحمد ما كنا لعهدكمو سلوتم و بقينا نحن عشاقا (١) ؟ »

تلك صور فنية تنخلع دونها الرقاب ولا يحسن أن يقولها إلا شاعر فنى موهوب ، ولا تزال أمهات المعانى كأصول لأنواع لا تكاد تختلف فى جملتها وان اختلفت فى دقائقها وتفاصيلها ، وانك لترى ألف حسناء فترى فى وجه كل منهنّ ملاحة من الحسن لا توجد فى الأخرى ، ولا يزال الرسام يتفنن فى التعبير عن أسارير الوجوه و يبدع ما شاء ابداعه ، ولا يزال اللحن الواحد يؤديه ألف مغن بارع فتحس نفسك لكل صوت سحرا خاصا يختلف عن الآخر .

وما نريد أن نخصّ ابن زيدون بالابداع فى كل معانيه دون سائر الشعراء ، فقد تخلف عنهم وقصر فى بعض قصائده كما يقصر الفحول أحيانا . الشعر كما يقول ابن الرومى كالشجر :

« ركب فيه اللحاء والحشب الليا بس والشرك بينه الثمر . »

ولكن الانصاف يقضى عليك — إذا تصدّيت للتفضيل بين الشعراء — أن تقارن بين روائعهم و بدائعهم ، أما ما يقولونه عفو الخاطر أو فى ساعات الكلال والضعف ، فلست جديرا أن تحكم به على شاعريتهم ، فقد تخرج الشجرة الممتازة — إلى ثمارها الشهية الغضة — ثمرة لجّة فلا ينقص ذلك من قيمتها . وما نريد أن ننتصر لابن زيدون وأن نمدحه وانكسا نريد أن ننصفه ولا نظلمه .

---

(١) هاأنت ذا ترى صورتين رائعتين لمعنى واحد ، هل تستطيع أن تفصل إحداهما عن الأخرى ؟ ألا ترى أن كل واحدة من هاتين الصورتين مستقلة عن الأخرى وكل الاستقلال وإن كانتا تعبران عن معنى واحد ؟ ألا ترى إلى الصدق الذى يتمثل فى كل صورة بينهما ؟ أليست كل واحدة من هاتين الصورتين ملكا للشاعر لا ينازع فيها الآخر ؟

لماذا سجن ابن زيدون ؟

لاتكاد تقرأ تاريخ ابن زيدون فى أى كتاب من كتب الأدب وتصل إلى هذا الفصل من تاريخ حياته حتى تقرأ هذه الجملة بنصها أو معناها .

« ثم سجنه ابن جهور لسبب وشاية أعداء ابن زيدون به » .

ولكن كيف وشى به أعداؤه فأحفظوا عليه قلب ابن جهور وأى وشاية هى؟ ذلك مايقف أمامه مؤرخو الأدب من غير أن يتعرّفوا له حلا .

وقد حاول بعضهم أن يعلل ذلك بانغماس ابن زيدون فى حب ولادة وقالوا ان ابن عبدوس وأحزابه وشوا به عند ابن جهور فسجنه لأن أبا الحزم بن جهور — فى زعمهم — رجل ورع يؤثر التقوى والزهد ولا يقبل أن يرى إلى جانبه خليعا ماجنا كابن زيدون ، ونسى هذا الفريق من مؤرخى الآداب أن ابن عبدوس نفسه كان منغمسا فى حب ولادة وكان أكثر من ابن زيدون خلاعة ومجونا إن كان لابد من هذا التعبير الذى ارتضاه مؤرخو الآداب ، فليس من الانصاف أن يطلق اسم الماجن المستهتر على مثل ابن زيدون، فقد كان اذا قورن بغيره من شعراء عصره وشعراء العصور الأخرى أبعد عن هذه الصفة التى ألصقها به مؤرخوالآداب ، ولم يكن أبو الحزم بن جهور رتيا متبتلا ورعا منقشفا كما حاولوا أن يقنعونا به،فقد كسر دنان الخمر حين ولى أمور الناس ، وهذا يدل على حزم و بعد نظر ولا يدل على تقشف وزهد وورع .

وما كان أبو الحزم ليسيء الى وزيره الذى خاض إلى جانبه نار الثورة القرطبية وكان يلهبها ببلاغته و يغذيها ببيانه والذى كان لايستغنى عنه أبو الحزم بن جهور ، نقول ليس أبو الحزم الذكى الأريب الذى شاد ملكا موطد الأساس بين الزعازع والفتن من الغفلة بحيث يأبه لأمثال هذه الصغائر ، انما كان يعنى أبا الحزم بن جهور أن يثبت ملكه ولا يعنيه بعد ذلك أن يكون ابن زيدون ملاكا طاهرا أو شيطانا فاجرا .

ولقد سجن ابن زيدون وزير ابن جهور وكان معرضا للقتل وسجن ابن عمار وزير المعتمد وقتل وسجن غيرهما من الأدباء والشعراء الذين استوزرهم ملوك الطوائف ، فاذا شئت أن تبحث عن أسباب سجنهم وقتل أكثرهم ، فلن تجد لذلك الاسببا واحدا وتهمة لايتعداها من شاء أن يدس أو يكيد وهى التهمة التى تعنى ملوك الطوائف وتقض مضاجعهم وتنسيهم كل يد أسلفت إليهم ، هذه التهمة هى التآمر على قلب الملك والطمع فيه.

ولقد كان ابن عمار أخلص صديق للمعتمد وكان المقرّب الأمين عنده وكان أعزّ عليه من نفسه على حد تعبير المعتمد ، ولكنه طمع فى الملك فنسى المعتمد كل شىء الا سجنه وقتله والانتقام منه .

ولم تأخذ المعتضد رحمة بأحد أولاده حين عرف أنه يطمع فى ملكه ، فقتله حنقا عليه .

ولقد كان ابن زيدون شابا فى مقتبل عمره وكان قريب عهد بالثورة التى دعا اليها آل جهور .

وكان أقرب شىء الى هذه النفس الشابة الفتية المتوقدة عزما وهمة ، والتى ظفرت بالوزارة فى مستهل حياتها السياسية أن تطمح الى ماهو أبعد من الوزارة .

وقد كان ابن زيدون كثير السفارات وكان موفقا محبوبا من ملوك الطوائف ذائع الشهرة فى عصره ، وكان قويا شديد النكاية والسخرية بخصومه ، ولم يكن لهم طريق يسلكونها للانتقام منه الا الكيد له ـ على أسلوب ذلك العصر ـ عند ابن جهور بأنه غير مخلص لعهده ولا أمين لأميره .

وما نبرئ ابن زيدون من تهمة التآمر فانه هو نفسه لم يتنصل منها تنصلا واضحا صريحا، بل نحن لانرى فى تصديقها حرجا فقد كانت الظواهر كلها تؤيدها ولاتنفيها .

ولقد فرّ ابن زيدون من سجن أبى الحزم ثم عاد بعد وفاته الى ابنه أبى الوليد و بذل له النصيحة كما بذل لأبيه، وظفر عنده بأعلى مكانة،ولكن تهمة ذلك العصر فرت به من جديد وكاد ـ لولا فراره ـ يسجن من جديد ويقضى بقية عمره فى السجن .

وقد اتصل بالمعتضد وحاول خصومه أن يدسوا له فلم يفلحوا ولما مات المعتضد أعادوا الكرة وأرادوا أن يغيروا عليه قلب المعتمد فأخفقوا ، وقرعهم المعتمد أشدّ تقريع وما زال ابن زيدون الوفىّ الأمين المخلص للمعتمد،حتى قربت منيته وقرب نجاح أعدائه فى تغيير قلب المعتمد عليه ، ولو طال عمره قليلا لأصابه من نكال المعتمد وانتقامه ماأصابه من أبى الحزم وما كاد يصيبه من أبى الوليدبن جهور.ولكن المنية أنقذته من شرورهم وأحقادهم كما أسلفنا .

على أن سجن ابن زيدون قد ترك فى نفسه الفتية الوثابة أثرا لايوصف . وألهمه الحكمة والأناة والصبر وعلمه مداراة الناس ومجاملة الخصوم ، وأقنعه بأن معاداة الرجال غير مأمونة العواقب وأن السهام « قلما اعتورت غرضا الا كلمته حتى يهى ماشتد من قوته » فلم يدخر جهدا فيما بعد فى اكتساب رضى العامة والخاصة ، حتى أحبوه ـ الاالقليل ممن دفعهم الحسد والغيرة وهؤلاء لاحيلة لأحد فى اكتساب رضاهم وسل سخائمهم واحقادهم ـ وقد مات فبكاه أهل أشبيلية وجزعت لفقده جمهرة معاصريه . ولا تزال أشعاره ورسائله التى نظمها فى سجنه آيات فذة من البيان العالى والشعر المعجز . ولا زال قوله :

«لايهنئ الشامت المرتاح خاطره أنى معنى الأمانى ضائع الخطر
هل الرياح بنجم الأرض عاصفة أم الكسوف لغير الشمس والقمر »

وقوله :

« ولا يغبط الأعداء كونى فى السجن فانى رأيت الشمس تحصن بالدجن
وما كنت الاالصارم العضب فى جفن أوالليث فى غاب أو الصقر فى وكن
أو العلق يخفى فى الصوار ويخبأ »

إلى آخر هذه القصائد الفذة التى كتب لها الخلود . مثالا عاليا للشعر الرائع والبيان الساحر

حساد ابن زيدون

كان من الطبيعى أن يلقى أديب مثقف وشاعر مجيد وسياسى مدرّب كابن زيدون ـ وصل فى مقتبل شبابه الى أرقى الدرجات ـ كثيرا من المنافسين والحساد ينقمون على أدبه وتفوّقه و يغارون من تقرّبه الى الملوك الذين أكبروا فضله وأدبه فقرّبوه منهم وحاطوه برعايتهم، وقد لقى ابن زيدون فى قرطبة جماعة من المنافسين وعلى رأسهم الوزير الأديب أبو عامر بن عبدوس ، فكادوا له حتى أحفظوا عليه أبا الحزم جهور فسجنه كما أشرنا الى ذلك فى فصل سابق . ثمّ فرّ من السجن وعاد فاتصل بأبى الوليد بن أبى الحزم ، فلم ينقطع كيد المنافسين حتى غيروا عليه قلب الابن كما غيروا عليه قلب أبيه من قبل ، ففرّ ابن زيدون خوفا من السجن ومازال يتنقل بين ملوك الطوائف حتى استقرّ به الهوى فى اشبيلية فلقى من كيد الحساد وعنتهم مثل مالقى فى قرطبة ، ولكن مدائحه الخالدة التى مدح بها المعتضد والتى تعدّ من مفاخر الشعر العربى وروائعه ، وحسن سياسة ابن زيدون و بعد نظر المعتضد تغلبت على كيد المنافسين وأرغمت أنوفهم وأحلته فى المكان الأوّل كما يقول من قصيدة رائعة :

« وأرغم فى برى أنوف عصابة لقاؤهم جهم وأعينهم شزر »
« اذا ما انثنى فى الدست عاقد حبوة وقام سماطا حفله فلى الصدر »

فلما مات المعتضد أعادوا الكرّة وجمعوا جموعهم للكيد له عند المعتمد ولكن المعتمد صدّهم أشنع صدّ وقرّبه اليه ، فلم ينس له ابن زيدون هذه اليد وفى ذلك يقول :

« يطيل العدا فىّ التناجى خفية يقولون لا تستفت قد قضى الأمر »

ثم ما زالوا يكيدون له حتى أقصوه عن قرطبة الى اشبيلية منتهزين فرصة مرضه فسار اليها مرغما حيث لقى حتفه . وأفلح كيد ابن عمار وأصحابه فى التخلص من منافسة ابن زيدون .

ولا تكاد تخلو قصيدة من قصائده فى أبى الحزم وأبى الوليد والمعتضد والمعتمد من الشكوى الصارخة من كيد الحساد الذين تطوّعوا لايذائه وأرهقوه بدسائسهم المنوالية ، والحسد داء قديم وكم لقى الأدباء والشعراء الممتازون منه ماتغص عليهم حياتهم وأقض مضاجعهم .

وقد لقى المتنبى قبله فى مجلس سيف الدولة من حسد أبى فراس وابن خالويه ، ثم لقى عند كافور الاخشيدى من حسد ابن حنزابه ، ثم لقى فى بغداد من حسد الوزير المهلبى الذى أغرى به الشعراء والأدباء كالحاتمى وابن سكرة وغيرهما ، ما أقلق باله وفاده الى حتفه .

وقد كان يبلغ المتنبى بعد أن ترك سيف الدولة تشنيع حساده به عنده ، فيقول :

« رأيتكم لا يصون العرض جاركم ولا يدر على مرعاكم اللبن
جزاء كل قريب منكم ملل وحظ كلّ غريب عنكم ضغن . »

الى آخر ماقال .

وكان يبلغ ابن زيدون عن ابن جهور بعد اتصاله بالمعتضد مايسوءه فى نفسه وقرابته بقرطبة فيقول :

« بنى جهور أحرقتم بجفائكم ... فؤادى فما بال المدائع تعبق
تعدّونى كالعنبر الورد إنما ... تطيب لكم أنفاسه حين يحرق »

وقوله :

« قل للوزير وقد قطعت بمدحه ... زمنا فكان السجن منه ثوابى :
لا تخش فى حق بما أمضيته ... من ذاك فى ولا توق عتابى
لم تخط فى أمرى الصواب موفقا ... هذا جزاء الشاعر الكذاب . »

وقوله :

« من مبلغ عنى البلاد اذا نبت ... أن لست للنفس الألوف بباخع
أما الهوان فصنت عنه صفحة ... أغشى بها حدّ الزمان الشارع
فليرغم الحظ المولى أنه ... ولىّ فلم أتبعه خطوة تابع
ان الغنى لهو القناعة لا الذى ... يشتف نطفة ماء وجه القانع »

الى آخر ماقال .

وقد كان لهذه المنافسات أثرها العظيم فى اجادة الشاعرين واظهار أروع مافالاه من الشعر، وصدق القائل :

« لولا اشتعال النار فيما جاورت ... ما كان يعرف طيب عرف العود »

وما كاد المعتمد يتولى الأمر بعد أبيه المعتضد حتى نشط الدساسون والمفسدون لمحاربة ابن زيدون فرموا اليه برقعة فيها قصيدة طويلة أوّلها :

« يأيها الملك العلىّ الأعظم ... اقطع وريدى كل باغ ينثم
واقسم بسيفك داء كل منافق ... يبدى الجميل وضد ذلك يكتم »

فكان ردّ المعتمد على ذلك قوله :

« كذبتمنا كم صرّحوا أوجمجموا ... الدين أمتن والسجية أكرم
خنتم ورمتم أن نخون ، وربما ... حاولتم أن يستخف يالمم (١) . »

---

(١) ومنها يقول

« وأردتم تضييق صدرلم يضق ... والبدر فى ثمر البحور نحطم
وزحفتم بجحافلكم لمجرب ... مازال يثبت للمحال فيهزم
أنى رجوتم غدر من جربتم ... منه الوفاء وظلم من لايظلم
أنا لكم لا الغى يثمر غرسه ... عندى ولامسى الصنيعة يهدم
كفوا . والافارقبوا لى بطشه ... يلقى السفيه بمثلها فيحلم »

وقد عرف ابن زيدون كيف يشكر له هذه اليد فى قصيدته الرائعة التى يقول فيها :

« وأرى المساعى كالسيوف تبادرت شأو المضاء ، فمنثن ومصمم
ولكم تسامى بالرفيع نصابه خطر ، فناصبه الوضيع الألأم »

وفيها يقول ويبدع :

« قل للبعاة المنبضين قسيهم سترون من تصميه تلك الأسهم
أسررتم ، فرأى نجى عيوبكم شيحان ، مدلول عليها ملهم
وعبأتم ـ للفسق ـ ظفر سعاية لم يعدكم أن ردّ وهو مقلم
ونبذتم التقوى وراء ظهوركم فغدا بعيضكم التقىّ الأكرم
ما كان حلم « محمد » ليحيله ـ عن عهده ـ دغل الضمير مذمم »

وفيها يقول بعد أن أغراه بأعدائه :

« فرق عوت ، فزأرت زأرة زاجر راع الكليب بها السبنتى الضيغم
ياليت شعرى هل يعود سفيههم أم قد حماه النصح ذاك المكعم
لى منك ـ فليذب الحسود تلظيا ـ لطف المكانة والمحلّ الاكرم
وشفوف حظ ليس يفتأ يجتلى غض الشباب وكل حظ يهرم . »

الى آخر هذه القصيدة الرائعة :

وقلما تخلو قصيدة من قصائده من مناسبة يخلقها خلقا . ويتطرّق منها الى الشكوى والألم من حساده ومنافسيه وما لقيه من كيدهم وعنتهم .

ومن أروع ماقاله فى ذلك ، قوله من قصيدة :

« كان الوشاة وقد منيت بأفكهم أسماط يعقوب وكنت الذيبا »

الى أن قال :

« أنا سيفك الصدئ الذى مهما تشأ تعد الصقال اليه والتذريبا »

وقوله :

« ايه «أبا الحزم» اهتبل غرّة ألسنة الشكر عليها فصاح
لاطار بى حظ إلى غاية ان لم أكن منك مريش الجناح
عتباك ـ بعد العتب ـ أمنية مالى على الدهر سواها اقتراح
لم يثنى عن أمل ماجرى قد يرقع الخرق وتؤسى الجراح »

وقوله :

« ماجال بعدك لحظى فى سنا القمر إلا ذكرتك ذكر العين بالأثر »

إلى أن قال :

« حسن أفانين لم تستوف أعيننا غاياته بأفانين من النظر . »

إلى أن قال :

«من يسأل الناس عن حالى ، فشاهدها ... محض العيان الذى يغنى عن الخبر
لم تطو برد شبابى كبرة وأرى ... برق المشيب اعتلى فى عارض الشعر
قبل الثلاثين إذ عهد الصبا كثب ... وللشبيبة غصن غير مهتصر
ها انها لوعة فى الصدر فادحة ... نار الأسى ومشيبى طائر الشرر
لا يهنئ الشامت المرتاح خاطره ... انى معنى الأمانى ضائع الخطر
هل الرياح بنجم الأرض عاصفة ؟ ... أم الكسوف لغير الشمس والقمر
إن طال فى السجن إيداعى فلا عجب ... قد يودع الجفن حدّ الصارم الذكر
وان يثبط ـ « أبا الحزم » الرضى ـ قدر ... عن كشف ضرّى فلاعتب على القدر
ما للذنوب ـ التى جانى كبائرها ... غيرى ـ يحمانى أوزارها وزرى
من لم أزل من تأنيه على ثقة ... ولم أبت من تجنيه على حذر . »

إلى أن قال :

« لاتله عنى فلم أسألك معتسفا ... ردّ الصبا بعد ايفاء على الكبر
واستوفر الحظ من نصح وصاغية ... كلاهما العلق لم يوهب ولم يعر
هبنى أسأت فكان العلق سيئة ... لاعذر منها سوى أنى من البشر
ان السيادة بالأغضاء لابسة ... بهاءها و بهاء الحسن فى الخفر . »

وقال :

« ولو أنى أسطيع كى أرضى العدا ... شريت ببعض الحلم حظا من الجهل . »

إلى أن قال :

« جواد إذا استنّ الجياد الى مدى ... تمطر فاستولى على أمد الخصل
ثوى صافنا فى مربط الهون يشتكى ... بتصهاله مانالله من أذى الشكل . »

إلى أن قال :

« أعدّك للجلى وآمل أن أرى ... بنعماك موسوما وما أنا بالعفل . »

ثم قال :

« أئن زعم الواشون مالبس منعما ... تعذّر فى نصرى وتعذر فى خذلى
وأصدى إلى إسعافك السائغ الجنى ... وأضحى إلى إنصافك السابغ الظلّ
* ولو أننى واقعت عمدا خطيئة ... لما كان بدعا من سجاياك أن تملى
فلم أستثر حرب « الفجار » ولم أطع ... «مسيلمة» إذ قال : انى من الرسل »

وانظر إلى قوله :

« فديتك كم ألقى العواثر من عدا ... قراهم ـ لنيران الفساد ـ ثقاب
عفا عنهم قدرى الرفيع فأهجروا ... وبانيهم خلقى الجميل فعابوا »

وقد تسمع الليث الجحاش نهيقها وتعلى إلى البدر النباح كلاب
إذا راق حسن الروض أو فاح طيبه فما ضرّه أن طنّ فيه ذباب . »

إلى أن قال :

« فأنت الحسام العضب أصدئ متنه وعطل منه مضرب وذباب
وما السيف مما يستبان مضاؤه إذا حاز جفن حده وقراب . »

وقوله :

« لا تستجز وضع قدرى بعد رفعكه فالله لا يرفع القدر الذى تضع . »

الى أن قال :

« ظن العدا اذ أغبت ـ أنها انقطعت هيهات ليس لمد البحر منقطع
لا بأس بالأمر ـ ان ساءت مبادئه نفس الشقيق ـ اذا ماسرت الرجع . »

الى أن قال :

« كم غرة لى تلقتها قلوبهم كما تلقى شهاب الموقد الشمع
اذا تأملت حبى عتب غشهم لم يخف من فلق الاصباح منصدع
تلك العرانين لم يصلح لها شمم فكان أهون مانيلت به الجدع
أودعت نعماك منهم شر مفترس لن يكرم الغرس حتى تكرم البقع
لازال جدك بالاعداء يصرعهم ان كان بين جدود الناس مصطرع »

ومأأروع قوله معتذرا عن هجره ابن جهور : « وهو يرى و يسمع أن بالحضرة قوما لا يحصرهم العدّ ، تحتمل سقطاتهم وتغتفر هفواتهم وتقال عثراتهم وما أعلم أنهم يدلون بوسيلة الا شاركتهم فيها ولا يمنون بذريعة ينفردون دونى بها » الخ .

وقوله :

« أرى نبوة لم أدر سرّ اعتراضها وقد كان يجلو عارض الهم أن أدرى
جفاء هو الليل ادهم ظلامه فلا كوكب للغدر فى أفقه يسرى
هب العزل أضحى للولاية غاية فما غاية الموفى من الظلّ أن يكرى
فنيم أرى ردّ السلام إشارة تسوغ بى ازراء من شاء أن يزرى
أناس هم أخشى للذعة مقولى إذا لم يكن مما فعلت لهم مضر »

وقوله :

« ألا هل أتى الفتيان أن فتاهم فريسة من يعدو ونهزة من يسطو
وأن الجواد الفائت الشأو صافن تخونه شكل وأزرى به ربط
وأن الحسام العضب ثاو بجفنه وماذم من غربيه قدّ ولا قط »

وقوله :

« مئون من الأيام خمس قطعتها أسيرا ، وان لم يبد شدّ ولا قط . »

وقال :

« وما زال يدنينى ، ويثنى قبوله هوى سرف منه وصاغية فرط . »

وقال :

« عدا سمعه عنى فأصغى الى عـدا لهـم فى أديمى كلما استمكنوا عط
بلغت المنى إذ قصروا فقلوبهـم مكامن أحقاد أساودها رقط . »

وقوله :

« ومثلى قد تهفو به نشوة الصبا ومثلك قد يعفو ، ومالك من مثل
وانى لتنهانى نهاى عن التى أشادبها الواشى ويعقلنى عقلى . »

الى أن قال :

« وما كنت بالمهدى الى السودد الخنا ولا بالمسىء القول فى الحسن الفعل . »

الى أن قال :

« هى النعل زلت بى ، فهل أنت مكذب لقيل الأعادى انها زلة الحسل . »

الى أن قال :

« ألا إن ظنى ـ بين فعليك ـ واقف وقوف الهوى بين القطيعة والوصل . »

الى أن قال :

« وأين جواب عنك ترضى به العلا اذا سألتنى بعد ألسنة الحفل . »

إلى آخر ما أبدعته هذه العبقرية الجبارة ، من الافتنان البارع ، فى صورها الشعرية التى لا تسامى .

٤ — حب ولادة

تمرّ شتى الحوادث بالانسان فينساها ولا تكاد تترك فى نفسه أثرا يذكر ، على أن لبعض الحوادث أثرا لا يمحى ، حيث تمرّ الأيام والشهور والسنون وهو باق فى ذهنه يؤثر فيه أعمق الأثر ، و يطبع نفسه بطابع خاص ، ومن الحوادث التى أثرت فى نفس ابن زيدون وشعره ونثره أكبر الأثر ، حادثان : حب ولادة . وحبسه زهاء عامين .

فأما حب ولادة فقد ألهب نفسه إلهابا وأكسبها شاعرية خصبة ففاضت بأعذب الشعر وأبدعت فى ضروب الغزل ماشاء لها أن تبدع ، وأخرجت لنا أروع قصائده الغزلية ، وألهمته أسمى ألوان الخيال العالى والغزل الرقيق . كقوله :

« ودع الصبر محب ودعك ذائع من سره مااستودعك »

وقوله :

«أما منى نفسى ، فأنت جميعها ياليتنى أصبحت بعض منالك
يدنو بوصلك حين شط مزاره وهم أكاد به أقبل فاك »

وقوله :

« كان التجارى بمحض الودّ مذ زمن ميدان أنس جرينا فيه أطلاقا
فالآن أحمد ما كنا لعهدكم سلوتم و بقينا نحن عشاقا »

وقوله فى نفس القصيدة :

« لا سكن الله قلبا عنّ ذكركم فلم يطر بجناح الشوق خفاقا »

وقوله من قصيدة أخرى :

« ياليل طل ، لاأشتهى إلا بوصل قصرك »
« لو كان عندى قرى ما بت أرعى قمرك »

وقوله :

« بينى و بينك مالو شئت لم يضع سر اذا ذاعت الأسرار لم يذع »

وقوله :

« بنتم و بنا فما ابتلت جوانحنا شوقا إليكم ولا جفت مآقينا »

إلى أن يقول :

« ماحقنا أن تقرّوا عين ذى حسد بنا ولا أن تسروا كاشحا فينا »
« غيظ العدامن تساقينا الهوى فدعوا بأن نغص فقال الدهر آمينا »
« فانحلّ ما كان معقودا بأنفسنا وأنبت ما كان موصولا بأيدينا »

وقوله :

« لاستجدنّ ـ فى عشق لها ـ زمنا ينسى سوالف أيامى وأزمانى

حتى تكون لمن أحببت خاتمة نسخت ـ فى حبها ـ كفرا بإيمان »

وقوله :

« إن ساء فعلك بى ، فما ذنبى أنا ؟ حسب المتيم انه قد أحسنا
لم أسل حتى كان عذرك ـ فى الذى أبديته ـ أخفى وعذرى أبينا
ولقد شكوتك ـ بالضمير ـ الى الهوى ودعوت ـ من حنق ـ عليك فأمنا
منيت نفسى ـ من وفائك ـ خلة ولقد تغرّ المرء بارقة المنى »

وقوله :

« أغائبة عنى وحاضرة معى أناديك ـ لما عيل صبرى ـ فاسمعى
أفى الحق أن أشقى بحبك أو أرى حريقا بأنفاسى ، غريقا بأدمعى
ألا عطفة تحيا بها نفس عاشق ؟ جعلت الردى منه بمرأى ومسمع
صلينى ـ بعض الوصل ـ حتى تبينى حقيقة حالى ، ثم ما شئت فاصنعى »

وقوله :

« قد كان ـ فى شكوى الصبابة ـ راحة لو أننى أشكو إلى من يرحم

وقوله :

« لما اتصلت اتصال الحب بالكبد ثم امتزجت امتزاج الروح بالجسد
ساء الوشاة مكانى منك واتقدت ـ فى صدر كل عدوّ ـ جمرة الحسد
فليسخط الناس لا أهد الرضى لهم ولا يضع لك عهد آخر الأبد
لو استطعت ـ اذا ما كنت غائبة ـ غضضت طرفى فلم أنظر الى أحد »

وقوله :

« ياليل خبر : انى التذ عنه خبرك
بالله قل لى : هل وفى ؟ فقال : « لا . بل عذرك »

وقوله :

« لئن فاتنى منك حظ النظر لأكتفين بسماع الخبر
وان عرضت غفلة للرقيـ ـب فسبى تسليمة تختصر
أحاذر أن تتظنى الوشا ة ، وقد يستدام الهوى بالحذر
واصبر مستيقنا انه سيحظى ـ بنيل المنى ـ من صبر »

وقوله :

« أشمت بى فيك العدا و بلغت ـ من ظلمى ـ المدى
لو كان يملك فدية ـ من حبك القلب افتدى
كنت الحياة لعاشق ـ مذ حلت ـ أيقن بالردى

لم يسل عنك ولو سلا لعذرته ، فبك اقتدى »

وقوله :

« أبديت لى ـ من أفانين القلى ـ عبرا أرسلتنى ـ فى أحاديث الهوى ـ مثلا
لم تبق جارحة بالهجر من جسدى الا خلعت عليها ـ بالضنى ـ حللا
فليغن كفك انى بعض من ملكت وليكف طرفك انى بعض من قتلا
ولتقض ماشئت ـ من هجر ومن صلة ـ لاأقض ماعشت سلوانا ولا مللا
سقيا لعهدك والأيام تقبلنى وجه السرور به جذلان مقتبلا
إذ الزمان بليغ فى مساعدتى يهدى الى ـ تفاريق المنى ـ جلا
ان كان لى أمل الا رضاك فلا بلغت يا أملى ـ من دهرى الأملا »

وقوله :

« انى لأعجب من شوق يطاولنى وكلما قيل فيه : « قد قضى » ثابا
كم نظرة لك فى عينى علمت بها ـ يوم الزيارة ـ أن القلب قد ذابا
قلب يطيل مقاماتى لطاعتكم ـ فان أكامه عنكم سلوة يابى
ماتوبتى بنصوح ـ من محبتكم لا عذب الله الا عاشقا تابا »

وقوله :

« معاهد لهو لم تزل فى ظلالها تدار علينا ـ للمجون ـ مدام
زمان رياض العيش خضر نواضر ترف وامواه السرور جمام
فان بان منى عهدها ، فلوعة يشب لها ـ بين الضلوع ـ غرام
تذكرت أيامى بها فتبادرت دموع كما خان الفريد نظام
وصحبة قوم كالمصابيح كلهم اذا هز للخطب الملم ـ حسام . »

الى أن قال :

« محل غنينا بالتصابى خلاله فأسعدنا ، والحادثات نيام
فما لحقت تلك الليالى ملامة ولا ذم ـ من ذاك الحبيب ـ ذمام »

وقوله : وهو بطليوس من قصيدة رائعة :

« إن قرت العين بأن أعوبا لم آل أن أسترضى الغضوبا
حسبى ان أحرم المغيبا قد يدفع المذنب أن يتوبا »

وقوله :

« لم ينجنى منك مااستشعرت من حذر هيهات كيد الهوى يستهلك الحذرا
ماكان حبك الا فتنة قدرت هل يستطيع فتى أن يدفع القدرا »

وقوله :

« ماالذى ضرك لو سر بمرآك الحزين

وتلطفت لصـــب حينه فيك يحين »

وقوله :

« ماضر لو أنك لى راحـم وعلـتى أنت بها عالم
يهنيك ياسؤلى ويابغيـتى انك بما أشتـــكى سالم
تضحك فى الحب وأبكى أنا الله ـ فيما بيننا ـ حاكم
أقول لما طار عنى الكرى قول معـنى قلبـه هائم
يا نائما أيقظنى حـــــه هب لى رقادا أيها النائم »

وقوله :

« هلا جعلت ـ فدتك نفسى غاية للعتب أبلغها بجهد الجاهد
لاتفسدن ما قد تأكد بيننا ـ من صالح ـ خطرات ظن فاسد
حاشاك من تضييع ألف وسيلة شجى العدو لها بذنب واحد
ان أجنـه خطأ فقـد عاقبتنى ظلما بأبلغ من عقاب العامد »

وقوله :

« علام اطلتك دواعى القلى ؟ وفيم ثنتك نواهى العذل ؟
ألم الزم الصبر كيما أحف ؟ ألم أكثر الهجر كى لاأمل ؟
ألم أرض منك بغير الرضى وأبدى السرور بما لم أنل ؟
ألم اغتفر موبقات الذنو ب عمدا أتيت بها أم زلل ؟
وما ساء ظنى فى أن يسىء بى الفعل حسنك حتى فعل
على حين أصبحت حسب الضمير ولم تبغ منك الأمانى بدل
وصانك منى وفى أبى لعلق العلاقة أن يبتذل »

وقوله :

« عليك السلام سلام الوداع وداع هوى مات قبل الأجل
وما باختيار تسليت عنـــك ولكننى مكره لابطل
ولم يدر قلبى كيف النزوع إلى أن رأى سيرة فامتثل »

إلى آخر هذه القصيدة التى تحلق بك فى جوّ العباس بن الأحنف ، حتى ليخيل إليك أنها من شعره قد ألحقها بديوانه الحافل بهذه الروح الحائرة القلقة .

« يامن غدوت به فى الناس مشتهرا قلبى عليك يقاسى الهمّ والفكرا
إن غبت لم ألق إنسانا يؤنسنى وان حضرت فكل الناس قد حضرا »

وانظر إلى قوله وقد هاجته الذكرى الى قرطبة :

« سقى الله أطلال الأحبة بالحمى وحاك عليها ثوب وشى منمنما
وأطلع فيها للأزاهير أنجما فكم رفلت فيها الخرائد كالدمى
إذ العيش غض والزمان غلام »

وما أروع قوله فى تلك الموشحة الساحرة :

« أهيم بجبار يعز وأخضع شذا المسك من أردانه يتضوع
اذا جئت أشكوه الجوى ليس يسمع فما أنا فى شىء من الوصل أطمع
ولا أن يزور المقلتين منام »

الى أن يقول :

« فقل لزمان قد تولى نعيمه ورثت ـ على مر الليالى ـ رسومه
وكم رق فيه ـ بالعشى ـ نسيمه ، ولاحت ـ لسارى الليل فيه نجومه
عليك من الصب المشوق سلام »

وقوله فى ذكرى قرطبة وولادة ومجالس أنسه :

« أقرطبة العراء ، هل فيك مطمع وهل كبد حرى لبينك تنقع
وهل لياليك الحميدة مرجع اذ الحسن مرأى فيك واللهو مسمع
واذ كنف الدنيا لديك موطأ »

« أليس عجيبا أن تشط النوى بك فأحيا كأن لم أنس نفح جنابك
ولم يلتئم شعبى خلال شعابك ولم يك خلق بدؤه من ترابك
ولم يكتنفنى ـ من نواحيك ـ منشأ »

الى أن يقول :

« معاهد أبكيها لعهد تصرما أغض من الورد الجنى وأنعما
لسا الصبا فيها حبرا منمنما وقدنا إلى اللذات جيشا عرمرما
له الأمن ردء والعداوة مربأ »

وقوله :

« أإخواننا للواردين مصادر ولا أول إلا سيتلوه آخر
وإنى لاعتاب الزمان لناظر فقد يستقيل الجد ، والجد عاثر
وتحمد عقبى الأمر مازال يشنأ »

وما أبدع قوله :

« وان بلادا هنت فيها لأهون ومن رام مثلى بالدنية أدنأ . »

الى آخر هذه القصائد الفذة التى يفخر بها الأدب العربى والبيان العربى . والتى كان الباعث الأول على نظمها العجيب وصوغها المعجز هو حب ولادة .

٥ — ادب ابن زيدون

قلما يظفر الانسان بأديب عربي يحمل لواء الزعامتين فى النظم والنثر ، فان أغلب مانشاهده أن يبدع الأديب فى أحد النوعين إبداعا يغطى على إبداعه فى الآخر ، أما ابن زيدون فانك تقرأ نثره فلا تكاد تصدّق أن شعره يتسامى إلى مثل هذه المرتبة العالية ، فاذا عدت الى شعره أنساك إبداعه روعة ما قرأت من نثره ، وهكذا لاتكاد تقرأ قطعة مختارة من شعره أو نثره حتى تملأ نفسك بهجة وسرورا وينسيك سحرها كل شيء آخر . وليس من الانصاف أن نقول إنه شاعر ممتاز فحسب أو ناثر ممتاز فقط ، وما أجدرنا أن ننصفه فنقول إنه زعيم من زعماء البيان العربى .

لقد قضى ابن زيدون حياته بين الدرس والتحصيل والتجارب والاختبار والاتصال بكبار ساسة عصره ودهاتهم ، وصهر قلبه حبّ ولادة كما أسلفنا ، وحنينه الى وطنه ، وأثر فى نفسه الشاعرة الحساسة مامتازت به الأندلس من جمال التربة وصفاء الجوّ ، ولقى من السعادة والتمتع بالحسن أشهى وأعذب مالقى محبّ ، ثم لقى من لوعة الصدّ والهجران أشقى وأمرّ مالقى إنسان :

« حسن أفانين لم تستوف أعينا غاياته بأفانين من النظر »

ولقد نعم بصولجان السلطة والقوّة حينا من الدهر ثم شقى بالسجن بين الأشرار والمجرمين زمنا غير قليل ، ولقى من كيد المنافسين والحساد كما أسلفنا مالم يلقه أحد . فلا غرو أن تتضافر كل هذه العوامل القوية على خلق الشاعر العظيم . وأنت إذا درست أدب ابن زيدون دراسة مستفيضة رأيته خليقا بأن يقول كما قال فيلسوف المغرب :

« مامر فى هذه الدنيا بنو زمن إلا وعندى من أخبارهم طرف »

ولقد ترى فى أدبه أمثلة من ثقافة المعرى وسعة اطلاعه وتمكنه من اللغة ، ومحافظته على أساليبها ، كما ترى فيه أمثلة من صناعة أبى تمام ونظم البحترى واسترسال ابن الرومى وقوة أداء المتنبى .

وإنك لتقرأ أكثر غزله فيخيل اليك لسهولته أنك تحلق فى أجواء العباس بن الأحنف والشريف الرضى والمجنون ، ثم تقرأ اخوانياته فيخيل اليك لاسترساله وافتنانه فى ضروب القول ، انك تقرأ ابن الرومى وهو يخاطب أبا القاسم التوزى بهمزيته المشهورة ، ثم تقرأ رسائله فيخيل إليك أنك تقرأ رسائل الجاحظ فى براعة الاستخفاف والتهكم أو رسائل المعرى فى سعة الاحاطة وكثرة الاستشهاد ، والولوع بالأمثال .

وقد كان ابن زيدون زعيم شعراء عصره فى الأندلس فلا غرو أن يكون أدبه أصدق مرآة يتجلى فيها أدب هذا العصر الزاهى وثقافته .

وقد كان يجمع ـ إلى حسن رويته ـ قوة الذلاقة وسرعة البديهة ، وقلما يتفق لأديب عمق التفكير مع ذلاقة اللسان ، فقد روى صاحب نفح الطيب محدثا عن ذلاقة ابن زيدون: أن ابنته توفيت ، و بعد الفراغ من دفنها ، وقف للناس عند منصرفهم من الجنازة ليشكر لهم ، فقيل ، إنه ماأعاد فى ذلك الوقت عبارة قالها لأحد ، قال الصفدى : « وهذا من التوسع فى العبارة والقدرة على التفنن فى أساليب الكلام،وهو أمر صعب إلى الغاية » الى أن قال ـ بعد أن قارن بينه و بين واصل بن عطاء فى تجنبه الراء ، وأما ابن زيدون فأقول فى حقه : «أقلّ ما كان فى تلك الجنازة ـ وهو وزير ـ ألف رئيس ممن يتعين له أن يتشكر له و يضطرّ الى ذلك فيحتاج فى ذلك إلى ألف عبارة مضمونها الشكر وهذا كثير الغاية لاسيما من محزون فقد قطعة من كبده :

« ولكنه صوب العقول اذا انبرت سحائب منه أعقبت بسحائب . »

ومهما كان فى هذا الخبر من الاسراف ، فان بعضه كاف فى الدلالة على فضله .

وكان ابن زيدون إلى ذلك إماما من أئمة عصره حتى قال بعض الأدباء فيه :

« من لبس البياض وتختم بالعقيق وقرأ لأبى عمرو وتفقه للشافعى وروى شعر ابن زيدون ، فقد استكمل الظرف » .

كامل كيلانى

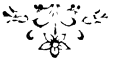

فى السجن (١)

« نظم ابن زيدون هذه القصيدة الفياضة بالألم واللوعة والحزن ، وهو فى السجن ، وبعث بها إلى صديقه الوزير الكاتب أبى حفص بن برد »

مَا عَلَى ظَنِّىَ بَاسُ (٢) يَجْرَحُ الدَّهْرُ وَيَاسُو (٣)
رُبَّمَا أَشْرَفَ بِالْمَرْ ءِ عَلَى الآمَالِ يَاسُ
وَلَقَدْ يُنْجِيكَ إِغْفَا لٌ وَيُرْدِيكَ (٤) اُحْتِرَاسُ
وَالْمَحَاذِيرُ سِهَامٌ وَالْمَقَادِيرُ قِيَاسُ (٥)
وَلَكَمْ أَجْدَى (٦) قُعُودٌ وَلَكَمْ أَكْدَى (٧) الْتِمَاسُ
وَكَذَا الدَّهْرُ (٨) — إِذَا مَا عَزَّ نَاسٌ — ذَلَّ نَاسُ
وَبَنُو الْأَيَّامِ أَخْيَا فٌ سَرَاةٌ وَخِسَاسُ (٩)

---

(١) جاء فى قلائد العقيان :

« وله عنـد فقد الوفاء من أخلاقه ، يخاطب أبا حفص بن برد ، وقد جار ولم يجـد هاديا ، وصار رهينا يرجو فاديا ، وعلم أن الناس متقلبون ، وعلى من انقلب الدهر منقلبون ، لا يديهم فى الشدة إخاء ، ولا تنبهم عن دوى الحظوة زهو ولا انتخاء .

ما على ظنى باس يجرح الدهر ويأسو »

وقد ذكرت بترتيب يخالف هذا الترتيب الذى ننقله عن سحق الديوان .

(٢) ويروى : « ما على طبى باس » . (٣) يداوى . (٤) وفى روايه : « وبؤذيك احتراس »

(٥) جمع قوس : عن يعقوب وأبى عبيد فهو على فعال ، وأصله قواس قلبت الواو ياء لمناسبة الكسرة ، يشاهده قول القائل :

« ووتر الأساور القياسا صفدية تنتزع الأنفاسا »

(٦) أغنى : أو أفاد . (٧) احفق ولم يفز — يقول : كثيراً ما يكون القعود عن المطلب سببا فى الظفر والفوز والسعى سبباً فى الاحفاق والحرمان ، وقد تهافت الشعراء على هذا المعنى كثيراً ، ومن أحسن ما جاء فيه قول بن زريق :

والسعى فى الرزق والأرزاق قد قسمت بغى ألا إن بغى المرء يصرعـه

(٨) فى رواية : « وكذا الحكم » .

(٩) الناس أخياف : أى مختلفون ، شريف وخسيس . قال أحد الأعراب : « الناس أخياف وشتى فى الشيم »

نَلْبَسُ الدُّنْيَا ، وَلٰكِنْ مُتْعَةٌ ذَاكَ اللِّبَاسُ (١)
يَا أَبَا حَفْصٍ وَمَا سَا وَاكَ فِي فَهْمٍ إِيَاسُ (٢)
مِنْ سَنَا (٣) رَأْيِكَ لِي فِي غَسَقٍ (٤) الخَطْبِ اقْتِبَاسُ
وَوِدَادِي لَكَ نَصٌّ (٥) لَمْ يُخَالِفْهُ قِيَاسُ (٦)
أَنَا حَيْرَانُ وَلِلْأَمْرِ وُضُوحٌ وَالْتِبَاسُ
مَا تَرَى فِي مَعْشَرٍ حَا لُوا عَنِ الْعَهْدِ وَخَاسُوا (٧)
وَرَأَوْنِي سَامِرِيًّا (٨) يُتَّقَى مِنْهُ المَسَاسُ
أَذْؤُبٌ هَامَتْ بِلَحْمِي فَانْتِهَاشٌ (٩) وَانْتِهَاسُ
كُلُّهُمْ يَسْأَلُ عَنْ حَا لِي وَلِلذِّئْبِ اعْتِسَاسُ (١٠)

---

(١) يشير إلى قوله تعالى : « وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » .

(٢) هو القاضي إياس بن معاوية بن إياس المزني ولي القضاء في زمن عمر بن عبد العزيز ، وكان يضرب به المثل في الألمعية :

والألمعي الذي يظن بك الظن كأن قد رأى وقد سمعا

وإياس هذا هو من عناه الحريري بقوله في المقامة السابعة « فاذا ألمعي ألمعية ابن عباس ، وفراسي فراسة إياس » وعناه أبو تمام في قصيدته السينية بقوله :

اقدام عمر في سماحة حاتم في حلم أحنف في ذكاء إياس

(٣) من ضوء رأيك (٤) طلمة (٥) النصّ : السند المقطوع بصحته والتعيين على شيء ، وهو في عرف الفقهاء ، مقطوع بصحته فلا يخالفه قياس ، فكأنه يقول : إنّ ودادي مسند إليك ، أو هو موقوف عليك ، أو متعين لك ، وقد استعمل الشاعر لفظي النصّ والقياس في الشعر ، وهما من مصطلحات الفقهاء على عادته في ذلك ، وهو يشير بذلك إلى اصطلاح الفقهاء إذ يعتبرون النص والقياس من مآخذ الأحكام الشرعية ، والأول صريح نص القرآن أو الحديث ، والثاني إلحاق قضية — لا نص فيها — بقضية أخرى منصوصة لاشتراكهما في علة حكم الأولى (٦) وفي رواية : القياس

(٧) حاروا (٨) السامريّ : عظيم من بني إسرائيل عبد العجل . قال الكشاف : عوقب في الدنيا بعقوبة لاشيء أطمّ منها وأوحش ، وذلك أنه منع من مخالطة الناس منعاً كلياً ، وحرم عليهم ملاقاته ومكالمته ومبايعته ومواجهته وكلّ ما يعايش الناس به بعضهم ، وإذا مسّ أحداً رحلا أو امرأة حمّ الماس والممسوس ، فتحامى الناس وتحاموه ، وكان يصيح في الناس « لا مساس » .

(٩) الانتهاش بالشيء : الأخذ بالأضراس ، وبالسين : الأخذ بمقدم الأسنان ، وفي رواية : فانتهاب وانتهاس

(١٠) طلب الصيد بالليل ، ومعنى الأبيات أن أعداءه كالذئاب لاينون عن نهش لحمه ، متظاهرين بالتودد له والاشفاق عليه ، فهم يسألون عن حاله متجسسين ، كما يتجسس الذئب ليتعرف مواطن فريسته .

* * *

إِنْ قَسَا الدَّهْرُ فَلِلْمَا ءِ مِنَ الصَّخْرِ انْبِجَاس (١)
وَلَئِنْ أَمْسَيْتُ مَحْبُو سًا فَلِلْغَيْثِ احْتِبَاسُ
يَلْبُدُ (٢) الْوَرْدُ السَّبَنْتَى وَلَهُ بَعْدُ افْتِرَاسُ

* * *

فَتَأَمَّلْ كَيْفَ يَغْشَى مُقْلَةَ الْمَجْدِ النُّعَاسُ
وَيُفَتُّ الْمِسْكُ فِى التُّرْ بِ فَيُوطَا وَيُدَاسُ

* * *

لَا يَكُنْ عَهْدُكَ وَرْداً إِنَّ عَهْدِى لَكَ آسُ (٣)
وَأَدِرْ ذِكْرِىَ كَأْساً مَا امْتَطَتْ كَفُّكَ كَاسُ
وَاغْتَنِمْ صَفْوَ اللَّيَالِى إِنَّمَا الْعَيْشُ اخْتِلَاسُ
وَعَسَى أَنْ يَسْمَحَ الدَّهْـ ـرُ فَقَدْ طَالَ الشِّمَاسُ (٤)

---

(١) أى تشقق ينبع منه الماء ، وفى القرآن الكريم : « وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء » (٢) يلصق بالأرض ملازماً عريسه لايبرحه والورد من أسماء الأسد ، والسبنى الجرىء ، ومنه فى صفة أبى لؤلؤة قاتل عمر بن الخطاب رضى الله عنه . قول الشماخ :

حزى الله خيراً من إمام وبارك يد الله فى ذاك الأديم الممزق
وما كسب أحشى أن تكون وفاته بكفى سبنى أزرق العين مطرق

والسبنى النمر أيضاً ، وفى الذخيرة لابن بسام قوله : يلبد الورد السبنى البيت ، كقول النابغة :

وقلت يا قوم ان الليث منقبض على براثنه للوثبة الضارى

وأخذه ابن الرومى فقال :

سكنت سكوناً كان وهناً لوثبة عماس كذاك الليث للوثب يلبد

(٣) يقول : لا يكن عهدك كالورد فى سرعة الذبول ، فان عهدى دائم كالآس ، ويفسر هذا المعنى قول العباس بن الأحنف :

ولكننى شبهت بالورد عهدها وليس يدوم الورد والآس دائم

(٤) وفى رواية ثانية : « وقد طال التماس » ومعنى الرواية الأولى أن عصيان الدهر وتمرده قد طالا .

ذكرى أيام الوصال [١]

« كتب ابن زيدون هذه القصيدة الفذّة ، يتحسر فيها على انقضاء أيام الوصال و يشكو فيها ما يحسه من الوجد المبرح والألم القاسى ، وقد بعث بها إلى حبيبته «ولادة بنت المستكفى » أديبة الأندلس الفذّة ، يستعطفها و يتلهف على أيام الوصال السابقة »

أَضْحَى التَّنَائِى بَدِيلاً مِنْ تَدَانِينَا ... وَنَابَ [٢] عَنْ طِيبِ لُقْيَانَا بِجَافِينَا

أَلاَ [٣] وَقَدْ حَانَ صُبْحُ الْبَيْنِ صَبَّحَنَا ... حَيْنٌ فَقَامَ بِنَا لِلْحَيْنِ نَاعِينَا

مَنْ مُبْلِغُ الْمُلْبِسِينَا بِانْتِزَاحِهِمِ ... حُزْنًا مَعَ الدَّهْرِ لاَ يَبْلَى وَيُبْلِينَا

أَنَّ الزَّمَانَ الَّذِى مَا زَالَ يُضْحِكُنَا ... أُنْسًا بِقُرْبِهِمُ قَدْ عَادَ يُبْكِينَا

غِيظَ الْعِدَا مِنْ تَسَاقِينَا الْهَوَى فَدَعَوْا ... بِأَنْ نَغَصَّ [٤] فَقَالَ الدَّهْرُ آمِينَا

فَانْحَلَّ مَا كَانَ مَعْقُودًا بِأَنْفُسِنَا ... وَانْبَتَّ مَا كَانَ مَوْصُولاً بِأَيْدِينَا

وَقَدْ نَكُونُ وَمَا يُخْشَى تَفَرُّقُنَا ... فَالْيَوْمَ نَحْنُ وَمَا يُرْجَى تَلاَقِينَا

---

(١) جاء فى قلائد العقيان :

« ولم يزل يروم دنو ولادة فيتعذر، ويباح دمه دونها ويهدر، لسوء أثره فى ملك قرطبة ووالديها ، وقبائح كان ينسبها اليه ويواليها ، أحقدت بى جهور عليه ، وسددت أسنتهم اليه ، فلما يئس من لقياها ، وحجب عنه محياها ، كتب اليها يستديم عهدها ، ويؤكد ودها ، ويعتذر من فراقها بالخطب الذى غشيه ، والامتحان الذى حشيه ، ويعلمها أنه ماسلا عنها بحمر ، ولا خبا مابين ضلوعه لها من ملتهب جمر ، وهى قصيدة ضربت فى الابداع بسهم ، وطلعت فى كل خاطر ووهم ، ونزعت منتزعاً قصر عنه حبب وابن الجهم »

وقد عارض هذه القصيدة كثير من الشعراء — من قدماء ومحدثين — وقد أثبتنا شيئاً من ذلك فى غير هذا المكان من الكتاب فليرجع اليه من شاء (٢) رواية الديوان « بان » .

(٣) لغة فى هلاّ ، والحين الهلاك ، والمعنى هلا صبحنا الهلاك صبيحة يوم الفراق — كأن الهجر والموت فى نظر الشاعر سيان مادام كلاهما يبعده عمن يحبه ويهواه بل الموت أروح لأنه فراق اضطرار ، أما الهجر فانه عن اختيار (٤) غصّ بالماء شرق به أو وقف فى حلقه .

* * *

يَالَيْتَ شِعْرِى وَلَمْ نُعْتِبْ(١) أَعَادِيَكُمْ ... هَلْ نَالَ حَظًّا مِنَ الْعُتْبَى أَعَادِينَا

لَمْ نَعْتَقِدْ بَعْدَكُمْ إِلاَّ الْوَفَاءَ لَكُمْ ... رَأْيًا وَلَمْ نَتَقَلَّدْ غَيْرَهُ دِينَا

مَا حَقَّنَا أَنْ تُقِرُّوا عَيْنَ ذِى حَسَدٍ ... بِنَا وَلاَ أَنْ تَسُرُّوا كَاشِحًا فِينَا

* * *

كُنَّا نَرَى الْيَأْسَ تَسْلِينَا عَوَارِضُهُ ... وَقَدْ يَئِسْنَا فَمَا لِلْيَأْسِ يُغْرِينَا (٢)

بِنْتُمْ (٣) وَبِنَّا فَمَا ابْتَلَّتْ جَوَانِحُنَا ... شَوْقًا إِلَيْكُمْ وَلاَ جَفَّتْ مَآقِينَا

نَكَادُ حِينَ تُنَاجِيكُمْ ضَمَائِرُنَا ... يَقْضِى عَلَيْنَا الْأَسَى (٤) لَوْلاَ تَأَسِّينَا (٥)

حَالَتْ لِفَقْدِكُمُ أَيَّامُنَا فَغَدَتْ ... سُودًا وَكَانَتْ بِكُمْ بِيضًا لَيَالِينَا

إِذْ جَانِبُ الْعَيْشِ طَلْقٌ مِنْ تَأَلُّفِنَا ... وَمَرْبَعُ اللَّهْوِ صَافٍ مِنْ تَصَافِينَا

وَإِذْ هَصَرْنَا (٦) فُنُونَ (٧) الْوَصْلِ دَانِيَةً ... قِطَافُهَا فَجَنَيْنَا مِنْهُ مَا شِينَا

لِيُسْقَ (٨) عَهْدُكُمُ عَهْدُ السُّرُورِ فَمَا ... كُنْتُمْ لِأَرْوَاحِنَا إِلاَّ رَيَاحِينَا

لاَ تَحْسَبُوا نَأْيَكُمْ عَنَّا يُغَيِّرُنَا ... إِنْ طَالَمَا غَيَّرَ النَّأْىُ الْمُحِبِّينَا

---

(١) أعتبه أعطاه العتبى أى أرضاه ، يقول : إننا لم نرض أعداءكم ، فهل أنتم كذلك لم ترضوا أعداءنا

(٢) كنا نظنّ أن اليأس يسلى ، فما بال يأسنا منكم يزيدنا ولوعا بكم ، وفى هذا المعنى يقول المجنون :

أليس وعدتنى يا قلب انى ... إذا ماتبت عن ليلى تتوب

فها أنا تائب عن حب ليلى ... فمالك كلما ذكرت تذوب

(٣) بعدتم وبعدنا (٤) الحزن (٥) التعزى

(٦) هصر الغصن : إمالته (٧) ضروبه وأنواعه أو الفنون جمع فن ، وهو الغصن وما تشعب منه ، فى اللسان (قال أبو الهيثم : الفنون تكون فى الأغصان ، والأغصان تكون فى الشعب ، والشعب تكون فى السوق) فكان الشاعر استعار للوصل أفنانا يهصرها أى يميلها إليه كلما أراد اقتطاف زهرها ، واجتناء ثمرها (٨) أى سقياً لعهدكم عهد السرور أى بابدال الثانى من الأوّل لتبيينه وتعريفه

وَاللهِ مَا طَلَبَتْ (١) أَهْوَاؤُنَا بَدَلاً ... مِنْكُمْ وَلَا انْصَرَفَتْ عَنْكُمْ أَمَانِينَا

* * *

يَا سَارِيَ الْبَرْقِ غَادِ (٢) الْقَصْرَ وَاسْقِ بِهِ ... مَنْ كَانَ صِرْفَ الْهَوَى وَالْوُدِّ يَسْقِينَا

وَاسْأَلْ هُنَالِكَ هَلْ عَنَّى (٣) تَذَكُّرُنَا ... إِلْفًا تَذَكُّرُهُ أَمْسَى يُعَنِّينَا

وَيَا نَسِيمَ الصَّبَا بَلِّغْ تَحِيَّتَنَا ... مَنْ لَوْ عَلَى الْقُرْبِ حَيَّا كَانَ يُحْيِينَا

فَهَلْ أَرَى الدَّهْرَ يَقْضِينَا مُسَاعَفَةً ... مِنْهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ غِبًّا تَقَاضِينَا (٤)

* * *

رَبِيبُ مُلْكٍ كَأَنَّ اللهَ أَنْشَأَهُ ... مِسْكًا (٥) وَقَدَّرَ إِنْشَاءَ الْوَرَى طِينَا

أَوْ صَاغَهُ وَرِقًا (٦) مَحْضًا وَتَوَّجَهُ ... مِنْ نَاصِعِ التِّبْرِ إِبْدَاعًا وَتَحْسِينَا

إِذَا تَأَوَّدَ آدَتْهُ رَفَاهِيَةً ... تُومُ الْعُقُودِ وَأَدْمَتْهُ الْبُرَى لِينَا (٧)

كَانَتْ لَهُ الشَّمْسُ ظِئْرًا (٨) فِي أَكِلَّتِهِ (٩) ... بَلْ مَا تَجَلَّى لَهَا إِلَّا أَحَايِينَا

كَأَنَّمَا أُثْبِتَتْ فِي صَحْنِ وَجْنَتِهِ ... زُهْرُ الْكَوَاكِبِ تَعْوِيذًا وَتَزْيِينَا (١٠)

---

(١) وفى رواية : « ما اطرفت » استحدثت ، بدلا طريفا ، يقسم أنه ما استحدث هوى جديداً بعد هوى أحبابه ، (٢) باكره بالعمام أول النهار

(٣) هل شغل من يألفه مذكرنا كما شغلنا تذكره .

(٤) العِدّ فى الزيارة أن تكون كل أسبوع ، والمقصود هنا القلة . يقول الشاعر :

إننا لم نتقاض الوصال من الدهر غبا ، ولكننا تقاضيناه بالحاح. فهل ترى الدهر — بعد هذا — يسعفنا باللقاء ؟

(٥) ليس هذا المحبوب مخلوقا من طين أو تراب كسائر البشر كلا ، وإنما هو طينة من المسك ولا زال الشعراء المحدثون يتقالون فيمن يحبون إلى الآن ، حتى قال بعضهم أخيراً لمحبوبته :

أنت روحانية لا تدعي أن هذا الحسن من طين وماه

(٦) فضة ، يريد أن الله أبدعه ناصع البياض وتوجه بشعر ذهبي (٧) يقول إذا تثنى آدته أى أثقلته وشق حملها عليه (توم) أى لآلئ العقود وجرحته (البرى) أى الخلاخيل ، وذلك لرفاهته

(٨) مرضعة (٩) جمع كلة : وهى ستر رقيق يتقى من البعوض

(١٠) يعنى أن جماله استمار زهر الكواكب لتكون زينة له ، وتعويذه من عيون حاسديه

مَاضَرَّ أَنْ لَمْ نَكُنْ أَكْفَاءَهُ شَرَفًا ... وَفِى الْمَوَدَّةِ كَافٍ مِنْ تَكَافِينَا

* * *

يَا رَوْضَةً طَالَمَا أَجْنَتْ لَوَاحِظَنَا ... وَرْدًا جَلَاهُ الصِّبَا غَضًّا وَنَسْرِينَا

وَيَا حَيَاةً تَمَلَّيْنَا (١) بِزَهْرَتِهَا ... مُنًى ضُرُوبًا وَلَذَّاتٍ أَفَانِينَا

وَيَا نَعِيمًا خَطَرْنَا مِنْ غَضَارَتِهِ (٢) ... فِى وَشْيِ (٣) نُعْمَى سَحَبْنَا ذَيْلَهُ حِينَا

لَسْنَا نُسَمِّيكَ إِجْلَالًا وَتَكْرِمَةً ... وَقَدْرُكَ الْمُعْتَلِى عَنْ ذَاكَ يُغْنِينَا

إِذَا انْفَرَدْتَ وَمَا شُورِكْتَ فِى صِفَةٍ ... فَحَسْبُنَا الْوَصْفُ إِيضَاحًا وَتَبْيِينَا

* * *

يَا جَنَّةَ الْخُلْدِ أُبْدِلْنَا بِسِدْرَتِهَا ... وَالْكَوْثَرِ الْعَذْبِ زَقُّومًا وَغِسْلِينَا

كَأَنَّنَا لَمْ نَبِتْ وَالْوَصْلُ ثَالِثُنَا ... وَالسَّعْدُ قَدْ غَضَّ (٤) مِنْ أَجْفَانِ وَاشِينَا

سِرَّانِ فِى خَاطِرِ الظَّلْمَاءِ يَكْتُمُنَا ... حَتَّى يَكَادَ لِسَانُ الصُّبْحِ يُفْشِينَا (٥)

لَا غَرْوَ فِى أَنْ ذَكَرْنَا الْحُزْنَ حِينَ نَهَتْ ... عَنْهُ النُّهَى وَتَرَكْنَا الصَّبْرَ نَاسِينَا

إِنَّا قَرَأْنَا الْأَسَى يَوْمَ النَّوَى سُوَرًا ... مَكْتُوبَةً وَأَخَذْنَا الصَّبْرَ تَلْقِينَا

---

(١) تمتعنا ونعمنا

(٢) نضرته وخفضه (٣) فى نعمى كالثوب الصافى ذى الوشى أى النقش .

(٤) أنامه عنا فلم يش بنا

(٥) قال ابن بسام : وهو معنى مشهور وهو فى الشعر كثير ، قال أبو الطيب :

أزورهم وسواد الليل يشفع لى ... وأنثنى وبياض الصبح يغرى بى

على أن أبا الطيب أجاد وكرره فى مواضع من شعره كقوله :

لاتلق إلا مليل من تواصله ... فالشمس نمامة والليل قوّاد

وكل من إلى هذا المعنى أشار ، فحوالى المثل دار ، وهو قولهم : « الليل أخفى للويل »

نقول : ولم نر فى هذه المعانى التى ذكرها ابن بسام أدق وأظرف من قول ابن زيدون :

« سران فى خاطر الظلماء » الخ

أَمَّا هَوَاكِ فَلَمْ نَعْدِلْ بِمَنْهَلِهِ ... شُرْباً وَإِنْ كَانَ يُرْوِينَا فَيُظْمِينَا (١)

لَمْ نَجْفُ أُفْقَ جَمَالٍ أَنْتِ كَوْكَبُهُ ... سَالِينَ عَنْهُ وَلَمْ نَهْجُرْهُ قَالِينَا

وَلَا اخْتِيَاراً تَجَنَّبْنَاهُ عَنْ كَثَبٍ ... لَكِنْ عَدَتْنَا عَلَى كُرْهٍ عَوَادِينَا (٢)

نَأْسَى عَلَيْكِ إِذَا حُثَّتْ مُشَعْشَعَةً (٣) ... فِينَا الشَّمُولُ وَغَنَّانَا مُغَنِّينَا

لَا أَكْؤُسُ الرَّاحِ تُبْدِي مِنْ شَمَائِلِنَا ... سِيَمَا ارْتِيَاحٍ وَلَا الْأَوْتَارُ تُلْهِينَا

دُومِي عَلَى الْعَهْدِ مَادُمْنَا مُحَافِظَةً ... فَالْحُرُّ مَنْ دَانَ إِنْصَافاً كَمَا دِينَا (٤)

فَمَا اسْتَعَضْنَا خَلِيلاً مِنْكِ يَحْبِسُنَا ... وَلَا اسْتَفَدْنَا حَبِيباً عَنْكِ يَثْنِينَا

وَلَوْ صَبَا (٥) نَحْوَنَا مِنْ عُلْوِ مَطْلَعِهِ ... بَدْرُ الدُّجَى لَمْ يَكُنْ حَاشَاكِ يُصْبِينَا

أَبْكِي وَفَاءً وَإِنْ لَمْ تَبْذُلِي صِلَةً ... فَالطَّيْفُ يُقْنِعُنَا وَالذِّكْرُ يَكْفِينَا

وَفِي الْجَوَابِ مَتَاعٌ إِنْ شَفَعْتِ بِهِ ... بِيضَ الْأَيَادِي الَّتِي مَا زِلْتِ تُولِينَا

عَلَيْكِ مِنَّا سَلَامُ اللهِ مَا بَقِيَتْ ... صَبَابَةٌ بِكِ تُخْفِيهَا (٦) فَتَخْفِينَا

---

(١) قال ابن دسام : « وهذا معنى متداول من أشهره قول القائل :

ريق إذا ما ازددت من شربه ... ريا تناك الريّ ظمآنا

كالخمر — أروى مايكون الفتى ... من شربها — أعطش ما كانا

ولابن الرومى فيما يناسبه من هذا الوجوه :

« يا ربّ ريق بات بدر الدجى ... يمجه بين ثنايا ك

يروى ولا ينهاك عن شربه ... والماء يرويك وينهاك »

(٢) لم نتجنبه عن كثب أى قرب اختياراً ، ولكن صرفتنا على كره منا شواغلنا .

(٣) ممزوجة : أى نحزن لغيابك عن مجلسنا إذا حثت الشمول الممزوجة (٤) دومى محافظة على العهد مادمنا محافظين فالحرّ المنصف يجزى كما جوزى

(٥) مال (٦) أخفيت الشيء أخفيه سترته ، وخفيته أخفيه تأتى بمعنى سترته ، وبمعنى أظهرته ، وعلى ذلك فقوله « نخفيها » أى نسترها « فتخفينا » بفتح أوله أى تظهرنا ، وشاهد خفاه يخفيه بمعنى أظهره . قوله :

فإن تكتموا السرّ لا نخفه ... وإن تبعثوا الحرب لا نقعد

وقوله تعالى فى قراءة « أكاد أخفيها » بالفتح أى أظهرها .

فى مدح ابن جهور[١]

مَا لِلْمُدَامِ تُدِيرُهَا عَيْنَاكِ ... فَيَمِيلُ فى سُكْرِ الصِّبَا عِطْفَاكِ
هَلاَّ مَزَجْتِ لِعَاشِقِيكِ سُلاَفَهَا ... بِبُرُودِ ظَلْمِكِ أَوْ بِعَذْبِ لَمَاكِ[٢]
بَلْ مَا عَلَيْكِ وَقَدْ مَحَضْتُ[٣] لَكِ الْهَوَى ... فى أَنْ أَفُوزَ بِحُظْوَةِ الْمِسْوَاكِ[٤]
نَاهِيكِ ظُلْمًا أَنْ أُضَرَّ بِيَ الصَّدَى[٥] ... بَرْحًا[٦] وَنَالَ الْبُرْءَ عُودُ أَرَاكِ

* * *

وَاهًا لِعَطْفِكِ وَالزَّمَانُ كَأَنَّمَا ... صُبِغَتْ غَضَارَتُهُ[٧] بِبُرْدِ صِبَاكِ
وَاللَّيْلُ مَهْمَا طَالَ قَصَّرَ طُولَهُ ... هَاتِى وَقَدْ غَفَلَ الرَّقِيبُ وَهَاكِ
وَلَطَالَمَا اعْتَلَّ النَّسِيمُ فَخِلْتُهُ ... شَكْوَايَ رَقَّتْ فَاقْتَضَتْ شَكْوَاكِ
إِنْ تَالِفِى سِنَةَ النُّؤُومِ خَلِيَّةً ... فَلَطَالَمَا نَافَرْتِ فِيَّ كَرَاكِ[٨]
أَوْ تَحْتَبِى بِالْهَجْرِ فى نَادِى الْقِلَى ... فَلَكَمْ حَلَلْتُ إِلَى الْوِصَالِ حِبَاكِ[٩]

* * *

أَمَّا مُنَى نَفْسِى فَأَنْتِ جَمِيعُهَا ... يَا لَيْتَنِى أَصْبَحْتُ بَعْضَ مُنَاكِ
يَدْنُو بِوَصْلِكِ حِينَ شَطَّ مَزَارُهُ ... وَهْمٌ أَكَادُ بِهِ أُقَبِّلُ فَاكِ

---

(١) تصدّى كثير من الشعراء المعاصرين لمعارضة هذه القصيدة وقد ذكرنا طرفا من ذلك فى غير هذا المكان من الكتاب فليرجع اليه من شاء .

(٢) الظلم : ماء الأسنان أو بريقها ، واللمى : سمرة فى الشفة (٣) أخلصت

(٤) يقول : ماضرك — بعد أن أخلصت لك الهوى ، ومحضتك الحب أن أفوز منك بحظ المسواك .

(٥) العطش الشديد (٦) مشقة وشدّة (٧) بهجته . يقول الشاعر : ما أحسن عطفك فيما مضى والزمان كأنما صبغت بهجته بما كسيت أنت به من برد الشباب (٨) يقول أن تعتادى النوم الآن خالية غير مبالية بى ، فكثيراً ما أسهدك الهوى ، وعاديت فى نومك (٩) احتبى بالثوب اشتمل والحبى كهدى جمع حبوة مثلثة الحاء ، فكأنّ الشاعر يقول : إن نجلسى فى نادى البغض (القلى) محتبية أو مشتملة بحبوة الهجر ، فكثيراً ما نزعت إلى الوصال ، وحللت لأحله حباك .

وَلَئِنْ تَجَنَّبْتِ الرَّشَادَ بِغَدْرَةٍ ... لَمْ يَهْوِ بِي فِي الْغَيِّ غَيْرُ هَوَاكِ (١)

* * *

لِلْجَهْوَرِيِّ أَبِي الْوَلِيدِ خَلَائِقٌ ... كَالرَّوْضِ أَضْحَكَهُ الْغَمَامُ الْبَاكِي

مَلِكٌ يَسُوسُ الدَّهْرَ مِنْهُ مُهَذَّبٌ ... تَدْبِيرُهُ لِلْمُلْكِ خَيْرُ مِلَاكِ (٢)

جَارَى أَبَاهُ بَعْدَ مَا فَاتَ الْمَدَى ... فَتَلَاهُ بَيْنَ الْفَوْتِ وَالْإِدْرَاكِ

شَمْسُ النَّهَارِ وَبَدْرُهُ وَنُجُومُهُ ... أَبْنَاؤُهُ مِنْ فَرْقَدٍ وَسِمَاكِ (٣)

يَسْتَوْضِحُ السَّارُونَ زُهْرَ كَوَاكِبٍ ... مِنْهُمْ تُنِيرُ غَيَاهِبَ الْأَحْلَاكِ (٤)

بُشْرَاكِ يَا دُنْيَا وَبُشْرَانَا مَعًا ... هٰذَا الْوَزِيرُ أَبُو الْوَلِيدِ فَنَاكِ (٥)

* * *

تُلْفِي السِّيَادَةُ ثَمَّ إِنْ أَضْلَلْتِهَا (٦) ... وَمَتَى فَقَدْتِ السَّرْوَ (٧) فَهْوَ هُنَاكِ

وَإِذَا سَمِعْتِ بِوَاحِدٍ جُمِعَتْ لَهُ ... فِرَقُ الْمَحَاسِنِ فِي الْأَنَامِ فَذَاكِ

صَمْصَامُ بَادِرَةٍ وَطَوْدُ سَكِينَةٍ ... وَجَوَادُ غَايَاتٍ وَجِذْلُ حِكَاكِ (٨)

---

(١) المعنى لئن وقعت فى العمى بسبب غدرك بى فانى أنا لم يوقعنى فى الغى غير هواك .

(٢) ملاك الأمر : بكسر الميم ، أى قوامه الذى يملك به .

(٣) الفرقد والسماك من النجوم البيرة (٤) هم المسترشدين برأيهم إذا دحت الحوادث أمثال النجوم الزهر للسارين فى ظلمات الليل البهيم (٥) وجاء بعد هذا البيت عجز بيت ناقص هكذا : — (وصفت جمالك واستلفّ حماك)

(٦) ذهبت عنك ونأت ، والخطاب للدنيا فى قوله « بشراك يا دنيا » .

(٧) المروءة والشرف والوصف على فعيل يقال سرو يسرو فهو سرى (٨) الصادرة الحدة ، والجذل أصل شجرة قطع رأسها أو عود ينصب فى العطن لتحتكّ به الابل الجربى يقال هو جذل حكاك ، وهم جذال حكاك ، ومنه قول الحباب بن المنذر الأنصارى يوم سقيفة بنى ساعدة « انا جذيلها المحكك ، وعذيقها المرجب » أى إنه يشتفى برأيه وعلمه وتجاربه فى الأمور كما تشتفى الابل الجربى بهذا الجذل ، ومعنى البيت أنه مصمم كالسيف فى الغضب ثابت كالطود فى الحلم سباق إلى الغايات مجرب يشتفى برأيه صلب لا يلين مكسره .

طَلْقٌ يُفَنِّدُ فِى السَّمَاحِ ، وَجَاهِلٌ مَنْ يَسْتَشِفُّ النَّارَ بِالْمِحْرَاكِ (١)

* * *

صَنَعُ (٢) الضَّمِيرِ إِذَا أَجَالَ بِمُهْرَقٍ (٣) يُمْنَاهُ فِى عَجَلٍ وَفِى إِيشَاكِ (٤)

نَظَمَ الْبَلَاغَةَ فِى خِلَالِ سُطُورِهِ نَظْمَ اللَّآلِى التُّومِ فِى الْأَسْلَاكِ

نَادَى مَسَاعِيَهُ الزَّمَانُ مُنَافِساً أَحْرَزْتِ كُلَّ فَضِيلَةٍ فَكَفَاكِ

مَا الْوَرْدُ فِى مَجْنَاهُ سَامَرَهُ النَّدَى مُتَحَلِّيًا إِلَّا بِبَعْضِ حُلَاكِ

كَلَّا وَلَا الْمِسْكُ النَّمُومُ (٥) أَرِيجُهُ مُتَعَطِّرًا إِلَّا بِوَسْمِ (٦) ثَنَاكِ

اللَّهْوُ ذِكْرُكِ لَا غِنَاءَ مُرَجِّعٍ يَفْتَنُّ فِى الْإِطْلَاقِ وَالْإِمْسَاكِ (٧)

طَارَتْ إِلَيْكِ بِأَوْلِيَائِكِ هِزَّةٌ تَهْفُو لَهَا أَسَفاً قُلُوبُ عِدَاكِ (٨)

* * *

يَا أَيُّهَا الْقَمَرُ الَّذِى لِسَنَائِهِ (٩) وَسَنَاهُ تَعْنُو السَّبْعُ فِى الْأَفْلَاكِ

فَرَحُ الرِّيَاسَةِ إِذْ مَلَكْتَ عِنَانَهَا فَرَحُ الْعَرُوسِ بِصِحَّةِ الْإِمْلَاكِ (١٠)

---

(١) الخشبة التى تحرك بها النار ، والمعنى أنه باش الوجه سمح وأن الكرم طبيعة فيه وليس يزيده تفنيد الجاهلين إلا تماديا فى كرمه كالنار يزيدها المحراك اشتعالا

(٢) يقال لسان صنع ، وشاعر صنع ، وبليغ صنع ، إذا كان حاذقا ماهراً ، والمعنى أنه كانت رائع البيان سيان رويته وإسراعه (٣) صحيفة (٤) إسراع

(٥) صيغه مبالغة من نم المسك سطع ، والأريج توهج ريح المسك

(٦) الوسم : العلامة والثناء والمدح — يخاطب على لسان الزمان فى هذا البيت والذى قبله مساعي الممدوح مثبتا أن الورد فى مجناه ليس متحلياً إلا ببعض حلاها ، وأن المسك فى سطوع أريجه لم يكن متعطراً إلا من اسمها بالثناء (٧) ما اللهو إلا ذكر تلك المساعي لاغناء مرجع يطلق فى الغناء صوته ويمسكه .

(٨) طارت : أسرعت ، والخطاب للمساعي ، والهزة تحرك فى نشاط وارتياح ، والمعنى أسرعت إليك أيتها المساعي مواكب بالأولياء ، وقد خفقت لها حزناً قلوب الأعداء

(٩) السناء بالمدّ الرفعة وبالقصر الضوء (١٠) عقد النكاح

مَنْ قالَ إنَّكَ لَسْتَ أَوْحَدَ فِي النُّهَى ... وَالصَّالِحَاتِ فَدَانَ [١] بِالإِشْرَاكِ
قَلِّدْنِيَ الرَّأْيَ الجَمِيلَ فَإِنَّهُ ... حَسْبِي لِيَوْمَيْ زِينَةٍ وَعِرَاكِ
وَإِذَا تَحَدَّثَتِ الحَوَادِثُ بِالرَّنَا ... شَزْرًا إِلَيَّ فَقُلْ لَهَا إِيَّاكِ [٢]
هُوَ فِي ضَمَانِ الْعَزْمِ يَعْبِسُ وَجْهُهُ ... لِلْخَطْبِ وَالْخُلُقِ النَّدِيِّ الضَّحَّاكِ [٣]

☆ ☆

وَأَحَمُّ دَارِيٍّ تَضَاعَنَ عِزُّهُ ... لَمَّا أُهِينَ بِمَسْحَقٍ وَمَدَاكِ
وَالدَّجْنُ لِلشَّمْسِ الْمُنِيرَةِ حَاجِبٌ ... وَالْجَفْنُ مَثْوَى الصَّارِمِ الْفَتَّاكِ
هَنَأَتْكَ صِحَّتُكَ الَّتِي لَوْ أَنَّهَا ... شَخْصٌ أُحَاوِرُهُ لَقُلْتُ هَنَاكِ
دَامَتْ حَيَاتُكَ مَا اسْتُدِمْتَ فَلَمْ تَزَلْ ... تَحْيَا بِكَ الْأَخْطَارُ بَعْدَ هَلَاكِ

ذكرى ولادة [٤]

وَدَّعَ الصَّبْرَ مُحِبٌّ وَدَّعَكْ ... ذَائِعٌ مِنْ سِرِّهِ مَا اسْتَوْدَعَكْ
يَقْرَعُ السِّنَّ عَلَى أَنْ لَمْ يَكُنْ ... زَادَ فِي تِلْكَ الْخُطَا إِذْ شَيَّعَكْ
يَا أَخَا الْبَدْرِ سَنَاءً وَسَنَا ... حَفِظَ اللهُ زَمَانًا أَطْلَعَكْ
إِنْ يَطُلْ بَعْدَكَ لَيْلِي فَلَكَمْ ... بِتُّ أَشْكُو قِصَرَ اللَّيْلِ مَعَكْ

---

(١) أى عدلك الذى قال إنك لست أوحد فيهما قد دان بالشرك

(٢) إذا الحوادث تحدّثت بالنظر إلى بمؤخر عينها ، فقل لها حذار (٣) هو أى ذلك الذى تهمّ الحوادث أن تنظر إليه شزراً فى ضمان عزم الممدوح العابس فى وجه الحوادث وفى ضمان خلقه الندى أى السخى الضاحك عن ثغور الأمانى .

(٤) جاء فى قلائد العقيان :

ولما رحل عنه من كان يهواه ، وفاجأه بينه ونواه ، فسايره قليلا وماشاه ، وهو يتوهم ألم الفراق حتى غشاه ، فاستعجل الوداع ، وفى كبده ما فيها من الانصداع ، فأقام يومه بحالة المفجوع ، وبات ليلته نافر الهجوع ، يردد الفكر ، ويجدد الذكر . فقال :

وقد عزا صاحب نفح الطيب هذه الأبيات الأربعة إلى ولادة .

بعد الفرار من السجن [١]

« بعد أن فرّ ابن زيدون من السجن أرسل يخاطب ولادة ويستنهض الأديب أبا بكر للشفاعة ويستنزل أبا الحزم ابن جهور وكان ابن زيدون مختفيا بقرطبة . فقال : « . . . . . و بلغنى أنك أحد اللائمين لى ، ومن أمثالهم : « و يل للشجىّ من الخلىّ ، وهان على الأملس [٢] ما لاقى الدبر [٣] وعلمت أن العاجز من لا يستمدّ [٤] ، فالمرء يعجز لا محالة ، ولم أستجز أن أكون ثالث الأذلين ـ العير والوتد [٥] .

وتذكرت أن الفرار من الظلم ، والهرب مما لا يطاق من سنن المرسلين ، وقد قال تعالى على لسان موسى : « ففررت منكم لما خفتكم »

فنظرت فى مفارقة الوطن ، فقديما ضاع الفاضل فى وطنه ، وكسد العلق فى معدنه ، كما قال :

أضيع فى معشرى وكم بلد يكون عود الكباء [٦] من حطبه

فاستخرت الله فى إنفاذ العزم ، وأنا الآن حيث أمنت بعض الأمن إلا أن الغى لم يرتفع ، ومادّة البغى لم تنقطع :

شَحَطْنَا وَمَا بِالدَّارِ نَأْىٌ وَلَا شَحْطُ وَشَطَّ بِمَنْ نَهْوَى المَزَارُ وَمَا شَطُّوا [٧]

---

(١) جاء فى قلائد العقيان :

وله عند فراره ، وخروجه من سراره ، وقد أقام بقرطبة متواريا يخاطب ولادة ويستنهض الأديب أبا بكر للشفاعة ويستنزل أبا الحزم بن جهور

(٢) الصحيح الظهر . (٣) الذى يطهره قرحه ، أى أن السليم الظهر لا يحسّ ألم أخيه المقروح الظهر .

(٤) يشير إلى البيتين المشهورين :

« ليت هنداً أنجزتنا ما تعد وشفت أنفسنا مما تجد
واستدت مرّة واحدة إنما العاجز من لا يستبدّ »

(٥) يشير إلى قول القائل :

ولا يقوم على ضيم يراد به إلا الأذلان عير الحى والوتد
هذا على الخسف مربوط برمته وذا يشج فلا يرثى له أحد

وابن زيدون يعنى أنه جدير ألا يقيم على الذل ، وأن يتخلص من الضيم بكلّ ما فى وسعه ، ولله درّ الشنفرى إذ يقول :

« ولكن نفساحرة لا تقيم بى على الضيم إلا ريثما أتحوّل »

(٦) عود البخور أوضرب منه (٧) شحطت الدار : تشحط بفتح العين شحطاً وشحوطاً وشطت تشط بالضم بعدت . يقول : قربت دار من أهوى ، ودنا مزارها . إلا أنه قرب فى غاية البعد لاستحالة اللقاء .

أَأَحْبَابَنَا أَلْوَتْ بِحَادِثِ عَهْدِنَا ... حَوَادِثُ لَاعَقْدٌ عَلَيْهَا وَلَا شَرْطُ (١)

لَعَمْرُكُمُ إِنَّ الزَّمَانَ الَّذِي قَضَى ... بِشَتِّ جَمِيعِ الشَّمْلِ مِنَّا لَمُشْتَطُّ (٢)

وَأَمَّا الْكَرَى مُذْ لَمْ أَزُرْكُمْ فَهَاجِرٌ ... زِيَارَتُهُ غِبٌّ وَإِلْمَامُهُ فَرْطُ (٣)

وَمَا شَوْقُ مَقْتُولِ الْجَوَانِحِ بِالصَّدَى ... إِلَى نُطْفَةٍ زَرْقَاءَ أَصْمَرَهَا وَقْطُ (٤)

بِأَبْرَحَ مِنْ شَوْقِي إِلَيْكُمْ وَدُونَمَا ... أُدِيرُ الْمُنَى عَنْهُ الْقَتَادَةُ وَالْخَرْطُ (٥)

وَفِي الرَّبْرَبِ الْإِنْسِيِّ أَحْوَى كِنَاسُهُ ... نَوَاحِي ضَمِيرِي لَا الْكَثِيبُ وَلَا السِّقْطُ (٦)

قال هـذه القصيدة عند فراره من السجن واحتمائه بقرطبة ، يخاطب بها ولادة عن كثب وهو لايمكنه أن يدنو من دارها ، أو يخف لمزارها ، مشفقا أن يقع فريسـة فى يد من يعدو عليـه أو يسطو ، ملازما مخبأه لايتحرّك ولا يخطو ، جاعلا الأديب « أبا بكر » عوضاً من أبيـه والقربى ، مستنطقاً من أبى الحزم ابن جهور العتبى ، شاكياً إليه فرط إصعائه ، إلى عصبة السوء من أعدائه ، راجياً أن يحريه من شيمته ، على سابق عادته ، وأن يخصه بالشفاعه ، بعـد طول البثّ والضراعه ، وأن يسـعفه بطلبته ، وتنعس كربته فان أبى أن ينفس عن نفسه ذلك الضغط ، فأمره إلى من بيده القبض والبسط .

(١) ألوت : دهمت ، والعقد أوكد العهود ، والمعنى ذهبت بجديد عهدنا حوادث تجرى صروفها على غير مانهوى ونريد ليس بيننا وبينها عهد نؤكده ، ولا شرط نجدده (٢) الشتّ : التفريق ، والجميع : المجتمع ، والشمل : الاجتماع . يقال جمع الله شملك أى ماتشتت من أمرك ، وفرق الله شمله أى ما اجتمع من أمره ، ومشتط : أى جائر فيما حكم به وقضى (٣) الكرى : النوم ، وزيارته غبّ : أى يزور يوماً بعـد انقطاعه أياماً ، ومـنه « زر غباً ، تزدد حباً » والالمام مصدر ألمّ به زاره غبا ، والفرط : بفتح فسكون الحين . يقال آتيه فى الفرط ، أى فى الحين بعد الحين

(٤) الجوانح : حنايا الضلوع المطبقة على القلب ، والصدى : الماء الصافى وتجمع على نطف ، والوقط : حفر فى الصخر يجتمع فيها ماء السماء .

(٥) أبرح بأشدّ برحا ومشقه وعذابا من شوقى ، أدير المنى عنه : أى ما أطالب المنى بتركه والانصراف عنه من قولهم ، أدار فلانا عن الأمر إذا طلب منه تركه . قال الشاعر :

يديرونى عن سالم وأديرهم ... وحلدة بين العين والأنف سالم

والقتادة الشجرة قصيرة ذات قصبان مجتمعة كل قصيب منها ملآن مابين أعلاه وأسفله شوكا كالابر ، وخرط القتاد اجتذاب شوكها من أعلى إلى أسفل باصرار اليد مقبوضة على أغصانها ، وفى المثل « من دون ذلك خرط القتاد » (٦) الربرب : السرب من الظباء أو القطيع من بقر الوحش ، والانسى : مقابل الوحشى أحوى فى شفتيه حمرة ضاربة إلى السواد ، والكناس : مستتر من الشجر للظباء كالبيت للانسان والبقر تسكن فيه من الحر ، والكثيب الرمل المحدودب ، والسقط : مثلث الفاء الرقيق من الرمل حيث انقطع معظمه

غَرِيبُ فُنُونِ الْحُسْنِ يَرْتَاحُ دِرْعُهُ ... مَتَى ضَاقَ ذَرْعًا بِالَّذِي حَازَهُ الْمِرْطُ (١)

كَأَنَّ فُؤَادِي يَوْمَ أَهْوَى مُوَدِّعًا ... هَوَى خَافِقًا مِنْهُ بِحَيْثُ هَوَى الْقُرْطُ (٢)

إِذَا مَا كِتَابُ الْوَجْدِ أَشْكَلَ سَطْرُهُ ... فَمِنْ زَفْرَتِي شَكْلٌ وَمِنْ عَبْرَتِي نَقْطُ (٣)

أَلَا هَلْ أَتَى الْفِتْيَانَ أَنَّ فَتَاهُمُ ... فَرِيسَةُ مَنْ يَعْدُو وَنُهْزَةُ مَنْ يَسْطُو (٤)

وَأَنَّ الْجَوَادَ الْفَائِتَ الشَّأْوِ صَافِنٌ ... تَخَوَّنَهُ شَكْلٌ وَأَزْرَى بِهِ رَبْطُ (٥)

وَأَنَّ الْحُسَامَ الْعَضْبَ ثَاوٍ بِجَفْنِهِ ... وَمَا ذُمَّ مِنْ غَرْبَيْهِ قَدٌّ وَلَا قَطُّ (٦)

* * *

عَلَيْكَ (أَبَا بَكْرٍ) بَكَرْتُ بِهِمَّةٍ ... لَهَا الْخَطَرُ الْعَالِي وَإِنْ نَالَهَا حَطُّ (٧)

أَبِي بَعْدَ مَا هِيلَ التُّرَابُ عَلَى أَبِي ... وَرَهْطِي فَذَاًّ حِينَ لَمْ يَبْقَ لِي رَهْطُ (٨)

لَكَ النِّعْمَةُ الْخَضْرَاءُ تَنْدَى ظِلَالُهَا ... عَلَيَّ وَلَا جَحْدٌ لَدَيَّ وَلَا غَمْطُ (٩)

---

(١) الدرع : القميص ، والمرط : كساء من خزّ ونحوه يؤتزر به ، والقميص يحوز النهدين والحصر ، والمرط : يحوز الردف ، والردف ثقيل ، والحصر نحيل (٢) أهوى مال إليه حانيا ظهره فى حال توديعه ، وهوى القرط ، وهو مايعلق فى شحمة الأذن ، سقط متدليا فهوى فؤاده معه خافقا

(٣) أشكل سطره من أشكل عليه الأمر احتلط ولم يبن ، والشكل والنقط تقييد الكتاب بحركات الأعراب ، وإبجامه ليظهر معناه . يقول إذا أشكل على من أهوى كتاب الوجد أوضحته له بما أصعده من زفرات ، واسفحه من عبرات (٤) الفتيان يريد بهم فتيان قرطبة ، والنهزة : الصيد المعرض لمن يسطو عليه ويقتنصه (٥) الشأو : الغاية ، والصافن : الذى يقوم على ثلاث ويثنى سنبك يده الرابع تخونه وتحوفه : تنقصه ، ومنه قوله تعالى : « أو يأخذهم على تخوّف » ، وشاهد تخونه بمعنى تنقصه قول لبيد :

عدافرة تقمص بالرداق تخونها نزول وارتحال أى تنقص لحمها وشحمها

وشكل الدابة : شدّ قوائمها بحبل ، وأزرى به : أهانه وحقره (٦) الحسام العضب : السيف القاطع ، وثاو مقيم : يريد أنه كالسيف الممتد فى حمه ، وما عيب من غربيه : أى حديه قد ، وهو القطع طولا ولا فطع ، وهو القطع عرضا .

(٧) بدأ يخاطب الأديب (أبا بكر) ويستهض همه ، ويذكر يده عنده . يقول : إنّ لى همة عالية لها خطرها بكرت بها عليك وتقوت بك قديما ، وإن نالها الآن انحطاط بعد علوّ .

(٨) أنت أبى بعد فقد أبى وأنت وحدك رهطى حين لم يبق لى رهط . (٩) غمط النعمة غمطاً لم يشكرها أى لك عندى النعمة الخضراء التى تظلنى ، والتى مازلت أشكرها ولا أنكرها وأكبرها ولا أحقرها

وَلَوْلاكَ لَمْ تَثْقُبْ زِنَادُ قَرِيحَتِي ... فَيَنْتَهِبَ الظَّلْمَاءَ مِنْ نَارِهَا سِقْطُ (١)

وَلاَ أَلَّفَتْ أَيْدِي الرَّبِيعِ بَدَائِعِي ... فَمِنْ خَاطِرِي نَظْمٌ وَمِنْ زَهْرِهِ لَقْطُ (٢)

هَرِمْتُ وَمَا لِلشَّيْبِ وَخْطٌ بِمَفْرِقِي ... وَكَأَنَّ لِشَيْبِ الْهَمِّ فِي كَبِدِي وَخْطُ (٣)

وَطَاوَلَ سُوءُ الْحَالِ نَفْسِي فَأَذْكَرَتْ ... مِنَ الرَّوْضَةِ الْغَنَّاءِ طَاوَلَهَا الْقَحْطُ (٤)

مِئُونَ مِنَ الْأَيَّامِ خَمْسٌ قَطَعْتُهَا ... أَسِيراً وَإِنْ لَمْ يَبْدُ شَدٌّ وَلاَ قَمْطُ (٥)

أَتَتْ بِي كَمَا مِيصَ الْإِنَاءِ مِنَ الْأَذَى ... وَأَذْهَبَ مَا بِالثَّوْبِ مِنْ دَرَنٍ مَسْطُ (٦)

أَتَدْنُو قُطُوفُ الْجَنَّتَيْنِ لِمَعْشَرٍ ... وَغَايَتِيَ السِّدْرُ الْقَلِيلُ أَوِ الْخَمْطُ (٧)

---

(١) لم تثقب : أى لولاك لم تظهر نار ، قريحتى الشبيهة بالزناد فى الايراء ، وينتهب الظلماء يأتى عليها ويلاشيها ، والسقط : مثلث الفاء ساكن العين ما سقط من النار بين الزندين . يقول : لولاك لم تذك قريحتى فيظهر عند اقتداحها نار تنتهب الظلماء . (٢) النظم : نظم الحبّ فى السلك ، واللقط : التقاطه — أى ولولاك (أبا بكر) ما ألفت بدائعى يد الربيع ، فهو يلقط من محاسن الزهر ما أنظمه فى سلك الخاطر . (٣) الوخط : شوب الشيب ، واختلاط بياضه بسواد الرأس ، والمفرق : وسط الرأس ، وهو موضع فرق الشعر من الجبين إلى الدائرة ، والمعنى لم أشب شيب الكبرة ، ولكن شيب الهمّ . (٤) يقول أن مطاولة سوء الحال نفسه ذكرته بحال الروضة الغناء طال عليها أمد القحط . (٥) القمط : هنا قط الأسير ، وهو أن يجمع بين يديه ورجليه بحبل أو نحوه ، والمعنى أنه قطع خمسة أيام مقرطقة أسيراً ، ولكن بلا قيد ولا غلّ لأنه كان مختفيا متواريا عن الأنظار .

(٦) الموص : الغسل ، وميص الثوب : غسل بالأصابع ، ومسط الثوب : بله ثم تحريكه لاستخراج مائه والدرن : الوسخ ، والمعنى جاءت بى أيام الخوف والاعتقال عند نهايتها معسول الدنب كما غسل الاناء من الأدى ، والثوب من الدرن . (٧) السدر : النبق ، والخمط : كل نبت أخذ من المرارة طعما فلم يمكن أكله — يشير بهذا إلى قصة الجنتين فى قوله تعالى — فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدّلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشىء من سدر قليل — ووصف السدر بالقلة لكونه أحسن شىء فيما بدلوا ، والعرم بفتح وكسر ، والسكر : بكسر وسكون ، والمسناة : بضم ففتح فتشديد النون كلها — كما يؤخذ من اللسان والكشاف — أسماء للسد يبنى لحبس ماء العيون والأمطار ويترك فيه فتحات توسع عليها أبواب لاطلاق الماء على حسب مايحتاجون إليه فى سقيهم ، وقد ورد ذكر المسناه فى بعض قصائد الديوان . يمثل فى هذا البيت حالته بحال سبأ إذ أعرضوا عن الشكر ، فخرب الله جنتيهم بسيل العرم وأبدلهما عنهما الخمط ، والأثل والقليل من السدر ، ومعنى البيت : أيموز غيرى بالنعيم ولا أكاد أظفر بالتافه الحقير .

وَمَا كَانَ ظَـــنِّي أَنْ تَغُرَّنِيَ الْمُنَى ... وَلِلْغِرِّ فِي الْعَشْوَاءِ مِنْ ظَنِّهِ خَبْطُ (١)

أَمَا وَأَرَتْنِي النَّجْمَ مَوْطِئَ أَخْمَصِي ... لَقَدْ أَوْطَأَتْ خَدِّي لِأَخْمَصِ مَنْ يَخْطُو (٢)

وَمُسْتَبْطِإِ الْعُتْبَى إِذَا قُلْتَ قَدْ أَنَى ... رِضَاهُ تَمَادَى الْعَتْبُ وَاتَّصَلَ السُّخْطُ (٣)

وَمَا زَالَ يُدْنِينِي وَيُنْمِي قَبُولَهُ ... هَوًى سَرَفٌ مِنْهُ وَصَاغِيَةٌ فَرْطُ (٤)

وَنَظْـــمُ ثَنَاءٍ فِي نِظَامِ وِلَايَةٍ ... تَحَلَّتْ بِهِ الدُّنْيَا لَآلِئُهُ وَسْطُ (٥)

عَلَى خَصْرِهَا مِنْهُ وِشَاحٌ مُفَصَّلٌ ... وَفِي رَأْسِهَا تَاجٌ وَفِي جِيدِهَا سِمْطُ (٦)

عَدَا سَمْعَهُ عَنِّي وَأَصْغَى إِلَى عِدًى ... لَهُمْ فِي أَدِيمِي كُلَّمَا اسْتَمْكَنُوا عَطُّ (٧)

بَلَغْتُ الْمَدَى ـ إِذْ قَصَّرُوا ـ فَقُلُوبُهُمْ ... مَكَانَ أُصَيْغَانٍ أَسَاوِدُهَا رُقْطُ (٨)

---

(١) الغرّ : الذى لم يجرب الأمور ، وفى المثـل : « هو يخبط خبط عشواء » يضرب للذى يركب رأسه ، ولا يهتمّ لعاقبة أمره ، كالناقة العشواء التى تخبط بيديها كل ماصرّت به لسوء بصرها ، والعشواء : هنا ظلمة الليل لا الناقة ، يريد أن ظنـه حمله على الاغترار بالمنى ، فخبط لغرارته فى عشواء من ظنـه أى فى ظلمة وليس .

(٢) أما حرف للاستفتاح بمعنى ألا ، ولتحقيق الكلام الذى يتلوه بمعنى حقا ، والأخمص باطن القدم الذى لا يلصق بالأرض عند الوطء . يقول : حقا لقد أوطأت خدى لكلّ واطئ فى حال أنها أرتنى فيما مضى النجم موطئ أخمصى (٣) العتبى : الرضا ، والعتب : السخط ، وفى رواية : « فدأبى »

(٤) صاغية الرجل من يلمّ به ويعشى مجلسه من أهله وحاشيته ، وفرط يريد بهـذا أنهم يفرطون عليه فى القول أى يسرفون ، والمعنى وما زال يقربنى منـه هوى متجاوز حد الاعتدال وبعد قبوله حاشية مسرفة فى القول . وقد جرى فى هـذا البيت على أسلوب اللف والنشر المرتب ، فهو يرى أن ممدوحه مسرف فى هواه فهو يدنيه لذلك وان حاسديه مسرفون فى الوشاية به فهو يثنيه عنه لما يسمعه من وشاياتهم المتكررة

(٥) أى وما زال يقربنى منه نظم ثناء أحبره فى نظام ولاية كأنه العقد النفيس تحلت به الدنيا كل لؤلؤة منه جديرة أن تكون واسطة العقد لنفاستها .

(٦) أى على حصر الولاية من نظمه وشاح مفصل ، وفى رأسها تاج مرصع ، وفى جيدها سمط من لؤلؤ

(٧) الأديم : الجلد ، والعطّ : شقّ الثوب طولا أو عرضا من غـير إبانة ، والمعنى صرف ابن حمور سمعه عنى وأصغى إلى أعداء كلما تمكنوا من عرضى قدوه كما يقد الأديم وشقوه كما يشقّ الثوب .

(٨) المدى : الغاية ، والأصـاغان : الأحقاد ، والأساود ، الحيات ، والرقط : جمع رقطاء ، وهى التى فى لونها سواد وبياض ، والمعنى بلغت الغاية التى قصروا عنها فكمن فى قلوبهم من الأحقاد ما تشبـه الحيات الرقط التى تنفث السموم القاتلة .

يُوَلُّونَنِي عُرْضَ الْكَرَاهَةِ وَالْقِلَى ... وَمَا دَهْرُهُمْ إِلاَّ النَّفَاسَةُ وَالْغَمْطُ (١)

وَقَدْ وَسَمُونِي بِالَّتِي لَسْتُ أَهْلَهَا ... وَلَمْ يُمْنَ أَمْثَالِي بِأَمْثَالِهَا قَطْ (٢)

فَرَرْتُ فَإِنْ قَالُوا الْفِرَارُ إِرَابَةٌ ... فَقَدْ فَرَّ مُوسَى حِينَ هَمَّ بِهِ الْقِبْطُ (٣)

وَإِنِّي لَرَاجٍ أَنْ تَعُودَ كَبَدْتُهَا ... لِيَ الشِّيمَةُ الزَّهْرَاءُ وَالْخُلُقُ السَّبْطُ (٤)

وَحِلْمُ امْرِئٍ تَعْفُو الذُّنُوبُ لِعَفْوِهِ ... وَتُمْحَى الْخَطَايَا مِثْلَ مَا مُحِيَ الْخَطُّ

فَمَا لَكَ لاَ تَخْتَصُّنِي بِشَفَاعَةٍ ... يَلُوحُ عَلَى دَهْرِي لِيَسْمِهَا عَلْطُ (٥)

يَفِي بِنَسِيمِ الْعَنْبَرِ الْوَرْدِ نَفْحُهَا ... إِذَا شَمْشَعَ الْمِسْكَ الأَحَمَّ بِهِ خَلْطُ (٦)

فَإِنْ يُسْعِفِ الْمَوْلَى فَنُعْمَى هَنِيئَةٌ ... تُنَفِّسُ عَنْ نَفْسٍ أَلَظَّ بِهَا ضَغْطُ (٧)

وَإِنْ يَأْبَ إِلاَّ قَبْضَ مَبْسُوطِ فَضْلِهِ ... فَفِي يَدِ مَوْلًى فَوْقَهُ الْقَبْضُ وَالْبَسْطُ

---

(١) وفى رواية : العلط والمعنى يجعلونى أسمهيل منهم ناحية الكراهه والبغض ، وليس منهم أبد الدهر (إلا النفاسة) من نفس عليه بالشىء ضنّ به وكره أن يصل إليه ، و (العلط) : من غلط الرجل يغلطه غلطا من باب ضرب جحده ، ومن معانيه أيضاً تعمى الوصول إلى نعمة غيرك من غير أن تزول عنه .

(٢) أى جعلونى معروفا بالسمة والصفة المعيبه التى لست متأهلا لها ، والتى ما مى أى ابتلى بها أمثالى فيما مضى .

(٣) إرابة : سبب فى الريبة والشكّ والاتهام ، والمعنى فررت من السجن ، فان قالوا إن فى الفرار ما يجعلنى متهما ، فقد فرّ موسى من القبط حين ائتمروا به وهموا بقتله يشير إلى قوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام : « ففررت منكم لما خفتكم »

(٤) السبط : السهل . (٥) اليسم : المكواة يوسم بها البعير ، والعلط : الوسم عرضا فى العنق يقول : لماذا لا ترضى عنى وتمنحنى شفاعتك لأتغلب بها على دهرى وأذله وأدمغه فى دمغة بينة الأثر بخط أو خطين أو خطوط .

(٦) العنبر : الطيب المعروف ولونه أسود ، ويطلق العنبر أيضا على الزعفران ، وهو المراد هنا ، والورد حمرة تضرب إلى صفرة حسنة ، وشمشع : مزج ، والأحم : الأسود من كلّ شىء ، أى يفى نفح هذه الشفاعة برائحة الزعفران الورد إذا مزج بالمسك الأسود .

(٧) تنفس : تفرّج ، وألظّ بها — وفى رواية : ألط بها — لازمها . قال أبو العلاء :

ألطوا بالقبيح وتابعوه ولو أمروا به لتحنبوه

أى لازم الناس القبيح عاداً منهم حين نهاهم الله عنه ولو أمرهم به لدفعهم عنادهم إلى تنكبه، ضغط : أى ضيق

فى مدينة بطليوس (١)

يَا دَمْعُ صُبْ مَا شِئْتَ أَنْ تَصُوبَا (٢)
وَيَا فُـــؤَادِى آنَ أَنْ تَذُوبَا
إِذِ الرَّزَايَا أَصْـــبَحَتْ ضُرُوبَا (٣)
لَمْ أَرَ لِى - فى أَهْلِهَا - ضَرِيبَا (٤)
قَدْ مَلَأَ الشَّوْقُ الحَشَا نُدُوبَا (٥)
فى الْغَـــرْبِ إِذْ رُحْتُ بِهِ غَرِيبَا
عَلِيـــلَ دَهْرٍ سَامَنِى تَعْـــذِيبَا (٦)
أَدْنَى (٧) الضَّـــنَى إِذْ أَبْعَدَ الطَّبِيبَا (٨)

* * *

لَيْتَ الْقَبُولَ (٩) أَحْدَثَتْ هُبُوبَا
رِيحٌ يَرُوحُ عَهْـــدُهَا قَرِيبَا (١٠)
بِالْأُفُقِ الْمُهْـــدِى إِلَيْنَا طِيبَا (١١)

---

(١) مدينة كبيرة من مدن الأندلس تقع غربى قرطبة. وهذه الأرجوزة تذكرنا بالأرجوزة المشهورة : « دع المطايا تسم الجنوبا » الخ (٢) اسكب يا دمعى ما شئت أن تنسكب ، والأصل فى الصوب نزول المطر ، والفعل صاب يصوب والأمر صب . قالوا : وكلّ نازل من علوّ إلى أسفل فقد صاب ، ومنه قوله « كأنهم صابت عليهم سحابة » . (٣) أصنافا . وفى رواية : إن الرزايا
(٤) نظيراً أو مثيلا . تقول : اسكب يادمع فقد صبت علىك ألوان من المصائب والآلام لم تصب على أحد من المرزئين . (٥) آثار الجروح إذا لم ترتفع عن الجلد ، ومنه قول الفرزدق :
ومكبل ترك الحديد بساقه ندبا من الرسفان فى الأحجال
(٦) أمرضى دهر قد حشمى دلّ الاغتراب وسامى سوء العذاب . (٧) وفى روايه: أعيى الضنى
(٨) قرب الدهر منى السقام فى وقت أبعد فيه عنى الطبيب . (٩) مايستقبلك بين يديك من الرّيح إذا وقفت فى القبلة . (١٠) أى يكون رواح ما تحمله الريح من المطر قريبا ، والعهد هنا معناه المطر الأوّل الذى يليه الوسمى. (١١) أى متصلا بالأفق الذى طالما أهدى إلينا من ناحية الحبيب طيبا •

تَعَطَّرَتْ مِنْهُ الصَّبَا جُيُوبَا
يُبْرِدُ حَرَّ الْكَبِدِ الْمَشْبُوبَا (١)

* * *

يَا مُتْبِعًا إِسْآدَهُ (٢) التَّأْوِيبَا
مُشَرِّقًا قَدْ سَئِمَ التَّغْرِيبَا
أَمَا سَمِعْتَ الْمَثَلَ الْمَضْرُوبَا
أَرْسِلْ حَكِيمًا (٣) وَاسْتَشِرْ لَبِيبَا

* * *

إِذَا أَتَيْتَ الْوَطَنَ الْحَبِيبَا
وَالْجَانِبَ الْمُسْتَوْضَحَ (٤) الْعَجِيبَا
وَالْحَاضِرَ (٥) الْمُنْفَسِحَ الرَّحِيبَا
فَحَيِّ (٦) مِنْهُ مَا أَرَى الْجَنُوبَا

---

(١) يطفئ ذلك الطيب الذى تعطرت منه جيوب الصبا كبداً مشبوبة فيها نيران الشوق. وفى الأصل «المشوبا»

(٢) الإسآد سير الليل كله لا تعريس فيه ، والتأويب : سير النهار كله لا تعريج فيه .

(٣) وفى رواية : أرسل حلما .

(٤) المبحوث عنه أو الذى يستوضحه الراكب أى يستشرفه ويستكفه بأن يضع كفه على عينيه فى الشمس لينظر هل يراه .

(٥) الحاضر : ضدّ البادى .

(٦) مرتبط بالأبيات قبله . يقول : أيها المواصل سير الليل كله بسير النهار كله مشرقا قد ملّ السير إلى الجانب الغربى أنى مرسلك فى حاجة ، ومتبع المثل المشهور :

إذا كنت فى حاجة مرسلا فارسل حكيما ولا توصه
وإن باب أمر عليك التوى فشاور لبيبا ولا تعصه

ذلك أنك إذا أتيت ذلك الوطن المحبوب ، والجانب المأهول والحاضرة الفسيحة فحى مما قد ترى الجنوب حيث يقيم الحبيب ، وقوله : ما رأى جملة معترضة وحدث هكذا وحرر .

مَصَانِعٌ (١) تَجْتَذِبُ (٢) الْقُلُوبَا
حَيْثُ أَلِفْتُ الرَّشَأَ الرَّبِيبَا (٣)
مُخَالِفاً (٤) فِي وَصْلِهِ الرَّقِيبَا
كَمْ بَاتَ يَدْرِي (٥) لَيْلَهُ الْغُرْبِيبَا
لَمَّا أَنْثَنَى فِي سُكْرِهِ قَضِيبَا
تَشْدُو (٦) حَمَامُ حَلْيِهِ تَطْرِيبَا
أَرْشُفُ مِنْهُ الْمَبْسِمَ الشَّنِيبَا (٧)
حَتَّى إِذَا مَا اعْتَنَّ لِي مُرِيبَا (٨)
سَبَابُ أُفْقٍ هَمَّ أَنْ يَشِيبَا
بَادَرْتُ سَعْياً ، هَلْ رَأَيْتَ الذِّيبَا ؟ (٩)

---

(١) دير وأبنية وقصور . قال لبيد :

بلينا وما تبلى النجوم الطوالع وتبقى الديار بعدنا والمصانع

(٢) تجذب . (٣) الرشأ : الظبي إذا قوى وتحرك ومشى مع أمه ، والربيب : المربى من قولهم صبيّ مربب وربيب . وفي رواية : اللبيبا

(٤) من المخالفة بمعنى عدم المواتاة أو من قولهم جاء فلان خلاف صاحبه ومخالفته إذا أتى بعده مخالفاً له .

(٥) يدري يحتال من قولهم دريت الظبي أي احتلت له وختلت حتى أصيده ، والغربيب : الشديد السواد ومعنى الأبيات تلك دور ومصانع تجذب القلوب إليها ألف فيها الرشأ المتربى في حجر النعمة مخالفا أي آتيا في غفلة الرقيب ، فكثيراً ما بات يحتال ليله الشديد السواد ليصيب منه غرّة ويختلس منه غفله .

(٦) تعني ، استعار شدو الحمام لوسوسة الحلي (٧) أرشف : كأنصر وأضرب مصارع رشف الماء والريق ونحوهما رشفا ، وهو المصّ والتقبيل وشرب الماء قليلا قليلا ، والمبسم ، المقبل ، والشنيب : صفته مأخوذ من الشنب وهو برد وعذوبة في الأسنان . قال ذو الرمة :

لمياء في شفتيها حوة لعس وفي اللثات وفي أنيابها شنب

(٨) اعتن : اعترض ، ومريبا : ذا ريب . (٩) يقول في هذا البيت والأبيات قبله : بتّ ناعما ليلي بالعناق والتقبيل حتى إذا اعترضني ما رابني من سواد أفق وشك أن يفصحه ضوء الصبح بادرت الطريق أسعى، هل رأيت الذئب، يريد: هل رأيت الذئب في خفته وسرعة عدوه وفراره ويعني: أنه قد فرّ فرار الذئب.

هَصَرْتُهُ (١) حُلْوَ الْجَنَى رَطِيبَا

* * *

أَهَاجِرِى أَمْ مُوسِعِي تَأْنِيبَا
مَنْ لَمْ أُسِغْ مِنْ بَعْدِهِ مَشْرُوبَا (٢)
مَا ضَرَّهُ لَوْ قَالَ لاَ تَثْرِيبَا (٣)
وَلاَ مَلاَمَ يَلْحَقُ الْقُلُوبَا
فَدْ طَالَ مَا تَجَرَّمَ الذُّنُوبَا (٤)
وَلَمْ يَدَعْ فِى الْعُذْرِ لِى نَصِيبَا

* * *

إِنْ قَرَّتِ الْعَيْنُ بِأَنْ أَؤُوبَا (٥)
لَمْ آلُ أَنْ أَسْتَرْضِيَ الْغُضُوبَا
حَسْبِيَ أَنْ أُحَرِّمَ الْمَغِيبَا
قَدْ يَنْفَعُ الْمُذْنِبَ أَنْ يَتُوبَا

يوم بوصل ساعة

بِاللهِ خُذْ مِنْ حَيَاتِى يَوْمًا وَصِلْنِي سَاعَهْ
كَيْمَا أَنَالَ بِقَرْضٍ مَا لَمْ أَنَلْ بِشَفَاعَهْ

---

(١) أملته إلىّ وعطفته علىّ وهو جواب لما .

(٢) هل هذا الحبيب الذى غصصت بفراقه ولم أحد بعده مساغا للشراب إلى حلقى هاجرى أو موسعى لوما وتثريبا .

(٣) أى ضرر عليه إذا هو قبل العذر ونبى الملام والعتاب .

(٤) كثيراً ما ادعي على ذنوبا لم أفعلها

(٥) يقوله فى هذا البيت والذى بعده : إن قرّت العين بالرجوع إلى الوطن بذات جهدى فى استرضائه ، وكفانى أن أحرّم على نفسى ترك هذا الوطن وأتوب فقد تنفع توبة المذنب .

فى عيـــد الأضحى (١)

« لما حلّ ابن زيدون من المعتضد بالمكان الذى حلّ ، وانتكث عقد شدائده وانحلّ ، تسلت نفسه من شجونها ، وحنت إلى صفا « ولادة » وحجونها ، وتذكرها وما تناساها ، وعاودته لوعتها وأساها ، وحنّ إليها حنين من حيل بينه و بين مايشتهى ، وقنع باهداء تحية تبلغ إليها وتنتهى. فقال يتغزل فيها و يمدح المعتضد (٢) »:

أَمَا فِي نَسِيمِ الرِّيحِ عَرْفٌ مُعَرِّفُ ... لَنَا هَلْ لِذَاتِ الْوَقْفِ بِالْجِزْعِ مَوْقِفُ (٣)

فَنَقْضِيَ أَوْطَارَ الْمُنَى مِنْ زِيَارَةٍ ... لَنَا كَلَفٌ مِنْهَا بِمَا نَتَكَلَّفُ (٤)

ضَمَانٌ عَلَيْنَا أَنْ تُزَارَ وَدُونَهَا ... رِقَاقُ الظُّبَا وَالسَّمْهَرِيُّ الْمُثَقَّفُ (٥)

وَقَوْمٌ عِدًى يُبْدُونَ عَنْ صَفَحَاتِهِمْ ... وَأَزْهَرُهَا مِنْ ظُلْمَةِ الْحِقْدِ أَكْلَفُ (٦)

غَيَارَى يَعُـــدُّون الْغَرَامَ جَرِيرَةً ... بِهَا وَالْهَوَى ظُلْماً يَغِيظُ وَيُؤْسِفُ (٧)

---

(١) هو أضحى سنة ٤٤٥ هـ . وهذه القصيدة من ضمن قصائده التى يمدح بها المعتضد ، وقد ذكر طرفاً منها ابن بسام فى الذخيرة ، ونقد بعض أبياتها ، وذكر طائفه منها كذلك صاحب قلائد العقيان فى ضمن ما ذكره من طرف ابن زيدون وأخباره، وفقره وأشعاره . (٢) قلائد العقيان .

(٣) أما استفهام فيه معنى التمنى ، والعرف : الريح الطيبه ، والجزع : منعطف الوادى ، و لوقف: السوار — من العاج وغيره — قال حران العود النميرى :

كوقف العاج مس ذكي مسك ... تحيء به من اليمن التجار

أو هو الخلخال من الفضة وغيرها . والمعنى : ليت لنا فى هبوب النسيم طيب رائحة يعرفنا هل المحبوبة واقفة بمكان وقوفها من منعطف الوادى فنقضى الخ . وفى رواية : يعرف .

(٤) المعنى : هل لها وقفه بالمحى فنقضى حاجات النفس من زيارة لنا ولم بما نتجشمه من مشقة التعرض لها.

(٥) الظبا : جمع ظبة ، وهي حد السيف ، والسمهرى : الرمح ، والمثقف : المسوى بالثقاف ، وهي خشبة فيها خرق توضع فيه الرماح لتسوية ما اعوج منها ، أى نحن ضامنون على أنفسنا أن نزار ، ودون زيارتها ظبا السيوف الرقيقة ، وأسنة الرماح الصلبة ، وفى بعض النسخ عزيز علينا أن نزار .

(٦) أى ودون الوصول إليها أيضاً قوم معادون يظهر ما يخفونه من العداوة والشر على وجوههم ، والمشرق المضيء من تلك الوجوه أكلف أى به كلف وسواد من ظلمة الحقد .

(٧) غيارى وغيارى — بفتح الغين وضمها — كسكارى وسكارى جمع غيران من غار الرجل على امرأته يغار غيرة ، والجريرة : الذنب والجناية يجنيها الرجل على نفسه أو يجرها على غيره ، ويؤسف : كيغضب وزناً ومعنى ، ومنه قوله تعالى « فلما آسفونا انتقمنا منهم » .

يَوَدُّونَ لَوْ يَثْنِي الْوَعِيـــدُ زَمَاعَنَا ... وَهَيْهَاتَ رِيحُ الشَّوْقِ مِنْ ذَاكَ أَعْصَفُ (١)

يَسِيرُ لَدَى الْمُشْتَاقِ فِي جَانِبِ الْهَوَى ... نَوَى غُرْبَةٍ أَوْ مَجْهَلٌ مُتَعَسَّفُ (٢)

هَلِ الرَّوْعُ إِلاَّ غَمْرَةٌ ثُمَّ تَنْجَلِي ... أَمِ الْهَوْلُ إِلاَّ غُمَّةٌ ثُمَّ تُكْشَفُ (٣)

وَفِي السِّيَرَاءِ الرَّقْمِ وَسْطَ قِبَابِهِمْ ... بَعِيدُ مَنَاطِ الْقُرْطِ أَحْوَرُ أَوْطَفُ (٤)

تَبَايَنَ خَلْقَاهُ ، فَعَبْـلٌ مُنَعَّمٌ ... تَأَوَّدَ فِي أَعْلَاهُ لَدْنٌ مُهَفْهَفُ (٥)

فَلِلْعَانِكِ الْمُرْتَجِّ مَا حَازَ مِئْزَرُ ... وَلِلْغُصْنِ الْمُهْتَزِّ مَا ضَمَّ مِطْرَفُ (٦)

حَبِيبٌ إِلَيْهِ أَنْ نُسَرَّ بِوَصْـــلِهِ ... إِذَا نَحْنُ زُرْنَاهُ وَنَهْنَا وَنُسْعَفُ

وَلَيْلَةَ وَافَيْنَا الْكَثِيبَ لِمِرْعِدٍ ... سُرَى الْأَيْنِ لَمْ يُعْلَمْ لِمَسْرَاهُ مَزْحَفُ (٧)

---

(١) الوعيد : التهديد والتخويف ، والزماع : بالفتح المضى فى أمر الزيارة والعزم عليه ، وأعصف : اسم تفضيل من عصفت الريح تعصف بالكسر مبنى عاصف أى شديدة تعصى بما مرت عليه من تراب ونحوه ، أى يودون لو يصرفنا تهديدهم عما أزمعناه من أمر زيارة تلك الحسناء التى عازمون عليها ، وهيهات أن يصرفنا عن ذلك صارف ، فان ريح الشوق أشدّ مصيبا بنا إن ناحيتهم من تهديدهم ووعيدهم .

(٢) يقول يسير علينا فى جانب الهوى الاغتراب واعتساف المجاهل .

(٣) الروع : الخوف ، والغمرة : الشدّة .

(٤) السيراء : بكسر فسكون نوع من البرود يخلطه حرير كالسبور ، ويقال ثوب رقم إذا رقم أى كتب عليه ثمه ، أو اسم التاجر ، ومناط القرط معلقه ، وأحور : وصف من حور العين . وهو شدة سواد المقلة فى شدة بياضها ، وأوطف . طويل شعر أهداب العين ، وفى الأصل أوطب ، والمعنى أن حبيبه التى تلبس تلك الحلة السيراء الثمينة تقيم وسط قباب الأعداء وهى بعيدة مهوى القرط أى طويلة العنق ، فى عينها حور ، وفى أهدابها وطف .

(٥) عبل : أى ردف ضخم تام ، ومنعم : من النعمة والراحة ، وعدم الامتهان فى عمل البيت لتوفر الخدم ، ولزم ذلك العبالة والامتلاء ، وتأود : تثنى ، ولدن أى غصن لين ، ومهفهف أى خصر دقيق ناحل ، يقول : تباينت خلقة أسفله وأعلاه ، فردف ثقيل وخصر نحيل .

(٦) العانك : من الرمال ما تعقد وارتفع ، وفى الأصل : العائك . والمئزر : معروف وهو ما يشد على الوسط ، والمطرف — وهى مثلثة الميم — من ثياب الخز ما جعل فى طرفيه علمان ، ويجمع على مطارف ، أى فللكثيب المرتج ماحواه المئزر ، وللغصن المهتز ما ضمه المطرف .

(٧) وافينا الكثيب : أى توافينا على موعد فى الكثيب ، والسرى : السير بالليل ، والأين : الأعياء والتعب ، والمزحف الغاية وهو من الزحف وهو المشى قليلا قليلا ، أو المراد به هنا أثر المشى ومنه مزحف الحية ، وهو أثر انسيابها فى الرمل قال الشاعر :

كأن مزاحف الحيات فيه ... قبيل الصبح آثار السباط

تَهَادَى أَنَاةَ الخَطْوِ مُرْتَاعَةَ الحَشَا ... كَمَا رِيعَ يَعْفُورُ الْفَلَا الْمُتَشَوِّفُ (١)

فَمَا الشَّمْسُ رَقَّ الْغَيْمُ دُونَ إِيَابِهَا ... سِوَى مَا أَرَى ذَاكَ الْجَبِينُ الْمُنَصَّفُ (٢)

فَدَيْتُكِ أَنِّى زُرْتِ نُورُكِ وَاضِحٌ ... وَعِطْرُكِ نَمَّامٌ وَحَلْيُكِ مُرْجَفُ (٣)

هَبِيكِ اعْتَرَرْتِ الْحَىَّ وَاشِيكِ هَاجِعٌ ... وَفَرْعُكِ غِرْبِيبٌ وَلَيْلُكِ أَغْضَفُ (٤)

فَأَنَّى اعْتَسَفْتِ الْهَوْلَ خَطْوُكِ مُدْمَجٌ ... وَرِدْفُكِ زَجْرَاجٌ وَخَصْرُكِ مُخْطَفُ (٥)

لَجَاجٌ، تَمَادِى الْحُبِّ فى الْمَعْشَرِ الْعِدَا ... وَأَمُّ الْهَوَى الْأُفْقَ الَّذِى فِيهِ نُشْنَفُ (٦)

وَأَنْ تَتَلَقَّى السُّخْطَ ـ عَانِينَ ـ بِالرِّضَى ... لِغَيْرَانَ أَجْفَى مَا يُرَى حِينَ يَلْطُفُ (٧)

كَفَافَا مِنَ الْوَصْلِ التَّحِيَّةُ خُلْسَةً ... فَيُومِئُ طَرْفٌ أَوْ بَنَانٌ مُطَرَّفُ (٨)

---

(١) تهادى أصله تتهادى أى تمشى فى تمايل وسكون ، وأناة الخطو : متئدة الخطو وصفها بالمصدر ، وهو الاناه بمعنى التؤدة والمطالبة ، ومرتاعة الحشا : متفزعة القلب ، وريع : فزع وخيف ، واليعفور : الظبي والمتشوف : المتطلع . وفى بعض النسخ المتسرف ، وهو الذى يرفع رأسه ويمد بصره ليبطر إلى الشيء .

(٢) إياة الشمس ـ بالكسر والفتح ـ حسنها وضوءها ، وإياة هى الشمس أيضا ، قال أبو العلاء :

وشمس العالم من بعضه ... لولا إياه لم تكن سخت

أى لولا القدس لما كان القمر ، والمنصف : الذى على الصيف وهو الخمار ، أى لست الشمس يستر العيم الرقيق حسنها وضوءها إلا ما أراه ذلك الحاجب من حسن يبدو من خلال الصيف .

(٣) وفى بعض الروايات : قعيدك وهو مصدر منصوب لنيابته عن الفعل والتقدير سألت الله حفظك من قوله تعالى « عن اليمين وعن الشمال قعيد » أى حفيظ ، والمستعمل قعيدك الله مثل عمرك الله ، وهو مصدر منصوب أيضاً ناب عن الفعل تقديره عمرك الله بالتشديد ، ومعناه هنا : ملازمك ، ومرجف : من أرجف إذا تحرك واضطرب ، ويصح أن يكون من أرجف بالبناء للمجهول فهو مرجف ، وفى بعض النسخ بدل قعيدك مديتك . (٤) هبك : يقال هبك فعلت ، وهبيك فعلت كذا ، ولا يقال هب أنك فعلت ، ولا هبى أنك فعلت ، والمعنى احسبى واعددى ، واعترت الحى : حشمه وجزت به على غير علم ، وفرعك غربيب : شعرك شديد السواد ، وأغضف حالك السواد ، يقال ليل أغضف إذا ألبس ظلامه .

(٥) مدمج : داخل بعضه فى بعض ، ومخطف : ضامر يقال فرس مخطف الحشا : أى ضامره .

(٦) نشنف : نبغض ، والمعنى أمرى لجاج فقد تمادى بى حب من أهواه بين المعشر العدا ، وقصد الهوى : المكان الذى فيه أمقت وأبغض . (٧) المعنى ولجاج أيضا أن تتحمل السخط ، وقد عنانا رضا صاحب غيرة يشتد جفاؤه وغلظته ، حين يظن لطفه ورقته (٨) البنان : المطرف الذى طرف بالحناء .

خَلِيلَيَّ مَهْلاً لاَ تَلُومَا فَإِنَّنِي ... فُؤَادِي أَلِيفُ الْبَثِّ وَالْجِسْمُ مُدْنَفُ

فَأَعْنَفُ مَا يَلْقَى الْمُحِبُّ لَجَاجَةً ... عَلَى نَفْسِهِ فِي الْحُبِّ حِينَ يُعَنَّفُ

وَإِنِّي لَيَسْتَهْوِينِيَ الْبَرْقُ صَبْوَةً ... إِلَى بَرْقِ ثَغْرٍ إِنْ بَدَا كَادَ يَخْطَفُ

وَمَا وَلَعِي بِالرَّاحِ إِلاَّ تَوَهُّمٌ ... لِظَلْمٍ بِهِ كَالرَّاحِ لَوْ يُتَرَشَّفُ (١)

وَتُذْكِرُنِي الْعِقْدَ الْمُرِنَّ مُجَانُهُ ... مُرِنَّاتُ وُرْقٍ فِي ذُرَا الأَيْكِ تَهْتِفُ (٢)

فَمَا قَبْلَ مَنْ أَهْوَى طَوَى الْبَدْرَ هَوْدَجٌ ... وَلاَ صَانَ رِيمَ الْقَفْرِ خِدْرٌ مُسَجَّفُ (٣)

وَلاَ قَبْلَ « عَبَّادٍ » حَوَى الْبَحْرَ مَجْلِسٌ ... وَلاَ حَمَلَ الطَّوْدَ الْمُعَظَّمَ رَفْرَفُ (٤)

---

(١) الظلم به : أى بالثغر فى البيت قبله . قال فى اللسان ، والظلم : الماء الذى يجرى وظهر على الاسنان من صفاء اللون لان الريق كالمرند حتى يتحيل لك فيه سواد من شدة البرق والصفاء ، قال كعب بن زهير :

تخلو غوارب ذى ظلم إذا ابتسمت ... كأنه منهل بالراح معلول

لو يترشف : لو هنا للتمنى ، وفى بعض النسخ إذ يترشف ، والترشف : مص الماء قليلا قليلا . قال ابن بسام :

« أراه بيت أبى الطيب : وما شرق بالماء إلا تذكرا ... لماء به أهل الحبيب نزول

(٢) المرن : اسم فاعل من الأرنان ، وهو الصوت الحزين ، والمجان : حب يتخذ من صغار اللؤلؤ ، أو من الفصة أمثال اللؤلؤ ، والورق : جمع ورقاء وهى الحمامة التى لونها بين السواد والغبرة وهى ما تسمى فى عرف أهل مصر بالحمامة ، وفى مثل هذا يقول الشاعر المحسن حران العود النميرى :

. . . . . ثم هاجى حمائم ورق بالمدينة هيف

والأيك : جمع أيكة ، وهى الشجر الكثير الملتف ، وتهتف : تنوح . (٣) الهودج : ماتركب فيه المرأة يكون مقببا وغير مقبب ، وفى بعض النسخ بدل صان ضم ، والريم : الظبى الخالص البياض ، والخدر المسجف : ما على كل مدخل أو نافذة من بوادئه سجفان أى ستران بينهما مشقوق كالمصراعين .

(٤) (ولا قبل عباد) هو المعتضد بالله أبو عمرو عباد بن الطائر المؤيد بالله أبى القاسم محمد بن إسماعيل قاضى اشبيلية ينتهى نسبه إلى النعمان بن المنذر آخر ملوك الحيرة ، وهو صاحب قرطبة وأشبيلية وما والاهما من جزيرة الأندلس ، ولى الملك بعد وفاة أبيه الظافر محمد بن إسماعيل القاضى سنة ٤٣٣ هـ وكان هو وابنه المعتمد أوسع ملوك الطوائف ملكا ، وأشدهم بأساً ، وأكثرهم عديدا وعددا ، وكان المعتضد فيما ذكره ابن بسام صاحب الذخيرة قطب رحى الفتنة ، ومنتهى غاية المحنة فى بلاد الأندلس ، وإلى سياسته يعزى السبب فى تلك الحروب الطاحنة التى نشبت بين ملوك الطوائف واستعان بعضهم على بعض فيها بالعدو الذى انتهز فرصة ضعفهم ، ونفق كلمتهم فعمل على ازالة ملكهم ، وإخراج المسلمين من بلادهم — والرفرف — الفرش والبسط ، وكل ما أعد للجلوس ، وفى التنزيل العزيز « متكئين على رفرف خضر » وهو جمع رفرفه ورفارف جمع الجمع . قال ابن بسام : وهذا البيت للقسطلى بجملته حيث يقول فى ابن أبى عامر :

وكيف أسوى بالبر والبحر مجلس ... وقام بعبء الراسيات سرير

هُوَ المِلكُ الجَعْدُ الَّذِي فِي ظِلَالِهِ ... تُكَفُّ صُرُوفُ الحَادِثَاتِ وَتُصْرَفُ (١)

هُمَامٌ يَزِينُ الدَّهْرَ مِنْهُ وَأَهْلَهُ ... مَلِيكٌ فَقِيهٌ كَاتِبٌ مُتَفَلْسِفُ

يَتِيهُ بِمَرْقَاهُ سَرِيرٌ وَمِنْبَرٌ ... وَيَحْمَدُ مَسْعَاهُ حُسَامٌ وَمُصْحَفُ

رَوِيَّتُهُ فِي الحَادِثِ الإِدِّ لَحْظَةٌ ... وَتَوْقِيعُهُ الجَالِي دُجَى الخَطْبِ أَحْرُفُ (٢)

يَذِلُّ لَهُ الجَبَّارُ خِيفَةَ بَأْسِهِ ... وَيَعْنُو إِلَيْهِ الأَبْلَجُ المُتَعَطِّرِفُ (٣)

حِذَارَكَ - إِذْ تَبْغِي عَلَيْهِ - مِنَ الرَّدَى ... وَدُونَكَ فَاسْتَوْفِ المُنَى حِينَ تُنْصِفُ

سَتَعْتَامُهُمْ فِي البَرِّ وَالبَحْرِ بِالتَّوَى ... كَتَائِبُ تُزْجِي أَوْسَفَائِنُ تُجْدَفُ (٤)

أَغَرُّ مَتَى نَدْرُسْ دَوَاوِينَ مَجْدِهِ ... يَرُقْنَا غَرِيبٌ مُجْمَلٌ أَوْ مُصَنَّفُ (٥)

إِذَا نَحْنُ قَرَّظْنَاهُ قَصَّرَ مُطْنِبٌ ... وَلَمْ يَتَجَاوَزْ غَايَةَ القَصْدِ مُسْرِفُ (٦)

---

(١) الجعد : قال فى اللسان « والجعد إذا ذهب به مذهب المدح فله معنيان مستحبان ، أحدهما : أن يكون معصوب الجوارح ، شديد الأسر والخلق غير مسترخ ولا مضطرب ، والثانى : أن يكون شعره جعدا غير سبط ، لأنّ سبوطة الشعر هى الغالبة على سعور العجم من الروم والفرس ، وجعودة الشعر هى الغالبة على شعور العرب ، فاذا مدح الرجل بالجعد لم يخرج عن هذين المعنيين » الخ ماقال فى الجعد على كلا الاعتبارين المدح أو الذم فانظره ، والمعنى هو الملك المجتمع الخلق الذى ليس رهلا مسترخى الاعضاء ، أو الجعد الشعر ، أو الكريم الذى فى طله وكسره تكف غير الحوادث وصروف الدهر وتردها عن أن تقصد المستطلين بطله بالسوء .

(٢) الاد العظيم ، والتوقيع : ما يكتبه الملك فى الكتاب من جمل قصيرة ، وأحرف يسيرة، لانفاذ أوامره، وإمضاء شؤون دولته ، والمعنى تفكيره فى الحادث العظيم القطع الداهى سريع لايحتاج إلى تريث ، وعدم تعجل ، وتوقيعه الكاشف ظلمة الخطوب كلمات قليلة حاسمة لمضمون ما يريد إنفاذه .

(٣) الأبلج : الأبيض ، والمتعطرف : السيد السرى المختال فى مشيته .

(٤) ستعتامهم : ستختارهم ، والتوى : الهلاك ، وتزجى : تساق وتسير ، وتجدف تدفع بالمجاديف .

(٥) أغرّ كريم الأفعال واضحها ، وندرس : أى متى نرض أنفسنا على قراءة ماسطر فى دفائر مجده ، يرقنا : أى يعجبنا الخ ، وفى الأصل : « متى تدرس » ، والغريب : الغامض البعيد عن الفهم ، والمجمل: المحتاج إلى التفسير والبيان ، والمصنف : المميز بعضه من بعض ، والمبين خفاؤه وإجماله .

(٦) قرظناه : من التقريظ وهو المدح والثناء ، وأصله من تقريظ الجلد أى دبغه بالقرظ ، والمطنب : المسهب المتوسع فى القول ، والقصد : التوسط والاعتدال .

وَأَرْوَعُ لاَ الْبَاغِي أَخَاهُ مُبَلِّغٌ ... مُنَاهُ وَلاَ الرَّاجِي نَدَاهُ مُسَوِّفُ (١)

مُمِرُّ الْقُوَى لاَ يَمْلَأُ الْخَطْبُ صَدْرَهُ ... وَلَيْسَ لِأَمْرٍ فَائِتٍ يَتَلَهَّفُ (٢)

لَهُ ظِلُّ نُعْمَى يَذْكُرُ الْهَمُّ عِنْدَهُ ... ظِلاَلَ الصِّبَا بَلْ ذَاكَ أَنْدَى وَأَوْرَفُ (٣)

جَحِيمٌ لِعَاصِيهِ يُشَبُّ وَقُودُهُ ... وَجَنَّةُ عَدْنٍ لِلْمُطِيعِينَ تُزْلَفُ (٤)

مَحَاسِنُ ، غَرْبُ الذَّمِّ عَنْهَا مُفَلَّلٌ ... كَهَامٌ ، وَشَمْلُ الْمَجْدِ فِيهَا مُؤَلَّفُ (٥)

تَنَاهَتْ فَعِقْدُ الْمَجْدِ مِنْهَا مُفَصَّلٌ ... سَنَاءٌ وَبُرْدُ الْفَخْرِ مِنْهَا مُفَوَّفُ (٦)

طَلاَقَةُ وَجْهٍ فِي مَضَاءٍ كَمِثْلِ مَا ... يَرُوقُ فِرِنْدَ السَّيْفِ وَالْحَدُّ مُرْهَفُ (٧)

عَلَى السَّيْفِ مِنْ تِلْكَ الشَّهَامَةِ مِيسَمٌ ... وَفِي الرَّوْضِ مِنْ تِلْكَ الطَّلاَقَةِ زُخْرُفُ (٨)

سَجَايَا لِمَنْ وَالاَهُ كَالأَرْيِ تُجْتَنَى ... تَعُودُ لِمَنْ عَادَاهُ كَالشَّرْيِ يُثْقَفُ (٩)

يُرَاقِبُ مِنْهُ اللهَ « مُعْتَضِدٌ » بِهِ ... يَدَ الدَّهْرِ يَقْسُو فِي رِضَاهُ وَيَرْأَفُ (١٠)

---

(١) الأروع : الذي يروعك حسنه ، ويعجبك مرآه ، ومعنى سائر البيت ليس الذي ينتهي له مثيلا يبالغ مناه ، وليس الذي يرجو نداه مؤخرا عطاؤه .

(٢) المر : الحبل الذي أحيد فتله ، والقوى : طاقاته يريد أنه مستحكم القوى وليس رجوا صعباً يملأ الهول صدره رعباً ، ويأسى على مافاته تلهفاً وتحسراً .

(٣) الهم : الشيخ الكبير الفاني ، يعني أن الشيخ الهم يذكر عند استظلاله ظل سماحه الوارف أنه في ظل الشباب الندي الممتد بل إن ظل سماحه أكثر نداوة ووروقا وامتدادا .

(٤) تزلف : تقرب ، وفي التنزيل العزيز « وأزلفت الجنة للمتقين » أي قربت .

(٥) الغرب : الحد ، مفلل : فيه كسور ، وكهام : كليل نابٍ عن الضريبة لا يقطع .

(٦) السناء : الرفعة ، وبرد مفوف : رقيق من نسج اليمن .

(٧) فرند السيف : جوهره وماؤه الذي يجري فيه وطرائقه ، والمعنى : يعلو وجهه ماء كفرند السيف المترقرق ، مع مضاء عزم كحده المرهف في التصميم والقطع ، وفي روايه : « طلاقة مجد »

(٨) ميسم أثر وعلامة . وفي الأصل : « من تلك الطلاقة مطرف »

(٩) الأرى : العسل ، والشرى : الحنظل ، ويثقف : أي يشق لأخذ ما في داخله قال امرؤ القيس :

كأني غداة البين يوم تحملوا ... لدى سمرات الحي ناقف حنظل

(١٠) يد الدهر : مدى الدهر ، قال أبو العلاء :

فيالينا عشنا حياة بلا ردى ... — يدالدهر — أومتنا ممتا بلا نشر

ومعنى البيت أنه يرأف ويعنف دائما في سبيل مرضاة الله وحده ، ويقال أيضا يد الحياة ، قال أبوالعلاء :

لو كان لي أمر يطاوع لم يشن ... ظهر الطريق — يد الحياة — مبجم

فَقُلْ لِلْمُلُوكِ الْحَاسِدِيهِ مَتَى أُدَّعَى ... سِبَاقَ الْعَتِيقِ الْفَائِتِ الشَّأْوِ مُقْرِفُ (١)

أَلَيْسَ « بَنُو عَبَّادٍ » الْقِبْلَةَ الَّتِي ... عَلَيْهَا لِآمَالِ الْبَرِيَّةِ مَعْكَفُ (٢)

مُلُوكٌ يُرَى أَحْيَاؤُهُمْ فَخْرَ دَهْرِهِمْ ... وَيَخْلُفُ مَوْتَاهُمْ ثَنَاءٌ مُخَلَّفُ (٣)

بِهِمْ بَاهَتِ الْأَرْضُ السَّمَاءَ فَأَوْجُهٌ ... شُمُوسٌ وَأَيْدٍ مِنْ حَيَا الْمُزْنِ أَوْكَفُ (٤)

* * *

أَشَارِحَ مَعْنَى الْمَجْدِ وَهْوَ مُعَمَّسٌ ... وَمُجْزِلَ حَظِّ الْحَمْدِ وَهْوَ مُسَفْسِفُ (٥)

لَعَمْرُ الْبِدَا الْمُسْتَدْرِجِيكَ بِزَعْمِهِمْ ... إِلَى غِرَّةٍ كَادَتْ لَهَا الشَّمْسُ تُكْسَفُ (٦)

لَكَالُوكَ صَاعَ الْغَدْرِ لُؤْمَ سَجِيَّةٍ ... وَكِيلَ لَهُمْ صَاعُ الْجَزَاءِ الْمُطَفَّفُ (٧)

لَقَدْ حَاوَلُوا الْعُظْمَى الَّتِي لَا شَوَى لَهَا ... فَأَعْجَلَهُمْ عَقْدٌ مِنَ الْهَمِّ مُحْصَفُ (٨)

---

(١) العتيق : النجيب الكريم من الخيل ، والشأو : الغاية ، والمقرف : الهجين وهو الذى أمه بردونة وأبوه عربى أو بالعكس . (٢) معكف مصدر ميمى بمعنى العكوف أى إقامة وملازمة .

(٣) أى بنو عباد ملوك يرى الناس أحياءهم مفخرة الزمان ، ويخلف من بعد موتاهم ذكر حسن وثناء موروث يتحدث به الناس ، ويتناقله الخلف عن السلف .

(٤) الحيا : المطر ، والمزن : السحاب ، وأوكف : أهطل وأغزر والمعنى : فاخرت بهم الأرض السماء فوجوههم أبهى طلعة من النيرات ، وآثار نعمهم ، ومزن أيديهم أغزر وأهطل من السحب الهاطلات .

(٥) معمس : ملبس ملتوعن جهته مظلم لا يدرى من أين يؤتى له ، ومسفسف : نازل من أسف الطائر إذا دنا من الأرض ، والمعنى : يا من بفعالك المجيدة أبنت معنى المجد فى حال كونه غامضا ملتبسا ، وأجزل بآثارك الحميدة حظ الحمد على حين حظ غيرك منه حقير ، وجواب النداء فى الأبيات بعده .

(٦) لعمر البدى : يقسم بحياتهم متهكماً للاشارة إلى إحقاقهم فيما حاولوا ، المستدرجيك : أى الذين حاولوا فى زعمهم أن يتدرجوا بك قليلا قليلا على غرة ، ويأخذوك على غفلة إلى ما تكاد له الشمس تكسف لجرأتهم ، وهول ما أقدموا عليه . (٧) لكالوك : أى لقد كالوك من لؤم سجيتهم صاع الغدر ، وكالتهم صاع الجزاء والعقوبة على غدرهم ، والمطفف : فى الأصل المنقوص المبخوس من طفف الكيل نقصه وبخسه ، وقد يستعمل بمعنى الوافى وهو المراد هنا .

(٨) لقد حاولوا العظمى : أى الفتكة العظمى ، التى لا شوى لها : أى التى لا تصيب الأطراف ولكن تصيب المقاتل ، فأعجلهم عقد : أى رأى وتدبير من همك وعزمك ، محصف : محكم سديد لاخلل فيه .

* * *

وَلَمَّا رَأَيْتَ الْغَدْرَ هَبَّ نَسِيمُهُ تَلَقَّاهُ إِعْصَارٌ لِبَطْشِكَ حَرْجَفُ (١)

أَظَنَّ الْأَعَادِي أَنَّ حَزْمَكَ نَائِمٌ لَقَدْ تَعِدُ الْفَسْلَ الظُّنُونُ فَتُخْلِفُ (٢)

دَوَاعِي نِفَاقٍ أَنْذَرَتْكَ بِأَنَّهُ سَيَشْرَى وَيَذْوَى الْعُضْوُ مِنْ حَيْثُ يُشْأَفُ (٣)

تَحَمَّلْتَ عِبْءَ الدَّهْرِ عَنْهُمْ وَكُلُّهُمْ بِنُعْمَاكَ مَوْصُولُ التَّنَعُّمِ مُتْرَفُ (٤)

فَإِنْ يَكْفُرُوا النُّعْمَى فَلِلْكَ دِيَارُهُمْ بِسَيْفِكَ قَاعٌ صَفْصَفُ الرَّسْمِ تُنْسَفُ

وَطَيَّ الثَّرَى مَثْوًى يَكُونُ قُصَارَهُمْ وَإِنْ طَالَ مِنْهُمْ فِي الْأَدَاهِمِ مَرْسَفُ (٥)

وَبُشْرَاكَ عِيدٌ بِالسُّرُورِ مُظَلَّلٌ وَبِالْحَظِّ فِي نَيْلِ الْمُنَى مُتَكَنِّفُ (٦)

---

(١) النسيم : الريح تهب هبوبا لطيفا ، والأعصار : الريح الشديدة التي تهب من الأرض ، وتثير الغبار فيرتفع كالعمود إلى نحو السماء ، وهي التي تسمى بالزوبعة ، وفي المثل « إن كنت ريحاً فقد لاقيت إعصاراً » يضرب للرجل يلقى نده في الدسالة والقوة ، والحرجف : البارد وصف بها الأعصار . وفي الأصل «حرجب»

(٢) الفسل : الرذل الدنيء الأحمق ، والمعنى لم يتحقق ظن الأعادي أن تدبيرك نائم عن كيدهم وغدرهم وكثيراً ما تعد الظنون الخطي الأرذال فتخلفهم .

(٣) شرى العضو : أي يضر عليه ورم وقروح تجتاح إلى الحكة ، ويذوى : يذبل ويسمر ، ويشأف أي تكوى شأفته أي قرحته لتذهب بالحكة ، والبيت تمثيل لحال طائفة ثم فيها النفاق والشر فكانت كالعضو المريض لحق به الداء فلم يكن له من معالجته بالكي لاستئصال شأفته ، وفي رواية « يذوى العضو »

(٤) أي كفيتهم مؤونة السعي ، وحملت عنهم العبء ، فكلهم في ظل نعماك دائم التنعم والترف .

(٥) قصارهم : يقال قصرك وقصارك أن تفعل كذا أي غايتك ، والأداهم : القيود لسوادها جمع أدهم وتسمى بالأساود أيضاً ، والمرسف : مصدر ميمي من الرسفان وهو مشي المقيد ، أي أن هؤلاء الأعداء سيكون مآلهم أن يموتوا في الحبس ، بعد إن تطول عليهم مدته .

(٦) انتقل إلى ذكر مظهر من مظاهر الدولة عند خروج الملك لصلاة العيد ، وترتب المملكة في ذلك على ما يؤخذ من صبح الأعشى أن ينادي في عامة البلد ، وأهل الأسواق ليلة العيد فيخرج أهل كل صناعة بظاهر البلد ، ويسحى أهل كل سوق ناحية ، متجملين بأحسن الثياب ، وكل منهم متنكب قوسا أو متقلد سيفا ، ومع أهل كل سوق علم يختص بهم ، عليه رنك أهل تلك الصناعة بما يناسبهم ، ويبكر الملك بالركوب فيركب وعن يمينه ويساره فارسان ، وممسك بركابيه رجلان متقلدان سيفين ، ويركب العسكر معه ميمنة وميسرة ، ويصطف الناس صفوفا يمسون قدامه ، والعلوج خلفه ملتفون به ، والأعلام منشورة وراءه ، والطبول خلفه حتى يصلي العيد ، ثم يعود فينصرف عامة الشعب ويعد السماط فيحضر طعامه خواصه وأعيان مملكته ، ومعنى البيت أنه يبشره بالعيد : يناله السرور ، ويكتنفه الحظ ببلوغ المنى .

بَشِيرٌ بِأَعْيَادٍ تُوَافِيكَ بَعْدَهُ ... كَمَا يَنْسُقُ النَّظْمَ الْمُوَالِي وَيَرْصُفُ (١)

تَجَرَّدَ فِيهِ سَيْفُ دَوْلَتِكَ الَّذِي ... دِمَاءَ الْعِدَى دَأْبًا بِغَرْبَيْهِ تُظْلَفُ (٢)

هُوَ الصَّارِمُ الْعَضْبُ الَّذِي الْعَزْمُ حَدُّهُ ... وَحِلْيَتُهُ بَذْلُ النَّدَى وَالتَّعَفُّفُ

هُمَامٌ سَمَا لِلْمُلْكِ إِذْ هُوَ يَافِعٌ ... وَتَمَّتْ لَهُ آيَاتُهُ وَهُوَ مُخْلِفُ (٣)

كَرِيمٌ يَعُدُّ الْحَمْدَ أَنْفَسَ قِنْيَةٍ ... فَيُولَعُ بِالْفِعْلِ الْجَمِيلِ وَيُشْغَفُ

غَدَا بِخَمِيسٍ يُقْسِمُ الْغَيْمُ إِنَّهُ ... لَأَحْفَلُ مِنْهَا مُكْفَهِرًّا وَأَكْثَفُ (٤)

هُوَ الْغَيْمُ مِنْ زُرْقِ الْأَسِنَّةِ بَرْقُهُ ... وَلِلطَّبْلِ رَعْدٌ فِي نَوَاحِيهِ يَقْصِفُ

* * *

فَلَمَّا قَضَيْنَا مَا عَنَانَا أَدَاؤُهُ ... وَكُلٌّ بِمَا يُرْضِيكَ دَاعٍ فَمُلْحِفُ (٥)

قَرَنَّا بِحَمْدِ اللهِ حَمْدَكَ إِنَّهُ ... لَأَوْكَدُ مَا يُحْظِي لَدَيْهِ وَيُزْلِفُ (٦)

---

(١) يسق النظم : أى يتابع بينه ويجعله على طريقة نظام واحد ، ويرصف : أى ينظم وينضد ، والمعنى هذا العيد شبيه بأعياد تأتى بعده على نسقه وترتيبه .

(٢) بغربيه : بحديه ، وتظلف : تهدر من ظلم ذهب دمه ظلماً أى هدراً .

(٣) الهمام اليافع الذى شارف الاحتلام ، والمخلف : الذى اختلف نظر الناس فيه فبعضهم يقول قد احتلم وأدرك ، وبعض يقول غير مدرك ، والمعنى سما بهمته إلى الملك وهو دون الاحتلام ، وتمت له علاماته ورسومه وميزاته ، وهو مشكوك فى احتلامه .

(٤) الخميس : الجيش الجرار التام العرق من المقدمة والميمنة والميسرة والقلب والساق وأراد به العسكر السائرين فى موكب الملك عند خروجه لصلاة العيد ، والغيم : السحاب ، وأحفل : أى أكثر منها احتشاداً واحتفالا فى حال كونه (مكفهراً) أى مظلما أسود لما على الجند من الدروع والسلاح ، وأكثف : أى أكثر كثافة وتراكما من السحاب لشدة الزحام وكثرة العدد وأعاد الضمير فى قوله (منها) على الاسم مؤنثاً مراعاة للمعنى .

(٥) أى فلما أدينا ما أهمنا أداؤه من صلاة العيد : وكل الناس داع فلح فى الدعاء بما يرضيك ، وحواب لما يأتى بعد .

(٦) يحظى : أى يوجب الحظوة والتفضيل ، ونزلف : يقرب ، والمعنى : ولما انتهينا من صلاة العيد جمعنا بين حمد الله والثناء عليك لأنه أبلغ فى بلوغ الحظوة لديه ، والزلفى إليه .

وَعَدْنَا إِلَى الْقَصْرِ الَّذِى هُوَ كَعْبَةٌ ... يُغَادِيهِ مِنَّا نَاظِرٌ أَوْ مُطَرَّفُ (١)

فَإِذْ نَحْنُ طَالَعْنَاهُ وَالْأُفْقُ لَابِسٌ ... عَجَاجَتَهُ وَالْأَرْضُ بِالْخَيْلِ تَرْجُفُ (٢)

رَأَيْنَاكَ فِى أَعْلَى الْمُصَلَّى كَأَنَّمَا ... تَطَلَّعَ مِنْ مِحْرَابِ دَاوُدَ يُوسُفُ (٣)

وَلَمَّا حَضَرْنَا الْإِذْنَ وَالدَّهْرُ خَادِمٌ ... تُشِيرُ فَيُمْضِى وَالْقَضَاءُ مُصَرِّفُ (٤)

وَصَلْنَا فَقَبَّلْنَا النَّدَى مِنْكَ فِى يَدٍ ... بِهَا يُتْلَفُ الْمَالُ الْجَسِيمُ وَيُخْلَفُ

* * *

لَقَدْ جُدْتَ حَتَّى مَا بِنَفْسٍ خَصَاصَةٌ ... وَأَمَّنْتَ حَتَّى مَا بِقَلْبٍ تَخَوُّفُ

---

(١) يغاديه : أى يباكره ويغدو عليه فى أول النهار ، والمطرف : الذى يديم النظر فى القصر من حب وإعجاب ، وهو فى الأصل الذى أصاب طرفه أى عينه عود ونحوه ثماً يثبت طرفه فى الشىء ، ولا يفعل طرفه أو هو اسم فاعل من طرّف الشىء اختاره ، قال الشاعر :

أطرف أبكارا كأن وجوهها ... وجوه عذارى حسرت أن تقنعا

(٢) طالعناه : أى القصر ، والعجاجة : ماتثيره سنابك الخيل من الغبار ، وترجف : تضطرب .

(٣) المصلى : المكان المعد لصلاة العيد ، وتطلع : طلع وأشرف عليهم من محراب ، وروى عن الرجاج فى قوله تعالى « وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب إذ دخلوا على داود » قال: المحراب ارفع بيت فى الدار، وارفع مكان فى المسجد ، والمعنى : رأيناك حين عودتنا إلى القصر ومطالعتنا إياه مشرفا بأعلى المصلى من غرفة قصرك كأنما أشرق من محراب داود فى يوم نسكه وعبادته وجه يوسف رائعاً فى حسنه وجماله .

(٤) قال ابن بسام :

وقوله ولما حضرنا الاذن البيت مع الذى بعده أرى أبا الوليد احتذى فيه حذو الوليد فى أبيات أنشدها لحسنها وهى من أحسن ما قيل فى الهيبة :

ولما حضرنا سدة الأذن أخرت ... رجال عن الباب الذى أنا داخله

فأفضيت من قرب إلى ذى مهابة ... أقابل بدر التم حين أقابله

كما انتصب الرمح الردينى ثقفت ... أنابيبه واهتز للطعن عامله

وكالبدر وافته لتم سعوده ... وتم بناه واستهلت مباركه

وسلمت فاعتانت حنانى هيبة ... تنازعنى القول الذى أنا قائله

فلما تأملنا الطلاقة وانثنى ... إلىّ ببشر آستقى محاياه

دنوت فقبلت الندى من يد امرئ ... كريم محياه سباط أنامله

صفت مثل ما يصفو المدام خلاله ... ورقت كما رق النسيم شمائله

وقول ابن زيدون وصلنا فقبلنا الندى من يد امرئ معنى مليح ولفظ صحيح ، إلا أنه كما تراه أنما بيت البحترى ويقول بعض أدبائنا إن ابن زيدون بحترى زماننا وصدقوا لأنه حذا حذو الوليد فى بعض قصائده .

وَلَوْلَاكَ لَمْ يَسْهُلْ مِنَ الدَّهْرِ جَانِبٌ ... وَلَا ذَلَّ مُقْتَادٌ وَلَا لَانَ مَعْطِفُ

لَكَ الْخَيْرُ ، أَنَّى لِي بِشُكْرِكَ نَهْضَةٌ ؟ ... وَكَيْفَ أُؤَدِّي فَرْضَ مَا أَنْتَ مُسْلِفُ؟ (١)

أَفَدْتَ بَهِيمَ الحَالِ مِنِّيَ غُرَّةً ... يُقَابِلُهَا طَرْفُ الجُمُوحِ فَيُطْرَفُ (٢)

وَبَوَّأْتَهُ دُنْيَاكَ دَارَ مُقَامَةٍ ... بِحَيْثُ دَنَا ظِلٌّ وَذُلِّلَ مَقْطِفُ (٣)

* * *

وَكَمْ نِعْمَةٍ أَلْبَسْتُهَا سُنْدُسِيَّةٍ ... أُسَرْبِلُهَا فِي كُلِّ حِينٍ وَأُلْحَفُ

مَوَاهِبُ فَيَّاضِ الْيَدَيْنِ كَأَنَّمَا ... مِنَ الْمُزْنِ تُمْرَى أَوْ مِنَ الْبَحْرِ تُغْرَفُ

فَإِنْ أَكُ عَبْداً قَدْ تَمَلَّكْتَ رِقَّهُ ... فَأَرْفَعُ أَحْوَالِي وَأَسْنَى وَأَشْرَفُ (٤)

---

(١) نهضة : أى طاقة وقدرة أى كيف يكون لى قدرة على القيام بشكرك ، ومسلف : اسم فاعل من أسلفه أى أقرضه ، وفى رواية : « فرض ما أنت مسلف »

(٢) البهيم الحالك سواد الحال من غرة بيضاء تواجهها طرف الطموح الذى يمد بصره إلى الشىء فيطرف أى يثبت فيها نظره من قولهم فلان مطروف العين بفلان إذا كان لا ينظر إلا إليه .

(٣) أى أنزلتنى وأحللنى من دنياك الشبيهة بدار المقامة حيث دنا ظلها وذللت قطوفها .

(٤) فان أك بما أوليتنى من نعم عبداً مرقوقا لك فانى أعد انتمائى إليك بالعبودية والرق أسنى أحوالى وأرفعها وأشرفها ، قال أبو الطيب المتنبى « ومن وجد الاحسان قيدا تقيدا » .

ولنذكر — بمناسبة هذه القصيدة الفذ التى قالها ابن زيدون يجترى العرب فى المعتضد بالله بمناسبة عيد الأضحى — قصيدة يجترى الشرق التى قالها فى المتوكل بمناسبة عيد الفطر — ليرى القارئ صورتين قارب بينهما اتحاد العرض والشاعريه وان اختلفت القافيه والبحر :

الله مكن للخليفة جعفر ... ملكا يحسنه الخليفة جعفر

نعمى من الله اصطفاه بفضلها ... والله يرزق من يشاء ويقدر

فاسلم أمير المؤمنين ، ولا ترل ... تعطى الزيادة — فى البقاء — وتشكر

عمت فواضلك البرية ، فاتق ... فيها المقل على الغنى والمكثر

* * *

بالرصف — وأنت أفضل صائم — ... وبسنه الله الرضية تفطر

فاعم بيوم الفطر عيدا ، إنه ... يوم أغر — من الزمان — مشهر

أطهرت عز الملك فيه بمحفل ... لجب ، يحاط الدين فيه وينصر

فى طرطوشـــة (١)

غَرِيبٌ بِأَقْصَى الشَّرْقِ يَشْكُرُ لِلصَّبَا (٢) تَحَمُّلَهَا مِنْهُ السَّـــلَامَ إِلَى الْغَرْبِ
وَمَا ضَرَّ أَنْفَاسَ الصَّبَا فِى اُحْتِمَالِهَا سَلَامَ هَوًى يُهْدِيهِ جِسْمٌ إِلَى قَلْبِ (٣)

حلنا الجمال تسير فيه ، وقد غدت عدداً يسير بها العديد الأكثر
فالخيل تصهل ، والفوارس بدعى ، والبيض تلمع ، والأسنة تزهر
والأرض حاشـــية تميد بثقلها ، والجوّ معتكر الحواشى أعبر
والشمس ماثمة تودّ بالضحى طورا ، وبطأها العجاج الأكدر
حتى طلعت بضوء وجهك ، فانجلت تلك الدجى ، وانحاب ذاك العثير
وافتك فيك الناظرون ، فاصبح يومى إليك بها ، وعين تنظر
يجدون رؤياك التى طاروا بها من أنعم الله التى لا تكفر
ذكروا لطلعتك التى مهللوا لما طلعت من الصفوف وكبروا
حتى انتهيت إلى المصلى لا ترى نور الهدى يبدو عليك ويظهر
ومشيت مشية خاشع متواضع لله لا يرمى ، ولا يتكبر
ولوَ ان مشتاقا تكلف فوق ما فى وسعه لسعى إليك المنبر

أنعمت من فصل الخطاب بحكمة تنبى عن الحق المبين وتخبر
ووقفت فى برد النبى مذكرا بالله تصدر تارة وتبشر
ومواعظ شفت الصدور من الدى يعتادها وشفاؤها متعذر
حتى اقتد علم الجهول وأحلصت نفس المروى واهتدى المتحير
صلوا وراءك آخذين بعصمة من ربهم وبذمة لا تحفر
فاسلم بمغفرة الاله فلم يزل يهب الذنوب لمن يشاء ويغفر
الله أعطاك المحبة فى الورى وحباك بالفضل الذى لا ينكر
ولأنت أملأ للعيون لديهم وأجل قدراً فى الصدور وأكبر

(١) هى مدينة بأقصى الشرق من الأندلس على البحر الأبيض المتوسط ، وهى من أعمال بلنسية . قالوا : وكانت متقنة العمارة ، وهى من الفرض البحرية التى ينتابها التجار ويسافرون منها إلى سائر الأمصار ، وقد استولى عليها الافرنج وعلى جميع حصونها فى سنة ٥٤٣ هـ (٢) ريح الصبا ، وهى التى تهب من الشرق ، وتقابلها الدبور (٣) ليت الصبا تحتمل أنفاسها سلاما من جسم فى الشرق إلى فؤاده النائى عنه فى الغرب ، وقريب من هذا المعنى قول عبد الرحمن الداخل « صقر قريش » :

إن جسمى كما علمت بأرض وفؤادى وساكنيه بأرض
قـــدر الله بالفراق علينا فعسى باجتماعنا سوف يقضى

إلى الوزير أبى عبـــد الله [١]

« لم ترل الأيام تدنى « ابن زيدون » وتسعده ، وتسوءه وتسعده ، وتقذف به إلى كل نازح ، وتطوف أمله بعين اللاعب المارح ، حتى أحلته « بلنسية » وهلال ذكائه كما أقمر ، وغصن نباهته يانع قد أثمر ، وبنو عبد العزيز غرر ملكها ، ودرر سلكها ، يفيضون بحور الدى ، ويومضون فى كل مستدى ، فحل منهم محلّ الحيا فى الكؤوس ، ووقع منهم موقع الشاعر فى النفوس ، وأقام بين مبرة تواصله ، ومسرة تغازله ، ومكارمة تفاديه ، ومجاملة كرائح القطر وغاديه ، فلما انفصل ، وحصل ما حصل ، تذكر بعد برهة ذلك العيش ونور عمره قد صوح ، وغصن سنه قد دوح ، فلم يجد إلا له طيبا ، ولم يعصر غير فنه عصا رطيبا ، فكتب إلى ابن عبد العزيز [٢] » :

رَاحَتْ فَصَحَّ [٣] بِهَا السَّقِيمْ ... رِيحٌ مُعَطَّرَةُ النَّسِيمْ

مَقْبُولَةٌ هَبَّتْ قَبُو ... لاً [٤] فَهِىَ تَعْبَقُ فى الشَّمِيمْ [٥]

أَفَضِيضُ مِسْكٍ أَمْ بَلَنْـ ... ـسِيَةٌ لِرَيَّاهَا [٦] نَمِيمْ [٧]

بَلَدٌ حَبِيبٌ أُفْقُـهُ ... لِفَتًى يَحُلُّ بِهِ كَرِيمْ

---

(١) هو الوزير أبو عبد الله بن عبد العزيز . (٢) قلائد العقيان .

(٣) وفى رواية « مراح لها السقيم » راحت أى بردت وطابت ، وراح لها السقيم من قولهم : « راح للأمر يراح » إذا أخذته أريحية وخفة ونشاط ، أى فارتاح لطيبها السقيم .

(٤) القبول : ريح الصبا لأنها تقابل الدبور أو لأن النفس تقبلها .

(٥) أى أن ريح الصبا تحمل معها عطرا تتنسم منه طيب الشذى .

(٦) لريحها الطيبة . (٧) يقول لعل نسيم بلنسية الشذى الذى تستروح النفس إليه قد هبّ علينا .

* * *

أَيُّهَا أَبَا عَبْـــدِ الْإِلـ ـهِ دُعَاءَ مَغْلُوبِ الْعَرِيمْ (١)

إِنْ عِيلَ صَبْرِي مِنْ فِرَا قِكَ فَالْعَذَابُ بِهِ أَلِيمْ (٢)

أَوْ أَتْبَعَتْكَ حَنِينَهَا نَفْسِي فَأَنْتَ لَهَا قَسِيمْ (٣)

ذِكْرَى لِعَهْدِكَ كَالشَّهَا دِ (٤) سَرَى فَبَرَّحَ بِالسَّلِيمْ

مَهْمَا ذَمَمْتُ فَمَا زَمَا نِي فِي ذِمَامِكَ بِالذَّمِيمْ (٥)

زَمَنٌ كَمَأْلُوفِ الرِّضَا عِ يَشُوفُ ذِكْرَاهُ الْفَطِيمْ (٦)

أَيَّامَ أَعْقِـــدُ نَاظِرَ يَّ بِذَلِكَ الْمَرْأَى الْوَسِيمْ (٧)

فَأَرَى الْفُتُوَّةَ غَضَّـــةً فِي ثَوْبِ أَوَّاهٍ حَلِيمْ (٨)

اللهُ يَعْلَمُ أَنَّ حُبَّـــكَ مِنْ فُؤَادِي بِالصَّمِيمْ (٩)

وَلَئِنْ تَحَمَّلَ عَنْكَ لِي جِسْمٌ فَعَنْ قَلْبٍ مُقِيمْ (١٠)

---

(١) أيها : بكسر الهمزة بمعنى ردني من الحديث ، وبفتحها بمعنى اكفف واسكت ، أو للتبعيد بمعنى هيهات ، أى بعد دعاء مغلوب العريم ، والعريم : الأمر الداهى العظيم ، والمعنى هيهات يحدى دعائى وأنا من غايته الحادثات على ضره . وفى الأصل : « مغلوب العريم »

(٢) لى العذر إذ ضجرت بفراقك وعيل صبرى فقد اشتد بى الألم لبعادك .

(٣) القسيم : شطر الشيء المقسوم ، أى أنت شطر نفسى الثانى فلا عجب لى عنك .

(٤) وفى الأصل : « كالعداد »

(٥) الذمام : الحق والحرمة ، والمعنى مهما ذممت : من عهد الزمان الغادر على أدم ذلك العهد الحميد الذى قضيته معك وعدت فيه بقربك ورضاك .

(٦) وقد كان فى ذلك العهد المحبوب منعش ذكريات سارّة أحن إليها كما يحن الطفل المفطوم إلى عهد الرضاع القريب . وفى الأصل « زمن كما لون الرضاع »

(٧) أيام نعم ناظرى برؤيه محياك البهى .

(٨) الأوّاه : الكثير الأوّه إشفاقاً وفرقاً ، قالوا : « وهو الكثير التضرع والدعاء أو الحزن والبكاء أو هو الرحيم الرقيق » والمعنى : مأرى الفتوة — فى عنفوانها — مقترنة بالخشية والتضرع والحلم ، وفى الكتاب الكريم : « إن إبراهيم لحليم أواه منيب »

(٩) الصميم : المحض أو الخالص .

(١٠) وإذا رحل عنك جسمى فان قلبى لم يرحل عنك ولم يخل عن حبك فهو ثابت مقيم عندك .

قُلْ لِي بِأَيِّ خِلَالِ سَرْ وِكَ[1] قَبْلُ أُفْتَنُ أَوْ أَهِيمْ[2]
أَبِمَجْدِكَ الْعَمَمِ[3] الَّذِي نَسَقَ الْحَدِيثَ مَعَ الْقَدِيمْ[4]
أَمْ ظَرْفِكَ الْحُلْوِ الْجَنِي أَمْ عِرْضِكَ الصَّافِي الْأَدِيمْ
أَمْ بِرِّكَ الْعَذْبِ الْجِمَا مِ، وَبِشْرِكَ الْغَضِّ الْجَمِيمْ[5]
أَمْ بِالْبَدَائِعِ كَاللَّآ لِئِ مِنْ نَثِيرٍ أَوْ نَظِيمْ
وَبَلَاغَةٍ إِنْ عُدَّ أَهْلُوهَا فَأَنْتَ لَهُمْ زَعِيمْ
فَقَرٌ تَسُوغُ بِهَا الْمُدَا مُ إِذَا تَكَرَّرَهَا النَّدِيمْ[6]
إِنْ أَشْمَسَتْ تِلْكَ الطُّلَا قَةُ فَالنَّدَى مِنْهَا مُقِيمْ

* * *

إِنَّ الَّذِي قَسَمَ الْحُظُو ظَ حَبَاكَ بِالْخُلُقِ الْعَظِيمْ
لَا أَسْتَزِيدُ اللهَ نُعْمَى فِيكَ ، لَا بَلْ أَسْتَدِيمْ
فَلَقَدْ أَقَرَّ الْعَيْنَ أَنَّكَ غُرَّةُ الزَّمَنِ الْبَهِيمْ
حَسْبِي الثَّنَاءُ لِحُسْنِ بِرِّ كَ مَا بَدَا بَرْقٌ فَشِيمْ[7]
ثُمَّ الدُّعَاءُ بِأَنْ تَهَنَّأَ طُولَ عَيْشِكَ فِي نَعِيمْ
ثُمَّ السَّلَامُ تُبَلِّغُنْهُ فَغَيْبُ، مُهْدِيهِ سَلِيمْ[8]

---

(١) السرو : الفضل والسخاء فى المروءة . (٢) إنى لا أدرى أى خلال فضلك جدير بالاشارة والتنويه ، وأى مزاياك حدير بأن يهيم به عارفك ويعتق (٣) الشامل .
(٤) انتظم المجد الحديث ، والمجد القديم . (٥) الجمام — جمع جمة بتشديد الميم — الماء الكثير المجتمع ، يقال : جمت البئر جموما ، إذا اجتمع ماؤها وارتفع بعد نزح ما فيها ، قال زهير :
« ولما وردن الماء زرقا جمامه وضعن عصى الحاضر المتخيم »
والجميم : النبت الكثير . (٦) كلمات تعذب بها الخمر إذا رددها النديم .
(٧) شام البرق : نظر إليه أين يقصد وأين يمطر ، وفى الأصل : « لحسن برقك » .
(٨) وفى رواية : « ثم السلام تبلغنه بقلب مهديه السليم »

جَوَابُ كِتَابٍ

« كتب إليه الوزير أبو بكر بن الطيبي :

أبا الوليد وما شطت بنا الدار
وقلّ منا ومنك اليوم زوّار
و بيننا كل ما تدريه من ذمم
وللصبا ورق خضر ونوّار
وكل عتب و إعتاب جرى فله
مواقع حلوة عندي وآثار
فاذكر أخاك بخير — كلما لعبت
به الليالي — فانّ الدهر دوّار »

فجاوبه بديها في ظهر رقعته : »

لَوْ أَنَّنِي لَكَ فِي الْأَهْوَاءِ مُخْتَارُ ... لَمَا جَرَتْ بِالَّذِي تَشْكُوهُ أَقْدَارُ
لٰكِنَّهَا فِتَنٌ فِي مِثْلِ غَيْهَبِهَا ... تَعْمَى الْبَصَائِرُ إِنْ لَمْ تَعْمَ أَبْصَارُ (١)
فَأَحْسِنِ الظَّنَّ لَا تَرْتَبْ بِعَهْدِ فَتًى ... تَعْفُو الْعُهُودُ وَتَبْقَى مِنْهُ آثَارُ
لَوْ كَانَ يُعْطَى الْمُنَى فِي الْأَمْرِ يُمْكِنُهُ ... لَمَا أَغَبَّكَ — يَوْمًا — مِنْهُ زَوَّارُ (٢)
فَلَا يَرِيبَنْكَ فِي ذِكْرِ الصَّدِيقِ بِهِ ... مَنْ لَيْسَ يَجْهَلُ أَنَّ الدَّهْرَ دَوَّارُ

---

(١) لو كان لي الخيار مما تهواه وتحبه لما جرى القدر بما يسوءك ويبعثك على الشكوى ، ولكنه قدر لا سبيل إلى ردّه ، وفتنه تضل في غياهبها العقول وتعمى الأبصار .

(٢) لو كان الأمر بيدي لما تحجبت عن زيارتك يوما واحداً .

فى الغـــزل

وَضـــحَ الحَقُّ المُبِينُ وَنَفَى الشَّكَّ اليَقِينُ
وَرَأَى الأَعْدَاءُ مَا غَرَّ تَهُـــمُ مِنْهُ الظُّنُونُ
أَمَّلُوا مَا لَيْسَ يُمْنَى وَرَجَوْا مَا لاَ يَكُونُ
وَتَمَنَّوْا أَنْ يَخُونَ الْـــعَهْدَ مَوْلَى لاَيَخُونُ (١)
فَإِذَا الغَيْبُ سَلِيمٌ وَإِذَا الْوُدُّ مَصُونُ (٢)

* * *

قُلْ لِمَنْ دَانَ بِهَجْرِى وَهَوَاهُ لِىَ دِينُ
يَا جَوَاداً بِىَ إِنِّى بِكَ وَاللهِ ضَنِينُ
أَرْخَصَ الحُبَّ فُؤَادِى لَكَ وَالعِلْقُ (٣) ثَمِينُ

* * *

يَا هِـــلاَلاً تَبَرَّا ءَاهُ نُفُوسٌ لاَ عُيُونُ
عَجَباً لِلْغَلْبِ يَقْسُو مِنْكَ وَالْقَدُّ يَلِينُ (٤)
مَا الَّذِى ضَرَّكَ لَوْ سُـــرَّ بِمَرْآكَ الحَزِينُ
وَتَلَطَّفْتَ لِصَـــبٍّ حَيْنُهُ (٥) فِيكَ يَحِينُ
فَوُجُوهُ اللَّفْظِ شَتَّى وَالمَعَاذِيرُ فُنُونُ (٦)

---

(١) وفى رواية : وتمنوا أن يخون الـ عبد مولى لا يخون
(٢) نخاب ظن الأعداء وظهر أنى لم أخن لمولاى عهداً ، وأن إخلاصى ووفائى لها سليمان وودى له لا يتغير
(٣) النفيس، وفى رواية : « والعلق الثمين » .
(٤) وفى رواية « والعطف يلين » . (٥) هلاكه . (٦) سنن .

فى مدح ابن جهـــور

قال يمدح الوزير الأجل محمد بن جهور بن محمد بن جهور :

أَمَا عَلِمَتْ أَنَّ الشَّفِيعَ شَبَابُ ... فَيَقْصُرَ عَنْ لَوْمِ الْمُحِبِّ عِتَابُ (١)

عَلَامَ الصِّبَا غَضٌّ يَرِفُّ رُوَاؤُهُ ... إِذَا عَنَّ مِنْ وَصْلِ الْحِسَانِ ذَهَابُ (٢)

وَفِيمَ الْهَوَى مَحْضٌ يَشِفُّ صَفَاؤُهُ ... إِذَا لَمْ يَكُنْ مِنْهُنَّ عَنْهُ ثَوَابُ (٣)

وَمُسْعِفَةٍ بِالْوَصْلِ إِذْ مَرْبَعُ الْحِمَى ... لَهَا كُلَّمَا قِظْنَا الْجَنَابَ جَنَابُ (٤)

تَظُنُّ النَّوَى تَعْدُو الْهَوَى عَنْ مَزَارِهَا ... وَدَاعِى الْهَوَى نَحْوَ الْبَعِيدِ مُجَابُ (٥)

---

(١) ألم تعلم أن حسير شافع المحب إذا حمى دمه هو غضارة شبابه ، وأن الشباب لحسنه فى الأعين ولما فيه من الترفه والخفة يعتبر شفيعا فى تخفيف العقوبة وتنزيلها من لوم عنيف إلى عتاب خفيف يلطف مدخله على القلب ، وإذ كان الشباب خير شافع للحسان فما أجدرهن بالاقصار عن اللوم ، وما أبدع قول علقمة :

فان تسألونى بالنساء ، فانى ... خبير بأدواء النساء طبيب
إذا شاب رأس المرء أو قل ماله ... فليس له فى ودهن نصيب
يردن ثراء المال حيث وجدنه ... وشرخ الشباب عندهن عجيب

(٢) غض : طرى ناعم ، يرف رواؤه : يترقرق فيه ماء الحسن ، والرواء الحسن ، ومعنى البيت : وما قيمة الشباب وغضارته العسا إذا انحقا فى ترغيب الحسان وعجزا عن اكتساب ودهن .

(٣) محض : خالص لا شائبة فيه ، و شف من شفوف الماء أى يبدى ما وراءه أى وفيم حبنا خالص لا يشوب صفاءه كدر إذا لم يكن من الحسان مثوبة عنه وجزاء عليه .

(٤) المربع : الموضع الذى ينزلون فيه زمن الربيع ، والحمى : موضع فيه كلأ يحميه أهله من أن يرعاه غيرهم ، وقطنا : من القيظ وهو صميم الصيف يقال قطنا بمكان كذا أى أقمنا فيه زمن الصيف والقيظ والمصيف بمعنى واحد ، والجناب الأول ما قرب من محلة القوم أى قطنا فى المكان القريب من الحمى واتخذناه مصيفاً لنا ، والجناب الثانى الناحية ، أى رب حسناء تسعفنى بوصلها كلما اتخذنا جانب الحمى مصيفاً لنا وكانت لها ناحية الحمى سكناً فى زمن الربيع ، وفى هذا البيت جناس متكلف كما ترى .

(٥) تظن مسافة البعد بينى وبينها تصرف نفسى عن زيارتها والحال إن داعى الهوى الذى يناديني من ناحيتها مجاب الدعوة .

وَقَلَّ لَهَا نِضْوٌ بَرَى تَحْضَهُ السُّرَى ... وَبَهْمَاءُ غُفْلُ الصَّحْصَحَانِ تجَابُ (١)

إِذَا مَا أَحَبَّ الرَّكْبُ وَجْهًا مَضَوْا لَهُ ... فَهَانَ عَلَيْهِمْ أَنْ تَخُبَّ رِكَابُ (٢)

عَرُوبٌ أَلاَحَتْ مِنْ أَعَارِيبِ حِلَّةٍ ... تجَاوَبُ فِيهَا بِالصَّهِيلِ عِرَابُ (٣)

غَيَارَى بِنَ الطَّيْفِ الْمُعَاوِدِ فِي الْكَرَى ... مُشِيحُونَ مِنْ رَجْمِ الظُّنُونِ غِضَابُ (٤)

وَمَاذَا عَلَيْهَا أَنْ يُسَنَّى وَصْلُهَا ... طِعَانٌ ـ فَإِنْ لَمْ يُغْنِنَا ـ فَضِرَابُ (٥)

أَلَمْ تَدْرِ أَنَّا لاَ نَرَاحُ لِرِيبَةٍ ... إِذَا لَمْ يُلَمَّعْ بِالنَّجِيعِ خِضَابُ (٦)

وَلاَ نَنْشُقُ الْعِطْرَ النَّمُومَ أَرِيحُهُ ... إِذَا لَمْ يُشَعْشَعْ بِالْعَجَاجِ مَلاَبُ (٧)

---

(١) النضو : المهزول والمراد به البعير الذى أنصاه السفر أى أهزله ، وبرى تحضه السرى : أى أذهب لحمه السير بالليل ، والبهماء : الفلاة لايهتدى فيها ، وغفل : أى لا علامه بها ولا أثر يعرف ، والصحصحان : المستوية الجرداء ، أى وبل لهذه المحبوبة المائية بعير أنصاه السفر وفلاة مجهولة لا أثر فيها للعمارة والطرق تجاب وتقطع سيراً لأجلها .

(٢) فى معنى هذا البيت قول الشاعر :

وكنت إذا ما جئت إلى أزورها ... أرى البيد تطوى لى ويدنو بعيدها

(٣) العروب : المطيعة لزوجها المتحببة إليه ، وألاحت : ظهرت أولوحت بطرف شىء من مكان بعيد والأعاريب : الأعراب ، والحلة : مجتمع البيوت ، والعراب : الخيل العربيه ، والمعنى : زوجة مطيعة زوجها والتحبب إليه بحيث لا تلتفت إلى غيره . قد لوحت بطرف منديل أو نحوه من ناحية الحلة التى ينزل بها أولئك الأعراب العيورون حيث ارتبطوا خيولهم وركزوا رماحهم .

(٤) غيارى : جمع غيران من الغيرة وهى الحمية والأنفة . يقال رجل غيور على أهله وكذلك غيران والأنثى غيرى ، والمشيح : الحذر المجد المسرع إليك لمدافعة الموت أو الدفاع عن الحرم ، ومنه قوله .

أبى لى همتى وأبى بلائى ... وأحدى الحمد بالثمن الربيح

وإقدامى على المكروه نفسى ... وضربى هامة البطل المشيح

(٥) يسنى : أى يسهل ويسر ، ومنه تسنى له كذا أى تسهل وتيسر ، وقال الشاعر :

وأعلم علما ليس بالظن أنه ... إذا الله سنى عقد شىء تيسرا

والمعنى : وأى تبعة ولوم عليها فى أن يسهل الطريق إلى وصلها مطاعنة بالرماح فان لم تغن فضاربة بالسيوف

(٦) نراح : كسحاب من قولهم فلان يراح للمعروف إذا أحدثه له أريحية وحمة ، ويلمع أى يلون بلون النجيع أى الدم ، يقول نحن لا نستريح لوصل الغانيات إذا لم ندفع ثمنه من دم الأعداء .

(٧) النموم : مبالغة فى النم كى به عن سطوع الرائحه ، والأريج : ما يفوح من العطر ، ويشعشع : يخلط ، والعجاج : الغبار ، والملاب : كسحاب العطر ، أى لا نستريح إلى انتشاق عطرهن الساطع الأريج إلا بعد امتشاق الحسام ، واختلاط ما تثيره سنابك الخيل من التراب ، بما يفوح من رائحة الملاب ، والمعنى أنه لا يحب أن يظفر بتلك اللذائذ إلا إذا اغتصبها اغتصابا بحد السيف . فهو لا يصل الريبة إلا بالدم ولا يشتق العطر إلا مشوبا بغبار الهيجاء .

وَكَمْ رَاسَلَ الْغَيْرَانُ يُهْدِي وَعِيدَهُ ... فَمَا رَاعَهُ إِلَّا الطُّرُوقَ جَوَابُ (١)

وَلَمْ يَثْنِنَا أَنَّ الرَّبَابَ عَقِيلَةٌ ... تَسَانَدُ سَعْدٌ دُونَهَا وَرِبَابُ

وَأَنْ رُكِزَتْ حَوْلَ الْخُدُورِ أَسِنَّةٌ ... وَحَفَّتْ بِقُبِّ السَّابِحَاتِ قِبَابُ (٢)

وَلَوْ نَذِرَ الْحَيَّانِ غِبَّ السُّرَى بِنَا ... لَكَرَّتْ عُظَالَى أَوْ لَعَادَ كُلَابُ (٣)

وَلَيْلَةَ وَافَتْنَا تَهَادَى فَنَمْتَرِي ... أَيَسْمُو حَبَابٌ أَوْ يَسِيبُ حُبَابُ (٤)

يُعَذِّبُهَا عَضُّ السِّوَارِ بِمِعْصَمٍ ... أَبَانَ لَهَا أَنَّ النَّعِيمَ عَذَابُ

لَأَبْرَحْتُ مِنْ شَيْحَانَ حُطَّ لِثَامُهُ ... إِلَى خَفِرٍ مَا حُطَّ عَنْهُ نِقَابُ (٥)

ثَوَى مِنْهُمَا ثِنْيَ النِّجَادِ مُشَيَّعٌ ... نَجِيدٌ وَمَيْلَاءُ الْوِشَاحِ كَهَابُ (٦)

---

(١) العيران : وصف من العيرة ، والطروق : طروق الحى بالليل ، وفى التمثل بالوصل رغم العيور يقول ابن الرومى .

ألا ربما سؤت العيور وساءنى ... وبت كلانا من أخيه على وحر

وبلت أفواهاً عداباً كأنها ... يتابع حمر حصبت لؤلؤ البحر

(٢) القب : جمع قباء وأقب السابح من الخيل ، ومعنى هذا البيت والذى قبله لم يصرفنا عن زيارة هذه المحبوبة التى كنى عنها بالرغبة أن تساند هاتان القبيلتان وتعاونتا دون الوصول إليها .

(٣) نذر به كفرح علمه فحذره وعطالى وكلاب تضم أولهما يومان من أيام العرب ، أى لو علم بمسرانا إليها هذان الحيان لكان لنا معهما يومان كيومى عطالى وكلاب فى الشهرة والهول .

(٤) يسمو : أي يرتفع للناظر اليه من بعيد فيستبينه وحباب — بالفتح — تموج الماء وطرائقه التى كأنها الوشى أو الدبيج وبالضم الحبة ، ويسمو اليها حباب بالفتح وهو الماء فى تدافعه وتموجه وإحداثه طرائق كطرائق الدبيج وهو تمثيل لاختلاس الخطا فى المشى ، والمعنى : وادكر ليلة وافتنا محتفية فشك أتقبل نحونا حبيب أو تدنيك الينا حية . يقول : لقد كنا لا ندرى أتكون ليلتنا ليلة أنس واغتباط بقرب الحبيبة ، أم ليلة حرب وضراب بغزو أعدائنا إيانا ، ويسمو الحباب : فيه إشارة إلى قول امرئ القيس :

سموت إليها — بعد ما نام أهلها — سمو حباب الماء . حالا على حال

(٥) لأبرحت : لقد أفرطت فى الحذر وتوقع موائبة العدو ومشايحته ، والشيحان : العبور الحذر على الحريم ، والخفر : الحياء ، واللثام : للرجل ، والنقاب : للمرأة ، يقول : لقد وضعت اللثام عن وجهى وتمتعت بحبيب لم يرفع عنه وجهه نقاب لفرط حيائه . ولقد كنت — إلى ذلك — دائم الحذر والتوقع لموائبة العدو .

(٦) ثوى : أقام ، وثنى النجاد : بكسر أولهما أى طى العرض والوسائد ، والمشيع : كمعظم الشجاع ، والنجيد : الأسد — وهو يعنى بذلك نفسه — وميلاء الوشاح : يريد أن وشاحها به ميل وانحدار لنهود ثديها وضمور كشحيها ، والكهاب : كسحاب التى كهب ثدياها — وهو يعنى بها حبيبته — وفى معنى هذا البيت يقول الطمرانى :

وبتنا على رغم الغيور يضمنا ... جميعاً حواشى بردها ورداثيا

وكانت إساءات الليالى كثيرة ... فما برحت حتى شكرنا الليالیا

يُعَلَّلُ مِنْ إِغْرِيضِ ثَغْرٍ يَعُلُّهُ ... غَرِيضٌ كَمَاءِ الْمُزْنِ وَهْوَ رُضَابُ (١)

إِلَى أَنْ بَدَتْ فِى دُهْمَةِ الْأُفْقِ غُرَّةٌ ... وَنُقِّرَ مِنْ جُنْحِ الظَّلَامِ غُرَابُ (٢)

وَقَدْ كَادَتِ الْجَوْزَاءُ تَهْوِى فَخِلْتُهَا ... ثَنَاهَا مِنَ الشِّعْرَى الْعَبُورِ جَنَابُ (٣)

كَأَنَّ الثُّرَيَّا رَايَةٌ مُشْرِعٌ لَهَا ... جَبَانٌ يُرِيدُ الطَّعْنَ ثُمَّ يَهَابُ

كَأَنَّ سُهَيْلاً فِى رَبَاوَةِ أُفْقِهِ ... مُسِيمُ نُجُومٍ حَانَ مِنْهُ إِيَابُ (٤)

كَأَنَّ الشِّهَا فَانِى الْحُشَاشَةِ شَفَّهُ ... ضَنًى فَخُفَاتٌ مَرَّةً وَمَشَابُ

كَأَنَّ الصَّبَاحَ اسْتَقْبَسَ الشَّمْسَ نَارَهَا ... فَجَاءَ لَهُ مِنْ مُشْتَرِيهِ شِهَابُ

كَأَنَّ إِيَاةَ الشَّمْسِ بِشْرُ ابْنِ «جَهْوَرٍ» ... إِذَا بَدَلَ الْأَمْوَالَ وَهْىَ رِغَابُ (٥)

هُوَ الْبِشْرُ شِمْنَا مِنْهُ بَرْقَ غَمَامَةٍ ... لَهَا بِاللِّهَا فِى الْمُعْتَفِينَ مَصَابُ (٦)

---

(١) معلل : أى يكرر من التعليل وهو حبى الثمرة مرة بعد مرة ، ومنه قول امرئ القيس :

وقلت لها سيري وأرخى زمامه ... ولا تعدلي من حبك المعلل

والأغريض : الطلع حمل ما نالله مكررا من تقبيلها بمنزلة إغريض أبيض حلو تكرر جناه ، ويعله أى يسقيه مكررا ، والغريض : ماء الأسنان ، والرضاب : الرق المرشوف ، قالوا : وهو الريق مادام فى الفم .

(٢) الدهمة : سواد الليل ، والغرة : بياض الصبح ، شبه الصبح فى استعجاله الدجى بمن يطير غرابا ، ويطير هذا قول ابن المعتز :

كأنما وضوء الصبح يستعجل الدجى ... نطير غرابا ذا قوادم حوف

(٣) الجوزاء : نجم يعترض فى جوز السماء أى وسطه ، والشعرى : شعريان « إحداهما » الشعرى العبور وهى كوكب يطلع بعد الجوزاء وسميت العبور لأنها — كما يقال — عبرت السماء عرضاً ولم يعبر السماء عرضا غيرها وهى التى عبدها طائفة من العرب فى الجاهلية ، وقد ورد ذكرها فى القرآن الكريم فى قوله تعالى « وأنه هو رب الشعرى » أى التى تعبدونها « والثانية » الغميصاء تقول العرب فى أحاديثها لأنها غمصت من مكانها على العبور ، وثناها : عطفها ، والجناب : الناحية والفناء .

(٤) سهيل نجم ، ورباوة أفقه ما ارتفع منه ، ومسيم : اسم فاعل من أسام الابل أى أرعاها ، شبه سهيلا فى انحداره آخر الليل وراء المحوم راع حان منه رجوع ورواح .

(٥) إياة الشمس : بكسر الهمزة وفتحها ضوءها وحسنها .

(٦) اللها : بالضم العطايا ، والمعتفى : كالعافى طالب الفضل والجود ، والمصاب : بالفتح نزول المطر مصدر ميمى من صاب المطر يصوب إذا نزل .

جَوَادٌ مَتَى اسْتَعْجَلْتَ أُولَى هِبَاتِهِ ... كَفَاكَ مِنَ الْبَحْرِ الْخِضَمِّ عُبَابُ

غَنِيٌّ عَنِ الْإِبْسَاسِ دَرُّ نَوَالِهِ ... إِذَا اسْتَنْزَلَ الدَّرَّ الْبَكِيءَ عِصَابُ (١)

إِذَا حَسَبَ النَّيْلَ الزَّهِيدَ مُنِيلُهُ ... فَمَا لِعَطَايَاهُ الْحِسَابِ حِسَابُ (٢)

عَطَايَا يُصِيبُ الْحَاسِدُونَ بِحَمْدِهِ ... عَلَيْهَا ، وَلَمْ يُحْبَوْا بِهَا فَيُحَابُوا

مُوَطَّأُ أَكْنَافِ السَّمَاحِ دَنَتْ بِهِ ... خَلَائِقُ زُهْرٌ إِذْ أُنَافَ نِصَابُ (٣)

فَزُرْهُ تَزُرْ أَكْنَافَ غَنَّاءَ طَلَّةٍ ... أَرَبَّتْ بِهَا لِلْمَكْرُمَاتِ رَبَابُ (٤)

زَعِيمُ الْمَسَاعِي أَنْ تَلِينَ شَدَائِدٌ ... يُمَارِسُهَا أَوْ أَنْ تَلِينَ صِعَابُ

مَهِيبٌ يُغَضُّ الطَّرْفُ مِنْهُ لِآذِنٍ ... مَهَابَتُهُ دُونَ الْحِجَابِ حِجَابُ (٥)

لِأَبْلَجَ مَوْفُورِ الْجَلَالِ إِذَا احْتَبَى ... عَلَا نَظَرٌ مِنْهُ وَعَزَّ خِطَابُ

وَذِي تُدْرَإٍ يَعْدُو الْعِدَا عَنْ قِرَاعِهِ ... غِلَابٌ فَهَمَّا عَزَّهُ فَخِلَابُ (٦)

إِذَا هُوَ أَمْضَى الْعَزْمَ لَمْ يَكُ هَفْوَةً ... يُؤَثِّرُ عَنْهَا فِي الْأَنَامِلِ نَابُ (٧)

---

(١) الناقة البسوس : هي التي لا تدر إلا على الابساس بأن يقال لها « بس بس » تسكيناً لها ، والدر اللبن ، والبكيء الناقة التي قل لبنها ، والعصاب : بالكسر شد تخدي الناقة لتدر . يقول : إن نواله قريب ميسور لا يكلفك مشقة ولا يحوجك إلى إلحاف .

(٢) حسب : عد ، والحساب : بالكسر بمعنى الكثيرة الكافية صفة لعطاياه ، ومنه قوله تعالى « عطاء حسابا » أي كافياً ، والمعنى : إذا عد العطاء القليل مبيله ومعطيه ليحصيه فما لعطاياه الكثيرة الكافية عد ولا إحصاء .

(٣) يقال رجل موطأ الأكناف : كمعظم أي سهل دمث الأخلاق سمح كريم ، والنصاب : كالمنصب الأصل ، والمعنى : أنه سهل جوانب السماح يقربه منك ويدنو به إليك دماثه أخلاقه وإن علا منصبه وسما أصله

(٤) الغناء : الكثيرة الشجر ، والطلة : الروضة بلها الطل ، وأربت : من أرب بالمكان إذا لزمه والرباب السحاب .

(٥) يقول إن ابن جهور مهيب يغضى من مهابه ومع هذا فهو يغض طرفه حياء ، وهذا قريب من قول الفرزدق :

« يغضى حياء ، ويغضى من مهابته ... فلا يكلم إلا حين يبتسم »

(٦) دو تدرأ : بضم أوله أي صاحب عدة وقوة على دفع أعدائه عن نفسه ، وغلاب : أي مغالبة ، وعزه : غلبه ، وخلاب : من خلبه إذا خدعه ، وفي المثل « إذا لم تغلب فاخلب » .

(٧) يقول إذا أمضى العزم لم يك إمضاؤه هفوة يعض عليها أنامله ندماً وغيظا .

عَزَائِمُ يَنْصَاعُ الْعِدَا عَنْ مُمِرِّهَا ... كَمَا رُهِبَتْ يَوْمَ النِّضَالِ رِهَابُ (١)

صَوَائِبُ ، رِيشُ النَّصْرِ فِي جَنَبَاتِهَا ... لُؤَامٌ ، وَرِيشُ الطَّائِشَاتِ لُغَابُ (٢)

حَلِيمٌ تَلَافَى الْجَاهِلِينَ أَنَاتُهُ ... إِذَا الْحِلْمُ عَنْ بَعْضِ الذُّنُوبِ عِقَابُ (٣)

إِذَا عَثَرَ الْجَانِي عَفَا عَفْوَ حَافِظٍ ... بِنُعْمَى لَهَا فِي الْمُذْنِبِينَ ذِنَابُ (٤)

شَهَامَةُ نَفْسٍ فِي سَلَامَةِ مَذْهَبٍ ... كَمَا الْمَاءُ لِلرَّاحِ الشَّمُولِ قِطَابُ (٥)

« بَنِي جَهْوَرٍ » مَهْمَا فَخَرْتُمْ بِأَوَّلٍ ... فَسِرٌّ مِنَ الْمَجْدِ التَّلِيدِ لُبَابُ

حَطَطْتُمْ بِحَيْثُ اسْتَنْطَحَتْ سَاحَةُ الْعُلَا ... وَأَوْفَتْ لِأَخْطَارِ السَّنَاءِ هِضَابُ

بِكُمْ بَاهَتِ الْأَرْضُ السَّمَاءَ فَأَوْجُهٌ ... شُمُوسٌ وَأَيْدٍ فِي الْمُحُولِ سَحَابُ

* * *

أَشَارِحَ مَعْنَى الْمَجْدِ وَهْوَ مُعَمَّسٌ ... وَعَامِرَ مَغْنَى الْحَمْدِ وَهْوَ خَرَابُ (٦)

مُحَيَّاكَ بَدْرٌ وَالْبُدُورُ أَهِلَّةٌ ... وَيُمْنَاكَ بَحْرٌ وَالْبُحُورُ ثِعَابُ (٧)

رَأَيْتُكَ جَارَاكَ الْوَرَى فَغَلَبْتَهُمْ ... لِذَلِكَ «جَرْيُ الْمُذْكِيَاتِ غِلَابُ» (٨)

---

(١) الانصياع الرجوع أى يرجع الأعداء عما أمره من العزائم خوفا ورهبة كما رهبت يوم النضال رهاب أى نصال رقيقة جمع رهب كحمل .

(٢) صوائب : صفة العزائم فى البيت قبله يريد أنها عزائم صائبة كالسهام ، واللغاب : ريش السهم إذا لم يعتدل فاذا اعتدل فهو لؤام . (٣) وهذا قريب من قول المتنبي :

« ترفق أيها المولى عليهم ... فان الرفق بالجاني عقاب »

(٤) الذناب : بالكسر خيط يشد به ذنب البعير لئلا يخطر به أى يحركه يميناً وشمالاً فيسلأ راكبه ، أى أنه بما يسديه إلى الجناة من نعمى يمنعهم من الوقوع فى الذنب كما يمنع الذناب ذنب البعير عن تلويث راكبه بخطرانه

(٥) قطاب : بالكسر مزاج . (٦) معمس : خفى مشتبه ، والمغنى : المنزل .

(٧) ثعاب : بالكسر جمع ثعب وهو الغدير . أو هو مسيل الوادى ، وجمعه ثعاب ، قال ابن دريد : « والناس ضحضاح ثعاب وأضى » ويجمع أيضاً على ثعبان ، قال الحريرى فى أحاديه التى ذكرها فى مقاماته : « أيجور الوضوء من ماء الثعبان » فقيل : « وهل أحس منه للعربان »

(٨) والمذكيات — والمذكيات بالتضعيف — الخيل التى بلغت تمام السن ونهاية الشباب وفى المثل : « جرى المذكيات غلاب » أى أن تغالب الجرى غلابا .

فَقَرَّتْ بِهَا مِنْ أَوْلِيَائِكَ أَعْيُنٌ ... وَذَلَّتْ لَهَا مِنْ حَاسِدِيكَ رِقَابُ

* * *

فَتَحْتَ الْمُنَى مِنْ بَعْدِ إِلْهَامِنَا بِهَا ... وَقَدْ ضَاعَ إِقْلِيدٌ وَأُبْهِمَ بَابُ (١)

مَدَدْتَ ظِلَالَ الْأَمْنِ تَخْضَرُّ تَحْتَهَا ... مِنَ الْعَيْشِ فِي أَعْذَى الْبِقَاعِ شِعَابُ (٢)

حِمًى سَالَمَتْ فِيهِ الْبُغَاثَ جَوَارِحٌ ... وَكَفَّتْ عَنِ الْبَهْمِ الرِّتَاعِ ذِئَابُ (٣)

فَلَا زِلْتَ تَسْعَى سَعْيَ مَنْ حَظُّ سَعْيِهِ ... نَجَاحٌ وَحَظُّ الشَّانِئِيهِ تَبَابُ

فَإِنَّكَ لِلدِّينِ الشَّعِيبِ لَمَلَأَمٌ ... وَإِنَّكَ لِلْمُلْكِ الثَّنِيِّ لَرِئَابُ (٤)

إِذَا مَعْشَرٌ أَلْهَاهُمُ جُلَسَاؤُهُمْ ... فَلَهْوُكَ ذِكْرٌ وَالْجَلِيسُ كِتَابُ (٥)

نُعَزِّيكَ عَنْ شَهْرِ الصِّيَامِ الَّذِي انْقَضَى ... فَإِنَّكَ مَفْجُوعٌ بِهِ فَمُصَابُ

هُوَ الزَّوْرُ لَوْ تُعْطَى الْمُنَى وَضْعَ الْعَصَا ... لِيَزْدَادَ مِنْ حُسْنِ الثَّوَابِ مُنَابُ

شَهِدْتَ لَأَدَّى مِنْكَ وَاجِبَ فَرْضِهِ ... عَلِيمٌ بِمَا يُرْضِي الْإِلٰهَ نِقَابُ (٦)

وَجَاوَرْتَ بَيْتَ اللهِ أُنْسَا بِمَعْشَرٍ ... خَشُوهُ فَخَرُّوا رُكَّعًا وَأَنَابُوا

لَقَدْ جَدَّ إِخْبَاتٌ وَحَمَّ تَبَتُّلٌ ... وَبَالَغَ إِخْلَاصٌ وَصَحَّ مَتَابُ (٧)

---

(١) إبهام : الباب إغلاقه ، وباب : مبهم أى مغلق ، والاقليد : المفتاح .

(٢) أعدى : أفعل تفضيل من عديت الأرض يقال أرض عداة وهى الطيبة التربة الخالية من الرمل البعيدة من ماء الأنهار والجداول ، والشعاب : جمع شعب بالكسر وهو الطريق فى الجبل ومسيل الماء ، يقول : أنه مد ظلال الأمن على البلاد النائية ، وجعل الخصب يمتد إلى الجهات البعيدة من مياه الأنهار .

(٣) البغاث : صغاف الطير ، البهم : واحدتها بهمة بالفتح وهى أولاد الضأن والمعز والبقر . وهذا البيت من أبدع ما قرأناه فى وصف استتباب الأمن .

(٤) الشعيب : المتفرق ، والثنى : الفاسد من ثأى يثأى فهو ثأ كعلم إذا فسد ، ورئاب : جمع رؤبة وهى القطعة من الخشب يشعب بها الاناء ويسدبها ثلمة الجفنه

(٥) يشير إلى قول المتنبي: « وخير جليس فى الزمان كتاب »

(٦) النقاب : بالكسر العالم بالأمور .

(٧) الاخبات : مصدر اخبت إلى ربه اطمأن إليه وتخشع وتواضع ، والتبتل : الانقطاع إلى الله تعالى .

سَيَخْلُدُ فِي الدُّنْيَا بِهِ لَكَ مَفْخَرٌ ... وَيَحْسُنُ فِي دَارِ الْخُلُودِ مَآبُ

وَبُشْرَاكَ أَعْيَادٌ سَيَنْمِي اطِّرَادُهَا ... كَمَا اطَّرَدَتْ فِي السَّهْرِيِّ كِعَابُ

تَرَى مِنْكَ سَرْوَ الْمُلْكِ فِي قَشْفِ التُّقَى ... فَيَبْرُقُهَا مَرْأَى هُنَاكَ عُجَابُ

فَأَبْلِ وَأَخْلِفْ إِنَّمَا أَنْتَ لَابِسٌ ... لِهَذِي اللَّيَالِي الْغُرِّ وَهْيَ ثِيَابُ

فَدَيْتُكَ كَمْ أَلْقَى الْفَوَاغِرَ مِنْ عِدًا ... قِرَاهُمْ لِنِيرَانِ الْفَسَادِ ثِقَابُ (١)

عَفَا عَنْهُمُ قَدْرِي الرَّفِيعُ فَأَهْجَرُوا ... وَبَاعَنَهُمْ خُلْقِي الْجَمِيلُ فَعَابُوا

وَقَدْ تُسْمِعُ الْأَيْنَ الْجِحَاشَ نَهِيقَهَا ... وَتُعْلِي إِلَى الْبَدْرِ النُّبَاحَ كِلَابُ

إِذَا رَاقَ حُسْنُ الرَّوْضِ أَوْ فَاحَ طِيبُهُ ... فَمَا ضَرَّهُ أَنْ طَنَّ فِيهِ ذُبَابُ

فَلَا بَرِحَتْ تِلْكَ الضَّغَائِنُ نَهْبَهَا ... أَفَاعٍ لَهَا بَيْنَ الضُّلُوعِ لِصَابُ (٢)

يَقُولُونَ شَرِّقْ أَوْ فَغَرِّبْ صَرِيمَةً ... إِلَى حَيْثُ آمَالُ النُّفُوسِ نِهَابُ (٣)

فَأَنْتَ الْحُسَامُ الْعَضْبُ أُصْدِيَ مَتْنُهُ ... وَعُطِّلَ مِنْهُ مَضْرَبٌ وَذُبَابُ (٤)

وَمَا السَّيْفُ مِمَّا يُسْتَبَانُ مَضَاؤُهُ ... إِذَا حَازَ جَفْنٌ حَدَّهُ وَقِرَابُ

وَإِنَّ الَّذِي أَمَّلْتُ كُدْرٌ صَفْوُهُ ... فَأَضْحَى الرِّضَا بِالسُّخْطِ مِنْهُ يُشَابُ

وَقَدْ أَخْلَفَتْ مِمَّا ظَنَنْتُ مَخَايِلٌ ... وَقَدْ صَفِرَتْ مِمَّا رَجَوْتُ وِطَابُ

فَمَنْ لِي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ عَلَيْهِمُ ... إِذَا لَجَّ بِالْخَصْمِ الْأَلَدِّ شِغَابُ

لِيُخْزِهِمْ إِنْ لَمْ تَرُدَّنِي نَبْوَةٌ ... يُسَاءُ الْفَتَى مِنْ مِثْلِهَا وَيُرَابُ

---

(١) الفواغر : جمع فاغره من معرفاه إذا فتحه أراد بها المخاوف ، والثقاب : ما اثقبت به النار واشعلتها به من صعار العيدان . يقول : نفسى فداؤك ، كم ألقى الكوارث من أعداء خبثاء ذوى مكر خفى فى تدبير الفتن ، ودهاء فى نصب الشراك . (٢) لصاب : بالكسر من لصب الجلد باللحم لزق به من شدة الهزال يريد ان ما يحملونه من ضغن له لذع فى صدورهم كلذع الأفاعى سبب لهم الهزال .

(٣) الصريمة : العزيمة وقطع الأمر ، والنهاب : بالكسر الغنائم جمع نهب .

(٤) مضرب السيف : بالفتح والكسر ، وذبابه : بالضم حده .

فَقَدْ تَتَغَشَّى صَفْحَةَ الْمَاءِ كُدْرَةٌ ... وَيَغْطُو عَلَى ضَوْءِ النَّهَارِ ضَبَابُ (١)

سُرُورُ الْغِنَى مَا لَمْ يَكُنْ مِنْكَ حَسْرَةٌ ... وَأُرْبَى الْمُنَى مَا لَمْ تُنَلْ بِكَ صَابُ (٢)

وَإِنْ يَكُ فِى أَهْلِ الزَّمَانِ مُؤَمَّلٌ ... فَأَنْتَ الشَّرَابُ الْعَذْبُ وَهْوَ سَرَابُ

أَيَعْوَرُ مِنْ جَارِ السَّمَا كَيْنِ جَانِبٌ ... وَيُمْعِزُ فِى ظِلِّ الرَّبِيعِ جَنَابُ (٣)

فَأَيْنَ ثَنَاءٌ يَهْرَمُ الدَّهْرُ كِبْرَةً ... وَحِلْيَتُهُ فِى الْغَابِرِينَ شَبَابُ

سَأَبْكِى عَلَى حَظِّى لَدَيْكَ كَمَا بَكَى ... رَبِيعَةُ لَمَّا ضَلَّ عَنْهُ ذُؤَابُ

وَأَشْكُو نُبُوَّ الْجَنْبِ عَنْ كُلِّ مَضْجَعٍ ... كَمَا يَتَجَافَى بِالْأَسِيرِ ظِرَابُ (٤)

فَثِقْ بِهَزْرِ الشِّعْرِ وَاصْفَحْ عَنِ الْوَرَى ... فَإِنَّهُمْ - إِلَّا الْأَقَلَّ - ذُبَابُ

وَلَا تَعْدِلِ الْمُثْنِينَ بِى فَأَنَا الَّذِى ... إِذَا حَضَرَ الْعُقْمُ الشَّوَارِدُ غَابُوا

يَنُوبُ عَنِ الْمِدَاحِ مِنِّى وَاحِدٌ ... جَمِيعُ الْخِصَالِ لَيْسَ عَنْهُ مَنَابُ

وَرَدْتُ مَعِينَ الطَّبْعِ إِذْ زِيدَ دُونَهُ ... أُنَاسٌ لَهُمْ فِى حَجْرَنَيْهِ لُوَابُ (٥)

وَنَحَّدَنِى عِلْمٌ تَوَالَتْ فُنُونُهُ ... كَمَا يَتَوَالَى فِى النِّظَامِ سِخَابُ (٦)

فَعُدْ بِبَيَاضٍ يَعْدَمُ الصِّدْقُ صِدْقُهَا ... فَإِنَّ أَرَاجِيفَ الْعُدَاةِ كِذَابُ

وَحَاشَاكَ مِنْ أَنْ تَسْتَمِرَّ مَرِيرَةٌ ... لِعَهْدِكَ أَوْ يَخْفَى عَلَيْكَ صَوَابُ (٧)

---

(١) غطا يغطو : ستر والضباب سحاب رقيق يشبه الدخان .

(٢) الأرى : العسل ، والصاب : شجر مر واحدته صابة .

(٣) يعور : من أعور المكان إذا بدت منه عورة ، ويمعز : أى يصاب ومنه المعزاء للأرض الصلبة .

(٤) الظراب : كسكاف ما نأ من الحجارة وحد طرفه والجمع ظراب بالكسر .

(٥) دبد : بالباء للمجهول منع ، والحجرة : بضم فسكون الناحية ، ولواب : بالضم عطش ، والمعنى : أنه طبع على الشعر وورد معين الطبع فى حين أن غيره من الشعراء حبس عن وروده فله فى جانبيه لواب أى عطش

(٦) المنحد : كمعظم الذى حرب الأمور وقاسها عقله وعلمته التجارب ومثله المنجد بالذال المعجمة ، والسخاب : بالكسر العقد .

(٧) المريرة : والمريرة الحبل ، والاستمرار إحكام فتله ، يقول حاشاك أن أدعوك إلى إصلاح حادث من عهدك ، أو يخفى عليك وجه الصواب .

بعـــد خمسمائة يوم فى السجن

« نظم ابن زيدون هذه القصيدة فى مدح ابن جهور واستعطافه ، وقد وردت فى آخر رسالته الجدية التى بعث بها إلى ابن جهور [١] بعد أن مهد لتلك القصيدة بقوله مخاطبا ابن جهور :

و إنك إن سنيت عقد أسرى تيسر [٢] ، ومتى أعذرت [٣] فى فك أسرى لم يتعذر ، وعلمك محيط بأن المعروف ثمرة النعمة ، والشفاعة زكاة المروءة ، وفضل الجاه تعود به صدقة [٤]

و إذا امرؤ أهدى إليك صنيعة من جاهه ، فكأنها من ماله

لعلى ألقى العصا بذراك [٥] ، وتستقر بى النوى فى ظلك ، وأستأنف التأدب بأدبك ، والاحتمال على مذهبك ، فلا أوجد للحاسد مجال لحظه [٦] ، ولا أدع لقادح مساغ لفظه ، والله ميسرك من إطلابى [٧] بهـذه الطلبة ، واشكائى من هـذه الشكوى بصنيعة تصيب منها مكان المصنع ، وتستودعها أحفظ مستودع ، حسبما أنت خليق له ، وأنا منك حرى به ، وذلك بيده ، وهين عليه .

ولما توالت غرر هذا النثر واتسقت [٨] درره ، فهز عطف غلوائه ، وجر ذيل خيلائه [٩] ، عارضه النظم مباهيا ، بل كايده مداهيا ، حين أشفق من أن يعطفك اسـتعطافه ، وتميل بنفسك الطافه ، فاستحسن العائدة مسه ، واعتد بالفائدة له ، وما زال

---

(١) وقد أثبتنا هذه الرسالة فى مكان آخر من الكتاب فليرجع إليها القارئ إذا شاء .

(٢) ان يسرت ما تعقد من أسرى تيسر وسهل . (٣) قبلت العذر .

(٤) قال الشاعر :

قد يعصب المعروف أن الشفقه على الصديق والعدوّ صدقه
وأفضـل العالم عنـد الله من ساعد الناس بفضل الجاه
ومن أغاث البائس الملهوفا أعانه الله إذا أخيفا

(٥) فى كنفك . (٦) فلا يجد الحاسد سبيلا إلى الشماتة بى وعتبه بالنظر إلىّ وأنا منكوب .

(٧) أسعافى وانالتى ما أبغيه . (٨) انتظمت . (٩) كبره وزهوه .

يستكد الذهن العليل ، والخاطر الكليل حتى زف إليك عروسا مجلوة فى أثوابها ، منصوصه [١] بحليها وملابها [٢] وهاهى القصيدة»

الْهَوَى فى طُلوعِ تِلْكَ النُّجُومِ ... وَالْمُنَى فى هُبُوبِ ذَاكَ النَّسِيمِ
سَرَّنَا عَيْشُنَا الرَّقِيقُ الحَوَاشِى ... لَوْ يَدُومُ السُّرُورُ لِلْمُسْتَدِيمِ
وَطَرٌ مَا انْقَضَى إِلَى أَنْ تَقَضَّى ... زَمَنٌ مَا ذِمَامُهُ [٣] بِالذَّمِيمِ [٤]
إِذْ خِتَامُ الرِّضَا المُسَوَّغِ مِسْكٌ ... وَمِزَاجُ الْوِصَالِ مِنْ تَسْنِيمِ
وَغَرِيضُ الدَّلَالِ [٥] غَضٌّ [٦] جَنَى الصَّبْـ ... ـوَةِ [٧] نَشْوَانُ مِنْ سُلَافِ [٨] النَّعِيمِ
طَالَمَا نَافَرَ الْهَوَى [٩] مِنْهُ غِرٌّ [١٠] ... لَمْ يَطَأْ عَهْدُ جِيدِهِ بِالتَّمِيمِ [١١]

* * *

أَيُّهَا المُؤْذِنِى بِظُلْمِ اللَّيَالِى ... لَيْسَ يَوْمِى بِوَاجِدٍ مِنْ ظَلُومِ [١٢]
قَمَرُ الْأُفْقِ - إِنْ تَأَمَّلْتَ - وَالشَّمْـ ... ـسُ هُمَا يُكْسَفَانِ دُونَ النُّجُومِ

---

(١) مرفوعة .

(٢) الملاب : الخمران . قال الشاعر : « كالحقة الصفراء صا ك عبيرها بملابها »

(٣) ذمامه : عهده . (٤) لم يقض لنا وطر من السرور بتلك الحياة الناعمة والعيش الرغد حتى تولى ذلك الزمن غير مذموم العهد . (٥) ودلك الدلال اللطيف الحسن .

(٦) الغض : الطرى ، الناعم : الناضر . (٧) الهوى . (٨) خمر .

(٩) نافر الهوى : غالبه . (١٠) لم يجرب الأمور .

(١١) التميم : جمع تميمه ، وهو العوذ : جمع عودة . أى الحرزات ونحوها مما يعلق على الصبى ليقى عنه العين ، وقد أنكر الاسلام ذلك ، وفى هذا يقول القائل :

وإذا المغية انشبت أظفارها ... ألفيت كل تميمة لا تنفع

ومعنى ذلك البيت : أن حبيبه قد عاصى الهوى وجافاه لأنه غر حدث لا يزال قريب العهد بالتمائم ، فهو لا ينفك كالغزال النافر لمرارته وحداثة عهده .

(١٢) أيها المحبى بما تدخره لى الليالى من كيد ، رويدك لا تخفى بذلك فلست بحانق يوما على دهرى لأننى ألفت منه الظلم دائماً .

وَهُوَ الدَّهْرُ لَيْسَ يَنْفَكُّ يَنْحُو ... بِالمُصَابِ الْعَظِيمِ نَحْوَ الْعَظِيمِ (١)

* * *

بَوَّأَ اللهُ « جَهْوَرًا » شَرَفَ السُّو ... دَدِ فِي السَّرْوِ (٢) وَالْأُبَابِ الصَّمِيمِ (٣)

وَاحِدٌ سَلَّمَ الْجَمِيعُ لَهُ الْأَمْـ ... ـرَ، فَكَانَ الْخُصُوصُ (٤) وَفْقَ الْعُمُومِ (٥)

قَلَّدَ الْغُمْرُ (٦) ذَا التَّجَارِبِ فِيهِ ... وَاكْتَفَى جَاهِلٌ بِعِلْمِ الْعَلِيمِ (٧)

خَطَرٌ يَقْتَضِي الْكَمَالَ بِنَوْعَيْ ... خُلُقٍ بَارِعٍ وَخَلْقٍ وَسِيمِ (٨)

* * *

أَيُّهَا ذَا الْوَزِيرُ هَا أَنَا أَشْكُو ... وَالْعَصَا بَدْءُ قَرْعِهَا لِلْحَلِيمِ (٩)

---

(١) أكثر الشعراء من ذكر هذا المعنى فى صور مختلفة ، وكادوا يذكرونه بعين هذه الألفاظ ، وقد ذكره أبو تمام بأسلوب آخر فقال :

لا تنكرى عطل الكريم من الغنى ... فالسيل حرب للمكان العالى

ومنه قول أبى العلاء :

والحطب يهاج الحليل وكم شكا ... نأى على ، ما شكاه قنبر

(٢) المروءة . (٣) المحض : الخالص . (٤) الخصوص : الخاصة ، قال الشاعر :

ابلغ خليلى عنك هندا ولا ... رلت قريباً من سواد الخصوص

(٥) اتفق الخاصة والعامة على تسليمه مقاليد الأمور (٦) الغمر : بالضم والفتح ، الذى لم يجرب الأمور

(٧) سلم الجميع مقاليد أمورهم إليه ، واتفق عامتهم وخاصتهم على الاعتراف له بالفضل ، فأولو العلم عرفوا بالعلم فضله ، ثم فلدهم فى ذلك الجاهلون ، واكتفى الغمر الجاهل بعلم الخبير المجرب ، قالوا : وابن ربدون ينظر من طرف خفى إلى قول البحترى :

ودوو الفضل مجمعون على فضـ ... ـلك من بين سيد ومسود

عرف العالمون فضلك بالعلـ ... ـم وقال الجهال بالتقليد

(٨) خطر : شرف وارتفاع قدر ، وعلوّ منزلة ، يقتضى الكمال : يستلزم الكمال وبلوغ الغاية لما أحرزه من جمال السجايا ، ووسامة الخلقة .

(٩) والعصا بدء قرعها للحليم : تضمين للمثل العربى المشهور : « إنّ العصا قرعت لذى الحلم » وهم يضربون هنا المثل للذكى الذى إذا نبهته انتبه .

مَا عَنَانَا أَنْ يَأْنَفَ السَّابِقُ المَرْ ... بَطَ فِى العِتْقِ مِنْهُ وَالتَّطْهِيمِ (١)

وَبَقَاءُ الحُسَامِ فِى الجَفْنِ يَثْنِى ... مِنْهُ بَعْدَ المَضَاءِ وَالتَّصْمِيمِ

أَفَصَبْرٌ مِئِينَ خَمْساً مِنَ الأَيَّا ... مِ، نَاهِيكَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمِ

وَمَعَنًّى مِنَ الضَّنَى بِهِنَاتٍ ... نَكَأَتْ بِالكُلُومِ فَرْحَ الكُلُومِ (٢)

سَقَمٌ لَا أُعَادُ فِيهِ وَفِى العَا ... ئِدِ أُنْسٌ يَنْفِى بِبُرْءِ السَّقِيمِ (٣)

نَارُ بَغْيٍ سَرَى إِلَى جَنَّةِ الأَمْـ ... ـنِ لَظَاهَا فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (٤)

* * *

بِأَبِى أَنْتَ - إِنْ تَشَأْ - تَكُ بَرْداً ... وَسَلَاماً كَنَارِ إِبْرَاهِيمِ (٥)

---

(١) السابق : الفرس ، المربط : اسم مكان - بكسر العين وفتحها - والعتق فى الخيل : الكرم ، والتطهيم : تمام الحسن فيها يشبه نفسه - وهو على هذه الحال من الاعتقال - بالصافن الذى سئم مكانه الذى ربط فيه - لعتقه وكرمه ، وقد وجد هذا البيت فى ديوانه على هذه الصورة :

. . . . . يأنف المر ... بط فى العتق منه والتطهم

فأكملناه مما ورد فى الروايات الأخرى .

(٢) المعنى : المحبوس من التعنية وهى الحبس الطويل ، والضنى : المرض الملازم ، والهنات : جمع هنة وهى الشدائد أو كنى بها عن الأشياء ، ونكأت : أى قشرت الجرح قبل أن يبرأ فأدمته ، والكلوم : الجراحات والمعنى : ومحبوس من المرض الملازم بسبب أشياء أدمت قرح جراحاته بجراحات أخرى ، يريد أن عناء السجن أضيف إليه عناء المرض فهو فى محبسين ، يعانى ألم شدتين .

(٣) أى مرض لا يعودنى منه - وأنا فى السجن - عائد وفى عيادة من يرورنى ما يكفى ويبقى شفائى لو أمكن ذلك

(٤) أى نار بغى وظلم استعر لظاها فى جنة الدعة والراحة والأمن فأصبحت كالصريم : أى كالليل فى السواد بعد الاحتراق ، وفيه تلميح إلى قصة أصحاب الجنة المذكورة فى قوله تعالى فى سورة القلم «إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين» الآيات ١٧ : ٣٣ وهم قوم كانت لأبيهم هذه الجنة فكان يأخذ منها قوت سنته ويتصدق بالباقى ، فلما مات رأى بنوه أن يستأثروا بما فيها لأنفسهم وعيالهم فحلفوا ليصرمنها مصبحين ، أى ليقطعن ثمارها مبكرين فى الصبح خفية عن أعين المساكين «فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون فأصبحت كالصريم» أى احترقت فصارت فى السواد كفحمة الليل .

(٥) أفديك أب أيها الممدوح بأبى ، إن تشأ تكن تلك النار التى سرت إلى جنة الأمن برداً وسلاما فلا تحترق كنار إبراهيم إذ قذف فيها بأمر نمرود فكانت برداً وسلاماً عليه فلم يحترق ، وفيه تلميح إلى قوله تعالى «قلنا يا نار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم» .

لِلشَّفِيعِ الثَّنَاءُ ، وَالْحَمْدُ فِى صَوْ بِ الْحَيَا لِلرِّيَاحِ ، لاَ لِلْغُيُومِ (١)

وَزَعِيمٌ بِأَنْ يُذَلِّلَ لِى الصَّعْـــبَ مَثَابِى إِلَى الْهُمَامِ الزَّعِيمِ (٢)

وَوِدَادٌ يُغَيِّرُ الدَّهْرُ مَا شَا ءَ وَيَبْقَى بَقَاءَ عَهْـــدِ الْكَرِيمِ

وَثَنَاءٌ أَرْسَلْتُهُ سَـــلْوَةَ الظَّا عِنِ عَنْ شَوْقِهِ وَلَهْوَ الْمُقِيمِ (٣)

فَهْوَ رَيْحَانَةُ الْجَلِيسِ ـ وَلاَ فَخْـــرَ ـ وَفِيهِ مِزَاجُ كَأْسِ النَّدِيمِ

لَمْ يَزَلْ مُغْضِيًا عَلَى هَفْوَةِ الْجَا نِى مُصِيخًا إِلَى اعْتِذَارِ الْكَرِيمِ

وَمَـــتَى يَبْدَإِ الصَّنِيعَةَ يُولِعْـــكَ تَمَامُ الْخِصَالِ بِالتَّتْمِيمِ (٤)

---

(١) أى لتشفيع الثناء والحمد لا للمشفوع إليه ، كما ان الحمد فى نزول المطر للرياح التى تؤلف بين الغيوم فينزل المطر بسببها لا لنفس الغيوم ، وهو كقول البحترى :

حاز حمدى والرياح اللواتى تحلب الغيث مثل حمد الغيوم

(٢) كفيل بتذليل ما استصعب تناوله رجوعى إلى الهمام الرئيس . وقد ورد فى بعض النسخ البيت التالى بعد هذا البيت :

أمل برغم الحفاء إليـــه وهو ثبت المقام ماضى العزم

(٣) أى مدح أرسلته فسار على ألسنة الناس مسير المثل إذا تلاه الظاعن تسلى به عن شوقه إلى وطنه وحنينه إلى أهله ، وإذا تلاه المقيم كان فيه لهوه وأنسه .

(٤) أى متى يبتدئك بالجميل تغرلك خصاله التامة ، وتحملك أخلاقه الكاملة على المطالبة بتتميم ما ابتدأك به من معروف ، وتكميل ما شرع فيه من صنيع يريد ـ بعبارة أوضح ـ أن ماله عليه من نعمة مبتدأة ، ويد سابقة يبعث فى نفسه أملا قويا فى إتمام تلك النعمة بانجاز ما وعده به ، وفى هذا المعنى يقول أبو تمام :

هذا سحاب أنت سقت غمامه فعليك ـ بعد الله ـ فيض غمامه

إنّ ابتداء العرف مجد باسق والمجد ـ كل المجد ـ فى استتمامه

وقريب منه قول المتنبى :

ولم أر فى عيوب الناس عيباً كنقص القادرين على التمام

وقول القائل :

إذا أسديت مكرمة فأتمم فان البدر يسطع بالتمام

من قصيدة صنعها ببَطَلْيوس [١]

« قال هذه القصيدة عند فراره من السجن والتجائه إلى بنى عباد باشبيلية سنة ٤٤١ هجرية ، وكان قد وافاه الفطر فالأضحى وهو على حاله من الذكرى والشوق إلى معاهد بقرطبة ، كان يخرج إليها فى العيد ، ويتفرج بمنارهها ، ويلهو بمحاسنها مع من يهوى ، وقد أذكى تذكرها فى فؤاده لاعج الشوق ، وبعه كامن الوجد ، فأخذ يذكرها معهداً معهداً ، ويصف ما خلفته فى نفسه من الأثر ، ويبين ما أثارته دواعي الذكرى فى قلبه من الصبابة والأسى والشوق ، ويقول صاحب قلائد العقيان فى هذه الأماكن التى يذكرها بعد : — « هذه معاهد لبنى أمية نعمت بها ليالى وأياما ، وظلت فيها الحوادث عنهم نياما ، فهاموا (بشرق العقاب) وشاموا به برقا يبدو من نقاب ، ونعموا (بحوض الرصافه) ، وطعموا عيشا تولى الدهر حلاوه وزفافه ، وأبعدوا نصح الناصح ، وحمدوا أمس (بمجلس ناصح) ، وعموا (بالزهراء) ، وصموا عن نبأ صاحب (الروراء) حتى رحلهم الموت عنها وقوضهم ، وعوضهم منها ماعوضهم» إلى آخر ماقال » .

خَلِيلَيَّ لاَ فِطْرٌ يَسُرُّ وَلاَ أَضْحَى ... فَمَا حَالُ مَنْ أَمْسَى مَشُوقاً كَمَا أَضْحَى

لَئِنْ شَاقَنِي (شَرْقُ الْعُقَابِ) فَلَمْ أَزَلْ ... أَخُصُّ بِمَحْوُضِ الْهَوَى ذَلِكَ السَّفْحَا [٢]

وَمَا أُنْفُكُّ جُوفِيُّ (الرُّصَافَةِ) مُشْعِرِي ... دَوَاعِيَ ذِكْرَى تُعْقِبُ الْأَسَفَ الْبَرْحَا [٣]

---

(١) بطليوس : بضمتين وسكون اللام ، وياء مضمومة ، وسين مهملة مدينة كبيرة بالأندلس من أعمال ماردة على نهر « آنه » غربى قرطبة كما فى معجم البلدان. (٢) العقاب : بالضم العلم الضخم والصخرة العظيمة فى عرض الجبل اسم موضع بقرطبة ، ومحوض الهوى : خالصه .

(٣) (جوفى الرصافه) : الجوفى بضم الجيم الواسع الجوف . قال فى اللسان وشىء جوفى أى واسع الجوف ، ودلاء جوف : أى واسعه ، و (الرصافة) : بضم فتح اسم لعدة مواضع منها بالأندلس موضعان أحدهما بليدة صغيرة عند ملنسية ينسب إليها الرفاء الأندلسى الرصافى الشاعر المشهور والأخرى وهى التى ذكرها هنا عند قرطبة أنشأها عبد الرحمن الداخل أوّل ملوك الأندلس من بنى أمية وسماها رصافة جده هشام بن عبد الملك بن مروان التى كانت بالشام كما يؤخذ من ابن خلكان نقلا عن كتاب لياقوت الحموى اسمه « المشترك وضعا المختلف صقعا » ، والبرح : بفتح فسكون العذاب والشدّة وصف به الأسف مبالغة والمراد أنها تعقب أسفاً مبرحا شاقا شديدا .

وَيَهْتَاجُ (قَصْرُ الْفَارِسِيِّ) صَبَابَةً ... لِقَلْبِيَ لَا تَأْلُو زِنَادَ الْأَسَى قَدْحَا (١)

وَلَيْسَ ذَمِيمًا عَهْدُ (مَجْلِسِ نَاصِحٍ) ... فَأَقْبَلَ فِي فَرْطِ الْوُلُوعِ بِهِ نُصْحَا

كَأَنِّيَ لَمْ أَشْهَدْ لَدَى (عَيْنِ شَهْدَةٍ) ... نِزَالَ عِتَابٍ كَانَ آخِرُهُ الْفَتْحَا (٢)

وَقَائِعُ جَانِيهَا التَّجَنِّي فَإِنْ مَشَى ... سَفِيرُ خُضُوعٍ بَيْنَنَا أَكَّدَ الصُّلْحَا (٣)

وَأَيَّامُ وَصْلٍ (بِالْعَقِيقِ) اقْتَضَيْتُهُ ... فَإِلَّا يَكُنْ مِيعَادُهُ الْعِيدَ فَالْفِصْحَا (٤)

وَآصَالُ لَهْوٍ فِي مُسَنَّاةِ مَالِكٍ ... مُعَاطَاةَ نَدْمَانٍ إِذَا شِئْتُ أَوْ سَبْحَا (٥)

لَدَى رَاكِدٍ يُصْبِيكَ مِنْ صَفَحَاتِهِ ... قَوَارِيرُ خُضْرٌ خِلْتَهَا مُرِّدَتْ صَرْحَا (٦)

---

(١) يقول : تثير ذكرى قصر الفارسى لقلبى صبابة لاتفتر عن قدح زناد الحزن، والزناد: مايقدح به النار

(٢) يعنى أنه عبأ لمحبوبته فى هذا المكان حيش عتاب أحرز به نصراً عليها وفتحا .

(٣) التجنى ادعاؤها عليه ذنبا لم يفعله ، والسفير المصلح بين القوم ، والمعنى أن هناك وقائع جناها ادعاؤها الذنوب عليه كان خضوعه فيها رسول سلام لتوكيد الصلح بينهما . (٤) يقال اقتضيت الدين أى قبضته وأخذته ، والفصح بالكسر عيد النصارى ، والمعنى أن أياما معلومة من السنة كنت أحصل فيها (بالعقيق) على الوصل واقتضيه فى ميعاده كما يقتضى أى يقبض الغريم دينه ، فان لم يكن ذلك الاقتضاء موعده العيد فالفصح . (٥) الآصال : جمع أصيل وهو مابعد العصر إلى المغرب ، والمسناة : سدّ يبنى فى وسط الوادى لاحتجاز الماء ورد ما لايعلم منه ومنعه عن الجرى فى طريقه المعتاد ، له أبواب تفتح لاطلاق الماء بحسب الحاجة ، وهى العرم . قال فى الصحاح ، « والمسناة العرم لاواحد له من لفظه » ، والمعنى أنه يذكر تلك الأيام التى كان يلهو بها مع الأصيل فى تلك المسناة الملكية مرة بمعاطاة الراح إذا شاء ، وأخرى بالسبح والعوم فى الماء ، وهذا مما يثبت أنهم كانوا يبنون (الخزانات) لاخصاب الأرض وإمداد البرك بالماء بعد تعلته . (٦) قال بعض المفسرين فى قوله تعالى (قيل لها ادخلى الصرح) . الصرح : بلاط اتخذ لها من قوارير ، ومن معانى الصرح الساحة أيضا ، فكأنه أراد تشبيه ماء المسناة الراكد فى خضرته واسوائه بزجاج أخضر مرد (بالتشديد) أى ملس صرحا أى ساحة مستوية من زجاج .

مَعَاهِدُ لَذَّاتٍ وَأَوْطَانُ صَبْوَةٍ ... أَجَلْتُ الْمُعَلَّى فِى الْأَمَانِى بِهَا قِدْحَا (١)

أَلَا هَلْ إِلَى (الزَّهْرَاءِ) أَوْبَةُ نَازِحٍ ... تَقَضَّى تَنَائِيهَا مَدَامِعَهُ نَزْحَا (٢)

مَقَاصِيرُ مُلْكٍ أَشْرَقَتْ جَنَبَاتُهَا ... فَخِلْنَا الْعِشَاءَ الْجَوْنَ أَثْنَاءَهَا صُبْحَا (٣)

يُمَثِّلُ قُرْطَيْهَا لِى الْوَهْمُ جَهْرَةً ... فَقُبَّتَهَا فَالْكَوْكَبَ الرَّحْبَ فَالسَّطْحَا (٤)

مَحَلُّ ارْتِيَاحٍ يُذْكِرُ الْخُلْدَ طِيبُهُ ... إِذَا عَزَّ أَنْ يَصْدَى الْقَنَى فِيهِ أَوْ يَضْحَى (٥)

---

(١) القدح : بكسر فسكون واحد السهام التى كانوا يستقسمون بها الجزور فى الميسر ، وكانت قداح الميسر عشرة ثلاثة منها فعل ، وسبعة من ذوات الانصباء ، وكان المعلى أوفرها حظا له سبعة أجزاء من الجزور ، فاذا أحال مخرج القداح يده فى الحريطة ، وأخرج المعلى باسم أحد المتقامرين كان هو الفائز بأكبر الأقسام وأوفر الحظوظ . يقول : هذه معاهد لذات قضيت بها من اللذات ، وبلغت فيها من الأمانى ما حمل قدحى فيها المعلى . (٢) الزهراء من عجائب أبنية الدنيا أنشأها أبو المظفر عبد الرحمن ابن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبدالملك بن مروان بن الحكم الأموى الملقب بالناصر أحد ملوك بنى أمية بالأندلس بالقرب من قرطبة فى سنة ٣٢٥ هـ والمسافة بينها وبين قرطبة ستة أميال تقريبا ، وطول الزهراء من الشرق إلى الغرب ٢٧٠٠ ذراع ، وعرضها ١٥٠٠ ذراع ، وعدد السواري التى فيها ٤٣٠٠ سارية ، وأبوابها نحو ١٥ بابا ، وكان الناصر ينفق على عمارتها ثلث خراج بلاد الأندلس التى كانت تبلغ فى ذلك الوقت نحو ستة ملايين من الدنانير ، وهى من أحسن مناره الدنيا وأبدعها ، وقد أكثر أهل قرطبة فى وصفها وما قاله الشعراء فيها ، ولهم فى ذلك تصانيف ، والآوبة : الرجوع ، والنازح : البعيد ، وتقضى أحد وتناول حقه من غريمه ، وهى المدامع هنا ، والنزح : من نزح البئر ، وهو استنزاف مائها ، ورأيت فى بعض النسخ (تقصت منايها مدامعه سفحا) (٣) المقصورة : ناحية من البناء على حيالها تقصر على الملك ، أو على صاحب الدار ، أو هى الدار الواسعة المحصنة ، وتجمع على مقاصير ومقاصير ، والجنات : جمع جنبة كسجدة وسجدات ، وفى اللسان مايفيد اختلاف اللغويين فى إسكان النون وفتحها فى المفرد ، ونقل عن ابن جنى قوله : وقد غرى الناس بقولهم ، أنا فى ذراك وحبتك بفتح النون قال والصواب إسكان النون ، واستشهد على ذلك بقول أبى صخره البولانى :

فما نطفة من حبّ مزن تقاذفت ... بها حنبتا الجودى والليل دامس

بأطيب من فيها وما دقت طعمها ... ولكنى فيما ترى العين فارس

والجون : هنا الأسود ، والمعنى أن تلك المقاصير أضيئت نواحيها بالمصابيح والسرج ، فحسبنا العشاء فى داخلها صبحا

(٤) يمثل له الوهم هذه المواضع من الزهراء كأنه يراها جهرة (٥) فى بعض النسخ عن بدل عن وفى بعضها يغدى بدل يصدى ، ولعلها مصحفة عن يعرى ، والأنسب بالصواب ما هنا ، ومعنى البيت أن

هُنَاكَ الْحِمَامُ الزُّرْقُ تَنْدَى حِفَافَهَا ... ظِلَالٌ عَهِدْتُ الدَّهْرَ فِيهَا فَتًى سَمْحَا (١)

تَعَوَّضْتُ مِنْ شَدْوِ الْقِيَانِ خِلَالَهَا ... صَدَى فَلَوَاتٍ قَدْ أَطَارَ الْكَرَى ضَبْحَا (٢)

وَمِنْ حَمْلِيَ الْكَأْسَ الْمُفَدَّى مُدِيرُهَا ... تَفَحُّمَ أَهْوَالٍ حَمَلْتُ لَهَا الرُّمْحَا

أَجَلْ إِنَّ لَيْلِي فَوْقَ شَاطِئِ نِيطَةٍ ... لَأَقْصَرُ مِنْ لَيْلِي بِآنَةَ فَالْبَطْحَا (٣)

فى الغـــزل

عَلَامَ صَرَمْتَ حَبْلَكَ مِنْ وَصُولِ ... فَدَيْتُكَ وَاعْتَزَزْتَ عَلَى ذَلِيلِ (٤)

وَفِيمَ أَنِفْتَ مِنْ تَعْلِيلِ صَبٍّ ... صَحِيحِ الْوُدِّ ذِى جِسْمٍ عَلِيـــلِ

فَهَلَّا عُدْتَنِي إِذْ لَمْ تُعَوِّدْ ... بِشَخْصِكَ بِالْكِتَابِ أَوِ الرَّسُولِ (٥)

لَقَـــدْ أَعْيَا تَلَوُّنُكَ احْتِيَالِي ... وَهَلْ يُغْنِي احْتِيَالٌ فِى مَلُولِ (٦)

الزهراء محل ترتاح النفس إليه يذكر طيبه حمة الخلد حيث يمتنع أن يصـدى الغق أى يعطش أو يصحى اى يبرز للشمس ، وفيـه الاشارة إلى قوله تعالى « إنّ لك ألا تجوع فيها ولا تعرى وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى » ولا شكّ أن الجوع ، والعرى ، والظمأ ، وعدم السكن أركان الشقاء فى هذه الحياة وبدونها يكون النعيم والراحة والسعادة ، وأنّ الشخص فى الحياة الدنيا معى بطلب هذه الأشياء بخلافه فى دار النعيم والخلد ، وقد توفرت له فى الزهراء أسباب الراحة والنعيم فاذكره ذلك جنة الخلد .

(١) الحمام : جمع حمة ، وهى مكان اجتماع الماء ، والزرق : صفة للحمام بمعنى المياه المجتمعة ، وحفافها : حوانبها وما طيف بها من حولها ، والمعنى هناك فى الزهراء البرك ذات الأمواه الزرق تظللها حفافها وحولها ظلال بليلة ندية (٢) أي أبدلت من سماع صوت المغنيات خلال تلك النوادى الآهلة بأنواع الطرب سماع صدى هذه الفلوات المخيفة يتردد فيها صنج العاديات من الخيل فيطير النوم من العين (٣) نيطه وآنه : نهران

(٤) يقول : لماذا قطعت حبل محب دائم الوصال لك ولماذا تكبرت على عبدك الخاضع الذليل .

(٥) هلا عدتنى بالكتاب أو الرسول إذ لم يكن من عادتك أن تعودنى بشخصك .

(٦) من أجل ما قرأناه فى هذا المعنى قول العباس بن الأحنف :

لو كنت عاتبة لكن لوعتى ... أملى رضاك وزرت غير معاتب

لكن ملكت فليس لى من حيلة ... صدّ الملول خلاف صدّ العاتب

وقريب منه قول ابن الرومى :

ولكنكم كنتم تريدون علة ... فهاجكم أدنى عتاب إلى الصد

أردت صلاح القبل بالبعد فانبرى ... لنا ظلمكم فاستفسد القبل بالبعد

بين صـــديقين

« كتب اليه ذو الوزارتين أبو عامر معاتبا :

تباعدنا على قرب الجوار
كأنا صدنا شحط المزار
تطلع لى هلال الهجر بدرا
وصار هلال وصلك فى سرار
وشاع شنيع وصلك لى وهجرى
فهلا كان ذلك فى استتار
أيجمل أن ترى عنى صبورا
وأصبح مولعا دون اصطبار
ولما أن هجرت وطال غفرى
عقرت هموم نفسى بالعقار
وكنت أزيد سمعك من عتابى
ولكن عافنى قرب الجوار
فراع مودتى واحفظ جوارى
فان الله أوصى بالجوار
وزرنى منعما من غير أمر
وآنس موحشا من عقردار

فجاوبه ابن زيدون : »

هَوَايَ - وَإِنْ تَنَاءَتْ عَنْكَ دَارِي - كَمِثْلِ هَوَايَ فِي حَالِ الْجِوَارِ
مُقِيمٌ لَا تُغَـــيِّرُهُ عَوَادٍ تُبَاعِدُ بَيْنَ أَحْيَانِ الْمَزَارِ
رَأَيْتُكَ قُلْتَ : إِنَّ الْوَصْلَ بَدْرٌ مَتَى خَلَتِ الْبُدُورُ مِنَ السِّرَارِ (١)
وَرَابَكَ أَنَّنِي جَلْدٌ صَـــبُورٌ وَكَمْ صَبْرٍ يَكُونُ عَنِ اضْطِبَارِ (٢)

---

(١) متى أفررت أن الوصل بدر فأنت حليق أن تعلم أنّ للبدر حالات شتى فهو إذا اكتمل نموه فى وسط الشهر لحقه المحاق فى آخره .

(٢) إنّ صبرى ليس طبيعيا ولكنى اتكلفه اضطرارا إليه لأنى لا أجد مندوحة عنه .

وَلَمْ أَهْجُرْ لِعَتْبٍ غَيْرَ أَنِّى ... أَضَرَّتْ بِى مُعَاقَرَةُ الْعُقَارِ
وَأَنَّ الْخَمْرَ لَيْسَ لَهَا خِمَارٌ (١) ... تُبَرِّحُ بِى ، فَكَيْفَ مَعَ الْخِمَارِ (٢)

* * *

وَهَلْ أَنْسَى لَدَيْكَ نَعِيمَ عَيْشٍ ... كَوَشْىِ الْخَدِّ طُرِّزَ بِالْعِذَارِ
وَسَاعَاتٍ يَحُولُ اللَّهْوُ فِيهَا ... مَجَالَ الطَّلِّ فى حَدَقِ الْبَهَارِ (٣)
وَإِنْ يَكُ قَرَّ عَنْكَ الْيَوْمَ جِسْمِى ... ـ فُدِيتَ ـ فَمَا لِقَلْبِى مِنْ قَرَارِ (٤)
وَكُنْتَ عَلَى الْبِعَادِ أَجَلَّ عِلْقٍ (٥) ... لَدَىَّ ، فَكَيْفَ إِذْ أَصْبَحْتَ جَارِى ؟ (٦)

دعـــوة

« كتبها إلى ذى الوزارتين أبى عامر يدعوه إلى زيارته »

طَابَتْ لَنَا لَيْلَتُنَا الْخَالِيَهْ ... فَلْتُنْسِنَاهَا هٰذِهِ التَّالِيَهْ (٧)
أَبَا الْمَعَالِى نَحْنُ فى رَاحَةٍ ... فَانْقُلْ إِلَيْنَا الْقَدَمَ الْعَالِيَهْ
لَيْلَتُنَا عَاطِلَةٌ إِنْ تَغِبْ ... عَنَّا ، فَزُرْنَا كَىْ تُرَى حَالِيَهْ
أَنْتَ الَّذِى لَوْ تُشْتَرَى سَاعَةٌ ... مِنْهُ بِدَهْرٍ لَمْ تَكُنْ غَالِيَهْ

---

(١) سورة . (٢) إذا كانت الخمر التى لا سكر فيها تبرح بى فما بالك بها إذا أسكرت .

(٣) البهار : نبت طيب الريح . (٤) إذا كان جسمى قد قرّ قراره بعيداً عنك فانّ قلبى لا يزال يهفو إليك .

(٥) العلق : النفيس ، قال الشاعر :

« أبيت اللعن ان سكاب علق ... نفيس لا يعار ولا يباع »

(٦) إنك ـ مع البعاد الذى ينسى الألاف ـ كنت أجل محلوق لدى ، فكيف أنساك وقد زادنى الجوار حبا فيك

(٧) لقد طابت ليلة أمس بقربك منا فلنكررها ، ولينسنا ما يضمرنا من السرور فى ليلتنا التالية ما نعمنا به فى ليلتنا الماضية .

قال فى الوزير الشيخ أبى الحزم

« بَنِي جَهْوَرٍ » أَحْرَقْتُمُ بِجِفَانِكُمْ ... جَنَانِي وَلَكِنَّ المَدَائِحَ تَعْبَقُ (١)
تَعُدُّونَنِي كَالْعَنْبَرِ الْوَرْدِ (٢) إِنَّمَا ... تَطِيبُ لَكُمْ أَنْفَاسُهُ (٣) حِينَ يُحْرَقُ

* * *

قُلْ لِلْوَزِيرِ وَقَدْ قَطَعْتُ بِمَدْحِهِ ... زَمَنًا فَكَانَ السِّجْنُ مِنْهُ ثَوَابِي
لَا تَخْشَ فِي حَقِّي عِمَا أَمْضَتْهُ ... مِنْ ذَاكَ فِيَّ وَلَا تَوَقَّ عِتَابِي (٤)
لَمْ تُخْطِ (٥) فِي أَمْرِي الصَّوَابَ مُوَفَّقًا ... هٰذَا جَزَاءُ الشَّاعِرِ الْكَذَّابِ

وصـــال

وَشَادِنٍ أَسْأَلُهُ قَهْوَةً (٦) ... فَجَادَ بِالْقَهْوَةِ وَالْوَرْدِ (٧)
فَبِتُّ أَسْقِي الرَّاحَ مِنْ رِيقِهِ ... وَأَجْتَنِي الْوَرْدَ مِنَ الْخَدِّ

---

(١) عبق : الطيب يعبق من باب فرح بقيت رائحته زمانا ، يقول بالرغم من أنكم أحرقتم فؤادى بنار الجفاء ، وقابلتم شكواى بعدم الاصغاء ، فان مديحى باق فيكم ملازم لكم ملازمة الطيب صاحبه .

(٢) الزعفران لحرته . (٣) ما ينبعث عنه عند الاحراق من الروائح الطيبة ، والمعنى : تحملونى فى عداد ما يحرق من الطيب الذى ليس لكم من إحراقه إلا طيب أنفاسه . قال ابن دسام عند إيراده هذين البيتين ، وأراه توارد مع أبى علىّ بن رشيق القيروانى حيث يقول :

أراك اتهمت أحاك الشفه ... وعندك مقت وعندى مقه
وأثنى عليك وقد سؤتنى ... كما طيب العود من أحرقه

وأخذاه معا من قول أبى تمام :

لولا اشتعال النار فيما جاورت ... ما كان يعرف طيب عرف العود

(٤) لا تخش فى حقى لوما بما أنبذته فىّ من حكم السجن ولا تتوق عتابى فانى أنا الحقيق باللوم والعتاب

(٥) أبدل الهمزة من الياء وحذفها للجازم كما يحذفها من المعتل وأصله لم تخطئ ، يقول : لم تعد فى أمرى الصواب وقد وفقت فى حكمك على بالسجن بعد أن انقطعت زمانا لمدحك ، وهذا جزاء من يكذب فى شعره ويمدح من لا يستحق المدح ، وقريب من هذا الهجاء قول ابن الرومى :

إن كنت من جهل حقى غير معتذر ... وكنت من رد مدحى غير منتدب
فأعطى عمن الطرسى الذى كتبت ... فيه القصيدة أو كفارة الكذب

(٦) خمراً : يعنى خمر ريقه . (٧) أى ورد وجنته .

وقال معاتبا من قصيدة أولها

بَنَيْتَ فَلَا تَهْدِمْ وَرِشْتَ(١) فَلَا تَبْرِى ... وَأَمْرَضْتَ حُسَّادِى وَحَاشَاكَ أَنْ تُبْرِى(٢)

أَرَى نَبْوَةً لَمْ أَدْرِ سِرَّ اعْتِرَاضِهَا ... وَقَدْ كَانَ يَحْلُو عَارِضَ الْهَمِّ أَنْ أَدْرِى(٣)

جَفَاءٌ هُوَ اللَّيْلُ ادْلَهَمَّ ظَلَامُهُ ... فَلَا كَوْكَبٌ لِلْعُذْرِ فِى أُفْقِهِ يَسْرِى(٤)

هَبِ الْعَزْلَ أَضْحَى لِلْوِلَايَةِ غَايَةً ... فَمَا غَايَةُ الْمَوْفِى مِنَ الظِّلِّ أَنْ يُكْرِى(٥)

فَفِيمَ أَرَى رَدَّ السَّلَامِ إِشَارَةً ... تُسَوِّغُ بِى إِزْرَاءَ مَنْ شَاءَ أَنْ يُزْرِى(٦)

أُنَاسٌ هُمُ أَخْشَى لِلَذْعَةِ مِقْوَلِى ... إِذَا لَمْ يَكُنْ مِمَّا فَعَلْتَ لَهُمْ مُضْرِ(٧)

فَإِنْ عَاقَتِ الْأَقْدَارُ فَالنَّفْسُ حُرَّةٌ ... وَإِنْ تَكُنِ الْعُتْبَى فَأَحْرِ بِهَا أَحْرِ

موقف وداع

وَلَمَّا الْتَقَيْنَا لِلْوَدَاعِ غُدَيَّةً ... وَقَدْ خَفَقَتْ فِى سَاحَةِ الْقَصْرِ رَايَاتُ

وَقُرِّبَتِ الْجُرْدُ الْعِتَاقُ(٨) وَصَفَّقَتْ(٩) ... طُبُولٌ وَلَاحَتْ لِلْفِرَاقِ عَلَامَاتُ

بَكَيْنَا دَمًا حَتَّى كَأَنَّ عُيُونَنَا ... لِجَرْىِ الدُّمُوعِ الْحُمْرِ فِيهَا جِرَاحَاتُ

وَكُنَّا نُرَجِّى الْأَوْبَ بَعْدَ ثَلَاثَةٍ ... فَكَيْفَ وَقَدْ كَانَتْ عَلَيْهَا زِيَادَاتُ

---

(١) من راش صديقه كساه وأصلح حاله . (٢) من البرء : وهو الشفاء من المرض .

(٣) أرى جموة لم أدر سرّ اعتراضها أى منعها الود من أن يسير فى طريقه الأول ، وقد يكشف ماعرض لى من الهم والحزن بسبب ذلك أن أعرف سرّ تلك البوّة والجفوة .

(٤) جفاء كالليل اشتدّ ظلامه فلم يسر فى أفقه كوكب عذر واضح . وفى الأصل :
« حياء هو الليل ادهمّ ظلامه »

(٥) أكرى : الظل يكرى بقص ، والمعنى : هب العزل أضحى غاية ماوليته من عمل ولا ينبغى أن تكون غاية ما أوفى علىّ من ظلك ورعايتك أن يكرى أى ينقص . (٦) معنى البيت : فى أى ذنب أراك تشير بالسلام إشارة تسيغ وتجوز لمن شاء أن يزرى بى الازراء بى والتحقير لشأنى .

(٧) اضراه : بالصيد ونحوه أغراه به فهومضر أى مغر ، يقول : أولئك الزارون علىّ المحمودون لشأنى أناس هم أخوف الناس من لسانى لو لم تكن مما فعلته معى قد اضريتهم بى وأغريتهم بالرماية على .

(٨) الجياد الكريمة . (٩) دقت الطبول إيذاناً بالمسير .

وقال أيضا يمدح أبا الوليد بن جهور

هَلْ عَهِدْنَا الشَّمْسَ تَعْتَادُ الْكِلَلْ (١) أَمْ عَهِدْنَا الْبَدْرَ يَجْتَابُ (٢) الْحُلَلْ

أَمْ قَضِيبُ الْبَانِ يَعْنِيهِ الْهَوَى أَمْ غَزَالُ الْقَفْرِ يُصْبِيهِ الْغَزَلْ (٣)

خَرَقَ الْعَادَاتِ مُبْدِي صُورَةٍ حَشَدَ (٤) الْحُسْنُ عَلَيْهَا فَاحْتَفَلْ (٥)

مُشْرَبُ الصَّفْحَةِ مِنْ مَاءِ الصِّبَا مُشْعَبُ الْوَجْنَةِ مِنْ صَبْغِ الْخَجَلْ

مَنْ عَذِيرِي (٦) مِنْهُ إِنْ أَغْبَبْتُهُ (٧) نَسِيَ الْعَهْدَ وَإِنْ عَاوَدْتُ مَلّْ

---

(١) جمع كله بالكسر ، وهى ستر رقيق يخاط كالدت يتوق فيه من الثوب ونحوه ، وتقدم هذا المعنى عند قوله فى القصيدة النونية :

كأس له الشمس ظئرا فى أكلته بل ما تحلى لها إلا أحايينا

(٢) يجتاب يلبس من قولهم : اجتاب القميص إذا لبسه ، وساعده قول لبيد :

فمتاك إذ رقص اللوامع بالضحى واجتاب أردية السراب اكامها

أى لبست الاكام أردية السراب ، والجلل بالضم جمع حلة أى أنت لا من يهواه شمس وأنه بدر على الحقيقة ، وتعجب من احتجاب الشمس فى الكلل ، واجتياب أى لبس البدر الجلل ، وأنكر أن يكون ذلك معهودا فى العادة . (٣) يعنيه : يهمه ، ويصبيه : يشوقه ويدعوه إلى الصبا والحنين إلى من يحب ، والغزل : معاودة النساء ومحادثتهن ، أى ولم نعهد أيضا أن الهوى يهم قضيب البان ، وأن المغازلة تدعو غزال القفر إلى الصبا فيحن إلى من يهوى . (٤) احتشد .

(٥) احتشد واحتفل : أى أتى بالمعجزات ذلك الذى طلع علينا بصورته الفائقة الجامعة لفنون الحسن ، الحافلة بأنواع الجمال .

(٦) يقال من عذيرى من فلان أى من نصيرى ، ويقال : عذير فلان بالنصب أى هات عذرا له ، ومنه قول ذى الاصبع العدوانى :

عذير الحى من عدوا ن كانوا حية الأرض

بغى بعض على بعض فلم يرعوا على بعض

أى هات عذرا فيما فعل بعضهم ببعض من البغى ، والقتل ، والتباعد ، والتباغض ، ولم يرع بعضهم على بعض بعد ما كانوا حية الأرض التى يحذرها كل أحد ، ويقال عذيرى من فلان أى من يعذرنى ، ومنه قول الآخر :

عذيرى من الانسان لا إن جموته صفا لى ولا إن كنت طوع يديه

وإنى لمشتاق إلى ظل صاحب يروق ويصفو إن كدرت عليه

(٧) من العب فى الزيارة ، أى جئته زائرا يوما وتركته يوما أو أكثر يقال : « زرغبا تزدد حبا » وفى اللسان : « العب فى الزيارة قال الحسن فى كل أسبوع »

قَائِلٌ لِي بِالتَّجَنِّي ، مَا لَهُ لَيْتَ شِعْرِي أَحَلَالٌ مَا اسْتَحَلّْ ؟

* * *

أَيُّهَا الْمُخْتَالُ (١) فِي زِينَتِهِ أَنْتَ أَوْلَى النَّاسِ بِالْخَالِ (٢) فَخَلْ (٣)

لَكَ إِنْ أَدْلَلْتَ (٤) عُذْرٌ وَاضِحٌ كُلُّ مَنْ سَاعَفَهُ (٥) الْحُسْنُ أَدَلّْ

سَبَبُ السُّقْمِ الَّذِي بَرَّحَ بِي صِحَّةٌ كَالسُّقْمِ فِي تِلْكَ الْمُقَلْ (٦)

إِنَّ مَنْ أَضْحَى أَبَاهُ « جَهْوَرٌ » قَالَتِ الْآمَالُ عَنْهُ فَفَعَلْ (٧)

مَلِكٌ لَذَّ جَنَى الْعَيْشِ بِهِ حَيْثُ وِرْدُ الْأَمْنِ لِلصَّادِي عَلَلْ (٨)

---

(١) ذو الحيلاء المعجب بنفسه المتباهى بزينته وجماله .

(٢) الخال له معان كثيرة منها الحيلاء ، وهو المراد هنا ، وقد أورد صاحب اللسان عن ابن برى أبياناً فى معانى الخال ، والمناسب منها لما نحن فيه قوله :

وإذ أنا خدن للهوى أحمى الصبا وللعزل المريح ذى اللهو والخال

أى الحيلاء . (٣) أى كن ذا خيلاء وزهو وتكبر ، من خال يخال بمعنى اختال ، ومنه بيت الحماسه :

فان كنت سيدنا سدتنا وإن كنت للخال فاذهب فخل

معناه : إن فعلت ما يوجب لك السيادة علينا سدتنا ، وإن حاولت أن تسودنا لمجرّد الكبر والاختيال فاذهب فاختل ما شئت أن تختال ، فانك لن تستطيع أن تسودنا حينئذ ، ومعنى البيت الذى نحن بصدده : أيها المختال المزهو سلفا وكبرا بزينته وجماله كن ذا خيلاء وفخر وإعجاب فأنت أولى الناس بذلك لفرط جمالك .

(٤) يقال أدل عليه وتدلل : انبسط واجترأ وتحمى فى غير موضع تحمى .

(٥) ساعده وواتاه وأسعفه باجتماع أسبابه لديه ، ومعنى البيت : إن أفرطت فى الدالة على ثقة بمحبتك ، واعتدادا بمساعفة الحسن ومواتاته فلك فى الادلال عذر واضح .

(٦) يقول : أن سبب الصبى والسقم الذى اشتد بى تبريحه وأذاه فتور فى لحظ تلك العيون الصحيحة المريضة ، وهذا معنى مطروق للشعراء ، ومن أحسن ماجاء فى مرض العيون قول ابن المعتز :

عليم بما تحت الصدور من الهوى سريع بكر اللحظ والقلب حازع

ويجرح أحشائى بعين مريضة كما لان متن السيف والسيف قاطع

(٧) يعنى أن « ابن جهور » : إذا قالت الآمال عنه قولا صدق قولها فعله .

(٨) شرب بعد شرب .

أَحْسَنَ الْمُحْسِنُ مِنَّا فَجَـــزَى ... مِثْلُ مَا لَجَّ مُسِيءٌ فَاحْتَمَلْ (١)

سَـــعْيُهُ فِى كُلِّ بِرٍّ مَثَلٌ (٢) ... إِذْ مَسَاعِي مَنْ يُنَاوِيهِ (٣) مُثُلْ (٤)

لاَ يَزَلْ مِنْ حَاسِدِيهِ مُكْثِرٌ ... أَوْ مُقِلٌّ ، سَبَقَ السَّيْفُ الْعَذَلْ (٥)

* * *

« يَا بَنِي جَهْوَرٍ » الدُّنْيَا بِكُمْ ... حَلِيَتْ أَيَّامُهَا بَعْدَ الْعَطَلْ (٦)

إِنَّمَا دَوْلَتُكُمْ وَاسِـــطَةٌ (٧) ... أَهْدَتِ الْحُسْنَ إِلَى عِقْدِ الدُّوَلْ

نَحْنُ مِنْ نَعْمَائِكُمْ فِى زَهْرَةٍ ... جَدَّدَتْ عَهْدَ الرَّبِيعِ الْمُقْتَبَلْ (٨)

طَابَ كَانُونٌ (٩) لَنَا أَثْنَاءَهَا ... فَـــكَأَنَّ الشَّمْسَ حَلَّتْ بِالْحَمَلْ (١٠)

زَهَرَتْ أَخْلاَقُكُمْ فَابْتَسَمَتْ ... كَابْتِسَامِ الْوَرْدِ عَنْ لُؤْلُؤٍ طَلّْ

---

(١) أحسن المحسن منا فجزاه وكافأه على إحسانه ، كما تكررت إساءة المسيء فاحتملها عفوا منه وكرما .

(٢) أى كمثل السائر يشيع فى الناس ذكره ، ويحمد أثره .

(٣) يعاديه ويعاديه . (٤) جمع مثال ، أى أمثلة وصور يقول أن مساعي الممدوح فى صلة الناس بأنواع البر والاحسان أصبحت مضرب الأمثال ، فى حين أن مساعي أعدائه الماوئين له صور جائعة أمامك — كما ترى — لم يشع لها ذكر ولم يعرف عنها أثر . (٥) يدعو باستمرار حاسديه على الاكثار أو الاقلال من لومه على مايصبه على رءوسهم من ويلات ، وينزله بهم من عقوبات ويقول « سبق السيف العذل » أى فلا معنى لقوم أكثر الأعداء منه أم أقلوا ، وهو مثل مشهور يضرب للأمر الذى فات فلم يمكن تداركه .

(٦) مصدر عطلت المرأة كفرح لم يكن عليها حلى ، وهو ضدّ « حليت » .

(٧) هى الدرّة التى فى وسط العقد وتعد أنفس جوهرة فيه .

(٨) يقول : نحن قد حللنا من نعمائكم فى بهجة من الزمان ، ونضرة من الحياة ، جددت لنا عهد الربيع عند استقبال أيامه ، وتجدد أوانه ، والربيع عند العرب ربيعان . الربيع الذى فيه الثمر والكلأ ، والربيع الذى تدرك فيه الثمر . (٩) شهر ، وهو اثنان : كانون الأول ، وكانون الثانى .

(١٠) الحمل : برج من بروج السماء .

* * *

أَيُّهَا الْبَحْـــرُ الَّذِى مَهْمَا تَفِضْ ... بِالنَّدَى (١) يُمْنَاهُ فَالْبَحْرُ وَشَلْ (٢)
مَنْ لَنَا فِيكَ بِعَيْبٍ وَاحِـــدٍ ... تُحْذَرُ الْعَيْنُ إِذَا الْفَضْلُ كَمُلْ (٣)
شَرَفٌ تَغْنَى عَنِ الْمَدْحِ بِهِ ... مِثْلَ مَا يَغْنَى عَنِ الْكُحْلِ الْكَحَلْ (٤)

* * *

أَنَا غَرْسٌ فِى ثَرَى الْعَلْيَاءِ لَوْ ... أَبْطَأَتْ سُقْيَاكَ عَنْـــهُ لَذَبُلْ
لِىَ ذِكْرٌ بِالَّذِى أَسْـــدَيْتَهُ ... نَابِهٌ وَدٌّ حَسُودٌ لَوْ خَمَلْ (٥)
فَلَيِمْتُ بِالدَّاءِ مِنْ حَالٍ فَتًى ... أَدَّبَتْهُ سِـــيَرُ النَّاسِ الْأُوَلْ
فَوَعَى الْحِـكْمَةَ عَنْ قَائِلِهِمْ : ... « الْزَمِ الصِّحَّةَ يَلْزَمْكَ الْعَمَلْ »

* * *

أَقْبَلَتْ نُعْمَاكَ تُهْدِى نَفْسَهَا ... لَمْ أُرِغْ (٦) حَظِّى مِنْهَا بِالْجَيَلْ
فَقَبِلْتُ الْيَدَ (٧) مِنْ بَطْنِ يَدٍ ... ظَهْرُهَا ـ الدَّهْرَ ـ مَحَـــلٌّ لِلْقُبَلْ
كَلَّنَا بُلِّغَ مَا أَمَّـــلَهُ ... فَابْلُغِ الْغَايَةَ مِنْ كُلِّ أَمَلْ
وَإِذَا مَا رَامَكَ الدَّهْرُ فَفُتْ ... وَإِذَا رُمْتَ الْأَمَانِىَّ فَنَلْ

---

(١) الكرم . (٢) ماء قليل يتحلب من حجر أو صخرة .
(٣) يقول من لنا بمن يعد فيك عيبا واحدا فانا نحن نحذر عليك وقد كثرت فضائلك عيون الحاسدين ، وهو نظير قول الآخر :

ما كان أحوج ذا الكمال إلى ... عيب يوقيه من العين

(٤) الكحل : محركة أن تسود مواضع الكحل من العين خلقة ، أى شرف تستغنى بسببه عن المدح كما تستغنى العين المكحولة خلقة عن التكحل بالكحل صناعة . (٥) أسديته : أعطيته ، والذكر النابه : الشريف المشتهر ، وهو خلاف الخامل . (٦) لم أطلب وفى الأصل : « لم أدع » .
(٧) الجميل .

مداعبـــة

« كتبها إلى أبى عبد الله بن القلاس البطليوس يداعبه بها »

أَصِخْ لِمَقَالَتِي وَاسْمَعْ ... وَخُذْ ـ فيما تَرَى ـ أَوْ دَعْ
وَأَقْصِرْ ـ بَعْدَهَا ـ أَوْ زِدْ ... وَطِرْ ـ فى إِثْرِهَا ـ أَوْ قَعْ

* * *

أَلَمْ تَعْلَمْ بِأَنَّ الدَّهْـــرَ يُعْطِى بَعْدَ مَا يَمْنَعْ
وَأَنَّ السَّعْىَ قَدْ يُكْدِى[1] ... وَأَنَّ الظَّنَّ قَدْ يَخْدَعْ
وَكَمْ ضَرَّ امْرَءًا أَمْرٌ ... تَوَهَّـــمَ أَنَّهُ يَنْفَعْ

* * *

فَإِنْ يُجْدِبْ منَ الدُّنْيَا ... جَنَابٌ طَالَمَا أَمْرَعْ
فَمَا إِنْ غَاضَ لِى صَبْرٌ ... وَمَا إِنْ فَاضَ لِى مَدْمَعْ
وَكَأَنْ رَامَتِ الْأَيَّا ... مُ تَرْوِيعِى فَلَمْ أَرْتَعْ[2]
إِذَا صَافَتْنِىَ الْجُـــلَّى ... تَجَلَّتْ عَنْ فَتًى أَرْوَعْ[3]
عَلَى مَا فَاتَ لَا يَأْسَى ... وَمِمَّـــا نَابَ لَا يَجْزَعْ
تَدِبُّ إِلَىَّ مَا تَأْلُو ... عَقَارِبُ مَا تَنِى تَلْسَعْ

---

(١) يخفق ، وقد كرر هذا المعنى فى سينيته فقال :

« ولكم أجدى قعود ولكم اكدى التماس »

(٢) حاولت الأيام أن تخيفنى فلم أخف .

(٣) أى أن المصائب لاتنال منه منالا ، ضافت من صافه الهم إذا نزل به ، والجلى : الأمر العظيم والحادث المروع ، والأروع : الذكي الحديد الفؤاد الحى النفس ، والمعنى : إذا نزلت بى جلى الحوادث تكشفت عن فتى حاضر العقل حديد الفؤاد ، وفى الأصل « صابتنى » من صاب السهم القرطاس بمعنى أصاب وهي لغة قليلة لا نظن أن ابن زيدون يلجأ إلى استعمالها مع غزارة مادته .

كَأَنَّا لَمْ يُؤَالِفْنَا زَمَانٌ لَيِّنُ الْأَخْدَعْ (١)
إِذِ الدُّنْيَا ـ مَتَى نَقْتَدْ أَبِيَّ سُرُورِهَا ـ يَتْبَعْ (٢)
وَإِذْ لِلْحَظِّ إِقْبَالٌ وَإِذْ فِي الْعَيْشِ مُسْتَمْتَعْ
وَإِذْ أَوْتَارُنَا تَهْفُو وَإِذْ أَقْدَاحُنَا تُتْرَعْ (٣)
وَأَوْطَارُ الْمُنَى تُقْضَى وَأَسْبَابُ الْهَوَى تَشْفَعْ
فَمِنْ أُدْمَانَةٍ (٤) تَعْطُو (٥) وَمِنْ قُمْرِيَّةٍ تَسْجَعْ
أَعِدْ نَظَرًا فَإِنَّ الْبَغْـ ـيَ مِمَّا لَمْ يَزَلْ يَصْرَعْ
وَلَا تُطِعِ الَّتِي تُغْوِيـ ـكَ، فَهْيَ لِغَيِّهِمْ أَطْوَعْ (٦)
تَقَبَّلْ ـ إِنْ أَتَى ـ خَطْبًا وَأَنْفُ الْفَحْلِ لَا يُقْرَعْ (٧)

---

(١) يقول : إنك مولع الآن بالكيد والاساءة إلىّ متناسيا تلك الأيام التى ألف فيها ، منا الزمن المواتى ، حين كنا أخوين متآلفين ، وفى الأصل : « كأنا لم يولينا » .

(٢) وفى الأصل : « إذ الدنيا مى » . (٣) تملأ .

(٤) الأدمان ـ بالتح ـ شجر الحبة ، وهى أكبر من البقول وأصغر من الشجر ، الأدمانه : بضم فسكون قالوا إنه جمع إدماء كحمراء وهى الطبية الخالصة البياض ، قال ذو الرمة :

من المؤلفات الرمل أدماء حرة شعاع الضحى فى منها يتوضح

وصحح بعض اللغويين أن أدمانة مفرد كحمصانة وإدن فهى مراده لأدماء ، وتعطوا : تتطاول إلى الشجر لتتناول منه . (٥) تميل .

(٦) دع غواية هذه الماكرة فانها أطوع لغواية أعدائك ومنافسيك ولن تستطيع أن تغلب على كيدهم وغوايتهم ، وفى الأصل : « فهى لبغيهم أطوع » .

(٧) قرع الأنف رمز للهوان ، قالوا : وخص الأنف بالضرب لأنه محل الأنفة والكبر والشمم .

والعرب تقول فى امثالها : « أنف الفحل لايقرع » وهى تقوله : للخاطب الكفء .

والأصل فحل الأبل إذا ضرب وجهه عن الناقة التى يريدون نتاجها منه .

قالوا : وتمثل به أبو سفيان بن حرب حين دامه زواج النبى (صلى الله عليه وسلم) ابنته أم حبيبة فقال : « ذاك الفحل لا يقرع أنفه » .

وفى الأصل : « وأنف النمل لا يقرع » يقول : إن العظيم لايهن عزمه أمام الخطوب والكوارث ، وليكن لك فى هذا عزاء ولتتقبل أى خطب إن أتاك بصدر رحيب ، غير واحد على تلك المرأة الغادرة التى لا قيمة لها ولا خطر .

وَلاَ تَكُ مِنْكَ تِلْكَ الدَّا رُ بِالمَرْأَى وَلاَ المَسْمَعْ
فَإِنَّ قُصَارَكَ الدِّهْلِيـــزُ، حِينَ سِوَاكَ فِي المَضْجَعْ(١)

جَرِّبِ النَّاسَ وَامْتَحِنْ

خُنْتَ عَهْدِي وَلَمْ أَخُنْ بِعْتَ وُدِّي بِلاَ ثَمَنْ
قَائِلاً : « هَلْ مُزَايِدٌ رَابِحاً ؟ ثُمَّ مَنْ يَزِنْ(٢) »
عُدَّتِي كُنْتَ لِلزَّمَا نِ، فَقَدْ حُلْتَ وَالزَّمَنْ(٣)
أَرْخِصِ الْبَيْعَ كَيْفَ شِئْتَ وَذَرْنِي، لَتَنْدَمَنْ(٤)
سَوْفَ تُبْلَى بِغَيْرِنَا، جَرِّبِ النَّاسَ وَامْتَحِنْ

---

(١) وتناس تلك الدار التي كانت ذكرياتها مبعث آلامك وأحزانك ، فليس لك أمل في اكتساب ودها ، وقصارى ما تصل إليه أن تكون في الدهليز حيث ينعم غيرك بالمضجع .

(٢) بعت عهدي رخيصاً مع صدق ودادي لك ، وأخذت تدلل عليه في السوق زاهداً فيه باحثاً عمن يشتريه بأبخس الأثمان . (٣) كنت عدتي التي أحارب بها الزمن فأصبحت حربا علىّ أنت والزمن .

وقريب من هذا المعنى وأدق منه وأروع قول ابن الرومي :

« تحدتكمو درعا جميعاً لتمنعوا سهام العدا عني فكنتم نصالها
وقد كنت أرجو منكم خير ناصر على حين خذلان اليمين شمالها »

إلى أن يقول :

« تقفوا وقفة المعذور عني بنجوة وخلوا نبالي للعدا ونبالها »

وقول القائل :

« واخوان حسبتهمو دروعا فكانوها ، ولكن للأعادي
وحسبتهمو سهاما صائبات فكانوها ، ولكن في فؤادي
وقالوا : « قد صفت منا قلوب لقد صدقوا، ولكن عن ودادي »

(٤) ازهد في ودي كما شئت فوالله لتندمنّ على زهادتك فيّ ، وما أجمل قول ابن الرومي .

« وارأ بودي أن يذال فاني في غير ذاك من الأمور أرخص
إياك لا تستعل ما أرخصته بطرا ، فأغلى منه ما لا أرخص
سترى — متى استنفرتني وطلبتني — أني سأزهد عند ذاك — وترخص »

فى مدح ابن جهـــور

« قالها فى مدح أبى الحزم بن جهور
أحد ملوك الطوائف »

هٰذَا الصَّبَاحُ عَلَى سُرَاكِ رَقِيبَا ... فَصِلِي بِفَرْعِكِ لَيْلَكِ الْغِرْبِيبَا (١)
وَلَدَيْكِ ـ أَمْثَالَ النُّجُومِ ـ قَلَائِدٌ ... أَلِفَتْ سَمَاءَكِ لَبَّةً وَتَرِيبَا (٢)
لِيَنُبْ عَنِ الْجَوْزَاءِ قُرْطُكِ كُلَّمَا ... جَنَحَتْ تَحُثُّ جَنَاحَهَا تَغْرِيبَا (٣)
وَإِذَا الْوِشَاحُ تَعَرَّضَتْ أَثْنَاؤُهُ ... طَلَعَتْ ثُرَيَّا لَمْ تَكُنْ لِتَغِيبَا (٤)

---

(١) سراك : سيرك ليلا ، الغربيب : الشديد السواد يقول كاد الصباح يفضحك فصلى سواد الليل بسواد شعرك ، أليس شعرك كالليل ، قال ابن بسام :

قوله : « فصلى بفرعك ليلك الغربيبا » من قول أبى الطيب :

« كشفت ثلاث ذوائب من شعرها ... فى ليـــلة فأرت ليالى أربعاً »

وينظر إلى قول المعرى :

« يودّ أنّ ظلام الليل دام له ... وزيد فيه سواد القلب والبصر »

وللتهامى :

« وتودّ لو حملت سواد قلوبها ... وسواد أعينها ســـواد عذار »

وقال محمد بن هانئ :

قد أظلموا بالدهم منها فجرهم ... فتكورت شمس النهار تعصبا
واستأنفوا بشباتها بحرا ، فلو ... عقدوا نواصيها أعادوا العيهبا

(٢) اللبة بوزن الحبة المحر ـ والتريب : واحد ترائب الصدر ، وهى موضع القلادة منه ـ والمعنى لديك قلائد شبيهة بالنجوم تسكن سماء النحر والصدر منك كما تسكن النجوم السماء ـ وأمثال النجوم بالنصب حال من قلائد النكره متقدم عليه ، وهو الذى سوغ مجيء صاحب الحال نكره ، قال ابن مالك :

« ولم ينكر عالبا ذو الحال إن * لم يتأخر » ومن شواهده قوله : « وما لام بمعنى مثلها لى لائم » فمثلها بالنصب حال من لائم النكرة ، ويجوز أن يكون أمثال مبتدأ خبره لديك وقلائد بدلا منه .

(٣) الجوزاء : نجم يعترض فى جو السماء أى وسطه ، شبه قرطها بالجوزاء وجنحت أى مالت مغربة كأنها طائر يحث جناحه . يقول أبيى عن الجوزاء قرطك إذا مالت مغربة لتغيب فى الأفق .

(٤) الوشاح : أديم ينسج عريضا ويرصع بالجواهر وتشده المرأة بين عاتقيها وكشحيها وتشبه الثريا إذا تعرضت أى سارت معوجة بالوشاح المعوجة أثناؤه ـ وأثناء الوشاح ما أنثنى منه ، قال امرؤ القيس :

إذا ما الثريا فى السماء تعرضت ... تعرض أثناء الوشاح المفصل

أى أعوجت ولم تستقم فى سيرها اعوجاج ما انثنى من الوشاح على جارية اتشحت به .

وَلَطَالَمَا أَبْدَيْتِ إِذْ حَيَّتْنَا كَفًّا هِيَ الْكَفُّ الْخَضِيبُ خَضِيبَا

* * *

أَظَنِينَةً ، دَعْوَى الْبَرَاءَةِ شَأْنُهَا أَنْتِ الْعَدُوُّ فَلِمْ دُعِيتَ حَبِيبَا (١)

مَا بَالُ خَدِّكِ لَا يَزَالُ مُضَرَّجًا بِدَمٍ وَلَحْظُكِ لَا يَزَالُ مُرِيبَا (٢)

لَوْ شِئْتِ مَا عَذَّبْتِ مُهْجَةَ عَاشِقٍ مُسْتَعْذِبٍ فِي حُبِّكِ التَّعْذِيبَا

وَلَزُرْتِهِ — بَلْ عُدْتِهِ — إِنَّ الْهَوَى مَرَضٌ يَكُونُ لَهُ الْوِصَالُ طَبِيبَا

مَا الْهَجْرُ إِلَّا الْبَيْنُ لَوْلَا أَنَّهُ لَمْ يَشْحُ فَاهُ بِهِ الْغُرَابُ نَعِيبَا (٣)

---

(١) يا متهمة بقتل العاشقين يا مخضوبة الكف بدمائهم أنت العدو فكيف دعوت نفسك حبيبا .

(٢) مثله قول الحصرى :

« عيناك قد اعترفا بدمى وعلى خديك تورده »

(٣) شحا فاه يشحوه : فتحه ، والنعيب والنعاب : صوت الغراب ، والمعنى : ما الهجر إلا البين إلا أنّ الغراب فى هذه المرة — لم يفتح فاه ليندرنا بذلك الهجر المميت ، والنعيب نذير الفراق عند العرب ، ويسمون الغراب الأبقع غراب البين ، قال عنترة :

« طعن الذين فراقهم أتوقع وحرى بينهم الغراب الأبقع »

وقال النابغة الذبيانى :

« زعم الأحمة أن رحلتهم غدا وبذاك تنعاب الغراب الأسود
لا مرحبا بعد ، ولا اهلا به إن كان تفريق الأحبة فى عد »

وقال قيس ابن ذريح :

« الا يا غراب البين ، قد طرت بالذى أحاذر من لبنى فهل أنت واقع
وإنك لو أبلغتها : قيلى اسلمى بكت حذرا وأرمس منها المدامع »

وقال المعرى : « نبى من الغربان ليس على شرع يجيزنا أن الشموس إلى صدع
أصدقه فى سربه ، وقد امترت صحابة موسى بعد آياته التسع »

وقال فى رثاء الشريف المرتضى :

« من شاعر للبين قال قصيدة نرثى الشريف على ربى القاف »

إلى آخر هذه الأبيات التى لا حاجة بنا إلى تقصيها .

وقد شد أحد الشعراء فأنحى باللائمة على من مذهب هذا المذهب الخاطئ فى ذم الغراب ، وبرأه من تهمة التفريق ، فقال :

والناس يلحون غراب البين لما جهلوا
وهل غراب البين إلا ناقة أو جمل
وما على ظهر غراب البين تطوى الرحل

وَلَقَدْ قَضَى فِيكِ التَّجَلُّدُ نَحْبَهُ ... فَثَوَى وَأَعْقَبَ زَفْرَةً وَنَحِيبَا

وَأَرَى دُمُوعَ الْعَيْنِ لَيْسَ لِفَيْضِهَا ... غَيْضٌ إِذَا مَا الْقَلْبُ كَانَ قَلِيبَا

* * *

مَالِي وَلِلْأَيَّامِ لَجَّ مَعَ الصِّبَا ... عُدْوَانُهَا فَكَسَا الْعِذَارَ مَشِيبَا

مَحَقَتْ هِلَالَ السِّنِّ قَبْلَ تَمَامِهِ ... وَذَوَى بِهَا غُصْنُ الشَّبَابِ رَطِيبَا

لَا لَمَّ بِي مَا لَوْ أَلَمَّ بِشَاهِقٍ ... لَأَنْهَالَ جَانِبُهُ فَصَارَ كَثِيبَا (١)

فَلَئِنْ تَسَمْنِي الْحَادِثَاتُ فَقَدْ أَرَى ... لِلْجِفْنِ فِي الْعَضْبِ «الطَّرِيرِ نُدُوبَا» (٢)

وَلَئِنْ عَجِبْتُ لِأَنْ أُضَامَ «وَجَهْوَرٌ» ... نِعْمَ النَّصِيرُ لَقَدْ رَأَيْتُ عَجِيبَا

مَنْ لَا تُعَدِّي النَّائِبَاتُ لِجَارِهِ ... زَحْفًا وَلَا تَمْشِي الضَّرَاءُ دَبِيبَا (٣)

مَلِكٌ أَطَاعَ اللهَ مِنْهُ مُوَفِّقٌ ... مَا زَالَ أَوَّابًا إِلَيْهِ مُنِيبَا

يَأْتِي رِضَاهُ مُعَادِيًا وَمُوَالِيًا ... وَيَكُونُ فِيهِ مُعَاقِبًا وَمُثِيبَا

مُتَمَرِّسٌ بِالدَّهْرِ يَقْعُدُ صَرْفُهُ ... إِنْ قَامَ فِي نَادِي الْخُطُوبِ خَطِيبَا

---

(١) المعنى : لقد نزل بي مالو نزل بجبل شاهق لسقط جانبه فصار كثيبا مهيلا أي رملا قد هيل وانتثر — وهو مأخوذ من قوله تعالى « يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا »

(٢) تسمى : أي تجشمني مكروها من قولهم سامه خسفا إذا أولاه إياه وأراده عليه — والجفن : الغمد — والعضب : السيف — والطرير : القاطع — والندوب : جمع ندب بفتحتين وهو في الأصل أثر الجرح في الجسم إذا لم يرتفع عن الجلد — وأراد به هنا أثر الصدأ الذي يعلو فرند السيف لطول مكثه في الغمد — والمعنى فلئن يعيرني طول المكث في السجن فان السيف يصدأ بطول المكث في الجفن .

(٣) تعدى : بالتضعيف تحضر وتسرع في العدو — وزحفا من زحف الجيش — والضراء : من قولهم فلان يمشي الضراء إذا مشى مستخفيا فيما يوارى من الشجر — والدبيب : مصدر دب النمل والشيخ مشى على هينته والمعنى : نعم النصير جهور من لا تسرع النائبات إلى جاره زحفا ولا تدب إليه مستخفية .

لاَ يُوسَمُ الرَّأْىُ الْفَطِيرُ بِهِ وَلاَ ... يَعْتَادُ إِرْسَالَ الْكَلاَمِ قَضِيبَا (١)

تَأْبَى ضَرَائِبُهُ الضُّرُوبَ نَفَاسَةً ... مِنْ أَنْ تَقِيسَ بِهِ النُّفُوسُ ضَرِيبَا (٢)

بَسَّامُ ثَغْرِ الْبِشْرِ إِنْ عَقَدَ الْحُبَا ... فَرَأَيْتَ وَضَّاحًا هُنَاكَ مَهِيبَا (٣)

مَلأَ النَّوَاظِرَ صَامِتًا وَلَرُبَّمَـــا ... مَلأَ الْمَسَامِعَ سَامِعًا وَمُجِيبَا (٤)

عِقْدٌ تَأَلَّفَ فِى نِظَامِ رِيَاسَـــةٍ ... نَسَـــقَ اللَّآلِئُ مَنْجِبًا وَنَجِيبَا

يَغْشَى التِّجَارِبَ كَهْلُهُمْ مُسْتَغْنِيًا ... بِقَرِيحَةٍ هِىَ حَسْـــبُهُ تَجْرِيبَا

وَإِذَا دَعَوْتَ وَلِيدَهُمْ لِعَظِيمَةٍ ... لَبَّاكَ رَقْرَاقَ السَّمَاحِ أَدِيبَا (٥)

---

(١) الرأى الفطير : ما فيه عجلة وأصله من اختباز العجين قبل أن يختمر — والقضيب : المقتضب من قولهم اقتضب الخطبة والكلام أى أرسلها من غير إعداد وتهيئة — والمعنى : أنه لايتسم بسمة العجلة فى الرأى ولا يرسل الكلام مقتضبا مرتجلا من غير إعداد له ورياضة عليه .

(٢) ضرائبه : سجاياه — والضروب : جمع ضرب وهو المثل والشبيه كالضريب ، أى تمنع سجاياه أن يكون له أمثال وأشباه نفاسة بتلك الخلال الكريمة أى ضنا بها وأباء من أن تقيس به النفوس ضربا وشبيها

(٣) الحبوة : كمروة وسدرة تجمع على حبا كمرف وسدر ، والاحتباء أن يضم الجالس رجليه إلى بطنه ويجمعهما مع ظهره بثوب وقد يحتبي بيديه ، وهو يعوم مقام إسناد الظهر إلى حائط أو نحوه ، يعنى أنه كثير الابتسام فى طلاقة وبشر أن جلس محتبيا نظرت منه وضاح الجبين مشرق الطلعة مهيبا .

(٤) المعنى : أنه ملأ النواظر — روعة وهيبة فى حال صمته والمسامع حكمة وبيانا سامعا من الناس وعجيبا قال ابن سام :

قوله : « ملأ النواظر صامتا » من قول ابن زيدون أيضا :

اسألها واجعل بكاك جوابا ... تجدم الشوق سائلا ومجيبا

وينظر أيضا إلى لمعة هذا البيت دون معناه قول أبى الطيب :

فدعاك حاسدك الرئيس وامسكوا ... ودعاك خالفك الرئيس الأكبرا

خلقت صفاتك فى العيون كلامه ... كالخط يملأ مسمعى من أبصرا

ويلمح أيضا هذا البيت قول أبى نواس — على ما فسره بعض الناس —

« ألا فاسقنى خمرا وقل لى : هى الخمر » وهذا التفسير فيه أضعف الوجوه ، وبيت من شرف أشبه من هذه كلها ببيت ابن زيدون ، وهو قوله يمدح صاحب القيروان :

سل عنه وانطق به وانظر إليه تجد ... ملء المسامع والانواء والمقل

(٥) لباك : أجابك — ورقراق السماح : يريد أن سماحه يترقرق أى يجرى كالماء جريا سهلا — وأديبا : لعلها أريبا بالراء المهملة أي عاقلا .

هِمَمٌ تُنَافِسُهَا النُّجُومُ وَقَدْ تَلَا ... فِى سُؤْدَدٍ مِنْهَا الْعَقِيبُ عَقِيبَا

وَمَحَاسِنٌ تَنْدَى رَقَائِقُ ذِكْرِهَا ... فَتَكَادُ تُوهِمُكَ الْمَدِيحَ نَسِيبَا (١)

كَالآسِ أَخْضَرَ نَضْرَةً ، وَالْوَرْدِ أَحْـ ... ـمَرَ بَهْجَةً ، وَالْمِسْكِ أَذْفَرَ (٢) طِيبَا

وَإِذَا تَفَنَّنَ فِى اللِّسَانِ ثَنَاؤُهُ ... فَافْتَنَّ لَمْ يَكُنِ الْمُرَادُ غَرِيبَا (٣)

غَالَى بِمَا فِيهِ فَغَيْرُ مُوَاقِعٍ ... سَرَفًا وَلَا مُتَوَقِّعٍ تَكْذِيبَا (٤)

* * *

كَانَ الْوُشَاةُ وَقَدْ مُنِيتُ بِإِفْكِهِمْ ... أَسْبَاطَ يَعْقُوبٍ وَكُنْتُ الذِّيبَا (٥)

وَإِذَا الْمُنَى بِقَبُولِكَ الْغَضِّ الْجَنَى ... هُزَّتْ ذَوَائِبُهَا فَلَا تَثْرِيبَا

أَنَا سَيْفُكَ الصَّدِئُ الَّذِى ... مَهْمَا تَشَأْ تُعِدِ الصِّقَالَ إِلَيْهِ وَالتَّذْرِيبَا (٦)

كَمْ ضَاقَ بِى مِنْ مَذْهَبٍ فِى مَطْلَبٍ ... فَثَنَيْتُهُ فُسُحَ الْمَجَالِ رَحِيبَا

«وَزَهَا» جَنَابُ الشُّكْرِ حِينَ مَطَرْتَهُ ... بِسَحَائِبِ النُّعْمَى فَرُدَّ خَصِيبَا (٧)

---

(١) قال ابن بسام :

قوله : « وكاد توهمك المديح نسيبا » من قول أبى تمام :

(٢) أذفر : ذكىّ طيب الريح .

طاب فيك المديح والد حتى ... فاق وصف الديار والتشبيبا

(٣) إذا تفنن : أى أطرد مديحه فى اللسان — فافتن : أى أخذ فى فنون وضروب من المدح لم يكن مراد المادح غريبا لأنه يستملى من صفاته فيقول .

(٤) مواقع : مدان ، والمتوقع : المتنظر — والمعنى : بالغ مادحه بما فيه من الصفات فلم يكن مدانيا إفراطاً ولا متخوفا تكذيبا .

(٥) منيت بليت — والافك الكذب والتحديث بالباطل ، يريد انه برئ مما ابتلى به من إفكهم براءة الذئب من دم ابن يعقوب .

(٦) التذريب : التحديد .

(٧) وجد هذا البيت فى الأصل وفى غيره من المطان ناقصا ، والزيادة يعطيها السياق .

* * *

فتهنَّإ الأعيادَ عادةَ لابسٍ يُبْلِي الدَّريسَ فيستجدُّ قشيبا (١)
ومتى سعيتَ لنازحٍ متعذِّرٍ فوجدتَهُ سهلَ المرامِ قريبا (٢)
وأرادَ فيكَ مرادَكَ القدرُ الذي لا تستطيعُ لحكمِهِ تعقيبا

عتاب

أحينَ عاشتْ حظكَ من ودادي ولمْ تجهلْ محلَّكَ من فؤادي
وقادَنِيَ الهوى فانقدتُ طوعًا وما مكَّنتُ غيرَكَ من قيادي
رضيتَ لِيَ السَّقامَ لباسَ جسمٍ كحلتُ الطرفَ منهُ بالسُّهادِ (٣)

* * *

أجلْ عينيكَ في أسطارِ كُتْبي تجدْ دمعي مزاحًا بالمدادِ (٤)
فديتُك إنَّني قد ذابَ قلبي من الشَّكوى إلى قلبٍ جمادِ

---

(١) يقال تهنأ الطعام وتهنأ به كما يقال تعلق الشيء وتعلق به — أي تهنأ بالأعياد غير مخالف عادتك فيها من إبلاء الثوب الدريس أي الخلق ، ولابس القشيب أي الجديد ، وهذا نظير قوله في الرائيه .

فأبل وأخلف إنما أنت لابس لهدى الليالي الغر وهي ثياب

(٢) ومتى سعيت لعلّ الأصل ولكم سعيت الباب — والذي يظهر ان هذه الأبيات التي خصت بها هذه القصيدة وقع فيها شيء من التحريف فليحرر .

(٣) يقول : « أحين أيقنت اني لا أحل أحداً محلك من قلبي وعلمت أني أسير هواك حزيتني على ذلك الاخلاص في الحب سقاما وتسهيداً . وما أحلى قول المجنون :

وأديتني حتى إذا ما فتنني بقول يحل العصم سهل الأباطح
تناءيت عني حيث لالي حيلة وغادرت ما غادرت بين الجوانح

(٤) تأمل في سطور الكتب التي أبعث بها إليك تجد دمعي مختلطا بمدادها .

رثاء فتاة

« قال يرثى ابنة المعتضد المتوفاة قبل وفاته بثلاث »

سَرَّكَ ٱلدَّهْرُ وَسَاءَ فَاقْنَ شُكْراً وَعَزَاءَ (١)
كَمْ أَفَادَ الصَّبْرُ أَجْراً وَٱقْتَضَى الشُّكْرُ نَمَاءَ (٢)
أَنْتَ إِنْ تَأْسَ عَلَى الْمَفْقُودِ إِلْفاً وَٱجْتِبَاءَ (٣)
فَٱسْلُ عَنْهُ غَيْرَةً وَٱحْتَمِلِ الرُّزْءَ إِبَاءَ
أَيُّهَا « الْمُعْتَضِدُ » الْمَنْصُورُ مُلِّيتَ الْبَقَاءَ (٤)
وَتَزَيَّدْتَ مَعَ الْأَيَّامِ عِزّاً وَعَلَاءَ (٥)
إِنَّمَا يُكْسِبُنَا الْحُزْ نُ عَنَاءً لَا غَنَاءَ (٦)
أَنْتَ طَبٌّ أَنَّ دَاءَ الْمَوْتِ قَدْ أَعْيَا الدَّوَاءَ (٧)
فَتَأَسَّ (٨) إِنَّ ذَاكَ الْخَطْبَ غَالَ الْأَنْبِيَاءَ
وَسَيَفْنَى الْمَلَأُ الْأَعْلَى إِذَا مَا ٱللهُ شَاءَ

* * *

حَبَّذَا هَدْيُ عَرُوسٍ دَفْنُهَا كَانَ الْهِدَاءَ
عُمِّرَتْ حِيناً وَمَاءُ الْمُزْنِ شَكْلَيْنِ سَوَاءَ

---

(١) اقن : الزم من وهنهم ميت حياتى أى لزمته ، قال عنترة :

فأحبها إن المنية منهل لابد أن أسقى بذاك المنهل
فاقى حياءك لا أبا لك واعلمى أنى امرؤ سأموت إن لم أقتل

والمعنى : سرك الدهر وساءك فاشكره على أن سرك وتعز بذلك عما ساءك .

(٢) زيادة . (٣) الاجتباء : الاصطفاء .

(٤) مليت البقاء : متعك الله بالبقاء . (٥) اللاء : الرفعة .

(٦) إنما يكسبنا الحزن ألما لا فائدة فيه ولا جدوى منه .

(٧) أنت عالم خبير بأن داء الموت لا دوء له . (٨) اصبر .

ثُمَّ وَلَّتْ فَوَجَدْنَا أَرَجَ (١) الْمِسْكِ ثَنَاء
جَمَعَتْ تَقْوَى وَإِخْبَا تاً (٢) وَفَضْلاً وَذَكَاء
سَتُوَفَّى مِنْ جِمَامِ الْكَوْثَرِ الْعَذْبِ رَوَاء (٣)
حَيْثُ تَلْقَى الْأَتْقِيَا ءَ السُّعَدَاءَ الشُّهَدَاء

* * *

هَانَ مَالَاقَتْ عَلَيْهَا أَنْ غَدَتْ مِنْكَ فِدَاء (٤)
عُنْمُ أَحْبَابِكَ أَنْ تَبْقَى وَإِنْ عُمْوا فَنَاء (٥)
فَالْبَسِ الصُّنْعَ مُلَاءً وَاسْحَبِ السَّعْدَ رِدَاء (٦)
وَرِثِ الْأَعْدَاءَ أَعْمَا رَهُمُ وَالْأَوْلِيَاء (٧)

فى الغزل

مَا ضَرَّ لَوْ أَنَّكَ لِى رَاحِمُ وَعِلَّتِى أَنْتَ بِهَا عَالِمُ
يَهْنِيكَ يَا سُؤْلِى وَيَا بُغْيَتِى أَنَّكَ مِمَّا أَشْتَكِى سَالِمُ (٨)
تَضْحَكُ فى الْحُبِّ وَأَبْكِى أَنَا اللهُ ـ فِيمَا بَيْنَنَا ـ حَاكِمُ
أَقُولُ لَمَّا طَارَ عَنِّىَ الْكَرَى قَوْلَ مُعَنًّى قَلْبُهُ هَائِمُ
« يَا نَائِمًا أَيْقَظَنِى حُبُّهُ هَبْ لِى رُقَادًا أَيُّهَا النَّائِمُ (٩) »

---

(١) طيب . (٢) الاخبات : الخشوع . (٣) ستروى من ماء الكوثر .
(٤) هون عليها حطب الموت أنها افتدتك بنفسها من الردى .
(٥) إن أحبابك ليرون فى بقائك أكبر فوز لهم ولو افتدوك بأنفسهم .
(٦) الملاء والملاءة : الريطة ذات لفقين ، والمعنى : ارفل فى حلل المعروف والسعادة .
(٧) وهبك الله أعمار أعدائك وأسميائك .
(٨) من أبدع ما قرأناه فى هذا المعنى قول الشريف الرضى :
« أهون عليك ـ إذا امتلأت من الكرى ـ أنى أبيت بليلة اللسوع »
(٩) يقول : « ليس من العدالة أن تنام وأسهر ، فانعم على بالكرى بعد أن أيقظنى هجرك » .

تهنئـــة

« وقال يهنئ المعتضد وقد شرب دواء »

أَحْمَدْتَ عَاقِبَةَ الدَّوَاءِ وَنِلْتَ عَافِيَةَ الشِّـــفَاءِ
وَخَرَجْتَ مِنْـــهُ مِثْلَمَا خَرَجَ الْحُسَامُ مِنَ الْجِلَاءِ
وَبَقِيتَ لِلدُّنْيَا فَأَنْـــتَ دَوَاؤُهَا مِنْ كُلِّ دَاءِ
وَوَرِثْتَ أَعْمَارَ الْعِدَى وَقَسَمْتَهَا فِي الْأَوْلِيَاءِ (١)
يَا خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْجِيَا دَ وَسَارَ فِي ظِلِّ اللِّوَاءِ
وَاجْتَالَ يَوْمَ الْحَرْبِ قُدْ مًا وَاحْتَبَى يَوْمَ الْحِبَاءِ (٢)
بُشْرَاكَ عُقْبَى صِحَّـــةٍ تَجْرِي إِلَى غَـــيْرِ انْتِهَاءِ
فِي دَوْلَةٍ تَبْقَى بَقَا ءَ الدَّهْرِ آمِنَةَ الْفَنَاءِ
وَمَسَرَّةٍ يُفْضِي بِهَا زَمَنٌ كَحَاشِيَةِ الرِّدَاءِ
وَاشْرَبْ فَقَدْ لَذَّ النَّسِـــيمُ وَرَقَّ سِرْبَالُ الْهَوَاءِ
لِنَرَى بِكَ الْبَهْوَ الْمُطِلَّ يَمِيسُ فِي حُلَلِ الْبَهَاءِ
وَبَقِيتَ مَفْدِيًّا بِنَا إِنْ نَحْنُ جُزْنَا فِي الْفِدَاءِ (٣)

---

(١) قوله : « وقسمتها فى الأولياء » يذكرنا قول العباس الأحنف :

لو كان هذا الحب يفـ ـفدى فيه حكمى أو قضائى
لطلبتـــه بجمعتـــه من كل أرض أو سماء
فقســـمته بينى وبيـ ـن حبيب نفسى بالسواء
حـــق إذا مسا حمي ـما ، والأمور إلى انتهاء
مات الهوى من بعدنا ـ أو عاش فى أهل الوفاء

(٢) أجال : من إجالة القداح فى الميسر وياسبه قدحا أى فاز بالظفر والنصر على الأعداد ، واجتال فى الحرب وجال بمعنى واحد ويناسبها قدما بضمتين ـ والتخفيف بالاسكان فى مثله جائز ـ ومعناه جال فى الحرب يمضى قدما أى إلى الامام ، والحباء : بالكسر العطاء .

(٣) فدتك أعمارنا إن كان يقبل منا هذا الفداء .

تهنئة بفصد

« وقال يهنيه بفصد »

لِيَهْنِكَ أَنْ أَحْمَدْتَ عاقِبَةَ الْفَصْدِ ... فَلِلّهِ مِنّا أَجْمَلُ الشُّكْرِ وَالْحَمْدِ
وَيا عَجَباً مِنْ أَنّ مِبْضَعَ فاصِدٍ ... تَلَقَّيْتَهُ لَمْ يَنْصَرِفْ نابِيَ الحَدِّ
وَمِنْ مُتَوَلّى فَصْدِ يُمْنَاكَ كَيْفَ لَمْ ... يَهُلْهُ عُبابُ البَحْرِ فى مُعْظَمِ المَدِّ
وَلَمْ تَغْشَهُ الشَّمْسُ المُنِيرُ شُعاعُها ... فَيُخْطِئَ فيما رامَهُ سَنَنَ القَصْدِ

* * *

سَرَى دَمُكَ المِهْرَاقُ فى الأَرْضِ فاكْتَسَتْ ... أَفانِينَ رَوْضٍ مِثْلَ حاشِيَةِ البُرْدِ
فَصادٌ أَطابَ الدَّهْرَ فَالقَطْرُ فِي الثَّرَى ... كَمَا طابَ مَاءُ الوَرْدِ فى العَنْبَرِ الوَرْدِ
لَقَدْ أَوْفَتِ الدُّنْيَا بِعَهْدِكَ نُصْرَةً ... كَأَنَّكَ قَدْ عَلَّمْتَهَا كَرَمَ العَهْدِ(١)
لَدَى زَمَنٍ غَضٍّ أَنِيقٍ فَرِنْدُهُ(٢) ... كَمِثْلِ فِرِنْدِ الوَرْدِ فى خَجَلَةِ الخَدِّ
تَسَوَّغُ مِنْهُ العَيْشَ فى ظِلِّ دَوْلَةٍ ... مُقابَلَةُ الأَرْجاءِ بِالكَوْكَبِ السَّعْدِ

* * *

فَهُبَّ إِلى اللَّذّاتِ مُؤْثِرَ راحَةٍ ... تُجِمُّ بِها(٣) النَّفْسَ النَّفِيسَةَ لِلْكَدِّ(٤)
وَوَالِ بِها فى لُؤْلُؤٍ مِنْ جَنابِها(٥) ... كَجِيدِ الفَتاةِ الرُّودِ فى لُؤْلُؤِ العِقْدِ
وَإِنْ تَدْعُنا لِلْأُنْسِ ـ عَنْ أَرْيَحِيَّةٍ ـ ... فَقَدْ يَأْنَسُ المَوْلَى إِذَا ارْتَاحَ بِالعَبْدِ

---

(١) يقال وفى بالعهد أوفى بالعهد وكلاهما بمعنى واحد قال تعالى « وأوفوا بعهد الله » ومعنى البيت لقد عاهدتك الدنيا على النصرة ووفت بالعهد ولم تنقضه فكأنك قد علمتها الوفاء وكرم العهد .

(٢) أنيق الوشى . (٣) ترتاح بها .

(٤) تجم : يقال جمت وأجمها هو أى تركها تستجمع ما فقدته ، والمعنى : انشط إلى اللذات مفصلا الراحة قليلا ، واترك نفسك تستجمع ما فقدته من قوتها المستأنف الكد والعمل لمهام الدولة .

(٥) الجناب : الناحية وما قرب من محلة القوم .

فى مدح ابن جهور

مَا طولُ عَذْلِكِ لِلْمُحِبِّ بِنَافِعِ ... ذَهَبَ الْفُؤَادُ فَلَيْسَ فِيهِ بِرَاجِعِ (١)

فُنِّدْتِ حِينَ طَمِعْتِ فِى سُلْوَانِهِ ... هَيْهَاتَ لاَ ظَفَرٌ هُنَاكَ لِطَامِعِ (٢)

فَدَعِيهِ حَيْثُ يَطُولُ مَيْدَانُ الصِّبَا ... كَيْمَا يَجُرَّ بِهِ عِنَانَ الْخَالِعِ (٣)

مَا ذَا يَرِيبُكِ مِنْ فَتًى عَزَّ الْهَوَى ... فَعَنَا لِنَخْوَتِهِ بِذِلَّةِ خَاضِعِ (٤)

هَلْ غَيْرَ أَنْ مَحِضَ الْوَفَاءِ لِغَادِرٍ ... أَوْ غَيْرَ أَنْ صَدَقَ الْوِصَالَ لِقَاطِعِ (٥)

لَمْ يَهْوَ مَنْ لَمْ يُمْسِ قُرَّةَ عَيْنِهِ ... سَهَرُ الصَّبَابَةِ فِى خَلِيٍّ هَاجِعِ (٦)

وَاهًا لِأَيَّامٍ خَلَتْ مَا عَنْـــدُهَا ... ـ فِى حِينِ ضَيَّعْتِ الْعُهُودَ ـ بِضَائِعِ (٧)

زَمَنٌ كَمَا رَاقَ السَّقِيطُ مِنَ النَّدَى ... يَسْتَنُّ فِى صَفَحَاتِ وَرْدٍ يَانِعِ (٨)

أَيَّامَ إِنْ عَتَبَ الْحَبِيبُ ـ لِهَفْوَةٍ ـ ... شَفَعَ الشَّبَابُ فَـكَانَ أَكْرَمَ شَافِعِ (٩)

---

(١) العذل : اللوم ، والمعنى : لاتعذليه فليس العذل نافع لمحا ذهب فؤاده مع من يهواه فليس يرجعه كثرة اللوم والتعنيف . (٢) فندت : أى نسبت إلى الكذب وضعف الرأى حين تطمعين فى سلو محب يبعد كل البعد أن يظفر طامع فى سلوانه بطائل .

(٣) الخالع : من خلع الفرس عذاره ألقاه عن نفسه فعدا بشر ، وهو مثل يضرب لمن أطلق من قيده ، يقول : اتركيه وشأنه فى الهوى حيث يتسع له مجال الصبا ، ومراح الشباب ، كى يطلق لنفسه العنان فى اللهو والمراح . (٤) ماذا يريبك : ماذا تكرهينه ويسوءك من فتى ، أو أى شىء يحملك منه فى ريبه وشك ، وعنا : خضع وأطاع ، والنخوة : العظمة والكبر ، وهذا البيت يذكرنا بقول الشريف الرضى:

« لو حيث يستمع السرار وقفتما لعجتما من عزه وخضوعي »

(٥) معناه : هل يعرف غير محض الوفاء لمن غدر ، وحسن الصلة لمن هجر .

(٦) لم يذق طعم الهوى من لم يكن سهر الصبابة فى خلى نائم حبيبا إلى نفسه ، وقرة لعينه .

(٧) واها : كلمة يتعجب بها من طيب الشىء وحسنه ، والمعنى : ما عهد تلك الأيام التى تروق بهجتها بصائع عندى فى حين ضيعت أنت كل العهود .

(٨) راق : أعجب ، والسقيط : ماسقط من الندى على الزهر ، ويستن : ينصب كالدمع فى صفحة الورد

(٩) قريب من هذا المعنى قوله فى مطلع بائيته :

أما علمت أن الشفيع شباب ... فيقصر عن لوم المحب عتاب

علام الصبا غض يرف رواؤه ... إذا عن من وصل الحسان ذهاب

انظر « ص ٤٠ »

مَالِي وَلِلدُّنْيَا غُرِرْتُ مِنَ الْمُنَى ... فِيهَا بِبَارِقَةِ السَّرَابِ الْخَادِعِ
مَا إِنْ أَزَالُ أَرُومُ شُهْدَةَ عَاسِلٍ ... أَعْمَى مُجَاجَتَهَا بِإِبْرَةِ لَاسِعِ (١)

* * *

مَنْ مُبْلِغٌ عَنِّي الْبِلَادَ إِذَا نَبَتْ ... أَنْ لَسْتُ لِلنَّفْسِ الْأَلُوفِ بِبَاخِعِ (٢)
أَمَّا الْهَوَانُ فَصُنْتُ عَنْهُ صَفْحَةً ... أَغْشَى بِهَا حَدَّ الزَّمَانِ الشَّارِعِ (٣)
فَلْيُرْغِمِ الْحَظَّ الْمُوَلِّي أَنَّهُ ... وَلَّى فَلَمْ أُتْبِعْهُ خُطْوَةَ (٤) تَابِعِ
إِنَّ الْغِنَى لَهُوَ الْقَنَاعَةُ لَا الَّذِي ... يَشْتَفُّ نُطْفَةَ مَاءِ وَجْهِ الْقَانِعِ (٥)

* * *

اللهُ جَارُ « الْجَهْوَرِيِّ » فَطَالَمَا ... مُنِيَتْ (٦) صَفَاةُ (٧) الدَّهْرِ مِنْهُ بِقَارِعِ

---

(١) شهدة : بالضم والفتح واحدة الشهد وهو العسل مادام لم يعصر من شمعه ، والعاسل : الذى يشتار العسل أى يأخذه من الخلية ، والمجاجة : ما يمجه النحل من العسل ، وبين « عاسل » و « لاسع » جناس القلب ، والمعنى : مازلت أطلب من الدنيا أملا يحكى مجاجة عاسل حتمها إبرة لاسع .

(٢) نبت : لم يوافقه المقام بها قال : « وإذا نابك منزل فتحول » ، وباخع : مزهق نفسى وقاتلها غما والمعنى : من يبلغ عنى سا كى تلك البلاد التي نزحت عنها مع سدّة تعلق بها أنى لست بقاتل نفسى أسفا وغما على مفارقتها إذا نبت بى ولم توافقنى الاقامة فيها ، وفى معنى التحول عن منزل الصيم بقول الشاعر :

إذا أنكرتنى بلدة أو نكرتها ... خرجت مع الباقى على سواد

أى على بقية من سواد الليل .

(٣) الشارع : من شرع نحوه حد السيف أو الرمح وأشرعه سدده له وهو نظير قول الآخر :

نعرض للطعان إذا التقينا ... وحوها لا تعرض للسباب

(٤) بالضم مابين القدمين وتجمع على خطا وخطوات .

(٥) النطفة الماء : القليل ، ويشتفها : يشربها عن آخرها ، يقال اشتف فى شربه إذا أتى على آخر ما فى الاناء فلم يبق ، والمراد هنا انه يريقها كلها عند السؤال ، والقانع : السائل ، وفى الكتاب العزيز « وأطعموا القانع والمعتر » وهو من قنع — بالفتح — قنوعا إذا سأل ، لامن قنع — بالكسر — قناعة إذا رضى ولم يرق ماء وجهه بذل السؤال ، يقول أن الغنى عن النفس بالقناعة لا غنى المال الذى يستنزف فيه السائل ماء وجهه ، ويشتف آخر قطرة من حيائه .

(٦) ابتليت .

(٧) الحجر العريض الأملس ويجمع على صفا .

مَلِكٌ دَرَى أنَّ المَسَاعِيَ سُمْعَةٌ ... فَسَعَى فَطَابَ حَدِيثُهُ لِلسَّامِعِ

شِيَمٌ هِيَ الزَّهْرُ الْجَنِيُّ تَبَسَّمَتْ ... عَنْهُ الْكَمَائِمُ فِي الضَّحَاءِ(١) الْمَائِعِ(٢)

أَغْرَى مُنَافِسَهُ لِيُدْرِكَ شَأْوَهُ ... فَشَآهُ بِالْبَاعِ الطَّوِيلِ الْوَاسِعِ(٣)

ثَبَتُ السَّكِينَةِ فِي النَّدِيِّ كَأَنَّمَا ... تِلْكَ الْحُبَا لِيثَتْ بِهَضْبِ مَتَالِعِ(٤)

عَذْبُ الْجَنَى لِلْأَوْلِيَاءِ فَإِنْ يَهِجْ ... فَالسَّمُّ يَأْبَى أَنْ يَسُوغَ لِجَارِعِ

يَأَيُّهَا الْمَلِكُ الَّذِي حَاطَ الْهُدَى ... لَوْلَاكَ كَانَ حِمًى قَلِيلَ الْمَانِعِ

أَنِسَ الْأَنَامُ إِلَيْكَ فِيهِ، فَهُمْ بِهِ ... مِنْ قَائِمٍ أَوْ سَاجِدٍ أَوْ رَاكِعِ

مُتَبَوِّئُونَ جَنَابَ عَيْشٍ مُونِقٍ ... مُتَفَيِّئُونَ ظِلَالَ أَمْنٍ شَائِعِ

فَلْتَضْرِبَنْ مَعَهُمْ بِأَوْفَرِ شِرْكَةٍ ... فِي أَجْرِهِمْ مِنْ مُوتِرٍ أَوْ شَافِعِ

خَيْرُ الشُّهُورِ اخْتَرْتَ عِنْدَ طُلُوعِهِ ... خَيْرَ الْبِقَاعِ لَهُ بِأَسْعَدِ طَالِعِ(٥)

---

(١) النهار حين انتصافه بقليل وزمنه بعد زمن الضحى .

(٢) المرتفع .

(٣) الشأو : الطلق والشوط والغاية ، وشآه : سبقه .

(٤) الندى : المجلس ، والحبا : بالضم والكسر جمع حبوه وهى أن يجمع الجالس ساقيه إلى بطنه بيديه أو يجمع ظهره وساقيه بثوب ، والاحتباء من عادة العرب وهو يمنع الجالس من السقوط ويعنيه عن الجدار الذي يسند إليه ظهره ، ولبثت : لفت وطويت حوله كما تطوى العمامه ، والمعنى : أنه وقور فى مجلسه رابط الجأش كأنما شدّت تلك الحبا منه على طود من الصخر تنحدر عنه مسايل الماء .

(٥) يقول إن شهر الصيام وهو خير الشهور قد اخترت له خير البقاع عند طلوعه بأسعد طالع .

شكر

« وقال أيضا وقد أباح له المعتضد التنزه مع حرمه فى إحدى جناته . »

غمرتنى لكَ الأيادى (١) البيضُ ... نَشَبٌ (٢) وافرٌ وجاهٌ عريضُ

كلَّ يومٍ يجدُّ منكَ اهتبالٌ (٣) ... عهدُ شكرى عليه غضٌّ غريضُ (٤)

بوّأتنى (٥) نُعماكَ جنّةَ عدنٍ ... جالَ فى وصفها فضلُّ القريضُ

مُجتنى مُدنٍ ، وظلُّ برودٌ ، ... ونسيمٌ يشفى النفوسَ مريضُ (٦)

ومياهٌ قد أخجلَ الوردَ أن عا ... رضَ تذهيبهُ لها تفضيضُ

كلما غنّت الحمائمُ قلنا : ... «معبدٌ إذ شدا أجابَ الغريضُ (٧)»

---

(١) النعم . (٢) النشب : المال والعقار . (٣) غنم .

(٤) الغريض : ماء المطر ، وكل أبيض طرىٌّ ، والمعنى : إنى أظفر منك كل يوم بنعم جديد أقابله منك بشكر جديد . (٥) أحلتنى أو أنزلتنى أو أسكنتنى .

(٦) يصف الجنة التى أحله فيها ممدوحه بأن قطوفها دانية وظلها ظليل ونسيمها عليل يشفى النفوس .

* * *

(٧) معبد والغريض

علمان من أعلام الموسيقى العربية وقد كانا متعاصرين ، وقد ذاع صيتهما حتى أصبحا مضرب الأمثال فى إجادة الغناء والافتتان فيه ، وقد كان معبد يقدر نبوغ الغريض ويشيد به ، كما تدل على ذلك قصة تعارفهما التى تترك لمعبد روايتها بأسلوبه الممتع ، قال :

« خرجت إلى مكة فى طلب لقاء العرب ، وقد بلغنى حسن غنائه فى لحنه :

وما أنس ملأ شياء لا أنس شادنا ... بمكة مكحولا أسيلا مدامعه

وقد كان بلغنى أنه أول لحن صنعه ، وأن الحىّ نهته أن يغنيه لأنه فتن طائفة منهم فانتقلوا عن مكة من أجل حسنه

وفى هذا التمهيد مايدل على تصورهم واعتقادهم فى ذلك العصر ، فقد سحرتهم ألحان الغريض فنسبوا إليها المعجزات وأنشأوا حولها الأساطير .

. . . . . .

قال معبد :

فلما قدمت مكة سألت عنه فدلت على منزله فأتيته ، فقرعت الباب ، فما كلمنى أحد ، وسألت بعض الجيران فقلت : هل فى الدار أحد ؟ فقال لى : نعم فيها الغريض ، فقلت : إنى قد أكثرت دقّ الباب فما أجابنى أحد قالوا : إنّ الغريض هناك ، فرجعت فدققت الباب ، فلم يجبنى أحد ، فقلت : إن نعمى غنائى يوما نقمى اليوم فاندفعت وغنيت لحنى فى شعر جميل ، فوالله ما سمعت حركة الباب ، فقلت : بطل سحرى ، وضاع شعرى وحثثت أطلب ما هو عسير علىّ واحتقرت نفسى ، وقلت : لم يتوهمنى لضعف غنائى عنده ، فما شعرت إلا بصائح يصيح يا معبد المعى ، افهم وتلق عنى ، شعر جميل الذى تبغى فيه ياشقّ البخت ، وغنى :

« وما أنس مل اشياء لا أس قولها . . . . »

(قال) فلقد سمعت شيئا لم اسمع احسن منه وقصر إلىّ نفسى وعلمت فضيلته علىّ بما احسّ من نفسه ، وقلت : انه لحرىّ بالاستتار من الناس تنزيها لنفسه وتعظيما لقدره وان مثله لا يستحق الابتذال ، ولا ان تتداوله الرجال ، فاردت الانصراف إلى المدينة راجعا ، فلما كنت غير بعيد إذا بصائح يصيح بى :

يا معبد انظر أكلك فرجعت ، فقال : إن الغريض يدعوك ، فأسرعت فرحاً فدنوت من الباب . فقال لى : أتحب الدخول ، فقلت: وهل إلى ذلك من سبيل ، فقرع الباب ففتح ، فقال لى: ادخل ولاتطل الجلوس فدخلت فاذا شمس طالعة فى بيت ، فسلمت فردّ السلام ثم قال : اجلس فجلست ، فاذا أنبل الناس وأحسنهم وجهاً وخلقا وخلقاً ، فقال : يامعبد كيف طرأت إلى مكة ، فقلت : جعلت فداءك وكيف عرفتنى ؟ فقال : بصوتك فقلت : وكيف وأنت لم تسمعه قط ؟ قال : لما غنيت عرفتك به وقلت : إن كان معبد فى الدنيا فهذا ، فقلت : جعلت فداك فكيف أجبتنى بقولك : «وما أنس مل أشياء لا أنس قولها » ، فقال :

قد علمت أنك تريد أن أسمعك صوتى :

« وما أنس مل أشياء لاأنس شادنا بمكة مكحولا أسيلا مدامعه »

ولم يكن إلى ذلك سبيل لأنه صوت قد نهيت أن أغنيه فغنيتك هذا الصوت جواباً لما سألت وغنيت ، فقلت : والله ما عدوت ما أردت فهل لك حاجة ، فقال لى :يا أبا عباد لولا ملامة الحديث وثقل إطالة الجلوس لا ستكثرت منك فاعذر ، فخرجت من عنده وإنه لأجلّ الناس عندى ورجعت إلى المدينة ، فتحدّثت بحديثه وعجبت من فطنته وقيافته ، فما رأيت انساناً إلا وهو أجلّ منه فى عينى.

* * *

ومما نختاره من أخبار معبد الطريفة ما حدث له فى السفينة ، فقد رووا عنه أنه كان قد علم الغناء جارية من جوارى الحجاز تدعى ظبيه وعنى بتخريجها ، فاشتراها رجل من أهل العراق فأخرجها إلى البصرة وباعها هناك فاشتراها رجل من أهل الأهواز فأعجب بها وذهبت به كل مذهب وغلت عليه ، ثم ماتت — بعد أن أقامت عنده برهة من الزمان — وأخذ جواريه أكثر غنائها عنها ، فكان لمحبته

. . . . . .

إياها وأسفه عليها لا يزال يسأل عن أخبار معبد وأين مستقره ويظهر التعصب له والميل إليه والقديم لغنائه على سائر أغانى أهل عصره إلى أن عرف ذلك منه وبلغ معبداً خبره فخرج من مكة حتى أتى البصرة ، فلما وردها صادف الرجل وقد خرج عنها فى ذلك اليوم إلى الأهواز فاكترى سفينة ، وجاء معبد يلتمس سفينة ينحدر فيها إلى الأهواز فلم يجد غير سفينة الرجل ، وليس يعرف أحد منهما صاحبه ، فأمر الرجل الملاح أن يحلسه معه فى مؤخر السفينة ففعل وانحدروا ، فلما صاروا فى فم نهر الأبلة تغدّوا وشربوا وأمر جواريه ففنين ومعبد ساكت وهو فى ثياب السفر وعليه فروة وخفان غليظان وزى جاف من زى أهل الحجاز إلى أن غنت إحدى الجوارى :

بانت سعاد وأمسى حبلها انصرما واحتلت العور فالاجراع من إضما

(والغناء لمعبد) فلم تجد أداءه فصاح بها معبد : يا جارية إنّ غناءك هذا ليس بمستقيم (قال) فقال له مولاها — وقد غضب — أنت ما يدريك الغناء؟ ماهو إلا أن تمسك وتلزم شأنك فأمسك ، ثم غنت أصواتاً من غناء غيره وهو ساكت لا يتكلم حتى غنت « يابنة الأزدى قلبي كئيب . . . » (والغناء لمعبد) فأخذت ببعضه ، فقال لها معبد : ياجارية لقد أخللت بهذا الصوت إخلالا شديداً . فغضب الرجل وقال له : ويلك ما أنت والغناء ، ألا تكفّ عن هذا الفضول . فأمسك ، وغنى الجوارى مليا ثم غنت إحداهنّ :

خليلىّ عوجا منكما ساعة معى على الربع نقضى حاجة ونودّع

(والغناء لمعبد) فلم تصنع فيه شيئاً ، فقال لها معبد : يا هذه أما تقوين على أداء صوت واحد ؟ فغضب الرجل وقال له : ما أراك تدع هذا الفضول بوجه ولا حيلة ، وأقسم بالله لئن عاودت لأخرجنك من السفينة فأمسك معبد حتى إذا سكتت الجوارى سكتة اندفع يغنى الصوت الأوّل حتى فرغ منه ، فصاح الجوارى : أحسنت يا رجل فأعده ، فقال : لا والله ولا كرامة ، ثم اندفع يغنى الثانى ، فقلن لسيدهنّ : ويحك هذا والله أحسن الناس غناء فسله أن يعيده علينا ولو مرة واحدة لعلنا نأخذه عنه فانه إن فاتنا لم نجد مثله أبداً فقال : قد سمعتن سوء ردّه عليكنّ وأنا خائف مثله منه وقد أسلفناه الاساءة فاصبرن حتى نداريه ، ثم غنى الثالث فزلزل عليهم الأرض ، فوثب الرجل فخرج إليه وقبل رأسه ، وقال : ياسيدى اخطأنا عليك ولم نعرف موضعك ، فقال له : فهبك لم تعرف موضعى قد كان ينبغى لك أن تثبت ولا تسرع إلىّ بسوء العشرة وجفاء القول . فقال له : قد أخطأت وأنا أعتذر إليك مما جرى وأسألك أن تنزل إلىّ وتختلط بى ، فقال : أما الآن فلا . فلم يزل يرفق به حتى نزل إليه ، فقال له الرجل : ممن أخذت هذا الغناء . قال : من بعض أهل الحجاز ، فمن أين أخذه جواريك ، فقال : أخذته عن جارية كانت لى ابتاعها رجل من أهل البصرة من مكة ، وكان قد أخذت عن أبى عباد معبد وعنى بتخريجها فكان تحلّ منى محل الروح من الجسد ، ثم استأثر الله عزّ وجلّ بها وبقى هؤلاء الجوارى وهنّ من تعليمها فأنا إلى الآن اتعصب لمعبد وأفضله على المغنين جميعا وأفضل صنعته على كلّ صنعة . فقال له معبد : أو إنك لأنت هو افتعرفنى ؟ قال : لا (قال) فمسك معبد بيده صلعته ، ثم قال : فأنا والله معبد وإليك قدمت من الحجاز ووافيت البصرة ساعة نزل السفينة لأقصدك بالأهواز ووالله لاقصرت فى جواريك هؤلاء ولأجعلنّ لك فى كل واحدة منهنّ خلفا من الماضية ، فأكب

. . . . . .

الرجل والجوارى على يديه ورجليه يقبلونها ويقولون : كتمتنا نفسك طول هـذا حتى جفوناك فى المخاطبة وأسأنا عشرتك وأنت سيدنا ومن نتمنى على الله أن نلقاه . ثم غير الرجل زيه وحاله وخلع عليه عدّة خلع وأعطاه فى وقته ثلثمائة دينار وطيبا وهدايا بمثلها وانحدر معه إلى الأهواز فأقام عنده حتى رضى حذق جواريه وما أخذنه ، ثم ودعه وانصرف إلى الحجاز .

* * *

وقد روى أبو الفرج قصة قدوم معبد إلى مكة وسماعه من المغنين وغنائه لهم فقال :

قال معبد : غنيت غنائى وأعجبى الناس وذهب لى به صيت وذكر ، فقلت : لآتينّ مكة فلأسمعنّ من المغنين بها ولأعلمنهم ولأتعرفنّ إليهم ، فابتعت حمارا فخرجت عليه إلى مكة ، فلما قدمتها بعت حمارى وسألت عن المغنين أين يجتمعون ، فقيل : بقعيقعان فى بيت فلان فجئت إلى منزله بالعشى فقرعت الباب ، فقال من هذا ، فقلت : انظر عافاك الله ، فدنا وهو يسبح ويستعيذ — كأنه يخاف — ففتح ، فقال : من أنت عافاك الله ؟ قلت : رجل من أهل المدينة . قال : فما حاجتك ؟ قلت : أنا رجل أشتهى الغناء وأرعم أنى أعرف منه شيئا وقد بلغنى أن القوم يجتمعون عندك وقد أحببت أن تنزلنى فى جانب منزلك وتخلطنى بهم فانه لا مؤونة عليك ولا عليهم منى ، فلوى شيئاً ثم قال : انزل على بركة الله (قال) فنقلت متاعى ونزلت فى جانب حجرته ثم جاء القوم حين أصبحوا واحداً بعد واحد حتى اجتمعوا فأنكرونى وقالوا : من هذا الرجل . قال : رجل من أهل المدينة جاء يشتهى الغناء ويطرب عليه ليس عليكم منه غناء ولا مكروه . فرحبوا بى وكلمتهم ثم انبسطوا وشربوا وغنوا ، فجعلت أنحت بمنائهم وأظهر ذلك لهم ويعجبهم منى حتى أقمت أياماً وأخذت من غنائهم وهم لا يدرون أصواتاً وأصواتاً وأصواتاً ، ثم قلت لابن سريج : مدينتك امسك علىّ صوتك :

قل لهـند وتربها قبل شحط النوى غدا

قال : أو تحسن شيئا ، قلت : تنظر وعسى أن أصنع شيئا . واندفعت فيه ومنيته فصاح وصاحوا وقالوا : أحسنت قاتلك الله . قلت : فأمسك على صوت كذا فامسكوه علىّ ومنيته فازدادوا عجباً وصياحا . فما تركت أحداً منهم إلا غمدته من غنائه أصواتاً قد تخيرتها (قال) فصاحوا حتى علت أصواتهم وهرفوا بى ، وقالوا : لأنت أحسن بأداء غنائنا عنا منا ، قلت : فامسكوا علىّ ولا تصحكوا بى حتى تسمعوا من غنائى ، فامسكوا على فعبت صوتا من غنائى فصاحوا بى ثم غنيتهم آخر وآخر فوثبوا إلىّ وقالوا : نحلف بالله إنّ لك لصيتا واسما وذكراً وان لك فيما هاهنا لسهماً عظيما فمن أنت ؟ قلت أنا معبد فقبلوا رأسى وقالوا : نعمت علينا وكنا نتهاون بك ولا نعدّك شيئا وأنت أنت . فأقمت عندهم شهرا آخذ منهم ويأخذون منى ثم انصرفت إلى المدينة .

* * *

ومن الطرف النادرة ما حدث لمعبد والأسود .

قال معبد : بعث إلىّ بعض أمراء الحجاز وقد كان جمع له الحرمان إن اشخص إلى مكة فشخصت ، قال : فتقدمت غلامى فى بعض تلك الأيام واشتدّ على الحر والعطش فانتهيت إلى خباء فيه أسودٌ ، وإذا حباب

جَاوَرَتْ حَمَّةً (١) مُشَيِّدَةَ الْمَبْنَى لِبَرْقِ الرَّخَامِ فِيهِ وَمِيضُ
مَرْمَرٌ أَوْقَدَ الْفِرِنْدَ (٢) عَلَيْهِ سَلْسَلٌ بَحْرُهُ الزُّلَالُ يَفِيضُ
وَسْطَهَا دُمْيَةٌ يَرُوقُ اجْتِلَاءُ الْكُلِّ مِنْهَا وَيَفْتِنُ التَّبْعِيضُ (٣)

ماء قد بردت قلت إليه فعلت : يا هذا اسقنى من هذا الماء ، فقال لا ، فقلت : فأذن لى فى الكنّ ساعة قال : لا ، فأنحت ناقتى والجأت إلى ظلها فاستترت به ، وقلت : لو احدثت لهذا الأمير شيئا من العناء أقدم به عليه ولعلى إن حرّكت لسانى ان يبل حلقى ويقى فيخفف عنى بعض ما أجده من العطش. فترنمت بصوتى : « القصر والمحل والحماء بينهما » فلما سمعنى الأسود ما سمعت به إلا وقد احتملنى حتى ادخلنى خباءه ثم قال اى نأبى أنت وأمى، هل لك فى سويق السلت بهذا الماء البارد ، فقلت : قد منعتنى أجل من ذلك وشربة ماء تجزئنى (قال) فسقانى حتى رويت وجاء الغلام فأقمت عنده إلى وقت الرواح ، فلما أردت الرحلة قال : اى نأبى أنت وأمى الحرّ شديد ولا آمن عليك مثل الذى أصابك فأذن لى أن أحمل معك قربة من ماء على عنق وأسعى بها معك فكلما عطشت سقيتك وغبيتى صوتا (قال) قلت : ذلك لك ، فوالله ما فارقنى يسقينى واعيه حتى بلغت المنزل .

وأخبار معن والعريض طويلة متفرقة فى كتاب الأغانى فليرجع إليها من شاء .

(١) الحمة — بالفتح — العين الحارة الماء يستشفى بها الأعلاء ومنه الحديث : « مثل العالم كمثل الحمة يأتيها السعداء ويتركها الفرداء ، فمنها هى كذلك إذ عار ماؤها وقد انتفع بها قوم وبقى أقوام يتمكنون أى يتدمدون» والحمة مدينة ذات ينابيع معدنية حارة واردة بالقرب من مدينة «لوشة» وقد زارها «ابن بطوطة» ودخل مسجدها ووصف مافيها من صيد البر والبحر ، والحمة — أيضا — اسم لمدائن أخرى ذات ينابيع معدنية حارة فى إقليم « غرناطة » وإقليم مرسية وغير ذلك ، وحمة غرناطه ، وتسمى مدينة الحمة عند أهل غرناطه .

(٢) الفرند : السيف ووشيه وجوهره ، وهو مايرى فيه شبه غبار أو مدب نمل ، والفرند : الورد الأحمر أيضاً .

(٣) أخذ هذا المعنى من قول ابن الرومى فى وحيد المعنية :

وغرير يحسنها قال : « صفها » قلت : « أمران، هين وشديد.
يسهل القول : إنها احسن الأشـ ـياء طرّا ويصعب التحديد »

وفى هذه القصيدة يقول :

عادة زانها — من العين — قد ومن الطبى مقلتان وجيد
ورهاها من فرعها ومن الخدّ ـن ذاك السواد والتوريد
فهى برد — بعدّها — وسلام وهى للعاشقين جهد جهيد
ما لما تصطليه — من وجنتيها — غير ترشاف ريقها تبريد
مثل ذاك الرضاب أطفأ ذاك الـ ـوجد ، لولا الاباء والتصريد

وفيها يقول :

تتحلى للناظرين إليها فشق بحسنها وسعيد
ظبيه — تسكن القلوب وترعا ها — وقرية لها تعريد

بَشَرٌ نَاصِعٌ وَخَدٌّ أَسِيلٌ وَمُحَيًّا طَلْقٌ وَطَرْفٌ غَضِيضُ
وَقَوَامٌ كَمَا اسْتَقَامَ قَضِيبُ الْـبَانِ إِذْ عَلَّهُ (١) ثَرَاهُ الْأَرِيضُ (٢)
وَابْتِسَامٌ لَوْ أَنَّهَا اسْتَغْرَبَتْ فِيـهِ أَرَاكَ أَتَّسَاقَهُ الْإِغْرِيضُ (٣)
وَالْتِفَاتٌ كَأَنَّمَا هُوَ بِالْإِيـحَاءِ ـ مِنْ فَرْطِ لُطْفِهِ ـ تَعْرِيضُ

* * *

لُمَعٌ طَلَّةٌ مِنَ الْعَيْشِ مَا إِنْ لِلْهَوَى عَنْ مَحَلِّهَا تَعْوِيضُ
سَوَّغَتْنِي نَعِيمَهَا نَفَحَاتٌ لِلْمُنَى ـ مِنْ سَحَابِهَا ـ تَرْوِيضُ
تَابَعَتْهَا يَدُ الْهُمَامِ أَبِي عَمْـرٍو فَمَا غَمْرُهَا لَدَيَّ مَغِيضُ (٤)

تعـتى كأنها لا تعـتى ـ من سكون الأوصال ـ وهى تحيد
لا تراها هناك تحفظ عـين ـ لك منها ـ ولا يدر وريد
من هدوّ وليس فيه انقطاع ، وسـجوّ وما به تبليـد
مدّ فى سأو صوتها نفس كا ف ـ كأنفاس عاشقيها ـ مديد
وأرقّ الدلال والغنج منه وراه الشجا ، فكاد يبيـد
فـتراه يموت طورا ويحيا مستلذّ بسـيطه والنشيد
فيه وشى وفيه حلى من النغـ ـم مصوغ يختال فيه القصيد
طاب فوها وما ترجع فيـه كل شىء لها بذاك شهيـد
ثغب يسقع الصـدى ، وعساء عنده يوجد السرور الفقيد
فلها ـ الدهر ـ لائم مستزيد ولها ـ الدهر ـ سامع مستعيد
فى هـوى منها يحف حليم ـ راجح حلمه ـ ويغوى رشيد
ما تعاطى القلوب إلا أصابت بهـواها منهنّ حيث تريد

إلى آخر هذه القصيدة المدة التى نختزئ منها بهذا القدر اليسير فليرجع إليها من شاء فى ديوانه ليقارن بين هذه القصيدة وقصيدة ابن زيدون .

(١) علّه : سقاه ، والأريض : الركى التربة الخليق للنبت . (٢) المعجب .

(٣) استغربت : بالغت فى الضحك ، والاغريض : الطلع وكل أبيض طرى .

(٤) اليد : النعمة ، والغمر : الماء الكثير ، ومغيض : اسم مفعول من غيض الماء فهو مغيض إذا غار ونضب ، أى تابعت تلك اللمم من رغد العيش يد مضافة إلى « أبى عمرو » لا تزال تعمرنا بمعينها الذى الذى لا يغيض مأؤه فليس معينها العزيز الماء ناضبا عندى .

مَلِكٌ ذَادَ عَنْ حِمَى ٱلدِّينِ مِنْهُ مَنْ إِلَيْهِ فِى نَصْرِهِ التَّفْوِيضُ
وَسَمَا نَاظِرٌ مِنَ الْمَجْدِ فِى دُنْـ ـيَاهُ قَدْ كَانَ كَفَّهُ التَّغْمِيضُ (١)
إِنْ أَسَاءَ الزَّمَانُ أَحْسَنَ دَأْبًا مِثْلَمَا بَايَنَ النَّقِيضَ النَّقِيضُ (٢)

* * *

يَا مُعِزَّ الْهُدَى الَّذِى مَا لِمَسْـ ـعَاهُ إِلَى غَيْرِ سَمْتِهِ تَعْرِيضُ
يَا مُحِلِّى يَفَاعَ حَالٍ ، مَكَانُ النَّـ ـجْمِ مِمَّا يُقَسُ إِلَيْهِ حَضِيضُ (٣)
إِنْ أَنَلْ أَيْسَرَ الرَّغَائِبِ فِيهِ يَرْضَ فَوْزَ الْقِدَاحِ مِنِّى مُفِيضُ (٤)
لَوْ يَفَاعُ الْمَجَرَّةِ اعْتَضْتَ مِنْهُ رَاحَ يَدْعُو ثُبُورَهُ الْمُسْتَعِيضُ
حَظُّ سِنِّ امْرِئٍ نَأَى مِنْكَ قَرْعٌ وَقُصَارَى بَنَانِهِ تَعْضِيضُ

* * *

حَسْبِىَ النُّصْحُ وَالْوِدَادُ وَشُكْرٌ عَطَّرَ الدَّهْرَ مِنْهُ مِسْكٌ فَضِيضُ
دُمْ مُوَقًّى وَلِيَّكَ ـ الدَّهْرَ ـ مَحْبُو رُ مَسَاعِيكَ ، وَالْعِدُوُّ مَهِيضُ
فَاعْتِرَافُ الْمُلُوكِ أَنَّكَ مَوْلَا هُمْ حَدِيثٌ مَا بَيْنَهُمْ مُسْتَفِيضُ

---

(١) وتطلع إليك ناظر المجد بعد أن كف ناظره كثرة التعميس . يريد أنه بعد أن ذاد عن حوزة الدين سما بنظره فى شؤون دنيا كان قد صرفه عنها كثرة التعميس والاعتراض .

(٢) وقريب من هذا قول الشاعر :

ضدان لما استجمعا حسنا والضدّ يظهر حسنه الضدّ .

(٣) اليفاع : ما ارتفع من الأرض. يقول: يامن أحللتنى حالا رفيعا ، إذا قيس إليه النجم — على رفعته — عد حضيضا . (٤) المفيض : من أفاض الرجل بقداح الميسر إذا ضرب بها فوقعت مبثة متفرقة .

شـــفاعة

قال هـذه القصيدة يمدح أبا الحزم بن جهور ويتحرم بجنابه ويطلب شفاعته ، قال ابن بسام :

« كان أبوالوليد ممن أنشأته دولة الجهاورة واصطفته اصطفاء الفرس للأساورة ، وقد اختص بأبي الوليد اختصاص الفرع بالنور وارتبطهم ارتباط الافاضة بالفور ، وأبوالحزم بن جهور — إذ ذاك — رأس الجماعة وأصل تلك الأسرة المطاعة من رجل أدهى من عمان وأجرأ من ليث خفان وأدهى من عمرو بن الحفان . وكان ابن زيدون متصلا بابنه أبي الوليد أطول حقبه اتصال أبي زبيد بالوليد بن عقبة وبينهما تآلف أحرما بكعبته وطافا وسقيا من قصافيهما نطافا وابن زيدون يعتد ذلك حساما مسلولا ويرى أنه يرد به صعب الحظوب دلولا ، إلى أن طلب عند أبيه أبي الحزم وتوسل فاستدمع به تلك الأسنة والأسل فما ثنى إليه عنان عطفه ولا كف عنه سنان صرفه مع استعطافه له بكل مقال يحل سخائم الاحقاد واستلطافه إياه بما يرد الصعب سلس القياد ، فمن بديع ذلك وأحسنه قوله :

ايه أبا الحزم اهتبل غرة ألسنة الشكر عليها فصاح»

أَمَا وَأَلْحَاظِ مِرَاضٍ صِحَاحْ تُصْبِي وَأَعْطَافٍ نَشَاوَى صَوَاحْ
لِبَانٍ بِالْحُسْنِ فِي خَدِّهِ وَرْدٌ وَأَثْنَاءٍ ثَنَايَاهُ رَاحْ
لَمْ أَنْسَ إِذْ بَاتَتْ يَدِي لَيْلَةَ وِشَاحَهُ اللَّاصِقَ دُونَ الْوِشَاحْ (١)
أَلَمَمْتُ بِالْأَلْطَفِ مِنْـــهُ وَلَمْ أَجْنَحْ إِلَى مَا فِيهِ بَعْضُ الْجُنَاحْ
لَأُصْفِيَنَّ الْمُصْطَفَى (٢) « جَهْوَرًا » عَهْدًا لِرَوْضِ الْحَزْنِ عَنْهُ انْتِضَاحْ

---

(١) قال ابن بسام : قوله : « وشاحه اللاصق دون الوشاح » معنى متداول ، ودون أغربه عصراً قول المحل من أهل وقتنا :

« إن العزيز على حقوك انه بالردف حل منك ملا يحمل
فخدى له حسمى مكان وشاحه إن العليل بشكله يتعلل »

وقريب من هذا المعنى قول العباس بن الأحنف :

« يا ليت عباس سربال على جسدى أو ليتنى كنت سربالا لعباس »

(٢) وفى رواية ابن بسام : « لأصفين المرتضى جهورا »

جَزَاءَ مَا رَفَّهَ شُرْبَ الْمُنَى ... وَأَذَّنَ السَّعْيُ بِوَشْكِ النَّجَاحْ (١)

يَسَّرْتُ آمَالِي بِتَأْمِيلِهِ ... فَمَا عَدَانِي مِنْهُ فَوْزُ الْقِدَاحْ (٢)

لَمْ أُشِمِ الْبَرْقَ جَهَامًا وَلَمْ ... أَقْتَدِحِ الصُّمَّ بِبِيضِ الصِّفَاحْ (٣)

مَنْ مِثْلُهُ ـ لاَ مِثْلَ يُلْفَى لَهُ ـ ... إِنْ فَسَدَتْ حَالٌ فَعَزَّ الصَّلاَحْ

يَا مُرْشِدِي جَهْلاً إِلَى غَيْرِهِ ... أَغْنَى عَنِ الْمِصْبَاحِ ضَوْءُ الصَّبَاحْ

رَكِينُ مَا تُثْنَى عَلَيْهِ الْحُبَا ... يَهْفُو بِهِ نَحْوَ الثَّنَاءِ ارْتِيَاحْ (٤)

ذُو بَاطِنٍ أَقْبَسَ نُورَ التُّقَى ... وَظَاهِرٍ أَشْرَبَ مَاءَ السَّمَاحْ

اُنْظُرْ تَرَ الْبَدْرَ سَنًا وَاخْتَبِرْ ... تَجِدْهُ كَالْمِسْكِ إِذَا مِيثَ فَاحْ (٥)

* * *

إِيهِ « أَبَا الْحَزْمِ » اهْتَبِلْ غِرَّةً ... أَلْسِنَةُ الشُّكْرِ عَلَيْهَا فِصَاحْ (٦)

لاَ طَارَ بِي حَظِّي إِلَى غَايَةٍ ... إِنْ لَمْ أَكُنْ مِنْكَ مَرِيشَ الْجَنَاحْ

---

(١) رفه : من ورود الابل رفهها ، وهى أن ترد الماء فى كل يوم مى شاءت .

(٢) يسرت يجوز أن يكون بالتشديد بمعنى سهلت وبالتخفيف من يسر ييسر إذا ضرب بقداح الميسر — والمعنى على الثانى ضربت بقداح آمالى ياسراً فلم يعدنى أن فزت بأوفر القداح حظوظا ، وفى روايه ابن بسام : « يسرت آمالى بتأميله »

(٣) أى لم انظر البرق ليس فيه مطر ، ولم اقتدح صلدا لم يور ناراً .

(٤) ركين من الركانه أى الرزانة — والمعنى : أنه وقور الحلوة رزينها يهفو به ويحركه نحو المدح أريحية فيهتز بعد سكون فى مجلسه ووقار .

(٥) مات الشىء يميثه إذا مرسه بيده فى الماء فداب من مسك ونحوه — يقول انظر تره كالبدر سنا وبهاء وأختبره تجده كالمسك فاح شذاه وقد ميث أى مرس باليد ، والمسك — إذا سحق — فاح شذاه ، وقد قال المعرى فى هذا المعنى وأجاد ما شاء أن يجيد .

« على البلى سيعيد المرء فائدة ... فالمسك يزداد من طيب إذا سحقا »

(٦) اهبل : اغتنم يقال اهتبلت غفلته — والغرة : بالكسر الغفلة ، وفى المثل « الغرة تجلب الدره » أى الغفلة تجلب الرزق — والمعنى : أسكتر أبا الحزم فى غفلة أعدائك من المعانم والأموال تنطلق الألسنه معصحة بشكرك ، وفى رواية ابن بسام : « ألسنة الدهر عليها فصاح »

عُتْبَاكَ ـ بَعْـدَ الْعَتْبِ ـ أُمْنِيَّةٌ ... مَا لِي عَلَى الدَّهْرِ سِوَاهَا اقْتِرَاحْ[1]

لَمْ يَثْنِنِي عَنْ أَمَلِ مَا جَرَى ... قَدْ يُرْفَعُ الْخَرْقُ وَتُؤْسَى الْجِرَاحْ

فَاشْحَذْ بِحُسْنِ الرَّأْيِ ـ عَزْمِي يُرَعْ ... مِنِّي الْعِدَا، أَلَيْسَ شَاكِي السِّلَاحْ؟[2]

وَاشْفَعْ فَلِلشَّافِعِ نُعْمَى بِمَا ... سَنَّاهُ مِنْ عَقْدٍ وَثِيقِ النَّوَاحْ[3]

إِنَّ سَحَابَ الْأُفْقِ مِنْهَا الْحَيَا ... وَالْحَمْدُ فِي تَأْلِيفِهَا لِلرِّيَاحْ[4]

وَقَاكَ مَا تَخْشَى مِنَ الدَّهْرِ مَنْ ... تَعِبْتَ فِي تَأْمِينِهِ وَاسْتَرَاحْ

هـــدية تفاح

« وقال فى تفاح أهداه إلى المعضد بالله أبى عمرو عباد بن محمد بن عباد »

يَا مَنْ تَزَيَّنَتِ الرِّيَا ... سَةُ حِينَ أَلْبَسَ ثَوْبَهَا

وَلَهُ يَدٌ يُنْسِ الْغَمَا ... مُ مِنَ انْ يُعَارِضَ صَوْبَهَا[5]

جَاءَتْكَ جَامِدَةُ الْمُدَا ... مِ فَخُذْ عَلَيْهَا ذَوْبَهَا[6]

---

(١) العتبى : الرجوع إلى ما يرضى العاتب أى رجوعك بعد العتاب إلى مايرضيني أمسه لا اقترح على الدهر سواها . (٢) قوّ بحسن الرأى عزمى يحم منى العدا ، أليس عزمى شاكي السلاح ؟

(٣) سناه : سهله ويسره ـ من عقد : أى من حل عقد ـ وثيق النواح : أى عسر الحل من أى نواحيه أتيته ، وقرأت شاهدا على هذا فى أمالى أبى القاسم الزجاجى ، إن معاوية بن أبى سفيان صرف روح ابن زنباع عن عمله لخيانة بلغته عنه ، وأمره بالندوم عليه ففعل ، فأمر ضربه فلما أخذته السياط قال : « نشدتك الله يا أمير المؤمنين أن تهدم منى ركنا أنت بنيته ، أو تضع منى حسبة أنت رفعتها » الخ ما قال ، فقال معاوية . « إذا الله سنى حل عقد تيسر ، فليأته » ـ ومعنى البيت أنه يطلب شفاعته ، ويبين أن للشافع على المشفوع له يد ونعمة بسبب ما سهله ويسره من حل عقد تيسر بعد أن تعقدت أواخيه وتوثقت نواحيه . (٤) الحيا : المطر ـ يريد أن الحمد للشافع لا للذى قبل منه الشفاعة ، كما أن الحمد ليس للسحب التى منها المطر بل للرياح التى تزجيها ثم تؤلف بينها فتمطر ، وقد كرر هذا المعنى فى بعض قصائده فقال :

للشفيع الثناء ـ والحمد فى صو ... ب الحيا للرياح لا للغيوم

انظر (ص) من هذا الديوان . وقد سبقه البحترى إلى هذا المعنى فقال وأبدع :

« حار حمدي ، وللرياح ـ اللواتى تجلب الغيث ـ مثل حمد الغيوم »

(٥) نزول المطر . (٦) جعل المدام وهي الخمر نوعين جامدة وهى التفاح ودائبة وهى الراح وطلب إلى الممدوح أن يشرب عليها ذوبها وهى الراح الحقيقية .

لا يهنأ الشامت

« قال يمدح أبا الحزم بن جهور وقد كتبها إليه من السجن . »

مَا جَالَ بَعْدَكِ لَحْظِي فِي سَنَا الْقَمَرِ ... إِلَّا ذَكَرْتُكِ ذِكْرَ الْعَيْنِ بِالْأَثَرِ (١)

وَلَا اسْتَطَلْتُ ذَمَاءَ اللَّيْلِ مِنْ أَسَفٍ ... إِلَّا عَلَى لَيْلَةٍ سَرَّتْ مَعَ الْقِصَرِ (٢)

نَاهِيكِ مِنْ سَهَرٍ بَرْحٍ تَأَلَّفَهُ ... شَوْقٌ إِلَى مَا انْقَضَى مِنْ ذَلِكَ السَّمَرِ

فَلَيْتَ ذَاكَ السَّوَادَ الْجَوْنَ مُتَّصِلٌ ... لَوِ اسْتَعَارَ سَوَادَ الْقَلْبِ وَالْبَصَرِ (٣)

* * *

أَمَّا الضَّنَى فَجَنَتْهُ لَحْظَةٌ عَنَنٌ ... كَأَنَّهَا وَالرَّدَى جَاءَا عَلَى قَدَرِ (٤)

فَهِمْتُ مَعْنَى الْهَوَى مِنْ وَحْيِ طَرْفِكِ لِي ... إِنَّ الْحِوَارَ لَمَفْهُومٌ مِنَ الْحَوَرِ

وَالصَّدْرُ مُذْ وَرَدَتْ رِفْهًا نَوَاحِيَهُ ... تُومُ الْقَلَائِدِ لَمْ تَجْنَحْ إِلَى صَدَرِ (٥)

---

(١) أى لم أحل بلحظى فى نور القمر بعد غيبتك عنى إلا ذكرتك كما يذكر الرائى عين الشىء وذاته بما يراه من آثاره .

(٢) الذماء : بالفتح البقية الباقية من الليل — أى ما تميت أن يطول ما بقى من عمر الليل إلا أسفا على ليلة اشتملت على ما يسر مع قصرها والشعراء كثيرا ما يتمنون ليل الوصال بالقصر ، ومن أبدع ماقرأناه فى ذلك قول الشريف الرضى :

« أشكو الليالى غير معتبة ... إما من الطول أو من القصر
تطول فى هجرهم وتقصر فى الوصل ، فلا تلتقى على القدر
يا ليلة كاد من تقاصرها ... تعثر فيها العشاء بالسحر »

(٣) يتمنى أن يحل ظلام الليل بما يستعيره من سواد القلب والبصر ، ولو للعمى أى وابتة استعار ، ولا خفاء أن سوداء القلب وسواد العين من أنفس الأشياء وأعزها ، ولكنه يبذلهما عاريه فى سبيل استدامة الليل وطوله ، وجاء لابن بسام فى الذخيرة فى نقد هذا البيت . قوله : « لو استعار سواد القلب والبصر » لفظ المعرى حيث يقول :

يود أن ظلام الليل دام له ... وزيد فيه سواد القلب والبصر

(٤) العنن : بفتحتين من عنّ الشىء إذا ظهر أمامك واعترض .

(٥) رفها : هو أن ترد الابل الماء كل يوم — توم القلائد : جمع توءمه بالضم وهى اللؤلؤة ، استعار ورود الابل رفها لملازمة الحلى صدرها من غير أن تجنح بعد الورد إلى الصدر .

حُسْنٌ أَفَانِينُ لَمْ تَسْتَوْفِ أَعْيُنُنَا غَايَاتِهِ بِأَفَانِينٍ مِنَ النَّظَرِ
وَاهاً لِثَغْرِكِ ثَغْراً بَاتَ يَكْلَؤُهُ غَيْرَانُ تَسْرِي عَوَالِيهِ إِلَى الثُّغَرِ (١)
يَقْظَانُ لَمْ يَكْتَحِلْ غَمْضاً مُرَاقَبَةً لِرَابِطِ الْجَأْشِ مِقْدَامٍ عَلَى الْغِرَرِ (٢)
لاَ لَهْوُ أَيَّامِهِ الْخَالِي بِمُرْتَجَعٍ وَلاَ نَعِيمُ لَيَالِيهِ بِمُنْتَظَرِ
إِذْ لاَ التَّحِيَّةُ إِيمَاءٌ مُخَالَسَةً وَلاَ الزِّيَارَةُ إِلْمَامٌ عَلَى خَطَرِ
مُنًى كَأَنْ لَمْ يَكُنْ إِلاَّ تَذَكُّرُهَا إِنَّ الْغَرَامَ لَمُعْتَادٌ مَعَ الذِّكَرِ

* * *

مَنْ يَسْأَلِ النَّاسَ عَنْ حَالِي فَشَاهِدُهَا مَحْضُ الْعِيَانِ الَّذِي يُغْنِي عَنِ الْخَبَرِ
لَمْ تَطْوِ بُرْدَ شَبَابِي كِبْرَةٌ وَأَرَى بَرْقَ الْمَشِيبِ اعْتَلَى فِي عَارِضِ الشَّعَرِ (٣)
قَبْلَ الثَّلاَثِينَ إِذْ عَهْدُ الصِّبَا كَثَبٌ وَلِلشَّبِيبَةِ غُصْنٌ غَيْرُ مُهْتَصَرِ

---

(١) يكلؤه : يحفظه ويغار عليه — وغيران : وصف من الغيرة — والعوالى صدور الرماح — الثغر : جمع ثغره بالضم وهى الطرق والمنافذ المسلوكة أو أراد بها جمع الثغرة وهى النقرة فى النحر .

(٢) الغرر : جمع غرة بالكسر وهى الغفلة ، والمعنى : أنه يتنهز غرّات الرقيب الساهر طول ليله غيرة وحفاظا ومراقبة ، فيقدم رابط الجأش بالرغم من يقظته وتنبهه ومراقبته إياه ، ولا يحجم عما اعتزمه من مواقاة حبيبه .

(٣) الكبرة : بفتح فسكون كبر السن — والعارض : الخد يقال أخذ الشعر من عارضيه — والمعنى : أن بياض المشيب وخط عارضيه قبل أن يخلع برد الشباب وقبل أن يعد من سنيه ثلاثين ربيعا ، وأبدع أبو نواس فى هذا المعنى أيما إبداع إذ يقول فى سينيته :

«وإذا عددت سنى ، كم هى؟ لم أحد للشيب عذرا فى النزول براسى
قالوا كبرت فقلت ما كبرت يدى عن أن تسير إلى فمى بالكاس »

وقال ابن الرومى : « قد شيب الفتى وليس بعجيب أن يرى النور فى القضيب الرطيب»
وقال الآخر : « ياعز هل لك فى شيخ فتى أبدا وقد يكون شباب غير فتيان »
وقال أبو العلاء : ارجع إلى السن فانظر ما تقادمها فاحكم عليه ولا تحكم على الشعر
فكم ثلاثين حولا شيبت، ومصت ستون، والشيب فيها غير مستعر
وليس ذلك إلا صبغة جعلت طبعا، وإن قيل: شاب الرأس للدعر.

هَا إِنَّهَا لَوْعَةٌ فِى الصَّدْرِ قَادِحَـــةٌ نَارَ الْأَسَى وَمَشِيبِى طَائِرُ الشَّرَرِ (١)

***

لَا يُهْنِئُ الشَّامِتَ الْمُرْتَاحَ خَاطِرُهُ أَنِّى مُعَنًّى الْأَمَانِى ضَائِعُ الْخَطَرِ (٢)

هَلِ الرِّيَاحُ بِنَجْمِ الْأَرْضِ عَاصِفَةٌ؟ أَمِ الْكُسُوفُ لِغَيْرِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ (٣)

إِنْ طَالَ فِى السِّجْنِ إِيدَاعِى، فَلَا عَجَبٌ قَدْ يُودَعُ الْجَفْنَ حَدُّ الصَّارِمِ الذَّكَرِ

وَإِنْ يُثَبِّطْ «أَبَا الْحَزْمِ» الرِّضَى - فَدَرٌ عَنْ كَشْفِ ضُرِّى فَلَا عَتْبٌ عَلَى الْقَدَرِ

***

مَا لِلذُّنُوبِ - الَّتِى جَانَى كَبَائِرَهَا غَيْرِى - يُحَمِّلُنِى أَوْزَارَهَا وَزَرِى (٤)

---

(١) أى أنها لوعة تقدح نار الأسى والحزن فى صدره ، ومشيب رأسه ما تطاير من شرر تلك النار الموقدة فيه ، وجاء فى الذخيرة لابن بسام قبل هذا البيت قوله :

يا للرزايا لقد شامهت منهلها عمرا فما اشرب المكروه بالعمر

والعمر القدح الصغير ، فهو يعنى انه لايشرب من المصائب بالقدح الصغير .

وجاء بعده فى نسختى الديوان المخطوطتين هذا البيت ناقصا هكذا :

حوادث استعرضتنى مانذرت لها غراره . . . . . .

ونحن شتهما هنا كما وجدناهما .

(٢) لايهنأ : يقال هنأه الأمر أى تهنأ به - معنى الأمانى : اسم مفعول من العناء وهو التعب - والخطر الشرف والمنزلة - والمعنى : لا يتهنأ الشامت المتلوع الفؤاد بكونى فى عناء وتعب بسبب الأمانى وبكونى ضائع القدر والمنزلة .

(٣) أراد بنجم الأرض ما نجم على وجهها من النبات ولم يقم على ساق ومنه قوله تعالى « والنجم والشجر يسجدان » وهذا البيت تعليل للبيت قبله أى لا تفرح أيها الشامت فاريح لا تعصف إلا بما له ساق من الشجر ، والكسوف : لايكون لغير الشمس والقمر - وهو معنى طرقه الشعراء كثيرا ، ومنه قول أبى تمام

إن الرياح إذا ما أعصفت قصفت عيدان نجد ولم يعبأن بالرتم

بات تعش ونعش لا كسوف لها والشمس والبدر منها الدهر فى رقم

وقريب منه قوله أيضاً :

لاتنكرى عطل الكريم من الاذى فالسيل حرب للمكان العالى

(٤) الوزر : بالكسر الذنب والوزر بفتحتين المعين والملجأ - والمعنى : لأىّ سبب يحملنى ملجئى ومعتصمى تبعة ما جناه غيرى من كبائر الذنوب ، وهو نظير قول المعرى :

وحرم حره سفهاء قوم وحل بغير جارمه العقاب

مَنْ لَمْ أَزَلْ منْ تَأَنِّيـــهِ عَلَى ثِقَةٍ ... وَلَمْ أَبِتْ مِنْ تَجَنِّيهِ عَلَى حَذَرِ (١)

ذُو الشِّيمَةِ الرَّسْلِ ـ إِنْ هِيجَتْ حَفِيظَتُهُ ـ ... وَالجَانِبِ السَّهْلِ وَالمُسْتَعْتَبِ الْيَسَرِ (٢)

مَنْ فِيـــهِ لِلْمُجْتَلِي وَالْمُبْتَلِي نَسَقَا ... جَمَالَ مَرْأًى عَلَيْهِ سَرْوُ مُخْتَبَرِ (٣)

مُذَلَّلٌ لِلْمَسَاعِي حُكْمُهَا شَطَطًا ... عَلَيْهِ وَهْوَ الْعَزِيزُ النَّفْسِ وَالنَّفَرِ (٤)

وَزِيرُ سَـــلْمٍ كَفَاهُ يُمْنُ طَائِرِهِ ... شُؤْمَ الْحُرُوبِ وَرَأْيُ مُحْصَدِ الْمِرَرِ (٥)

أَغْنَتْ قَرِيحَتُهُ مَغْـــنَى تَجَارِبِهِ ... وَنَابَتِ اللَّمْحَةُ الْعَجْلَى عَنِ الْفِكَرِ (٦)

كَمْ أَشْتَرِي ـ بِكْرَيْ عَيْنَيْهِ ـ مِنْ سَهَرٍ ... هُدُوءَ عَيْنِ الْهُدَى فِي ذَلِكَ السَّهَرِ

فِي حَضْرَةٍ غَابَ صَرْفُ الدَّهْرِ ـ خَشْبَتَهُ ـ ... عَنْهَا ، وَنَامَ الْقَطَا فِيهَا فَـــلَمْ يَثُرِ

مُمْتَعٌ بِالرَّبِيـــعِ الطَّلْقِ نَازِلُهَا ... يُلْهِيهِ عَنْ طِيبِ آصَالٍ نَدَى بُكَرِ

مَا إِنْ يَزَالُ يَبُثُّ النَّبْتَ فِي جَـــلَدٍ ... ـ مُذْ سَاسَهَا ـ وَيُفِيضُ الْمَاءَ مِنْ حَجَرِ (٧)

* * *

قَدْ كُنْتُ أَحْسَبُنِي وَالنَّجْمَ فِي قَرَنٍ ... فَفِيمَ أَصْبَحْتُ مُنْحَطًّا إِلَى الْغَفَرِ (٨)

---

(١) التأنى : التمهل ، والتجنى : ادعاء ذنب لم يفعله — أى أنا على ثقة من الحصول على أمنيتى ، وإن تأنى ، ولا أحذر أن يسىء إلىّ ذنبا لم أفعله .

(٢) الشيمة الرسل : الخلق السهل السمح — والحفيظة : الغضب — والمستعتب : مصدر ميمى بمعنى الاستعتاب أى الاسترضاء يقال استعتبته أى استرضاه فأعتبه أى أرضاه — واليسر : الميسر .

(٣) المجتلى : الناظر ، والمبتلى : المختبر ، والسرو : الشرف أى مختبر سرى شريف .

(٤) المساعى المآثر أى مدلل لمساعيه أن تشتط عليه فى الحكم وهو العزيز النفس المنيع الجانب .

(٥) محصد المرر : مقتول القوى .

(٦) يقول انه لألمعيته لايحتاج إلى تجارب وان بداهته تغنى عن رويته ونظرته السريعة تغنى عن إطالة الفكر وقديماً قالوا :

الألمعى الذى يظن بك الظـــنّ كأن قد رأى وقد سمعا

(٧) الجلد : الأرض الصلبة ، أى أنه مد ساس المملكة وهو دائب على بثّ النبات والزرع فى أرض لانتبت لصلابتها وإفاضة الماء إليها من عيون تتفجر من الصخر .

(٨) يقول : ما بالك أخلفت آمالى وبدلت مكانتى العالية عندك التى كنت تحلنى بها فوق ذروة النجم فأنزلتنى إلى حضيض الهوان .

أَحِينَ رَفَّ عَلَى الآفاقِ مِنْ أَدَبِى ... غَرْسٌ لَهُ مِنْ جَنَاهُ يَانِعُ الثَّمَرِ (١)

وَسِيلَةً سَبَبًا ـ إِلاَّ تَكُنْ نَسَبًا ـ ... فَهْوَ الْوِدَادُ صَفَا مِنْ غَيْرِ مَا كَدَرِ

* * *

وَبَانٍ مِنْ ثَنَاءٍ حُسْنُهُ مَثَلٌ ... وَشْيُ الْمَحَاسِنِ مِنْهُ مُعْلَمُ الطُّرَرِ

يُسْتَوْدَعُ الصُّحْفَ لاَ تَخْفَى نَوَافِحُهُ ... إِلاَّ خَفَاءَ نَسِيمِ الْمِسْكِ فى الصُّرَرِ (٢)

مِنْ كُلِّ مُخْتَالَةٍ بِالْحِبْرِ رَافِلَةٍ ... فِيهِ اخْتِيَالَ الْكَعَابِ الرُّودِ بِالْحِبَرِ (٣)

تُجْفَى لَهَا الرَّوْضَةُ الْغَنَّاءُ أَضْحَكَهَا ... مَجَالُ دَمْعِ النَّدَى فى أَعْيُنِ الزَّهَرِ (٤)

---

(١) رف النبات اهتز ـ يقول : هل حين انتشرت آدابى ومدائحى فى الأفاق فاجنت يانع الثمر ، ولم يذكر جواب الاستفهام فى البيت بعده لأنه مفهوم من السياق ، وهى عادة مألوفة كما قال الشاعر :

«الآن لما كنت أكمل من مشى ... وافتر نابك عن شباة القارح

وتكاملت فيك المروءة والتقى ... وأعنت ذلك بالفعال الصالح»

وقول القائل :

«أبت لى همتى وأبى بلائى ... وأخذى الحمد بالثمن الربيح

وإجشامى على المكروه نفسى ... وضربى هامة البطل المشيح

وقولى ـ كلما حشأت وجاشت ـ ... مكانك تحمدى أو تستريحى»

وربما ذكر الجواب كما ترى فى قول ابن الرومى :

«الآن حين زأرت واستمع الورى ... زأرى وأنذر كلب شر ديبه

الآن حين سبقت كل مسابق ... فتركت اسرع حريه تقريبه

يتكلف المتكلمون رياضتى ... ليطل بذلك معجب تعجيبه»

(٢) أى يستودع ذلك الثناء ـ المضروب بحسنه المثل ـ بطون الصحف ولا يمكن أن يخفى ما يفوح من أريجه إلا إذا حوى ريح المسك فى الصرر .

(٣) أى من كل صحيفة تختال بما فيها من المداد الذى سطرت به آيات بيانه وسحر بلاغته اختيال الجارية التى كعب ثدياها بما تلبسه من وشى منمر وبرد محبر .

(٤) أى أنه يصطحب المحبرة التى يكتب بمدادها آيات بلاغته ويجمو لأجلها الروضة العناء أضحكها الحيا ، وجالت فى أعين أزهارها دموع الندى .

يَا بَهْجَةَ الدَّهْرِ حَيًّا وَهْوَ — إِنْ فَنِيَتْ — حَيَاتُهُ — زِينَةُ الآثَارِ وَالسِّيَرِ (١)

لِي فِي اعْتِمَادِكَ — بِالتَّأْمِيلِ — سَابِقَةٌ — وَهِجْرَةٌ — فِي الْهَوَى — أَوْلَى مِنَ الْهِجَرِ

فَفِيمَ غَضَّتْ هُمُومِي مِنْ عُلَا هِمَمِي — وَحَاصَ بِي مَطْلَبِي عَنْ وِجْهَةِ الظَّفَرِ؟ (٢)

هَلْ مِنْ سَبِيلٍ فَمَاءُ الْعَتْبِ لِي أَسِنٌ — إِلَى الْعُذُوبَةِ مِنْ عُتْبَاكَ وَالْخَصَرِ؟ (٣)

نَذَرْتُ شُكْرَكَ لَا أَنْسَى الْوَفَاءَ بِهِ — إِنْ أَسْفَرَتْ لِيَ عَنْهَا أَوْجُهُ الْبُشَرِ (٤)

* * *

لَا تَلْهُ عَنِّي فَلَمْ أَسْأَلْكَ مُعْتَسِفًا — رَدَّ الصِّبَا بَعْدَ إِيفَاءٍ عَلَى الْكِبَرِ (٥)

وَاسْتَوْفِرِ الْحَظَّ مِنْ نُصْحٍ وَصَاغِيَةٍ — كِلَاهُمَا الْعِلْقُ لَمْ يُوهَبْ وَلَمْ يُعَرِ (٦)

هَبْنِي جَهِلْتُ فَكَانَ الْعِلْقُ سَيِّئَةً — لَا عُذْرَ مِنْهَا سِوَى أَنِّي مِنَ الْبَشَرِ

إِنَّ السِّيَادَةَ بِالْإِغْضَاءِ لَابِسَةٌ — بَهَاءَهَا وَبَهَاءُ الْحُسْنِ فِي الْخَفَرِ

---

(١) نعى فى هذا البيت ممدوحه وهو لا يزال حيا يرزق ، وقد أخذ هذا المعنى — ولم يحسن الأخذ — من قول أبى العلاء :

« حمال ذى الأرض كانوا فى الحياة وهم — بعد الممات حمال الكتب والسير . »

(٢) حاص : حاد وماله .

(٣) العتب : السخط وإظهار الوجدة لمخالفة ارتكب ، والعتبى : الرضا والرجوع إلى المسرّة بعد السخط ، والخصر : البرودة ، والمعنى : هل من سبيل بعد العتب الشبيه بالماء الآسن أى المتغير الذى لا يستسيغه شاربه إلى العتبى الشبيه بالماء العذب البارد السائغ شرابه — وقد أحس أبو العلاء فى حمل برد الماء الذى يصير به أطيب لشاربه سببا فى هجره لا فراطه فى الخصر والبرودة وذلك حيث يقول :

« لو اختصرتم من الاحسان زرتكم — والعدّ يهجر للافراط فى الخصر . »

(٤) الضمير فى « عنها » عائد إلى العتبى ، والبشر : جمع بشرى .

(٥) أى لم أعتسف فى السؤال ولم أطلب مستحيلا .

(٦) استوفر : استكثر ، وصاغية : الانسان خاصته الذين يميلون إليه ويعيشون مجلسه ويطلبون ما عنده والعلق : الشىء النفيس الذى يضنّ به لنفاسته فلا يوهب ولا يعار ، وقد ورد فى ديوان الحماسة قول الشاعر :

« أبيت اللعن إن سكاب علق — نفيس لا يعار ولا يباع

مفداة مكرمة علينا — بجاع لها العيال ولا تحاع

سليلة سابقين تناجلاها — إذا نسبا يصمهما الكراع . »

لَكَ الشَّـــفَاعَةُ لاَ تُثْنَىٰ أَعِنَّتُهَا ... دُونَ الْقَبُولِ بِمَقْبُولٍ مِنَ الْعِذَرِ (١)

وَالْبَسْ مِنَ النِّعْمَةِ الخَضْرَاءِ أَيْكَتَهَا ... ظِلاًّ حَرَامًا عَلَى « الآفَاتِ وَالْغِيَرِ » (٢)

نَعِيمَ جَنَّةِ دُنْيَا ـ إِنْ هِيَ انْصَرَمَتْ ـ ... نَعِمْتَ بِالْخُلْدِ فِى الْجَنَّاتِ وَالنَّهَرِ

أترع الكأس

أَدِرْهَا فَقَدْ حَسُنَ الْمَجْلِسُ ... وَقَدْ آنَ أَنْ تُتْرَعَ الْأَكْؤُسُ

وَلاَ بَأْسَ إِنْ كَانَ وَلَّى الرَّبِيعُ ... إِذَا لَمْ تَجِدْ فَقْدَهُ الْأَنْفُسُ (٣)

فَإِنَّ خِلاَلَ أَبِى عَامِرٍ ... بِهَا يَحْضُرُ الْوَرْدُ وَالنَّرْجِسُ (٤)

لا حيـــلة فى الحب

يَا مُخْجِلَ الْغُصْنِ الْفَيْنَانِ إِنْ خَطَرَا ... وَفَاضِحَ الرَّشَإِ الْوَسْنَانِ إِنْ نَظَرَا (٥)

يَفْدِيكَ مِنِّى مُحِبٌّ شَأْنُهُ عَجَبٌ ... مَا جِئْتَ بِالذَّنْبِ إِلاَّ جَاءَ مُعْتَذِرَا (٦)

لَمْ يُنْجِنِى مِنْكَ مَا اسْتَشْعَرْتُ مِنْ حَذَرٍ ... هَيْهَاتَ كَيْدُ الْهَوَى يَسْتَهْلِكُ الْحَذَرَا

مَا كَانَ حُبُّكَ إِلاَّ فِتْنَةً قُدِرَتْ ... هَلْ يَسْتَطِيعُ الْفَتَى أَنْ يَدْفَعَ الْقَدَرَا (٧)

---

(١) العذر : جمع عذره كسدره مصدر كالعذر . (٢) وجد هذا البيت فى الأصل ناقصاً هكذا :

وألبس من النعمة الخضراء أيكتها ... ظلا حرا ما على الارفات . . . .

ووجد فى هامش بعض النسخ تكملة لهذا البيت كله (والغير) وهذه الكلمة يناسبها الآفات لا الارفات فحصلت تكملة البيت بكلمتين كما ترى إحداهما من هامش بعض الأصول ، والأخرى يعطيها السياق .

(٣) أدر الكأس فقد صفا المجلس واغناه حسنه عن حسن الربيع فلم نحس للربيع فقدا .

(٤) فان خلال أبى عامر تذكرنا بالورد والنرجس ويسيا طيبها عنهما .

(٥) يقول : « إنك ترى بالغصن المورق إن مشيت وترى بالظبى الغرير الطرف إن نظرت .

(٦) يقدم لك الفداء محب أمره عجيب ، فانك كلما أتيت ذنباً أتى إلا أن يلتمس لك الأعذار ويخلقها لك خلقاً

(٧) كنت أقدر أنك تهجرنى بعد الوصال وكنت اتلافى كل سبب يؤدى إلى ذلك وأحاذر جهدى ألا يقع ما حفته ولكن القدر لابد أن ينفذ حكمه وليس يدفعه حذر . وما أجمل قول الشاعر النابغ محمود أبى الوفا:

« يا لائمى فى الهوى دعنى وما خلقت ... روحى له ، ليس أمرى فى الهوى بيدى »

وقول العباس بن الأحنف :

« لقد ولدت حواء ، لك بليـــة ... علىّ أقاسيها ، وخبلا من الخبل . »

فى مدح ابن جهـــور

مَرَادُهُمُ حَيْثُ السِّلَاحُ حَمَائِلُ ... وَمَوْرِدُهُمْ حَيْثُ الدِّمَاءُ مَنَاهِلُ (١)

وَدُونَ الْمُنَى فِيهِمْ جِيَادٌ صَوَافِنٌ ... وَمَأْثُورَةٌ بِيضٌ وَسُمْرٌ عَوَامِلُ (٢)

لِكُلِّ نَجِيدٍ فِى النِّجَادِ كَأَنَّمَا ... تُنَاطُ بِمَتْنِ الرُّمْحِ مِنْهُ الحَمَائِلُ (٣)

طَوِيلٌ عَلَيْنَا لَيْلُهُ مِنْ حَفِيظَةٍ ... كَأَنَّ صَبَابَاتِ النُّفُوسِ طَوَائِلُ (٤)

كِنَاسٌ دَنَا مِنْهُ الثَّرَى فِى مَحَلَّةٍ ... بِهَا اللَّيْثُ يَعْدُو وَالْغَزَالُ يُغَازِلُ (٥)

---

(١) المراد : اسم مكان من راد يرود أى ارتاد طلبا للنجعة والكلأ ، والحمائل : جمع حمالة وهى الشجر الكثير المجتمع الملتف الذى يستر ما فى داخله ، والمناهل — جمع منهل — وهو موضع النهل وهو الشرب أولا يقال شرب عللا بعد نهل يريد أنهم يمهلون من دم واردهم ، والمعنى : الذى يرود حمى أوثك العرب الانجاد حيث تسكن الحيية برود هناك حمائل يكثر فيها السلاح وتشتجر الرماح، ومن يرد منتجعهم يجد مناهل تنهل فيها الدماء ويتعرض واردها لاسباب الفناء .

(٢) الصوافن : من الخيل جمع صافن وهو الذى يقوم على ثلاث ويثنى سنبك الرابعة ، ومأثورة صفة السيوف ، يقال سيف مأثور أى فى متنه أثر يمتنع فسكون وهو فرند السيف وجوهره ورونقه ، والسمر الرماح ، والعوامل : صدورها جمع عامل ، يقول دون ما نتمناه حمى منيع بالصافنات الجياد تحمى بالبيض وسمر الرماح .

(٣) نجيد : شجاع ذو نجدة وبأس ، والنجاد : حمائل السيف ، وتناط : تعلق ، بمتن الرمح : أى بقامة كالرمح فى الطول ، والعرب تمدح بالطول وتذم الدمامة والقصر ، قال رجل من طيئ :

«ولما التقى الصفان واختلف القنا ... نهلا وأسباب المنايا نهالها

تبين لى أن القماءة ذلة ... وأن أعزاء الرجال طوالها

دعوا يا لسعد واشمينا لطيئ ... أسود الشرى إقدامها ونزالها.»

وقد أجاد أبو العلاء فى مدح القصر ، فقال :

« عجب الأنام لطول همة ماجد ... أوفى به قصر على أضرابه

سهم الفتى أمضى مدى من سيفه ... والرمح ، يوم طعانه وضرابه.»

(٤) الحفيظة : الغضب ، والصبابات : جمع صبابه وهى العشق ، والطوائل : جمع طائلة وهى الترة والثأر يقول يطول على كل طويل النجاد ليله من حفيظة وغضب علينا ، وكأن العشق وصبابات النفوس أوجبت له عندنا طوائل وترات فهو كمن يطلبنا ليثأر منا .

(٥) الكناس : مأوى الظباء والبقر الذى تستكن فيه من الحر ، والثرى : موضع تنسب إليه الأسود .

أَمَنْزِلَ الْقِبَابِ الْحُمْرِ وَسْطَ عَرِينِهِمْ ... لَقَدْ قُصِرَتْ فِيهَا السُّرُوبُ الْعَقَائِلُ (١)

أَمَحْجُوبَةٌ لَيْلَى وَلَمْ تُخْضَبِ الْقَنَا ... وَلَا حَجَبَتْ شَمْسَ الضُّحَاءِ الْقَسَاطِلُ؟ (٢)

أَنَاةٌ عَلَيْهَا مِنْ سَنَا الْبَدْرِ مِيسَمٌ ... وَفِيهَا مِنَ الْغُصْنِ النَّضِيرِ شَمَائِلُ (٣)

يَجُولُ وِشَاحَاهَا عَلَى خَيْزُرَانَةٍ ... وَتُشْرِقُ فِي «مَوْشِيَّتَيْنِ» الْخَلَاخِلُ (٤)

وَلَيْلَةَ وَافَتْنَا الْكَثِيبَ لِمَوْعِدٍ ... كَمَا رِيعَ وَسْنَانُ الْعَشِيَّاتِ خَاذِلُ (٥)

تَهَادَى ـ أَنْسِيَابَ الْأَيْمِ ـ يَعْفُو إِثَارَهَا ... مِنَ الْوَشْيِ مَرْقُومُ الْعِطَافَيْنِ ذَائِلُ (٦)

---

(١) العرين : مأوى الأسد ، وقصرت : حبست قال تعالى « حور مقصورات فى الخيام » أى محبوسات فى الخيام محذّرات على أزواجهن فى الجنات ، والسروب : جمع سرب بالكسر وهو القطيع من الظباء والنساء والطير ، والمنصوص فى كتب اللغة أنه يجمع على أسراب وسراب ، وقد جمعه هنا على سروب ، والقياس لا يأباه كما فى حمل وحمول وضرس وضروس ، والعقائل : جمع عقيلة وهى من النساء الكريمة المحذرة ، والمعنى أقسم بحياة القباب الحمر وسط عرين حمائها والذابين عنها من أوائل الأسود لقد حبست فيها أسراب العقائل ومنعت من السروب إلينا والخروج لملاقاتنا .

(٢) الضحاء : ارتفاع النهار ووقته عقب الضحى قبل انتصاف النهار ، والقساطل : جمع قسطل وهو الغبار الساطع

(٣) الاناة : المرأة التى فيها فتور عن القيام وتأن ، قال الشاعر :

أناة تزين البيت إما تلبست ... وإن قعدت هلا فأحسن بها هلا

أى ترين البيت لاسة جلتها ومتفضلة بثوب واحد ، والسنا : الضوء ، والمسم : ما عليها من أثر الوسامة والحسن ، والشمائل : الطباع .

(٤) وفى الأصل « وتشرق فى بردتين الخلاخل » وبهذه الرواية يختل وزن البيت ، وقد أبدلناها بلفظة « موشيتين » الموضوعة بين قوسين لأنها بمعنى بردتين منقوشتين ولأنها قريبة منها فى رسم الحروف ، إلى أن يظهر خلاف ما أثبتناه هنا .

(٥) ريع : فزع لأمر مفاجئ ، والوسنان : الفاتر الطرف شبه بالمرأة الوسنى من النوم ، والعشيات : جمع عشية وهى آخر النهار ، والخاذل : من حذلت الظبية فهى حاذل تخلفت عن صواحبها وانفردت ، يقول ما أنس لا أنس ليلة واعدنا فى الكثيب لوقت حددناه موعدا للقاء فكانت كما ريع ظبى فاتر اللحظ انفرد عن سائر سرب الظباء ، وقد مرّ الشطر الأول من هذا البيت فى قصيدته القافية ص(٢٤) من هذا الكتاب إذ قال :

وليلة واعدنا الكثيب لموعد ... سرى الأين لم يعلم لمسراه مزحف

تهادى اناة الحطو مرتاعة الحشا ... كما ريع يعفور الفلا المتشرف

(٦) تهادى : أصله تتهادى ، وهو مشى فى تثاقل وتمايل وسكون ، والأيم : والأين الحية ، ويعفو : يمحو والاثار : جمع أثر جمعه على فعل بالكسر جمعا قياسيا كما فى جبل وحبال وجمل وجمال ، قال ابن مالك :

« وفعل أيضا له فعال ... ما لم يكن فى لامه اعتلال . »

قَعِيدَكِ ، أَنَّى زُرْتِ ضَوْءُكِ سَاطِعٌ وَطِيبُكِ نَفَّاحٌ وَحَلْيُكِ هَادِلُ (١)

هَبِيكِ اعْتَرَرْتِ الْحَيَّ وَاشٍ هَاجِعٌ وَفَرْعُكِ غِرْبِيبٌ وَلَيْلُكِ لَائِلُ (٢)

فَأَنَّى اعْتَسَفْتِ الْهَوْلَ خَطْوُكِ مُدْمَجٌ وَرِدْفُكِ رَجْرَاجٌ وَعِطْفُكِ مَائِلُ

خَلِيلَيَّ مَالِي كُلَّمَا رُمْتُ سَلْوَةً تَعَرَّضَ شَوْقٌ دُونَ ذَلِكَ حَائِلُ

أَرَاحُ إِذَا رَاحَ النَّسِيمُ شَآمِيًا كَأَنَّ شَمُولًا مَا تُدِيرُ الشَّمَائِلُ (٣)

ضَلَالًا تَمَادَى الْحُبُّ فِي الْمَعْشَرِ الْعِدَا وَلَجَ الْهَوَى فِي حَيْثُ تُخْشَى الْغَوَائِلُ (٤)

ولم نعثر فيما راجعناه من كتب اللغة على هذا الجمع ، والعطاف : بالكسر والمعطف كل ثوب كالرداء والطيلسان تعطفت أي ترديت به ، وسمي عطافا لوقوعه على عطفي اللابس وهما ناحيتا عنقه ، والمرسوم : ذو الوشي والنقش أو المكتوب عليه رقم الساحر ، والدائل ذو الديل ، وهو أيضا من الدلال وهو مشي مقارب الخطو فيه دعص وعجلة شبيه بمشية الدئب أو المثقل من حمل ، أو هو مشي سريع خفيف في ميس وسرعة وبه سمي الدئب . ذالة ، والمعنى الأول هو المقصود هنا، يقول واعتسافها الموعد في تلك الآلة تتهادى في مشيتها كالسباب الحية في الرمل نحو ما ركبه من آثار المشي ، ديل ثوبها الوشي، وهو قريب من قول امرئ القيس :

« خرجت بها أمشي نجر وراءنا على أثرينا ذيل مرط مرحل. »

(١) قعيدك : مصدر منصوب لنيابته عن الفعل والتقدير سألت الله حفظك ، وهادل : مرسل مسترخ إلى أسفل

(٢و٣) مكرران مع قوله فيما تقدم في القافية :

«هيك اعترت الحي واشيك هاجع وفرعك غربيب وليلك أغدف

فأني اعتسفت الهول خطوك مدمج وردفك رجراج وخصرك مخطف »

ولكن بتغيير القافية كما ترى ، واغترت : بالغين المعجمة أي أتيت منهم غرة وغفلة فزرتنا ، وقد ضمنه معنى خدعت فعداه إلى المفعول بنفسه ، وتقدم تفسيره بالعين المهملة بمعنى حبك الحي ووصفت به سائلة على غير علم من أهله ، إلا أن هذا يستعمل عالبا في المعتر أي طالب المعروف . قال حاتم الطائي :

« أوقد فان الليل ليل قرّ والريح يا غلام ريح صرّ

لعلّ أن يبصرها المعتر إن حلب صيفاً فأنت حر . »

(٣) أراح : كأطاف من الارتياح ، وراح : من الرواح ، والشمول : من أسماء الخمر ، والشمائل : جمع الشمال بالفتح وهي ريح تهب من قبل الشام عن يسار القبلة ، وفي الشمال والشمول يقول الشاعر :

« ألمت سليمى والنسيم عليل فخيل لي أن الشمال شمول

كأن الخزامى صفقت منه قرنفلا فللسكر أعناق المطي تطول. »

(٤) معنى مكرر بلفظه ولكن بتغيير القافية مع قوله في العائية المتقدمة :

« لجاج تمادى الحب في المعشر العدا وأم الهوى الأفق الذي فيه نشنف. »

كَأَنْ لَيْسَ فِى نُعْمَى الْهُمَامِ «مُحَمَّدٍ» مُسَلٍّ وَفِى مَثْنَى أَيَادِيهِ شَاغِلُ (١)
أَغَرُّ إِذَا شِمْنَا سَحَائِبَ جُودِهِ تَهَلَّلَ وَجْهٌ وَاسْتَهَلَّتْ أَنَامِلُ (٢)
يُبَشِّرُنَا بِالنَّائِلِ الْغَمْرِ «جُودُهُ» وَقَبْلَ الْحَيَا مَا تَسْتَطِيرُ الْمَخَايِلُ (٣)
لَدَيْهِ رِيَاضٌ لِلسَّجَايَا أَنِيقَةٌ تَغَلْغَلُ فِيهَا لِلْعَطَايَا جَدَاوِلُ
أَتِيٌّ فَمَا تِلْكَ السَّمَاحَةُ نُهْزَةٌ وَفِيٌّ فَمَا تِلْكَ الْجِبَالُ حَبَائِلُ (٤)
زَعِيمُ الدَّهَاءِ أَنْ تُصِيبَ مِنَ الْعِدَا مَكَايِدُهُ مَا لَا تُصِيبُ الْجَحَافِلُ
فَمَا سَيْفُ ذَاكَ الْعَزْمِ فِيهِمْ بِمِعْضَدٍ وَلَا سَهْمُ ذَاكَ الرَّأْيِ أَفْوَقُ نَاصِلُ (٥)
بَنِى «جَهْوَرٍ» عِشْتُمْ بِأَوْفَرِ غِبْطَةٍ فَلَوْلَا كُمُ مَا كَانَ فِى الْعَيْشِ طَائِلُ
تَفَاضَلَ فِى السَّرْوِ الْمُلُوكُ، فَخِلْتُهُمْ أَنَابِيبَ رُمْحٍ أَنْتُمُ فِيهِ عَامِلُ

---

(١) مسل : أى صارف عن الهوى الذى تحدث عنه فيما سبق من أبيات القصيدة ، ومثنى الأيادى : إعادة المعروف مرتين فأكثر ، والأنصباء من جزور الميسر يشريها الجواد ليطعمها الأيرام ، قال النابغة :

« يسيك ذو عرضهم عى وعالمهم وليس جاهل أمر مثل من علما
أبى ثلمم أيسارى وأمهم مثنى الأيادى وأكسو الجفنة الأدما »

والبيت من أحسن أبيات التخلص من السبب إلى المدح .

(٢) تهلل : أشرق وظهرت عليه أمارات السرور ، واستهلت : من استهلال المطر وهو انصبابه بشدة حتى يسمع له صوت ، شبه أنامله فى الجود بالسحاب المنهل .

(٣) الحيا : المطر ، ما تستطير : ما رائدة أو مصدرية ، وتستطير : تنتشر وتعم الأفق ، والمخايل : جمع مخيلة وهى أن ترجو وتظن أن السماء خليقة للمطر ، وفى الأصل « يبشرنا بالنائل الغمر » وبعده بياض وقد أكملنا الشطر بلفظ « جوده » الموضوعه بين هلالين أخذا من السياق ، ومعنى البيت يبشرنا بالعطاء الكثير جوده وقبل استهلال المطر تنشر مخايله وعلاماته فى السماء .

(٤) الأتى : الوافد الذى يتأتى للأمور ، ونهزة : يريد أنه لا يهمل السماحة اشتهاراً وافتراصاً إذا سنحت له الفرصة بل يتأنى لها ويمضى عليها فى كل وقت غير متحين لها الفرص ، والحبل : العهد والذمة والتواصل وعدم التقاطع ، والحبائل : جمع حبالة وهى المصيدة وفى الحديث « النساء حبائل الشيطان » أى مصايده .

(٥) المعضد والمعضاد : سيف تمتهن على شكل الساعد يتخذه القصابون لقطع العظام ، والرعاة لقطع قروع السجر ليعلفوا بما يسقط من ورقها غنمهم وإبلهم ، وأفوق : مكسور الفوق بالضم وهو حرف السهم وإذا كان فى إحدى رنقى السهم أى حرفيه انكسار فذلك السهم أفوق ، والناصل : الخالط النصل وهو حديدة السهم ، والمعنى : أنه ماضى العزيمة صائب الرأى ، وفى الأصل : « أفوف ناشل » .

لَئِنْ قَلَّ فى أَهْلِ الزَّمَانِ عَدِيدُكُمْ ... فَإِنَّ دَرَارِىَّ النُّجُومِ قَلَائِلُ (١)

فِدَاؤُكُمُ مَنْ إِنْ تَعِدْهُ ظُنُونُهُ ... لَحَاقَكُمُ فى المَجْدِ فَالدَّهْرُ مَاطِلُ

مَنَاكِيدُ (٢) فِعْلُ الْخَيْرِ مِنْهُمْ تَكَلُّفٌ ... إِذِ الشَّرُّ طَبْعٌ مَا لَهُمْ عَنْهُ نَاقِلُ

فَإِنْ سُتِرَتْ أَخْلَاقُهُمْ بِتَخَلُّقٍ ... فَكُلُّ خَضِيبٍ لَا مَحَالَةَ نَاصِلُ (٣)

لَكَ الْخَيْرُ ، إِنِّى قَائِلٌ غَيْرُ مُقْصِرٍ ... فَمَنْ لِىَ بِاسْتِيفَاءِ مَا أَنْتَ فَاعِلُ ؟

لَعَمْرُ سَرَاةِ الثَّغْرِ وَافَاكَ وَفْدُهُمْ ... لَمَا ذَمَّ مِنْهُمْ ذٰلِكَ النُّزْلَ نَازِلُ

لَأَعْذَرْتَ لَمَّا لَمْ يُمِلَّكَ مُكْثُهُمْ ... إِذَا عَذَرَ الْمُسْتَثْقِلَ الْمُتَثَاقِلُ (٤)

نَضَدْتَ رَيَاحِينَ الطَّلَاقَةِ غَضَّةً ... وَرَقْرَقْتَ مَاءَ الْبِرِّ وَهُوَ سَلَاسِلُ

فَمَا مِنْهُمُ إِلَّا سَدِيدٌ نِزَاعُهُ ... إِلَيْكَ مُقِيمُ الْقَلْبِ وَالْجِسْمُ رَاحِلُ

ضَمَانٌ عَلَيْهِمْ أَنْ سَيُؤْثَرُ عَنْهُمُ ... عَلَيْكَ ثَنَاءٌ فى الْمَحَافِلِ حَافِلُ (٥)

---

(١) ألم كثير من الشعراء بهذا المعنى فى صور مختلفة نختار منها قول السموأل فى لاميته المشهورة :

« تعيرنا أنا قليل عديدنا ... فقلت لها : إن الكرام قليل

وما قل من كانت بقاياه مثلنا ... شباب تسامى للعلا وكهول . »

وقول العباس بن مرداس :

« نعاث الطير أكثرها فراخا ... وأم الصقر مقلاة نزور . »

(٢) جمع منكود من نكد الرجل بالبناء للمجهول فهو منكود إذا كثر سؤاله وقلّ خيره .

(٣) خضيب : مخضوب ، وناصل : وصف من نصل الشعر ينصل بالضم زال عنه الخضاب ، وهو معنى كثير الورود فى كلام الشعراء ، قال زهير .

« ومهما تكن عند امرئ من خليقة ... وإن خالها تخفى على الناس تعلم . »

وقال الآخر : « ومن يتخذ خيما سوى خيم نفسه ... يدعه ويغلبه على النفس خيمها . »

وقال ذو الأصبع العدوانى .

« كل امرئ صائر يوما لشيمته ... وإن تخلق أخلاقا إلى حين . »

(٤) لأعذرت : لقد بدا عذرك واتضح ، والمستثقل : المستبطئ لمكثهم أكثر مما تستلزمه موجبات الضيافة ، والمتثاقل : المتباطئ الذى أثقل على مضيفه فأمله وأضجره ، يقول أثبت عذرا لنفسك واضحا حين لم تمل ولم تسأم طول مكث سراة الثغر الوافدين عليك فى وقت يعرف فيه المتثاقل عذر مضيفه إذا مل مكثه وعده ثقيلا .

(٥) ضمان على هؤلاء الوافدين أنه سيؤثر ويروى عنهم ثناء عليك فى المحافل حافل بأنواع المحامد والمدائح .

مَسَاعٍ هِيَ الْعِقْدُ انْتِظَامَ مَحَاسِنٍ تَحَلَّى بِهَا جِيـــدٌ مِنَ الدَّهْرِ عَاطِلُ
تُثِيرُ بِهَا الآمَالُ وَاللَّيْلُ وَاقِبٌ (١) وَتَخْصِبُ مِنْهَا الأَرْضُ وَالأُفْقُ مَاحِلُ

⁂

هَنِيئًا لَكَ الْعِيدُ الَّذِى بِكَ أَصْبَحَتْ تَرُوقُ الضُّحَا مِنْهُ وَتَنْدَى الأَصَائِلُ
تَلَقَّاكَ بِالْبُشْرَى وَحَيَّاكَ بِالْمُنَى فَبُشْرَاكَ أَلْفٌ بَعْدَ عَامِكَ قَابِلُ
لَئِنْ يَنْصَرِمْ شَهْرُ الصِّـــيَامِ لَبَعْدَهُ ثَنَا صَالِحِ الأَعْمَالِ مَا أَنْتَ عَامِلُ
رَأَيْتَ أَدَاءَ الْفَرْضِ ضَرْبَةَ لاَزِمٍ فَلَمْ تَرْضَ حَـــتَّى شَيَّعَتْهُ النَّوَافِلُ
سَدَنْتَ (٢) بِبَيْتِ اللهِ حُبَّ جِوَارِهِ، لَكَ اللهُ بِالأَجْرِ الْمُضَاعَفِ كَافِلُ
هَجَرْتَ لَهُ الدَّارَ الَّتِي أَنْتَ آلِفٌ لِيَعْتَادَهُ مَحْضُ الْهَوَى مِنْكَ وَاصِلُ
فَإِنْ تَتَنَاقَلْكَ الدِّيَارُ فَطَالَمَا تَنَاقَلَتِ الْبَـــدْرَ الْمُنِيرَ الْمَنَازِلُ
أَلاَ كُلُّ - رَجْوَى فِى سِوَاكَ - عُلاَلَةٌ وَكُلُّ مَدِيحٍ - لَمْ يَكُنْ فِيكَ - بَاطِلُ
فَمَا لِعِمَادِ الدِّينِ - حَاشَاكَ - رَافِعٌ وَلاَ لِلِوَاءِ الْمُلْكِ - غَيْرُكَ - حَامِلُ

⁂

لَأَمْتَنِي الْخَطْبَ الَّذِى أَنَا خَائِفٌ وَبَلَّغْتَنِي الْحَظَّ الَّذِى أَنَا آمِلُ (٣)
أَرَى خَاطِرِى كَالصَّارِمِ الْعَضْبِ لَمْ يَزَلْ لَهُ شَاحِذٌ مِنْ حُسْنِ رَأْيِكَ صَاقِلُ
وَمَا الشِّعْرُ مِمَّا أَدَّعِيـــهِ فَضِيلَةٌ تَزِينُ ، وَلَـــكِنْ أَنْطَقَتْنِي الْفَوَاضِلُ
بَقِيتَ كَمَا تَبْقَى مَعَالِيكَ إِنَّهَا خَوَالِدُ حِينَ الْعَيْشُ كَالظِّلِّ زَائِلُ
فَمَا نَسْـــتَزِيدُ اللهَ بَعْـدَ نِهَايَةٍ لِنَفْسِكَ غَيْرَ الْخُلْدِ إِذْ أَنْتَ كَامِلُ (٤)

---

(١) فى الأصل «رائد» (٢) وفى الأصل «سدلت» (٣) وقد ورد بعد هذا البيت قوله :
« . . . . . ألهم همتى فها أنا لا غفل ولا أنت غافل. »
وقد أثبتناه ناقصا كما ورد بالأصل .
(٤) قريب من هذا المعنى قوله من قصيدة سابقة :
« لا أستزيد الله نعـ ـمى فيك ، لابل أستديم »

إلى ابن جهـــور

« وقال أيضا مع تفاح أهداه إلى ابن جهور . »

أَتَتْكَ بِلَوْنِ الْحُبِّ الْخَجِـــلْ تُخَالِطُ لَوْنَ الْمُحِبِّ الْوَجِلْ (١)
ثِمَارٌ تَضَمَّنَ (٢) إِدْرَاكُهَا هَوَاءً أَحَاطَ بِهَا مُعْتَـــدِلْ
تَأَتَّى (٣) لِإِلْطَافِ تَدْرِيجِهَا فَمِنْ حَرِّ شَمْسٍ إِلَى بَرْدِ ظِلّْ
إِلَى أَنْ تَنَاهَتْ شِفَاءَ الْعَلِيلِ وَأُنْسَ الْمَشُوقِ وَلَهْوَ الْغَزِلْ
فَلَوْ تَجْمُدُ الرَّاحُ لَمْ تَعْـدُهَا وَإِنْ هِيَ ذَابَتْ فَخَمْرٌ تَحِلّْ (٤)
لَهَا مَنْظَرٌ حَسَنٌ فِي النُّفُوسِ كَدُنْيَاكَ لَـكِنَّهُ مُنْتَقِلْ (٥)
وَطَعْمٌ يَلَذُّ لِمَنْ ذَاقَهُ كَلَذَّةِ ذِكْرَاكَ لَوْ لَمْ يُمَلّْ (٦)
وَرَيَّا إِذَا نَفَحَتْ خِلْتُهَا تُمِلُّ ثَنَاءَكَ أَوْ تَسْتَهِلّْ (٧)
يُمَثِّلُ مَلْمَسُـــهَا لِلْأَكُفِّ لِينَ زَمَانِكَ أَوْ يَمْتَثِلْ (٨)

---

(١) معنى البيت: أتتك هذه التفاحات بحمرة كحمرة خدود الملاح عند الخجل، تخالطها صفرة كصفره خدود العاشقين عند الوجل .

(٢) أى تكفل بانضاج هذه الثمار هواء معتدل متوسط بين الحرارة والبرودة

(٣) تأتى للامر ترفق له وأناه من وجهه ، والمعنى : تلطف ذلك الهواء فى تدريج نموها وصبغها بتلك الألوان الزاهية فتنقل معها من حر شمس إلى برد ظل حتى نضجت وأينعت .

(٤) يقول لو أن ذوب الراح تحول إلى جمد لم يعد أن يكون ذلك التفاح ، ولو أن جامد التفاح تحول إلى ذوب أحمر لم يعد أن يكون خمرا حلالا لا إثم على شاربها .

(٥) يعنى : أن منظرها حسن ينتظم ما فى دنياك من محاسن إلا أنه حسن منتقل حائل ، وحسن دنياك لايحول ولا ينتقل .

(٦) ولها طعم حلو المذاق لديذ كلذة ذكراك فى الأسماع إلا أنه يمل وترديد ذكراك لا يمل .

(٧) ولها ريا : أى ريح طيبة ، تمل : أى تملى مدحك ، أو تستهل : أى ترفع صوتها بالثناء عليك .

(٨) يصور ملمس التفاح الناعم للأكف لين زمانك حتى كأنها تحسه ، أو يمتثل أى يضرب نفسه مثلا لين زمانك .

صَفَوْتُ فَأَدْلَلْتُ(١) فى عَرْضِهَا وَمَنْ يَصْفُ مِنْهُ الْهَوَى فَلْيُدِلّ
قَبُولُكَهَا نِعْمَةٌ غَضَّةٌ وَفَضلٌ - بِمَا قَبْلَهُ - مُتَّصِلْ
وَلَوْ كُنْتُ أَهْدَيْتُ نَفْسِى اخْتَصَرْ تُ عَلَى أَنَّهَا غَايَةُ الْمُحْتَفِلْ (٢)

مجلس أبى على

« لما ورد ابن زيدون إشبيلية نزل فى دار ذى الوزارتين الكاتب أبى على بن جبلة وهو يبنى فيها مجلسا ، فصنع أبياتا فكتبت فيه : »

عُمِّرَ مَنْ يَعْمُرُ ذَا الْمَجْلِسَا أَطْوَلَ عُمْرٍ يُبْهِجُ الْأَنْفُسَا
وَبَعْدَ ذَا عُوِّضَ عَنْ دَارِهِ عَدْنًا وَمِنْ دِيبَاجِهِ السُّنْدُسَا
وَوُفِّىَ الْفَوْزَ بِهَا وَالرِّضَى وَوُقِّىَ الْأَسْوَاءَ وَالْأَبْؤُسَا(٣)
وَدَامَ عَبَّادٌ لِعَهْدِ الْهُدَى يَحْرُسُ حَتَّى يُفْنِىَ الْأَحْرُسَا(٤)

* * *

مُعْتَضِدٌ بِاللهِ إِحْسَانُهُ جَمٌّ إِذَا مَا الدَّهْرُ يَوْمًا أَسَا
الْمَلِكُ الْغَمْرُ النَّدَى الْمُقْتَنِى مِنْ كُلِّ حَمْدٍ عِلْقَهُ الْأَنْفَسَا(٥)
إِنْ رَامَ يَوْمًا وَصْفَ عَلْيَائِهِ مُفَوَّهٌ مُقْتَدِرٌ أُخْرِسَا (٦)
لَا زَالَ بَدْرًا طَالِعًا نَيِّرًا يَكْشِفُ مِنْ آمَالِنَا الْحِنْدِسَا(٧)

---

(١) الادلال التدلل والانبساط والجرأة على من تحب باظهار الدالة عليه ، أى وثقت بما بيننا من الصفاء والود فأفرطت فى الدالة عليك بعرض هـذا التفاح الذى يتهادى بمثله الأصفياء المخلصون ، ومن وصف فى الهوى فليظهر الدلال على من يحبه .

(٢) المحتفل المبالغ فى الاهداء ، والمعنى : لو كنت حين أردت الاهـداء أهديت نفسى لاختصرت ، على أنها غاية ما أحتفل وأبالغ فى تقديمه إليك هدية . (٣) الأسواء : جمع سوء والأبؤس جمع بؤس.

(٤) الأحرس : الدهور ، جمع حرس بفتح فسكون وهو الدهر .

(٥) الملك العظيم الاحسان الذى ظفر من الثناء بما لم يظفر به غيره من آيات الحمد .

(٦) إذا رام اللسن المبين أن يصف مجده أعياه الخرس لأنه يحاول بذلك أن يظفر بالمستحيل .

(٧) الظلام .

جـــواب

« كتب الوزير الفقيه صاحب الأحكام والأحباس
« أبو طالب بن مكى » بيتين وهما :

« يا بعيد الدار موصو
لا بقلبى ولسانى
ربما باعـدك الده
رفأدنتك الأمانى. »

فكتب إليه الأبيات التالية : »

لاَ أُفْتِنَانَ كَافْتِنَانِي فِي حُلَى الظَّرْفِ الحِسَانِ[1]
خَصَّـــنِي بِالْأَدَبِ اللهُ فَأَعْلَى فِيـــهِ شَانِي
خَاطِرِي أَنْفَـــذُ ـ مَهْمَا قِيسَ ـ مِنْ حَدِّ السِّنَانِ

* * *

أَيُّهَا المُرْسِـــلُ أَطْيَا رَ المُعَمَّى لِامْتِحَانِي
هَاكَ كَمْ تَزْدَادَ فِي الْآدَابِ عِلْمـــاً بِمَكَانِي
قَدْ أَتَتْنَا الطَّيْرُ تَشْدُو بَعْضَ أَبْيَاتِ الْأَغَانِي
بِرَطَانَاتٍ قَضَـــتْنَا مَا اقْتَضَتْنَا مِنْ بَيَانِ

* * *

إِنْ تَغَنَّى البُلْبُلُ اهْتَا جَ غِنَاءَ الْوَرْشَانِ[2]

---

(١) قال فى اللسان : الظرف البراعـة ودكاء القلب يوصـف به الفتيان الأرواح والفتيات الزولات ولايوصف به الشيخ ولا السيد، وقد وصف الحسان بالظرف مبالغة ، ويجوز أن يكون بالضم جمع ظريف، فانه يجمع على ظرف بضمتين ، والاسكان فى مثله جائز ، والمعنى : ليس يجيد أحد ـ كما أجيد ـ الافتنان فى صوغ تلك الحلى الحسان التى يمليها الظرف واللباقة .

(٢) الورشان : طائر لحمه ـ فيما يقولون ـ أخف من الحمام ، والمعنى : أن غناء البلبل يهتاج غناء الورشان يشير بذلك إلى أن شعر صديقه الوزير اهتاجه فحرك فيه بواعث الشعر كما اهتاج غناء البلبل غناء الورشان .

فَتَأَدَّى مِنْـــهُ بَيْتَا غَـــزَلٍ مُنْفَرِدَانِ
لِمُحِبٍّ فِى حَبِيبٍ عَنْهُ نَاءٍ مِنْهُ دَانِ :
« يَا بَعِيدَ الدَّارِ مَوْصُو لاً بِقَلْبِي وَلِسَانِي
رُبَّمَـــا بَاعَدَكَ الدَّهْـــرُ فَأَدْنَتْكَ الْأَمَانِي »

كن كيف شئت

يَا غَـــزَالاً أَصَارَنِى مُوثَقًا فِى يَدِ الْمِحَنْ
إِننِى ـ مُذْ هَجَرْتَنِى ـ لَمْ أَذُقْ لَذَّةَ الْوَسَنْ
لَيْتَ حَظِّى إِشَارَةٌ مِنْكَ، أَوْ لَحْظَةٌ عَنَنْ[1]
شَافِعِى يَا مُعَذِّبِى ـ فِى الْهَوَى ـ وَجْهُكَ الْحَسَنْ
كُنْتُ خِلْوًا مِنَ الْهَوَى فَأَنَا الْيَوْمَ مُرْتَهَنْ[2]
كَانَ سِرِّى مُكَتَّمًا وَهُوَ الآنَ قَدْ عَلَنْ[3]
لَبْسَ لِى عَنْكَ مَذْهَبٌ فَكَمَا شِئْتَ لِى فَكُنْ[4]

---

(١) يقول : إنى اقنع منك بالشيء القليل التافه وأكتفى بأن يكون حظى من حبك إشارة أو لفتة سريعة وقد دار الشعراء حول هذا المعنى ، وامل أبدع ما قيل فيه قول جميل بثينة :

« وإنى لأرضى من بثينة بالذى لو أبصره الواشى لقرت بلابله
بلا ، وبألا أستطيع ، وبالمنى ، وبالأمل المرجوّ قد خاب آمله
وبالنظرة العجلى، وبالحول تنقضى أواخره ـ لا تلتقى ـ وأوائله. »

(٢) الخلو : الخالى . يقول « كنت طليقاً خالياً من إسار الهوى فصرت اليوم أسيراً مرتهنا . »

(٣) يقول : « كان سرى خافياً لا يعلمه أحد فأصبح معلنا ، وما أجمل قول صرّود فى شبيه هذا المعنى

« وقد كشف الغطاء فما نبالى أصرحنا بذكرك أم كنينا
سائل عن ثمامات بحزوى وبات الرمل يعلم من عنينا
ولو أنا تنادى «ياسليمى» لقالوا : ما عنيت سوى لبينى »

(٤) يقول : « لا فكاك لى من إسار حبك فاصنع بى ما أنت صانع . »

حنين

هَلْ رَاكِبٌ ذَاهِبٌ عَنْهُمْ يُحَيِّينِي ... إِذْ لَا كِتَابَ يُوَافِينِي فَيُحْيِينِي (١)

قَدْ مِتُّ إِلَّا ذَمَاءً فِيَّ يُمْسِكُهُ ... أَنَّ الْفُؤَادَ بِلُقْيَاهُمْ يُرَجِّينِي (٢)

مَا سَرَّحَ الدَّمْعَ مِنْ عَيْنِي وَأَطْلَقَهُ ... إِلَّا اعْتِيَادُ أَسًى فِي الْقَلْبِ مَسْجُونِ (٣)

صَبْرًا لَعَلَّ الَّذِي بِالْبُعْدِ أَمْرَضَنِي ، ... بِالْقُرْبِ يَوْمًا يُدَاوِينِي فَيَشْفِينِي

كَيْفَ اصْطِبَارِي وَفِي كَانُونَ (٤) فَارَقَنِي ... قَلْبِي وَهَا نَحْنُ فِي أَعْقَابِ تَشْرِينِ (٥)

شَخْصٌ يُذَكِّرُنِي فَاهُ وَغُرَّتَهُ ... شَمْسُ النَّهَارِ وَأَنْفَاسُ الرَّيَاحِينِ

لَئِنْ عَطِشْتُ إِلَى ذَاكَ الرُّضَابِ لَكُمْ ... قَدْ بَاتَ مِنْهُ يُسَقِّينِي فَيُرْوِينِي

وَإِنْ أَفَاضَ دُمُوعِي نَوْحُ بَاكِيَةٍ ... فَكَمْ أَرَاهُ يُغَنِّينِي فَيُشْجِينِي (٦)

وَإِنْ بَعُدْتُ وَأَضْنَتْنِي الْهُمُومُ لَقَدْ ... عَهِدْتُهُ وَهْوَ يُدْنِينِي فَيُسْلِينِي

أَوْ حَلَّ عَقْدَ عَزَائِي نَأْيُهُ فَلَكَمْ ... حَلَلْتُ عَنْ خَصْرِهِ عَقْدَ الثَّمَانِينِ (٧)

---

(١) هل يوافيني رسول من قبل من أحبه فيحمل إلى تحيتهم بعد أن حرمت كتبهم التي كانت تعيد إلى الحياة.

(٢) لقد كدت أحسب في عداد الهلكى لولا بقية قليلة من الروح يبعثها في الرجاء والامل في لقائهم . قال ابن الرومي في رثاء ابنه :

« ولقد تعزى القلب سلوته أني بأن ألقاك مرتهن . »

(٣) لم يفض دمعي إلا ذكريات مؤلمة مسجونة في قلبي تعتادني حيناً بعد حين وتطيف بعيني فتطلق الدمع وتسرحه . (٤) شهر من شهور الشتاء وهو ديسمبر ، قال أبو العلاء :

مضى كانون ما استعملت فيه حميم الماء ، فاقدم يا شباط

تشابه أنفس الحشرات نفسي يكون لهن بالصيف ارتباط

(٥) شهر من شهور السنة الرومية وهو يوافق ١٤ اكتوبر ، وهما تشرينان أحدهما في ١٤ اكتوبر والثاني في ١٤ نوفمبر ، ولعل المراد تشرين الثاني . (٦) في الأصل : فيرويني .

(٧) عقد عزائي : العقد ضد الحل ، والعزاء : الصبر ، والنأي : البعد وعقد الثمانين : أحد عقد الأصابع التي يفهم بها عدد الثمانين والاشارة إلى عقد الثمانين تكون ببسط الابهام والسبابة معا متلاصقتين بلا فرجة ظاهرة بينهما ، والمعنى : لئن حل نأي الحبيب وبعده عقد عزائي وسلواني عنه ، فكثيراً ما حللت عن خصره نطاقاً يشبهه في الضيق عقد الثمانين ، وهذا الحصر الذي وصفه ابن زيدون يدق في الوهم ، ويلطف في الخيال والحس إلى حد أنا لا نعثر له على شبيه ومثيل حتى ولا في خصور الناحلات الرشيقات

* * *

يَاحُسْنَ إِشْرَاقِ سَاعَاتِ الدُّنُوِّ بَدَتْ كَوَاكِباً فِى لَيَالِى بُعْدِهِ الجُونِ (١)

من بنات أوربا وباريس فى العصر الحاضر عصر الفن فى الرشاقة ، ودقة الحصور ، والافراط فى تضييق عقد النطاق .

عقد الأصابع

لما كانت كلمة « عقد الثمانين » الواردة فى بيت « ابن ريدون » هذا لايبين فيها وجه التعقيد والمعاظلة التى عمد إليها ابن ريدون أحيانا ، إلا بعد بيان ما تدلّ عليه عقد الأصابع من الأعداد العربية للحساب ، وهو اصطلاح قديم استعمله العرب ، وجاء فى الحديث أن النبىّ صلى الله عليه وسلم عقد ثلاثة وخمسين فى التشهد ، أى بقبض الخنصر والبنصر والوسطى على هيئة خاصة تدلّ على العدد المذكور ، فنحن نستطرد بتلخيص ماهو مبسوط فى بعض كتب اللغة والنحو متعلقاً بهذا الموضوع فنقول :

جعلوا للدلالة على الآحاد من أصابع اليد اليمنى الخنصر والبنصر والوسطى ، وللعشرات إلى التسعين الوسطى والسبابة .

فالعقد الدالّ على الواحد يكون بالصاق الخنصر باطن الكف مع بسط سائر الأصابع ، وعلى الاثنين بالصاق البنصر معها كذلك ، وعلى الثلاثة بضم الوسطى إليهما كذلك ، وعلى الأربعة بالصاق البنصر والوسطى وحدهما كذلك ، وعلى الخمسة بالصاق الوسطى وحدها كذلك ، وعلى الستة بالصاق البنصر وحدها كذلك ، وعلى التسعة بالصاق الخنصر وحدها ممدودة إلى أسفل الكف على شكل يحالف شكل الواحد .

وعلى العشرة بوضع ظهر السبابة فى وسط باطن أنملة الابهام بحيث يحصل شكل حلقة ، ولكن مع نشوز رأس الابهام بقدر نصف الأنملة ، وعلى العشرين بحمل المفصل الأوّل من السبابة على ظهر الابهام بحيث تكون السبابة على شكل الدال ، وعلى الثلاثين بضم رأس باطن السبابة إلى باطن رأس الابهام على هيئة لاقط الابرة ، وعلى الأربعين بوضع باطن أنملة الابهام على ظاهر أصل السبابة مما يلى الكف ، وعلى الخمسين بوضع الطرف الأيمن للابهام على مخز العقدة السفلى للسبابة بحيث تكون قائمة ، والجانب الأعلى للابهام منحنياً عليها ، وعلى الستين بوضع باطن أعلى أنملة الابهام على باطن أعلى أنملة السبابة ، بحيث تكون السبابة على شكل قوس وتره الابهام ، وعلى السبعين بوضع حرف ظهر الابهام على العقدة الوسطى لباطن السبابة على هيئة رامى الحصاة بالحذف « وهو رمى صغار الحصا بعد أحدها بين طرفى السبابة والابهام » ، وعلى الثمانين بسطهما معا لاصقتين بلافرجة بينهما كما أسلفناه فى شرح البيت الذى نحن بصدده ، وعلى التسعين بطى السبابة إلى أصلها ووضع الابهام على ظهر العقدة الوسطى للسبابة كما تنحنى الحية .

وجعلوا للدلالة على المئات من أصابع اليد اليسرى السبابة والابهام طبق ماعلى اليد اليمنى .

فالمائة فى اليسرى كالعشرة فى اليمنى ، والمئتان كالعشرين ، وهكذا إلى التسعمائة ، والألف فى اليسرى كالواحد فى اليمنى ، والألفان كالاثنين ، وهكذا إلى تسعة آلاف ، والعشرة آلاف بضم أنملتى السبابة والابهام بطناً لبطن ، وتستعمل عقد أصابع اليدين معاً للدلالة على الأعداد المركبة من الآحاد والعشرات والمئات والآلاف بنفس الهيئات المتقدمة .

(١) أى أن ليالى الوصال تبدو مضيئات لامعات فى ليالى البعاد السود .

وَاللهِ مَا فَارَقُونِي بِاخْتِيَارِهِمِ ... وَإِنَّمَا الدَّهْرُ بِالْمَكْرُوهِ يَرْمِينِي
وَمَا تَبَدَّلْتُ حُبًّا غَيْرَ حُبِّهِمِ ... إِذَا تَبَدَّلْتُ دِينَ الْكُفْرِ مِنْ دِينِي (١)
أَفْدِي الْحَبِيبَ الَّذِي لَوْ كَانَ مُقْتَدِراً ... لَكَانَ بِالنَّفْسِ وَالْأَهْلِينَ يَفْدِينِي
يَا رَبِّ قَرِّبْ - عَلَى خَيْرٍ - تَلَاقِينَا ... بِالطَّالِعِ السَّعْدِ وَالطَّيْرِ الْمَيَامِينِ .

فى الغـــزل

أَيُوحِشُنِي الزَّمَانُ وَأَنْتَ أُنْسِي ... وَيُظْلِمُ لِي النَّهَارُ وَأَنْتَ شَمْسِي
وَأَغْرِسُ فِي مَحَبَّتِكَ الْأَمَانِي ... فَأَجْنِي الْمَوْتَ مِنْ ثَمَرَاتِ غَرْسِي (٢)
لَقَدْ جَازَيْتَ غَدْراً عَنْ وَفَائِي ... وَبِعْتَ مَوَدَّتِي ظُلْماً بِبَخْسِ
وَلَوْ أَنَّ الزَّمَانَ أَطَاعَ حُكْمِي ... فَدَيْتُكَ - مِنْ مكارِهِهِ - بِنَفْسِي (٣)

فى بعض مجالس الأنس

يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ الْجَلِيـــلُ بِكُلِّ أَلْسُنِنَا جَلَالُكْ
انْظُرْ إِلَى مُحْتَلِّنَا (٤) قَدْ زَانَ سَاحَتَهُ احْتِلَالُكْ
نَهْرٌ وَرَوْضٌ نَحْنُ بَيْنَهُمَا تُفَيِّئُنَا ظِلَالُكْ (٥)
قَدْ فَاضَ فِي هٰذَا نَدا كَ وَنَعَّمَتْ هٰذَا خِلَالُكْ .

---

(١) إن إيمانى بحبهم كايمانى بدينى سواء بسواء وليس فى مقدور أحد أن يبدلى بمن أحب إلا إذا استطاع أن ينقلى من دينى إلى الكفر .

(٢) يقول : « هل من العدل أن أكثر من الآمال والأمانى فلا أجنى من ذلك كله إلا الاحفاق :

(٣) ليت الزمان يقبل حكمى ، اذن لفديتك بنفسى ، وإن كنت لا تجارينى بحبى إلا بالغدر .

(٤) المكان الذى حللنا فيه .

(٥) وفى الأصل : «تؤلفنا ظلالك.» والظلال : ما أظلك من سحاب ونحوه ، وظلال البحر : أمواجه، والمقصود هنا النعيم والراحة ، ولما كانت بلاد العرب فى غاية الحرارة وكان الظل عندهم من أعظم أسباب الراحة جعلوه كناية عن الراحة .

شـــكوى وألم !

« قال فى مدح ابن جهور »

أَلَمْ يَأْنِ أَنْ يَبْكِى الْغَمَامُ عَلَى مِثْلِي ... وَيَطْلُبَ ثَأْرِى الْبَرْقُ مُنْصَلِتَ النَّصْلِ (١)

وَهَلاَّ أَقَامَتْ أَنْجُمُ اللَّيْلِ مَأْتَمًا ... لِتَنْدُبَ فى الآفاقِ مَاضَاعَ مِنْ نَثْلِي (٢)

وَلَوْ أَنْصَفَتْنِي ـ وَهْىَ أَشْكَالُ هِمَّتِي ـ ... لَأَلْقَتْ بِأَيْدِى الذُّلِّ لَمَّا رَأَتْ ذُلِّى

وَلَاْفْتَرَقَتْ سَبْعُ الثُّرَيَّا وَغَاضَهَا (٣) ... بِمَطْلَعِهَا مَا فَرَّقَ الدَّهْرُ مِنْ شَمْلِي

* * *

لَعَمْرُ اللَّيالى إِنْ يَكُنْ طَالَ نَزْعُهَا ... لَقَدْ قَرْطَسَتْ بِالنَّبْلِ فى مَوْضِعِ النَّبْلِ (٤)

تَحَلَّتْ بِآدَابِى وَإِنَّ مَآرِبِى ... لَسَانِحَةٌ فى عَرْضِ أُمْنِيَّةٍ عُطْلِ

أُخَصُّ لِفَهْمِى بِالْقِلَى وَكَأَنَّمَا ... يَبِيتُ لِذِى الْفَهْمِ الزَّمَانُ عَلَى ذَحْلِ (٥)

وَأُجْفَى عَلَى نَظْمِى لِكُلِّ قِلَادَةٍ ... مُفَصَّلَةِ السِّمْطَيْنِ بِالْمَنْطِقِ الْفَصْلِ

وَلَوْ أَنَّنِي أَسْطِيعُ كَىْ أُرْضِيَ الْعِدَا ... شَرَيْتُ بِبَعْضِ الْحِلْمِ حَظًّا مِنَ الْجَهْلِ (٦)

---

(١) الذى فى الأصل المنقول « ألم يأن أن يبكى الحمام على قتلى » والذى أثبتناه هنا هو ما نقلناه عن الذخيرة لابن بسام وهو أنسب مما ذكر فى الأصل لأنه يريد من الطبيعة أن تبكى لبكائه ، وتتأثر من أعدائه .

(٢) مثلى : أى ما انتثلته واستخرجته فى حياتى من جاه ومنصب ومال .

(٣) غاضها : غيضها أى أخفاها .

(٤) نزعها : جذبها وتر القوس مصوّبة نحوى سهام المصائب ، وقرطس : أى أصاب القرطاس ، وهو غرض من أديم يتخذ للنضال وتسديد الرماية .

(٥) القلى ـ بالكسر ـ البغض ، والذحل الثأر ، يريد أن غيره من أهل الجهل نالوا الحظوة والقربى ، وهو لفهمه خص بالقلى والبعد وكأنه قد جنى على الزمان فبات يطالبه بثأره .

(٦) الحلم : العقل ، والحظ : النصيب . يقول : لو أستطيع لإرضاء العدا وشفاء ما فى نفوسهم من الحقد لاستبدلت بشىء يسير من الجهل ، حظا عظيما من العقل .

* * *

أَمَقْتُولَةَ الْأَجْفَانِ مَالَكِ وَالِهًا ... أَلَمْ تُرِكِ الْأَيَّامُ نَجْمًا هَوَى قَبْلِي (١)

أَقِلِّي بُكَاءً لَسْتِ أَوَّلَ حُـــرَّةٍ ... طَوَتْ بِالْأَسَى كَشْحًا عَلَى مَضَضِ الثُّكْلِ (٢)

وَفِي « أُمِّ مُوسَى » عِبْرَةٌ أَنْ رَمَتْ بِهِ ... إِلَى الْيَمِّ فِي التَّابُوتِ فَاعْتَبِرِي وَاسْلِي (٣)

لَعَلَّ الْمَلِيكَ الْمُجْمِلَ الصُّنْعِ ـ قَادِرًا ... لَهُ ـ بَعْدَ يَأْسٍ سَوْفَ يُجْمِلُ صُنْعَالِي (٤)

وَلِلَّهِ فِينَا عِـــلْمُ غَيْبٍ وَحَسْبُنَا ... بِهِ ـ عِنْدَ جَوْرِ الدَّهْرِ ـ مِنْ حَكَمٍ عَدْلِ (٥)

* * *

هُمَامٌ عَرِيقٌ فِي الْكِرَامِ ، وَقَلَّمَا ... تَرَى الْفَرْعَ إِلَّا مُسْتَمِدًّا مِنَ الْأَصْلِ

نَهُوضٌ بِأَعْبَاءِ الْمُرُوءَةِ وَالتُّقَى ... سَحُوبٌ لِأَذْيَالِ السِّيَادَةِ وَالْفَضْلِ

إِذَا أَشْكَلَ الْخَطْبُ الْمُلِمُّ فَإِنَّهُ ... وَآرَاءُهُ كَالْخَطِّ يُوضَحُ بِالشَّكْلِ

* * *

وَذُو تُدْرَإٍ لِلْعَزْمِ ـ تَحْتَ أَنَاتِهِ ـ ... كُمُونُ الرَّدَى فِي فَتْرَةِ الْأَعْيُنِ النُّجْلِ (٦)

---

(١) أمقتولة الأجفان ، الهمزة فيه للنداء أى يامن فى أجفانها فتور وتكسر ، و لواله : الشديدة الحزن على فقد ولدها شبهها فى شدة حزنها على فقده الهاوى فى غيابة السجن بالمرأة الثكلى التي لا تفتر أجفانها العاثرة المقرحة عن البكاء لفقد الحبيب .

(٢) الكشح : الخاصرة ، وطوى كشحه على كذا استمر عليه ، والمضض : ألم المصيبه ، والثكل ـ بالضم ـ فقدان الولد والحبيب : أى لا تبكى باستمرار فلست أول حرة لازمها وجع مصيبه الثكل .

(٣) يشير بهذا إلى قوله تعالى : « وأوحينا إلى أمّ موسى أن أرضعيه فاذا خفت عليه فألقيه فى اليمّ ولا تخافى ولا تحزنى إنا رادّوه إليك » أى اعتبرى بهذه القصة واصبرى .

(٤) امل الملك المعتاد صنع الجميل ـ قادرا لصنعه قدره ـ سوف يعمل على خلاصى بعد يأس .

(٥) بلى هذا البيت بيت وحيد فى الأصل ناقصا هكذا :

. . . . . آل جمهور لمستحكم الأسباب مستحصد الحبل

(٦) دو تدرإ ـ بالضم ـ أى ذو عدة وقوة على مدافعة أعدائه إذا وجه عزيمته لعمل أمر كمن الردى تحت تأيه كمونه تحت فتور الأعين النجل أى الواسعة جمع نجلاء ، واستعمل الفترة بمعنى انكسار جفون العين وضعفها ليعقد بينها وبين الأناة مناسبة وموافقة .

يَرِفُ عَلَى ـ التَّأْمِيلِ ـ لَأْلَاءِ بِشْرِهِ ... كَمَا رَفَّ لَأْلَاءُ الْحُسَامِ عَلَى الصَّقْلِ (١)

مَحَاسِنُ مَا لِلْحُسْنِ فِي الْبَدْرِ عِلَّةٌ ... سِوَى أَنَّهَا بَاتَتْ تُمِلُّ فَيَسْتَمْلِي (٢)

تُغَصُّ ثَنَائِي مِثْلَمَا غَصَّ جَاهِدًا ... سِوَارُ الْفَتَاةِ الرَّادِ بِالْمِعْصَمِ الْخَذْلِ (٣)

وَتَغْنَى عَنِ الْمَدْحِ ـ اكْتِفَاءً بِسَرْوِهَا ـ ... غِنَى الْمُقْلَةِ الْكَحْلَاءِ عَنْ زِينَةِ الْكُحْلِ

* * *

« أَبَا الْحَزْمِ » إِنِّي ـ فِي عِتَابِكَ ـ مَائِلٌ ... عَلَى جَانِبٍ ـ تَأْوِي إِلَيْهِ الْعُلَا ـ سَهْلِ

حَمَائِمُ شَكْوَى صَبَّحَتْكَ هَوَادِلًا ... تُنَادِيكَ مِنْ أَفْنَانِ آدَابِيَ الْهُدْلِ (٤)

جَوَادٌ إِذَا اسْتَنَّ الْجِيَادُ إِلَى مَدًى ... تَمَطَّرَ فَاسْتَوْلَى عَلَى أَمَدِ الْخَصْلِ (٥)

ثَوَى صَافِنًا فِي مَرْبَطِ الْهُونِ يَشْتَكِي ... بِتَصْهَالِهِ مَا نَالَهُ مِنْ أَذَى الشَّكْلِ (٦)

---

(١) يرف ـ بالكسر ـ يبرق ويتلألأ ، أى يلوح لألاء بشره مع التأميل كما يبدو بريق السيف ولمعانه حين تصقله وتجلوه .

(٢) تمل مضارع أمل : يقال أملاه الغول وأمله ألقاه عليه ليكتبه ، ومنه قوله تعالى : « وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه » وقوله تعالى : « فليملل وليه بالعدل » واستمليته الكتاب طلب أن يمليه على ، أى هذه محاسن للممدوح الشبيه بالبدر لاعيب فيها سوى أنها بات تملى على الشاعر وهو يكتب ، ويستكتبها فتمليه .

(٣) تغص ثنائى : أى تجعله يغص كما يغص الشارب بالماء ولا يمكنه أن يستوفى هذه المحاسن كلها أو يسيغها ، وكما يغص سوار لفتاة الراد أى التى ترود بيوت حاراتها بالمعصم الخذل ـ بالذال المهملة ـ أى المتلئ فلا يتحرك

(٤) الهوادل : جمع هادلة ، والهديل : صوت الحمام ، والهدل : جمع أهدل ، وهو صفة الأفنان ، يقال : تهدل أغصان الشجرة أى تدلت ـ يمثل شكوى رفعها إليه بالحمام الهوادل تناديه بهديلها من أعلى شجرة الأدب وقد تدلت أفنانها ، وتهدلت أغصانها .

(٥) استن الجواد : مضت على وجهها فى السباق ، والمدى : الغاية تمطر : جاء إلى الغاية مسرعا ، فاستولى على الحصل : غلب على الرهان ـ يصف الشاعر نفسه بالسبق على غيره .

(٦) ثوى : أقام ، والصافن : من الجياد الذى قام على ثلاثة قوائم وقلب حافر الرابعة ، والشكل ـ بفتح فسكون ـ شد قوائم الدابة والشكال ـ يصف حاله فى محبسه وما يبثه من الشكوى بحال الجواد المقيم على الهون يشكو بتصهاله ، أذى شكاله ، قال ابن بسام فى الذخيرة : « وقوله ثوى صافنا » كقول المتنبى :

« وإن تكن محكمات الشكل تمنعنى ... ظهور جرى فلى فيهن تصهال. »

* * *

أَفِي الْعَدْلِ أَنْ وَافَتْكَ تَتْرَى رَسَائِلِي ... فَلَمْ تَتْرُكَنْ وَضْعًا لَهَا فِي يَدَيْ عَدْلِ
أُعِدُّكَ لِلْجُلَّى وَآمُلُ أَنْ أُرَى ... بِنُعْمَاكَ مَوْسُومًا وَمَا أَنَا بِالْغُفْلِ
وَمَا ذَاكَ وَعْدُ النَّفْسِ لِي مِنْكَ بِالْمُنَى ... كَأَنِّي بِهِ قَدْ شِمْتُ بَارِقَةَ الْمَحْلِ (١)

* * *

أَنُعْذَرُ زَعَمَ الْوَاشُونَ مَا لَيْسَ مَزْعَمًا ... تُعَذِّرُ فِي نَصْرِي وَتُعْذِرُ فِي خَذْلِي
وَأَصْدَى إِلَى إِسْعَافِكَ السَّائِغِ الْجَنَى ... وَأَضْحَى إِلَى إِنْصَافِكَ السَّابِغِ الظِّلِّ (٢)
وَلَوْ أَنَّنِي وَافَقْتُ عَمْدًا خَطِيئَةً ... لَمَا كَانَ بِدْعًا مِنْ سَجَايَاكَ أَنْ تُمْلِي (٣)
فَلَمْ أَسْتَثِرْ حَرْبَ « الْفِجَارِ » وَلَمْ أُطِعْ ... « مُسَيْلِمَةً » إِذْ قَالَ: إِنِّي مِنَ الرُّسْلِ (٤)

---

(١) فى معنى هذه الأبيات يقول ابن الرومى معاتبا :

« إذا أنت أرمضت الصنيعة مرة ... فلا تقتصر ماء الصنيعة بالمطل
ولا تخلط الحسنى بسوء فانه ... يجشمها أن تخلط الشكر بالعذل
أترضى بأن تبكى السهول وأن ترى ... وما مطلب الحاجات عندك بالسهل
أنف لعشاق المكارم أن ترى ... مواعيدهم مثل البوارق فى المحل . »

(٢) أصدى : مضارع صدى — بالكسر — أى أعطش ، وأضحى مضارع كل من ضحا وضحى — بالفتح والكسر — أى أبرز للشمس ، ومنه قوله تعالى : « وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى » واستعمله هنا فى البروز إلى إسعافه السابغ الظل ، لا فى البروز إلى الشمس ، وبعد هذا البيت وجد فى الأصل بعض بيت على هذه الصورة :

وحاشاك رام العذب إبلاغ سمعه ... قصم . . . . . .

(٣) واقعت دانيت ، وتملى تمهل ولا تتعجل العقوبة ، أى لو أنى دانيت متعمدا لوقوع فى الخطيئة لم يكن من سجاياك غير العفو والامهال .

(٤) يقول : إن هفوتى صغيرة لاينبغى أن تجسم إلى حد أن أكون كمثير حرب الفجار أو كمطيع مسيلمة فى دعواه الرسالة ، والفجار : بالكسر بمعنى المفاجرة كالقتال والمقاتلة ، وسميت حرب الفجار لأن العرب فجروا فيها إذ قاتلوا فى الأشهر الحرم ، وكانت للعرب قبل مبعث النبى صلى الله عليه وسلم أربع فجارات آخرها حرب الفجار التى ذكرت فى كتب السير ، وكانت بين قريش ومن معها من كنانة ، وبين قيس عيلان وشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض أيامها وسنه عشرون سنة ولم يقاتل ولكنه كان ينبل على أعمامه أى يرد عليهم نبل عدوهم إذا رموهم ، وأما « مسيلمة » فكان من خبره أن وفد مع قومه

وَمِثْلِيَ قَدْ تَهْفُو بِهِ نَشْوَةُ الصِّبَا ... وَمِثْلُكَ قَدْ يَعْفُو، وَمَا لَكَ مِنْ مِثْلِ
وَإِنِّي لَتَنْهَانِي نُهَايَ عَنِ الَّتِي ... أَشَادَ بِهَا الْوَاشِي وَيَعْقِلُنِي عَقْلِي (١)

* * *

أَأَنْكُثُ فِيكَ الْمَدْحَ - مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ - ... وَلَا أَقْتَدِي إِلَّا بِنَاقِضَةِ الْغَزْلِ ! (٢)
ذَمَمْتُ إِذَا عَهْدَ الْحَيَاةِ وَلَا يَزَلْ ... مُمِرًّا عَلَى الْأَيَّامِ طَعْمُهُمَا الْمَحْلِي (٣)
وَمَا كُنْتُ بِالْمُهْدِي إِلَى السُّودَدِ الْخَنَا ... وَلَا بِالْمُسِيءِ الْقَوْلَ فِي الْحَسَنِ الْفِعْلِ
وَمَا لِيَ لَا أُثْنِي بِآلَاءِ مُنْعِمٍ ... إِذَا الرَّوْضُ أَثْنَى بِالنَّسِيمِ عَلَى الطَّلِّ
هِيَ النَّعْلُ زَلَّتْ بِي، فَهَلْ أَنْتَ مُكْذِبٌ ... لِقِيلِ الْأَعَادِي إِنَّهَا زَلَّةُ الْحُسْلِ (٤)
وَهَلْ لَكَ فِي أَنْ تَشْفَعَ الطَّوْلَ شَافِعًا ... فَتَنْجِحَ مَيْمُونَ النَّقِيبَةِ أَوْ تُتْلِي (٥)

«بني حنيفة» على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولما رجع ومن معه من قومه إلى «اليمامة» ادعى النبوة، وأنه أشرك مع محمد بالأمر، واجتمع عليه «بنو حنيفة» وكانوا أربعين ألف مقاتل، وفي عهد الخليفة «أبي بكر» رضي الله عنه أرسل إليه «خالد بن الوليد» على رأس جيش، وحرت حرب بين الفريقين انتهت بمقتل «مسيلمة» وتفرق أصحابه.

(١) نهاي أي عقلي فاستعمله مفردا، قال في اللسان: «والنهى العقل يكون واحدا وجمعا، وفي التنزيل العزيز: إن في ذلك لآيات لأولي النهى» اهـ، وكان عليه حيث اعتبره مفردا وأسنده إلى نفسه أن تجرد الفعل من علامة التأنيث إلا أن يكون قد أراد جمع نهيه، وأن عقله لقوته بمثابة نهي متعددة، عن التي: أي جهة التي، أشاد بها: أساءها ونددبها، ويعقلني يحبسني ويمنعني.

(٢) ناقضة الغزل، في الكشاف عند قوله تعالى: «ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا» قيل هي ريطة بنت سعد بن تيم وكانت خرقاء اتخذت مغزلا قدر ذراع، وصارة مثل أصبع، وفلكة عظيمة على قدرها، فكانت تغزل هي وجواريها من الغداة إلى الظهر، ثم تأمرهن فينقضن ما غزلن.»

(٣) ممرا من أمر الطعام صيره مرا، والمحلي اسم مفعول من حليت العيش أحلاه أي استحليته.

(٤) الخنا والخنى، والحسل - الكسر - ولد الضب، ويكنى الضب: «أبا الحسل».

(٥) تشفع: من قولهم شفع الوتر من العدد شفعا صيره زوجا، والطول: القدرة والفضل، وتتلي: تتبع مضارع أتلاه إياه أتبعه، والمعنى هل لك أن تضم إلى طولك وإحسانك شافعا ملك يشفع لي في الخلاص من السجن فتسعى بإدراك حاجتي في حال كونك ميمون النقيبة أو تلي أي تتبع الاحسان والشفاعة بأمثالها: هذا ملخص مايفهم من البيت، وقد وجد في الأصل «تبلي» بالباء الموحدة، وقد فهمنا من السياق أنها تتلي لاتبلي ليناسب قوله «تشفع» أي تضم.

أَجِرْ أَعْدَآمِنْ أَحْسِنِ ٱبْدَأْعُدَا كُفِحُطْ تَحَفَّ ٱبْسُطِ ٱسْتَأْلِفْ صُنِ ٱحْمِ ٱصْطَنِعْ أَعِلْ (١)

مُنَّى — لَوْ تَسَنَّى عَقْدُهَا بِيَدِ الرِّضَا — تَيَسَّرَ مِنْهَا كُلُّ مُسْتَصْعَبِ الْحَلِّ (٢)

⁂

أَلَا إِنَّ ظَنِّى — بَيْنَ فِعْلَيْكَ — وَاقِفٌ وُقُوفَ الْهَوَى بَيْنَ الْقَطِيعَةِ وَالْوَصْلِ

فَإِنْ تُمْنَ لِى مِنْكَ الْأَمَانِى فَشِيمَةٌ لِذَاكَ الْفَعَالِ الْقَصْدِ وَالْخُلُقِ الرَّسْلِ (٣)

وَإِلَّا جَنَيْتُ الْأُنْسَ مِنْ وَحْشَةِ النَّوَى وَهَوْلَ السُّرَى بَيْنَ الْمَطِيَّةِ وَالرَّحْلِ (٤)

⁂

سَيُغْنِى بِمَا ضَيَّعْتَ مِنِّى حَافِظٌ وَيُلْفِى لِمَا أَرْخَصْتَ مِنْ خَطَرِى مُغْلِى

وَأَيْنَ جَوَابٌ عَنْكَ تَرْضَى بِهِ الْعُلَا إِذَا سَأَلَتْنِى بَعْدُ أَلْسِنَةُ الْحَفْلِ (٥)

---

(١) فى هـذا البيت كما يرى القارىء محاكاة لقول المتنبى ، وقد سئل بيتاً يتضمن أكثر ما يمكن من الحروف ، فقال :

« عش ، ارق ، اسم ، سد ، جد ، قد ، مر ، انه ، اسر ، فه ، تسل

غظ ، ارم ، صب ، احم ، اغر ، اسب ، رع ، زع ، دل ، اثن ، بل

وهـذا دعاء لو سكت كهيته لأنى سأل الله فيك ، وقد فعل . »

وجير من هذه المعاظلة قول ابن الرومى :

« أملى ، ورفهنى ، وأجزل مثوبتى وثابر على إدرار برى وواظب

لتأتينى جدواك — وهى سليمة من الذم — ما فيها اعتلال لعائب . »

(٢) لو تسنى : أى تسهل وتيسر إحكام أمر تلك التى بيد الممدوح لتسهل منها ما استصعب حله .

(٣) تمن : تقدر من مناه الله يمنيه قدره ومنه قول الشاعر :

« لا تأمن الدهر فى حل وفى حرم إن المنايا توافى كل إنسان

واسلك طريقك فيها — غير محتشم — حتى تلاقى ما يعى لك المنى . »

أى يقدر لك القادر ، والفعال — بالفتح اسم جامع لكل فعل حسن ، والقصد التوسط بين طرفى الافراط والتفريط ، والرسل — بالكسر — الرفق والتؤدة يقال افعل كذا على رسلك أى على هينتك وليس مرادا هنا بل المراد الرسل — بالفتح — أى السهل يقال سير رسل أى سهل .

(٤) وإن لم يقدر الله حصول تلك الأمانى على يديك ولم تحز على عادتك وخلقك فى إسعافى بحاجتى فأطلق سراحى لأضرب فى الفيافى وأحى من وحشة النوى وهول السرى أنسا .

(٥) وأين جواب عنك أى بمادا يكون جوابى عنك إذا سئلت عما أسديت من معروف أو قدمت من معونة . قال ابن بسام فى باب المواربة والنقد : « وأين جواب فيك ترضى به العلا » مأخوذ من قول الآخر :

« فاختر لنفسك ما أقول فانى لابد أخبرهم وإن لم أسأل . »

جـــواب

« كتب اليه الوزير الكاتب أبو بكر بن القصيرة
فى يوم أخذ فيه دواء :

مولاى نفسى إلى مطالعة الـ
ـحسنى بعقبى الدواء مطلعه
وكيف ذاك الحس الذكى وقد
باشر تلك المداقة الشعه
وددت لو أنى حصصت بما اسـ
ـتشعت منه وحزت منتفعه
أعقبك الله من فظاعتـه
أسوع صنع فى مثله صنعه
نصيحة تصحب الزمان فتـ
ـليه وتبقى جديدة نصعه
فأنت روح العلاء بسأه الـ
ـله وسمل الوفاء لا صدعه

فجاوبه ابن رشيق : »

قَدْ أَحْسَنَ ٱللّٰهُ فِى ٱلَّذِى صَنَعَهْ عَارِضُ كَرْبٍ بِلُطْفِهِ رَفَعَهْ
تَبَارَكَ ٱللّٰهُ إِنَّ عَادَةَ حُسْـ ـنَاهُ مَعَ الشُّكْرِ غَيْرُ مُنْتَزَعَهْ

* * *

يَاسَيِّدِى الْمُسْتَجِدَّ(١) مِنْ مِقَتِى(٢) بِخُطَّةٍ فَاتَتِ ٱلْحِسَابَ سَعَهْ
وَافَانِىَ الْعِقْدُ زِينَ نَاظِمُهُ وَالْوَشْىُ لَا رَاعَ حَادِثٌ صَنَعَهْ(٣)
بَثَثْتَ فِيهِ الْبَدِيعَ مُنْتَقِيًا كَالرَّوْضِ إِذْ بَثَّ فِى الرُّبَا قِطَعَهْ

(١) فى الأصل : المستبد . (٢) من حبى . (٣) صانعه .

أَزَاحَ كَرْبَ الدَّوَاءِ مَطْلَعُهُ ... لَمَّا بَدَا طَالِعُ السُّرُورِ مَعَهْ (١)

كَمْ دَعْوَةٍ ـ قَدْحَوَاهُ ـ صَالِحَةٍ ، ... مِنْ أَمَلِي أَنْ تَكُونَ مُسْتَمَعَهْ (٢)

جُمْلَةُ مَا نَفْسُكَ السَّرِيَّةُ مِنْ حَا ... لِي إِلَى عِلْمِ كُنْهِهِ طُلَعَهْ

أَنَّ الدَّوَاءَ الَّتِذَّتْ عَوَاقِبَهُ ... مِنِّيَ نَفْسٌ تَبَشَّعَتْ جُرَعَهْ (٣)

فَالْحَمْدُ لِلَّهِ ـ لَا شَرِيكَ لَهُ ـ ... إِنْ بَدَأَ الطَّوْلَ مُنْعِماً شَفَعَهْ

حبيب

وَرَامِشَةٍ (٤) يَشْفِي الْعَلِيلَ نَسِيمُهَا ... مُضَمَّخَةُ (٥) الْأَنْفَاسِ طَيِّبَةُ النَّشْرِ (٦)

أَشَارَ بِهَا نَحْوِي بَنَانٌ مُنَعَّمٌ ... لِأَغْيَدَ مَكْحُولِ الْمَدَامِعِ بِالسِّحْرِ (٧)

سَرَتْ نَضْرَةً ـ مِنْ عَهْدِهَا ـ فِي غُصُونِهَا ... وَعُلِّتْ بِمِسْكٍ مِنْ شَمَائِلِهِ الزُّهْرِ

إِذَا هُوَ أَهْدَى الْيَاسَمِينَ بِكَفِّهِ ... أَخَذْتُ النُّجُومَ الزُّهْرَ مِنْ رَاحَةِ الْبَدْرِ

لَهُ خُلُقٌ عَذْبٌ وَخَلْقٌ مُحَسَّنٌ (٨) ... وَظَرْفٌ كَعَرْفِ الطِّيبِ أَوْ نَشْوَةِ الْخَمْرِ (٩)

يُعَلِّلُ نَفْسِي مِنْ حَدِيثٍ تَلَذُّهُ ... كَمِثْلِ الْمُنَى وَالْوَصْلِ فِي عُقُبِ الْهَجْرِ (١٠)

---

(١) لما بدا شعرك الجميل ومعه طالع السرور أنساني مرارة الدواء .

(٢) كم دعوة حواها سعرك ادعو الله أن تكون مستجابه .

(٣) كانت عاقبة الدواء حميدة وإن جزعت نفسي من شربه .

(٤) في القاموس الرمش : الطاقة من الريحان ونحوه . وفي شفاء العليل ، رامشه : قال الصولي هي ورقة آس لها رأسان . قال أبو نواس :

« لها روامش يلتحين لنا ... نظل آذانا مطايا لها . »

(٥) معطرة . (٦) طيبة : الرائحة .

(٧) رب طاقة من الزهر معطرة الشذى طيبة الأنفاس قدمها إليّ من أهواه .

(٨) خلقة حسنة . (٩) يعني أن سحر عينيه يفعل في النفس ما يفعله الطيب أو الخمر .

(١٠) العقب : بضمتين ، والعقب بضم وسكون العاقبة مثل عمر وعمر . قال تعالى : « هو خير ثوابا وخير عقبا . »

فى مدح ابن جهـــور

« قال يمدح ابن جهور ويذكر جوارا لم يرعه ، وأملا ضيعه ، ويتعنى إنجاحه فى طلبته ، وإسعافه بأمنيته . »

« جَنَاحِي » فِي جِوَارِكُمُ الذَّلِيلُ ... وَحَدِّي فِي رَبَائِكُمُ الْكَلِيلُ (١)

نَصِيبٌ مِنْ وِلَايَتِكُمْ كَثِيرٌ ... وَحَظٌّ مِنْ عِنَايَتِكُمْ قَلِيـــلُ !

لَمُخْتَلِفَانِ مِنْ حَالَيَّ مَهْمَا ... أَجَالَ الْفِكْرَ بَيْنَهُمَا مُجِيلُ (٢)

أَتَحْيَا أَنْفُسُ الْآمَالِ فِيكُمْ ... وَلِي ـ أَنْنَاءَهَا ـ أَمَلٌ قَتِيلُ ؟ (٣)

وَأَعْجَبُ حَادِثٍ نَظَرِي لَدَيْكُمْ ... إِلَى غَلَلِ النَّجَاحِ وَبِي غَلِيلُ ! (٤)

وَقِدْحِي فِي وِدَادِكُمُ مُعَلًّى ... وَبَاعِي فِي اعْتِمَادِكُمُ طَوِيلُ (٥)

وَكَأْنٌ لِي ثَنَاءً رَاحَ يَثْنِي ... إِلَيْهِ الْعِطْفَ مَجْدُكُمُ الْأَثِيلُ (٦)

---

(١) وجد هذا البيت فى نسختى الديوان على هذه الصورة .

. . . . . فى جواركم الذليل وحدى فى ربائكم الكليل

والتكملة من عندنا كما يعطيها السياق .

(٢) يقول : إن حالى لمختلفان عند إجالة الفكر ، فنصيبى من ولايتكم ونصرتكم وحى لكم كثير ، وحظى من عنايتكم وتفقدكم قليل .

(٣) ينكر عليهم أن تكون آمال الناس حية بسببهم وأمله بينها كالقتيل بين الأحياء .

(٤) الغلل : السلسل الضعيف الذى يجرى فى أصول الشجر فيرويها قبل أن تضعف ، والغليل : العطش أى وأعجب ماحدث لى أن أنظر إلى مسيل ماء من ناحيتكم فيه نجاحى وانتعاش آمالى ، وبى ظمأ شديد فيحال بينى وبين مايبرد علتى ويشفى غليلى .

(٥) المعلى من قداح الميسر العشرة ، والقدح : بالكسر اسم للسهم ، وكانت قداح الميسر عندهم معروفة بعلامات خاصة ، ضعونها فى خريطة على يدى عدل يجيلها ويخرج باسم كل واحد من الياسرين قدحا ، فان كان غفلا أى لانصيب له عرم صاحبه ، وإن كان من ذوات الانصباء أحد نصيبه بحسبه ، والذى يخرج له القدح المعلى يعدّ أكبر فائز بأوفر نصيب لأن له سبعة أنصباء ، وكانوا يتقامرون على جزور يقتسمونها والذى يخرج لهم من الانصباء ، يوزعونه على الفقراء .

(٦) وكم من ثناء ومدح راح يثنى إليه مجدكم المتأصل عطفه .

تُنَافِسُـــهُ الرِّيَاضُ مُنَوِّرَاتٍ تَنَفَّسَ عَنْ نَوَافِحِهَا الْأَصِيلُ (١)

⁂

« أَبَا الحَزْمِ » الزَّمَانُ ـ بِأَنْ تُثْنَى إِذَا عُدَّتْ فَوَاضِلُـكُمْ ـ بَخِيلُ (٢)

عَلَوْتَ النَّجْـــمَ إِذْ مَلَّ المُسَامِي وَحُزْتَ الْخَصْلَ إِذْ كَلَّ الرَّسِيلُ (٣)

رَأَيْتُ النَّاسَ ـ مَا أَصْبَحْتَ فِيهِمْ ـ بَلَاءُ اللهِ عِنْدَهُمُ جَمِيـــلُ

وَمَاءُ الْعَيْشِ يَنْهَمُ فَضِيضٌ وَظِلُّ الْأَمْنِ فَوْقَهُمُ ظَلِيلُ (٤)

وَلَوْ فَقَدُوكَ ـ لَا فَقَدُوا ـ حَوَاهُمْ مَرَادٌ مِنْ زَمَانِهِمِ وَبِيـــلُ (٥)

وَشَاقَ نُفُوسَـــهُمْ رَسْمٌ مُحِيلٌ ـ مِنَ الدُّنْيَا ـ وَعَهْدٌ مُسْتَحِيلُ (٦)

فَخَاصِرْ دَوْلَةً تَفْنَى لِلَيَالِي وَلَمْ يُلْمِمْ بِسَاحَتِهَا مُدِيلُ (٧)

وَلَا زَالَتْ نِبَالُ الدَّهْرِ تُصْمِي عُدَاتَكَ أَيُّهَا المَلِكُ النَّبِيلُ

أَأَيْئَسُ مِنْ مُسَاعَفَةِ اللَّيَالِي وَأَنْتَ ـ إِلَى نِهَايَتِهَا ـ سَـــبِيلُ ؟

---

(١) النوافح : جمع نافحة وأراد بها أنفاس الرياض التى تحملها نسمات الأصيل فسموح منها نفحات طيبة ، يقول إن ذلك الثناء الطيب تنافسه الرياض وهى منورات قد تنفس الأصيل عن نوافحها أى مافوح من طيب روائحها ، ويجوز أن يكون عن نوافحها جمع نافحة المسك . (٢) ثناه يثنيه جعل له ثانيا ، أى يا أبا الحزم الزمان بخيل بأن يعدّ لك ثانيا فى الفضل إذا عدت فواضلكم .

(٣) حزت الخصل : أى أحرزت الغلبة فى الرهان أو أدركت الغاية فى السبق ، والرسيل الماضى ، أو السابق ، وقد جاء فى الأصل «المساعي» فوضعنا فى مكانها «المسامى» كما يرشد إليه المعنى .

(٤) الفضيض : الماء العذب الكثير المتدفق ، أو ماء السحاب الغزير المتفرق ، ووطل طليل : أى دائم لاينقطع الصبح . (٥) مراد — بالفتح — اسم مكان من رادت الابل ترود ، أى اختلف ذهابها ومجيئها فى المرعى ، والوبيل الوخيم الذى لايستمرأ ، والمعنى : لو فقدوك — لافقدر الله — ولم يستطلوا بطل دولتك لاحواهم من زمانهم مرعى وبيل فلم يهنأ لهم عيش ولم ينعم لهم بال .

(٦) الرسم مابقى من آثار الدار بعد ارتحال ساكنيها ، والمحيل : المتقادم العهد الذى مرت عليه أحوال ، والمستحيل : المتغير ، أى لو فقدوك لاستوحوا العاقبة ، ولمارعتهم نفوسهم — إذا استمرءوا فقدك ولم يقوموا بنصرتك — إلى دنيا تحولت حدتها إلى بلى ، وسبابها إلى هرم ، وتغير عهدها من سعادة وهناء إلى محنة وشقاء . (٧) المخاصرة أخذ الرجل بيد صاحبه إذا ماشاه ، ومنه قوله :

ثم خاصرتها إلى القبة الخضـ ـراء تمشى فى مرمر مسنون

معناه ماشيتها إلى القبة الخضراء تمشى على مرمر مملس ، والمديل المتقلب الذى تنتقل إليه الدولة ، يدعو للممدوح ببقاء الدولة له من غير تحول ولا انتقال .

إلى المظفـــر

« كتب إلى المظفر سيف الدولة أبي بكر محمد بن عبد الله بن محمد بن مسلم صاحب بطليوس . »

لِبِيضِ الطُّلَى وَلِسُودِ اللِّمَمْ ... بِعَقْلِي ـ مُذْ بِنَّ عَنِّي ـ لَمَمْ (١)

فَفِي نَاظِرِي ـ عَنْ رَشَادٍ ـ عَمًى ... وَفِي أُذُنِي ـ عَنْ مَلَامٍ ـ صَمَمْ (٢)

قَضَتْ بِشُمُوسٍ عَلَى الْعَاذِلِينَ ... شُمُوسٌ مُكَلَّلَةٌ بِالظُّلَمْ (٣)

فَمَا سَـقَمَتْ لَحَظَاتُ الْعُيُو ... نِ إِلاَّ لِتُغْرِيَنِي بِالسَّـقَمْ

يَلُومُ الْخَلِيُّ عَلَى أَنْ أَجَنَّ ... وَقَدْ مَزَجَ الشَّوْقُ دَمْعِي بِدَمْ (٤)

وَمَا ذُو التَّذَكُّرِ مِمَّنْ يُلَامُ ... وَلَا كَرَمُ الْعَهْدِ مِمَّا يُذَمْ (٥)

⁂

وَإِنِّي أَرَاحُ إِذَا مَا الْجَنُو ... بُ رَاحَتْ بِرَيَّا جَنُوبِ الْعَلَمْ (٦)

---

(١) الطلا : بضم الطاء هي العنق والجمع طلى مثل تقاة وتقى ، واللمم : بكسر اللام جمع لمة ـ الشعر المجاور شحمة الأذن ـ لم بفتح اللام ـ الجنون .

(٢) في هذا البيت والذي قبله يقول الشاعر أنه عمي عن الرشاد وصم عن الملام وصار في حال جنون مد بان وبعد عنه الحسان بين الأعناق سود اللمم .

(٣) شمس الغرس شموسا وشماسا مع طهره ـ العرب تقول رو ة مكللة ، يعني محفوفة بالبور ، فقول الشاعر : شموس مكللة : أي مجللة بليل الشعر الأسود ـ وهذا البيت يشابه التكملة لوصف حالته في البيتين السابقين فكأنه يقول وكما عميت عن الرشد وصممت عن الملامة كذلك فقد قضى عليّ هذا الجمال أن أشمس على العاذلين . (٤) الخلي : كمعي الفارغ ، وفي المثل العربي القديم « ويل للشجي من الخلي » .

(٥) انتقل الشاعر لتبرير جنونه في غرامه وفي دموعه التي مزجت بالدم وألزم لومه بالحجة وقذف في وجوههم بالبرهان الذي ليس وراءه برهان ، فقال : إن بكائي وجنوني ولوعتي كلّ أولئك لا لوم فيه ولا بأس منه في سبيل الذكرى والحفاظ بالعهد فليس كرم العهد مما يذم ، وفي القرآن الكريم : «وأوفوا بالعهد إنّ العهد كان مسئولا »

(٦) أراح ـ استريح ـ ريح الجنوب هي المقابلة لريح الشمال ـ « راحت » ـ من الرواح ، وهو ضدّ الغدوّ يقول : إني لكثرة تذكري الأحبة ولكثرة حفاظي بعهودهم أستريح إذا ريح الجنوب عادت إليّ برائحة أمكنتهم المقدسة المحبوبة .

وَأُصْبُو لِعِرْفَانِ عَرْفِ الصَّبَا ... وَأُهْدِي السَّلَامَ إِلَى «ذِي سَلَمْ»(١)

وَمِنْ طَرَبٍ عَادَ نَحْوَ «الْبُرُو ... قِ» أَجْهَشْتُ لِلْبَرْقِ حِينَ ابْتَسَمْ(٢)

أَمَا وَزَمَانٍ ـ مَضَى عَهْدُهُ ... حَمِيداً ـ لَقَدْ جَارَ لَمَّا حَكَمْ

قَضَى بِالصَّبَابَةِ ثُمَّ انْقَضَى ... وَمَا اتَّصَلَ الْأُنْسُ حَتَّى انْصَرَمْ(٣)

لَيَالِيَ نَامَتْ عُيُونُ الْوُشَا ... ةِ عَنَّا، وَعَيْنُ الرِّضَى لَمْ تَنَمْ(٤)

وَمَالَتْ عَلَيْنَا غُصُونُ الْهَوَى ... فَأَجْنَتْ ثِمَارَ الْمُنَى مِنْ أَمَمْ(٥)

وَأَيَّامُنَا مُذْهَبَاتُ الْبُرُودِ ... رِقَاقُ الْحَوَاشِي صَوَافِي الْأَدَمْ(٦)

---

(١) أصبو ـ أميل ـ وعرفان ـ معرفة ، والعرف هو الشذى . يقول : أنى أيضا أميل صبوة وحبا إذا هبت الصبا ـ ريح الشمال ـ لأنها معطرة بشذى من يحبهم ويهواهم فيهدى السلام إلى ذى سلم الموضع الذى حلت به الصبا لذلك الشذى المحبوب .

(٢) أجهشت : ارتفع صوتى باكيا ، يقول : كما أنى أسترجع للمحبوب إذا عادت بريا ريح العلم وأصبو إلى شذى الصبا كذلك أبكى من طرب يعاودنى إذا ابتسم البرق ولمع ، والمعنى فى هذه الأبيات أنه يسترجع لكل قادم من جهات أحبه لأن فى ذلك نوعا من الذكرى . ولا نظن شاعرا لم يبك لابتسام البروق ولم ينتش من ريا الصبا والجنوب .

(٣) الصرم : هو القطع، والمعنى أن الزمان الذى مضى حميدا حاد عن العدل حين حكم وهل أقل من وسم هذا الزمن بمجانبة العدل ، وهو الذى ما كاد يقضى لنا بالصبابة والاستمتاع حتى انقضى وشيكا ، وما كادت تتصل أوقات الأنس حتى صرمه عنا وحال بيننا وبينه .

(٤) الوشاة : فى الأصل هم الذين يمشون بالشر والسعاية فيذيعون الأسرار ، والمراد بهم هنا الخصوم على الاطلاق والمراد بعين الرضى حلة السعادة التى ينعم بها المحبوب فى ساعات الوصال ، وكأنك بالشاعر فى هذا البيت شرع يفصل الصبابة التى انصرمت والأنس الذى انصرم ، فقال : ليالى نامت عيون الوشاة إلى آخر هذا الوصف الذى يتخلص به إلى المديح فى أبى بكر .

(٥) أجنت ثمار المنى : أى أعطت، والأمم هو القرب ، تقول : رأيته من أمم ، أى من قرب، يقول أيضا فى تفصيل الأنس الذى انصرم: ومالت علينا غصون الهوى أى وليالى طلتنا هذه العصور ـ فجنينا منها ما شئنا ـ

(٦) مذهبات البرود : أى مموهة البرود ـ جمع برد ـ بالذهب ، وقوله « رقاق الحواشى » كناية عن رقة وحضرة العيش فى تلك الأيام ورغده ، وكذلك قوله صوافى الأدم ، والأدم هو الجلد . قال المتنبى :

« فبأيما قدم سعيت إلى العلا أدم الهلال لأخمصيك حذاء . »

كَأَنَّ « أَبَا بَكْرٍ » الْأَسْـــلَمِيَّ أَجْرَى عَلَيْهَا فِرِنْدَ الْكَرَمْ (١)

وَوَشَّحَ زَهْرَةَ ذَاكَ الزَّمَانِ بِمَا حَازَ مِنْ زُهْرِ تِلْكَ الشِّيَمْ (٢)

هُوَ الْحَاجِبُ الْمُعْتَلِي لِلْعُلَا شَمَارِيخَ كُلِّ مُنِيفٍ أَشَمّْ (٣)

مَلِيكٌ إِذَا سَابَقَتْهُ الْمُلُوكُ حَوَى الْخَصْلَ أَوْ سَاهَمَتْهُ سَهَمْ (٤)

فَأَطْوُلُهُمْ ـ بِالْأَيَادِي ـ يَداً ، وَأَثْبَتُهُمْ ـ فِي الْمَعَالِي ـ قَدَمْ (٥)

⁂

وَأَرْوَعَ لَا مُعْتَفِي رِفْدِهِ يَخِيبُ وَلَا جَارُهُ يُهْتَضَمْ (٦)

---

(١) كأن أبا بكر الأسلمى أجرى محاسن جوده وديباجة كرمه على تلك الليالى والأيام التى نامت عنها عيون الوشاة وطلاه غصون الهوى فيها ، وهذا مما يعمل الشعراء كثيرا فخلصا من الغزل والنسيب إلى المدح وهو مايسميه علماء البديع : حسن التخلص .

(٢) وكأن أبا بكر بما أحرز من شمائل بيض كأنها زهر الكرم قد وشح تلك الأيام بما وشحها به من نضرة وحسن .

(٣) شماريخ : جمع شمراخ أو شمروخ ـ أعالى الجبال ـ كل منيف أشم : أى كل عال مرتفع . يقول : إن أبا بكر هذا لايقف فى العلا عند حدّ فهو فى سبيلها قد تسنم ذرا كل منيف ، وعلا فوق كل عال .

(٤) حوى الخصل : أحرز الشىء المعلوم الذى تراهنوا عليه فى السباق ، يعنى أحرز قصب السبق ، وساهمه : أى فارعه الملوك وناضلته فسهمهم أى علبهم ، والمعنى : أن هذا الملك سابقه الملوك فى المجد فأحرز دونهم قصب السبق ، وفارعوه فى مضمار النضال فقرعهم وغلبهم .

(٥) بالأيادى : النعم ، وهذا : زيد تأكيد ، وهذا البيت توضيح أو تأكيد لسابقه أو هو بيان للمزايا التى بها يفلب هذا الملك أقرانه الملوك من أمثاله ويسبقهم .

(٦) الأروع : من يعجبك شمائله وحمارة منظره أو شجاعته كالرائع ، وقالوا فى الأروع : إنه الرجل الكريم الحى النفس الذكى الجميل الذى يروعك حسنه ، ويعجك إذا رأيته ، والمعتفى : كالعافى كل من جاء يطلب رفداً وعطاء وفضلا ، قال الأعشى :

« تطوف العفاة بأبوابه طواف النصارى ببيت الوثن . »

وقال مسلم بن الوليد :

« ترى العفاة عكوفاً حول حجرته برجون أروع رحب الباع ساما . »

وقال أبو تمام :

« كم أعطب راحتاه من نشب سلامة المعتفين فى عطبه . »

والرفد : العطاء ـ وقوله لا معتفى ـ فى القاموس اعتفت الابل البيدس واستعفت أحدثته بلسانها فوق التراب مستعفية له ، والرفد هو العطاء ولا جاره يهضم هضم الجار وتهضمه يعنى ظلمه يقول إن هذا الملك اجتمع له حسن الخلق فهو محبب الباطن إليه بحسنه وجمال هيئته كما اجتمع له حسن الخلق ، لأنه لا يخيب طالب رفده ولا يظلم جاره .

ذَلولُ ٱلدَّمَانَةِ صَعْبُ ٱلإِبَاءِ ثَقِيفُ ٱلعَزِيمِ إِذَا ٱعْتَزَمْ (١)

سَمَا ٱلْمَجَـــرَّةِ فِى أُفْقِهَا فَجَرَّ عَلَيْهَا ذُيُولَ ٱلْهِمَمْ (٢)

وَنَاصَتْ مَسَاعِيهِ زُهْرَ ٱلنُّجُومِ وَبَارَتْ عَطَايَاهُ وُطْفَ ٱلدِّيَمْ (٣)

نَهِيكٌ إِذَا جَنَّ لَيْلُ ٱلْعَجَاجِ سَرَى مِنْهُ فِى جَنْحِهِ بَدْرُ تَمْ (٤)

---

(١) الدمانة سهولة الخلق ـ وقوله ثقيف العزيم ـ ثقف إذا صار حاذقا حصيفا فطنا، وثقيف إذا عظمت فيه هذه الصفات ، والعزيم والعزيمة والعزم واحد ، معى أن الممدوح مع ماتقدّم من صفات رحولته وسمو فروسته وطواتـه ليس بمتكبر ولا متعجرف ، وإنما هو سهل الخلق دمث الطبع ولـكن فى إباء ، كما أنه كثير الحذق والفطنة مثقف العزيم إذا ما اعتزم الأمور أو طلب القنائص والرغاب .

(٢) المجرة : إحدى كواكب السماء فهذا الممدوح قد سما المجرة أى علا إليها وزاد عليها بعلوّ الهمم التى فصلها قوله فى الأبيات السابقه لامعنى رفده يخيب ولا جاره يهتضم وأنه إذا سابق الملوك غلبهم ، وأنه أطولهم يدا ، وأثبتهم قدما ، وليس المجرة من المآثر فى الناس ما يعادل مآثر هم هذا الممدوح .

(٣) ناصت مساعيـه زهر النجوم : أى أن مساعيه ارتفعت حتى ساوت النجوم الزاهره كالمجرة والثرة والأكليل ، وقوله وطف الديم ، وطف : جمع وطفاء ، وهى السحابة المسترخية من المطر ، والديم : جمع ديمة ، وهى مطر يدوم فى سكون بلا رعد ، يقول : إن عطاياه تبارى السحب الممطره الدائمة بلا حلبة ولا ضوضاء فكأن هـذا الرب برهان لسابقه ، وكأنه يقول : لم لاتفضل على المجرة من هـذه صفات مساعيه وسحب مبراته وعطاياه .

(٤) النهيك : الشجاع القوى المانع فى الشجاعة لأنه ينهك عدوه فيمنع منه ما يريد ، جن ليل العجاج : كل ما ستر عنك فقد جن عنك، والعجاج: الغبار المثار واحدته عجاجه ، وجمع الليل ـ بكسر الجيم وبضم ـ الطائفة من الليل ، وبدر تم: هو القمر إذا أبدر فى ليلة تمامه أربع عشرة ، يقول: حسبك من هذا الممدوح أنه إذا جن ليل الحرب سرى منه وجه مشرق أو سيف لامع يشبه البدر فى ليلة التمام يكشف ظلام هـذا العجاج ، ويبين عن جبهة النصر والفوز ، فهو بعـد أن فرغ من إثبات كرم ممدوحه ، وحسن خلقه بما يعلو به على مكانة النجوم ويزهو بقدره فوق هام الكواكب شرع يثبت له أنه فارس خيل ، وكاشـف ويل ، وأنه لا يسطع بدر كلما ثارت عجاجة الهيجاء ، وادلهمت الحرب الهوجاء .

فَشَامَ السُّيُوفَ بِهَامِ الْكُمَاةِ ... وَرَوَّى الْقَنَا فِي نُحُورِ الْبُهَمْ (١)

جَوَادٌ ذَرَاهُ مَطَافُ الْعُفَاةِ ... وَيُمْنَاهُ رُكْنُ النَّدَى الْمُسْتَلَمْ (٢)

يَهِيجُ النِّزَالُ بِهِ وَالسُّوَا ... لُ لَيْثًا هَصُورًا وَبَحْرًا خَضَمْ (٣)

شَهِدْنَا ، لَأُوتِيَ فَصْلَ الْخِطَابِ ... وَخُصَّ بِفَضْلِ النُّهَى وَالْحِكَمْ (٤)

وَهَلْ فَاتَ شَيْءٌ مِنَ الْمَكْرُمَاتِ ... جَرَى السَّيْفُ يَطْلُبُهُ وَالْقَلَمْ (٥)

---

(١) شام السيوف : معناه أغمدها أو سلها فهو من الاضداد ، ولكن يتعين هنا أن يكون معناه أغمدها فى هام الكماة ، يقال شام الشيء فى الشيء أدخله فيه أى جعل من رءوس الكماة أغمادا للسيوف — هام : جمع هامة ، وهى الرأس ، والكماة : جمع كمى ، وهو الفارس المدجج فى السلاح والقنا : جمع قناة ، وهى الرمح ، والبهم : جمع بهمة بضم الباء وسكون الهاء الشجاع الذى لايهتدى من أين يؤتى — أو هو الجيش ، فهو يقول: إداجن ليل العجاج وسرى من ذلك الممدوح فى تلك الداجية — بدر تم — هنالك رأيت كيف يعمد السيوف فى رؤس الفرسان المدجمين فى السلاح ، ورأيت كيف تسقى الرماح من دم نحور الشجعان الذين لاتعرف ماتيهم فى الحروب .

(٢) يقول : ان ممدوحه جواد وان فى داره مطافا ومثابة للعفاة من طلاب الرفد والعطاء وإن يده اليمنى كأنها لكثرة ما تقبل من سفاه المرفودين أصبحت كالحجر الأسود المستلم الذى يقبله حجاج بيت الله الحرام .

(٣) الخضم : السيد الجواد المعطاء . قال فى القاموس : هو خاص بالرجال ومن معانيه البحر أيضا — النزال : بالكسر أن ينزل الفريقان المتحاربان عن إبلهما إلى خيلهما فيستراوا ، ويقال : نزال : كقطام ، أى انزل — للواحد والجمع والمؤنث ، والليث من أسماء الأسد ، والهصور — كالمهصار — والمهصير — أسماء للأسد أيضا ، وقوله « وبحرا خضم » ، وكذلك قوله فى بيت سبق فى هذه القصيدة نفسها :

« فأطولهم بالأيادى يدا ... وأثبتهم فى المعالى قدم »

أجرى فيه المنصوب المنون فى الوقف مجرى المرفوع والمجرور، فوقف عليه بالسكون ولم يقف عليه بالألف. وذكر النحاة أن اللغة الفاشية من لسان العرب قلب التنوين ألفا فى المنصوب المنون عند الوقف نحو رأيت زيدا ، ونحو خضما ، وربيعة يجيزون إجراءه فى الوقف مجرى المرفوع والمجرور ، قال الشاعر :

« ألا حبذا غنم وحسن حديثها ... فقد تركت ظبى بها هائما دنف . »

« وابن ريدون » على قولته ماكان ينبغى له أن يضطر إلى استعمال هذه اللغة القليلة فى شعره . ومعنى البيت أن دعوة الحرب تهيج من هذا الممدوح ليثا هصورا كما أن سؤل رفده وعطائه يهيج منه سيدا حمولا لما يكلف معناه لما يسأل كالبحر .

(٤) فى هذا البيت الجناس بين فصل الخطاب وفضل النهى ، ومعنى البيت أن الممدوح حكيم لا فى غبا وبكم وذرب اللسان والمنطق ولكن لا فى طيش وخفة ، وهذا فلما يتاح إلا لمن هيأهم الله لنصرة الحق والدفاع عن حوزة الدين ، وجدير بمن يؤتى فصل الخطاب وفصل النهى أن تشهد له زمنه ويعترف له بالزعامة . والرياسة والفضل .

(٥) يؤكد ما قاله فى البيت السابق ، فيقول : هل ترك الممدوح أو فات شيئا من المكرمات يمكن السيف والقلم إحرازه من غير أن يحرزه ؟

* * *

وَمُسْتَحْمَدٍ بِكَرِيمِ الْفِعَا ... لِ عَفْواً إِذَا مَا اللَّئِيمُ اسْتَذَمْ (١)

شَمَائِلُ تُهْجِرُ عَنْهَا الشَّمُولُ ... وَتُجْفَى لَهَا مُشْجِيَاتُ النَّغَمْ (٢)

عَلَى الرَّوْضِ مِنْهَا رُوَاءٌ يَرُوقُ ... وَفِي الْمِسْكِ طِيبٌ أَرِيجٍ يُشَمْ (٣)

* * *

أَبُوهُ الَّذِي فَلَّ غَرْبَ الضَّلَالِ ... وَلَاءَمَ شَعْبَ الْهُدَى فَالْتَأَمْ (٤)

وَلَاذَ بِهِ الدِّينُ مُسْتَعْصِماً ... بِذِمَّةِ أَبْلَجَ وَافِي الذِّمَمْ (٥)

وَجَاهَدَ فِي اللهِ حَقَّ الْجِهَا ... دِ مَنْ دَانَ مِنْ دُونِهِ بِالصَّنَمْ (٦)

---

(١) مستحمد : أى منسوب إلى الحمد ، ويقال فعل الشيء عفواً أى من غير تعمل ولا طلب ، واستذم : فعل ما يذم عليه ، والمعنى فى هـذا البيت أنه من طبيعته الاستحماد — عفواً — لأنه كريم الفعال التى من شأنها أن تعود على صاحبها بالحمد ، وذلك فى الوقت الذى يصدر فيه اللؤم اللؤماء عفواً أيضاً . يقول إن ممدوحه فى الوقت الذى يبدو فيه لؤم اللؤماء رغم لؤمهم وريائهم يظهر كرمه الفطرى وميوله الخيرية التى ترغمه أيضا على إحراز المحامد .

(٢) الشمول : من أسماء الخمر — تجفى : تهجر ، والمعنى أن شمائل ممدوحه تغنى عن الخمر والغناء الشجى لأنها يغنى بها فتطرب ويتحدث عنها فتسكر .

(٣) الرواء الحسن — الأريج : الرائحة الطيبة ، يقول : إن هـذه الشمائل تلى فى رواء الحسن الذى يروق الناظر فى الروض ، وكذلك تلى فيما يلذ المعاطس فى الأريج الطيب المشموم من المسك .

(٤) فلّ غرب الضلال : أى ثلم حده الذى يشبه حدّ السيف فى المضاء ، وقوله — ولاءم شعب الهدى فالتأم معناه أصلح شعب الهدى فاصلح ، والمعنى أن أباه رأب صدع الهدى وفرق حزب الضلال وخضد شوكته .

(٥) الأبلج : هو كل واضح ، ويقال : أبلج الصبح وضح يقول بانى الممدوح احتمى الدين منه واعتصم بواضح المكانة وافى الذمم .

(٦) يقول : وإن أبا هذا الممدوح أبلى البلاء الحسن فى الجهاد لله وفى مجاهدة من دان من دون الله بالصنم ، يعنى أنه عاش لله وليا لأوليائه عدوّا لدودا لأعدائه .

فَلاَ سَامِيَ الطَّرْفِ إلاَّ أَذَلَّ ... وَلاَ شَامِخَ الْأَنْفِ إلاَّ رَغَمْ (١)

تَقَيَّلَ فى الْعِزِّ ـ مِنْ حِمْيَرٍ ـ ... مَقَاوِلَ عَزُّوا جَمِيعَ الْأُمَمْ (٢)

هُمُ نَعَشُوا الْمُلْكَ حَتَّى اسْتَقَلَّ ... وَهُمْ أَظْلَمُوا الخَطْبَ حَتَّى أَظَلَّمْ

نُجُومُ هُدًى ـ وَالمَعَالِى بُرُوجٌ ـ ... وَأُسْدُ وَغًى وَالْعَوَالِى أَجَمْ (٣)

* * *

« أَبَا بَكْرٍ » أَسْلَمْ عَلَى الحَادِثَاتِ ... وَلاَ زِلْتَ مِنْ رَيْبِهَا فى حَرَمْ (٤)

أُنَادِيكَ ـ عَنْ مِقَةٍ ـ عَهْدُهَا ... كَمَا وَشَتِ الرَّوْضَ أَيْدِى الرِّهَمْ (٥)

وَإِنْ يَعْدُنى عَنْكَ شَحْطُ النَّوَى ... فَحَظِّى أَخَسَّ وَنَفْسى ظَلَمْ (٦)

---

(١) رغم : رغم يقول : إنه لم يترك من أعدائه ، سامى الطرف إلا أذله ، ولا أشم الأنف إلا أرغمه ، ويقال رغم أنفه يعنى أذله على كره منه أرغمه .

(٢) تقيل أباه أشبهه ـ مقاول ومقاولة وأقيال وأقوال جمع مقول كبير أو جمع قيل ـ الملك من ملوك حمير ـ أو هو مادون الملك الأعلى، وسمى بيلا لأنه يقول ماشاء فيمضى ، وحيثما سمى البيت أنه فى عزه ومجده ومناعته أشبه أمره وأحداده من ملوك وأقيال حمير الذين سادوا وغلبوا جميع الأمم .

(٣) بروج السماء معروفه ـ الوغى: غبار الحرب أوالحرب ـ العوالى صدور الرماح ـ والأجم بالضم وبضمتين والتحريك جمع أجمة محركة ـ الشجر الكثير الملتف ، والمعنى أن المقاولة الاقيال آباء هذا الممدوح كانوا فى المعالى يشبهون النجوم فى بروجها فى السماء كما كانوا فى الحروب يشبهون الأسد تطلبهم رماح كأنها أجم الأسد .

(٤) يدعو له أن يزال فى مأمن من أحداث الدهر ومصائبه ، وأن يطل فى موضع لا تهتكه الحادثات ولا تصل إليه ريبها .

(٥) المقة : المحبة ، والرهم : كعب جمع رهمة بكسر الراء وسكون الهاء وهى المطر الضعيف الدائم ويقال روضة مرهومة ، يقول الشاعر : أناديك نداء صادراً عن مقة ومحبة عهدها فى الجدة والشباب كما نقشت أيدى السحاب المدرار ، أديم الروض الناضر ، بألوان الربيع الزاهر .

(٦) عداه عن الأمر صرفه وشغله ، ويعدنى عنك : صرفى ويشغلى عنك ، والشحط : البعد ، والنوى الاغتراب . يقول : إذا كان الاغتراب يشغلى ويصرمى عنك فانه لم يرخص إلا حظى ولم يظلم إلا نفسى فضرر هذا البعد واقع بى وحدى وليس يقع منه شىء عليك .

وَإِنِّي لأُصْفِيكَ مَحْضَ الْهَوَى ... وَأُخْفِي لِبُعْدِكَ بَرْحَ الأَلَمْ (١)

وَغَيْرُكَ أَخْفَرَ عَهْدَ الذِّمَامِ ... إِذَا حُسْنُ ظَنِّي عَلَيْهِ أَذَمْ (٢)

⁂

وَمُسْتَشْفِعٍ بِيَ بَشَّرْتَهُ ... عَلَى ثِقَةٍ بِالنَّجَاحِ الأَتَمْ (٣)

وَقِدْمًا أَفَلْتَ الْمُسِيءَ الْمِثَارَ ... وَأَحْسَنْتَ بِالصَّفْحِ عَمَّا اجْتَرَمْ (٤)

وَعِنْدِي لِشُكْرِكَ نَظْمُ الْعُقُودِ ... تَنَاسَقُ فِيهَا اللآلِي النُّؤُمْ (٥)

تُجِدُّ لِفَخْرِكَ بُرْدَ الشَّبَابِ ... إِذَا لَبِسَ الدَّهْرُ بُرْدَ الْهَرَمْ (٦)

تَعِشْ مُعْصَمًا بِيَفَاعِ السُّعُودِ ... وَدُمْ نَاعِمًا فِي ظِلاَلِ النِّعَمْ (٧)

وَلاَ يَزَلِ الدَّهْرُ أَيَّامُهُ ... لَكُمْ حَشَمٌ وَاللَّيَالِي خَدَمْ (٨)

---

(١) نحض الهوى : خالصه — والبرح : الشدة يدعم بهذا البيت معنى سابقه فيقول إنى لأصفيك وأمحضك الهوى خالصا لاسائبة فيه وإنى فى بعدك لأسعر فى نفسى بالألم المبرح والوجعة المرة ولكنى أخفى ذلك فى حنايا الضلوع وفى موضع الأسرار من القلوب .

(٢) أخفر به : نقض عهده وغدره — الذمام : الحرمة ويجمع على أذمة ويقال — أذم له عليه أى أخذ له ذمة أى حرمة أو اجارة . يقول : إن غيرك أنكر هو الذى يحفر عهد الذمام ويضيعه ويغدر به إذا جعل حسن ظنى وطيب بلى له حرمة تحمى و أذما لى عليه ذمة .

(٣) يقول : ما شفعت الى شفيع فى لديك بالنجاح إلا تم له مطلبه و نيل له ثقى بنجاحك فقد تشفعت بالذى لا ترد شفاعته عند أبى بكر ولا يخيب له رجاء لديه .

(٤) قدما أى قديما وأفلت فلانا من كذا يعنى أعفيته منه واحترم أى أتى الذنب أو الجريمة والصفح هو العفو يقول واما عرفت تقبل العاثر من عثرته وتعفو عن الجانى فى جريمته .

(٥) التناسق هو التنظيم حبات العقود ولآلئها واللآلئ النوم أى المتشابكة وتسمى اللؤلؤة الوؤامية والنوائم الوم واللؤلؤ ما تشابك منها يعمد الشاعر إلى تشويق الممدوح لانشاء مدائحه وشعره الذى يشبه العقود المنظومة المناسقة بنوائم اللآلئ .

(٦) أجد الثوب صيره جديدا يعنى أن نظم هذه العقود المنسقة يجد ويعيد ايراد الشباب من النحر بها جديدة فى الوقت الذى يلبس فيه الزمن ثوب الهرم ، أو أن فخر الممدوح نفسه هو الذى يطل بذلك المدائح جديدا .

(٧) يفاع : كسحاب التل والمقصود به هنا المرتفع يدعو الممدوح أن يعيش معتصما بمرتفعات السعود وان يدوم مظلا بالنعم الظليلة لوارفة .

(٨) حشم الرجل وحشمه الذين يغضبون له من أهله وعبيده وجيرانه ، والحشم للواحد والجمع والخدم جمع خادم . يقول : لازال الدهر خادما لك .

فى نكبة بنى ذكوان

«قال عند نكبة بنى ذكوان وابن حذام
فى سنة ٤٤٠ هـ أربعين وأربعمائة.»

هَلِ النِّدَاءُ ـ الَّذِى أَعْلَنْتُ ـ مُسْتَمَعُ ... أَمْ فِى الْمِئَاتِ الَّتِى قَدَّمْتُ مُنْتَفَعُ (١)

إِنِّى لَأَعْجَبُ مِنْ حَظٍّ يُسَوِّفُ بِى ... كَالْيَأْسِ مِنْ نَيْلِهِ أَنْ يَجْذِبَ الطَّمَعُ (٢)

تَأْبَى الشُّكُونَ إِلَى تَعْلِيلِ دَهْرِىَ لِى ... نَفْسٌ ـ إِذَا خُودِعَتْ ـ لَمْ تُرْضِهَا الْخَدَعُ (٣)

لَيْسَ الرُّكُونُ إِلَى الدُّنْيَا دَلِيلَ حِجًا ... فَإِنَّهَا دُوَلٌ أَيَّامُهَا مُتَعُ (٤)

تَأْتِى الرَّزَايَا نِظَامًا مِنْ حَوَادِثِهَا ... إِذِ الْفَوَائِدُ فِى أَثْنَائِهَا لُمَعُ (٥)

أَهْلُ النُّبَاهَةِ أَمْثَالِى لِدَهْرِهِمُ ... بِقَصْرِهِمْ دُونَ غَايَاتِ الْمُنَى وَلَعُ (٦)

---

(١) يقول : هل وصل إلى سمعكم ذلك النداء الذى أعلنت فيه شكواى ، أم هل مما قدمته من مئات القصائد والرسائل غناء ونفع ، وهو بهذا الاستفهام يكرر أن تكون شكواه قد سمعت ، وأن تكون قصائده قد نفعت .

(٢) الطمع : ضدّ اليأس ، والمعنى : إنى لأعجب من حظ امتدّ فى يده تسويف الممدوح ومطله ، حتى لقد أصبح شبيها باليأس منه طمع يخدعنى إليه بريد أن الطمع فيه أحو اليأس منه .

(٣) يقول : إن دهرى يعللنى بنيل تلك الأمانى البعيدة ، ولكن نفسى لا تسكن إلى هذا التعليل لأنها لا تنخدع إذا خودعت .

(٤) الحجا : العقل والفطنة ، معناه أن الركون إلى الدنيا ليس فيه دليل على ذكاء وفطنة من يركن إليها لأنها زائلة متحولة ، والمتمتع بها مغرور مفتون .

(٥) يقول : ان الرزايا فى هذه الدنيا تأتى على نسق متتابع من الحوادث التى يتخلل سوادها بصيص من لمع الفوائد .

(٦) القصر : الحبس والمنع ، والولع : مصدر ولع فلان بكذا إذا لجّ فيه وحرص عليه ، يعنى أن الدهر مولع بالحيلولة بين النابه الشريف وبين بلوغ أمانيه .

* * *

لَولاَ بَنو « جَهْوَرٍ » مَا أَشْرَقَتْ هِمَمِي ... كَمِثْلِ بِيضِ اللَّيَالِي دُونَهَا الدُّرَعُ (١)

هُمُ الْمُلُوكُ مُلُوكُ الْأَرْضِ دُونَهُمُ ... غيدُ السَّوَالِفِ فى أَجْيَادِهَا تَلَعُ (٢)

مِنَ الْوَرَى إِنْ يَفُوقُوهُمْ فَلاَ عَجَبٌ ... لِذٰلِكَ الشَّهْرُ مِنْ أَيَّامِهِ الْجُمَعُ (٣)

قَوْمٌ مَتَى تَحْتَفِلْ فى وَصْفِ سَوْدَدِهِمْ ... لاَ يَأْخُذِ الْوَصْفُ إِلاَّ بَعْضَ مَا يَدَعُ (٤)

تَجَهَّمَ الدَّهْرُ فَانْصَاتَتْ لَهُمْ غُرَرٌ ... مَاءُ الطَّلاَقَةِ فى أَسْرَارِهَا دُفَعُ (٥)

بَاهَتْ وُجُوهُهُمُ الْأَعْرَاضَ مِنْ كَرَمٍ ... فَكُلَّمَا رَاقَ مَرْأَى طَابَ مُسْتَمَعُ

سَرْوٌ تَزَاحَمُ فى وَصْفِ الْمَدِيحِ لَهُ ... مَحَاسِنُ الشِّعْرِ حَتَّى يَنْثَنِى قُرَعُ (٦)

---

(١) الدرع : الليالى التى اسودت أوائلها وابيض سائرها ، والليالى البيض هى التى يطلع فيها القمر من أولها إلى آخرها ، أى لولا الجهاورة ما أشرقت همى إشراقا كاشراق الليالى البيض دونها فى البياض الدرع أى الليالى التي أظلمت أوائلها .

(٢) غيد جمع أغيد : أى مائل ، والسوالف : جمع سالفة ، وهى صفحة العنق مما يلى الأذن ، والتلع : طول العنق وامتداده ، يقول : بنو جهور هم ملوك الأرض لايدانيهم فى المنزلة أولئك الملوك الذى أمالوا سوالفهم ، ومدوا أعناقهم خيلاء وكبرا .

(٣) أى هم من الورى وليس عجبا أن يفوقوهم ، كما أن الجمع من أيام الشهر ولكنها تفوق سائره .

(٤) تحتفل : تبالغ يريد أنك مهما تبالغ فى وصف سودده فلا يمكنك أن تنتت من صفاتهم فى السيادة والمجد إلا جزءا صغيرا مما تدعه لكثرته ، ويعجزك عن الاحاطة به .

(٥) تجهم : عبس وتكرت أيامه ، وانصاتت : اشتهرت ، والأسرار : جمع سرّ . ويجمع أيضا على أسارير ، وهى خطوط فى الغرة والجبين ، والدفع : جمع دفعة ، وهى الدفقة من المطر ونحوه ، والمعنى عبس وجه الزمان واسودت جوانب العيش فاشتهرت لهم فى أثناء تجهمه غرر بيض يجرى فى غضونها ماء الطلاقة والبشر مترقرقا متسلسلا .

(٦) جمع قرعه ، وهى السهمة ، أى حتى يساهم ويقرع بين جيد الأشعار أيها أدق وأحسن وأجدر بسنى الجوائز .

* * *

« أَبُو الْوَلِيدِ » فَدِ اسْتَوْفَى مَنَاقِبَهُمْ ... فَلِلتَّفَارِيقِ مِنْهَا فِيهِ مُجْتَمَعُ (١)

هُوَ الْكَرِيمُ الَّذِي سَنَّ الْكِرَامُ لَهُ ... زُهْرَ الْمَسَاعِي فَلَمْ تَسْتَهْوِهِ الْبِدَعُ

مِنْ عِنْزَةٍ أَوْهَتْهُ فِي تَعَاقُبِهَا ... أَنَّ الْمَكَارِمَ إِيصَاءٌ بِهَا شِرَعُ (٢)

مُهَذَّبٌ أَخْلَصَتْهُ أَوَّلِيَّتُهُ ... كَالسَّيْفِ بَالَغَ فِي إِخْلَاصِهِ الصَّنَعُ (٣)

---

(١) يعني أن (أبا الوليد) استوفى مناقب الملوك حتى اجتمع فيه ما تفرق في غيره منها وعبر بالتفاريق الاشارة إلى قولهم في المثل السائر «هو خير من تفاريق العصا» ، يريد أن مناقبه كالعصا جمعت كثيرا من المنافع ، وأن مناقب غيره من الملوك كتفاريق العصا اختصت كل واحدة منها بفائدة ومنفعة ، وجاء في كتاب العصا من البيان والتبيين للجاحظ ما نصه : « ومن حمل القول في العصا » ومما يجوز فيها من المنافع والمرافق ، تفسير شعر «عنبة» الأعرابية في شأن ابنها ، وذلك أنها كان لها ابن سديد الغرامة كثير التعقب إلى الناس مع صغر أمره ، وحدثة عظمه ، فوثب مرة على بعض الأعراب ، فقطع التي أمه وأخذت (غنمه) فدفع أداه ، فحبست عليها مدة ثم دفع ، ثم وثب آخر فقطع أذنه فأخذت الدية فزادت دية أذنه في المال وحسن الخلق ، ثم وثب بعد ذلك آخر فقطع سقبه ، فلما رأت ما قد صار بعدها من الابل والرقيق والكسب بنواحي ابنها ، حبس رأيها فيه فذكرته في أرجوزة لها تقول فيها :

« أحلف بالمروة يوما والصفا ... إنك خير من تفاريق العصا . »

قيل لابن الأعرابي ، ما تفاريق العصا ؟ قال : العصا تقطع ساحورا وتقطع ساحور فصير أوتادا ، ويفرق الوتد فصير كل قطعة شطاطا ، فان كان رأس الشطاط كالملك صار للخبي مهارا ، وهو العود الذي يدخل في أنف البختي ، وإذا فرق المهار جاءت منه التوادي ، والسواحير تكون للكلاب والأسراء من الناس ـ وقال النبي صلى الله عليه وسلم ، « ؤتي بناس من هاهنا يقادون إلى جنوطهم بالسواحير » ـ وإذا كانت قناة وكل شقة منها قوس بندق ، قال فان مرق الشقة صارت سهاما ، قال فرقت السهام صارت خطاطيف ، ومن سهام صغار ، ولواحدة حظوة وسروه ، فان مرقت الخطاطيف صارت مغازل ، فان فرق المغزل شعب به الشعاب أفداحه المصدوغة المشقوقة على أنه لا يجد لها أصلح منها . وقال الشاعر :

« تواقد أطراف القنا قد شككنه ... كشكك بالشعب الاباء المثلما . »

فاذا كانت العصا صحيحة سالمة فيها من المنافع الكثار ، والمرافق الأوساط والصغار ، مالا يحصيه أحد ، فاذا مرقت ففيها مثل الذي ذكرنا وأكثر» إلى آخر ما أورده الجاحظ في هذا الباب .

(٢) جمع شرعة بكسر أوله أي شرائع ومناهج يجري فيها على سنة الملوك من آبائه . يريد أن آباءه من الملوك لتعاقبهم على سن المكارم فيمن يخلفهم من أبنائهم أوهموه لكثرة ما أوصوا بها أنها شرائع منزلة .

(٣) الحاذق في صنعته .

إِنَّ السُّيُوفَ إِذَا مَا طَابَ جَوْهَرُهَا ... فِى أَوَّلِ الطَّبْعِ لَمْ يَعْلَقْ بِهَا طَبَعُ (١)

جَذْلَانُ يَسْتَضْحِكُ الْأَيَّامَ عَنْ شِيَمٍ ... كَالرَّوْضِ تَضْحَكُ مِنْهُ فِى الرُّبَا قِطَعُ

كَالْبَارِدِ الْعَذْبِ لَذَّتْ مِنْ مَوَارِدِهِ ... لِشَارِبٍ غِبَّ تَبْرِيحِ الصَّدَى جُرَعُ (٢)

* * *

قُلْ لِلْوَزِيرِ الَّذِى تَأْمِيلُهُ وَزَرِى ... إِنْ ضَاقَ مُضْطَرَبٌ أَوْ هَالَ مُطَّلَعُ (٣)

أَصِخْ لِهَمْسِ عِتَابٍ تَحْتَهُ مِقَةٌ ... وَكَلِّفِ النَّفْسَ مِنْهَا فَوْقَ مَا تَسَعُ (٤)

مَا لِلْمُتَابِ - الَّذِى أَحْصَفْتَ عُقْدَتَهُ - ... قَدْ خَامَرَ الْقَلْبَ مِنْ تَضْيِيعِهِ جَزَعُ (٥)

لِى فِى الْمُوَالَاةِ أَتْبَاعٌ يَسُرُّهُمُ ... أَنِّى لَهُمْ فِى الَّذِى نُجْزَى بِهِ تَبَعُ (٦)

أَلَسْتَ أَهْلَ اخْتِصَاصٍ مِنْكَ يُلْمِسُنِى ... جَمَالَ سِيمَاهُ ؟ أَمْ مَا فِىَّ مُصْطَنَعُ ؟ (٧)

---

(١) الطبع : الصدأ ، يقول : إن السيوف فى مبدأ طبيعتها إذا طاب جوهرها لم يعلق بها شىء الصدأ ، يعنى أن الممدوح طابت أوليته فخلص جوهره ولم يشنه عيب .

(٢) فيه تشبيه الممدوح بمورد الماء البارد العذب لذ لشاربه منه جرع أضفات غلة صدره بعد ظمأ مبرح شديد .

(٣) وورى : ملجئى ومعتصمى ، ومضطرب اسم مكان من الضرب وهو السير فى الأرض ، ومطلع : مكان الاطلاع من مشرف عال ، أو مكان الصعود من أسفل إلى أعلى ، وفى حديث عمر رضى الله عنه أنه قال عند موته ، « لو أن لى ما فى الأرض جميعا لافتديت به من هول المطلع » وهو بالتشديد مكان الاطلاع أراد به ما أشرف عليه من أمر الآخرة ويطلع عليه عقيب الموت .

(٤) اقبل رقيق عتاب كالهمس فى الأذن ينطوى على مقة ومحبة وكلف نفسك من تحقيق أمنيتى فوق طاقتها .

(٥) أحصفت : أحكمت ، والعقدة : المراد بها هنا الرأى والتدبير ، والمعنى : قد كان من العقل وحصافة الرأى أن أبادر إلى التوبة وهأنذا تائب مما نسب إلى ، فما لتوبتى قد ضيعت ولم تقبل مما حمل قلبى بحائطه الجزع وعدم الصبر ، ويمازجه اليأس والحزن .

(٦) يقول : أنا أول الناس فى الولاء لكم وغيرى تبع ، وأتباعى فى الموالاة يسرهم أن أكون فى الجزاء تبعا وتاليا لهم ، فهم دائما يسعون لاستقاط منازلى وإحباط مساعى .

(٧) يقول : أتنكر اختصاصى منك بما يحملنى محليا بجمال هذا الاختصاص ، فلا يتقدم على من هم تبع لى فى الولاء والاخلاص ؟ أم هل تنكر أنى قبل غيرى أهل لرب الصنيعة وإسداء الجميل ؟

لَمْ أُوتِ فِي الحالِ ـ مِنْ سَعْيِي لَدَيْكَ ـ وَنًى ... بَلْ بِالْجُدُودِ تَطِيرُ الْحَالُ أَوْ تَقَعُ (١)

لا تَسْتَجِزْ وَضْعَ قَدْرِي بَعْدَ رَفْعِكَهُ ... فَاللهُ لا يَرْفَعُ الْقَدْرَ الَّذِي تَضَعُ

تَقَدَّمَتْ لَكَ نُعْمَى رَادَهَا أَمَـــلِي ... فِي جَانِبٍ هُوَ لِلإِنْسَانِ مُنْتَجَعُ (٢)

مَازَالَ يُونِقُ شُكْرِي فِي مَوَاقِعِهَا ... كَالْمُزْنِ تُونِقُ فِي آثَارِهِ الترَعُ (٣)

شُكْرٌ يَرُوقُ وَيُرْضِي طِيبُ طُعْمَتِهِ ... فِي طَيِّهِ نَفَحَاتٌ بَيْنَهَا خلَعُ (٤)

ظَنَّ الْعِدَا ـ إِذْ أَغَبَّتْ ـ أَنَّهَا انْقَطَعَتْ، ... هَيْهَاتَ لَيْسَ لِمَدِّ الْبَحْرِ مُنْقَطَعُ (٥)

لا بَأْسَ بِالْأَمْرِ ـ إِنْ سَاءَتْ مَبَادِئُهُ ... نَفْسَ الشَّقِيقِ ـ إِذَا مَا سَرَّتِ الرُّجَعُ

* * *

إِنَّ الْأُلَى كُنْتُ ـ مِنْ قَبْلِ افْتِضَاحِهِمِ ـ ... مِثْلَ الشَّجَى فِي لَهَاهُمْ لَيْسَ يُنْتَزَعُ (٦)

---

(١) ونى : أى فترة وتوان فى السعى ، والجدود : جمع جد بالفتح وهو الحظ والبخت والمعنى : لم أوت ولم يذهب سعي عندك فتور ولا تقصير فى المطالبة والسعى ، ولكن الذى قعد بى عن درك أمنيتى عندك إنما هو حظى الذى به يعلو الحال ويرتفع ، كما يطير الطائر أو يقع .

(٢) رادها : أى تقدمى أمل أرسلته فى طلب النعمة ، وارتياد النعمة ، فصادف جانبا ممرعا ، ومراداً لعمائك ومنتجعا .

(٣) الترع : جمع ترعة ، وهى الروضة على المكان المرتفع من الأرض ، يقول : ما زال روض شكرى مونقا معجبا عن سماء نعمائك ، كالمزن أي السحاب يعجبك على أثر نزول المطر منه الرياض والربى قد أترعت بألوان الزهر ، وأينعت بأنواع الثمر .

(٤) طيب طعمته : أى مكسبه الطيب الحلال ، والخلع : جمع خلعة بالكسر ، وهى ما تخلعه من الثياب وتطرحه على آخر ، أى شكر يروق السامع حسنه . ويرضى الشاكر مايثمره من طيبات المكاسب ، فى طيه مثل نفحات الروض بينها وفى أثنائها تخلع عليها خلع ثمينة ، وحلل فاخرة .

(٥) ظن العدا أن هذه العطايا والنفائس مد أعبت وتأخرت أياما أنها انقطعت عنى ، هيهات أن ينقطع عطاء يشبه البحر الذى ليس لمده انقطاع .

(٦) يقول فى هذا البيت والذى بعده : —

أن الذين كنت — من قبل انضاح أمرهم وظهور صريح العداوة منهم كالشجا معترضا فى حلوقهم لا يمكن انتزاعه ، لم أحط منهم وهم أعداء مافقون ، إلا بما كنت أحظى به منهم وهم شيعة مسالمون ، يريد أن نصيبه منهم فى الحالين لم يكن سوى الشر والأذى والوقيعة .

لَمْ أَحْظَ — إِذْ هُمْ عدًا بَادٍ نِفَاقُهُمْ — إِلَّا كَمَا كُنْتُ أَحْظَى إِذْ هُمُ شِيَعُ
مَا غَاظَهُمْ غَيْرُ مَا سَيَّرْنَ مِنْ مِدَحٍ فِى صَائِكِ الْمِسْكِ مِنْ أَنْفَاسِهَا فَنَعُ (١)
كَمْ غُرَّةٍ لِى تَلَقَّتْهَا قُلُوبُهُمُ كَمَا تَلَقَّى شِهَابَ الْمَوْقِدِ الشَّمَعُ (٢)
إِذَا تَأَمَّلْتَ حُبِّى غِبَّ غَشِّهِمِ لَمْ يَخْفَ مِنْ فَلَقِ الْإِصْبَاحِ مُنْصَدِعُ (٣)
تِلْكَ الْعَرَانِينُ لَمْ يَصْلُحْ لَهَا شَمَمٌ فَكَانَ أَهْوَنَ مَا نِيلَتْ بِهِ الْجَدَعُ (٤)
أَوْدَعْتَ نُعْمَاكَ مِنْهُمْ شَرَّ مُعْتَرَسٍ لَنْ يَكْرُمَ الْغَرْسُ حَتَّى تَكْرُمَ الْبُقَعُ (٥)
لَقَدْ جَزَتْهُمْ جَوَازِى الدَّهْرِ عَنْ مِنَنٍ عَفَتْ فَلَمْ يَثْنِهِمْ عَنْ غَمْطِهَا وَرَعُ (٦)
لَا زَالَ جَدُّكَ بِالْأَعْدَاءِ يَصْرَعُهُمْ إِنْ كَانَ بَيْنَ جُدُودِ النَّاسِ مُصْطَرَعُ

---

(١) صائك : اسم فاعل من صاك به المسك يصيك أى لصق به ، قال الأعشى :

« ومثلك معجبة بالشبا ب صاك العبير بأجلادها . »

وسيأتى لصاحب الديوان قوله فى « ص ١٣٩ » :

« ثناء تحتفل كأن ثناءه مسك بأردان المحامل صاكا. »

والفنع : نفحة المسك ، ومسك دوفع ذكى الرائحة طيب الأنفاس . قال الشاعر :

وفروع سابغ أطرافها علقتها ريح مسك ذى فنع

وجاء بالأصل « صايك » بالياء و « كبع » بالسكاف ولا معنى لهما .

(٢) كم غرّة لى واضحة منيرة تطلع عليهم فتتقاها قلوبهم وهى متأججة مستعرة ، كما يتلقى الشمع عند الانارة حر الشهاب من موقده ومشعله .

(٣) يقول حبي واضح كفلق الصبح ، وحبهم مغشوش كاذب .

(٤) العرانين : جمع عرنين ، وهو أعلى الأنف عند ملتقى الحاجبين ، أو هو ما صلب من عظم الأنف ، قال ذو الرمه :

« تنفى القتاب على عرنين أربية شماء مارنها بالمسك مرثوم . »

والشمم : ارتفاع قصبة الأنف وحسنها مع استواء أعلاها وإشراف الأرنبة ، وإذا وصف الرجل بالشمم فانما يعنون أنه سيد شريف النفس ذو أنفة وشموخ وحمية ، ويقال هم شم العرانين كناية عن ذلك ، قال كعب بن زهير :

« شم العرانين أبطال لبوسهم من نسج داود فى الهيجا سرابيل. »

والجدع : القطع البائن فى الأنف والأذن ونحوهما وهو مصدر جدع كمنع فهو أجدع .

(٥) يقول : لقد استنبت نعماك فى بقعة خبيثة من نفوس عرف بغمط النعمة ونكران الجميل .

(٦) يقول : إن الدهر جازاهم عن منن أسديتموها إليهم ، فعفوا على آثارها ولم يتورعوا فى غمطها والامتناع عن شكرها .

تهنئـــة بقران

« وقال يمدح المعتضد بالله المنصور بفضل الله أبا عمرو عبد الله ويهنيه بالبناء على السيدة بنت الموفق مجاهد رحمهما الله . »

أُخْطُبْ فَمُلْـكُكَ يَفْقِدُ الْإِمْلاَ كَا ... وَاطْلُبْ فَسَعْدُكَ يَضْمَنُ الْإِدْرَا كَا (١)

وَصِلِ النُّجُومَ بِحَظِّ مَنْ لَوْ رَامَهَا ... هَجَرَتْ إِلَيْهِ زُهْرُهَا الْأَفْلاَ كَا (٢)

وَاسْتَهْدِ مِنْ أَحْمَى مَرَاتِعِهَا المَهَا ... فَالصَّعْبُ يَسْمَحُ فِى عِنَانِ هَوَا كَا (٣)

يَا أَيُّهَا المَلِكُ الَّذِى تَدْبِيرُهُ ... أَضْحَى لِمَمْلَـكَةِ الزَّمَانِ مِلاَ كَا (٤)

هٰذِى اللَّيَالِى بِالْأَمَانِى سَمْحَـةٌ ... فَمَتَى تَقُلْ: «هَاتِى» تَقُلْ لَكَ: «هَا كَا»

فَاعْقِلْ شَوَارِدَهَا إِزَاءَ عَقِيـلَةٍ ... وَافَتْ مُبَشِّرَةً بِنَيْلِ مُنَا كَا

أَهْدَى الزَّمَانُ إِلَيْكَ مِنْهَا تُحْفَةً ... لَمْ تَعْدُ أَنْ قَرَّتْ بِهَا عَيْنَا كَا

شَمْسٌ تَوَارَتْ ـ فِى ظَلاَمِ مَضِيعَةٍ ـ ... ثُمَّ اسْتَطَارَ لَهَا السَّنَا بِسَنَا كَا (٥)

---

(١) الامـلاك : عقـد الزواج ، يقول : اخطب فملـكتك يعوزها الصهر والنسب ، واطلب فسعدك يضمن إدراك ماتطلب .

(٢) وصل النجوم بحظ ملك لو رام زهر النجوم لهجرت إليه أفلاكها ، يريد أنه لورام مصاهرة من ارتفع نسبهم من الملوك إلى مستوى زهر الكواكب فى أفلاكها ، لسابوا إليـه من زهر عرائسها مايرومه ، وتسمو إليه نفسه ، ويختاره نسبا وصهرا .

(٣) استهد : أطلب الهداء من هدى العروس يهديها إليه هداء زفها إليه ، وفى الأصل (استهو) وهو من استهواء الشياطين ، ولا معنى له هنا ، أى اطلب من أمنع أحياء العرب وأشدها حماية وحفيظة أن يهدوا إليك من بناتهم الشبهات بالمها أى بقر الوحش فى البياض وسواد العيون من تريد وتهوى فان الصعب يسلس وينقاد فى عنانه مرادك وهواك .

(٤) أى أضحى تدبيره قوام المملكة ونظامها الذى يعتمد عليه فى أمورها .

(٥) مضيعة : يقال هو بدار مضيعه كميشـة أى بدار ترك واطراح وإضاعة ، واستطار : إنتشر ، والسنا : بالقصر الضياء ، أى كانت قبل هذا الاملاك شمسا محتجبة وراء حجب الاهمال والترك ، فاستطار إليها شعاع من سنا وجهك ، فأشرقت وأنارت .

قُرِنَتْ بِبَدْرِ التِّمِّ كَافِلَةً لَهُ ... أَنْ سَوْفَ تُتْبِعُ فَرْقَدَيْنِ سِمَاكَا (١)

هِيَ وَالْفَقِيدَةُ كَالْأَدِيمِ اُخْتَرْتَهُ ... فَقَدَدْتَ إِذْ خَلُقَ الشِّرَاكُ شِرَاكَا (٢)

فَاصْفَحْ عَنِ الرُّزْءِ الْمُعَاوِدِ ذِكْرُهُ ... وَاسْتَأْنِفِ النُّعْمَى فَتِلْكَ بِذَاكَا (٣)

⁂

لَمْ يَبْقَ عُذْرٌ فِي تَقَسُّمِ خَاطِرٍ ... إِلَّا الصَّبَابَةُ مِنْ دِمَاءِ عِدَاكَا

كُفَّارُ أَنْعُمِكَ الْأُلَى حَلَّيْتَهُمْ ... أَطْوَاقَهُمْ ، سَيُطَوَّقُونَ ظُبَاكَا (٤)

أَعْرِضْ عَنِ الْخَطَرَاتِ إِنَّكَ إِنْ تَشَأْ ... تَكُنِ النُّجُومُ أَسِنَّةً لِقَنَاكَا (٥)

هُصِرَ النَّعِيمُ بِعِطْفِ دَهْرِكَ فَانْثَنَى ... وَجَرَى الْفِرِنْدُ بِصَفْحَتَيْ دُنْيَاكَا (٦)

وَبَدَا زَمَانُكَ لَابِساً دِيبَاجَةً ... تَجْلُو لِعَيْنِ الْمُجْتَلِي سِيَمَاكَا

دُنْيَا لِزَهْرَتِهَا شُعَاعٌ مُذْهَبٌ ... لَوْ كَانَ وَصْفاً كَانَ بَعْضَ حُلَاكَا

---

(١) يقول : قرن هذه العقيلة ببدر التم ضامنة له أن ستتبع فرقدين نحما يريد أنها ستنجب أمثال الكواكب البرة من الذكور .

(٢) الأديم : الجلد ، وخلق : بلى ، والشراك : أحد سيور النعل التى على ظهرها ، يقول : هذه العقيلة وزوجتك الفقيدة كالأديم قطعت منه بدل الشراك الذى بلى شراكا جديدا ، أى اخترت بدل الفقيدة ، زوجا أخرى جديدة ، وقد ألف العرب أن يشبهوا المرأة بالنعل ، وجاراهم ابن زيدون فى ذلك ، وقد قال الحريرى فى مقاماته من حوار طويل : « فان لمس ظهر نعله ، فقد انتقض وضوءه بفعله » أى إن لمس امرأته .

(٣) أى فلك النعمى بالجديدة ، عوض من ذلك الرزء بالفقيدة ، فاضرب صفحا عما يعاودك من ذكريات تؤلم نفسك وتبعثك على الحزن .

(٤) جمع ظبة بالضم ، وهى حد السيف ، يقول : إن الذين طوقتهم بأنعمك فجحدوا بها ، ستجعل لهم غدا من سيوفك فى أعناقهم أطواقا يطوقونها .

(٥) أعرض عن كل خطرة تخطر بقلبك ، وتقع فى بالك من جهة تدبير المملكة ، فانك منصور على أعدائك ، ولو شئت لتناولت نجوم السماء فجعلتها أسنة لرماحك .

(٦) حمل للنعيم عطفا كعطف الحسناء تهصره أى تميله إليك فينثنى كما تهصر الغصن وتميله نحوك لقطف ثماره ، وجعل لدنيا الممدوح التى احتوت النعيم فرندا يجرى فى صفحتيها ماؤه وتترقرق ديباجته ، فأعطاك صورة ساحرة فاتنة لما يتصل بالممدوح من دنيا يحفها النعيم .

فَتَمَلَّ فِى فُرُشِ الْكَرَامَةِ نَاعِمًا ... وَاعْقِدْ بِمَرْتَبَةِ السُّرُورِ حُبَا كَا (١)

وَأَطِلْ - إِلَى شَدْوِ الْقِيَانِ - إِصَاخَةً ... وَتَلَقَّ مُتْرَعَةَ الْكُؤُسِ دِرَا كَا

تَحْتَثُّهَا مَثْنَى مَنَانِى غَادَةٍ ... شَفَعَتْ بِحَثٍّ غِنَاؤُهَا الْإِمْسَا كَا (٢)

مَا الْعَيْشُ إِلَّا فِى الصَّبُوحِ بِسُحْرَةٍ ... قَدْ جَاسَدَتْ أَنْوَارُهَا الْأَحْلَا كَا (٣)

⁂

لَكَ أُرْيَحِيَّةٌ مَاجِدٍ - إِنْ تَعْتَرِضْ ... فِى لَهْوِ رَاحِكَ - تَسْتَهِلَّ لَهَا كَا (٤)

مَنْ كَانَ يَمْلَقُ فِى خِلَالِ نِدَامِهِ ... ذَمٌّ بِبَعْضِ خِلَالِهِ فَخَلَا كَا (٥)

أُسْبُوعُ أُنْسٍ مُحْدِثٌ لِى وَحْشَةً ... عِلْمًا بِأَنِّى فِيهِ لَسْتُ أُرَا كَا (٦)

فَأَنَا الْمُعَذَّبُ غَيْرَ أَنِّى مُشْعَرٌ ... ثِقَةً بِأَنَّكَ نَاعِمٌ فَهَنَا كَا

إِنِّى أَقُومُ بِشُكْرِ طَوْلِكَ بَعْدَ مَا ... مَلَأَتْ مِنَ الدُّنْيَا يَدَىَّ يَدَا كَا

بَرَدَتْ ظِلَالُ ذَرَاكَ ، وَاحْلَوْلَى جَنَى ... نُعْمَاكَ لِى ، وَصَفَتْ جِمَامُ نَدَا كَا

وَأَمِنْتُ عَادِيَةَ الْعِدَا الْأَقْتَالِ مُذْ ... أَعْصَمْتُ فِى أَعْلَى يَفَاعٍ حِمَا كَا (٧)

---

(١) تمل : تمتع ، يقال ملاك الله حبيبك أى متعك وأعاشك معه طويلا ، والحبا : جمع حبوة وهو أن يجمع الجالس ظهره وساقيه بثوب أو نحوه .

(٢) تحتثها : أى الكؤوس أصوات تعاد مثنى من رنات مثانى عود فى يد غادة ، سمت إلى حث الغناء إمساك الصوت بعد إطلاقه .

(٣) جاسدت : حالط بياض أنوارها سواد ظلماتها .

(٤) لهو راحك : أى فى إبان لهوك بشرب الراح : وتستهل تمطر واللها : جمع لهوة بالضم ، وهى العطايا الجزلة الكثيرة .

(٥) من كان فى أثناء المنادمة على الشراب يعاق ببعض خلاله وخصاله ما يعاب ويذم عليه ، فخلاك ذم وحاشاك عيب .

(٦) هو الأسبوع الذى يأنس فيه بعروسه ، ولا يخرج إلى خاصته الذرا : بالفتح كل ما استدريت به ، يقال أنا فى ذرا فلان أى فى كنفه ، والجمام : جمع جمة بالضم وهى معظم الماء ، والندى : العطاء أى صفا عطاؤك الشبيه بالماء فى الصفاء فلم يكدر بمن .

(٧) الأقتال : الأعداء المساوون له فى الشجاعة من أعدائه ، وأعصمت : مثل اعتصمت أى استمسكت وامتنعت ولجأت ، واليفاع : المكان المرتفع .

جَهِـــدَ المقِلِّ نَصِيحَةً مَمْحُوضَةً ... أَفْرَدْتَ مُهْدِيَهَا فَلاَ إِشْرَاكَا (١)
وَثَنَاءُ مُحْتَفِلٍ كَأَنَّ ثَنَاءَهُ ... مِسْكٌ بِأَرْدَانِ المَحَافِلِ صَاكَا
وَلْتَدْعُنِي وَعَدُوَّكَ الشَّانِي ، فَإِنْ ... يَرُمِ الْقِرَاعَ يَجِدْ سِلاَحِيَ شَاكَا (٢)

⁂

لاَ تَعْدَمَنِّ الحَظَّ غَرْساً مُطْلِعاً ... ثَمَرَ الْفَوَائِدِ دَانِياً لِجَنَاكَا
وَالنَّصْرَ جَارًا لاَ يُحَاوِلُ نُقْلَةً ... وَالصُّنْعَ رَهْناً لاَ يُرِيدُ فِكَاكَا
وَإِذَا غَمَامُ السَّعْدِ أَصْبَحَ صَوْبُهُ ... دَرْكَ المَطَالِبِ فَلْيَصِلْ سُقْيَاكَا
فَالدَّهْرُ مُعْـــتَرِفٌ بِأَنَّا لَمْ نَكُنْ ... لِنُسَرَّ مِنْهُ بِسَاعَـــةٍ لَوْلاَكَا

عهـــد

كَمَا تَشَاءُ فَقُلْ لِي لَسْتُ مُنْتَقِلاَ ... لاَ تَخْشَ مِنِّيَ نِسْيَاناً وَلاَ بَدَلاَ (٣)
وَكَيْفَ يَنْسَاكَ مَنْ لَمْ يَدْرِ بَعْدَكَ مَا ... طَعْمُ الْحَيَاةِ وَلاَ بِالْبُعْدِ عَنْكَ سَلاَ
أَتْلَفْتَنِي كَلَفاً ، أَبْلَيْتَنِي أَسَفاً ... قَطَّعْتَنِي شَغَفاً ، أَوْرَثْتَنِي عِلَلاَ

⁂

إِنْ كُنْتُ خُنْتُ وَأَضْمَرْتُ السُّلُوَّ فَلاَ ... بَلَغْتُ يَا أَمَلِي مِنْ قُرْبِكَ الْأَمَلاَ (٤)
وَاللهِ لاَ عَلِقَتْ نَفْسِي بِغَيْرِكُمُ ... وَلاَ اتَّخَذْتُ سِوَاكُمْ مِنْكُمُ بَدَلاَ

---

(١) أهدى إليك نهاية مايستطيع إهداءه مقل مثلى ، نصيحة خالصة أفردت مهديها واختصصته بما لم تشرك معه فيه غيره .

(٢) الشانى : المبغض ، والقراع المقارعة بالسيوف ، وشاك : السلاح يقال شاك شوكا ظهرت شوكته وحدته ، أى أدعى لمازلة ومجالدة عدوك الشانى المبغض فانه متى يرم ذلك يجدنى شاكي السلاح مستعدا لمقارعته .

(٣) يقول : إنى احتمل منك كل شيء وليس ذلك بمحولى عن حبك ولا هو بداعى إلى نسيانك أو الانتقال عن حبك إلى حب سواك .

(٤) يقول : « عاقبنى الله بيأسى منك وحرمنى عطفك ووداك إن كنت فكرت لحظة فى السلو عنك .

مدح ورثاء [١]

« قال يمدح المعتمد ، ويرثى المعتضد بالله . »

هُوَ الدَّهْرُ فاصْبِرْ لِلَّذِي أَحْدَثَ الدَّهْرُ ... فَمَنْ شِيَمِ الأَبْرَارِ فِي مِثْلِهَا الصَّبْرُ

سَتَصْبِرُ صَبْرَ الْيَأْسِ أَوْ صَبْرَ حِسْبَةٍ [٢] ... فَلَا تُؤْثِرُ الْوَجْهَ الَّذِي مَعَهُ الْوِزْرُ [٣]

حِذَارَكَ مِنْ أَنْ يُعْقِبَ الرُّزْءُ فِتْنَةً ... يَضِيقُ لَهَا عَنْ مِثْلِ إِيمَانِكَ الْعُذْرُ

إِذَا أَسِفَ الثُّكْلَ اللَّبِيبُ فَشَفَّهُ ... رَأَى أَفْدَحَ الثُّكْلَيْنِ أَنْ يَهْلِكَ الأَجْرُ [٤]

مُصَابُ الَّذِي يَأْسَى بِمَيْتٍ ثَوَابِهِ ... هُوَ الْبَرْحُ لَا الْمَيْتُ الَّذِي أَحْرَزَ الْقَبْرُ [٥]

* * *

حَيَاةُ الْوَرَى نَهْجٌ إِلَى الْمَوْتِ مَهْيَعٌ [٦] ... لَهُمْ فِيهِ إِيضَاعٌ [٧] كَمَا يُوضِعُ السَّفْرُ [٨]

---

(١) جاء فى ص ٤٧٩ من نفح الطيب ما نصه :

« ولما مات والد المعتمد واستقل بالملك ، قال ذوالوزارتين ابن زيدون يرثى المعتضد بقصيدة طويلة أولها :

« هو الدهر ، فاصبر للذى أحدث الدهر ... فمن شيم الأحرار فى مثلها الصبر . »

وقد ذكر صاحب نفح الطيب أكثر أبيات هذه القصيدة وإن اختلفت فى قليل من الألفاظ فى بعض أبيات القصيدة عن رواية الديوان .

وسيرى القارئ تشابها كثيرا بين هذه القصيدة وبين القصيدة الرائية التى قالها ابن زيدون فى رثاء الوزير أبى الحزم .

(٢) حسبة : احتساب الأجر ، وفى رواية نفح الطيب : « أو صبر وحشة »

(٣) وفى رواية نفح الطيب : « فلا تؤثر الوجه الذى معه العذر »

(٤) وفى رواية نفح الطيب : « أن يذهب الأجر »

(٥) وفى رواية نفح الطيب : « يأس بموت ثوابه » (٦) طريق .

(٧) الايضاع : السير السريع . قال أبو العلاء :

« لا وضع للرحل إلا بعد إيضاع ... فكيف شاهدت إمصائى وإرماعى . »

(٨) السفر : المسافرون .

فَيَاهَادِيَ الْمِنْهَاجِ جُـــرْتَ ، فَإِنَّمَا هُوَ الْفَجْرُ يَهْدِيكَ الصِّرَاطَ أَوِ الْبَجْرُ(١)

إِذَا الْمَوْتُ أَضْحَى قَصْرَ(٢) كُلَّ مُعَمَّرٍ فَإِنْ سَوَاءٌ طَالَ أَوْ قَصُرَ الْعُمْرُ

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الدِّينَ ضِـــيمَ ذِمَارُهُ فَلَمْ يُغْنِ أَنْصَارٌ عَدِيدُهُمُ دَثْرُ(٣)

بِحَيْثُ اسْتَقَلَّ الْمُلْكَ ثَانِيَ عِطْفِهِ وَجَرَّرَ مِنْ أَذْيَالِهِ الْعَسْكَرُ الْمَجْرُ

هُوَ الضَّيْمُ لَوْ غَيْرُ الْقَضَاءِ يَرُومُهُ ثَنَاهُ الْمَرَامُ الصَّعْبُ وَالْمَسْلَكُ الْوَعْرُ

إِذَا عَثَرَتْ جُرْدُ الْعَنَاجِيجِ(٤) فِي الْقَنَا بِلَيْلٍ عَجَاجٍ لَيْسَ يَعْمَدُهُ فَجْرُ

* * *

أَأَنْفَسَ نَفْسٍ ـ فِي الْوَرَى ـ أَقْصَدَ الرَّدَى وَأَخْطَرَ عِلْقٍ ـ لِلْهُدَى ـ أَفْقَدَ الدَّهْرُ

أَعَبَّادُ يَا أَوْفَى الْمُلُوكِ ، لَقَدْ عَدَا عَلَيْكَ زَمَانٌ مِنْ سَجِيَّتِهِ الْغَدْرُ

فَهَلَّا عَـــدَاهُ أَنْ عَلَيْاكَ حَلْيَهُ . وَذِكْرَكَ ـ فِي أَرْدَانِ أَيَّامِهِ ـ عِطْرُ

* * *

غُشِيتَ فَلَمْ تَغْشَ الطِّرَادَ سَوَابِحٌ ، وَلَا جُرِّدَتْ بِيضٌ وَلَا أُشْرِعَتْ سُمْرُ(٥)

---

(١) البجر بفتح والضم : المكروه والأمر العظيم ، وقد روى المبرد صاحب الكامل أن الخليفة أبا بكر رضى الله عنه حين حضرته الوفاة قال فى آخر كلمة له : ياهادى الطريق جرت ، إنما هو والله الفجر أوالبجر وقوله « إنما هو والله الفجر او البجر » يقول : « إن انتظرت حتى يضىء لك الفجر الطريق أبصرت قصدك وإن خبطت العشواء وركبت العشواء هجما بك على المكروه » وضرب ذلك مثلا لغمرات الدنيا وتحيرها أهلها (الكامل : ج ١ س ٥ و ٦ و ٧)

وجاء فى اللسان قوله : وفى حديث أبى بكر رضى الله عنه : إنما هو الفجر أوالبجر» قال : البجر ـ بالفتح والضم ـ الداهية والأمر العظيم . أى أن انتظرت حتى يضىء الفجر أبصرت الطريق ، وإن خبطت العشواء أفضت بك إلى المكروه . قال : ويروى البجر بالحاء يريد غمرات الدنيا شبهها بالبجر لتحير أهلها فيها .

(٢) قصر : قصارى أو غاية . (٣) دثر : كثير .

(٤) العناجيج : جياد الخيل والأبل . (٥) بيض وسمر : سيوف ورماح .

وَلاَ ثَنَتِ الْمَحْذُورَ عَنْكَ جَـــلاَلَةٌ ... وَلاَ غُرَرٌ ثَبْتٌ وَلاَ نَائِلٌ غَمْرُ (١)

⁂

لَئِنْ كَانَ بَطْنُ الْأَرْضِ هُيِّئَ أُنْسُهُ ... بِأَنَّكَ ثَاوِيهِ لَقَدْ أَوْحَشَ الظَّهْرُ

لَعَمْرُ الْبُرُودِ الْبِيضِ فِى ذٰلِكَ الثَّرَى ... لَقَدْ أُدْرِجَتْ أَثْنَاءَهَا النِّعَمُ الْخُضْرُ

عَلَيْكَ ـ مِنَ اللهِ ـ السَّـــلاَمُ تَحِيَّةً ... يُنَسِّمُكَ الْغُفْرَانَ رَيْحَانُهَا النَّضْرُ

وَعَاهَدَ ذَاكَ اللَّحْدَ عَهْدُ سَحَائِبٍ ... إِذَا اسْتَعْبَرَتْ فِى تُرْبِهِ ابْتَسَمَ الزَّهْرُ (٢)

فَفِيـــهِ عَلاَءٌ لاَ يُسَامَى يَفَاعُهُ (٣) ... وَقَدْرُ شَـــبَابٍ لَيْسَ يَعْدِلُهُ قَدْرُ

⁂

وَأَبْيَضَ فِى طَيِّ الصَّـــفِيحِ كَأَنَّهُ ... صَفِيحَةُ مَأْثُورٍ طَلاَقَتْهُ الْأَثْرُ (٤)

كَأَنْ لَمْ تَسِرْ حُمْـــرُ الْمَنَايَا تُظِلُّهَا ... إِلَى مُهَجِ الْأَقْيَالِ (٥) رَاتَاتُهُ الْحُمْرُ

وَلَمْ يَحْمِ مِنْ أَنْ يُسْتَبَاحَ حِمَى الْهُدَى ... فَلَمْ يُرْضَـــهُ إِلاَّ أَنِ ارْتَجَعَ الْغُرُّ

وَلَمْ يَنْتَجِعْهُ الْمُعْتَفُونَ (٦)، فَأَقْبَلَتْ ... عَطَايَا كَمَا وَالَى شَآبِيبَهُ (٧) الْقَطْرُ

---

(١) النائل الغمر : العطاء الجزيل الكثير .

(٢) يدعو الله أن يمطر حدثه سحائب تدرف ماءها على الأرض فتروى أزهارها متنضرها .

(٣) اليفاع : المرتفع من الأرض .

(٤) الأثر : فرند السيف ، ورونقه ، وهو واحد ليس بجمع ، قال الشاعر :

« حلاها الصيقلون فأحلصوها ... حساما ، كلما يبقى بأثر . »

أى كلما يستقبلك بفرنده . ويبقى مخفف من يبقى .

وقال إعرابية :

« فاذا رقدت فأنت منتبـه ... وإذا انتبهت فعزمك الأثر . »

وقالوا : سيف مأثور ، أى فى متنه أثر . وأخذ من الأثر كأن وشيه أثر فيه ، أو متنه حديد أنيث وشفرته حديد ذكر ، وقد زعموا أنه السيف الذى يعمله الجن .

(٥) الأقيال ـ جمع قيل ـ وهو الشجاع .

(٦) ينتجعه المعتفون : يطلب معروفه طالبو الاحسان والندى .

(٧) شآبيب : جمع شؤبوب ، وهو الدفعة من المطر .

وَلَمْ تَكْتَنِفْ آرَاءَهُ أَلْمَعِيَّةٌ كَأَنَّ نَجِيَّ الْغَيْبِ فِي رَأْيِهَا جَهْرُ (١)
وَلَمْ يَتَشَذَّرْ لِلْأُمُورِ (٢) مُجَلِّيًا إِلَيْهَا كَمَا جَلَّى مِنَ الْمَرْقَبِ الصَّقْرُ

* * *

كِلَا لَقَبَيْ سُلْطَانِهِ صَحَّ فَأْلُهُ فَبَاكَرَهُ عَضْدٌ وَرَاوَحَهُ نَصْرُ (٣)
إِلَى أَنْ دَعَاهُ يَوْمُهُ فَأَجَابَهُ وَقَدْ قَدَمَ الْمَعْرُوفُ وَاسْتَمْجَدَ الذُّخْرُ
فَأَمْسَى ثَبِيرٌ قَدْ تَصَدَّى لِحَمْلِهِ سَرِيرٌ فَلَمْ يَبْهَضْهُ (٤) مِنْ هَضْبِهِ إِصْرُ

* * *

أَلَا أَيُّهَا الْمَوْلَى الْوَصُولُ عَبِيدَهُ لَقَدْ رَابَنَا أَنْ يَتْلُوَ الصِّلَةَ الْهَجْرُ
نُغَادِيكَ ـ دَاعِينَا السَّلَامَ ـ كَعَهْدِنَا فَمَا يُسْمَعُ الدَّاعِي وَلَا يُرْفَعُ السِّتْرُ
أَعَتْبٌ عَلَيْنَا ذَادَ عَنْ ذَلِكَ الرِّضَى فَنُعْتَبَ أَمْ بِالْمَسْمَعِ الْمُعْتَلِي وَقْرُ (٥)
أَمَا إِنَّهُ شُغْلٌ فَرَاغُكَ بَعْدَهُ سَيَنْصَاتُ إِلَّا أَنَّ مَوْعِدَهُ الْحَشْرُ (٦)
أَأَنْسَاكَ ـ لَمَّا يَنْأَ عَهْدٌ ـ وَلَوْ نَأَى سَحِيسَ اللَّيَالِي لَمْ يَرِمْ نَفْسِيَ الذِّكْرُ (٧)
وَكَيْفَ بِنِسْيَانٍ وَقَدْ مَلَأَتْ يَدِي جِسَامُ أَيَادٍ مِنْكَ أَيْسَرُهَا الْوَفْرُ

---

(١) كأن لم تتكشف فطنته وألمعيته مستور الغيب الذى يتبدى لها رغم حفائه واضحا جليا .
(٢) تشذر الأمور : نشط إليها وتسرع ، وتشذر الرجل تهيأ للقتال والحملة .
(٣) يشير إلى تلقيبه بالمعتضد والمنصور . (٤) يبهضه : أى يثقل عليه حمله .
(٥) فى رواية نفح الطيب :
«أعتب علينا ذاوعن ذلك الرضى فنسمع أم الخ . . . . »
(٦) يقول : إنك فى شغل لن ينقضى إلا إذا جاء يوم الحشر .
(٧) رام يرم : فارق يفارق ، يقول : كيف أنساك ولم يطل عهدى بك ولو طال أبد الدهر لم أنسك ولم تفارق نفسى ذكراك .

* * *

لَئِنْ كُنْتَ لَمْ أَشْكُرْ لَكَ الْمِنَنَ الَّتِي ... تَمَلَّيْتُهَا تَتْرَى لَأَوْبَقَنِي (١) الْكُفْرُ

فَهَلْ عَلِمَ الشِّلْوُ الْمُقَدَّسُ أَنَّنِي ... مُسَوِّغُ حَالٍ ضَلَّ فِي كُنْهِهَا الْفِكْرُ (٢)

وَأَنَّ مَتَابِي لَمْ يُضِعْهُ «مُحَمَّدٌ» ... خَلِيفَتُكَ الْعَدْلُ الرِّضَى وَابْنُكَ الْبَرُّ

هُوَ الظَّافِرُ الْأَعْلَى الْمُؤَيَّدُ بِالَّذِي ... لَهُ فِي الَّذِي وَلَّاهُ مِنْ صُنْعِهِ سِرُّ

رَأَى فِي اخْتِصَاصِي مَا رَأَيْتَ وَزَادَنِي ... مَزِيَّةَ زُلْفَى (٣) مِنْ نَتَائِجِهَا الْفَخْرُ

وَأَرْغَمَ فِي يُمْنَى أُنُوفَ عِصَابَةٍ ... لِقَاؤُهُمُ جَهْمٌ وَلَحْظُهُمُ شَزْرُ

إِذَا مَا اسْتَوَى فِي الدَّسْتِ عَاقِدَ حَبْوَةٍ ... وَقَامَ سِمَاطَا حَفْلِهِ فَلِيَ الصَّدْرُ (٤)

---

(١) لأهلكني (٢) الشلو : المعضو جمعه أشلاء . يقول : هل علم الجسد المبت الطاهر أني أحاول أن أستسيغ ما لا سبيل إلى استساغته أي أنه يحاول أن يرغم نفسه على الرضى بما حدث فلا يجد إلى ذلك سبيلا . (٣) قربى .

(٤) استوى : جلس ، والدست : معرب دشت ومعناها بالفارسية اليد — كما وجد من شعراء العليل وترك هذه المادة في اللسان ، وفي القاموس : « الدست للدشت ومن الثياب والورق وصدر البيت معروفات . » واستعملها المولدون لمعان منها المجلس كما في البيت الذي نحن بصدده ، قال أبو العلاء المعري :

« من آلة الدست ماعد الوزير سوى ... تحريك لحيته في حال إيماء

فهو الوزير ولا أرر يشدّ به ... مثل العروض له بحر بلا ماء . »

وورد في المقامة الحادية عشرة من مقامات الحريري عند قوله :

« تبصر ودع اللوم وقل لي هل ترى اليوم

فسقى لا يقمر القوم إذا ما دسته ثم . »

وهو هنا بمعنى الحيلة والخداع ، والمعنى تم حيله ، ويقال فلان تم عليه الدست في القمار أي لم يفز وورد في آخر المقامة الثامنة عشرة عند قوله :

« فغادرنا بعد أن وخدت عنسه ، ورايلنا أنسه ، كدست غاب صدره ، أو ليل أفل بدره . »

وهو هنا بمعنى المجلس وورد في أول المقامة الثالثة والعشرين عند قوله :

« فركضت في إثر الغداره ، حتى وافينا باب الامارة ، وهناك صاحب المونة متربعا في دسته ، ومروعا بسمته . »

وَفِى نَفْسِـــهِ الْعَلْيَاءُ لِى مُتَبَوَّأٌ يُنَافِسُنِى فِيـــهِ السِّمَاكَانِ وَالنَّسْرُ
يُطِيلُ الْعِـدَا فِىَّ التَّنَاجِىَ خُفْيَةً يَقُولُونَ: « لَاتَسْتَفْتِ، قَدْقُضِىَ الْأَمْرُ »
مَضَى نَفْثُهُمْ ـ فِى عُقْدَةِ السَّعْىِ ـ ضَلَّةً فَعَادَ عَلَيْهِمْ غُمَّةً ذٰلِكَ السِّـــحْرُ
يَشِبُّ مَكَانِى عَنْ تَوَقِّى مَكَانِهِمْ كَمَاشَبَّ ـ قَبْلَ الْيَوْمِ ـ عَنْ طَوْقِهِ عَمْرُو(١)

وهو هنا بمعنى المجلس أيضا وورد فى آخر هذه المقامة عند قوله :

« فلما حضرت الوالى وقد خلا مجلسه ، وانجلى تعبسه ، أخذ يصف أبا زيد وفضله ، ويذم الدهر له ، ثم قال : نشدتك الله ـ ألست الذى أعاره الدست ؟ فقلت : لا والذى أحلك فى هـذا الدست ، ما أنا بصاحب هـذا الدست ، بل أنت الذى تم عليه الدست . » فالدست الأول هو الثوب ، والثانى المجلس ، والثالث هو الثوب أيضا ، والرابع الحيلة .

والحبوة : بضم وكسر أوله وتحمع على حبا هى أن يجمع الجالس ظهره وساقيه بثوب أو بيديه ، ويقال حل فلان حبوته ، وهـذا الأمر مما تحل له الحبا ، والحبوة ـ بالفتح ـ المصدر ، والسماط : الصف من الناس ، يقال قام القوم حوله سماطين أي صفين ، ومشى بين السماطين أى بين الصفين ، يقول إنه يفسح لى الجلوس فى الصدر إذا استوى فى مجلسه ومثل حوله صفان من حفله .

(١) أصـل المثل : « شب عمرو عن الطوق » وفى رواية أساس البـلاغة : « جل عمرو عن الطوق » ، وفى رواية مجمع الأمثال للميدانى « كبر عمرو عن الطوق » ومعنى البيت :

« لقد جل مكانى عن أن أحاذرهم ، كما جل عمرو عن الطوق . »

قال ابن قتيبة فى كتاب المعارف : وعمرو هذا هو عمرو بن عدى بن نصر ، ابن أخت جذيمة الأبرش، وهو الذى كان يقول ـ إذا حنى الكمأة بين يدى خاله وهو صبى ـ :

« هـذا جناى ، وخياره فيـه إذ كل جان يده إلى فيـه . »

وقد زعموا أن الجن استهوته حينا ، ثم ظهر فوجـده مالك وعقيل ، قالوا : « فانتسب لهما . فأتيا به جذيمة فسر به سرورا شديدا وحكمهما فسألاه منادمته . »

وقد ضربت الأمثال بندمانى جذيمة ، فقال متمم النويرى حين رثى أخاه :

« وكنا كندمانى جذيمة حقبة من الدهر حتى قيل لن يتصدعا
وعشنا بخير ـ فى الحياة ـ وقبلنا أصاب المنايا رهط كسرى وتبعا
فلما تفرقنا كأنى ومالكا ـ لطول افتراق ـ لم نبت ليلة معا . »

وقال أبو خراش الهذلى :

« ألم تعلمى أن قد تفرق ـ قبلنا ـ خليلا صفاء مالك وعقيل . »

وقد أشار أبو العلاء المعرى إلى ندمانى جذيمة إشارة نافعة فى رسالة الغفران (جـ ١ ص١٣٢) فليرجع إليها من شاء ، قالوا : وأصل هذا المثل أن أم عمرو نظفته وألبسته ثياب الملوك وطوّقته بطوق فى عنقه وأمرته بزيارة خاله ، قالوا : فلما رأى خاله لحيته والطوق فى عنقه ، قال : « شب عمرو عن الطوق » فذهبت مثلا. قالوا : « وكانت الزباء قتلت خاله فأدرك عمرو وقصير ثأره فقتلاها . »

* * *

لَكَ الْخَيْرُ، إِنَّ الرُّزْءَ كَانَ غَيَابَةً ... طَلَعْتَ لَنَا فِيهَا كَمَا طَلَعَ الْبَدْرُ

فَقَرَّتْ عُيُونٌ كَانَ أَسْخَنَهَا الْبُكَا ... وَقَرَّتْ قُلُوبٌ كَانَ زَلْزَلَهَا الذُّعْرُ

وَلَوْلَاكَ أَعْيَا رَأْبُنَا ذٰلِكَ الثَّأَى (١) ... وَعَزَّ فَلَمْ يَنْتَعِشْ ذٰلِكَ الْعَشْرُ

وَلَمَّا قَدَمْتَ الْجَيْشَ بِالْأَمْسِ أَشْرَقَتْ ... إِلَيْكَ - مِنَ الْآمَالِ - آفَاقُهَا الْغُبْرُ (٢)

فَقَضَّيْتَ مِنْ فَرْضِ الصَّلَاةِ لُبَانَةً ... مُشَيِّعُهَا نُسْكٌ وَفَارِطُهَا طُهْرُ (٣)

وَمِنْ قَبْلُ مَا قَدَّمْتَ مَثْنَى نَوَافِلٍ ... يُلَاقِي بِهَا مَنْ صَامَ مِنْ عِيدِهِ فِطْرُ

وَرُحْتَ إِلَى الْقَصْرِ الَّذِي غَضَّ طَرْفَهُ ... بُعَيْدَ التَّسَامِي أَنْ غَدَا غَيْرَهُ الْقَصْرُ (٤)

فَدَامَا مَعًا فِي خَيْرِ دَهْرٍ، صُرُوفُهُ ... حَرَامٌ عَلَيْهَا أَنْ يَطُورَهُمَا هَجْرُ (٥)

وَأَجْمِلْ - عَنِ الثَّاوِي - الْعَزَاءَ فَإِنْ ثَوَى ... فَإِنَّكَ لَا الْوَانِي، وَلَا الضَّرِعُ الْغُمْرُ (٦)

---

(١) الثأى : الفساد ورأبه إصلاحه ، قال الشاعر :

« يرأب الصدع والثأى برصين ... من سجايا آرائه ويعير . »

(٢) قدمت : يقال قدم فلان فلانا يقدمه من باب نصر إذا تقدّمه ، قال تعالى : « يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار » والمعنى : ولما تقدّمت الجيش صبيحة يوم الفطر أشرقت إليك شموس الآمال من آفاقها الغبر يريد أن الآمال ابتسمت له مبتهجة ، وقد اغبرت الآفاق حزنا على فقد والده .

(٣) اللبانة : الحاجة يقال قضى فلان لبانته أى حاجته ، والفارط : المتقدّم أي قضيت حاجة فى نفسك من صلاة الفرض التى شيعها وتلاها نسك العيد وسبقها وتقدمها الطهر المسنون والطيب، وفى رواية نفح الطيب: « فشيعها نسك وقارنها طهر »

(٤) أى بعد أن عدت من مصلى العيد رحت إلى القصر الذى غض طرفه حياء - بعد أن سما ببصره إليك - لأنك تبدّلت به قصرا غيره . (٥) لايطورهما : لايقربهما والضمير عائد على القصرين .

(٦) الوانى : الضعيف ، والضرع : الخاضع الذليل ، والغمر : الذى لم يحرب الأمور ، يقول : تدرع بالصبر وأجمل عزاء عن الراحل الثاوى في قبره ، فانك لست - إذ ألم بك خطب - بالضعيف ولا الغر الجاهل الذى لم يحرب الأمور ولم يعتبر بصروف الدهر ، وفى الأصل « فانك لا الفانى » وقد أثبتنا هنا رواية نفح الطيب ، قال الشاعر :

أثاة وحلما وانتظارا بهم غدا ... فما أنا بالوانى ولا الضرع الغمر

وَمَا أَعْطَتِ السَّبْعُونَ ـ قَبْلُ ـ أُولِى الْحِجَا مِنَ الْإِرْبِ مَا أَعْطَتْكَ عِشْرُوكَ وَالْعَشْرُ (١)

* * *

أَلَسْتَ الَّذِى إِنْ ضَاقَ ذَرْعٌ بِحَادِثٍ تَبَلَّجَ مِنْهُ الْوَجْهُ وَاتَّسَعَ الصَّدْرُ (٢)
فَلَا تَهْضِ الدُّنْيَا جَنَاحَكَ بَعْدَهُ فَنَكْ ـ لِمَنْ هَاضَتْ نَوَائِبُهَا ـ جَبْرُ
وَلَا زِلْتَ مَوْفُورَ الْعَدِيدِ بِقُرَّةٍ لِعَيْنَيْكَ مَشْدُودًا بِهِمْ ذٰلِكَ الْأَزْرُ
فَإِنَّكَ شَمْسٌ ـ فِى سَمَاءِ رِيَاسَةٍ ـ تَطَلَّعَ مِنْهُمْ حَوْلَهَا أَنْجُمٌ زُهْرُ

* * *

شَكَكْنَا فَلَمْ تُثْبِتْ (٣) أَأَيَّامُ دَهْرِنَا بِهَا وَسَنٌ أَمْ هَزَّ أَعْطَافَهَا سُكْرُ ؟
وَمَا إِنْ تَغَشَّتْهَا مُغَازَلَةُ الْكَرَى وَمَا إِنْ تَمَشَّتْ ـ فِى مَفَاصِلِهَا (٤) ـ خَمْرُ
سِوَى نَشَوَاتٍ ـ مِنْ سَجَايَا مُمَلَّكٍ ـ يُصَدِّقُ فِى عَلْيَائِهَا الْخَبَرَ الْخُبْرُ

* * *

أَرَى الدَّهْرَ ـ إِنْ يَبْطِشْ ـ فَأَنْتَ يَمِينُهُ وَإِنْ تَضْحَكِ الدُّنْيَا فَأَنْتَ لَهَا ثَغْرُ
وَكَمْ سَائِلٍ ـ بِالْغَيْبِ عَنْكَ ـ أَجَبْتُهُ : هُنَاكَ الْأَيَادِى الشَّفْعُ وَالسُّؤْدُدُ الْوِتْرُ (٥)
هُنَاكَ التُّقَى وَالْعِلْمُ وَالْحِلْمُ وَالنُّهَى وَبَذْلُ اللُّهَا وَالْبَأْسُ وَالنَّظْمُ وَالنَّثْرُ

---

(١) أولى الحجا : أرباب العقول ، والارب : العقل والدهاء والبصر بالأمور ، يقال أرب كـكرم أرابة فهو أريب أى عاقل وجاء فى نفح الطيب «اللب» بدل «الارب» ، وعشروك : بالاضافة ، وعشرون إذا أضيف سقطت منه النون لأنه ملحق بجمع المذكر السالم ، يقال : « هذه عشروك وعشرى » بتشديد الياء كمسلمى ، أى أن ثلاثين حجة أفادتك من الحجا والعقل ما لم تعطه غيرك السبعون .

(٢) ألست الذى إن ضاق الناس ذرعا بحادث تهلل له وجهك بشرا ، واتسع له صدرك احتمالا وصبراً ، ثقة منك بأنك ستكشف النازلة ، وتدفع الكارثة .

(٣) وفى نفح الطيب : « فلم ندرك » (٤) وفى نفح الطيب : « معاطفها » .

(٥) أى : هناك الايادى أى النعم المزدوجة المتكررة والمجد الفذ .

هُمَامٌ — إِذَا لاَقَى المُنَاجِزَ رَدَّهُ — وَإِقْبَالُهُ خَطْوٌ ، وَإِدْبَارُهُ حُضْرُ (١)

مَحَاسِنُ ، مَا لِلرَّوْضِ — خَامَرَهُ النَّدَى — رُوَاءٌ إِذَا نُصَّتْ حُلاَهَا وَلاَ نَشْرُ (٢)

مَتَى أَنْتُشِقَتْ لَمْ تُطْرِ دَارِينُ مِسْكَهَا — حَيَاءً ، وَلَمْ يَفْخَرْ بِعَنْبَرِهِ الشِّحْرُ (٣)

عَطَاءٌ وَلاَ مَنٌّ ، وَحُكْمٌ وَلاَ هَوًى — وَحِلْمٌ وَلاَ عَجْزٌ ، وَعِزٌّ وَلاَ كِبْرُ

قَدِ اسْتَوْفَتِ النَّعْمَاءُ فِيكَ تَمَامَهَا — عَلَيْنَا ، فَمِنَّا الحَمْدُ لِلهِ وَالشُّكْرُ

إلى ابن ذكوان

« كتب إلى الوزير أبي العباس بن حاتم بن ذكوان »

لَسْتَ مِنْ بَابَةِ المُلُوكِ (٤) أَبَا العَبَّاسِ ، دَعْهُمْ فَشَأْنُهُمْ غَيْرُ شَانِكْ

مَا جَزَاءُ الْوَزِيرِ مِنْكَ — إِذَا اخْتَصَّكَ — أَنْ تَسْتَمِرَّ فِي إِدْمَانِكْ

أَتُرَاهُ لاَ يَسْتَرِيبُ لِإِمْسَا — كِكَ سَرْدَ العِرَاقِ تَحْتَ لِسَانِكْ (٥)

مُذْ نَهَانَا — عَنِ المُدَامِ — انْتَهَيْنَا — مَعَ أَنَّا نُعَدُّ مِنْ صِبْيَانِكْ .

---

(١) المناجز : من المناجزة وهى المبارزة فى القتال والمقاتلة ، قال عبيد :

كالهندوانى المهنـــــد هزه القرن المناجز

والحضر : إحضار الفرس وعدوه ، يقول هو ملك همام إذا لاق عدوه المناجز فى الحرب والقتال رده منهزما فى حال كون إقباله بطيئا وإدباره سريعا .

(٢) نصت : وضعت على المعصة بكسر الميم وهى سرير العروس الذى تنص وتجلى عليه ليلة الزفاف ، والنشر : الرائحة الطيبة ، وفى الأصل « ولا بشر » والذى أثبتناه هنا رواية نفح الطيب .

(٣) لم تطر : لم تمدح ، ودارين : ثغر على الخليج الفارسى يجلب إليه الطيب من بلاد الهند ، والذى فى نفح الطيب « لم تدر » والشحر : ساحل البحر بين « عمان » و « عدن » — أو هو صقع على ساحل الخليج الفارسى وإلى هذا الصقع ينسب العنبر الشحرى ، وهناك عدة مدن بهذا الاسم كما يؤخذ من معجم البلدان ، والمعنى : متى فاح عنبر تلك المحاسن لم تثن دارين على مسكها ولم يفخر الشحر بعنبره .

(٤) من بابة الملوك : من الشروط والوجوه التى تصلح لهم ، ويقال : « هذا شىء من بابتك » أى يصلح لك . يقول : « لست من بيئتهم . »

(٥) العراق : بالكسر الجلد المخروز على فم السقاء والزق ونحوهما تشبه بخرزه الأسنان فى السرد ، والاستواء ، وجاء فى الأصل « سعد العراق » يقول : أترى الوزير لا يقع فى الريبة لوضعك مسرودة العراق تحت لسانك ، يريد أنه يمحسى الخمر من فم زق معرق أى على فمه عراق .

إلى المعتمد

« كتب ابن زيدون إلى المعتمد يشوّقه إلى تعاطى الحيا فى قصوره البديعة التى منها المبارك والثريا [١]. »

فُزْ بِالنَّجَاحِ وَأَحْرِزِ الْإِقْبَالاَ ... وَحُزِ الْمُنَى وَتَنَجَّزِ الآمَالاَ
وَلْيَهْنِكَ التَّأْيِيدُ وَالظَّفَرُ اللَّذَا ... صَدَقَاكَ فى السِّمَةِ الْعَلِيَّةِ ـ فالاَ
يَاأَيُّهَا الْمَلِكُ الَّذِى لَوْلاَهُ لَمْ ... تَجِدِ الْعُقُولُ النَّاشِدَاتُ كَمَالاَ

* * *

أَمَّا « الثُّرَيَّا » [٢] فَالثُّرَيَّا نَصْبَةً ... وَإِفَادَةً وَإِنَافَةً وَجَمَالاَ
قَدْ شَاقَهَا الْإِغْبَابُ حَتَّى أَنَّهَا ... لَوْ تَسْتَطِيعُ سَرَتْ إِلَيْكَ خَيَالاَ
رِفْهُ [٣] وُرُودَكَهَا لِتَغْنَمَ رَاحَةً ... وَأَطِلْ مَزَارَكَهَا لِتَنْعَمَ بَالاَ

* * *

وَتَمَثَّلِ الْقَصْرَ « الْمُبَارَكَ » وَجْنَةً ... قَدْ وَسَّطَتْ فِيهَا « الثُّرَيَّا » خَالاَ
وَأَدِرْ هُنَاكَ مِنَ الْمُدَامِ أَتَمَّهَا ... أَرَجًا زَكَا وَأَشَفَّهَا جِرْيَالاَ [٤]
قَصْرٌ يُقِرُّ الْعَيْنَ مِنْهُ مَصْنَعٌ ... بَهِجُ الْجَوَانِبِ، لَوْ مَشَى لاَخْتَالاَ
لاَزِلْتَ تَفْتَرِشُ السُّرُورَ وَحَدَائِقاً ... فِيهِ ، وَتَلْتَحِفُ النَّعِيمَ ظِلاَلاَ .

---

(١) وردت هذه القصيدة فى الديوان ولم يكتب لها عنوان ، وقد نقلنا هذه الكلمة من نفح الطيب .

(٢) يعنى قصره المسمى « الثريا » .

(٣) أى اجعل ورودك اياها رفها أى كل يوم ، يقال وردت الابل رفها إذا كانت ترد الماء كلما شاءت الورود .

(٤) الجريال : الخمر ، أو حمرتها وسيأتى تفسيرها فى ص «١٥٥»

مدح ورثاء وتهنئة [١]

« وقال أيضا يمدحه ويرثى الوزير الكاتب الأعلى أبا الحزم أباه رحمهما الله . »

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الشَّمْسَ قَدْ ضَمَّهَا الْقَبْرُ ... وَأَنْ قَدْ كَفَانَا ـ فَقْدَنَا الْقَمَرَ ـ الْبَدْرُ

وَأَنَّ الحَيَا [٢] ـ إِنْ كَانَ أَقْلَعَ صَوْبُهُ ـ ... فَقَدْ فاضَ لِلْآمَالِ فى إِثْرِهِ الْبَحْرُ

إِسَاءَةُ دَهْرٍ أَحْسَنَ الْفِعْلَ بَعْدَهَا، ... وَذَنْبُ زَمَانٍ جَاءَ يَتْبَعُهُ الْعُذْرُ

فَلَا يَتَهَنَّ الْكَاشِحُونَ فَمَا دَجَا ... لَنَا اللَّيْلُ إِلَّا رَيْثَمَا طَلَعَ الْفَجْرُ

وَإِنْ يَكُ وَلَّى « جَهْوَرٌ » ، « مُحَمَّدٌ » ... خَلِيفَتُهُ الْعَدْلُ الرِّضَى وَابْنُهُ الْبَرُّ

* * *

لَعَمْرِى لَنِعْمَ الْعِلْقُ [٣] أَتْلَفَهُ الرَّدَى ... فَبَانَ ، وَنِعْمَ الْعِلْقُ أَخْلَفَهُ الدَّهْرُ

هَزَزْنَا بِهِ الصَّمْصَامَ [٤] فَالْعَزْمُ حَدُّهُ ... وَحِلْيَتُهُ الْعَلْيَا وَإِفْرِنْدُهُ الْبِشْرُ

فَتًى يَجْمَعُ الْمَجْدَ الْمُفَرَّقَ هَمُّهُ ... وَيُنْظَمُ ـ فى أَخْلَاقِهِ ـ السُّودَدُ النَّثْرُ

أَهَابَتْ إِلَيْهِ بِالْقُلُوبِ مَحَبَّةٌ ... هِىَ السِّحْرُ لِلْأَهْوَاءِ، بَلْ دُونَهَا السِّحْرُ

سَرَتْ ـ حَيْثُ لَا تَسْرِى مِنَ الْأَنْفُسِ الْمُنَى ـ ... وَدَبَّتْ دَبِيباً لَيْسَ يُحْسِنُهُ الْخَمْرُ

لَبِسْنَا لَدَيْهِ الْأَمْنَ تَنْدَى ظِلَالُهُ ... وَزَهْرَةَ عَيْشٍ مِثْلَ مَا أَينَعَ الزَّهْرُ

وَعَادَتْ لَنَا عَادَاتُ دُنْيَا كَأَنَّهَا ... بِهَا وَسَنٌ أَوْ هَزَّ أَعْطَافَهَا سُكْرُ

* * *

مَلِيكٌ لَهُ مِنَّا النَّصِيحَةُ وَالْهَوَى ... وَمِنْهُ الْأَيَادِى الْبِيضُ وَالنِّعَمُ الْخُضْرُ

---

(١) ارجع إلى ص « ١٤٠ » و ص « ١٧٤ » من هذا الديوان .

(٢) المطر . (٣) النفيس . (٤) الحسام .

نُسِرُّ وَفَاءً ـ حِينَ نُعْلِنُ طَاعَةً ـ فَمَا خَانَهُ سِرٌّ وَلَا رَابَهُ جَهْرُ
فَقُلْ لِلْحَيَارَى: « قَدْ بَدَا عَلَمُ الْهُدَى» وَلِلطَّامِعِ الْمَغْرُورِ: «قَدْ قُضِيَ الْأَمْرُ[1]»

* * *

«أَبَا الْحَزْمِ» قَدْ ذَابَتْ عَلَيْكَ ـ مِنَ الْأَسَى ـ قُلُوبٌ مُنَاهَا الصَّبْرُ، لَوْ سَاعَدَ الصَّبْرُ
دَعِ الدَّهْرَ يَفْجَعْ بِالذَّخَائِرِ أَهْلَهُ فَمَا لِنَفِيسٍ ـ مُذْ طَوَاكَ الرَّدَى ـ قَدْرُ
تَهُونُ الرَّزَايَا بَعْدُ ـ وَهْيَ جَلِيلَةٌ ـ وَيُعْرَفُ ـ مُذْ فَارَقْتَنَا ـ الْحَادِثُ النُّكْرُ
فَقَدْنَاكَ فَقْدَانَ السَّحَابَةِ لَمْ يَزَلْ لَهَا أَثَرٌ يُثْنِي بِهِ السَّهْلُ وَالْوَعْرُ
مَسَاعِيكَ حَلْيٌ لِلَّيَالِي مُرَصَّعٌ وَذِكْرُكَ ـ فِي أَرْدَانِ أَيَّامِهَا ـ عِطْرُ
فَلَا تَبْعَدَنْ إِنَّ الْمَنِيَّةَ غَايَةٌ إِلَيْهَا التَّنَاهِي طَالَ أَوْ قَصُرَ الْعُمْرُ

* * *

عَزَاءً ـ فَدَتْكَ النَّفْسُ عَنْهُ ـ فَإِنْ ثَوَى فَإِنَّكَ لَا الْوَانِي وَلَا الضَّرَعُ الْغُمْرُ
وَمَا الرُّزْءُ فِي أَنْ يُودَعَ التُّرْبَ هَالِكٌ بَلِ الرُّزْءُ كُلُّ الرُّزْءِ أَنْ يَهْلِكَ الْأَجْرُ
أَمَامَكَ ـ مِنْ حِفْظِ الْإِلٰهِ ـ طَلِيعَةٌ وَحَوْلَكَ ـ مِنْ آلَائِهِ ـ عَسْكَرٌ مَجْرُ
وَمَا بِكَ مِنْ فَقْرٍ إِلَى نَصْرِ نَاصِرٍ كَفَتْكَ ـ مِنَ اللهِ ـ الْكَلَاءَةُ[2] وَالنَّصْرُ

* * *

لَكَ الْخَيْرُ، إِنِّي وَاثِقٌ بِكَ شَاكِرٌ لِمَثْنَى أَيَادِيكَ الَّتِي كُفْرُهَا الْكُفْرُ
تَحَامَى الْعِدَا ـ لَمَّا اعْتَلَقْتُكَ ـ جَانِبِي وَقَالَ الْمُنَاوِي: شَبَّ عَنْ طَوْقِهِ عَمْرُو[3]

---

(١) قريب من هذا قول ابن هانئ الأندلسى :
تمول بنو العباس : « هل فتحت مصر ؟ » فقال لبنى العباس : « قد قضى الأمر »
(٢) الرعاية والحفظ . (٣) ارجع إلى تفسير هذا المثل فى (ص ١٤٥) من هذا الكتاب .

يَلِينِ كَلَامٌ كَانَ يَخْشُنُ مِنْهُمُ وَيَفْتُرُ نَحْوِى ذٰلِكَ النَّظَرُ الشَّزْرُ

* * *

فصَـــدِّقْ ظُنُوناً لِى وَفِيٌّ ، فَإِنَّنِى لَأَهْلُ الْيَدِ الْبَيْضَاءِ مِنْكَ وَلَا فَخْرُ

وَمَنْ يَكُ ـ لِلدُّنْيَا وَلِلْوَفْرِ ـ سَعْيُهُ فَتَقْرِيبُكَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالُكَ الْوَفْرُ (١)

هـــدية عنب

« وأهدى إلى الوزير الفقيه صاحب الأحكام أبى بكر محمد بن محمد بن إبراهيم جدّه لأمّه عنبا عذارى وكتب معه . »

أَتَاكَ مُحَيِّيًا عَـــنِّى اعْتِذَارَا عَذَارَى دُونَهُ رِيقُ الْعَذَارَى (٢)

تَخَالُ الشَّهْدَ مِنْهُ مُسْتَمَدًّا وَنَفْحَ الْمِسْكِ مِنْهُ مُسْتَعَارَا

يَرُوقُ الْعَيْنَ مِنْهُ جِسْمُ مَاءٍ غَدَا ثَوْبُ الْهَوَاءِ لَهُ شِعَارَا

وَلَوْلَا أَنَّنِى قَدْ نِلْتُ مِنْهُ ـ وَلَمْ أَسْكَرْ ـ خَلِتُّ بِهِ عُقَارَا

بَعَثْتُ بِهِ وَلَوْ أَهْدَيْتُ نَفْسِى إِلَيْكَ، لَكَانَ مِنْ بِرِّى اقْتِصَارَا

فَأَنْعِمْ بِالْقَبُولِ فَرُبَّ نُعْمَى أَعَدْتَ بِهَا دُجَى لَيْلِى نَهَارَا.

---

(١) يقول : إن من كانت غايته من الدنيا أن تقبل عليه وأن ينال الغنى فانه يظفر بهما جميعا حين تدنيه منك وتقبل عليه .

(٢) العذارى : صنف من العنب يشبه بأصابع العذارى لطوله ، يقول : أتاك يحمل تحيتى معتذراً إليك « عنب عذارى » حلو دونه فى الحلاوة ريق العذارى .

رثاء ابن ذكوان

« قال يرثى القاضى أبا بكر بن ذكوان . »

اعْجَبْ لِحَالِ السَّرْوِ كَيْفَ تُحَالُ ... وَلِدَوْلَةِ الْعَلْيَاءِ كَيْفَ تُدَالُ (١)

لاَ تَفْسَحَنْ لِلنَّفْسِ فى شَأْوِ المُنَى ... إِنَّ اغْتِرَارَكَ ـ بِالْمُنَى ـ لَضَلاَلُ

مَا أَمْتَعَ الآمَالَ لوْلاَ أَنَّهَا ... تَعْتَاقُ ـ دُونَ بُلُوغِهَا ـ الآجَالُ (٢)

مَنْ سُرَّ ـ لَمَّا عَاشَ ـ قَلَّ مَتَاعُهُ ... فالْعَيْشُ نَوْمٌ وَالسُّرُورُ خَيَالُ (٣)

* * *

فى كُلِّ يَوْمٍ نُنْتَحَى بِرَزِيَّةٍ ... لِلْأَرْضِ ـ مِنْ بُرَحَائِهَا ـ زِلْزَالُ (٤)

إِنْ يَنْكَدِرْ ـ بِالْأَمْسِ ـ نَجْمٌ ثَاقِبٌ ... فَالْيَوْمَ أَقْلَعَ عَارِضٌ هَطَّالُ (٥)

إِنَّ النَّعِيَّ « لِجَهْوَرٍ » وَ « مُحَمَّدٍ » ... أَبْكَى الْغَمَامَ ، فَدَمْعُهُ مُنْثَالُ (٦)

شَكْلاَنِ ـ إِنْ حُمَّ الْحِمَامُ ـ تَجَاذَبَا ... لاَ غَرْوَ أَنْ تَتَجَاذَبَ الْأَشْكَالُ (٧)

---

(١) السرو : الشرف والسيادة ، يقول : أعجب لهذا المجد كيف حال عن عهده وتحول ، واعجب لدولة العلياء كيف دالت وتبدلت .

(٢) يقول : إن أحسن شىء تتمتع به النفس الآمال ، لولا أن الآجال ، تعوق دون بلوغ الآمال .

(٣) من سره العيش فى هذه الحياة الدنيا فليعلم أن متاعها قليل ، وأن الناس فيها نيام لا انتباه لهم ولا يقظة إلا بعد الموت إذن فسرورها خيال ، وغرورها باطل .

(٤) ننتحى : نقصد ، يقال انتحاه إذا قصد ناحيته ، والبرحاء : الشدة .

(٥) ينكدر : ينقض ويسقط ، قال تعالى « وإذا النجوم انكدرت » أى تناثرت ، والعارض : السحاب ، يقول : إن موت أبى بكر القاضى جاء عقب موت اثنين من آل جهور سيذكرهما فى البيت التالى لهذا البيت .

(٦) النعى : كنى الناعي ، من نعى الميت ينعاه إذا أخبر بموته ، ومنثال : من نثل الدمع وغيره استخرجه .

(٧) حم : قدر ، والحمام : الموت ، يقول : « جهور » و « محمد » شكلان متجانسان حم الموت على أحدهما فانجذب إليه شكله ، وكذلك الأشكال تتجاذب .

* * *

وَلَّى « أَبُو بَكْرٍ » فَرَاعَ لَهُ الْوَرَى هَوْلٌ تَقَاصَرُ ـ دُونَهُ ـ الْأَهْوَالُ
قَرْ هَوَى فِى التُّرْبِ ـ تُحْثَى فَوْقَهُ ـ لِلّٰهِ مَا حَازَ الثَّرَى الْمُنْهَالُ (١)
قَدْ قُلْتُ ـ إِذْ قِيلَ السَّرِيرُ يُقِلُّهُ ـ هَلْ لِلسَّرِيرِ بِقَدْرِهِ اسْتِقْلَالُ ؟
الآنَ بَيَّنَ لِلْعُقُولِ زَوَالُهُ أَنَّ الْجِبَالَ قُصَارُهُنَّ زَوَالُ
مَا أَقْبَحَ الدُّنْيَا ! خِلَافَ مُوَدِّعٍ غَنِيَتْ بِهِ فِى حُسْنِهَا تَخْتَالُ (٢)

* * *

يَا قَبْرُهُ الْعَطِرَ الثَّرَى لَا يَبْعَدَنْ حُلْوٌ مِنَ الْفِتْيَانِ فِيكَ حَلَالُ (٣)
مَا أَنْتَ إِلَّا الْجَفْنُ أَصْبَحَ طَيَّهُ نَصْلٌ عَلَيْهِ ـ مِنَ الشَّبَابِ ـ صِقَالُ (٤)
فَهُنَاكَ نَفَّاحُ الشَّمَائِلِ مِثْلَ مَا طَرَقَتْ بِأَنْفَاسِ الرِّيَاضِ شَمَالُ (٥)

---

(١) تحثى : تهال فوقه ، والثرى : التراب الندى .

(٢) خلاف مودع : أى بعده ، يقال جاء فلان خلاف فلان أى بعده ، قال تعالى « وإذن لايلبثون خلافك إلاقليلا » أى خلفك كما فى القراءة الثانية ، والمعنى : ماأقبح الدنيا بعد هـذا الراحل المودع الذى كانت الدنيا به تختال كالعروس المستغنية بجمالها عن الزينة ثم أصبحت بعده قبيحة دميمة .

(٣) الحلو الحلال : من الفتيان هو الفتى الذى لاريبة فيه الموثوق به ، قال الشاعر :

« ألا ذهب الحلو الحلال الحلاحل ومن هوله حكم وعدل ونائل . »

وقال الآخر :

« رأيت رباطا حين تم شبابه وولى شبابى ليس فى بره عتب
إذا كان أولاد الرجال حزازة فأنت الحلال الحلو والبارد العذب . »

والمعنى : يا قبره الشذى العطر ثراه لا بعدن فيك من الفتيان ذلك الفتى الحلو الحلال أى الذى لاشك ولا ريبة فى رجولته وفتوته .

(٤) ما أنت أيها القبر إلا جفن طوى فيه فتى كنصل السيف صقل بصقال الشباب .

(٥) هناك أى فى ذلك القبر ووراى فتى شمائله وطباعه تنفح بأنواع العطر مثل ما هبت بأنفاس الرياض ريح الشمال .

دَانٍ مِنَ الخُلُقِ المُزَيَّنِ ، نَازِحٌ عَنْ كُلِّ مَا فِيهِ عَلَيْهِ مَقَالُ (١)

شِيَمٌ يُنَافِسُ حُسْنَهَا إِحْسَانُهَا كَالرَّاحِ نَافَسَ طَعْمَهَا الْجِرْيَالُ (٢)

* * *

يَا مَنْ شَأَى الْأَمْثَالَ ، مِنْهُ وَاحِدٌ ضُرِبَتْ بِهِ فِي السُّودَدِ الْأَمْثَالُ (٣)

نَقَصَتْ حَيَاتُكَ حِينَ فَضْلُكَ كَامِلٌ هَلَّا اسْتُضِيفَ إِلَى الْكَمَالِ كَمَالُ (٤)

وُدِّعْتَ عَنْ عُمُرٍ عَمَرْتَ قَصِيرَهُ بِمَكَارِمٍ أَعْمَارُهُنَّ طِوَالُ

مَنْ لِلنَّدِيِّ إِذَا تَنَازَعَ أَهْلُهُ فَاسْتَجْهَلَتْ حُلَمَاءُهُ الْجُهَّالُ (٥)

لَوْ كُنْتَ شَاهِدَهُمْ لَقَلَّ مِرَاؤُهُمْ لِأَغَرَّ فِيهِ — مَعَ الْفَتَاءِ — جَلَالُ (٦)

---

(١) دان : قريب من كل خلق حميد يزينه ، نازح : بعيد عن كل فعل فيه عليه لوم ومؤاخذة وعيب ، ولفظه كلفظ قول الشاعر :

« إذا أنت لم تعص الهوى قادك الهوى إلى بعض ما فيه عليك مقال . »

(٢) جريال الخمر : حمرتها الشديدة ، قال الأعشى :

« وسبيئة مما تعتق بابل كدم الذبيح سلبتها جريالها . »

ومعنى سلبتها جريالها — أى لونها وحمرتها — أن لونها ظهر على وجهه حين شربها ولكنها حين خرجت منه عند البول خرجت بيضاء ، وطاق الجريال والجريالة على الخمر نفسها ، قال ذو الرمة :

« كأنى أحو جريالة بابلية كميت تمشت فى العظام شمولها . »

وقالوا فى السلاف — وهو أول ما يجرى من ماء العنب من غير عصر ولونه أصفر — إنه أجود من الجريال. قال المتنبى :

« ولقد خبأت من الكلام سلافه وسقيت من نادمت من جريابه . »

ومعنى البيت الذى نحن بصدده : نافس إحسان شيمك وخلالك حسنها كما نافس لون الراح طعمها ، حين جمعت إلى لذة الطعم حسن اللون .

(٣) وفى الأصل : « يامن شاء . »

(٤) عاجلتك المنية فى الوقت الذى كمل فيه فضلك ، فهلا نسىء فى عمرك حتى تستضيف كمالا إلى كمالك .

(٥) الندى : المجلس ، واستجهلت نسبتهم إلى الجهل ، والحلماء : أصحاب الأحلام أى العقول .

(٦) لو كنت حاضر مجلسهم لقل مراؤهم لأغر فيه مع فتاء السن وقار وهيبة .

* * *

مَنْ لِلْعُلُومِ ؟ فَقَدْ هَوَى الْعَلَمُ الَّذِى ... وُسِمَتْ بِهِ أَنْوَاعُهَا الْأَغْفَالُ (١)

مَنْ لِلْقَضَاءِ يَعِزُّ (٢) ـ فى أَثْنَائِهِ ـ ... إِيضَاحُ مُظْلِمَةٍ لَهَا إِشْكَالُ ؟

مَنْ لِلْيَتِيمِ تَتَابَعَتْ أَرْزَاؤُهُ ؟ ... هَلَكَ الْأَبُ الْحَانِى وَضَاعَ الْمَالُ !

أَعْزِزْ بِأَنْ يَنْعَاكَ نَعْىَ شَمَاتَةٍ ... لِلْأَوْلِيَاءِ الْمَعْشَرُ الْأَقْتَالُ (٣)

فُجِعَتْ رَحَى الْإِسْلَامِ مِنْكَ بِقُطْبِهَا ... لَيْتَ الْحَسُودَ فِدَاكَ فَهْوَ ثِفَالُ (٤)

* * *

زُرْنَاكَ لَمْ تَتَأَذَّنْ كَأَنَّكَ غَافِلٌ ... مَا كَانَ مِنْكَ لِوَاجِبٍ إِغْفَالُ

أَيْنَ الْحَفَاوَةُ رَوْضُهَا غَضُّ الْجَنَى ... أَيْنَ الطَّلَاقَةُ بِشْرُهَا سَلْسَالُ

أَيَّامَ مَنْ يَعْرِضْ عَلَيْكَ وِدَادَهُ ... يَكُنِ الْقَبُولُ بَشِيرَهُ الْإِقْبَالُ

مَهْمَا نُغِبَّكَ لَا نُرِبْكَ وَإِنْ نَزُرْ ... رِفْهًا فَمَا لِزِيَارَةٍ إِمْلَالُ (٥)

هَيْهَاتَ لَا عَهْدٌ ـ كَعَهْدِكَ ـ عَائِدٌ ... إِذْ أَنْتَ فِى وَجْهِ الزَّمَانِ جَمَالُ

---

(١) العلوم المتروكة لصعوبة الخوض فيها إلا على أمثاله من الباحثين .

(٢) يقل ويمتنع ولا يوجد لاشكالها حل .

(٣) أعزز : أعظم على نفسى منعاك نعى شماتة أى يعز علىّ ويشقّ على نفسى أن ينعاك الأقتال أى الأعداء نعى شماتة لأوليائك وأصفيائك .

(٤) قطب الرحى : الحديدة القائمة فى وسط الرحى السفلى ، وهو الذى يدور عليه طبق الرحى العليا ، جعل للاسلام رحى هو قطبها الذى تدور عليه ، يعنى أن عليه نظام الاسلام ، ومدار الأحكام ، والثفال ما يوضع تحت الرحى من جلد ونحوه ليقى ما يسقط عند الطحن من التراب ، وهذا لا يكون إلا فى رحى اليد ، قال زهير . « فتعركم عرك الرحى بثفالها » ، والمعنى فجع الاسلام بقطب العلماء ورئيسهم ، وليت الحسود كان فداء لك معركه الموت عرك الرحى فوق ثفالها أى ليت رحى الموت دارت على حاسدك وشانئك .

(٥) نغبك : الاغباب أن تزوره يوما وتغبه أى تنقطع عنه يوما أو أياما ، ورفها : هو من ورود الابل رفها وهو أن ترد الماء كلما شاءت الورود ، والمعنى : مهما انقطعنا عن زيارتك لم ترتب فى ودنا ، وإن زرناك رفها وفى كل وقت لم تسأم ولم تمل الزيارة .

فَاذْهَبْ ذَهَابَ الْبُرْءِ أَعْقَبَهُ الضَّنَى ... وَالْأَمْنِ وَافَتْ بَعْدَهُ الْآجَالُ (١)
لَكَ صَالِحُ الْأَعْمَالِ إِذْ شَيَّعْتَهَا ... بِالْبِرِّ سَاعَةَ تُعْرَضُ الْأَعْمَالُ

⁂

حَيَّا الْحَيَا مَثْوَاكَ، وَامْتَدَّتْ عَلَى ... ضَاحِي ثَرَاكَ - مِنَ النَّعِيمِ - ظِلَالُ (٢)
وَإِذَا النَّسِيمُ اعْتَلَّ فَاعْتَامَتْ بِهِ ... سَاحَاتِكَ الْغَدَوَاتُ وَالْآصَالُ (٣)
وَلَئِنْ أَذَالَكَ - بَعْدَ طُولِ صِيَانَةٍ - ... قَدَرٌ، فَكُلُّ مَصُونِهِ سَيُذَالُ (٤)
سَيَحُوطُ مَنْ خَلَّفْتَهُ مُسْتَبْصِرٌ ... فِي حِفْظِ مَا اسْتَحْفَظْتَهُ لَا يَالُو
كَفَلَ الْوَزِيرُ «أَبُو الْوَلِيدِ» بِجَبْرِهِمْ ... إِنَّ الْوَزِيرَ - لِمِثْلِهَا - فَعَّالُ
مَلِكٌ سَجِيَّتُهُ الْوَفَاءُ فَمَالَهُ ... بِالْعَهْدِ - فِي ذِي خُلَّةٍ - إِخْلَالُ
حَتْمٌ عَلَيْهِ لَعًا (٥) لِعَثْرَةِ حَالِهِمْ ... قَدْ تَعْثُرُ الْحَالَاتُ ثُمَّ تُقَالُ

⁂

إِيهًا: بَنِي ذَكْوَانَ - إِنْ غَلَبَ الْأَسَى - ... فَلَكُمْ إِلَى الصَّبْرِ الْجَمِيلِ مَآلُ
إِنْ كَانَ غَابَ الْبَدْرُ عَنْ سَاهُورِهِ ... مِنْكُمْ وَفَارَقَ غَابَهُ الرِّئْبَالُ (٦)

---

(١) اذهب على رغم منا ذهاب العافية جاء عقبها المرض ، والأمن وافى بعده الأجل .

(٢) الحيا : المطر ، والمثوى ، القبر ، وضاحى ثراك : أى ثراك الضاحى أى البارز للشمس .

(٣) اعتامت : اختارت ، ومنه قول طرفه :

« أرى الموت يعتام الكرام ويصطفى ... عقيلة مال الفاحش المتشدّد . »

والمعنى : اعتامت أى اختارت العدوات والآصال ساحات القبر وآثرتها بمرور النسيم العليل .

(٤) أذالك : أهانك ، أى لئن امتهنك القدر بعد طول صيانه ، فكل مصون لم تمتد إليه يد القدر سيذال ويهان يوما من الأيام .

(٥) دعاء للعاثر أن يقيمه الله من عثرته ، وإذا قيل « لالعا للعاثر » فمعناه لاأقاله الله من عثرته .

قال ابن دريد :

« فان عثرت بعدها - إن وألت ... نفسى من هاتا - فقولا: « لالعا »
وإن تكن مدتها موصولة ... بالحتف ، سلطت الأسى على الأسى . »

وقال الأخطل :

« فلا هدى الله قيسا - من ضلالتهم - ... ولا لعا لبنى ذكوان إذ عثروا . »

(٦) الساهور : دارة القمر ، والرئبال : الأسد .

فى مدح المعتضـــد

« قال يمدح المعتضد بالله المنصور بفضل الله
أبا عمرو عباد بن محمد بن عباد . »

أَعَرْفُكِ رَاحَ فى عُرْفِ الرِّيَاحِ ؟ فَهَزَّ مِنَ الْهَوَى عِطْفَ ارْتِيَاحِى (١)
وَذِكْرُكِ مَا تَعَرَّضَ أَمْ عَذَابٌ ؟ غَصِصْتُ عَلَيْهِ بِالْعَذْبِ الْقَرَاحِ (٢)
وَهَلْ أَنَا مِنْكِ فى نَشَوَاتِ شَوْقٍ ـ هَفَتْ بِالْعَقْلِ ـ أَوْ نَشَوَاتِ رَاحِ (٣)
لَعَمْرُ هَوَاكِ مَا وَرِيَتْ زِنَادٌ لِوَصْلٍ مِنْكِ طَالَ لَهَا اقْتِدَاحِى (٤)
وَكَمْ أَسْقَمْتِ ـ مِنْ قَلْبٍ صَحِيحٍ ـ بِسُقْمِ جُفُونِكِ الْمَرْضَى الصِّحَاحِ

* * *

مَتَى أُخْفِ الْغَرَامَ يَصِفْهُ جِسْمِى بِأَلْسِنَةِ الضَّنَى الْخُرْسِ الْفِصَاحِ (٥)
فَلَوْ أَنَّ النِّيَابَ فُحِصْنَ عَنِّى خَفِيتُ خَفَاءَ خَصْرِكِ فى الْوِشَاحِ

---

(١) العرف : بالفتح الرائحة الطيبة ، والعرف : بالضم واحد أعراف الرياح وهى أوائلها وأعاليها ، والعطف : الجانب ومائثنيه إذا عطفت على شىء حفوا وإشفاقا ، وتحركه إذا هزتك أريحية ، والمعنى : أعرفك وطيبك سرى إلى أوائل الرياح التى هبت مائجة من ناحيتك ، فشتى نحوك بعاطفة الهوى والارتياح .

(٢) غصصت : كسرقت بالماء وزنا ومعنى ، أو وقف فى حلقه فلم يسغه ، والقراح : الماء الذى لم يخالطه غيره ، يقول : وهل ماتعرض ذكرك أم عذاب شرقت لأجله بالماء العذب الذى لم تشبه شائبة فلم أسغه ، وفى الأصل « وذكرك مانعرض أم عداد »

(٣) نشوات : واحدها نشوه ، والنشوة تكون من الريح ومن السكر وهى من السكر أوائله ومقدماته، وهفت بالعقل : ذهبت به ، يقال : هفت الريح بالشىء تهفو أى ذهبت به ، والمعنى . هل أنا من أجل هواك، وبسبب ذكراك ، فى نشوات من ريح الشوق أو نشوات من سكر الراح أطارت عقلى وأذهبت لبى .

(٤) أقسم بهواك إن طول اقتداحى لزناد الوصل لم يور ناراً .

(٥) فى الوقت الذى أخفى فيه غرامى عن العادلين ينم على نحول جسمى بألسنة المرض الخرساء المفصحه .

لَلَقِّينَا مِنَ الْوَاشِينَ حَتَّى ... رَضِينَا الرُّسْلَ أَنْفَاسَ الرِّيَاحِ (١)

وَرُبَّ ظَلَامِ لَيْلٍ جَنَّ فَوْقِي ... فَنُبْتُ عَنِ الصَّبَاحِ إِلَى الصَّبَاحِ (٢)

فَهَلْ عَدَتِ الْعَفَافَ هُنَاكَ نَفْسِي ... ـ فَدَيْتُكَ ـ أَوْجَنَحْتُ إِلَى الْجُنَاحِ (٣)

* * *

وَكَيْفَ أَلِجُّ لَا يَثْنِي عِنَانِي ... رَشَادُ الْعَزْمِ عَنْ غَيِّ الْجِمَاحِ (٤)

وَمِنْ سِرِّ ابْنِ « عَبَّادٍ » دَلِيلٌ ... بِهِ بَانَ الْفَسَادُ مِنَ الصَّلَاحِ

هُوَ الْمَلِكُ الَّذِي بَرَّتْ فَسَرَّتْ ... خِلَالٌ مِنْهُ طَاهِرَةُ النَّوَاحِي

هُمَامٌ خَطَّ ـ بِالْهِمَمِ السَّوَامِي ـ ... مِنَ الْعَلْيَاءِ فِي الْخِطَطِ الْفِسَاحِ (٥)

أَغَرُّ إِذَا تَجَهَّمَ وَجْهُ دَهْرٍ ... تَبَلَّجَ فِيهِ كَالْقَمَرِ اللِّيَاحِ (٦)

---

(١) لقد تعلمنا من الواشين حيلهم فى الوقوف على مكتوم أسرارنا ، حتى أصبحنا نقنع بأن تكون أنفاس الرياح بريداً يحمل عنا رسائل الحب والغرام ، وقد أبدع ابن الرومى حيث يقول :

« أحبابى كم لى نحوكم من تحية ... أحملها هبات كل جنوب

فلا تتركوا رد السلام إذا حرت ... شمال على نائى المحل غريب . »

(٢) كثيراً ما أرخى الليل علينا سدوله ، فنبت فى ظلامه عن الصباح إلى أن أسفر الصباح وقريب من هذا قول أبى تمام :

« رحن والليل قد أقام رواقا ... فأقمن الصباح فيه عمودا . »

(٣) لم تنعد نفسى فى تلك الليلة التى نعمت فيها بالحبيب حدود العفاف ، ولم تمل إلى ارتكاب ما يخالف طبيعة الحب البرىء مما فيه إثم علينا وجناح ، وفى هذا المعنى يقول ابن المعتز :

« كم قد خلوت بها وثالثنا الدجى ... يحمى على العطشان برد المورد . »

(٤) فى هذا البيت والذى بعده تخلص من النسيب إلى المدح حيث يقول : كيف ألج فى الهوى ، وأتمادى فى الغى ، ولا يثنى عنان جماحى اعتزامى الرشد ، فى حال أن لى من سر « ابن عباد » وقوة نفسه دليل عرفت به الرشد من الغى ، والصلاح من الفساد .

(٥) خط : اختط الأرض وهو أن يعلم عليها علامة بالخط ليعلم أنه قد احتازها لبيتها ، والخطط : جمع خطة بكسر أولهما ، وهى الأرض التى يختطها لنفسه ليبنى عليها .

(٦) اللياح : بكسر وفتح أوله الأبيض المتلألئ .

سَمِيعُ النَّصْرِ لِاسْتِعْدَاءِ جَارٍ ... أَصَمُّ الْجُودِ عَنْ تَفْنِيدِ لَاحِ (١)

ضَرَائِبُ جَهْمَةٌ فِي الْعَتْبِ تُتْلَى ... بِأَخْلَاقٍ لَدَى الْعُتْبَى مِلَاحِ (٢)

إِذَا أَرِجَ الثَّنَاءُ الرَّوْعُ مِنْهَا ... فَكَمْ لِلْمِسْكِ عَنْهُ مِنَ افْتِضَاحِ

هُوَ الْمُبْقِي مُلُوكَ الْأَرْضِ تَدْمَى ... قُلُوبُهُمُ كَأَفْوَاهِ الْجِرَاحِ

رَآهُ اللهُ أَجْوَدَ بِالْعَطَايَا ... وَأَطْعَنَ بِالْمَكَايِدِ وَالرِّمَاحِ

وَأَفْرَسَ لِلْمَنَابِرِ وَالْمَذَاكِي ... وَأَبْهَى فِي الْبُرُودِ وَفِي السِّلَاحِ (٣)

وَأَمْنَعَهُمْ حِمَى عِرْضٍ مَصُونٍ ... وَأَوْسَعَهُمْ ذُرَا مَالٍ مُبَاحِ

فَرَاضَ لَهُ الْوَرَى حَتَّى تَأَدَّتْ ... إِلَيْهِ إِتَاوَةُ الْحَيِّ اللَّقَاحِ (٤)

« لِمُعْتَضِدٍ » بِهِ أَرْضَاهُ سَعْيًا ... فَأَقْبَلَ وَجْهَهُ وَجْهَ الْفَلَاحِ (٥)

فَمَنْ قَاسَ الْمُلُوكَ إِلَيْهِ جَهْلًا ... كَمَنْ قَاسَ النُّجُومَ إِلَى بَرَاحِ (٦)

---

(١) الاستعداء : الاستعانة وطلب النصرة ، والتفنيد : اللوم وتضعيف الرأى ، ولاح : اسم فاعل من لحاه يلحاه إذا لامه وعذله .

(٢) ضرائب : سجايا وطبائع جمع ضريبة ، وجهمة : عابسة من جهمه إذا استقبله بوجه كريه ، والعتبى : الرجوع إلى مايرضى العاتب . وفى المثل « لك العتبى ولا أعود » أى لك منى أن أعتبك أى أرضيك ولا أعود إلى ما يسخطك .

(٣) أفرس : أفعل تفضيل من الفراسة بالفتح والفروسة والفروسية وهى الحذق بركوب الخيل ، وفى المثل : أفرس من ملاعب الأسنة ، وأفرس من عامر ، وأفرس من بسطام ، والمذاكي : الخيل التى أتى عليها بعد تمام السن أى — بلوغها النهاية فى الشباب — سنة أو سنتان ، والمعنى أنه أحذق الملوك باعتلاء المنابر وركوب الخيل وأبهاهم لباسا ولبوسا فى السلم والحرب .

(٤) الاتاوة : الخراج وكل ما أخذ بكره أو فرض من أموال الجباية ، والحى اللقاح : فى اللسان قوم لقاح وحى لقاح لم يدينوا للملوك ولم يملكوا ولم يصبهم فى الجاهلية سباء أنشد ابن الأعرابى :

« اعمر أبيك والأنباء تنمى ... لنعم الحى فى الحلى رياح

أبوا دين الملوك فهم لقاح ... إذا هيجوا إلى حرب أشاحوا . »

(٥) أقبل وجهه : من قولهم أقبلته الشىء أى جعلته يلى قبالته وجهته والمعنى أن سكان الحواضر والبوادى دانوا بالطاعة « لمتعضد » بالله أرضت مولاه مساعيه فأقبل الله وجهه وجه الفلاح أى جعل وجهه يستقبل جهة الفلاح :

(٦) إلى أرض ظاهرة .

وَمُعْتَقِدُ الرِّيَاسَـــةِ فِي سِوَاهُ كَمُعْتَقِدِ النُّبُوَّةِ فِي سَجَاحِ (١)

(١) هي « سجاح » بنت الحرث بن سويد بن عقفان التميمية ، وكانت تسكن الجزيرة فى اخوالها من بنى تغلب ، فادعت النبوة وخرجت تريد غزو المدينـة فى عهد « أبى بكر » رضى الله عنه ، وحرث بينها وبين مسلمى قومها — من بنى تميم — حروب انتهت بعجزها عما اعتزمته من الذهاب إلى المدينة لغزوها ، فانقلبت إلى اليمامة وتقابلت مع مسـيلمة ، ثم رجعت إلى موطنها من بلاد الجزيرة وبقيت فى أخوالها — من بنى تغلب — إلى أن تقلهم «معاوية» عام الجماعة : وجاءت معهم فاسلموا وأسلمت وحسن إسلامهم .

حروب الردة وقصة سجاح ومسيلمة

وقد كتب المؤرخ « دوزى » كلمة ممتعة عن «سجاح» ، «مسيلمة» وعن حروب الردة فى كتابه القيم : «تاريخ الاسلام» وقد نشرنا بعض فصوله فى كتاب « مختارات كامل كيلانى » ، ونص نحتزئ منه بما يلى :

كان الوقت عصيبا ، وكانت الظروف عليه فى الحرج ، فقد كان موت النبى — صلى الله عليه وسلم — الذى كانت تترنبه العرب منذ زمن طويل بفارغ الصبر مؤذناً بالثورة فى كل مكان ، ولقـد كنت ترى الثائرين — فى حمأ ذهست — رافعين علم الثورة والتمرّد ، وقـد رجعت كفتهم أيما رجحان حتى لقـد طردوا ولاتهم من بلادهم ، فلم يجد هؤلاء أمامهم ملجأ إلا المدينة ، فتقاطروا عليها من كل فج يحتمون فيها من أذاهم .

وكان لا يمر يوم حتى يفد على المدينـة بعض الولاة والعمال المطرودين ، وأعـدت القبائل المجاورة للمدينـة عدتها لحصارها .

فكيف يقاومهم « أبو بكر » وليس لديه جيش يحاربهم به بعـد أن أرسل جيشـه إلى سوريا ليفتحها تنفيذاً لأمر النبى — صلى الله عليه وسلم — برغم صيحة المسلمين الذين رأوا خطورة الحال ، فقد ألحوا عليه أن يعدل عن تنفيذ فكرة الفتح حينئذ ، فقال لهم — : « ان أخالف ما أمر به النبى صلى الله عليه وسلم ولو أصبحت المدينة نفسها نهباً للثائرين والمتمردين ولابد لى من تحقيق مشيئته ! »

ومن ثم ترى الخطر العظيم باديا . على أنه — على الحقيقة — خطر اقل مما تدل عليـه ظواهره ، فان قوة الخصم الحقيقية لا تقاس بما لديه من عدّة ورجال بل بما عنـده من قوّة معنوية ، وبما يصبو إلى تحقيقه من غاية سامية يتطلع إليها ويخوض غمار الحرب من أجلها باذلا فى سبيلها النفس والنفيس .

فما هي الغاية التى يسعى إليها الثائرون ؟ وأى خاطر يدفعهم إلى إضرام هذه الحرب ؟

أهو إيمان وثيق متوغل فى أعماق نفوسهم كايمانهم القديم الذى كانوا عليه قبل البعثة ؟ لو كان ذلك لما كان ثمة شك فى انتصارهم الحاسم !

ولـكن شيئا من ذلك لم يكن ، فانهم لا يحاربون الآن لينصروا دينهم القديم ويؤيدوه ، بل هم يثورون على دينهم الجديد لأنهم لا يطيقون احتماله .

وليس هذا بالسبب القوى الذى يلهب حماستهم ويحفزهم إلى الاتيان بجلائل الأعمال ، ولا هو بالسبب الذى يخلق البطولة والأبطال ، فقـد كان رؤساء القبائل المتمرّدة أنفسهم شاعرين كل الشـعور بضعف قوّتهم المعنوية ، فلجأ بعضهم إلى فكرة سـخيفة حسبوا أنها تعيد إليهم تلك القوّة ، فادعوا النبوّة ! وخيل إليهم أن محمداً — صلى الله عليه وسلم — لم ينجح إلا بهذه الفكرة فأرادوا تقليده .

ولـكنهم نسـوا أمراً واحداً — هو سر نجاحه فى بث دعوته — ذلك أنه كان مؤمناً بما يدعو إليه إيمان المستيقن الجازم . وهذا هو الذى يعوزهم وبغيره لا يتم نجاح .

وكانت تلك الثورة الهائلة وتلك الحرب الشعواء — على ما أريق فيها من دماء غزيرة إذا قورنت بما أتاه المسلمون فى غزواتهم التى عن بها الاسلام — ظاهرة سخيفة مضحكة ، يتمثل فيها الانسان — غير قصد — كيف قلبوا تمثيل هذه الرواية الجدية — التى مثلها النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه — مهزلة وعبثا !

ألا ترى إلى مسيلمة لدى مثل دور النبى صلى الله عليه وسلم فى اليمامة ؟

ألا ترى إلى ذلك الدجال السوقى التعس ، ذلك المشعوذ السمج الذى لا يصلح لغير التدجيل وإدخال بيضة فى زجاجة ضيقة الفوهة ؟ ألا ترى إليه ينشىء قرآنا سخيفا يقلد به محمداً — صلى الله عليه وسلم — ثم يرخص لأتباعه فى شرب الخمور أنى شاءوا ، ولا يكاد يبشر دعوته حتى يصادفه سوء الحظ فتحاصره « سجاح » وتنازعه السوّة ؟

⁂

أما « سجاح » هذه فقد كانت مسيحية نشأت فى « بلاد النهرين » وجاءت تبث الدعوة لنفسها — على رأس جيش عظيم فماذا يصنع مسيلمة ؟

ليس أمامه إلا أن يلجأ إلى طريق المسالمة — وقد فعل — فأرسل إليها هدايا فاخرة ودعاها إلى شادته ، وطال بينهما الحوار .

ولما عادت « سجاح » إلى قومها سألوها عن رأيها فى «مسيلمة» فقال لهم — :

« لقد رأيته نبياً حقا فتزوجن منه ! »

فسألها التميميون — : «هل أهدى إلينا شيئاً من مهر الزواج ؟ » فقالت : «لا » فقالوا لها — :

« عار علينا أن نزوج نبيتنا بلا مهر ! ولن نقبل ذلك بحال ما ! »

فأرسلت إليه بذلك — وكان « مسيلمة » حائما متحصنا — فلما جاءه الرسول لم يأذن له حتى عرف العرض الذى جاء من أجله فاطمأن إليه وقال له :

« عد إلى قومك فأخبرهم أن «مسيلمة بن حبيب» رسول الله قد رفع عن التميميين — من الصلوات الخمس — صلاة الصبح والعشاء »

ولقد فرح التميميون بذلك وظلوا يتبعونه حتى بعد أن عادوا إلى الاسلام من جديد .

⁂

ومن ثم ترى أن هؤلاء الثائرين ليس لهم عقيدة جدية يدافعون عنها ، فلاغرو إذا قهرهم رجل كأبى بكر وثيق الايمان قوى الارادة صلب العزيمة لايعرف هوادة فى إرغام أنوفهم ولا رحمة !

ولو شاء أبو بكر أن يبادئهم لتنازل لهم عن قليل من مطالبه فكسب بذلك مساعدة كثير من القبائل — أو ضمن حيادهم على الأقل — فقد وعدوه بالمواظبة على إقامة الصلاة المفروضة عليهم على شريطة أن يعفيهم من إيتاء الزكاة ، ونصحه أعيان المسلمين أن يقبل ذلك منهم فرفض رأيهم بإباء شديد ، وقال لهم :

« إن الاسلام قانون واحد لايتجزأ ، وليس لأحد أن يأخذ ببعضه ويرفض البعض الآخر . »

وقد كان هذا الاصرار الحازم وذلك الحقد الشديد — على أهل الردة — سبباً فى منحه قوّة أكثر مما تتصوّر.

⁂

ولم يكد ينتهى من إخضاع القبائل المجاورة له حتى بدأ يهاجم «طليحة» الذى كان بطلا من قبل وقد جاء يدعى النبوّة كغيره ثم جبن عن دخول المعركة فظل يرقب الحرب — وهو بعيد عن الميدان — مدثرا فى عباءته

لَقَدْ سَفَرَتْ بِعِلَّتِكَ اللَّيَالِى لَنَا عَنْ وَجْهِ حَادِثَةٍ وَقَاحِ (١)

كأنما يؤمل أن ينزل وحى من السماء أو تحدث معجزة خارقة ، وقد لبث زمناً طويلا ثم وقعت المعجزة — إذ بدأت تنهزم قبيلته أشنع انهزام — وحينئذ صاح فى جنده « احتذوا حذوى إن استطعتم . »

ثم امتطى جواده وأطلق له العنان وأمعن فى فراره .

⁂

وكانت تلك المعركة التى اصطلاها المسلمون معركة مروعة هائلة ، وفى الحق أن الدماء التى أريقت فى هذه الحرب كانت أكثر مما أريق فى تلك الحروب الطاحنة التى نشبت — فيما بعد — بين المسلمين والفرس ، ثم بين المسلمين والامبراطورية الرومانية ، وقد اقترف العرب من الفظائع فى هذه الحرب «حرب الردة» شنعاً لم يعرفها الاسلام قط . وكانوا إذا انهزم العدوّ تعقبوه ونكلوا به . لأن الردة جراؤها القتل ، لا هوادة فى ذلك ولا رحمة ، وقد بعث أبو بكر إلى خالد يأمره بقوله — :

« عليك بإبادة الكفر بالحديد والنار ، ولا تأخذك رحمة فيهم قط »

⁂

ولقد انهزم أصحاب « مسيلمة » — وكان عددهم زهاء عشرة آلاف مقاتل — ومزّقهم المسلمون شرّ ممزّق ، وغرقت بلاد العرب كلها فى الدماء !

ولكن الاسلام قد خرج من تلك المعارك — الناشبة فى كل مكان — مؤيدا منصورا ، ودان به العرب بعد ذلك . — طوعا أو كرها — فقد أقنعهم خذلانهم بوجوب الاعتراف بالدين الاسلامى ، إن لم يكن اعتراف المستيقن المؤمن فاعتراف الخائف الذى يعرف قوّة هذا الدين العظيمة التى لا تحدى معها أية مقاومة .

بعد النصر

ولم يكد يتم انتصار أبى بكر حتى وجه هؤلاء البدو الدامئين إلى الدماء ، إلى مهاجمة فارس والامبراطورية الرومانية ، وهذا العمل — عند من ينظر إلى ظواهر الأمور وحدها — جرأة وتهور ، ولكنه — على الحقيقة — رزانة وتعقل .

وإنما سار أبو بكر فى هذا على خطة النبى صلى الله عليه وسلم التى كان يتبعها ، وهى أن يشغل العرب عن التفكير فى خصوعهم ولا يدع لهم وقتاً كافيا لذلك ، وقد رأى أن خير ما يربطهم بالاسلام لا يكون إلا عن طريق الفتح والانتصارات الحربية وما يجره ذلك من الغنائم .

⁂

وهكذا انتهت حروب الردة ولم تقم للمرتدين بعدها قائمة ، فقد كان عقاب الردة القتل ، ومن هنا تظاهر الناس بالاسلام ووقفوا عند هذا الحد .

ومحن — إذا استثنينا صفوة المسلمين ونواتهم المؤلفة من المهاجرين والأنصار وبعض من يمتون إليهم بسبب — لم نجد بعد ذلك من يعرف القرآن وتعاليمه إلا عددا غاية فى القلة . أما العرب الذين استوطنوا أفريقيا فقد ظلوا — حتى بعد مضى قرن من الهجرة — لا يعرفون من الاسلام أكثر من أنه دين أتى بتحريم الخمر .

أما أولئك الذين استوطنوا مصر فانهم ما تحدثوا عن الاسلام أو شغلوا به أنفسهم قط . وكانوا لا يذكرون إلا أيام الوثنية وعهودها الطيبة بالشاء والحنين . »

(١) وقاح : صلبة الوجه لاحياء فيها ، يقال رجل وقيح الوجه ووقاح الوجه صلبه لاحياء فيه ، والأنثى وقاح بغير هاء .

أَلَسْتَ مُصِحَّهَا مِنْ كُلِّ دَاءٍ ؟ وَمُبْدِىَ حُسْنِ أَوْجُهِهَا الصِّبَاحِ
وَلَوْ كَشَفَتْ ـ عَنِ الصَّفَحَاتِ ـ شَامَتْ بُرُوقَ المَوْتِ مِنْ بِيضِ الصِّفَاحِ (١)

* * *

وَقَاكَ اللهُ مَا تَخْشَى وَوَالَى عَلَيْكَ بِصُنْعِهِ المُغْدَى المُرَاحِ (٢)
فَلَوْ أَنَّ السَّعَادَةَ سَوَّغَتْنَا تَجَارَتَهَا المُلِثَّةَ بِالرِّبَاحِ
تَجَافَيْنَا عَبِيدَكَ عَنْ نُفُوسٍ ـ عَلَيْكَ مِنَ الضَّنَى ـ حَرَّى شِحَاحِ (٣)
تُهَنَّأُ فِيكَ بِالْبُرْءِ المُوَفَّى وَتُبْهِجُ مِنْكَ بِالْأَلَمِ المُزَاحِ

* * *

فَدَيْتُكَ كَمْ لِعَيْنِي مِنْ سُمُوٍّ ـ لَدَيْكَ ـ وَكَمْ لِنَفْسِي مِنْ طَمَاحِ
أَلَا هَلْ جَاءَ مَنْ فَارَقْتُ أَنِّى بِسَاحَاتِ المُنَى رَفْلُ المَرَاحِ (٤)
وَأَنِّى ـ مِنْ ظِلَالِكَ ـ فِى زَمَانٍ نَدِى الآصَالِ رَقْرَاقِ الضُّوَاحِى
تُحَيِّينِي بِرَيْحَانِ التَّحَفِّى وَتُصْبِحُنِي مُعَتَّقَةُ السَّمَاحِ (٥)
فَهَا أَنَا قَدْ تَمِلْتُ مِنَ الْأَيَادِى إِذِ ٱتَّصَلَ ٱغْتِبَاقِى فِى ٱصْطِبَاحِى

---

(١) لو كشفت هذه الليالى ، وأبدت عن صفحة الشر والعداء لشامت سيوف بأس الممدوح تلمع ببروق موت وهلاك تلك الليالى التى فاجأتنا بمرضه ، بعد أن أصحها من كل داء وخلع عليها من الرواء والحسن أبهى رداء .

(٢) وقاك الله ماتخشى من عارض المرض وعصمك من كل محذور ومخوف ، وتعهدك بجميل صنعه المغدى المراح أى الذى يجعله يغدو عليك فى أول النهار ، ويروح فى آخره ، فلا يغبك صنيعه ، ولا يتخلف عنك إحسانه .

(٣) الضنى : السقم ، وحرى : عطشى ، وشحاح : جمع شحيحه من الشح وهو البخل .

(٤) الرفل : جر الذيل وركضه بالرجل ، يقول : ألا هل أتى من فارقت من فتيان « قرطبة » أنى أجر ذيل مرح وأرفل فى ثياب النعمة وغضارة العيش .

(٥) التحفى : الحفاوة ، والسماح : الجود .

فَإِنْ أَعْجِزْ فَإِنَّ النُّصْحَ ثَقْفٌ ... وَإِنْ أَشْكُرْ فَإِنَّ الشُّكْرَ صَاحِ
لِمَا أَكْسَبْتَ قَدْرِى مِنْ سَنَاءٍ ... وَمَا لَقَّيْتَ سَعْيِى مِنْ نَجَاحِ

* * *

لَقَدْ أَنْفَذْتَ فِى الْآمَالِ حُكْمِى ... وَأَجْرَيْتَ الزَّمَانَ عَلَى اقْتِرَاحِى
وَهَلْ أَخْشَى وُقُوعًا دُونَ حَظِّ ... إِذَا مَا أَنَّ رِيشُكَ مِنْ جَنَاحِى
فَمَا اسْتَسْقَيْتُ مِنْ غَيْمٍ جَهَامٍ ... وَلَا اسْتَرْوَيْتُ مِنْ زَنْدٍ شِحَاحِ
وَوَاصَلَنِى جَمِيلُكَ فِى مَغِيبِى ... وَطَالَعَنِى نَدَاكَ مَعَ اطِّرَاحِى
وَلَمْ أَنْفَكَّ إِذْ عَدَتِ الْعَوَادِى ... إِلَيْكَ رَهِينَ شَوْقٍ وَالْتِيَاحِ
فَحَسْبِى أَنْتَ مِنْ مُسْدٍ لِنُعْمَى ... وَحَسْبُكَ بِى بِشُكْرٍ وَامْتِدَاحِ

هدية تفاح

« وأهدى إليه تفاحا وأراد أن يكتب معه قطعة ،
فبدأ بها ثم عرض له غيرها فتركها . »

دُونَكَ الرَّاحَ جَامِدَهْ ... وَفَدَتْ خَيْرَ وَافِدَهْ
وَجَدَتْ سُوقَ ذَوْبِهَا ... ـ عِنْدَ تَقْوَاكَ ـ كَاسِدَهْ
فَاسْتَحَالَتْ إِلَى الْجُمُو ... دِ وَجَاءَتْ مُكَايِدَهْ

والقطعة التى بعثت هى هذه

جَاءَتْكَ وَافِدَةُ الشَّمُولْ ... فِى الْمَنْظَرِ الْحَسَنِ الْجَمِيلْ
لَمْ تَحْظَ ذَائِبَةً لَدَيْـ ... ـكَ وَلَمْ تَنَلْ حَظَّ الْقَبُولْ

فَتَجَامَدَتْ مُحْتَالَةً وَالمَرْءُ يَعْجِزُ لَا الحَوِيلْ(١)
لَوْلَا انْقِلَابُ العَيْنِ سُدَّتْ دُونَ بُغْيَتِهَا السَّبِيلْ(٢)
لَهَجَرْتُهَا صَفْرَاءَ فِي بَيْضَاءَ هَاجِرُهَا قَلِيلْ
الكَأْسُ مِنْ رَأْدِ الضُّحَى وَالرَّاحُ مِنْ طَفَلِ الأَصِيلْ
آثَرْتَ عَائِدَةَ التُّقَى وَرَغِبْتَ فِي الأَجْرِ الجَزِيلْ

⁂

يَا أَيُّهَا المَلِكُ الَّذِي مَا فِي المُلُوكِ لَهُ عَدِيلْ
يَا مَاءَ مُزْنٍ ، يَا شِهَا بَ دُجُنَّةٍ(٣) ، يَا لَيْثَ غِيلْ
يَا مَنْ عَجِبْنَا أَنْ يَجُو دَ بِمِثْلِهِ الزَّمَنُ البَخِيلْ
بُشْرَاكَ دُنْيَا غَضَّةٌ فِي ظِلِّ إِقْبَالٍ ظَلِيلْ
رَقَّتْ كَمَا سَالَ العِذَا رُ بِجَانِبِ الخَدِّ الأَسِيلْ
وَتَأَوَّدَتْ كَالغُصْنِ قَا بَلَ عِطْفَهُ نَفَسُ القَبُولْ(٤)
يُصْبِي مُقَبِّلَهَا الشَّهِيُّ وَلَحْظُهَا السَّاجِي العَلِيلْ
فَتَمَلَّهَا(٥) فِي العِزَّةِ القَعْسَاءِ وَالعُمُرِ الطَّوِيلْ

---

(١) الحويل : الحيلة ، يقال : احتال احتيالا وحولا وحيلة وحويلا ومحالة ، قال دؤاد يعاتب زوجه :

« حاولت — حين صرمتني — والمرء يعجز لا المحاله
والدهر يلعب بالفتى والدهر أروغ من ثعاله
والمرء يكسب ماله بالشح ، يورثه الكلاله . »

وفى المثل المشهور : « المرء يعجز لا المحالة » أو « لا محالة » فى رواية أخرى ، أى لا تضيق مخارج الأمور إلا على العاجز الذى لا يعرف وجوه الحيل . ويقال : احتال وتحيل وتحوّل ، قال أبو العلاء :

« لا يعجبنك خطيب — قام فى ملا بخطبة زان معناها وطولها
فما العظات — وإن راعت — سوى حيل من ذى مقال على ناس تحولها . »

(٢) يقول : لولا انقلاب عينها من ذائبة إلى جامدة لسدت دون ما تنيه من إهداء نفسها إليك السبيل لأنك لا تبيح لها أن تزور مجلسك وهى دائبة . (٣) يقال يوم دجنة ، والدجنة : الظلمة والغيم المطبق الريان المظلم لا مطر فيه . يقول : إنك نور تبدد الدياجى والظلمات .

(٤) القبول : ريح الصبا ، قالوا وذلك بأنها تقابل الدبور . (٥) النعم بها .

شـــكر على زيارة

« قال يشكر المعتمد على الله أبا القاسم محمد ابن المعتضد بالله عباد بن محمد بن عباد ، وقد شرفه بالعبادة فى بعض علله . »

لَسْتُ بِالجَاحِدِ آلاَءَ العِلَلْ ... كَمْ لَهَا مِنْ أَلَمٍ يُدْنِى الأَمَلْ
أَجْتَلِى - مِنْ أَجْلِهَا - بَدْرَ العُلاَ ... مُشْرِقًا فى مَنْزِلِى حِينَ كَمَلْ
حُـــلَّةٌ أَلْبَسَ عَيْنِى فَخْـــرَهَا ... فَاغْتَدَتْ تَرْفُلُ فى أَبْهَى الحُلَلْ
رَفَّ بِشْرُ الأُفْقِ فى عَيْنِى لَهَا ... لاَ لِأَنَّ الشَّمْسَ حَلَّتْ فى الحَمَلْ (١)
مَا أُبَالِى مِنْ زَمَانِى بَعْدَهَا ... - إِذْ أَصَحَّ النَّفْسَ - إِنْ جِسْمِى أَعَلْ (٢)

⁂

أَيُّهَا المَـــولَى لَقَدْ حُمِّلْتُ مَا ... لَمْ يَدَعْ فِى وُسْعِ عَبْدٍ مُحْتَمَلْ
وَضَحَ الطَّوْقُ الَّذِى حَلَّيْتَنِى ... فَتَرَاءَتْهُ نُفُوسٌ لاَ مُقَلْ (٣)
أَنَا لَوْ طُوِّقْتُ مِنْـــهُ بَدَلاً ... أَنْجُمَ الجَوْزَاءِ لَمْ أَرْضَ البَدَلْ
كَمْ مَرَادٍ لِىَ - مِنْ نَعْمَائِكُمْ - ... وَارِفِ الظِّلِّ وَكَمْ وِرْدٍ عَلَلْ (٤)
لاَ تَزَلْ دَوْلَتُكُمْ مَبْسُوطَةً ... بَسْطَةً فِى طَيِّهَا قَبْضُ الدُّوَلْ
وَرَأَى المُعْتَضِـــدُ المَنْصُورُ مَا ... أَنْبَأَتْهُ فِيكَ لَيْتٌ أَوْ لَعَلْ
فَسَـــتَلْقَاهُ اللَّيَالِى طَلْقَةً ... بِتَفَارِيقِ أَمَانِيهِ جُمَـــلْ (٥)

---

(١) الحمل : برج فى السماء من البروج الربيعيـة ، يقول إن الأفق أشرق بنوره وازدان ببهائه لابهاء الشمس التى حلت فى برج الحمل .

(٢) يقول : لا أبالى بعد أن صحت نفسى بزيارته وتشريفه منزلى إن أمرض الدهر جسمى .

(٣) يقول : إن إحسانك الذى طوّقت به عنقى قد وضح للنفوس لا للعيون . وفى الأصل : تماءته من مأى فى الشىء يمأى مأيا بالغ وتمأى الجلد إذا مددته ، وقد سبق له هذا المعنى فى قوله :

« يا هلالا تتراءا ... بنفوس لاعيون . » انظر صفحة ٣٩ .

(٤) العلل : الشرب الثانى ويقال علل بعد نهل أى شرب ثان بعد شرب أول أى أنه ورد حياض كرمه مرة بعد أخرى .

(٥) أى سينيله الدهر جملة أمانيه المتفرقة فلا يدع منها شيئا إلا حققه له .

تهنئـــة

« وقال يهنيه أيده الله بقدوم وإبلال » .

اِقْدَمْ كَما قَدِمَ الرَّبِيـعُ الْبَاكِرُ ... وَاطْلُعْ كما طَلَعَ الصَّبَاحُ الزَّاهِرُ

قَسَمًا لَقَدْ وَفَّى الْمُنَى وَنَفَى الْأَسَى ... مَنْ أَقْدَمَ الْبُشْرَى بِأَنَّكَ صَادِرُ

لِيُسَرَّ مُكْتَئِبٌ وَيُغْنِيَ سَاهِرٌ ... وَيَرَاحَ مُرْتَقِبٌ وَيُوفِيَ نَاذِرُ

قَفَلٌ وَإِبْلَالٌ ـ عَقِيبَ مُطِيفَةٍ ـ ... غَشِيَتْ كَما غَشِيَ السَّبِيلَ الْعَابِرُ(١)

إِنْ أَعْنَتَ الْجِسْمَ الْمُكَرَّمَ وَعْكُهَا ... فَلَرُبَّمَا وُعِكَ الْهِزَبْرُ الْخَادِرُ (٢)

مَا كَانَ إِلَّا كَالْجِلَاءِ غَيَابَةٍ ... لَبِسَ الْفِرِنْدَ بِهَا الْحُسَامُ الْبَاتِرُ (٣)

فَلْتَغْدُ أَلْسِنَةُ الْأَنَامِ وَدَأْبُهَا ... شُكْرٌ يُحَاذِبُهُ الْخَطِيبَ الشَّاعِرُ

إِنْ كَانَ أَسْعَدَ مِنْ وُصُولِكَ ـ طَالِعٌ ... فَكَذَاكَ أَيْمَنُ مِنْ قُفُولِكَ (٤) طَائِرُ

أَضْحَى الزَّمَانُ نَهَارُهُ كَافُورَةٌ ... وَاللَّيْلُ مِسْكٌ ـ مِنْ خِلَالِكَ ـ عَاطِرُ

قَدْ كَانَ هَجْرِي الشِّعْرَ ـ قَبْلُ ـ صَرِيمَةً (٥) ... حَذَرِي لِذَاكَ النَّقْدِ فِيهَا عَاذِرُ

حَتَّى إِذَا آنَسْتُ أَوْبَكَ بَارِئًا ... صَفَتِ الْقَرِيحَةُ وَاسْتَنَارَ الْخَاطِرُ (٦)

عَنَّ قَلَبْتَ إِلَى الْبَلَاغَةِ عَيْنَهُ ... لَوْلَا تُقَاكَ لَقُلْتُ : إِنَّكَ سَاحِرُ (٧)

لَقَّحْتَ ذِهْنِي ، فَاجْنِ غَضَّ ثِمَارِهِ ... فَالنَّحْلُ يُحْرِزُ مُجْتَنَاهُ الْآبِرُ (٨)

---

(١) يقول : قدوم من السفر ، وإبلال من المرض عقيب علة أطاف بك وغشيتك غشيان عابر سبيل .

(٢) الوعك : الحمى أو ألمها والموعوك المحموم ، والخادر : الفاتر الكسلان ، والأسد الخادر : المقيم فى خدره أي الذى لزم عرينه . (٣) يقول : لم يكن المرض إلا فترة عاد بعدها الحسام إلى حلائه ورونقه .

(٤) رجوعك . (٥) الصريمة : العزيمة ، يقال : « هو رجل ذوصريمة وصرائم » أى ذو عزيمة ، يقول : إنى هجرت قبل قدومك الشعر هجرا صارما قاطعاً ، وعذرى فى ذلك واضح وهو ما كنت أحذره من ذلك النقد الذى يتعرض له شعرى، أما الآن فقد صفت القريحة لأوبتك بارئا. (٦) يقول كنت اعتزمت هجراً بشعر حتى إذ آنس خاطرى إيابك من سفرك صفت قريحتى وشحذ فكرى فتفتحت أمامى طرق الشعر .

(٧) يقول إنك ألهمت العي بالبيان فعاد بليغا ولولا أنك تقى لاتهمتك بالسحر فى ذلك . وفى الأصل : « عمي رددت إلى البلاغة عينه . »

(٨) يقال لقح النخلة وألقحها وألقح الفحل الناقة أحبلها ، وألقحت الريح الشجر والسحاب أحملتها ، واللواقح من الرياح : التى تحمل الندى ثم تمجه فى السحاب فاذ اجتمع فى السحاب صار مطراً ، يقول إنك : لقحت ذهنى ـ كما يلقح الزارع النخلة ـ فأنى بأحسن الثمر وأشهاه، فأنت أحق باجتناء الثمر لأنك غارسه ومتعهده.

كَمْ قَدْ شَكَرْتُكَ عَبَّ ذِكْرِكَ ـ فَانْتَشَى مُتَذَكِّرٌ مِنِّى وَغَرَّدَ شَاكِرُ (١)

* * *

يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ الَّذِى عَلْيَاؤُهُ مَثَلٌ ـ تَنَاقَلُهُ اللَّيَالِى ـ سَائِرُ

يَا مَنْ لِبَرْقِ الْبِشْرِ مِنْهُ تَهَلُّلٌ مَا شِيمَ إِلَّا أَنْهَلَّ جُودٌ هَامِرُ

أَنْتَ ابْنُ مَنْ مَجَدَ الْمُلُوكَ ، فَإِنْ يَكُنْ لِلْمَجْدِ عَيْنٌ فَهُوَ مِنْهَا نَاظِرُ

مَلِكٌ أَغَرُّ أَزْدَانَتِ الدُّنْيَا بِهِ وَأَعَزَّ دِينَ اللهِ مِنْهُ نَاصِرُ

أَبْنَاكَ فِى ثَبَجِ الْمَجَرَّةِ قُبَّةً فَهُنَاكَ أَنَّكَ لِلنُّجُومِ مُحَاصِرُ (٢)

وَتَلَقَّ ـ مِنْ سِمَتَيْكَ ـ صِدْقَ تَفَاؤُلِى فَهُمَا « الْمُؤَيَّدُ » بِالْإِلَهِ «الظَّافِرُ» (٣)

ابتداء قصيد

« وقال ابتداء قصيد اعتقد إنفاذه إليه وقد طالت غيبته فى بعض أسفاره ولم يكلمه . »

سَأُهْدِى النَّفْسَ فِى نَفَسِ الشَّمَالِ فَقَدْ لَقِحَ التَّشَوُّقُ عَنْ خَيَالِ

إِلَى الشَّثْنِ الْعَزَائِمِ ـ إِنْ أُثِيرَتْ حَفِيظَتُهُ ـ إِلَى اللَّدْنِ الْخِلَالِ (٤)

إِلَى الْوَضَّاحِ آثَارَ الْمَسَاعِى ، إِلَى النَّفَّاحِ أَخْبَارَ الْمَعَالِى

إِلَى مَلِكٍ هُوَ الْمَعْنَى الْمُجَلَّى بِهِ الْإِشْكَالُ مِنْ لَفْظِ الْكَمَالِ

إِلَى مَنْ لَا مَثِيلَ لَهُ إِذَا مَا بَدَا فِى السَّرْجِ أَوْ فَوْقَ الْمِثَالِ

هَدِيَّةُ مَنْ ـ لَوَ انَّ الدَّهْرَ سَنَّى مُنَاهُ ـ هَدَى إِلَيْكَ سُرَى الْخَيَالِ

فَكَمْ بَوَّأْتَنِى سَاحَاتِ نُعْمَى عِذَابَ الْوِرْدِ وَارِفَةَ الظِّلَالِ

---

(١) يقول ما شكرتك عقب ذكراك إلا ثملت من نشوة الفرح وغردت بالثناء عليك . وفى الأصل : « وعربد شاكر . »

(٢) تبج المجرة وسطها أو أعلا مكان فيها ، وتحاصر : أى تمشى إلى جنبها ، يقول: «لقد بنى لك أبوك قبة فى ذروة المجرة فهنيئا لك هذا المقام الرفيع الذى تحاصر فيه النجوم فى عليائها.»

(٣) يقول : ثق بتفاؤلى فيك فسيحقق الله صدق لقبيك وهما المؤيد والمنصور فيؤيدك وينصرك على أعدائك.

(٤) إلى ذى العزيمة القوية إن هاجه مثير والخلال المرضية السمحة إذا لاينه سالم ، وقريب من هذا قول ابن دريد :

« سهل إذا لونيت لدن معطفى ألوى ـ إذا خوشنت ـ مرهوب الشذا. »

إلى أبى القاسم

« كتب إلى أبى القاسم بن رفق »

عِذرى[١] ـ إنْ عَذَلْتَ فى خَلْعِ عُذْرِى[٢] ـ غُصُنٌ أَثْمَرَتْ ذُرَاهُ بِبَدْرِ[٣]
هَزَّ مِنْهُ الصِّبَا فَقَوَّمَ شَطْراً وَتَجَافَى ـ عَنِ الْوِشَاحِ ـ بِشَطْرِ
رَشَأٌ أَقْصَدَ[٤] الجَوَانِحَ قَصْداً عَنْ جُفُونٍ كُحِلْنَ ـ عَمْداً ـ بِسِحْرِ
كُسِىَ الْحُسْنَ فَهْوَ يَفْتَنُّ فِيهِ سَاحِباً ذَيْلَ بُرْدِهِ الْمُسْبَكِرِّ[٥]
تَحْتَ ظِلِّ ـ مِنَ الْغَرَارَةِ ـ فَيْنَا نَ وَوُرْقٍ[٦] مِنَ الشَّبِيبَةِ نُضْرِ
أَبْرَزَ الْجِيدَ فى غَلَائِلَ بِيضٍ وَجَلَا الْخَدَّ فى مَجَاسِدَ حُمْرِ[٧]
وَتَثَنَّتْ بِعِطْفِهِ ـ إذْ تَهَادَى ـ خَطْرَةٌ تَمْزِجُ الدَّلَالَ بِكِبْرِ
زَارَنِى ـ بَعْدَ هَجْعَةٍ ـ وَالثُّرَيَّا رَاحَةٌ تَقْدُرُ[٨] الظَّلَامَ بِشِبْرِ
وَالدُّجَا ـ مِنْ نُجُومِهِ ـ فى عُقُودٍ يَتَلَأْلَأْنَ مِنْ سِمَاكٍ وَنَسْرِ
تَحْسَبُ الْأُفْقَ بَيْنَهَا لَا زَوَرْدًا نُثِرَتْ ـ فَوْقَهُ ـ دَنَانِيرُ تِبْرِ
فَرَشَفْتُ الرُّضَابَ أَعْذَبَ رَشْفٍ وَهَصَرْتُ الْقَضِيبَ أَلْطَفَ هَصْرِ

---

(١) عذر ـ جمع عذرة بالكسر ـ أى معاذير . (٢) عذر : بضم أوله وثانيه جمع عذار وهو الحياء ، وخلع العذار أى ترك الحياء .

(٣) يقول إنى إذا خلعت عذارى فى الهوى فان معاذيرى واضحة فقد فتنى قوامه المياد الذى يشبه الغصن ووجهه المضىء كالبدر . (٤) يقال أقصد فلانا : طعنه فلم يخطئه .

(٥) المسبكر : المسترسل ، والمسبكر كل شىء امتدّ وطال .

(٦) الورق الحمائم التى يضرب لونها إلى خضرة ، قال جران العود :

« وكان فؤادى قد صحا ثم هاجنى حمائم ورق بالمدينة هتف . »

(٧) المجاسد ـ جمع مجسد ـ وهو القميص الذى يلى البدن ، قال ابن الأعرابى : « ولا تخرجنّ إلى المساجد بالمجاسد » (٨) تقيس .

وَنَعِمْنَا بِلَفِّ جِسْمٍ بِجِسْمٍ ـ لِلتَّصَافِي ـ وَقَرْعِ ثَغْرٍ بِثَغْرِ
يَالَهَا ! لَيْـــلَةً تَجَلَّى دُجَاهَا ـ مِنْ سَنَا وَجْنَتَيْهِ ـ عَنْ ضَوْءِ فَجْرِ
قَصَّرَ الوَصْلُ عُمْـــرَهَا، وَبِوُدِّى أَنْ يَطُولَ الْقَصِيرُ مِنْهَا بِعُمْرِى

* * *

مَنْ عَذِيرِى مِنْ رَيْبِ دَهْرٍ خَؤُونٍ ـ كُلَّ يَوْمٍ ـ أُرَاعُ مِنْهُ بِغَدْرِ
كُلَّمَا قُلْتُ : « حَاكَ فِيهِ مَلَامِى » نَهَسَتْنِى مِنْهُ عَقَارِبُ تَسْرِى (١)
وَتَرَتْنِى خُطُوبُهُ فِى صَـــفِيٍّ فَاضِلٍ نَابِهٍ ـ مِنَ الدَّهْرِ ـ وِتْرِ (٢)
بَانَ عَنِّى ـ وَكَانَ رَوْضَةَ عَيْنِى ـ فَغَدَا الْيَوْمَ وَهْوَ رَوْضَةُ فِكْرِى (٣)
فَكِهٌ يُبْهِجُ الخَلِيلَ بِوَجْهٍ تَرِدُ الْعَيْنُ مِنْهُ يَنْبُوعَ بِشْرِ
لَوْ ذَعِىٌّ ـ إِنْ يَبْلُهُ الْخُبْرُ يَوْمًا ـ أَخْجَلَ الْوَرْدَ عَنْ خَلَائِقَ زُهْرِ
وَإِذَا غَازَلَتْهُ مُقْـــلَةُ طَرْفٍ كَادَ ـ مِنْ رِقَّةٍ يَذُوبُ ـ فَيَجْرِى (٤)

* * *

يَا «أَبَا الْقَاسِمِ» الَّذِى كَانَ رِدْئِى وَظَهِيرِى ـ عَلَى الزَّمَانِ ـ وَذُخْرِى

---

(١) حاك : رسخ أو أثر فيه ، ونهستنى : عضتنى ، يقول : « كلما قلت إن زمانى قد ارعوى وأثر فيه عتابى ظهر لى خطئى فى ظنى وعضتنى عقارب لوم تدب إلى وتسرى فى الظلام من عقارب دهرى » ولله درّ أبو العلاء إذ يقول فى الزمن :

« وغيظ بنوه منه ، وغيظ منهم فعـــذب ساكنيه وعـــذبوه
وما يخشى الوعيـــد فيوعدوه ولا يرعى العتاب فيعتبـــوه
أساء ـ بجهله ـ أدبا عليهم فهل من حيلة فيؤدّبوه . »

(٢) وتر : فذ . (٣) كنت أراه أمامى فتنعم به عيناى واليوم لا أراه ـ بعد نأيه ـ فأصبح ينعم خاطرى بذكراه .

(٤) يقول إنه كاد من رقته يسيل . وقريب من هذا المعنى قول ابن الرومى :

« أيضيمنى خنث الشمائل ـ لو نضا عنه غلالته ـ حساه الحاسى . »

يَا أَحَقَ الْوَرَى بِمَحْضِ إِخْلاَ صِي وأَوْلاَهُمُ بِغَايَةِ شُكْرِي
طَرَقَ الدَّهْرُ سَاحَتِي ـ مِنْ تَنَائِيـ ـكَ ـ بِجَهْمٍ مِنَ الحَوَادِثِ نُكْرِ

* * *

لَيْتَ شِعْرِي ! وَالنَّفْسُ تَعْلَمُ أَنْ لَيْـ ـسَ بِمُجْدٍ عَلَى الْفَتَى: «لَيْتَ شِعْرِي»(١)
هَلْ لِخَالِي زَمَانِنَا مِنْ رُجُوعٍ ؟ أَمْ لِمَاضِي زَمَانِنَا مِنْ مَكَرِّ ؟

* * *

أَيْنَ أَيَّامُنَا وَأَيْنَ لَيَالٍ كَرِيَاضٍ لَبِسْنَ أَفْوَافَ زَهْرِ
وَزَمَانٌ كَأَنَّمَا دَبَّ فِيـ ـهِ وَسَنٌ أَوْ هَفَا بِهِ فَرْطُ سُكْرِ
حِينَ نَغْدُو إِلَى جَدَاوِلَ زُرْقٍ يَتَغَلْغَلْنَ فِي حَـ ـدَائِقَ خُضْرِ
فِي هِضَابٍ ـ مَجْلُوَّةِ الْحُسْنِ ـ حُمْرٍ وَبَوَادٍ ـ مَصْقُولَةِ النَّبْتِ ـ عُفْرِ
نَتَعَاطَى الشَّمُولَ ـ مُذْهِبَةَ السِّرْ بَالِ ـ وَالْجَوُّ فِي مَطَارِفَ (٢) غُبْرِ
فِي فُتُوٍّ (٣) تَوَشَّـحُوا بِالْمَعَالِي وَتَرَدَّوْا بِكُلِّ مَجْدٍ وَفَخْـرِ
وُضَّحٌ تَنْجَـلِي الْغَيَاهِبُ مِنْهُمْ عَنْ وُجُوهٍ ـ مِثْلِ الْمَصَابِيحِ ـ غُرِّ
كُلُّ خِرْقٍ يَكَادُ يَنْهَلُ ظَرْفًا زَانَ مَرْأًى بِهِ بِأَكْرَمِ خُبْرِ (٤)

---

(١) يقول «ليت شعرى ، وإن كنت أعلم أنها غير مجدية ، قال ابن الرومى :
« يا ليت شعرى وليت غير مجدية إلاستراحة قلب وهو اسوان . »
وقال الشاعر :
« ليت وهل ينفع شيئا « ليت » ليت شبابا بيع فاشترى . »

(٢) مطارف ـ جمع مطرف بضم الميم وكسرها ـ مع فتح الراء فى كليهما ـ : رداء مربع من خز ذو أعلام . (٣) فتو ـ جمع فتى وهو يجمع على فتيان وفتو وفتى بتشديد الواو والياء .

(٤) الخرق : من الفتيان الظريف فى سماحة ونجدة ، وينهل : يريد يكاد يسيل رقة وظرفا ، وقد جاء بعد هذا البيت قوله :
« ..... محض حالى نفح المسك عرفها طيب نشر . »
وقد أثبتناه كما ورد ناقصاً بالأصل .

وَسَجَايَا كَأَنَّهُنَّ كُئُوسٌ أَوْ رِيَاضٌ قَدْ جَادَهَا صَوْبُ قَطْرِ
يَتَلَقَّى الْقَبُولَ مِنِّى قَبُولٌ كُلَّمَا رَاحَ نَفْحُهَا أَرْتَاحَ صَدْرِى
فَهْوَ يَسْرِى مُحَمَّلاً - مِنْ سَجَايَا كَ - نَسِيمًا يُزْهَى بِأَفْوَحِ عِطْرِ

* * *

يَا خَلِيلِى وَوَاحِدِى وَالْمُعَلَّى مِنْ قِدَاحِى (١) وَالْمُسْتَبِدَّ بِبِرِّى
لاَ يَضَعْ وُدِّىَ الصَّرِيحُ الَّذِى أَرْ ضَاكَ مِنْهُ اسْتِوَاءُ سِرِّى وَجَهْرِى
وَتَوَالِى أَذِمَّةٍ نَظَمَتْنَا نَظْمَ عِقْدِ الْجُمَانِ فِى نَحْرِ بِكْرِ
لاَ يَكُنْ قَصْرُكَ الْجَفَاءَ ، فَإِنَّ الْـ ـوُدَّ - إِنْ سَاعَدَتْ حَيَاتِى - قَصْرِى (٢)
وَأَعِدْ - بِالْجَوَابِ - دَوْلَةَ أُنْسٍ قَدْ تَقَضَّتْ إِلاَّ عُلاَلَةَ ذِكْرِ (٣)
وَاكْسُ مَتْنَ الْقِرْطَاسِ دِيبَاجَ لَفْظٍ يَبْهَرُ الْفِكْرَ مِنْ نَظِيمٍ وَنَثْرِ
غُرَرٌ مِنْ بَدَائِعٍ لاَ يَشُكُّ الدَّهْرُ فِى أَنَّهَا قَلاَئِدُ دُرِّ
تَتَوَالَى عَلَى النُّفُوسِ دِرَاكًا عَنْ فَتًى مُوسِرٍ - مِنَ الطَّبْعِ - مُثْرِ
شَدَّ فِى حَلْبَةِ الْبَلاَغَةِ حَتَّى بَانَ فِيهَا عَنْ شَأْوِ سَهْلٍ وَعَمْرِو
وَإِذَا أَنْتَ لَمْ تُعَجِّلْ جَوَابِى كَانَ هٰذَا الْكِتَابُ بَيْضَةَ عُقْرِ (٤)
فَابْقَ - فِى ذِمَّةِ السَّلاَمَةِ - مَا أَنْجَا بَ عَنِ الْأُفْقِ عَارِضٌ مُتَسَرِّ
وَعَلَيْكَ السَّلاَمُ مَا غَنَّتِ الْوُرْ قُ وَمَالَتْ بِهَا ذَوَائِبُ سِدْرِ (٥)

---

(١) أى القدح المعلى .
(٢) يقول : لا يكن قصاراك الجفاء فان قصارای الوداد أى لا تكن غايتك قطيعتى فان غايتى وصلك .
(٣) يقول : أعد عهد الأنس الذى مضى ولم يترك لنا إلا ذكريات نتعلل بها .
(٤) إذا لم تعجل بارسال الرد على كتابى كان هذا آخر كتاب أبعث به إليك .
(٥) السدر : شجر النبق يقول : « تحيتى إليك كلما غنت الحمائم ومالت بها أغصان الشجر . »

مدح ابن جهور ورثاء أمه

« كرّر ابن زيدون فى هذه القصيدة أكثر
الا بيات السابقة التى ذكرناها فى ص« ١٤٠ »
من هذا الديوان . »

هوَ ٱلدَّهْرُ فٱصْبِرْ لِلَّذِى أَحْدَثَ ٱلدَّهْرُ ... فَمَنْ شِيَمِ الْأَبْرَارِ ـ فى مِثْلِهَا ـ الصَّبْرُ
سَتَصْبِرُ صَبْرَ الْيَأْسِ أَوْ صَبْرَ حِسْبَةٍ ... فَلَا تَرْضَ بِالصَّبْرِ الَّذِى مَعَهُ وِزْرُ
حِذَارَكَ مِنْ أَنْ يُعْقِبَ الرُّزْءُ فِتْنَةً ... يَضِيقُ لَهَا ـ عَنْ مِثْلِ أَخْلَاقِكَ ـ الْعُذْرُ
إِذَا أَسِفَ الثَّكْلَ اللَّبِيبُ فَشَفَّهُ ... رَأَى أَبْرَحَ الثُّكْلَيْنِ أَنْ يَحْبَطَ الْأَجْرُ
مُصَابُ ٱلَّذِى يَأْسَى بِمَيْتٍ ثَوَابِهِ ... هُوَ الْبَرْحُ لَا الْمَيْتُ الَّذِى أَحْرَزَ الْقَبْرُ

* * *

حَيَاةُ الْوَرَى نَهْجٌ إِلَى الْمَوْتِ مَهْيَعٌ ... لَهُمْ فِيهِ إِيضَاعٌ كَمَا يُوضِعُ السَّفْرُ
فَيَاهَادِىَ الْمِنْهَاجِ جُرْتَ فَإِنَّمَا ... هُوَ الْفَجْرُ يَهْدِيكَ الصِّرَاطَ أَوِ الْبَحْرُ
لَنَا ـ فِى سِوَانَا ـ عِبْرَةٌ غَيْرَ أَنَّنَا ... نُغَرُّ بِأَطْمَاعِ الْأَمَانِى فَنَغْتَرُّ
إِذَا الْمَوْتُ أَضْحَى قَصْرَ كُلِّ مُعَمَّرٍ ... فَإِنَّ سَوَاءً طَالَ أَوْ قَصُرَ الْعُمْرُ

* * *

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الدِّينَ رِيعَ ذِمَارُهُ ... فَلَمْ يُغْنِ أَنْصَارٌ عَدِيدٌ وَلَا وَفْرُ
بِحَيْثُ ٱسْتَقَلَّ الْمُلْكُ ثَانِىَ عِطْفِهِ ... وَجَرَّرَ مِنْ أَذْيَالِهِ الْعَسْكَرُ الْمَجْرُ
هُوَ الضَّيْمُ لَوْ غَيْرُ الْقَضَاءِ يَرُومُهُ ... شَآهُ الْمَرَامُ الصَّعْبُ وَالْمَسْلَكُ الْوَعْرُ

إِذَا عَثَرَتْ جُرْدُ السَّوَابِحِ فِى الْقَنَا ... بِلَيْلٍ عَجَاجٍ لَيْسَ يَصْدَعُهُ فَجْرُ
لَقَدْ بَكَرَ النَّاعِى عَلَيْنَا بِدَعْوَةٍ ... عَوَانٍ أَمَضَّتْنَا لَهَا لَوْعَةٌ بِكْرُ

* * *

أَأَنْفَسُ نَفْسٍ ـ فِى الْوَرَى ـ أَقْصَدَ الرَّدَى؟ ... وَأَخْطَرُ عِلْقٍ ـ لِلْهُدَى ـ أَهْلَكَ الدَّهْرُ؟
هَنِيئًا لِبَطْنِ الْأَرْضِ أُنْسٌ مُجَدَّدٌ ... بِثَاوِيَةٍ حَلَّتْهُ فَاسْتَوْحَشَ الظَّهْرُ
بِطَاهِرَةِ الْأَثْوَابِ ، قَانِتَةِ الضُّحَى ... مُسَبِّحَةِ الْآنَاءِ ، مِحْرَابُهَا الْخِدْرُ
فَإِنْ أُنْثِيَتْ فَالنَّفْسُ أَنْأَى نَفِيسَةٍ ... إِذِ الْجِسْمُ لَا يَسْمُو لِتَذْكِيرِهِ ذِكْرُ
حَصَانٌ ـ إِنِ التَّقْوَى اسْتَبَدَّتْ بِسِرِّهَا ـ ... فَمَنْ صَالِحِ الْأَعْمَالِ يُسْتَوْضَحُ الْجَهْرُ
يُطَأْطِأُ سِتْرُ الصَّوْنِ دُونَ حِجَابِهَا ... فَيَرْفَعُ ـ عَنْ مَثْنَى نَوَافِلِهَا ـ السِّتْرُ

* * *

لَعَمْرُ الْبُرُودِ الْبِيضِ فِى ذَلِكَ الثَّرَى ... لَقَدْ أُدْرِجَتْ ـ أَثْنَاءَهَا ـ النِّعَمُ الْخُضْرُ
عَلَيْهَا سَلَامُ اللهِ تَتْرَى تَحِيَّةً ... يُنَسِّمُهَا الْغُفْرَانَ رَيْحَانُهَا النَّضْرُ
وَعَاهَدَ تِلْكَ الْأَرْضَ عَهْدُ غَمَامَةٍ ... إِذَا اسْتَعْبَرَتْ فِى تُرْبِهَا ابْتَسَمَ الزَّهْرُ

* * *

فَدَيْنَاكَ ، إِنَّ الرُّزْءَ كَانَ غَمَامَةً ... طَلَعْتَ لَنَا فِيهَا كَمَا يَطْلُعُ الْبَدْرُ
أَلَسْتَ الَّذِى ـ إِنْ ضَاقَ ذَرْعٌ بِحَادِثٍ ـ ... تَبَلَّجَ مِنْهُ الْوَجْهُ وَاتَّسَعَ الصَّدْرُ
تَعَزَّ بِحَوَّاءَ ـ الَّتِى الْخَلْقُ نَسْلُهَا ـ ... فَمَنْ دُونَهَا فِى الْعَصْرِ يَتْبَعُهُ الْعَصْرُ
نِسَاءِ النَّبِىِّ الْمُصْطَفَى أُمَّهَاتِنَا ... ثَوَيْنَ فَمَغْنَاهُنَّ ـ مُذْ حُقِّبَ ـ قَفْرُ
وَجَازَيْتَهَا الْحُسْنَى ، فَأُمٌّ شَفِيقَةٌ ... تَحَفَّى بِهَا ابْنٌ كُلُّ أَفْعَالِهِ بِرُّ

تَمَنَّتْ وَفَاةً ـ فى حَيَاتِكَ ـ بَعْدَ مَا ... تَوَالَتْ ـ كَنَظْمِ الْعِقْدِ ـ آمَالُهَا النَّثْرُ

كَأَنَّ الرَّدَى نَذْرٌ عَلَيْهَا مُؤَكَّدُ ... فَإِنْ أُسْعِفَتْ بِالْحَظِّ فِيكَ وَفَى النَّذْرُ

تَوَلَّتْ فَأَبْقَتْ ـ مِنْ مُجَابِ دُعَائِهَا ـ ... نَفَائِسَ ذُخْرٍ مَا يُقَاسُ بِهِ ذُخْرُ

تَتِمُّ بِهِ النُّعْمَى ، وَتَتَّسِقُ الْمُنَى ، ... وَتُسْتَدْفَعُ الْبَلْوَى ، وَيُسْتَقْبَلُ الصَّبْرُ

فَلاَ تَهْضِ الدُّنْيَا جَنَاحَكَ بَعْدَهَا ... فَمِنْكَ ـ لِمَنْ هَاضَتْ نَوَائِبُهَا ـ جَبْرُ

وَلاَ زِلْتَ مَوْفُورَ الْعَدِيدِ بِقُرَّةٍ ... لِعَيْنَيْكَ مَشْدُودٍ بِهِمْ ذٰلِكَ الْأَزْرُ

* * *

بَنِي « جَهْوَرٍ » أَنْتُمْ سَمَاءُ رِيَاسَةٍ ... لِعَافِيكُمُ ـ فى أُفْقِهَا ـ أَنْجُمٌ زُهْرُ

تَرَى الدَّهْرَ ـ إِنْ يَبْطِشْ ـ فَمِنْكُمْ يَمِينُهُ ... وَإِنْ تَضْحَكِ الدُّنْيَا فَأَنْتُمْ لَهَا ثَغْرُ

لَكُمْ كُلُّ رَقْرَاقِ السَّمَاحِ كَأَنَّهُ ... حُسَامٌ عَلَيْهِ ـ مِنْ طَلاَقَتِهِ ـ أَثْرُ

سَحَائِبُ نُعْمَى أَبْرَقَتْ وَتَدَفَّقَتْ ... فَصَيِّبُهَا الْجَدْوَى ، وَبَارِقُهَا الْبِشْرُ

إِذَا مَا ذُكِرْتُمْ ، وَاسْتُشِفَّتْ خِلاَلُكُمْ ... تَضَوَّعَتِ الْأَخْبَارُ ، وَاسْتَمْجَدَ الْخُبْرُ

طَرِيقَتُكُمْ مُثْلَى ، وَهَدْيُكُمُ رِضًى ... وَنَائِلُكُمْ غَمْرٌ ، وَمَذْهَبُكُمْ قَصْرُ

وَكَمْ سَائِلٍ ـ بِالْغَيْبِ عَنْكُمْ ـ أَجَبْتُهُ ... هُنَاكَ الْأَيَادِي الشَّفْعُ وَالسُّودَدُ الْوِتْرُ

عَطَاءٌ وَلاَ مَنٌّ ، وَحُكْمٌ وَلاَ هَوًى ... وَحِلْمٌ وَلاَ عَجْزٌ ، وَعِزٌّ وَلاَ كِبْرُ

قَدِ اسْتَوْفَتِ النَّعْمَاءُ فِيكُمْ تَمَامَهَا ... عَلَيْنَا ، فَنَنَّا الْحَمْدُ لِلّٰهِ وَالشُّكْرُ

فى مدح ابن جهـــور

« قال يمدح أبا الحزم بن جهور . »

أَجَلْ ، إِنَّ لَيْلَى حَيْثُ أَحْيَاؤُهَا الْأَسْدُ ... مَهَاةٌ حَمَتْهَا — فى مَرَاتِعِهَا — أُسْدُ (١)

يَمَـانِيَةٌ تَدْنُو وَيَنْأَى مَزَارُهَا ... فَسِيَّانِ مِنْهَا فى الْهَوَى الْقُرْبُ وَالْبُعْدُ (٢)

إِذَا نَحْنُ زُرْنَاهَا تَمَرَّدَ « مَارِدٌ » ... وَعَزَّ — فَلَمْ نَظْفَرْ بِهِ — « الْأَبْلَقُ الْفَرْدُ » (٣)

تَحُولُ رِمَاحُ الْخَطِّ دُونَ اعْتِيَادِهَا ... وَخَيْلٌ تَمَطَّى نَحْوَ غَايَاتِهَا جُرْدُ

لِحَيٍّ لَقَاحٍ تَأْنَفُ الضَّيْمَ مِنْهُمُ ... جَحَاجِحَةٌ شِيبٌ وَصُيَّابَةٌ مُرْدُ (٤)

أَبٌ ذُو اعْتِزَامٍ ، أَوْ أَخٌ ذُو تَسَرُّعٍ ... فَشَيْحَانُ مَاضِى الْهَمِّ ، أَوْ فَاتِكٌ جَلْدُ

فَمَا شِيمَ مِنْ ذِى الْهَبَةِ الصَّارِمِ الشَّبَا ... وَلَا حُطَّ عَنْ ذِى الْمَيْعَةِ السَّابِحِ اللِّبْدُ

* * *

وَفِى الْكِلَّةِ الْحَمْرَاءِ وَسْطَ قِبَابِهِمْ ... فَتَاةٌ كَمِثْلِ الْبَدْرِ قَابَلَهُ السَّعْدُ

---

(١) الأسد : لغة فى الأزد ، والأسد : الأسود ، يقول : نعم إن ليلى من قبيلة الأزد وهى ظبية تحميها الأسود وتذود عنها .

(٢) يقول إن قربها وبعدها سيان لان وصلها — على القرب ، والبعد — بعيد المنال ، وما أجمل قول المعرى :

« فيادارها بالحيف ، إن مزارها ... قريب ولكن دون ذلك أهوال . »

(٣) الأبلق الفرد : حصن السموءل بن عاديا بناه أبوه . ولما بل بناه سليمان — عليه السلام — بأرض تيماء ، وتصدته الزباء فعجزت عنه وعن مارد ، فقالوا : « تمرد مارد ، وعز الأبلق . » وفى هذا الحصن يقول السموءل — من لاميته الرائعة المشهورة :

« لنا جبل يحتله من نجيره ... منيع ، يرد الطرف وهو كليل

هو الأبلق الفرد الذى شاع ذكره ... يعز — على من رامه — ويطول . »

(٤) الحى اللقاح : هم الذين لا يدينون للملوك ولا يؤدون لهم الاتاوة ، والجحاجحة : جمع جحجح ، وهو السيد السمح أو هو الكريم وهو وصف خاص بالرجال ، قال الشاعر : « بيض قطارفه غلب جحاجحة . » ويجمع أيضاً على جحاجح ، قال ابن الزبعرى :

« ماذا بـــدر فالعقنـــقل من مرازبة جحاجح . »

صيابة القوم وصوابتهم : لبابهم .

عَقِيلَةُ سِرْبٍ لاَ الْأَرَاكُ مَرَادُهُ ... وَلاَ قِمَنٌ مِنْهُ الْبَرِيرُ وَلاَ الْمَرْدُ (١)

تَهَادَى فَيُضْنِيهَا الْوِشَاحُ غَرِيرَةٌ ... تَأَوَّهُ مَهْمَا نَاسَ (٢) فِى جِيدِهَا الْعِقْدُ

إِذَا اسْتُحْفِظَتْ سِرَّ السُّرَى جُنْحَ لَيْلِهَا ... تَنَامَى النَّمُومَانِ : الْأُلُوَّةُ ، وَالنَّدُّ (٣)

لَهَا عِدَةٌ بِالْوَصْلِ ، يُوعِدُ غِبَّهَا ... مَصَالِيتُ، يُنْسَى - فِى وَعِيدِهِمِ - الْوَعْدُ

عَزِيزٌ عَلَيْهِمْ أَنْ يَعُودَ خَيَالُهَا ... فَيُسْعِفَ مِنْهَا نَائِلٌ فِى الْكَرَى نَمْدُ (٤)

كَفَى لَوْعَةً أَنَّ الْوِصَالَ نَسِيئَةٌ ... يُطِيلُ عَنَاءَ الْمُقْتَضِى وَالْهَوَى نَقْدُ (٥)

سَتُبْلِغُهَا عَنَّا الشَّمَالُ تَحِيَّةً ... نَوَافِحُ أَنْفَاسِ الْجَنُوبِ لَهَا رَدُّ (٦)

فَمَا نُسِيَ الْإِلْفُ الَّذِى كَانَ بَيْنَنَا ... - لِطُولِ تَنَائِينَا - وَلاَ ضُيِّعَ الْعَهْدُ

* * *

لَئِنْ قِيلَ : « فِى الْجِدِّ النَّجَاحُ لِطَالِبٍ » ... لَقَلَّ غَنَاءُ الْجِدِّ مَا لَمْ يَكُنْ جَدُّ (٧)

---

(١) المرد : النضج من ثمر الأراك أو نضيجه .

(٢) ناس : الشيء ينوس نوساً ونوساناً تحرك وتدبذب واضطرب متدلياً ، وسمي ذو نواس — وهو من ملوك — اليمن بذلك لذؤابتين كانتا تنوسان على ظهره .

(٣) الألوة : عود هندى يتبخر به ، وقال أعرابيّ حين مرّ على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وهو يدفن :

« ألا جعلتم رسول الله فى سفط ... من الألوة أحوى ملبساً ذهبا . »

والند : ضرب من الطيب .

(٤) نمد : قليل ، يقول وهم يستكثرون علينا أن يزورنا خيالها فيسعفنا بالوصال فى فترات الكرى المتقطعة القليلة .

(٥) يقول : كفانا ألما أنها لا تمن علينا بالوصال إلا وعوداً مؤجله يعنينا اقتضاؤها وأداؤها فى مواعيدها مع أنا نصفيها الهوى عاجلا غير متمحلين ولا مؤجلين .

(٦) الشمال : ريح الشمال ، والجوب : ريح الجنوب ، وفى الأصل نوافج ، والوافج : السحب الكثيرة المطر ، ويقال نفج الثدى القميص أى رقمه ونفجت الريح أى جاءت بقوة ، والنوافح — جمع نافحة وهى النسيم .

(٧) يقول ابن دريد فى هذا المعنى :

« لا ينفع الجد بلا جد ولا ... يحفك الجهل إذا الجد علا . »

ويقول الشاعر : « عش بجد ولا يضرك نوك »

وقد أكثر الشعراء من الكلام فى الجدود ، ومن أبدع ماتر أناه فى ذلك قول ابن الرومى :

« إن للحظ كيمياء إذا ما ... مس كابا أحاله إنسانا . »

يَنَال الْأَمَانِي بِالْحَظِيرَةِ وَادِعٌ كَمَا أَنَّهُ يُكْدِي الَّذِي شَأْنُهُ الْكَدُّ(١)

* * *

هُوَ الدَّهْرُ مَهْمَا أَحْسَنَ الفِعْلَ مَرَّةً فَعَنْ خَطَإٍ ، لٰكِنْ إِسَاءَتُهُ عَمْدُ

حِذَارَكَ أَنْ تَغْتَرَّ مِنْهُ بِجَانِبٍ فَفِي كُلِّ وَادٍ مِنْ نَوَائِبِهِ « سَعْدُ »(٢)

وَلَوْلَا السَّرَاةُ الصِّيدُ مِنْ آلِ «جَهْوَرٍ» لَأَعْوَزَ مَنْ يُعْدَى عَلَيْهِ مَتَى يَعْدُو

مُلُوكٌ لَبِسْنَا الدَّهْرَ فِي جَنَبَاتِهِمْ رَقِيقَ الحَوَاشِي مِثْلَ مَا فُوِّفَ الْبُرْدُ

بِحَيْثُ مَقِيلُ الْأَمْنِ صَافٍ ظِلَالُهُ وَفِي مَنْهَلِ الْعَيْشِ الْمُذُوبَةُ وَالْبَرْدُ

هُمُ النَّفَرُ الْبِيضُ الَّذِينَ وُجُوهُهُمْ تَرُوقُ فَتَسْتَشْفِي بِهَا الْأَعْيُنُ الرُّمْدُ

كِرَامٌ يَمُدُّ الرَّاغِبُونَ أَكُفَّهُمْ إِلَى أَبْحُرٍ مِنْهُمْ لَهَا بِاللُّهَا(٣) مَدُّ

وقول المتنبي :

« هو الجد حتى تفضل العين أختها وحتى يصير اليوم للبوم سيدا . »

وقول المعرى :

« والجد يدرك أقواما فيرفعهم وقد ينال الى أن يعبد الحجرا

وشرفت ذات أنواط قبائلها ولم تباين على علاتها الشجرا . »

وقد ذكرنا طرفا من أقوال الشعراء فى هذا المعنى فى رسالة الغفران « ج٢ص٩٨ » فليرجع اليها من شاء .

(١) الحظيرة : عنى بها هنا الأموال المحظورة يقال : احتظر الرجل وحظر اتخذ حظيرة حبس فيها أمواله من تضييق ، ويقال للرجل الذليل الحير « إنه لنكد الحظيرة » وسميت أمواله حظيرة لأنه حظرها ومنعها عنده ، والوادع : الذى ينال حظه من العيش من غير كلفة ولا مشقة ، يقول : « كثيراً ماينال الوادع الذى هو فى خفض ودعة من العيش أمانيه بأمواله المحظورة عنده كما أنه كثيراً مايخفق دو السعى والكدّ فلا يحصل من تعبه وكده على طائل » ، ولعل أبرع ما قرأناه فى هذا المعنى قول ابن الرومى :

« إذا كان مجرى كوكب سمت هالة علاها وإلا اعتاص ذلك مطلبا . »

وقول الآخر :

« سبحان ربى يعطى ذا ويحرم ذا هذا يصيد ، وهذا يأكل السمكا . »

(٢) يقال « بكل واد سعد » أو « بكل واد بنو سعد » يريدون بذلك أن فى كل جهة كفاءها من الشر والأذى. قالوا وأصل المثل أن الأضبط بن قريع بن عوف بن كعب بن سعد بن زيد مناة — رأى من أهله وقومه أمورا كرهها ففارقهم متنقلا فى القبائل فرأى من غيرهم مثل مارأى منهم فقال : « فى كل أرض سعد بن زيد . »

(٣) الأعطيات والهبات .

فَلَا يُنْعَ مِنْهُمْ هَالِكٌ فَهْوَ خَالِدٌ ... بِآثَارِهِ ، إِنَّ الثَّنَاءَ هُوَ الْخُلْدُ

«أَقِلُّوا عَلَيْهِمْ لَا أَبَا لِأَبِيكُمُ ... مِنَ اللَّوْمِ ، أَوْسُدُّوا الْمَكَانَ الَّذِي سَدُّوا[1]»

أُولَئِكَ إِنْ نِمْنَا سَرَى فِي صَلَاحِنَا ... سِجَاحٌ عَلَيْنَا كُحْلُ أَجْفَانِهِمْ سُهْدُ

* * *

أَلَيْسَ «أَبُو الْحَزْمِ» الَّذِي غِبَّ سَعْيِهِ ... تَبَصَّرَ غَاوِينَا فَبَانَ لَهُ الرُّشْدُ

أَغَرُّ تَمَهَّدْنَا بِهِ الْخَفْضَ[2] بَعْدَ مَا ... أَقَضَّ عَلَيْنَا مَضْجَعٌ وَنَبَا مَهْدُ[3]

لَشَمَّرَ حَتَّى انْجَابَ عَارِضُ فِتْنَةٍ ... تَأَلَّقَ مِنْهَا الْبَرْقُ وَاصْطَخَبَ الرَّعْدُ

فَسَالَمَ مَنْ كَانَتْ لَهُ الْحَرْبُ عَادَةً ... وَوَافَقَ مَنْ لَاشَكَّ فِي أَنَّهُ ضِدُّ[4]

هُوَ الْأَثَرُ الْمَحْمُودُ إِنْ عَادَ ذِكْرُهُ ... تَطَلَّعَتِ الْعَلْيَاءُ وَاسْتَشْرَفَ الْمَجْدُ

تَوَلَّى فَلَوْلَا أَنْ تَلَاهُ «مُحَمَّدٌ» ... لَأَوْطَأَ خَدَّ الْحُرِّ أَخْمَصَهُ الْعَبْدُ[5]

* * *

مَلِيكٌ يَسُوسُ الْمُلْكَ مِنْهُ مُقَلَّدٌ ... رَوَى عَنْ أَبِيهِ فِيهِ مَا سَنَّهُ الْجَدُّ

سَجِيَّتُهُ الْحُسْنَى ، وَشِيمَتُهُ الرِّضَى ، ... وَسِيرَتُهُ الْمُثْلَى ، وَمَذْهَبُهُ الْقَصْدُ

---

(١) ورد هذا البيت فى الأصل :

« . . . . . عليهم ، لا أبا لأبيكم من اللوم ، أوسدوا المكان الذى سدوا . »

وليس هذا البيت لابن زيدون بل هو اقتباس ، وأصل البيت كما أثبتناه ، وهو من القصيدة المشهورة التى يقول فيها الشاعر :

« وتعدلى أبناء سعد عليهم ... ومافلت إلا بالذى علمت سعد . »

(٢) الخفض : الدعة . (٣) يقول إنه بدلنا من خوف أمنا ومن سهاد رقادا .

(٤) يقول : وقد سالمه أشد الأعداء ولوعا بالحرب ووافقه من لاشك فى خصومته ولدده بعد ما رأوا من شدة بأسه وقوته .

(٥) يقول : لولا أن محمدا قد خلف أبا الحزم لساءت العاقبة ولسادت دولة العبيد على دولة الأحرار فأدلوهم أذلالا وداسوا خدودهم بأرجلهم .

هُمَامٌ إِذَا زَانَ النَّدِيَّ بِجَبْوَةٍ ... تَرَجَّحَ فِى أَثْنَائِهَا الحَسَبُ العَدُّ

زَعِيمٌ لِأَبْنَاءِ السِّيَادَةِ بَارِعٌ ... عَلَيْهِمْ بِهِ تُثْنَى الْخَنَاصِرُ إِنْ عُدُّوا

بَعِيدُ مَنَالِ الحَالِ ، دَانِى جَنَى النَّدَى ... إِذَا ذُكِرَتْ أَخْلَاقُهُ خَجِلَ الْوَرْدُ

تَهَلَّلَ فَانْهَلَّتْ سَمَاءُ يَمِينِهِ ... عَطَايَا تُرَى الآمَالَ مِنْ صَوْبِهَا جَعْدُ (١)

مُمِرٌّ لِمَنْ عَادَاهُ إِذْ أَوْلِيَاؤُهُ ... يَلَذُّ لَهُمْ كَالْمَاءِ شِيبَ بِهِ الشَّهْدُ

إِذَا اعْتَرَفَ الجَانِى عَفَا عَفْوَ قَادِرٍ ... عَلَا قَدْرُهُ عَنْ أَنْ يَلِيجَّ بِهِ حِقْدُ (٢)

ومُتَّئِدٌ لَوْ زَاحَمَ الطَّوْدَ حِلْمُهُ ... لَحَاجَزَهُ رُكْنٌ مِنَ الطَّوْدِ مُنْهَدُّ

لَهُ عَزْمَةٌ مَطْوِيَّةٌ فِى سَكِينَةٍ ... كَمَا لَانَ مَتْنُ السَّيْفِ وَاخْشَوْشَنَ الحَدُّ (٣)

يُوَكِّلُ بِالتَّدْبِيرِ خَاطِرَ فِكْرَةٍ ... إِنِ اقْتَدَحَتْ فِى خَاطِرٍ أَثْقَبَ الزَّنْدُ (٤)

ذِرَاعٌ - لِمَا يَأْتِى بِهِ الدَّهْرُ - وَاسِعٌ ... وَبَاعٌ - إِلَى مَا يُحْرِزُ الْفَخْرَ - مُمْتَدُّ

إِذَا أَسْهَبَ المُنْوُنَ فِيهِ شَأَتْهُمُ (٥) ... مَرَاتِبُ عُلْيَا كُلَّ عَنْ عَفْوِهَا الجَهْدُ

هُوَ المَلِكُ المَشْفُوعُ بِالنُّسْكِ مُلْكُهُ ... فَيَا فَضْلَ مَا يَخْفَى وَيَا سَرْوَ مَا يُبْدُو (٦)

إِلَى اللهِ أَوَّابٌ ، وَلِلَّهِ خَائِفٌ ... وَبِاللهِ مُعْتَدٌّ ، وَفِى اللهِ مُشْتَدُّ

---

(١) جعد : ندى .

(٢) قريب من هذا قول عنترة :

« لا يحمل الحقد من تعلو به الرتب ... ولا ينال العلا من طبعه الغضب . »

(٣) فى هذا المعنى يقول الشاعر :

« وكالسيف — إذ لانته — لان حده ... وحداه — إن خاشنته — خشان . »

(٤) أثقب الزند : أورى . (٥) شأتهم : فاتتهم وقصروا فيها عن الغاية .

(٦) يقول هو الملك الذى يجمع إلى سطوة الملك نسك الورعين فما أجمل ما يسره فى نفسه وما أنيل وأشرف ما يعلنه ، يعنى أن سره وإعلانه غاية فى النبل والفضل .

* * *

لَقَدْ أَوْسَعَ الْإِسْلَامَ بِالْأَمْسِ حِسْبَةً ... نَحَتْ غَرَضَ الْأَجْرِ الْجَزِيلِ فَلَمْ تَعْدُ

أَبَاحَ حِمَى الْخَمْرِ الْخَبِيثَةِ ، حَائِطًا ... حِمَى الدِّينِ مِنْ أَنْ يُسْتَبَاحَ لَهُ حَدُّ

فَطَوَّقَ بِاسْتِئْصَالِهَا الْمِصْرَ مِنَّةً ... يَكَادُ يُؤَدِّى شُكْرَهَا الْحَجَرُ الصَّلْدُ

هِيَ الرِّجْسُ إِنْ يُذْهِبْهُ عَنْهُ فَمُحْسِنٌ ... شَهِيرُ الْأَيَادِى مَا لِآلَائِهِ جَحْدُ

مَظِنَّةُ آثَامٍ ، وَأُمُّ كَبَائِرٍ ... يُقَصِّرُ عَنْ أَدْنَى مَعَايِبِهَا الْعَدُّ

رَأَى نَقْصَ مَا يَجْبِيهِ مِنْهَا زِيَادَةً ... إِذِ الْعِوَضُ الْمَرْضِيُّ إِلَّا يَرُحْ يَغْدُو

* * *

غَنِيٌّ ، فَحُسْنُ الظَّنِّ بِاللهِ مَالُهُ ... عَزِيزٌ ، فَصُنْعُ اللهِ مِنْ حَوْلِهِ جُنْدُ

نَعِمْ حَدِيثُ الْبِرِّ تُودِعُهُ الصَّبَا ... تَبُثُّ نَثَاهُ حَيْثُ لَا تُوضِعُ الْبُرْدُ (١)

تَغَلْغَلَ فِى سَمْعِ الرَّبَابِ وَطَالَعَتْ ... لَهُ صُورَةً لَمْ يَعْمَ - عَنْ حُسْنِهَا - الْخُلْدُ

سَمَاعٍ أَجَدَّتْ زِينَةَ الْأَرْضِ ، فَالْحِصَى ... لَآلِئُ نَثْرٌ ، وَالثَّرَى عَنْبَرٌ وَرْدُ

دَى زَهَرَاتِ الرَّوْضِ - عَنْهَا - بِشَارَةٌ ... وَفِى نَفَحَاتِ الْمِسْكِ - مِنْ طِيبِهَا - وَفْدُ

* * *

دَيْتُكَ ، إِنِّى قَائِلٌ فَمُعَرِّضٌ ... بِأَوْطَارِ نَفْسٍ مِنْكَ لَمْ تَقْضِهَا بَعْدُ

نِّى كَالشَّجَا دُونَ اللَّهَاةِ (٢) تَعَرَّضَتْ ... فَلَمْ يَكُ الْمَصْدُورِ - مِنْ نَفْثِهَا - بُدُّ

---

(١) يقول : لعم حديث البر أودعته ريح الصبا فحملته وبثت خبره فى الجهات النائية حيث لا توضع البرد ى حيث لاتعدو خيل البريد اليها ولا تصلها الأخبار لبعدها ، وفى الأصل : « توضعه »

(٢) اللهاة : اللحمة المشرفة على الحلق ، أو مابين منقطع أصل اللسان إلى منقطع الغلب من أعلى الفم ، وجمعها لهوات ولهيات ولهى . قال ابن دريد :

« والناس كالبيت ، فمنه رائق ... غض نضير عوده من الجنى

ومنه ما تقتحم العين ، فان ... سفت جناه إنساغ عذبا فى اللهى . »

أَمِثْلِيَ غُفْلٌ خَامِلُ الذِّكْرِ ضَائِعٌ ... ضَيَاعَ الْحُسَامِ الْعَضْبِ أَصْدَأَهُ الْغِمْدُ

أَبَى ذَاكَ أَنَّ الدَّهْرَ قَدْ ذَلَّ صَعْبُهُ ... فَسُنِّيَ مِنْهُ - بِالَّذِي نَشْتَهِي - الْعَقْدُ (١)

* * *

أَنَا السَّيْفُ لَا يَنْبُو مَعَ الْهَزِّ غَرْبُهُ ... إِذَا مَانَبَا السَّيْفُ الَّذِي تَطْبَعُ الْهِنْدُ

بَدَأْتَ بِنُعْمَى غَضَّةٍ إِنْ تُوَالِهَا ... فَحُسْنُ الْأَلَى (٢) فِي أَنْ يُوَالِيهَا سَرْدُ

لَعَمْرُكَ مَا الْمَالُ أَسْنَى فَإِنَّمَا ... يَرَى الْمَالَ أَسْنَى حَظِّهِ الطَّبِعُ الْوَغْدُ (٣)

وَلَكِنْ لِحَالٍ - إِنْ لَبِسْتُ جَمَالَهَا - ... كَسَوْتُكَ ثَوْبَ النُّصْحِ أَعْلَامُهُ الْحَمْدُ

* * *

أَتَتْكَ الْقَوَافِي شَاهِدَاتٍ بِمَا صَفَا ... مِنَ الْغَيْبِ فَاقْبَلْهَا فَمَا غَرَّكَ الشَّهْدُ

لِيَحْظَى وَلِيٌّ - سِرُّهُ وَفْقُ جَهْرِهِ - ... فَظَاهِرُهُ شُكْرٌ ، وَبَاطِنُهُ وُدُّ

يُمَيِّزُهُ - مِمَّنْ سِوَاهُ - وَفَاؤُهُ ... وَإِخْلَاصُهُ ، إِذْ كُلُّ غَانِيَةٍ هِنْدُ (٤)

---

(١) سنى منه العقد ، أى تيسر الصعب وسهل . قال الشاعر :

« وأعلم علما ليس بالظن أنه ... إذا الله سنى عقد أمر تيسرا . »

(٢) الألى : النعمة جمعها آلاء .

(٣) الطبع : يقال رجل طبع طبع (بكسر ثانيهما) متدنس العرض ذو خلق دنىء لايستحي من سوءة ، والوغد : الخفيف الأحمق الضعيف العقل والبدن الدنىء الخسيس النذل .

(٤) كل غانية هند : مثل يضرب عند تساوى القوم فى فساد الباطن .

رثاء أم المعتضد

« قال يرثى السيدة الكبرى والدته . »

أَلاَ هَلْ دَرَى الدَّاعِي الْمُثَوِّبُ ـ إِذْ دَعَا ... بِنَعْيِكِ ـ أَنَّ الدِّينَ مِنْ بَعْضِ مَا نَعَى ؟
وَأَنَّ التُّقَى قَدْ آذَنَتْنَا بِفُرْقَةٍ ... وَأَنَّ الْهُدَى قَدْ بَانَ مِنْكِ فَوَدَّعَا ؟
لِرُزْئِكِ تَنْهَلُّ الدُّمُوعُ ، فَمُقْلَةٌ ... ـ إِذَا حَلَّ ـ وَدَّ الْقَلْبُ لَوْ كَانَ مَدْمَعَا
لَقَدْ أَجْهَشَ الْإِخْلاصُ بِالْأَمْسِ بَاكِيًا ... عَلَيْكِ ، كَمَا حَنَّ الْيَقِينُ فَرَجَّعَا

* * *

وَدُنْيَا وَجَدْنَا الْعَيْشَ فِي غَفَلاَتِهَا ... طَرِيقًا ـ إِلَى وِرْدِ الْمَنِيَّةِ ـ مَهْيَعَا (١)
نُعَلَّلُ فِيهَا بِالْمُنَى فَنَغُرُّنَا ... بَوَارِقُ لَيْسَ الآلُ مِنْهَا بِأَخْدَعَا (٢)

* * *

اصِبْنَا بِمَا لَوْ أَنَّ هَضْبَ مَتَالِعٍ ... أُصِيبَ بِهِ لَانْهَدَّ أَوْ لَتَضَعْضَعَا
مَنَارٌ ـ مِنَ الْإِيمَانِ ـ لَمْ يَعْدُ أَنْ هَوَى ، ... وَحَبْلٌ ـ مِنَ التَّقْوَى ـ وَهَى فَتَقَطَّعَا
وَشَمْسُ هُدًى أَمْسَى لَهَا التُّرْبُ مَغْرِبًا ... وَكَانَ لَهَا الْمِحْرَابُ ـ فِي الْخِدْرِ ـ مَطْلَعَا (٣)

* * *

لَئِنْ أُتْبِعَتْ مِنَّا غَمَامَةَ رَحْمَةٍ ... لَقَدْ ظَلَّلَتْ ذَاكَ السَّرِيرَ الْمُرَفَّعَا

---

(١) المهيع : الطريق الواسع الواضح البين .

(٢) الآل : السراب ، يقول إن الأمانى تعرنا وتخدعنا كما يخدع السراب . ولله در مهيار إذ يقول :

« شد ما مى غرورا نفسه ... تاجر الآمال فى أن يربحا . »

وقوله : « ربما يقمر بالظن الكذوب . » ، وفى هذا المعنى يقول ابن نباته السعدى :

« وأقسم ما الدنيا بدار إقامة ... ولا هى إلا مثل بعض المنازل
نسير إلى الآجال حول رجائها ... ونطوى بها الأيام طى المراحل . »

(٣) يقول : أنها شمس أشرقت فى خدرها ثم غربت فى قبرها .

سريرٌ بأملاكٍ وزُهرِ ملائكٍ ـ إلى جنّةِ الفردوسِ ـ راحَ مُشيّعا
لتبكِ الأيامى واليتامى فقيدةً هيَ المُزنَ أحيا صوبُهُ ثمَّ أقشعا
أضلَّهمُ فقدانُها ، فكأنّما أضلّتْ سوامُ الوحشِ في الجدبِ مرتعا
مُسبّحةَ الآناءِ ، قانتةَ الضحى ثوتْ فثوى مغنى التأوّهِ بلقعا
تبيتُ معَ الإخباتِ (١) مُسعرةَ الحشا تقيّةَ مَنْ يخشى إلى اللهِ مرجعا
إذا ما هيَ استوفتْ منَ البرِّ غايةً تأتّتْ لأخرى لا ترى تلكَ مقنعا
كأنَّ قضاءَ الواجباتِ مُحرِّجٌ تقبّلُهُ إلاّ بأنْ تتطوّعا (٢)

⁂

أصرفَ الردى ! لوْ أنَّ للسيفِ مضرِبًا لما رُعتنا ، أوْ أنَّ في القوسِ منزعا
فلوْ كنتَ ـ إذْ ساءتْ ـ رامَ مُجاهرٌ ذمارَ الهدى كانَ المحوطَ المُمنّعا
إذا لثناهُ الجيشُ منْ كلِّ أليسٍ (٣) يُشايعُ قلبًا في الحفاظِ مُشيّعا
« ومُعتضدٌ باللهِ » يحمي ذمارَهُ فلا سِربَ يُلفى ـ في حِماهُ ـ مُروّعا
ولكنْ عرارتَ الملكَ ـ منْ حيثُ لا يرى ـ فلمْ يستطعْ للحادثِ الحتمِ مدفعا (٤)

---

(١) الاخبات : التقوى والخشوع والقنوت ، يقول : هي البقية الباقية من النساء الصالحات تبيت من خشية الله مصلية داعية مسعرة الحشا خوفاً من لقاء الله ، وفرقا من هول يوم المرجع والمآب .

(٢) يقول : أنها لحرصها على التطوّع وضم النوافل إلى الفرائض كأنها تعتقد أن في أداء الفرائض وحدها غير مشفوعة بالتطوع حرجاً وإثما لايحمل عبادها متقبلة وعملها مثاباً عليه إلا بأن تتطوّع ، فهي لذلك تبيت ليلها قائمة متهجدة .

(٣) الأليس : الشجاع الذي لايبالي الحرب ولا يروعه القتال والجمع ليس ، قال الشاعر :

« تخال نديهم مرضى حياء وتلقاهم غداة الروع ليسا . »

(٤) عررت : وطئت ونزلت ، على غير هدى وعلم وبلا تمييز ، وهو من قول الله عزّ وجلّ : « ولولا رجال مؤمنون ، نساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطئوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم. » ، وقال عمر رضي الله عنه : « اللهمّ إني أعوذ بك من معرة الجيش » تبرأ رضي الله عنه من وطأة جيش المسلمين من مرروا به بلا تمييز بين مسلم ومعاهد وكافر وإصابتهم إياهم في حريمهم وأموالهم وزروعهم بما لم يؤذن لهم فيه من قبل الشرع . يقول : لوكان صرف الدهر شخصاً يواجه مجاهرة لعجز عن غرضه ولثناه المعتضد الشجاع وجيشه الباسل ولكن صرف الدهر يأتي على غرة فلا يستطيع أحد أن يواجهه ويدفع عائلته ، ولله در القائل :

يَغِيظُ الْعِتَاقَ الْجُرْدَ أَلاَّ تَرَى لَهَا ... مَجَالاً ، فَتَعْنُو فِي الْمَرَابِطِ خُشَّعَا
وَتَأْسَفُ بِيضُ الْهِنْدِ أَنْ لَيْسَ تُنْتَضَى ، ... وَسُمْـــرُ الْقَنَا أَلاَّ تُهَزَّ وَتُشْرَعَا

* * *

لَئِنْ سَاءَكَ الدَّهْرُ الْمُسِيءُ فَلَمْ يَكُنْ ... بِأَوَّلِ عَهْدٍ وَاجِبِ الْحِفْظِ ضَـــيَّعَا
شَهِدْنَا : لَقَـــدْ طَرَّزْتَ بُرْدَ جَمَالِهِ ... وَقَلَّدْتَهُ عِقْدَ الْبَهَاءِ مُرَصَّـــعَا
وَمَا فَخْـــرُهُ إِلاَّ بِأَنْ كَانَ مُصْغِياً ... لِأَمْرِكَ ، إِنْ نَادَيْتَ لَبَّى فَأَسْرَعَا
أَتَى الْعَـثْرَةَ الْعُظْمَى ، فَهَلْ أَنْتَ قَائِلٌ ... لَهُ حِينَ أَشْفَى مِنْ كَآبَتِهِ : «لَعَا»؟(١)
وَهَاهُوَ مُنْقَادٌ لِحُـكْمِكَ ، فَاحْتَكِمْ ... لِتَبْلُغَ مَا تَهْوَى ، وَمُرْهُ لِيَصْـدَعَا
لَعَمْرُ الَّتِي وَدَّعْتَ أَمْسِ ـ مُفَارِقاً ـ ... لَقَدْ وَرَدَتْ حَوْضَ السَّعَادَةِ مَشْرَعَا(٢)
تَمَنَّتْ وَفَاةً ـ فِي حَيَاتِكَ ـ بَعْدَ مَا ... حَشَدْتَ لَهَا الْآمَالَ : مَرْأًى، وَمَسْمَعَا
فَوَفَّيْتَهَا مَا لَمْ يَدَعْ لِضَـــمِيرِهَا ... إِلَى غَايَةٍ مِنْ بَعْـــدِهِ مُتَطَلَّعَا
خَفَضْتَ جَنَاحَ الذُّلِّ فِي الْعِزِّ رَحْمَةً ... لَهَا ، وَعَزِيزٌ أَنْ تَذِلَّ وَتَخْضَعَا (٣)
تَرُوحُ أَمِيراً فِي الْبِلَادِ مُحَكَّماً ... وَتَغْدُو شَفِيعاً فِي الذُّنُوبِ مُشَفَّعَا
عَزَاءً فَدَتْكَ النَّفْسُ ، عَزْمَ مُسَـــلِّمٍ ... لِمَوْقِعِ أَمْرٍ لَمْ يَزَلْ مُتَوَقَّعَا

« اليوم يبنى لدويد بيته ... يا رب وجه حسن رأيته
ومعصم ـ ذى برة ـ لويته ... لو كان للدهر بلى أبليته
أو كان قرنى واحدا كفيته . »

(١) أشى : من قولهم أشـى على الهلاك وأشفى على الموت إذا أشرف عليـه ، والكآبة : الحزن ، ولعا : كلمة تقال للعاثر وهى فى الاثبات دعاء له ، وإذا قيل : لا لعا للعاثر ، فمعناه لا أقال الله عثرته ، يقول : لقد أساء إليك الدهر فى هذا الخطب فهل أنت صافح عنه ومقيله من عثرته .

(٢) المشرع : كالشريعة والشريعة المكان الذى ينحدر منه الناس والدواب إلى الماء لوروده .

(٣) يشير إلى قوله تعالى فى بر الوالدين :
« واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا »

مَتَى ظَنَّتِ الْأَيَّامُ أَنَّكَ جَازِعٌ ... أَوِ اسْتَشْعَرَتْ فِي فَلِّ صَبْرِكَ مَطْمَعَا

فَمَا اُرْبَدَّ وَجْهُ الْخَطْبِ إِلَّا لَقِيتَهُ ... بِصَفْحَةِ طَلْقِ الْوَجْهِ أَبْلَجَ أَرْوَعَا

وَمَا كُنْتَ أَهْلاً أَنْ يُصِيبَكَ حَادِثٌ ... فَتُصْبِحَ عَنْهُ مُقْصَدَ الْقَلْبِ مُوجَعَا

فَلَوْلَاكَ لَمْ يَسْمَحْ مِنَ الدَّهْرِ جَانِبٌ ... وَلَا اهْتَزَّ أَعْطَافًا ، وَلَا لَانَ أَخْدَعَا

فَأَنْتَ الَّذِي لَمْ يَنْتَقِمْ غِبَّ قُدْرَةٍ ... وَلَمْ يُؤْثِرِ الْمَعْرُوفَ إِلَّا لِيَشْفَعَا

مَتَى تُسْدِ نُعْمَى ـ قِيلَ أَنْعَمَ مِثْلِهَا ـ ... يُقَلْ جَلَلٌ حَتَّى إِذَا قِيلَ أَبْدَعَا (١)

وَإِنْ يَسَلِ الْعَافُونَ جَدْوَاكَ يُعْطِهِمْ ... جَوَادٌ إِذَا لَمْ يَسْأَلُوهُ تَبَرَّعَا

وَيُغْرَى بِتَوْكِيدِ الْإِسَاءَةِ مُذْنِبٌ ... فَيَلْقَاكَ بِالْإِحْسَانِ أَغْرَى وَأَوْلَعَا (٢)

خَلَائِقُ مُمْهَاةُ الْفِرِنْدِ كَأَنَّهَا ... حَدَائِقُ رَوْضِ الْحَزْنِ جِيدَ فَأَيْنَعَا

تُنَافِحُهَا مِنْهَا أَحَادِيثُ سُودَدٍ ... تَخَالُ فَتِيتَ الْمِسْكِ عَنْهَا تَضَوَّعَا

تَغَلْغَلُ فِي الْآفَاقِ أَسْرَى مِنَ الصَّبَا ... وَأَشْهَرَ مِنْ شَمْسِ النَّهَارِ وَأَسْرَعَا

فَلَوْ صَرَفَتْ صَرْفَ الْمَنُونِ جَلَالَةً ... لَكُنْتَ مُحَيًّا مَنْ تَوَدُّ مُمَتَّعَا

فَلَا زِلْتَ بِمَمْنُوعِ الْحِمَى مُسْعَفَ الْمُنَى ... إِذَا كَانَ شَانِيكَ الْمُصَابَ الْمُفَجَّعَا (٣)

وَدُمْتَ مُلَقَّى أَنْجُمِ السَّعْدِ بَاقِيًا ... لِدِينٍ وَدُنْيَا أَنْتَ فَخْرُهُمَا مَعَا

---

(١) يقول كلما أسديت جميلا قال الناس : كم لهذا الجميل من أشباه ونظائر فهو ـ على عظمه ـ تافه عندهم لكثرة ما ألفوه من صنائعك ، ولو أبدعت لم يستوع انظارهم إبداعك لطول ما ألفوا من روائعك وبدائعك .

(٢) يقول : ان المسيء يطمعه عفوك عن زلته فهو إذا أولع بتوكيد إساءته وجدك أشد ولوعا بتوكيد إحسانك وعفوك عنه .

(٣) يقول : لا زال الزمن يمر من حماك ويسعفك بأمانيك على حين يصيب عدوك ويفجعه فيما يحب .

قل للبغاة

« وقال ذو الوزارتين رحمه الله »

الدَّهْرُ ـ إِنْ أَمْـــلَى ـ فَصِيحٌ أَعْجَمُ ... يُعْطِى اعْتِبَارِى مَاجَهِلتُ فَأَعْلَمُ (١)

إِنَّ الَّذِى قَدَرَ الحَوَادِثَ قَدْرَهَا ... سَاوَى لَدَيْهِ الشُّهْدَ مِنْهَا الْعَلْقَمُ (٢)

وَلَقَدْ نَظَرْتُ فَلاَ اغْتِرَابٌ يَقْتَضِى ... كَدَرَ المَآلِ وَلاَ تَوَقٍّ يَعْصِمُ

كَمْ قَاعِدٍ يَحْظَى فَتُعْجَبُ حَالُهُ ... مِنْ جَاهِدٍ يَصِلُ الذُّؤُوبَ فَيُحْرَمُ

وَأَرَى المَسَاعِىَ كَالسُّيُوفِ تَبَادَرَتْ ... شَـــأْوَ المَضَاءِ فَمُنْثَنٍ وَمُصَمِّمُ

وَلَكَمْ تَسَامَى بِالرَّفِيعِ نِصَابُهُ ... خَطَرٌ فَنَاصَبَهُ الْوَضِيعُ الْأَلْأَمُ (٣)

وَأَشَدُّ فَاجِعَةِ الدَّوَاهِى مُحْسِنٌ ... يَسْعَى لِيُعْلِقَهُ الجَرِيمَةَ مُجْرِمُ (٤)

تَلْقَى الحَسُودَ أَصَمَّ عَنْ جَرْسِ الْوَفَا ... وَلَقَدْ يُصِيخُ ـ إِلَى الرُّقَاةِ ـ الْأَرْقَمُ (٥)

* * *

قُلْ لِلْبُغَاةِ الْمُنْبِضِينَ قِسِـــيَّهُمْ ... سَتَرَوْنَ مَنْ تُصْمِيهِ تِلْكَ الْأَسْهُمُ

أَسْرَرْتُمُ فَرَأَى نَجِىَّ عُيُونِكُمْ ... شَيْحَانُ مَدْلُولٌ عَلَيْهَا مُلْهَمُ

---

(١) يقول إن الدهر إن أملى بلسان الحوادث الفصيح الأعجم يكسب اعتبارى وقياسى الحوادث والعبر بعضها ببعض علم ماجهلت .

(٢) إن الذى قاس الحوادث بمقياس صحيح استوى لديه حلو الحياة ومرها .

(٣) وكثيرا ما يتسامى بالذى ارتفع منصبه خطره وشرفه فيناصبه العداء ويسعى لئيم حسدا منه وبغيا .

(٤) وأشد مايفجع الانسان من الدواهى محسن يسعى مجرم ليلصق به إساءة وجريمة .

(٥) يصيخ مضارع أصاخ له استمع ، والرقاة جمع راق من الرقية وهى مايتفث فيه من العوذ ، والأرقم ذكر الحيات وهو أخبثها وأطلها للناس ، أو هو مابه بياض وسواد ، يقول : إن الحسود أصم عن سماع صوت الوفاء فى حين أن الأرقم وهو أخبث الحيات وأشدها عداوة للناس يصيخ بسمعه للراقى الذى يتلو وينفث فى العوذ ، وفى الأصل «ولقد يصيح إلى الرقاة الأرقم» .

وَعَبَأْتُمُ لِلْفِسْقِ ظُفْرَ سِعَايَةٍ ... لَمْ يَعْدُكُمْ أَنْ رُدَّ وَهْوَ مُقَلَّمُ

وَنَبَذْتُمُ التَّقْوَى وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ... فَغَدَا بَغِيضَكُمُ التَّقِيُّ الْأَكْرَمُ

مَا كَانَ حِلْمُ « مُحَمَّدٍ » لِيُحِيلَهُ ... عَنْ عَهْدِهِ دَغَلُ الضَّمِيرِ (١) مُذَمَّمُ

مَلِكٌ تَطَلَّعَ لِلنَّوَاظِرِ غُرَّةً ... زَهْرَاءَ يُبْدِيهَا الزَّمَانُ الْأَدْهَمُ

يَغْشَى النَّوَاظِرَ مِنْ جَهِيرِ رُوَائِهِ ... خَلْقٌ - يُرَى مِلْءَ الصُّدُورِ - مُطَهَّمُ (٢)

وَسَنَا جَبِينٍ يَسْتَطِيرُ شُعَاعُهُ ... يُغْنِي - عَنِ الْقَمَرَيْنِ - مَنْ يَتَوَسَّمُ (٣)

صَلْتٌ تَوَدُّ الشَّمْسُ لَوْ صِيغَتْ لَهُ ... تَاجًا تُرَصِّعُ جَانِبَيْهِ الْأَنْجُمُ (٤)

فَضَحَتْ مَحَاسِنُهُ الرِّيَاضَ بَكَى الْحَيَا ... - وَهْنًا عَلَيْهَا - فَاغْتَدَتْ تَتَبَسَّمُ

بِالْقَدْرِ يَبْعُدُ وَالتَّوَاضُعِ يَدَّنِي ... وَالشَّرِّ يَشْمُسُ وَالنَّدَى يَتَغَيَّمُ (٥)

جَذْلَانُ - فِي يَوْمِ الْوَغَى - مُتَطَلِّقٌ ... وَجْهًا إِلَيْهَا وَالرَّدَى مُتَجَهِّمُ (٦)

بَأْسٌ - كَمَا صَالَ الْهِزَبْرُ - إِزَاءَهُ ... جُودٌ كَمَا جَاشَ الْخِضَمُّ الْخِضْرِمُ (٧)

---

(١) بصيره حقد مكتتم .

(٢) الرواء : الحسن ، وخلق مطهم : تام بارع الجمال .

(٣) يستطير : ينتشر ، من القمرين : الشمس والقمر ، والدى أجاز التثنية مع اختلاف لفظ المفرد العليب كما هو معروف فى كتب النحو ، ويتوسم : ينظر إلى وسامة ذلك الجبين المضىء وحسنه .

(٤) الصلت : صفة الجبين ومعناه الواضح البارز المستوى ، أى تود الشمس لو أنها صيغت تاجا مرصعاً بلآلئ النجوم ، ووضعت فوق جبين الممدوح :

(٥) فى الأصل :

« بالمدر يبعد والتواضع يدنى والبشر شمس والندى يتغيم »

والذى أثبتناه هنا هو ما يعطيه المعنى .

(٦) يقول : أنه يرى يوم الحرب جذلان فرحا طلق الوجه باشاً إلى الحرب والردى متجهم عابس الوجه كريه المنظر ، وفى الأصل : « والروا متجهم »

(٧) البحر الخضمخم العظيم .

⁂

نَفْسى فِدَاؤُكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ الذِى ... كُلُّ الْمُلُوكِ لَهُ الْعَلَاءَ تُسَلِّمُ
سُدْتَ الجَمِيعَ فَلَيْسَ مِنْهُمْ مُنْكِرٌ ... أَنْ صِرْتَ فَذَّهُمُ الَّذِى لَا يُتْأَمُ (١)
لَاغَرْوَ أُمُّ الْمَجْدِ فِى بِكْرِ الْحِجَا ... مِنْ أَنْ يُضَافَ إِلَيْكَ صِنْوٌ أَعْقَمُ (٢)
فَاحْسِمْ دَوَاعِىَ كُلِّ شَرٍّ دُونَهُ ... فَالدَّاءُ يَسْرِى إِنْ عَدَا لَا يُحْسَمُ
كَمْ سِقْطُ زِنْدٍ قَدْ نَمَا حَتَّى غَدَا ... بُرْكَانَ نَارٍ كُلَّ شَىْءٍ تَحْطِمُ
وَكَذَلِكَ السَّيْلُ الْجُحَافُ فَإِنَّمَا ... أُولَاهُ طَلٌّ ثُمَّ وَبْلٌ يَتْجُمُ (٣)
وَالْمَالُ يُخْرِجُ أَهْلَهُ عَنْ حَدِّهِمْ ... وَافْهَمْ فَإِنَّكَ بِالْبَوَاطِنِ أَفْهَمُ
وَاذْكُرْ صَنِيعَ أَبِيكَ أَوَّلَ أَمْرِهِ ... فِى كُلِّ مُتَّهَمٍ فَإِنَّكَ تَعْلَمُ
لَمْ يُبْقِ مِنْهُمْ مَنْ تَوَقَّعَ شَرَّهُ ... فَصَفَتْ لَهُ الدُّنْيَا وَلَذَّ الْمَطْعَمُ
فَعَلَامَ تَنْكُلُ عَنْ صَنِيعِ مِثْلِهِ ... وَلَأَنْتَ أَمْضَى فِى الْخُطُوبِ وَأَشْهَمُ
وَجَنَابُكَ النَّبْتُ الَّذِى لَا يَنْثَنِى ... وَحُسَامُكَ الْعَضْبُ الَّذِى لَا يَكْهَمُ
وَالْحَالُ أَوْسَعُ وَالْعَوَالِى جَمَّةٌ ... وَالْمَجْدُ أَشْمَخُ وَالصَّرِيمَةُ أَصْرَمُ (٤)

⁂

لَا تَتْرُكَنْ لِلنَّاسِ مَوْضِعَ شُبْهَةٍ ... وَاحْزُمْ، فَمِثْلُكَ فِى الْعَظَائِمِ أَحْزَمُ
قَدْ قَالَ شَاعِرُ كِنْدَةٍ فِيمَا مَضَى ... بَيْتًا عَلَى مَرِّ اللَّيَالِى يُعْلَمُ :

---

(١) الذى لايكون له توءم ونظير من الملوك .

(٢) لاغرو فان أم المجد عقيم فى بكرها الموسوم بالحجا والعقل قد يئست من أن تضيف إليه صنوا .

(٣) الجحاف : كغراب الذى يذهب بكل شىء .

(٤) الصريمة : العزيمة وأصرم أى أقطع ، وفى الأصل : « والصريمة ضيغم . »

« لَايَسْلَمُ الشَّرَفُ الرَّفِيعُ مِنَ الْأَذَى حَتَّى يُرَاقَ عَلَى جَوَانِبِهِ الدَّمُ [١] »

* * *

فِرَقٌ عَوَتْ ، فَزَأَرْتَ زَأْرَةَ زَاجِرٍ رَاعَ الْكُلَيْبَ بِهَا السَّبَنْتَى الضَّيْغَمُ [٢]

يَا لَيْتَ شِعْرِى هَلْ يَعُودُ سَفِيهُهُمْ أَمْ قَدْ حَمَاهُ النَّبْحُ ذَاكَ الْمَكْمَمُ ؟

لِى مِنْكَ فَلْيَذُبِ الْحَسُودُ تَلَظِّيًا لُطْفُ الْمَكَانَةِ وَالْمَحَلُّ الْأَكْرَمُ

وَشُفُوفُ حَظٍّ لَيْسَ يَفْتَأُ يُجْتَلَى غَضَّ الشَّبَابِ وَكُلُّ حَظٍّ يَهْرَمُ

لَمْ تُلْفَ صَاغِيَتِى [٣] لَدَيْكَ مُضَاعَةً كَلَّا وَلَا خَفِىَ اصْطِنَاعِى الْأَقْدَمُ

بَلْ أَوْسَعَتْ حِفْظًا وَصِدْقَ رِعَايَةٍ ذِمَمٌ مُوَثَّقَةُ الْعُرَا لَا تُفْصَمُ

فَلْيَخْرِقَنَّ الْأَرْضَ شُكْرٌ مُنْجِدٌ مِنِّى تَنَاقَلُهُ الْمَحَافِلُ مُتْهَمُ

عَطِرٌ ـ هُوَ الْمِسْكُ السَّطُوعُ ـ يَطِيبُ فِى شَمِّ الْعُقُولِ أَرِيجُهُ الْمُتَنَسَّمُ

وَإِذَا غُصُونُ الْمَكْرُمَاتِ تَهَدَّلَتْ كَانَ الثَّنَاءُ هَدِيلُهَا الْمُتَرَنِّمُ

الْفَخْرُ ثَغْرٌ ـ عَنْ حِفَاظِكَ ـ بَاسِمٌ وَالْمَجْدُ بُرْدٌ ـ مِنْ وَفَائِكَ ـ مُعْلَمُ

فَاسْلَمْ مَدَى الدُّنْيَا فَأَنْتَ جَمَالُهَا وَتَسَوَّغِ النُّعْمَى فَإِنَّكَ مُنْعِمُ

---

(١) هذا البيت للمتنبي وقد اقتبسه ابن زيدون فى هذه القصيدة .

(٢) السبنتى والضيغم من أسماء الأسد .

(٣) صاغية الرجل خاصته : الذين يشاورهم مجلسه .

موشح

ذكرى قرطبة

سَـــقَى اللهُ أَطْلاَلَ الأَحِبَّةِ بِالْحِمَى
وَحَاكَ عَلَيْهَا ثَوْبَ وَشْيٍ مُنَمْنَمَا
وَأَطْلَعَ فِيهَا لِلأَزَاهِـــيرِ أَنْجُمَا
فَكَمْ رَفَلَتْ فِيهَا الخَرَائِدُ كَالدُّمَى[1] إِذِ الْعَيْشُ غَضٌّ وَالزَّمَانُ غُلاَمُ

* * *

أَهِيمُ بِجَبَّارٍ يَعِزُّ وَأَخْضَـــعُ[2]
شَذَا الْمِسْكِ ـ مِنْ أَرْدَانِهِ ـ يَتَضَوَّعُ
إِذَا جِئْتُ ـ أَشْكُو الْجَوَى ـ لَيْسَ يَسْمَعُ
فَمَا أَنَا ـ فِي شَيْءٍ مِنَ الْوَصْلِ ـ أَطْمَعُ وَلاَ أَنْ يَزُورَ الْمُقْلَتَيْنِ مَنَامُ

* * *

قَضِيبٌ ـ مِنَ الرَّيْحَانِ ـ أَثْمَرَ بِالْبَدْرِ
لَوَاحِظُ عَيْنَيْهِ مُلِئْنَ مِنَ السِّحْرِ
وَدِيبَاجُ خَدَّيْهِ حَكَى رَوْنَقَ الْخَمْرِ
وَأَلْفَاظُهُ ـ فِي النُّطْقِ ـ كَاللُّؤْلُؤِ النَّثْرِ وَرِيقَتُهُ ـ فِي الاِرْتِشَافِ ـ مُدَامُ

---

(١) رفل : جر ذيله وتبختر ، قال الشاعر : «يرفلن فى سرق الحرير وقرّه» الخرائد ـ جمع خريدة ـ وهى المرأة الحيية ، وهى أيضاً اللؤلؤة التى لم تثقب ، قالوا : وكل عذراء خريدة ، والدمى ـ جمع دمية ـ وهى الصورة المنقشة المزينة فيها حمرة كالدم ، وقيل : هى من الرخام ، وقيل : هى من العاج ، وهى تضرب مثلا فى الحسن ، يقال « أحسن من الدمية »

(٢) قال الشريف :
« لو حيث يستمع السرار وقفتما لعجبتما من عزّه وخفوى . »

سَقَى جَنَبَاتِ الْقَصْرِ صَوْبُ الْغَمَائِمِ
وَغَنَّى عَلَى الْأَغْصَانِ وُرْقُ الْحَمَائِمِ
« بِقُرْطُبَةَ » الْغَرَّاءِ دَارِ الْأَكَارِمِ
بِلَادٌ بِهَا شَقَّ الشَّبَابُ تَمَائِمِى (١) وَأَنْجَبَنِى قَوْمٌ ـ هُنَاكَ ـ كِرَامُ

⁂

فَكَمْ لِىَ فِيهَا مِنْ مَسَاءٍ وَإِصْبَاحِ
بِكُلِّ غَزَالٍ مُشْرِقِ الْوَجْهِ وَضَّاحِ
يُقَدِّمُ (٢) أَفْوَاهَ الْكُؤُسِ بِتُفَّاحِ
إِذَا طَلَعَتْ ـ فِى رَاحِهِ ـ أَنْجُمُ الرَّاحِ فَإِنَّا ـ لِإِعْظَامِ الْمُدَامِ ـ قِيَامُ

⁂

وَيَوْمٍ لَدَى « النَّبْتِىِّ » فِى شَاطِئِ النَّهْرِ
تُدَارُ عَلَيْنَا الرَّاحُ فِى فِتْيَةٍ زُهْرِ (٣)
وَلَيْسَ لَنَا فَرْشٌ سِوَى يَانِعِ الزَّهْرِ
يَدُورُ بِهَا عَذْبُ اللَّمَا أَهْيَفُ الْخَصْرِ بِفِيهِ ـ مِنَ الثَّغْرِ الشَّنِيبِ ـ نِظَامُ (٤)

---

(١) التمائم ـ جمع تميمة ـ وهى عوذة تعلق على الأطفال محافة العين ، ومنه قول القائل : « من علق تميمة فلا أتم الله له » وقول الشاعر :

« وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفع . »

(٢) قدم فم الآنية وأقدمها جعل عليها القدام أى الغطاء .

(٣) زهر : مشرق الوجوه ، وقريب من هذا ـ فى باب الخمريات ـ قول أبى نواس :

« ودار ندامى عطلوها وأدلجوا بها أثر منهم جىّ ودارس
مساحب من جر الزقاق على الثرى وأضغاث ريحان جنى ويابس
حبست بها صحبى فجددت عهدهم وإنى على أمثال تلك لحابس
ولم أدر منهم غير ماشهدت به ـ بشرقى سابلط ـ الديار البسابس
أقمنا بها يوما ويوما وثالثا ويوما له يوم الترحل خامس
تدار علينا الراح فى عسجدية حسناء بأنواع التصاير فارس
قرارتها كسرى وفى جنباتها مها تدريها بالقسىّ الفوارس
فلاخمر ما زرّت عليه جيوبها ولاء ما دارت عليه القلانس »

(٤) الشنيب ـ من الشنب ـ وهو رقة أو هو عذوبة فى الأسنان ، وقيل نقط بيض فيها .

وَيَوْمٍ « بِجُوفِيِّ الرُّصَافَةِ » مُبْهِجٍ
مَرَرْنَا بِرَوْضِ الْأَقْحُوَانِ الْمُدَبَّجِ
وَقَابَلَنَا فِيـــهِ نَسِيمُ الْبَنَفْسَجِ
وَلَاحَ لَنَا وَرْدٌ(١) كَخَدٍّ مُضَرَّجٍ نَرَاهُ أَمَامَ النَّوْرِ وَهْوَ إِمَامُ

⁂

وَأُكْرِمْ بِأَيَّامٍ «الْعُقَابِ» السَّوَالِفِ(٢)
وَلَهْوٍ أَثَرْنَاهُ بِتِلْكَ الْمَعَاطِفِ
بِسُودِ أَثِيثِ الشَّعْرِ بِيضِ السَّوَالِفِ
إِذَا رَفَلُوا فِي وَشْيِ تِلْكَ الْمَطَارِفِ(٣) فَلَيْسَ - عَلَى خَلْعِ الْعِذَارِ - مَلَامُ

⁂

وَكَمْ مَشْهَدٍ عِنْدَ « الْعَقِيقِ » وَجِسْرِهِ
قَعَدْنَا عَلَى حُمْرِ النَّبَاتِ وَصُـــفْرِهِ
وَظَـــبْيٍ يُسَقِّينَا سُـــلَافَةَ خَمْرِهِ
حَكَى جَسَدِي - فِي السُّقْمِ - رِقَّةَ خَصْرِهِ لَوَاحِظُهُ - عِنْدَ الرُّنُوِّ - سِهَامُ

⁂

فَقُلْ لِزَمَانٍ قَدْ تَوَلَّى نَعِيمُهُ
وَرَثَّتْ - عَلَى مَرِّ اللَّيَالِي - رُسُومُهُ
وَكَمْ رَقَّ فِيـــهِ - بِالْعَشِيِّ - نَسِيمُهُ
وَلَاحَتْ لِسَارِي اللَّيْلِ فِيهِ نُجُومُهُ : « عَلَيْكَ مِنَ الصَّبِّ الْمَشُوقِ سَلَامُ »

---

(١) فى الأصل : « نجد »

(٢) السوالف — جمع سالفة — وهى صفحة العنق ، وقيل : ناحية مقدمها من لدن معاق القرط إلى الترقوة. وقد تقدم فى ص (٥٤) وما يليها شرح أمكنة ومعاهد بقرطبة منها (جوفى الرصافة) و(العقاب) فارجع إليها إن شئت .

(٣) المطارف — جمع مطرف — وهو رداء من خز مربع ذو أعلام .

سلوى المضطر

لَئِنْ قَصَّرَ الْيَأْسُ مِنْكِ الْأَمَلْ ... وَحَالَ تَجَنِّيكِ دُونَ الْحِيَلْ
وَنَاجَاكِ ـ بِالْإِفْكِ ـ فِيَّ الْحَسُودُ ... فَأَعْطَيْتِهِ ـ جَهْرَةً ـ مَا سَأَلْ
وَرَاقَكِ سِحْرُ الْعِدَا الْمُفْتَرَى ... وَغَرَّكِ زُورُهُمُ الْمُفْتَعَلْ
وَأَقْبَلْتِهِمْ فِيَّ وَجْهَ الْقَبُولِ ... وَقَابَلْتُهُمْ بِشْرُكِ الْمُقْتَبَلْ
فَإِنَّ ذِمَامَ الْهَوَى لَمْ أَزَلْ ... أُبَقِّيهِ[1] حِفْظًا كَمَا لَمْ أَزَلْ

* * *

فَدَيْتُكِ ـ إِنْ تَعْجَلِي ـ بِالْجَفَا ... فَقَدْ يَهَبُ الرَّيْثَ بَعْضُ الْعَجَلْ[2]
عَلَامَ أَطَبْتِكِ[3] دَوَاعِي الْقِلَى ؟ ... وَفِيمَ ثَنَتْكِ نَوَاهِي الْعَذَلْ ؟
أَلَمْ أَلْزَمِ الصَّبْرَ كَيْمَا أَخِفَّ ؟ ... أَلَمْ أُكْثِرِ الْهَجْرَ كَيْ لَا أُمَلْ
أَلَمْ أَرْضَ مِنْكِ بِغَيْرِ الرِّضَى ... وَأُبْدِي السُّرُورَ بِمَا لَمْ أَنَلْ ؟
أَلَمْ أَغْتَفِرْ مُوبِقَاتِ الذُّنُو ... بِ عَمْدًا أَتَيْتِ بِهَا أَمْ زَلَلْ ؟

---

(١) فى الأصل : « أبكيه »

(٢) فى هذا تضمين للمثل المشهور : « رب عجلة تهب ريثا » ، قالوا : وأصل المثل فيما حكاه المفضل الضبي أن مالك بن عوف بن أبى عمرو بن عوف بن محلم شام غيما فأراد أن يرحل بامرأته خماعة بنت عوف بن أبى عمرو ، فقال له مالك : أين تظعن يا أخى ؟ قال : أطلب موقع هـذه السحابة ، قال : لا تفعل فانه ربما خيلت وليس فيها قطر ، وأما أخاف عليك ، قال : لـكنى لست أخاف فمضى ، وعرض له عبسى وأعجله عن امرأته وجعلها بين نسائه ولم يكشف لها سترا ، فقال مالك بن سنان : مافعلت أحق ، قال : نفتنى عنها الرماح فقال مالك : رب عجلة تهب ريثاً ، وفروقة يدعى ليثا ، ورب غيث لم يكن غيثاً .

(٣) اطبتك : أعجبتك وراقتك . قال ابن دريد :

« ولا اطبى عينى ـ مذ فارقتهم ـ شىء يروق العين من هذا الورى . »

وَمَا سَاءَ ظَنِّيَ فِي أَنْ يُسِيءَ ... بِيَ الْفِعْلَ حُسْنُكِ حَتَّى فَعَلْ
عَلَى حِينِ أَصْبَحْتِ حَسْبَ الضَّمِيرِ ... وَلَمْ تَبْغِ مِنْكِ الْأَمَانِي بَدَلْ
وَصَانَكِ مِنِّي وَفِيٌّ أَبِيٌّ ... لِمِلْقِ الْعَلَاقَةِ أَنْ يُبْتَذَلْ

* * *

سَعَيْتِ لِتَكْدِيرِ عَهْدٍ صَفَا ، ... وَحَاوَلْتِ نَقْصَ وِدَادٍ كَمَلْ
فَمَا عُوفِيَتْ مِقَتِي (١) مِنْ أَذًى ... وَلَا أُعْفِيَتْ ثِقَتِي مِنْ خَجَلْ
وَمَهْمَا هَزَزْتُ إِلَيْكِ الْعِتَا ... بَ ظَاهَرْتِ بَيْنَ ضُرُوبِ الْعِلَلْ
كَأَنَّكِ نَاظَرْتِ أَهْلَ الْكَلَامِ ... وَأُوتِيتِ فَهْمًا بِعِلْمِ الْجَدَلْ
وَلَوْ شِئْتِ رَاجَعْتِ حُرَّ الْفَعَالِ ... وَعُدْتِ لِتِلْكَ السَّجَايَا الْأُوَلْ
فَلَمْ يَكُ حَظِّيَ مِنْكِ الْأَخَسَّ ... وَلَا عُدَّ سَهْمِيَ فِيكِ الْأَقَلَّ

* * *

عَلَيْكِ السَّلَامُ سَلَامَ الْوَدَاعِ ... وَدَاعَ هَوًى مَاتَ قَبْلَ الْأَجَلْ
وَمَا بِاخْتِيَارٍ تَسَلَّيْتُ عَنْكِ ، ... وَلَكِنَّنِي : مُكْرَهٌ لَا بَطَلْ (٢)
وَلَمْ يَدْرِ قَلْبِيَ كَيْفَ النُّزُوعُ ... إِلَى أَنْ رَأَى سِيرَةً فَامْتَثَلْ
وَلَيْتَ الَّذِي قَادَ عَفْوًا إِلَيْكِ ... أَبِيَّ الْهَوَى فِي عِنَانِ الْغَزَلْ
يُحِيلُ عُذُوبَةَ ذَاكَ اللَّمَا ... وَيَشْفِي مِنَ السُّقْمِ تِلْكَ الْمُقَلْ .

---

(١) مقتى : حمى .

(٢) يقول : إننى مرغم على السلو وليس لى فيه اختيار وفى المثل « مكره أخوك لا بطل » يضرب لمن يحمل على ما ليس من شأنه ، ولا هو داخل فى حدود استطاعته.

فى مدح المعتضـــد

« وقال أيضا يمدح المعتضد بالله المنصور بفضل الله أبا عمرو عباد بن محمد بن عباد . »

لِلْحُبِّ ـ فى تِلْكَ الْقِبَابِ ـ مَرَادُ[1] لَوْ سَاعَفَ الْكَلِفَ الْمَشُوقَ مُرَادُ
لِيَغُرْ هَوَاكَ فَقَدْ أَجَـــدَّ حِمَايَةً لِفَتَاةِ نَجْـــدٍ فِتْيَةٌ أَنْجَادُ[2]
كَمْ ذَا التَّجَلُّدُ ؟ لَنْ يُسَاعِفَكَ الْهَوَى بِالْوَصْلِ إِلاَّ أَنْ يَطُولَ نِجَادُ[3]
أَعَقِيلَةَ السِّرْبِ ! الْمُبَاحُ لِوِرْدِهَا صَفْوُ الْهَوَى إِذْ حُلِّئَ الْوُرَّادُ[4]
مَا لِلْمَصَايِدِ لَمْ تَنَلْكِ بِحِيـــلَةٍ ؟ إِنَّ الظِّبَاءَ لَتُدَّرَى[5] فَتُصَادُ
إِنْ يَعْدُ عَنْ سَمُرَاتِ جِزْعِكِ سَامِرٌ فى كُلِّ مُطَّلَعٍ لَهُمْ إِرْعَادُ[6]

---

(١) مكان ارتياد . (٢) ليغر : لينحدر إلى الغور ، والانجاد : جمع نجيد وهو الشجاع ذو النجدة والبأس . (٣) يقول : ما هـذا التجلد والصبر ؟ إنه لن يساعدك الهوى بالوصل ما لم تكن شجاعا طويل النجاد بحيث يهابك الأعداء ، وتستطيع زيارة هذه الحبيبة فى حى قومها رغم رقبهم ووعيدهم.
(٤) العقيلة : الكريمة من النساء المخدرة ، وحلئ الوراد : منعوا من ورود الهوى صفوا ، أى يا عقيلة بين سرب من النساء مباح لها ورد الهوى صافيا ممنوع غيرها من ورده ، وجواب النداء فى البيت بعده .
(٥) المصايد : بلا همز جمع مصيده كمعيشه ومعايش ، وتدرى : تفتعل من ادرى الصائد الصيد إذا ختله واحتال له ليصيده ، قال الشاعر :

« وماذا يدرى الشعراء منى وقد جاوزت حدّ الأربعين . »

وقال أبو نواس فى وصف كأس :

« قرارتها « كسرى » وفى جنباتها مها تدّريها ـ بالقسى ـ الفوارس . »

(٦) سمرات : جمع سمرة (بفتح فضم) ضرب من الشجر . قال امرؤ القيس :

« كأنى غداة البين ـ يوم ترحلوا ـ لدى سمرات الحى ناقف حنظل . »

وجزعك : أراد به جزع الوادى أى منقطعه الذى يقطعه عرضا إذا أراد زيارتها ، والسامر : مجلس السمر يقول : إن يعدنى ويمنعنى عن سمرات جزع واديك سمار من قومك لهم فى كل ثنية ومطلع إرعاد وإبراق وزجر وتخويف ، وجواب الشرط فى البيت بعده .

فَبِمَا تَرَقْرَقَ لِلْمُتَيَّمِ بَيْنَهَا ... غَلَلٌ شَفَى حَرَّ الْغَلِيلِ بُرَادُ (١)

أَنَا حِينَ أُطْرِقُ لَيْسَ يَفْتَأُ طَارِقِي ... شَوْقٌ كَمَا طَرَقَ السَّلِيمَ عِدَادُ (٢)

يَنْهَى جَفَاؤُكِ عَنْ زِيَارَتِيَ الْكَرَى ... كَيْلَا يَزُورَ خَيَالُكِ الْمُعْتَادُ

لَا تَقْطَعِي صِلَةَ الْخَيَالِ تَجَنُّبًا ... إِذْ فِيهِ مِنْ عَوَزِ الْوِصَالِ سِدَادُ (٣)

مَا ضَرَّ أَنَّكِ بِالسَّلَامِ ضَنِينَةٌ ... أَيَّامَ طَيْفُكِ بِالْعِنَاقِ جَوَادُ

هَلَّا حَمَلْتِ السُّقْمَ عَنْ جِسْمٍ لَهُ ... فِي كِلَّةٍ زُرَّتْ عَلَيْكِ فُؤَادُ

أَوْعُدْتِ مِنْ سَقَمِ الْهَوَى، إِنَّ الْهَوَى ... مِمَّا يُطِيلُ ضَنَى الْفَتَى فَيُعَادُ

إِيهًا ! فَلَوْلَا أَنْ أُرُوعَكِ بِالسُّرَى ... لَدَنَا وِسَادٌ أَوْ لَطَالَ سِوَادُ (٤)

---

(١) ترقرق : تحرك وجاء وذهب كما يرى فى ترقرق السراب والماء ومرند السيف ، والضمير فى «بينها» عائد على السمرات ، والغلل : الماء الذي يتغلل بين الشجر ، والغليل : العطش ، والبراد : البارد ، يقول : إن يمنعنى قومك من الوصول إليك فبمسيل الوادى الذى يتغلل ماؤه بين سمرات الحى ما يشفى غليلى ويبرد غلتى ، يريد أن الوصول إلى هذا المكان يطفئ حرارة الشوق عنده ، وقد ورد هذا البيت والذى قبله فى الأصل على هذه الصورة :

«إن يمدعن ثمرات جرثك سامر ... فى كل مطلع لهم إرهاد

فبما ترقرق للنسيم بينها ... غلل تو جر الليل براد . »

(٢) السليم : الملدوغ ، وعداد السليم : اهتياج الوجع عنده ، وذلك إذا تمت له سنة من يوم لدغ هاج به الألم ، أو عداده أن تعد له سبعة أيام فان مضت رجوا له البرء ، يقول : أنا حين أطرق برأسى مفكرا يطرقنى من ألم الشوق ما يطرق اللديغ هاج به الألم المعاود .

(٣) سداد : بالكسر هو كل شيء سددت به خللا ، ومنه سداد القارورة وهو صمامها الذى يسدّ به رأسها ، ويقال : سداد من عوز وسداد من عيش وهو ما تسد به الحاجة .

(٤) الوساد : المخدة والسواد : السرار مصدر ساودها مساودة وسوادا أى سارها مسارة وسرارا فأدنى سواده من سوادها ، وقيل لابنة الخس : « لم زنيت وأنت سيدة قومك » ؟ فقالت : « قرب الوساد ، وطول السواد . » وأرادت بطول السواد كثرة المسارة عند النوم لأن المسارة يلزمها قرب السواد من السواد ، أى دنوّ شخصها من شخصه ، وهو مثل يضرب للأمر يلقى صاحبه فيما يكره .

لَغَشِيتُ سَجْفَكَ فِي مُلَاءَةِ نَثْرَةٍ ... فُضُلٍ سِوَى أَنَّ الْعِطَافَ نِجَادُ (١)
لِأَمِيلَ فِي سُكْرِ اللَّمَا فَيَبِيتَ لِي ... ـ مِمَّا حَوَى ذَاكَ السِّوَارُ ـ وِسَادُ
فَعِدِي الْمُنَى، فَوَعِيدُ قَرْمِكِ لَمْ يَكُنْ ... لِيَعُوقَ عَنْ أَنْ يُقْتَضَى الْمِيعَادُ

* * *

أَصْبُو إِلَى وَرْدِ الْخُدُودِ إِذَا عَدَتْ ... جُرْدٌ ـ تُبَلِّغُنِي جَنَاهُ ـ وِرَادُ
وَأَرَاحُ لِلْعِطْرِ السَّطُوعِ أَرِيجُهُ ... إِنْ شِيبَ بِالْجَسِدِ الْعَطِيرِ جِسَادُ (٢)
عَزْمٌ إِذَا قَصَدَ الْحِمَى لَمْ يَثْنِهِ ... أَنَّ الْقَنَا ـ مِنْ دُونِهَا ـ أَقْصَادُ (٣)
مَنْ كَانَ يَجْهَلُ مَا الْبَلِيدُ، فَإِنَّهُ ... مَنْ تَطَّبِيهِ ـ عَنِ الْحُظُوظِ ـ بِلَادُ (٤)
وَفَتَى الشَّهَامَةِ مَنْ ـ إِذَا أَمَلٌ سَمَا ـ ... نَفَذَتْ بِهِ شُورَى أَوِ اسْتِبْدَادُ (٥)

* * *

مَنْ مُبْلِغٌ عَنِّي الْأَحِبَّـــةَ إِذْ أَبَتْ ... ذِكْرَاهُمُ أَنْ يَطْمَئِنَّ مِهَادُ
لَا يَأْسَ، رُبَّ دُنُوِّ دَارٍ جَامِعٍ ... لِلشَّمْلِ قَدْ أَدَّى إِلَيْهِ بِعَادُ (٦)

---

(١) السجف : الستر ، قالوا : أو هو الستران المقرونان بينهما فرجة ، أو هو كلّ باب ستر بستر مقرونين ، فكلّ شق سجف وسجاف ، ويقال : اسجف الستر أى أرسله ، والملاءة : الريطة ، والنثرة الدرع السلسلة الملبس أو الواسعة ، والفضل ـ كالفضلة ـ : الثياب التى تبتذل للنوم ، وثوب فضل أى واحد أو هو أن يخالف بين طرفيه فيجعلهما على عاتقه ويتوشح به ، والنجاد : حمائل السيف وضعها على عاتقه فكانت بدل العطاف ، يقول : لغشيت سجفك ، ودخلت عليك سترك فى درع واسعة كالملاءة ، فضل أى خالفت بين طرفيها فجعلتهما على عاتق حين توشحت بها ، أو فضل أى واحدة ليس على غيرها سوى ما وضعته على عاتق كالمطاف من نجاد السيف أى حمائله .

(٢) الجسد : الثوب المصبوغ بالزعفران أو المصفر ، والجساد : الزعفران ، قالوا : «والجسد والجساد : الزعفران » ويقال : أجسد ثوب فلان إجساداً فهو مجسد . يقول : إنى أرتاح وأنعم بعطرك الساطع إذا امتزج طيب الزعفران بثويك الأحمر المصبوغ بالزعفران أو الأصفر المصبوغ بالعصفر .

(٣) أقصاد : يقال تقصدت الرماح تكسرت ورمح أقصاد منكسر ، ورماح أقصاد متكسرة يوصف به الواحد والجمع ، يقول : إذا اعتزمت زيارتها ، وقصدت حماها لم يصرفنى عن عزمى أن الرماح تتكسر دون الوصول اليها ، وفى الأصل : « القنى . »

(٤) اطباه : ازدهاه ، وشآه وأعجبه .

(٥) وفى الأصل : « نفدت به شورى أو استبداد »

(٦) وفى الأصل : « لابأس »

إِنْ أَغْتَرِبْ فَوَاقِعَ الْكَرَمِ ـ الَّذِي ... فِي الْغَرْبِ شِمْتُ بُرُوقَهُ ـ أَرْتَادُ
أَوْ أَنَأَ ـ عَنْ صِيدِ الْمُلُوكِ بِجَانِبِي ـ ... فَهُمُ الْعَبِيدُ مَلِيكُهُمْ « عَبَّادُ » (١)
الْمَجْدُ عُذْرٌ فِي الْفِرَاقِ لِمَنْ نَأَى ... لِيَرَى الْمَصَانِعَ مِنْهُ كَيْفَ تُشَادُ (٢)
يَا هَلْ أَتَى مَنْ ظَنَّ بِي ـ فَظُنُونُهُ ... شَتَّى تَرَجَّحُ بَيْنَهَا الْأَضْدَادُ ـ
أَنِّي رَأَيْتُ « الْمُنْذِرَيْنِ » كِلَيْهِمَا ... فِي كَوْنِ مُلْكٍ لَمْ يُحِلْهُ فَسَادُ
وَبَصُرْتُ بِالْإِرْدَيْنِ إِرْثَ « مُحَرِّقٍ » (٣) ... ـ لَمْ تَخْلُقَا ـ إِذْ تَخْلُقُ الْأَبْرَادُ

---

(١) وفى الأصل :

« أو أناء عن صيد الملوك بجانبي ... فهم العبيد ملوكهم عباد . »

(٢) وفى الاصل : « المجد عذر فى العراق لمن نأى »

(٣) محرق

هو ـ كما فى شرح العيون ـ « عمرو بن المنذر بن ماء السماء » وهو « عمرو بن هند » وكان يعرف بأمه هند بنت الحرث بن حجر آكل المرار الكندى ، وكان يقال لعمرو مضرط الحجارة لشدّة بأسه ، وسمى محرقا لقصة استوفى أبو الفرج شرحها فى كتاب الأغانى ، وقال : كان قد عاقد حياطيّ على ألا ينازعوا ، ولايفاخروا ، ولاينوروا ، ثم أنه غزا اليمامة ورجع معتبطاً ومربطيّ ، فقال له زرارة بن عدس التميمى ، وكان من خواصه أبيت اللعن أصبّ من هذا الحى شيئاً ، فقال ويلك إن لهم عقداً . قال وإن كان لهم ، فلم يزل به حتى أصاب نسوة وأدواداً ، فقال فى ذلك قيس بن وجرة الطائى :

« أراك ابن هند لم تعقك أمانة ... وما المرء إلا عهده وموائقه
فأقسمت جهدى بالأباطح من منى ... وما خب فى بطحائهنّ درادقه
لئن لم تعير بعض ما قد فعلته ... لانتحين للعظم ذو أنت عارقه . »

سمى عارقا بهذا البيت وبلغ الشعر عمرو بن هند ، فقال له زرارة بن عدس أبيت اللعن أيتوعدك ؟ فقال عمرو لرميلة بن شعار الطائى أيهجونى ابن عمك ويتوعدنى . قال لاوالله ماهجاك ، ولكنه قال :

« والله لو كان ابن جفنة جاركم ... ما إن كساكم ضيعة وهوانا . »

وأراد رميلة أن يسل سخيمته ، فقال والله لأقتلنه ، فبلغ ذلك عارقا ، فقال ملمشداً :

« أيوعدنى والرمل بينى وبينه ... تبين رويداً ما امامة من هند
غدرت بعهد كنت أنت أخذتنا ... عليه وشر الشيمة الغدر بالعهد
وقد يترك الغدر الفتى وطعامه ... إذا هو أمسى جلد من دم الفصد . »

فبلغ عمرو بن هند قوله فغز اطياً فاسراً سرى من بنى عدى بن أخزم رهط حاتم ، فوفد حاتم عليه وسأله فى الأسرى فأطلقهم له ، وكان المنذرين ماء السماء أبو عمرو قد وضع ابناً له صغيراً يقال له مالك عند زرارة

. . . . . .

ابن عدس ، وأن مالكا خرج وما يتصيد فأخفق ولم يجد شيئاً ، فرجع فمرّ بابل لرجل من بني عبدالله بن دارم يقال له سويد ، وكان عند سويد ابنة زرارة ، فولدت له سبعة غلمة ، فأمر مالك بن المنذر بناقة سمينة منها فنحرها ، ثم اشتوى وسويد نائم ، فلما انتبه شدّ على مالك بعصا فضربه فأمته ، فمات وخرج سويد هاربا حتى لحق بمكة ، وكانت طي تطلب عنزة بن زرارة وبني أبيه حتى بلغهم ماصنعوا بأخي الملك ، فقال ثعلبة بن عمرو الطائي :

« من مبلغ عمراً بأن المرء لم يخلق صباره
وهوادن الأيام لا تبقي لها إلا الحجاره
أن ابن عمرو أمته بالسفح أسفل من أواره
تسفي الرياح خلال كشحيه وقد سلموا اراره
فاقتل زرارة لا أرى في القوم أوفى من زراره. »

فلما بلغ هذا الشعر عمرو بن هند بكى وفاضت عيناه ، وبلغ الخبر زرارة فهرب وركب عمرو في طلبه فلم يقدر عليه ، فأخذ امرأته وهي حبلى ، فقال أذكر في بطنك أم أنثى ؟ قالت لا علم لي بذلك فبقر بطنها ، فقال قوم زرارة لزرارة والله ماقتل أخا الملك بأنه بأصدقه الخبر ، فأتاه فتنصل إليه ، فقال علي بسويد ، فقال إنه لحق بمكة ، قال فعلي ببنيه ، فأتاه ببنيه السبعة وأمهم بنت زرارة غلمة بعضهم فوق بعض ، فأمر بقتلهم ، فتناولوا أحدهم فضربوا عنقه وتعلق بزرارة الآخرون ، فقال زرارة : يابعضي ، فذهبت مثلا وقتلوا وآلى عمرو بن هند ألية ليحرقن من بني حنظلة مائة رجل ، فخرج يريدهم وبعث على مقدمته عمرو بن ثعلبة الطائي فوجد القوم قد أنذروا فأخذ منهم ثمانية وتسعين رجلا بناحية البحرين فجمعهم ولحقه ابن هند فضربت قبته وأمر لهم باحدود ثم أضرم فيه ناراً ، فلما احتدمت وتلظت قذف بهم فيه فاحترقوا فأقبل راكب من البراجم وهم بطن من بني حنظلة لا يدري بشيء مما كان يصنع بعيره فأحد وأتى في النار وأقام عمرو بن هند لايرى أحداً ، فقيل له لو تحللت بامرأة منهم فقد أحرقت تسعة وتسعين رجلا ، فدعا بامرأة من بني حنظلة ، فقال لها من أنت ؟ قالت الحمراء بنت ضمرة ، فقال إني لأظنك أعجمية ؟ فقالت : ما أنا بأعجمية ولا ولدتني العجم :

« إني لبنت ضمرة بن جابر سادا معدا كابرا عن كابر. »

فقال عمرو : أما والله لولا مخافتي أن تلد مثلك لصرفتك عن النار ، فقالت : « أما والذي أسأله أن يضع وسادك ويخفض عمادك ، ماتقتل الا نساء أعاليها ثديّ ، وأسافلها دمي. » قال اقذفوها في النار فالتفتت وقالت : ألا فتى يكون مكان عجوز ، فلما أبطئوا عليها قالت : هيهات صار الفيان حمما وسمي من ذلك اليوم محرقاً ، ومن ملوك جفنة أيضا المحرق لكنه غير صاحب البردين — فأما أمر البردين فحكي أن الوفود اجتمعت عند محرق فأخرج بردين من لباسه يلبو الوفود وقال ليقم أعزّ العرب قبيلة فليأخذهما ، فقام عامر بن أحيمر فأخذهما فأتزر بالواحد وارتدى بالآخر ، فقال له أنت أعزّ العرب قبيلة ؟ قال العز كله في معد والعدد في معد ، ثم في نزار ، ثم في مضر ، ثم في خندف ، ثم في تميم ، ثم في سعد ، ثم في كعب ، ثم في بهدلة فمن أنكر هذا فلينا فرنى فسكت الناس ، فقال هذه عشيرتك كما تزعم فكيف أنت في نفسك وأدل بيتك ؟ قال أما أبو عشرة ، وأخو عشرة ، ، وعم عشرة ، وخال عشرة ، وها أنا في نفسي وشاهد العز شاهدي ، ثم وضع قدمه على الأرض وقال من أزالها من مكانها فله عشرة من الابل فلم يقم إليه أحداً ، وخرج بالبردين فضربت العرب بعزه المثل وببرديه .

وَعَرَفْتُ مِنْ ذِي الطَّوْقِ عَمْرٍو (١) ثَأْرَهُ لِجَذِيْمَةَ الْوَضَّاحِ (٢) حِينَ يُكَادُ

---

(١) عمرو « ذو الطوق »

انظر ص « ١٤٥ » من هذا الديوان .

(٢) جذيمة الوضاح أو الأبرص

هو جذيمة بن مالك بن عامر التنوخى ، وقيل الأردى أوّل من قاد العرب وملك على قضاعة ، وكانت منازله الحيرة والانبار وولايته من قبل اردشير بن بابك ، وكان أبرص فعدل عن هذا الاسم ، فقيل الأبرش والوضاح ، وزعم بعضهم أنه كان يأنف من اسم الأبرص ، ولذلك كنى عنه بالأبرش ، وفى العرب من يفتخر بذلك . قال الراجز يمدح أبرص :

« أبرص فياض اليدين أكلف والبرص أدرى بالها وأعرف . »

وهو أوّل من صنع له الشمع وأدلج من الملوك ، وكان ذا رأى وهمة وتيه مفرط ، ويقال له ندم الفرقدين كان إذا شرب قدحاً صب لهما قدحين ولا ينادم غيرهما ، وكان سبب ذلك فيما زعموا أنه كان تكهن واتخذ صنمين يقال لهما العريان يستسقى بهما وينتصر على أعدائه ، وكانت اياد قد خرج قوم منهم من الحجاز وانتشروا فيما بين البصرة والكوفة وتمكنوا على ما بلى الحيرة وكثروا بعين أباغ ، فخرج جذيمة غازياً ، وكان فى اياد رجل يقال له عدىّ بن نصر ، وكان له ظرف وجمال ، وإليه تنسب الملوك من آل نصر ، فنزل جذيمة بساحتهم ، فبعثت اياد قوماً منهم إلى صنمى جذيمة فسقوا سدنتهم الخمر وسرقوهما فأصبحوا بهما فى اياد ، وبعثت اياد إلى جذيمة تقول : إن صنميك قد أصبحا عندنا زهداً فيك ورغبة فينا ، فان عاهدتنا على أن لا ترونا رددناهما إليك ، فقال جذيمة وتعطونى أيضاً عدىّ بن نصر يكون عندى فنعلوا وانصرف عنهم ، وضم عديا إلى نفسه وولاه شرابه وأمر مجلسه ، وكان لجذيمة أخت تسمى رقاش وهى بكر ، فأحبت عديا وأحبها ، فسألته أن يخطبها من جذيمة إذا سكر ففعل ذلك وزوّجه بها وأشهد عليه من حضر ، فلما أصبح دخل عليه بثياب العرس ، وكان قد دخل بها تلك الليلة ، فقال جذيمة ما هذه الآثار ياعدىّ ؟ فقال آثار عرس رقاش ، فقال من زوّجكها ويحك ؟ قال الملك ، فأكبّ على الأرض مفكراً وهرب عدىّ فلم يعرف له أثر ولا خبر ، وأرسل جذيمة إلى أخته يقول :

« خبرينى رقاش لا تكذبينى أبحر زنيت أم بريبين
أم بعبد فأنت أهل لعبد أم بدون فأنت أهل لدون . »

قالت بل أنت زوّجتنى امرأ غريباً ولم تشاورنى فى نفسى ، فكفّ عنها وآلى أن لا ينادم إلا الفرقدين وحملت رقاش غلاماً وسمته عمرا ، فلما ترعرع ألبسته وعطرته ودخلت به على خاله ، فلما رآه أحبه وحمله مع ولده وخرج جذيمة متنديا بأهله فى سنة خصبة ، فأقام فى روضة ذات زهر ونهر ، فخرج ولده وعمرو معهم يجتنون الكمأة ، فكانوا إذا أصابوا كمأة جيدة أكلوها ، وإذا أصابها عمرو خبأها وانصرفوا إلى جذيمة يتعادون وعمرو يقول : هذا حناى وخياره فيه ، إذ كلّ جانٍّ يده إلى فيه ، فصمه جذيمة إلى صدره وسرّ بقوله وحلاه بطوق من ذهب ، فكان أوّل عربى لبس الطوق ، ثم إن الجن استطارته فطلبه جذيمة فى الآفاق زماناً فلم يقدر عليه ، ثم أقبل رجلان من قضاعة يقال لهما مالك وعقيل ابنا فارج من الشام يريدان جذيمة وأهديا له طرفا ، فبينما هما يأكلان إذ أقبل فتى حريان قد تلبد شعره فعرفهما نفسه فنهضا وغسلا

وَأَتَى بِيَ النُّعْمَانَ (١) ـ يَوْمَ نَعِيمِهِ ـ نَجْمٌ تَلَقَّى سَعْدَهُ الْمِيلَادُ
قَدْ أُلِّفَتْ أَشْتَاتُهُمْ فِي وَاحِدٍ إِلَّا يَكُنْهُمْ أُمَّةً فَيَكَادُ (٢)

رأسه وأصلحا أمره وألبساه ثياباً ، وقالا ما كنا لنهدى جذيمة أنفس من ابن أخته ، وخرجا به إلى جذيمة فسرّ به ورأى الطوق ، فقال شب عمرو عن الطوق فذهبت مثلا ، وقال لملك وقيل حكيمكما قالا منادمتك ما بقينا وبقيت فكنهما من ذلك وهما نديما جذيمة اللذان يضرب بهما المثل وإياهما عنى متمم بن نويرة بقوله فى رثاء أخيه :

« وكنا كندماى جذيمة حقبة من الدهر حتى قيل لن يتصدعا . »

وقيل إنما عنى الفرقدين، ويحكى أن جذيمة سكر مرّة أخرى فقتلهما، فلما أصبح ندم ، وبنى عليهما النريين ونادم الفرقدين وقيل إن صاحب الفريين المنذر الأكبر ، ثم إن جذيمة أرسل يخطب الزباء ملكة الحضر الحاجز بين الفرس والروم، وكانت لبيبة وترعنده فأجابته واستدعته إليها، فاستشار أصحابه فأشاروا عليه بالمضىّ فخالفهم فصير ابن سعد ، وكان لبيباً ، وقال : إنّ النساء يهدين إلى الأزواج فعصاه وسار حتى إذا كان بمكان يدعى بقة استشارهم فأشاروا عليه لما يعلمون من رأيه فيها ، فقال قصير انصرف ودمك فى وجهك فأبى ، وظعن جذيمة حتى إذا عاين الكتائب قد استقبلته . قال لقصير ما الرأى ؟ قال تركت الرأى ببقة ، ثم ركب قصير فرساً لجذيمة تسمى العصا فنجا وأخذ جذيمة ، فلما أدخل على الزباء أمرت برواهشه فقطعت والرواهش عروق اليد واستنزفته حتى مات فى خبر طويل مشهور ، وكانت مدّة ملكه ستين سنة ، وله أشعار حسنة مشهورة فمنها :

« أضحى جذيمة فى يبرين منزله قد حاز ما جمعت من قبله عاد
مستعمل الخير لا تفنى زيادته فى كل يوم وأهل الخير تزداد . »

(١) النعمان

قالوا إن النعمان كان له نديمان فغضب عليهما فقتلهما ، فلما أصبح ندم على ذلك أشدّ الندم ، فبنى على قبريهما ضريحين ، وجعل لنفسه يومين فى كلّ عام يجلس فيهما بجوار القبرين أحدهما يوم نعيم ، والآخر يوم بؤس . فأوّل من يطلع عليه فى يوم النعيم يعطيه مائة من الابل ، وأوّل من يطلع عليه فى يوم بؤسه يقتله ويطلى بدمه ضريحى نديميه .

وقد ذكروا مثل ذلك عن المنذر بن ماء السماء ، وقالوا إنه لقى «عبيد بن الأبرص» فى يوم بؤسه فقتله . فقال له جملته التى صارت مثلا فيما بعد وهى قوله : « حال الجريض دون القريض » .

(٢) يقول : قد اجتمع هؤلاء الأعلام الذين أزدانت بهم السير فى شخص واحد هو الممدوح ، فاذا لم يكن أمة مجتمعة فيه صفاتهم ومزاياهم فهو يكاد أن يكون .

وقديماً قال القائل :

« ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم فى واحد . »

فَكَأَنَّنِي طَالَعْتُهُمْ بِوِفَادَةٍ لَمْ يَسْتَطِعْهَا « عُرْوَةُ » الْوَفَّادُ (١)

(١) عروة الوفاد

نلخص هنا طرفا من أخباره عن كتاب الأغانى فنقول :

هو عروة بن الورد بن زيد ، وقيل : ابن عمرو بن زيد بن عبد الله بن ناشب بن هرم بن لديم بن عوذ بن غالب بن قطيعه بن عبس بن بغيض بن الريث بن غطفان بن سعد بن قيس بن عيلان بن مضر بن نزار ، شاعر من شعراء الجاهلية ، وفارس من فرسانها ، وجواد من أجوادها المقدمين ، وكان يجمع الصعاليك ويقوم بأمرهم إذا أخفقوا فى غزواتهم ولم يصيبوا معاشا ، ولذلك سمى عروة الصعاليك

ورووا عن عبد الملك بن مروان أنه قال : ما يسرنى أن أحدا من العرب ولدنى ممن لم يلدنى إلا عروة ابن الورد لقوله :

« إنى امرؤ عافى إنائى شركة وأنت امرؤ عافى إنائك واحد
أتهزأ منى أن سمنت وأن ترى بجسمى مس الحق والحق جاهد
أفرق جسمى فى جسوم كثيرة وأحسو قراح الماء والماء بارد . »

ويقال أيضا : إن عبد الملك قال : من زعم أن حاتما أسمح الناس فقد ظلم عروة بن الورد . قالوا : وكان إذا أصابت الناس سنة شديدة تركوا فى دارهم المريض والكبير والضعيف ، وكان عروة يجمع هؤلاء وأشباههم ثم يحفر لهم الأسراب ، وينحد لهم حظائر يكفهم عليهم و ؤيهم إليها ، ومن قوى منهم بأن يرعى من مرعاه أو ثابت إليه قوته خرج به معه فأغار ، وجعل لأهل الضعف من أصحابه الباقين نصيبا ، وعن ابن الأعرابى قال : أجدب ناس من بنى عبس فى سنة أصابتهم فأهلكت أموالهم وأصابهم جوع شديد وبؤس ، فأتوا عروة بن الورد فجلسوا أمام بيته ، فلما بصروا به صرخوا وقالوا : يا أبا الصعاليك ، أغثنا ، فرق لهم وخرج يغزو بهم ويصيب معاشا فنهته امرأته عن ذلك لحونها عليه من الهلاك ، فعصاها وخرج غاريا ، فر بمالك بن حمار الفزارى فنحر له جزورا فأكل منها هو وأصحابه ، وأشار عليه مالك أن يرجع فعصاه ، ومضى حتى انتهى إلى بلاد البين فأغار عليهم فأصاب هجمة عاد بها على نفسه وأصحابه

وقال فى ذلك :

« أرى أم حسان المداة تلومنى تخوفنى الأعداء والنفس أخوف
تقول سليمى لو أقمت لسرنا ولم تدر أنى للمقام أطرف
لعل الذى خوفتنا من أمامنا يصادفنه فى أهله المتخلف . »

وقال فى ذلك أيضا :

« أليس ورائى أن أدب على العصا فيشمت أعدائى ويأمن أهلى
رهينة قعر البيت كل عشية يطيف بى الولدان أهدج كالرأل
أقيموا بنى أمى صدور ركابكم فكل مايا النفس خير من الهزل
فانكموا لن تبلغوا كل همتى ولا أربى حتى تروا منبت الأثل
لعل ارتيادى فى البلاد وحيلتى وشدى حيازيم المطية بالرحل
سيدفعنى يوما إلى رب هجمة يدافع عنها بالعقوق وبالبخل . »

فى قَصْرِ مَلْكٍ كَالسَّدِيرِ(١) أَوِ الَّذِى نَاطَتْ بِهِ شُرُفَاتِهَا سِنْدَادُ(٢)

(١) السـدير

« السـدير » قصر ــ وهو معرب ــ قالوا « وأصله بالفارسية « سه دل » أى قبة فيها ثلاث قباب متداخلة » فعربته العرب ، فقالوا : « سـدير » قالوا : « وهو موضع معروف بالحيرة » وقالوا : « هو قصر قريب من « الخورنق » كان النعمان الأكبر اتخذه لبعض ملوك العجم .

وسيأتى ذكره فى شعر الأسود بن يعفر عند الكلام على « سنداد » فى شرح هذه القصيدة .

وقد ذكره « عبـد المسيح بن عمرو » عند غلبة « خالد بن الوليد » والمسلمين على « الحيرة » فى خلافة أبى بكر فقال :

« أبعد المنذرين أرى سواما تروّح بالخورنق والسـدير
تحاماه فوارس كل حى مخافة أغلب عالى الزئـير
فصرنا بعد ملك « أبى قبيس » كمثل الشاء فى اليوم المطـير
تقسمنا القبائل من « معد » كأنا بعض أعضاء الجزور »

وقال المخبل فى قصيدته المشهورة :

« فاذا سكرت ، فانني رب الخورنق والسـدير
وإذا صحوت ، فانني ربّ الشويهة والبعير . »

(٢) سـنداد

« سنداد » قصر بالمذيب وهو المقصود هنا ، وسنداد ــ فى رواية أبى الحسـين الأديبى : نهر ، وقد استدلّ على ذلك بقول أبى دؤاد الايادى :

« أقفر الدير فالأجارع من قو مى ، فروق ، فرامح ، فخفيه
فتلاع الملا إلى جرف سـندا د ، فقوّ ، إلى نعاف طميه
موحشات ــ من الأنيس ــ بها الوحـ ش خناطيل موطن أو بنيه . »

قالوا : وسئل عنـه « أبو عمرو » أهو بفتح السين أو كسرها ، فقال : « بفتح السين » وعن صاحب التكملة : بفتح السين وسماعى بالكسر .

وفى رواية « السكونى » : « سنداد منازل لاياد نزلتها لما قاربت الريف ، بعد لصاف وشرج وناظرة ، وهو أسفل سواد الكوفة ، وراء نجران الكوفة .

قال حمزة فى تاريخه : « وكان قد تملك فى القديم من الفرس على مواضع متفرقة من أرض العرب ستة عشر مرزبانا ، وقد ذكرهم صاحب معجم البلدان « ج ٥ ص ١٥٠ » إلى أن قال : « ثم تملك سنداد على عمل سخت ، ومقامه فى الريف حتى بنى فيه أبنية : وهو صاحب القصر ذى الشرفات من « سنداد » الذى يقول فيه « الأسود بن يعفر » « والقصر ذى الشرفات من سنداد »

تَتَوَهَّمُ الشَّهْبَاءَ فِيهِ كَتِيبَةً ... بِفِنَاءِ ، الْيَحْمُومُ فِيهِ جَوَادُ
يَخْتَالُ مِنْ سَيْرِ الْأَشَاهِبِ وَسْطَهُ ... بِيضٌ كَمُرْهَفَةِ السُّيُوفِ جِمَادُ (١)

* * *

فِى «آلِ عَبَّادٍ» حَطَطْتُ فَأَعْصَمَتْ ... هِمَمِي بِحَيْثُ أَنَافَتِ الْأَطْوَادُ
أَهْلُ الْمَنَاذِرَةِ الَّذِينَ هُمُ الرُّبَا ... فَوْقَ الْمُلُوكِ إِذِ الْمُلُوكُ وِهَادُ (٢)
قَوْمٌ إِذَا عَدَّتْ مَعَدٌّ عَقِيلَةً ... مَاءِ السَّمَاءِ ، فَهُمْ لَهَا أَوْلَادُ
بَيْتٌ تَوَدُّ الشُّهْبُ فِى أَفْلَاكِهَا ... لَوْ أَنَّهَا - لِبِنَائِهِ - أَوْتَادُ

قال ابن الكلبي :

وكانت « إياد » تنزل سنداد — وهو نهر فيما بين « الحيرة » إلى « الابلة » وكان عليه قصر تحج العرب إليه ، وهو القصر الذى ذكره الأسود بن يعفر .

قالوا : ومرّ « عمر بن عبد العزيز » بقصر لآل حفنة فتمثل « مزاحم » مولاه بقول « الأسود ابن يعفر النهشلي » :

« ومن الحوادث — لا أبالك — أنني ... ضربت على الأرض بالأسداد
لا أهتدى فيها لمدفع تلعة ... بين العراق وبين أرض مراد
ماذا أؤمل — بعد آل محرّق — ... تركوا منازلهم وبعد إياد
أهل الخورنق والسدير وبارق ... والقصر ذى الشرفات — من سنداد
حلوا بأنقرة يسيل عليهم ... ماء الفرات يجيء من أطواد
أرض تخيرها — لطيب مقيلها — ... كعب بن مامة وابن أم دؤاد
جرت الرياح على عراص ديارهم ... فكأنما كانوا على ميعاد
ولقد غنوا فيها بأفضل عيشة ... فى ظل ملك ثابت الأوتاد
فاذا النعيم وكل ما يلهى به ... يوماً يصير إلى بلى ونفاد . »

فقال له عمر : ألا قرأت : « كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ، ونعمة كانوا فيها فاكهين كذلك وأورثناها قوماً آخرين »

(١) يقول يختال القصر من سير الجداول وسطه متجددة كبيض السيوف المرهفة ، وفى الأصل :

« يختال من سر الأشاهب وسطه ... بيض كرهفه السيوف جماد . »

(٢) قريب من هذا المعنى قول ابن دريد :

« هم الشماريخ المنيفات الذرى ... والناس ضحضاح ثماب وأضى . »

مَمْدُودَةٌ بِلُهَى (١) النَّدَى أَطْنَابُهُ ... مَرْفُوعَةٌ - بِالْبِيضِ - مِنْهُ عِمَادُ

مُتَقَادِمٌ إِلَّا تَكُنْ شَمْسُ الضُّحَا ... لِدَةٌ لَهُ ، فَنُجُومُهَا أَرْآدُ (٢)

نِيطَتْ « بِعَبَّادٍ » لَآلِئُ مَجْدِهِمْ ... فَتَلَأْلَأَتْ - فِي تُومِهَا (٣) - الْأَفْرَادُ

مَلِكٌ إِذَا افْتَنَّتْ صِفَاتُ جَلَالِهِ ... فَتَقَاصَرَتْ عَنْ بَعْضِهَا الْأَعْدَادُ

نَسِيَتْ زَبِيدٌ (٤) عَمْرَهَا بَلْ أَعْرَضَتْ ... .

---

(١) اللهى : العطايا :

(٢) أرآد — جمع رأد — يقال رأد الضحى : أى ارتفاعه ورأد الأرض : خلاؤها ، قال الطغرائى :

« مجدي أخيرا ومجدى أولا شرع ... والشمس رادالضحى كالشمس فى الطفل. »

(٣) التوم : جمع تومة وهى اللؤلؤة ، وسميت تومة لأنها توءمة نظيرتها فى العقد أو فى الأذن ،والافراد: جمع فرد وهو ما لانظير له فى العقد يقال: فرد وفريد ، ويقال : تام أخاه أى ولد معه ، فهو تئمة، وتوءمه.

(٤) عمرو بن معديكرب الزبيدى

ويضرب المثل باقدامه وشجاعته .

اقـــدام عمر فى سماحة حاتم ... فى حلم أحنف فى ذكاء إياس. »

هو — كما فى سرح العيون — عمرو بن معديكرب بن عبد الله الزبيـدى ، وكنيته « أبو ثور » الفارس المشهور صاحب الغارات والوقائع المذكورة فى الجاهلية والاسلام ، وفد على رسول —صلى الله عليه وسلم — فى السنة العاشرة من الهجرة .

قال عمرو :

قدمت المدينة ، فرأيت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فافلا من « تبوك » فأردت أن أدنو إليـه ، فمنعنى من حوله .

فقال : « دعوه » فدنوت منه ، فقلت :

« أنعم صباحا أبيت اللعن »

فقال : « ياعمرو أسلم تسلم ويؤمنك الله من الفزع الأكبر » فأسلمت

وعاش « عمرو » إلى أيام عثمان ، وأبلى فى وقائع الاسلام بلاء حسنا مثل وقعة القادسية ، وهو الذى ضرب خطم الفيل بالسـيف فانهزم وانهزمت الأعاجم ، وكان سبب الفتح ومثل وقعة اليرموك وغيرها ، قال الحثعمى مارأيت أشرف من رجل يوم اليرموك خرج له علج فقتله ، ثم آخر فقتله ثم انهزموا فتبعهم وتبعته ، ثم انصرف إلى خباء له أسود فنزل فدعا بالجفان ودعا من حوله ، قلت من هذا ؟ قالوا عمرو بن معديكرب ، وحدث بن أبى حاتم . قال سمرنا يوم القادسية بعمرو بن معديكرب وهو يحضّ الناس بين الصفين ويقول : أيها الناس كونوا أشد مناشاً إنّ هذا الرجل من الأعاجم إذا لقى مزراقا فانما هو تس ، فبينما هو كذلك يحرضنا إذ خرج رجل من الأعاجم فوقف بين الصفين فرماه بنشابة ، فما أخطأت سية قوس كان متنكبها فالتفت ، ثم حمل عليه فاعتنقه ، ثم أخذ بمنطقته فاحتمله فوضعه بين يديه وجاء حتى إذا دنا منا كسر عنقه ،

. . . . . .

ثم أمر الصمصامة على حلقه فذبحه ونزع سواريه ومنطقته وألقاه، وقال : « هكذا فاصنعوا بهم » فقلنا : « من يستطيع يا أبا ثور أن يصنع كما تصنع ؟ » وحكى أبو عبيدة قال : لما كان فتح القادسية أصاب المسلمون أموالا عظيمة فعزل سعد بن أبي وقاص الخمس ثم قسم البقية فأصاب الفارس ستة آلاف وبقي مال دثر ، فكتب إلى عمر بما فعل فكتب إليه أن رد على المسلمين الخمس وأعط من لحق بك ممن لم يشهد الوقعة ففعل ذلك ، ثم كتب إليه أن أعط ما بقي حملة القرآن ، وأتاه عمرو بن معديكرب ، فقال ما معك من حفظ القرآن ؟ قال : إني أسلمت ، ثم شغلت بالحرب عن حفظ القرآن ، وقيل أتاه بشر بن ربيعة ، فقال له ما معك من حفظ القرآن ؟ قال معي بسم الله الرحمن الرحيم ، فضحك القوم ، فقال سعد مالك في هذا المال من شيء ولا من نصيب ؟ فقال عمرو منشداً :

« إذا قتلنا ولا يبكي لنا أحد قالت قريش ألا تلك المقادير
نعطى السوية من طعن له نفذ ولا سوية إذ تعطى الدنانير. »

وقال بشر أبياتاً، وكتب سعد إلى عمر بما قالا ، فكتب إليه : « أعطهما على بلائهما » فأعطاهما أربعة آلاف درهم ، وحكى المدائني قال: كان عمرو بن معديكرب في سرية أميرها سلمان بن ربيعة فعرض الخيل ، فمرّ عمرو على فرس له ، فقال هذا هجين ، فقال عمرو عتيق . قال فأمر به فمشى ، ثم دعا بترس ، فقلب فيه ماء فدعا بخيل عتاق فشربت فجاء فرس عمرو ، فثنى يديه وشرب وهكذا يصنع الهجين ، فقال له ألا ترى ؟ فقال عمرو أحل الهجين يعرف الهجين ، فبلغ عمر ، فكتب إليه قد بلغني ما قلت لأميرك ، وبلغني أن لك سيفاً تسميه الصمصامة وعندي سيف مصمصم والله لئن وضعته على عاتقك لا أقلع حتى أبلغ به شراسيفك فانّ سرّك أن تعلم أحق ما أقول فعد ، ويروى أن عمر رضي الله عنه سأله يوماً ، فقال ماتقول في الحرب ؟ قال مرّة المذاق إذا كشفت عن ساق ، في صبر ظرف ، ومن ضعف تلف . قال فما تقول في الرمح ؟ قال خليلك وربما خانك . قال فالنبل ؟ قال منايا تخطئ وتصيب . قال فالترس ؟ قال عليه تدور الدوائر . قال فالسيف ؟ قال عبدك تملكك أمك . قال عمر بل أمك ، فقال الحي أصرعتني ، فأغلظ له عمر في الكلام ، فقال :

« أتوعدني كأنك ذو رعين بأنعم عيشة أو ذي نواس
فلا تفخر بملكك كل ملك يصير لذلة بعد الشماس . »

فقال عمر صدقت فاقتص مني قال يا أمير المؤمنين لولا آية سمعتها منك لحللتك بالسيف أخذ منك أم ترك ، قال وما هي ؟ قال سمعتك تقرأ أنه من يأت ربه مجرماً فانّ له جهنم لا يموت فيها ولا يحيا ، والله لو علمت اني إذا دخلتها مت لعملت ، وحكى أنّ عيينة بن حصن لما قدم الكوفة أقام أياماً ، ثم قال : والله مالي بأبي ثور عهد ، ثم ركب فرساً وسأل عن محلة بني زبيد فأرشد إليها وسأل عن عمرو فوقف ببابه ، ثم قال : يا أبا ثور اخرج إلينا فخرج مؤتزراً كأنما كسر وجبر، فقال له انعم صباحاً أبا مالك ؟ فقال أوليس قد بدلنا الله تعالى بهذا السلام عليكم ، فقال دعنا مما لا نعرف انزل فانّ عندي كبشاً سمينا فنزل فعمد إلى الكبش فذبحه ثم ألقاه في قدر وطبخه ، وجلس يتحدث إلى أن أدرك فثرد في جفنة عظيمة وألقى الفدر عليها وقعدا فأكلا منها ثم قال : أي الشراب أحبّ إليك اللبن أم ما كنا نتنادم عليه في الجاهلية ، فقال أو ليس حرمها الله تعالى في

. . . . . .

الاسلام ، فقال: أنت أقدم إسلاما أم أنا ؟ قال: أنت ، قال: فانى قد سمعت ما بين دفتى المصحف فوالله ماوجدت لها تحريماً إلا انه قال : هل أنتم منتهون. فقلت: «لا» ثم جاء بنبيذ وجلسا يشربان ويتحدثان ويذكران أيام الجاهلية حتى أمسيا ، فلما أراد عيينة الانصراف . قال عمرو إن انصرف أبو مالك بير حياء إنها لوصمة فأمر له بناقة أرحبية وحمله عليها ثم أتى بمزود فيه أربعة آلاف درهم فوضعه بين يديه ، فقال أما المال فوالله لا آخذه ولا ألمسه ، فانصرف وهو يقول :

« جريت أبا ثور جزاء كرامة فنعم الفتى أنت المزور المضيف . »

وقيل انه لم يكن فى عمرو خصلة رديئة إلا الكذب ، حكى أبو عمرو بن العلاء ، قال: وقف عمرو يوماً بالمربد يتحدث — على عادتهم — فقال : « غزوت فى الجاهلية على بنى مالك فخرجوا مستدعين بخالد بن الصقعب فحملت عليه بالصمصامة فأخذت رأسه» وكان خالد بن الصقعب حاضراً، فقال بعض الجماعة : «مهلا أبا ثور فتيلك يسمع كلامك » وأشار إليه ، فقال اسكت إنما أنت محدث فاسمع أو قم ، ثم التفت إلى خالد وقال : « إنما نرهب هذه المعدية بهذه الأخبار » ومضى فى حديثه فلم يقطعه ، فقال له رجل : « انك لشجاع فى الحرب والكذب» فقال : « إنى كذلك » وحكى أبو عمرو بن العلاء قال : جاء رجل إلى عمرو وهو واقف بالمربد على فرس له وقد أسن فقال لانظرن ما بقى من قوة أبى ثور فأدخل يده بين ساقه وجنب الفرس فغطن عمرو لذلك فضم رجله وحرك الفرس فجعل الرجل يعدو مع الفرس لايقدر أن ينزع يده حتى إذا بلغ منه صاح به فقال : « يا ابن أخى مالك ؟ » قال : « يدى تحت ساقك » فخلى عنه وقال : « إن فى عمك بقية بعد » ومن كلامه حكى أنه أتى مجاشع بن مسعود فقال : أسألك حملان مثلى وسلاح مثلى فأمر له بفرس جواد وسيف صارم وعشرين ألف درهم فر ببنى حنظلة فقالوا: « يا أبا ثور كيف رأيت صاحبك ؟ »فقال: «لله بنو مجاشع ما أشد فى الحروب لقاءها ، وأجرل فى اللربات عطاءها ،وأحسن فى المكرمات بناءها ، والله لقد قاتلتها فما أجبنتها وسألتها فما أبخلتها ، وهاجيتها فما أفحمتها » ومن جيد شعره :

« ولما رأيت الخيل زوراً كأنها حداول ماء أرسلت فاسبطرّت
فجاشت إلىّ النفس أوّل مرة فردت على مكروهها فاستقرّت
ظللت كأنى للرماح دريئة أقاتل عن أحساب جرم ومرّت
ولو أن قومى أنطقتنى رماحهم نطقت ولكن الرماح أجرّت . »

قوله أقاتل عن أحساب جرم من الهجاء الممض ، وذلك أنه ذكر أن قوما مرّوا وليس هو منهم غير أنه يقاتل غضباً لهم وعصبية ، وقوله ولو أن قومى أنطقتنى ، يعنى لو قاتلوا وطاعنوا نطقت بمدحهم ، ولكنهم مرّوا ، فأسكتونى عن المدح ، والأصل فى الاجرار أن الفصيل إذا أرادوا فطامه شقوا لسانه فلم يقدر على الرضاع وفى القصيدة التى أولها : « أمن ريحانة الداعى السميع »

يقول :

« وقد عجبت أمامة أن رأتنى تفرع لمتى شيب فطيع
أشاب الرأس أيام طوال وهم ما تبلغه الصلوع
وزحف كتيبة لقاء أخرى كأن زهاءها رأس صليع

. . . . . .

وإساد الأسنة نحو نحرى وهرّ المشرفية والوقوع
فان تنب النوائب آل عصم تجد حكماءهم فيها رفوع
إذا لم تستطع شيئاً فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع
وصله بالنزوع فكل شيء سما لك أو سموت له نزوع.»

وقوله أيضاً :

« يا ربها المغتابنا حهلا بنا ووللت عبدا
ليس الجمال بمئزر فاعلم وإن رديت بردا
إنّ الجمال معادن ومناقب أورثن مجدا
أعددت للحدثان سا بغة وعداء علندى
نهدا وذا شطب يقد البيض والأبدان قدا
كل امرئ يجرى إلى يوم الهياج بما استعدا

⁂

لما رأيت نساءنا يفصحن بالمزاء شدا
وبدت محاسنها التى تخفى ، وعاد الأمر حدا
نارلت كبشهم ، ولم أر من نزال الكبش بدا
هم ينذرون دمى وانذر إن لقيت بأن أشدا
كم من أخ لى صالح بوأته بيدىّ لحدا
ذهب الذين أحبهم وبقيت مثل السيف فردا.»

قلت : « لو لم يكن له إلا هذه القصيدة لاستحقّ بها التقدم على بشر كثير » وأما الصمصامة ذهى سيفه المشهور . قال عبد الملك بن عمير أهدت بلقيس إلى سليمان خمسة أسياف ، وهى : ذو الفقار ، وذو النون ، ومجذوب ، ورسوب ، والصمصامة . وأما ذو الفقار : فكان لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — أخذه من منبه بن الحجاج يوم بدر ، ومجذوب ورسوب : للحرث بن حبلة الغسانى ، وذو النون والصمصامة : لعمرو بن معديكرب ، وحكى أن عمر بن الخطاب قال لعمرو : ابعث لى الصمصامة ، فبعث به إليه فلم يره كما بلغه ، فقال له فى ذلك ؟ فقال إنى بعثت إليك الصمصامة ولم أبعث لك باليد التى تضرب به ، وحكى أبو عبيدة أن الصمصامة انتقلت إلى سعيد بن العاص ، وذلك أن خالد بن الوليد لما غزا بنى زبيد ، وكان خالد بن سعيد من جملة أسرائه أوقع بهم وأسر ربحانة أخت عمرو بن معديكرب فقداها خالد وأنابه عمرو الصمصامة ، ثم فقد يوم الدار فى مقتل عثمان ووجد ، ولم يزل إلى أن صعد المهدى البصرة ، فلما كان بواسط أرسل إلى بنى العاص يطلب الصمصامة ، فقالوا إنه فى السبيل محبسا ، فقال خمسون سيفاً قاطعاً فى السبيل أغنى من سيف واحد وأعطاهم خمسين سيفا وأخذه ، فلما صار إلى الهادى أحضره وأمر الشعراء بوصفه ، فقال بعضهم من أبيات :

« حاز صمصامة الزبيدى عمرو من جميع الأنام موسى الأمين
ما يبالى من انتضاه لضرب أشمال سقطت به أم يمين . »

ثم وصل إلى المتوكل فدفعه إلى غلامه «باغزا» التركي فقتله به ، ومن عند «باغزا» تقطع خبره .

. . . . . عَنْ وَصْفِ «كَعْبٍ»[1] بِالسَّمَاحِ إِيَادُ

فَضَحَ الدُّهَاةَ فَلَوْ تَقَدَّمَ عَهْدُهُ لَعَنَا «الْمُغِيرَةُ» أَوْ أَقَرَّ «زِيَادُ»[2]

---

(١) كعب بن مامه

هو كعب بن مامة الايادى ، وكان أحد أجواد العرب يضرب به المثل فى الوفاء ، آثر على نفسه وكان مسافراً مع رفيقه فقل عليهما الماء فتصافناه ، والتصافن أن يوضع فى الماء مقلة أى حجر صغير يغمر بالماء لئلا يتغابنوا فى القسمة ، فجعل رفيقه يشرب نصيبه ، فاذا جاء دور كعب . قال له رفيقه وقد جهده العطش : « أسق أخاك » فيؤثره على نفسه حتى جهد كعب من العطش وأشرف على الهلاك ، ورفعت له أعلام الماء ، وقيل له رد كعب ولا ورود به فمات عطشاً ، وفى ذلك يقول أبو دواد الايادى :

« أوفى على الماء كعب ثم قيل له رد كعب إنك وراد فما وردا . »

ارجع إلى الكامل للمبرد « ص ١٣٦ »

(٢) زياد بن أبيه والمغيرة بن شعبة

كانا من أفذاذ العرب وساستهم ودهاتهم وأخبارهما مستفيضة فى كتب التاريخ ، ولكننا نجتزئ القول اجتزاء فيما يلى :

قالوا :

وسمى « زياد ابن أبيه » أو « زياد بن سمية » لأن أمه كانت جارية للحارث بن كلدة الثقفى ، فزوجها بعبد له رومى يقال له : «عبيد» فولدت «سمية» زيادا على فراشه ، فهو ولد «عبيد» شرعا.

قالوا : وكان « أبو سفيان » قد سار فى الجاهلية إلى « الطائف » فنزل على بائع خمر يقال له : « أبو مريم » — وقد أسلم فيما بعد — فقال له « أبو سفيان » : « قد اشتهيت النساء » فقال أبو مريم : « هل لك فى سميه ؟ »

فقال أبو سفيان :

« هاتها على طول ثديها وذفر بطنها »

فأتاه بها ، فوقع عليها ، فيقال إنها علقت منه بزياد ، ثم وضعته فى السنة التى هاجر فيها رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ونشأ « زياد » فصيحا .

وحضر « زياد » يوما بمحضر جماعة من الصحابة فى خلافة « عمر » فقال « عمرو بن العاص » : لو كان أبو هذا الغلام من قريش ، لساق العرب بعصاه . »

فقال أبو سفيان لعلى بن أبى طالب :

« إنى لأعرف من وضعه فى رحم أمه »

فقال علىّ :

« فما يمنعك من استلحاقه »

قال :

« أخاف الأصلع (يعنى عمر) أن يقطع إهابى بالدرة »

لاَ يَأْمَنُ الْأَعْدَاءُ رَجْمَ ظُنُونِهِ ... إِنَّ الْغُيُوبَ وَرَاءَهَا إِمْدَادُ

مَلِكٌ — إِذَا مَا اخْتَالَ — غُرَّةُ فَيْلَقٍ ... قَدْ أُمْطِيَتْ عِقْبَانَهُ الْآسَادُ (١)

أُسْدٌ، فَرَائِسُهَا الْفَوَارِسُ فِي الْوَغَى، ... لٰكِنْ بَرَاثِنُهَا — هُنَاكَ — صِعَادُ (٢)

ولما كانت قصية شهادة الشهود على المغيرة بالزنا وجلدهم لعدم ثبوت الزنا عليه — ومنهم أبو بكرة أخو زياد لأمه — وامتناع « زياد » حيث كان يؤدّى الشهادة عن التصريح ، وكان أحد الأربعة الذين شهدوا عليه — اتخذ المغيرة لذلك لزياد يدا .

ثم لما ولى « علىّ بن أبى طالب » الخلافة ، استعمل « زيادا » على فارس ، فقام بولايتها أحسن قيام ، ولما سلم « الحسن » الأمر إلى « معاوية » امتنع « زياد » بفارس ، ولم يدخل فى طاعة « معاوية » واهتمّ معاوية بالأمر ، وخاف أن يدعو إلى أحد من بنى هاشم ويعيد الحرب ، وكان معاوية قد ولى « المغيرة بن شعبة » الكوفة ، فقدم « المغيرة » على « معاوية » سنة ٤٢ هـ فشكا إليه « معاوية » امتناع « زياد » بفارس ، فقال « المغيرة » :

« أتأذن لى فى المسير إليه ؟ »

فأذن له ، وكتب « معاوية » لزياد أماناً ، فتوجه « المغيرة » إليه — لما بينهما من المودّة — ومازال به حتى أحضره إلى « معاوية » وبايعه .

وفى سنة ٤٤ هـ استلحق « معاوية » « زياداً » فأحضر الناس ، وحضر من يشهد لزياد بالنسب ، وكان ممن حضر لذلك « أبو مريم » بائع الخمر الذى أسلفنا ذكره — وهو الذى أحضر « سمية » أم « زياد » إلى « أبى سفيان » بالطائف — فشهد بنسب « زياد » من « أبى سفيان » .

قالوا : « فاستلحقه معاوية » وقد أعظم الناس ذلك وأنكروه لاسيما بنو أمية لأن زيادا ابن عبيد الرومى قد ألحق نسبه ببنى أمية بن عبد شمس ، وقد قال « عبد الرحمن الحكم » أخو « مروان » فى ذلك :

« ألا أبلغ «معاوية بن صخر» : « لقد ضاقت بما تأتى اليدان »

أتغصب آل يقال : «أبوك عف ؟» وترضى أن يقال : «أبوك زانى؟»

وأشهد أن رحمك — من زياد — كرحم الفيل من ولد الأتان . »

ثم ولى « معاوية » « زياداً » البصرة ، وأضاف إليه « خراسان » و « سجستان » ثم جمع له الهند والبحرين وعمان .

(١) عقبان — جمع عقاب — وهو من سباع الطير التى تصيد . قال المتنبى :

« شكوى الجريح إلى العقبان والرخم »

وقال المعترى :

« صافت بسعد أرضها لما رمى ... ساحاتها بالخيل والفرسان

بفوارس — مثل الصقور — وضمر ... مجدولة ، كحواسر العقبان . »

(٢) صعاد — جمع صعدة — وهى القناة التى نبتت مستقيمة لا تحتاج إلى التثقيف ، والصعدة — من النساء — المستقيمة القامة — على التشبيه — قال « كعب بن جعيل » يصف امرأة شبه قدها بالقناة :

« فاذا قامت إلى جاراتها ... لاحت الساق بخلخال زجل

صعدة نابتة فى حائر ... أينما الريح تميلها تمل . »

خِلْتَ اللواءَ غَمامَةً فى ظِلِّهَا ... قَمَرٌ ، بِغُرَّتِهِ السَّنَا الْوَقَّادُ

* * *

شَيْحَانُ مُنْغَمِسُ السِّنَانِ مِنَ الْعِدَا ... ـ فِى النَّقْعِ ـ حَيْثُ تَغَلْغَلُ الْأَحْقَادُ

تَشْكُو إِلَيْهِ الشَّمْسُ نَقْعَ كَتِيبَةٍ ... مَا زَالَ مِنْهُ لِعَيْنِهَا إِرْمَادُ (١)

جَيْشٌ ـ إِذَا مَا الْأُفْقُ سَافَرَ طَيْرُهُ ... مَعَهُ ـ فَفِى ذِمَمِ الصَّوَارِمِ زَادُ (٢)

مُسْتَطْرِفٌ لِلْمَجْدِ لَمْ يِكُ حَسْبُهُ ... مَجْدٌ ـ يَدُورُ مَعَ الزَّمَانِ ـ تِلَادُ (٣)

مَا كَانَ مِنْهُ إِلَى رَفَاهَةِ رَاحَةٍ ... حَتَّى يُخَلِّدَ مِثْلَهُ إِخْلَادُ

أَرِجُ النَّدِىِّ ، مَتَى تَفُزْ بِجِوَارِهِ ... يَطِبِ الْحَدِيثُ وَيَعْبَقِ «الْإِنْشَادُ» (٤)

لَوْ أَنَّ خَاطِرَهُ الْجَمِيعَ مُفَرَّقٌ ... فِى الْخَلْقِ أَوْشَكَ أَنْ يُحِسَّ جَمَادُ

* * *

نَفْسِى فِدَاؤُكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ الَّذِى ... زُهْرُ النُّجُومِ ـ لِوَجْهِهِ ـ حُسَّادُ

تَبْدُو عَلَيْكَ ـ مِنَ الْوَسَامَةِ ـ حُلَّةٌ ... يَهْفُو إِلَيْهَا ـ بِالنُّفُوسِ ـ وِدَادُ

لَمْ يَشْفِ مِنْكَ الْعَيْنَ أَوَّلُ نَظْرَةٍ ... لَوْلَا الْمَهَابَةُ رَاجَعَتْ تَرْدَادُ

---

(١) النقع : الغبار ، والكتيبة : الجيش ، يقول: «تشكو إليه الشمس سطوع الغبار ، والنقع المثار لأنه أرمد عينها فأغمضتها ولم تبصر . »

(٢) يقول : إن هذا الجيش إذا سايرته فى الأفق عقبان الجوّ وجوارح الطير ، ففى ذمة الصوارم من السيوف أن تضمن لها الزاد من قتلى الأعداء .

(٣) مستطرف : أى مستحدث لنفسه مجدا طريفا أى حديثاً مكسوبا غير موروث ، والحسب : محركة وقد يسكن كما هنا مايعده الانسان من مفاخره ، والتلاد : القديم الموروث عن الآباء .

(٤) الندى : المجلس ، يقول : هو أرج الندى أى عطر مايبعث عن مجلسه من طيب القول وعاطر الثناء ، إذا فزت بقربه ودنوت من مجلسه ، يطيب الحديث ، ويعبق فى أرجاء المجلس عبير الانشاد ، وقد ورد هذا البيت فى الأصل هكذا :

« أرج الندى ، متى تفز بجواره ... يطب الحديث ويعبق . . . . »

والتكملة يعطيها السياق .

مَا كَانَ مِنْ خَلَلٍ فَأَنْتَ سِدَادُهُ ... فِي الدَّهْرِ أَوْ أَوَدٍ فَأَنْتَ سَدَادُ (١)

الدِّينُ وَجْهٌ أَنْتَ فِيهِ غُرَّةٌ ... وَالْمُلْكُ جِفْنٌ أَنْتَ فِيهِ سَوَادُ

لِلَّهِ مِنْكَ يَدٌ عَلَتْ ، تُولِي بِهَا ... صَفَداً فَيُحْمَدُ ، أَوْ يُفَكُّ صِفَادُ (٢)

لَوْ أَنَّ أَفْوَاهَ الْمُلُوكِ تَوَافَقَتْ ... فِيهَا لَوَافَقَ حَظُّهَا الْإِسْعَادُ

نَفَعَ الْعُدَاةَ الْيَأْسُ (٣) مِنْكَ ، لِأَنَّهُ ... بَرَدَتْ عَلَيْهِ مِنْهُمُ الْأَكْبَادُ

يَنْصَاعُ مَنْ جَارَاكَ مَقْبُوضَ الْخُطَا ... فَكَأَنَّمَا عَضَّتْ بِهِ الْأَقْيَادُ (٤)

***

قَدْ قُلْتُ لِلتَّالِي ثَنَاءَكَ سُورَةً ... مَا لِلْوَرَى فِي نَصِّهَا إِلْحَادُ :

« أَعِدِ الْحَدِيثَ عَنِ السِّيَادَةِ ، إِنَّهُ ... لَيْسَ الْحَدِيثُ يُمَلُّ حِينَ يُعَادُ . »

كَرَمٌ كَمَاءِ الْمُزْنِ رَاقَ خِلَالُهُ ... أَدَبٌ كَرَوْضِ الْحَزْنِ بَاتَ يُجَادُ (٥)

وَمَحَاسِنٌ زَهَرَ الزَّمَانُ بِزُهْرِهَا ... فَكَأَنَّمَا أَيَّامُهُ أَعْيَادُ (٦)

---

(١) يقول : ما كان من خلل فى الزمان فأنت سداده الذى يسدّ به ، أو كان من أود فيه واعوجاج فأنت سداد ، أى بك سداده وصلاحه وتقويمه .

(٢) الصفد العطاء ، والصفاد : مايوثق به المقيد من قيد ونحوه ، يقول : لله منك يد تولى الجميل وتهب العطاء ، لانزال نحمدها ونشكرها لك إلى أن يفك ماقيدتنا به من أصفاد النعم ، وقد جانس بين الصفد بمعنى العطاء ، والصفاد بمعنى القيد ، وجعل الاحسان صفادا وقيداً مستفيض فى كلام الشعراء ، قال الشاعر :

« ومن وجد الاحسان قيد تقيداً . » ، وقال ابن الرومى :

« ما على الأحرار من رق إذا ... نقدوا شكرهم مولى أيادى

إنما النعمى صفاد فاذا ... لقيت شكراً فليست بصفاد . »

وقال ابن حيوس :

« عقلتهم بالجميل فانعقلوا ... ربعناة أصفادها الصفد . »

أى قيودها العطاء ، وفى الأصل : « تولى بها * صفد . »

(٣) فى الأصل : « البأس »

(٤) يقول : ينصاع ويرجع عن مجارته فى المجد كل من جاراه ، ويقف حيث ابتدأ مقبوض الخطا كأنما عضت بسيقانه القيود فمنعته من المضى .

(٥) المزن : السحاب ويجاد يمطر بالجود (بفتح فسكون) وهو المطر الغزير .

(٦) يقول : ويضاف إلى هذا الكرم الذى وصفه فى البيت السابق محاسن أضاء الزمان بزهر نجومها ، فكأنما كل يوم من أيامها عيد .

* * *

يَأَيُّهَا المَلِكُ الَّذِى ـ فِى ظِلِّهِ ـ رِيضَ الزَّمَانُ فَذَلَّ مِنْهُ قِيَادُ

يَا خَيْرَ « مُعْتَضِدٍ » بِمَنْ أَقْدَارُهُ ـ فِى كُلِّ مُعْضِلَةٍ ـ لَهُ أَعْضَادُ

لَمَّا وَرَدْتُ ـ بِوِرْدِ حَضْرَتِكَ ـ المُنَى فَهَمَتْ لَدَىَّ جِمَامُهَا الْأَعْدَادُ (١)

فَاسْتَقْبَلَتْنِى الشَّمْسُ تَبْسُطُ رَاحَةً لِلْبَحْرِ ـ مِنْ نَفَحَاتِهَا ـ اسْتِمْدَادُ

فَلَئِنْ فَخَرْتُ ـ بِمَا بَلَغْتُ ـ لَقَلَّ لِى أَلَّا يَكُونَ مِنَ النُّجُومِ عِتَادُ

مَهْمَا امْتَدَحْتُ سِوَاكَ ـ قَبْلُ ـ فَإِنَّمَا مَدْحِى ـ إِلَى مَدْحِى ـ لَكَ اسْتِطْرَادُ

يَغْشَى المَيَادِينَ الْفَوَارِسُ ـ حِقْبَةً ـ كَيْمَا يُعَامِهَا النِّزَالَ طِرَادُ (٢)

فَلَأَسْحَبَنْ ذَيْلَ المُنَى فى سَاحَةٍ ـ إِلَّا أُوَفَّ بِهَا المُنَى ـ فَأُزَادُ (٣)

وَلَيَسْتَفِيدَنَّ السَّنَاءَ مَعَ الْغِنَى عَبْدٌ يُفِيدُ النُّصْحَ حِينَ يُفَادُ

وَلَأَنْتَ أَنْفَسُ شِيمَةً مِنْ أَنْ يُرَى ـ لَنَفِيسِ أَعْلَاقِى لَدَيْكَ ـ كَسَادُ

هَيْهَاتَ قَدْ ضَمِنَ الصَّبَاحُ لِمَنْ سَرَى أَنْ يَسْتَتِبَّ لِسَعْيِهِ الْإِصْعَادُ (٤)

لَاتَعْدَمَنَّ ـ مِنَ الحُظُوظِ ـ ذَخِيرَةً تَبْقَى فَلَا يَتْلُو البَقَاءَ نَفَادُ

---

(١) فهمت : جواب لما أى سالت ، وجمامها : جمع جم (بالفتح) وجمة (بالضم) وهو الماء الكثير والأعداد : جمع عد (بالكسر) ، وهو الماء الدائم الذى له مادة لا انقطاع لها كماء العيون ، يقول : حين وردت فى حضرتك ورد المنى ، همت جمامها ، وسالت مياهها الأعداد ، يريد أنه رأى فيض المنى ينبثق من راحتيه ، وفى الأصل :

« لما وردت بورد حضرتك المنا فهقت لدى جمامها الأعداد . »

(٢) هو مطاردة الفرسان بعضهم بعضاً للمران على الحرب .

(٣) فلأسحبن من المنى ذيلها فى ساحة جواد إن لم أوف بها ما تطمح إليه نفسى من الأمانى فأنا سأزاد عليها ، يقول : إن أمره دائر بين أن يفى له بما تسمو إليه نفسه من الأمانى ، أو يزيده عليها فوق ما يريد ويتمنى .

(٤) يشير إلى المثل المشهور : « عند الصباح يحمد القوم السرى . » وسيمر بك شرحه فى ص (٢١٧) من هذا الديوان .

فى مدح المعتضـــد

« قال يمدح المعتضد بالله المنصور بفضل الله أبا عمرو عباد بن محمد بن عباد ، ويذكر بعض مواقف له مع خاصته من أصفيائه ، والمناوئين له من أعدائه . »

لَيْهَنِ الْهُدَى إِنْجَاحُ سَعْيِكَ فى الْعِدَا ... وَأَنْ رَاحَ صُنْعُ اللهِ نَحْوَكَ وَاغْتَدَى (١)

وَنَهْجُكَ سُبْلَ الرُّشْدِ فى قَمْعِ مَنْ غَوَى ... وَعَدْلُكَ فِى اسْتِئْصَالِ مَنْ جَارَ وَاعْتَدَى (٢)

وَأَنْ بَاتَ مَنْ وَالاكَ فى نَشْوَةِ الْغِنَى ... وَأَصْبَحَ مَنْ عَادَاكَ فى غَمْرَةِ الرَّدَى (٣)

وَبُشْرَاكَ دُنْيَا غَضَّةُ الْعَهْدِ طَلْقَةٌ ... كَمَا ابْتَسَمَ النُّوَّارُ عَنْ أَدْمُعِ النَّدَى (٤)

وَدَوْلَةَ سَعْدٍ لاَ انْتِهَاءَ لِحَدِّهِ ... إِذَا قِيلَ فِيهِ قَدْ تَنَاهَى تَوَلَّدَا

دَعَوْتَ ، فَقَالَ النَّصْرُ : لَبَّيْكَ مَائِلاً ... وَلَمْ تَكُ كَالدَّاعِى يُجَاوِبُهُ الصَّدَى

---

(١) السعى : التصرف فى كل عمل من خير أو شرّ ، أى أن سبيل الهدى وسبيل المؤمنين جديران بكل تهنئة وبشرى حيث أنجح الله سعيك فى مناجزة أعدائك ولم يزل يتعهدك بجميل صنعه ولطيف إحسانه فى الرواح والغدو ، والصباح والعشى .

(٢) وليهن الهدى أيضا سلوكك مناهج الرشد ، وإجراؤك سنة العدل فى قمع العاوين المفسدين ، واستئصال شأفة الجائرين المعتدين ، واقتلاعهم من أصولهم ، وتدميرك المملكة من مفاسدهم وشرورهم .

(٣) والى : الموالاة ضد المعاداة ، وقد طابق فى البيت بين «بات» و «أصبح» و «والى» و «عادى» و «نشوة الغنى» و «غمرة الردى »

(٤) النوار : بضم أوله وتشديد ثانيه النور ، واحدته نواره وقد نور الشجر والنبات أى أزهر ، وفى البيت تشبيه النوار بالثغر الباسم عن لؤلؤ الندى .

وَأَحْمَدْتَ عُقْبَى الصَّبْرِ فِى دَرَكِ الْمُنَى كَمَا بَلَغَ السَّارِى الصَّبَاحَ فَأَحْمَدَا (١)

⁂

« أَعَبَّادُ » يَا أَوْفَى الْمُلُوكِ بِذِمَّةٍ وَأَرْعَاهُمُ عَهْدًا وَأَطْوَلَهُمْ يَدَا
تَبَايَنْتَ فِى حَالَيْكَ : غُرْتَ تَوَاضُعًا لِتَسْتَوْفِىَ الْعَلْيَا ، وَأَنْجَدْتَ سُؤْدَدَا (٢)

---

(١) الدرك : محركا اللحاق والوصول إلى الشيء ، يقال أدركته إدراكا ودركا ومثله الدرك بالسكون . قال حجدر يخاطب الأسد :

« ليث وليث فى مكان ضنك كلاهما ذو أنف ومحك
وبطشة وصولة وفتك إن يكشف الله قناع الشك
بظفر من حاجتى ودرك فذا أحق منزل بترك
الذئب يعوى والغراب يبكى »

والسارى : اسم فاعل من السرى وهو سير الليل وأصل المثل «عند الصباح يحمد القوم السرى» وأول من قال ذلك كما فى مجمع الأمثال عن «المفصل» الصبي هو «خالد بن الوليد» لما بعث إليه أبو بكر رضى الله عنهما وهو « باليمامة » أن سر إلى « العراق » فأراد سلوك المفازة ، فقال له «رافع» الطائى : قد سلكتها فى الجاهلية ، هى خمس للابل الواردة ، ولا أظنك تقدر عليها إلا أن تحمل من الماء . فاشترى مائة شارف معطشها ، ثم سقاها الماء حتى رويت ، ثم كتبها وكعم أفواهها ، ثم سلك المفازة حتى إذا مضى يومان وخاف العطش على الناس والخيل وخشى أن يذهب ما فى بطون الابل ، نحر الابل ،واستخرج مافى بطونها من الماء وسقى الناس والخيل ومضى لما كان فى الليلة الرابعة ، قال «رافع» : انظروا هل ترون سدرا عظاما ؟ فان رأيتموها وإلا فهو الهلاك . فنظر الناس فرأوا السدر فأخبروه فكبر وكبر الناس ثم هجموا على الماء ، فقال خالد :

« لله در رافع أني اهتدى فوز من قراقر إلى سوى
حسا إذا سار به الجيش بكى ماسارها من قبله إنس يرى
عند الصباح يحمد القوم السرى وتنجلى عنهم غيابات الكرى. »

يضرب للرجل يحتمل المشقة رجاء الراحة .

(٢) غرت : من غار غوراً فهو غائر إذا أتى الغور وهو ما انحدر مسيله ، ويقابله النجد : يقال : غار وأنجد وأغار وأنجد ، قال جرير .

« يا أم حزرة ما رأينا مثلكم فى المنجدين ولا بغور الغائر . »

وقال الأعشى :

« نبى يرى مالا ترون وذكره أغار لعمرى فى البلاد وأنجدا . »

وأنكر الجوهرى أغار ، وقال الأصمعى: أغار وأنجد فى بيت الأعشى بمعنى أسرع وارتفع ، على أن النصف الثانى من البيت روى مخزوما هكذا : « غار لعمرى فى البلاد وأنجدا » ، يقول : بين حالك من التواضع والسمو إلى مراتب السيادة بون شاسع ، فقد انحدرت إلى غور التواضع فكانت عاقبة ذلك أن استوفيت حظك من العلياء وبلغت أسمى مراتب السودد والرفعة .

وَلَمَّا اعْتَضَدْتَ اللهَ كُنْتَ مُؤَهَّلاً ... لَدَيْهِ لِأَنْ تُحْمَى وَتُكْفَى وَتُعْضَدَا

وَجَدْنَاكَ إِنْ أَلْقَحْتَ سَعْياً نَتَجْتَهُ ... وَغَيْرُكَ شَاوٍ حِينَ أَنْضَجَ رَمَّدَا (١)

وَكَمْ سَاعَدَ الْأَعْدَاءَ أَوَّلَ مُطْمَعٍ ... رَأَوْكَ بِعُقْبَاهُ أَحَقَّ وَأَسْعَدَا

فَلَا ظَافِرٌ إِلَّا - إِلَى سَعْدِكَ - اعْتَزَى ... وَلَا سَائِسٌ إِلَّا بِتَدْبِيرِكَ اقْتَدَى

* * *

ضَلَالاً لِمَفْتُونٍ سَمَوْتَ بِحَالِهِ ... إِلَى أَنْ بَدَتْ - بَيْنَ الْفَرَاقِدِ - فَرْقَدَا

رَأَى حَطَّهَا أَوْلَى بِهِ ، فَأَحَلَّهَا ... حَضِيضاً بِكُفْرَانِ الصَّنِيعَةِ أَوْهَدَا (٢)

وَمَا زَادَ - لَمَّا لَجَّ فِي الْبَغْيِ - أَنَّهُ ... سَعَى لِلَّذِي أَصْلَحْتَ مِنْهَا فَأَفْسَدَا

فَزَلَّ وَقَدْ أَمْطَيْتَهُ ثَبَجَ السُّهَا ... وَضَلَّ وَقَدْ لَقَّيْتَهُ قَبَسَ الْهُدَى (٣)

طَوِيلُ عِثَارِ الْجُرْمِ قُلْتَ لَهُ: «لَعَا» (٤) ... بِحِلْمٍ تَلَقَّى جَهْلَهُ فَتَغَمَّدَا (٥)

---

(١) ألقحت من ألقح الفحل الناقة ، ولقحت هى ، قال الحرث بن عباد :

« قربا مربط النعامة منى ... لقحت حرب وائل عن حيال . »

والسعى : التصرف فى الأمور ، ونتجه : من قولهم نتج بلان الناقة إذا ولى نتاجها وهي ماخض حتى تضع ، وفى المثل : « هل تنتج الناقة إلا لمن لقحت له » ، وكتب عليه صاحب مجمع الأمثال ما نسخته : يقال نتجت الناقة على ما لم يسم فاعله ، وأنتجتها إذا أعنتها على ذلك ، والنائج للسوق كالقابلة للاسان، ولقحت تلقح لقحا ولقاحا والناقة لاقح ولقوح ، ومعنى المثل : هل يكون الولد إلا لمن يكون له الماء ؟ يضرب فى التشبيه ، ويروى « لما لقحت له » أى لقاحها أى لقبول رحمها ماء الفحل ، يشير إلى صدق الشبه ، و « ما » مع « لقحت » للمصدر ، وغيرك شاو : أصل المثل « شوى أخوك حتى إذا أنضج رمد» والترميد القاء الشواء فى الرماد ، يضرب — كما فى مجمع الأمثال للميدانى — لمن يفسد اصطناعه بالمن ، ويردف صلاحه بما يورث سوء الظن ، ويروى عن أمير المؤمنين « عمر بن الخطاب » رضى الله عنه : أنه مرّ بدار رجل عرف بالصلاح فسمع من داره صوت بعض الملاهى فقال : شوى أخوك حتى إذا أنضج رمد .

(٢) الحضيض : القرار من الأرض المنخفض عن سفح الجبل ، وأوهد : أفعل تفضيل من الوهدة وهى الهوة ، يقول : رأى ذلك المفتون انحطاط حاله أولى به فأنزله الممدوح من مستوى الفراقد إلى أحط قرار من الأرض بسبب كفران النعمة ونكران الجميل .

(٣) ثبج السها : أعلاه ، والسها : نجم صغير فى بنات نعش الكبرى يمتحنون به أبصارهم لخفائه ، وفى المثل « أريها السها وتريني القمر »

(٤) دعوت له بأن يقيمه الله من سقطته .

(٥) غطى على جهله وستره .

تَجَنَّى فَأَهْدَيْتَ النَّصِيحَةَ مَحْضَةً ، وَلَجَّ فَوَالَيْتَ الْعِقَابَ مُرَدِّدَا (١)
وَلَمْ تَأْلُهُ بُقْيَا عَلَيْهِ تَنَظُّراً لِفَيْئَةِ مَنْ أَكْرَمْتَهُ فَتَمَرَّدَا
فَمَا آثَرَ الْأُولَى ، وَلَا قَلَّدَ الْحِجَى ، وَلَا شَكَرَ النُّعْمَى ، وَلَا حَفِظَ الْيَدَا
كَأَنَّكَ أَهْدَيْتَ السَّوَابِحَ ضُمَّراً لِيَرْكُضَهَا - فِيمَا كَرِهْتَ - فَيُجْهِدَا (٢)
وَأَجْرَرْتَهُ ذَيْلَ الْحَبِيرِ (٣) تَأَلُّفاً لِيَخْلُقَ - فِيمَا جَرَّ - حِقْداً مُجَدَّدَا (٤)
سَلِ الْخَائِنَ الْمُغْتَرَّ : كَيْفَ احْتِقَابُهُ - مَعَ الدَّهْرِ - عَاراً بِالْعِرَارِ مُخَلَّدَا ؟ (٥)
رَأَى أَنَّهُ أَضْحَى هِزَبْراً مُصَمِّماً ، فَلَمْ يَعْدُ أَنْ أَمْسَى ظَلِيماً مُشَرَّدَا (٦)
دَهَاهُ - إِذَا مَاجَنَّهُ اللَّيْلُ - أَنَّهُ أَقَامَ عَلَيْهِ - آخِرَ الدَّهْرِ - سَرْمَدَا (٧)

---

(١) يقول بدأ يتجنى عليك الذنوب ويختلقها خلقا ، وكان جزاؤه منك أن تمحضه النصح خالصا بريئا ، فلما لجّ فى غروره وعصيانه صببت عليه عقابك المتوالى لتزجره — على أساءته وتؤدبه .

(٢) كأنما أهديته الجياد الضمر ليجاريك بها ويجهد نفسه فى توخى أعدائك وتلمس ما تكره .
كأن هذا الخائن ظن أنك أهديته الجياد الصمر السوابح ليجهدها ركضا فيما تكره من مناصرة أعدائك .

(٣) أجررته ذيل الحبير : جعلته يجر ذيل النعمة .
وكأنه ظن أنك تتألفه بما تخلع عليه من حبير أجررته ذيله ليخلق لك مشاكل ويجدّد أحقادا بسبب ماجره من جرائر وجرائم . (٤) وفى الأصل : « للحقد مجددا »

(٥) الخائن : الأحمق ، والمعتر الفقير المتعرض المعروف من غير أن يسأل ، والاحتقاب الادخار ، يقال : احتقب الشىء : ادخره ، واحتقب خيرا أو شرّا واحتقبه : احتمله وجعله خلفه ، واحتقب الاثم : جمعه ، والعرار — جمع عرة وهى الحلة القبيحة .

(٦) المصمم : الماضى فى الأمر معتزما ، والظليم : الذكر من النعام ، قال تأبط شرا :

« أنا الذى نكح العيلان فى بلد ماطلّ فيه سماكىّ ولا جادا
فى حيث لايعمت العادى عمايته ولا الظليم به يبغى تبياداً
وقد لهوت — بمصقول عوارضها — بكر تنازعنى كأساً وعنقادا
ثم انقضى عصرها عنى ، وأعقبه عصر المشيب ، فقل فى صالح بادا . »

أى نكح العيلان فى بلد لم يظفر بالطل وهو الرذاذ «المطر الخفيف» ولم يظفر فيه الظليم — «فرخ النعام» — بالهبيد — وهو الحنظل — ليأكله ، وقد لهما بفتاة من الأبكار مصقولة العارضين تنازعه كئوس الخمر وعناقيد العنب ، ثم انقضى ذلك العصر الصالح وأعقبه عصر المشيب .

(٧) يقول : وقد أصبح يترقب جزعا أن يكون حينه مرتبطا بيومه وصار يتوجس الشر خوفا من أن يكون ليله سرمدا إذا قتلته .

يُحَاذِرُ أَنْ يُلْقَى قَتِيلاً مُعَفَّراً ـ إِذَا الصُّبْحُ وَافَى ـ أَوْ أَسِيراً مُقَيَّدَا

* * *

لَبِئْسَ الْوَفَاءُ اسْتَنَّ فِي « ابْنِ عَقِيدَةٍ » عَشِيَّةَ لَمْ يُصْدِرْهُ مِنْ حَيْثُ أَوْرَدَا
قَرِينٌ لَهُ أَغْوَاهُ حَتَّى ـ إِذَا هَوَى ـ تَبَرَّأَ يَعْتَدُّ الْبَرَاءَةَ أَرْشَدَا (١)
فَأَصْبَحَ يَبْكِيهِ الْمُصَابُ بِثُكْلِهِ ، بُكَاءَ « لَبِيدٍ » حِينَ فَارَقَ « أَرْبَدَا »
فِدَاءٌ لِإِسْمَاعِيلَ كُلُّ مُرَشَّحٍ إِذَا جُشِّمَ الْأَمْرَ الْجَسِيمَ تَبَلَّدَا (٢)

* * *

أَفَادَ مِنَ الْأَمْلَاكِ حِدْثَانَ فَشْلِهِمْ مَوَالِيَ ، لَمْ يَشْكُ الصَّدَى مِنْهُمُ الصَّدَا (٣)
أَعَادَ الصَّبَاحَ الطَّلْقَ لَيْلاً عَلَيْهِمُ فَجَاءَ وَأَثْنَى نَاظِرَ الشَّمْسِ أَرْمَدَا
فَحَلَّ هِلَالاً ـ فِي ظَلَامِ عَجَاجَةٍ ـ تُلَاحِظُهُ الْأَقْمَارُ ـ فِي الْأُفْقِ ـ حُسَّدَا
يُرَاجِمُ مِنْ « صِنْهَاجَةٍ » وَ « زَنَاتَةٍ » ـ بِمِثْلِ نُجُومِ الْقَذْفِ ـ مَثْنًى وَمَوْحَدَا (٤)

---

(١) يقول : أن قرينه زين له الضلال حتى إذا تردى فى سوء عمله تبرأ قرينه من عمله ورأى فى التخلى عنه وسيلة إلى نجاته .

(٢) المرشح : المؤهل .

(٣) يقول : إن توالى الأحداث والخطوب التى أنزلها جيشه بالملوك قد أفادته موالى غاية فى البسالة لايشكو العطشان منهم عطشاً لشدّة ما أوتيه من صبر وجلد .

(٤) راجم عنه : ناضل ، وراجم فى الكلام والحرب بالغ بأشد مساجلة ، ونجوم القذف ، أو شهب القذف هى الرجوم ، قال الشاعر :

« كشهاب القذف يرميكم به فارس فى كفه للحرب نار . »

يقول : إنه يساجل بنصرة أهل زناته وصنهاجة ويقذف بهم الأعداء كما يقذف بالشهب ويرجم بها شانئيه ، وقد اشتهرت صنهاجة بتلك المذبحة الكبرى التى حدث فى القرن الخامس من الهجرة سنة ٤٥٩ هـ وقد ثارت صنهاجة على اليهود وقتلوا منهم مقتلة عظيمة وفيهم الوزير يوسف بن نغزلة اليهودى ، وكان سبب هذه المذبحة أن ذلك الوزير — وكان قد استوزره باديس صاحب غرناطة — قد وشى بأبى إسحق الفقيه زاهد البيرة فأقصاه السلطان عن بلاده .

قالوا : « وكان ذلك الوزير قد تعرض لتسفيه بعض الآراء الدينية الاسلامية ، وكان عظيم الخطر واسع

هُمُ الْأَوْلِيَاءُ الْمَانِحُوكَ صَفَاءَهُمْ إِذَا امْتَازَ مُصْفِي الْوُدِّ مِمَّنْ تَوَدَّدَا

النفوذ — فوجد أبو إسحق من ذلك حافزا إلى إنشاء قصيدته البليغة التي دفعه إلى قولها غيظه من عدوه — ذلك الوزير الحطير — فملأها تحريضا وأفعمها حججاً وبراهين، أفلح في التأثير بها على العامة وحملهم على إنفاذ رغباته — وما زال يتفنن في ضروب الاحتثاث والتهييج حتى اشتعل الجمهور حماسة وهجم على ذلك الوزير فقتله — في قصر السلطان نفسه — وليس من شك في أن أبا إسحق بدل كل مواهبه في الضرب على النغمة الدينية وإظهار النفجع الشديد على ما انتاب الدين من التهاون به وعرف كيف يوالي فيها اطراد الأدلة واتساقها وتدفق المعاني وغزارتها مع دقة عجيبة في التعبير عن أغراضه وخوالجه بكلام فخم، يتطاير حماسة ويتأجج ناراً، وسعر صارخ

« خارج من قلب قائله مثلما يزفر بركان . »

وبهذا استطاع أن يوهم سامعيه أن قتل أولئك اليهود — أخصامه — فرض لا مناص من أدائه وواجب حتم لا يصح السكوت عنه وأنهم — إن كانوا غفلوا عن القيام به فيما مضى — فهم حقيقون أن يتداركوه في الحال، حتى لا تصبّ عليهم لعنة الله، أو يحيق بهم غضبه، فيخسف بهم الأرض، أو ينزل عليهم السماء، وكذلك لم يترك ناطما وسيلة من الوسائل التي تستثير أحقى العواطف الدينية الكامنة إلا استجدمها، ولا نغمة من نغمات متعصب للعقيدة الدينية إلا ضرب على وتيراتها. كل ذلك بأسلوب سهل رشيق كاد يصل — لسهولته — إلى حدّ الركاكة في بعض الأبيات مع أنه من أجل الشعر وأبدعه، وإن شئت فقل وأروعه، وإليكم هذه القصيدة الفريدة في بابها :

« ألا قل لصنهاجة أجمعين بدور الزمان وأسد العرين
مقالة ذي مقة مشفق يعد النصيحة زلفى ودين
لقد دلّ سيدكم ذلة تقرّ بها أعين الشامتين
تحير كاتبه كافرا ولو شاء كان من المؤمنين
فعر اليهود به وانتحوا وتاهوا، وكانوا من الأردلين»

ومنها :

« فكم مسلم راغب راهب لأردل قرد من المشركين
وما كان ذلك من سعيهم ولكن منا يقوم المعين
فهلا اقتدى فهم بالألى من القادة الحيرة المتقين

في هذا البيت شيء كثير من الركاكة في قوله « بالألى من القادة الحيرة المتقين » ولكنا نغفرها لما في ليه من تتمة تلك الصورة الشعرية المتناقية البديعة .

وأنزلهم حيث يسألهلون وردهم أسهل السائلين
فلم يستعصوا بأعلامنا ولم يستطيلوا على الصالحين»

ومنها يخاطب السلطان باديس :

« أبا ديس ! أنت امرؤ حاذق تصيب بطبك نفس اليقين
فكيف خفي عنك ما يعبثون وفي الأرض تضرب منها القرون
وكيف تحب فراخ الزنا وقد بغضوك إلى العالمين

لَهُمْ كُلُّ مَيْمُونِ النَّقِيبَةِ بَازِلٍ (١) كَفِيلٍ بِأَنْ يَسْتَهْزِمَ الْجَمْعَ مُفْرَدَا
يَسُرُّكَ فِي الْهَيْجَا إِذَا جَرَّ لَامَةً وَيُرْضِيكَ فِي النَّادِي إِذَا اعْتَمَّ وَارْتَدَى (٢)

* * *

كَرِهْتَ لِسَيْفِ الْمُلْكِ أُلْفَةَ غِمْدِهِ وَقَلَّ غَنَاءُ السَّيْفِ مَا كَانَ مُغْمَدَا
وَلَمْ تَرَ لِلسِّبْلِ الْإِقَامَةَ فِي الشَّرَى فَجَدَّ افْتِرَاساً حِينَ أَصْحَرَ لِلْعِدَا
هُمَامٌ - إِذَا حَارَبْتَ - فَارْفَعْ لِوَاءَهُ، فَمَا زَالَ مَنْصُورَ اللِّوَاءِ مُؤَيَّدَا
وَيَأْنَفُ مِنْ لِينِ الْمِهَادِ تَعَوُّضاً بِصَهْوَةِ طَيَّارٍ - إِلَى الرَّوْعِ - أَجْرَدَا
وَقِدْمًا شَكَا حَبْلَ التَّمَائِمِ يَافِعاً لِيَحْمِلَ رَقْرَاقَ الْفِرِنْدِ مُهَنَّدَا
وَلَمْ تَرَ سَيْفاً - بَاتِكَ (٣) الْحَدِّ قَبْلَهُ - تَنَاوَلَ سَيْفاً - دُونَهُ - فَتَقَلَّدَا

وكيف يتم لك المرتقى إذا كنت تبنى وهم يهدمون
وكيف استقمت إلى فاسق وقارنته وهو بئس القرين ؟»

ومنها :

« وإنى حللت بغرناطة فكنت أراهم بها عابثين
وقد قسموها وأعمالها فمنهم بكل مكان لبين »

ومنها :

« وهم أمناكم على سركم وكيف يكون أمينا خؤون ؟
ويأكل عيرهم درهما فيقصى ويدنون إذ يأكلون
وقد نهضوكم إلى ربكم فما ينهضون وما يذكرون » .

ومنها :

« ورخم قردهم داره وأجرى إليها نمير العيون
وصارت حوانيتنا عنده ونحن - على بابه - قائمون
ويضحك منا ومن ديننا فانا إلى ربنا راجعون »

(١) البازل : الرجل الكامل ، والبازل أيضا الناقة فى عامها التاسع ، قال الشاعر :
«عذرت البزل إن هى غالبتنى فما بال وبال ابنى لبون »

(٢) أى تعجب بشجاعته إذا لبس لامة الحرب كما تعجب بسماحته التحف رداءه ولبس عمامته فى السلم .

(٣) باتك الحد : قاطعة مرهفة .

* * *

لَئِنْ أَنْجَزَتْ مِنْهُ الشَّمَائِلُ آخِراً ... لَقَدْ قَدَّمَتْ مِنْهُ المَخَايِلُ (١) مَوْعِدَا
قَرَرْتَ بِهِ عَيْناً، فَكَمْ سَادَ عِتْرَةً ... وَكَمْ سَاسَ سُلْطَاناً، وَكَمْ زَانَ مَشْهَدَا
وَأُعْطِيتُمَا - فيما تُرِيغَانِهِ (٢) - الرِّضَى، ... وَبُلِّغْتُمَا - مِمَّا تُرِيدَانِهِ - المَدَى

دولة عباد

كَمْ لِرِيحِ الْغَرْبِ مِنْ عَرْفٍ نَدِيّْ ... كَالشَّرَابِ الْعَذْبِ فِي نَفْسِ الصَّدِيّْ (٣)
حَيْثُ «عَبَّادٌ» فَتَى الْمَجْـــدِ الَّذِي ... نَصَّتِ الدُّنْيَا بِهِ نَصَّ الْهَدِيّْ
مَلِكٌ رَاحَتْـــهُ بَحْرُ النَّـــدَى ... مِثْلَمَا غُرَّتُهُ بَدْرُ النَّـــدِيّْ
أَصْـــبَحَتْ دَوْلَتُهُ فِي عَصْرِنَا ... كَفِرِنْدٍ عَادَ فِي سَيْفٍ صَدِيّْ (٤)

إلى حبيب

يَا ظَبْيَةً لَطُفَتْ مِـــنِّي مَنَازِلُهَا ... فَالْقَلْبُ مِنْهُنَّ وَالْأَحْدَاقُ وَالْكَبِدُ
حُبِّي لَكِ النَّاسُ طُرًّا يَشْهَدُونَ بِهِ ... وَأَنْتِ شَاهِدَةٌ إِنْ يَكْتُمُوهُ حَسَدُ
لَمْ يَعْزُبِ الْوَصْـــلُ فِيمَا بَيْنَنَا أَبَداً ... لَوْ كُنْتِ وَاجِدَةً مِثْلَ الَّذِي أَجِدُ

---

(١) المخايل من السحب : المنذرة بالمطر . قال مروان ابن أبي حفصية :
« إن أخلف الغيث لم تخلف مخايله »
وهي هنا بمعنى الدلائل التي تتوسم بها الشيء والشمائل : الصفات ، قال أبو تمام يرثي طفلين :
« لهفي على تلك المخايل منهما ... لو أمهلت حتى تكون شمائلا
لعدا سكونهما حجا ، وصباهما ... عزما ، وتلك الأريحية نائلا . »

(٢) تريغانه : تطلبانه ، تقول : أراغ الشيء أي أراده وطلبه ، وقد جاء في الأصل :
« وأعطيتما — فيما تريقانه — الرضى »

(٣) الصدى : الظمآن .

(٤) أعادت دولته إلى زماننا رونقه وبهاءه فصار كالسيف عاوده الصقل والرونق بعد أن علاه الصدأ .

فى مدح ابى المظفر

« وقال يمدح أبا المظفر سيف الدولة أبا بكر محمد
ابن مسلم صاحب بطليوس . »

هِيَ الشَّمْسُ مَغْرِبُهَا فِي الْكِلَلْ ... وَمَطْلَعُهَا مِنْ جُيُوبِ الْحُلَلْ (١)
وَغُصْنٌ تَرَشَّفَ مَاءَ الشَّبَابِ ... ثَرَاهُ الْهَوَى وَجَنَاهُ الْأَمَلْ (٢)
تَهَادَى لَطِيفَةَ طَيِّ الْوِشَاحِ ... وَتَرْنُو ضَعِيفَةَ كَرِّ الْمُقَلْ (٣)
وَتَبْرُزُ خَلْفَ حِجَابِ الْعَفَافِ ... وَتَسْفِرُ تَحْتَ نِقَابِ الْخَجَلْ (٤)
بَدَتْ فِي لِدَاتٍ ـ كَزُهْرِ النُّجُومِ ـ ... حِسَانِ التَّحَلِّي مِلَاحِ الْعَطَلْ
مَشَيْنَ يُهَادِينَ رَوْضَ الرُّبَا ... بِيَانِعِ رَوْضِ الصِّبَا الْمُقْتَبَلْ
فَمِنْ قُضُبٍ تَتَثَنَّى بِرِيحٍ ... وَمِنْ قُضُبٍ تَتَثَنَّى بِدَلْ
وَمِنْ زَهَرَاتٍ تُنَدَّى بِمِسْكٍ ... وَمِنْ زَهَرَاتٍ تُنَدَّى بِطَلّ
تَعَاهَدَ صَوْبُ الْعِهَادِ الْحِمَى ... وَلَا زَالَ مَرْبَعُهَا فِي مَلَلْ (٥)

---

(١) الكلل : جمع كلة ، وهى ستر رقيق مربع يتوقى به من البعوض ونحوه ، والجيوب : جمع جيب ، وهو من القميص طوقه ، والحلل : جمع حلة بالضم وهى إزار ورداء (برد أو غيره) ولا تكون حلة إلا من ثوبين أو ثوب له بطانة ، والمعنى أن هذه الحسناء شمس تغرب فى الكل كما تغيب الشمس فى مغربها ، وتشرق من جيوب الحلل كما تطلع الشمس من مشرقها .

(٢) وهى غصن غرس فى أرض الهوى وارتوى بماء الشباب لاماء السحاب فأجنانا ثمرة الأمل .

(٣) تتهادى : تمشى مشية فى مهل وتثاقل ، وترنو : تنظر بمؤخر عينها ، يعنى أنها تتهادى بين أترابها يكاد ينعدم ما انطوى عليه الوشاح من الحصر ، وتكر بسيف لحظها من جفون فاترة مريضة .

(٤) تسفر : مضارع سفرت المرأة سفورا كشفت القناب عن وجهها ، يقول : إذا برزت للرجال برزت وراء حجاب يصونها من عفتها وإذا بدت لهم سافرة ستر وجهها نقاب من الحياء والخجل .

(٥) العهاد : المطر ، وصوبه نزوله ، والمربع : الموضع الذى ينزلون فيه أيام الربيع ، ولا زال مربعها فى ملل : أى ولا زال المطر يصوب فى مربعها حتى يميل لكثرة نزوله ، وفى الأصل :
« ولا مل مربعها فى ملل » وجاء فى ابن الأثير : فى حديث الاستسقاء فألف الله السحاب وملتنا ، كذا فى رواية مسلم ، قيل هى من الملل أى كثر مطرها حتى مللناها . انظر ج ٤ ص ١٠٩ من النهاية لابن الأثير .

مَرَادٌ ـ مِنَ الحُبِّ ـ غَضُّ الْجَنَى ، لَدَيْهِ ـ مِنَ الْوَصلِ ـ وِرْدٌ عَلَلْ
لَيَالِيَ مَا أُنْفَكَّ يُهْدِي السُّرُورَ حَبِيبٌ سَرَى ، وَرَقِيبٌ غَفَلْ
زَمَانٌ كَأَنَّ الْفَتَى الْمُسْلِمِيَّ تَكَنَّفَهُ عَدْلُهُ فَاعْتَدَلْ
تَدَارَكَ (١) مِنْ حُكْمِهِ أَنْ يُعِيدَ بِهِ عِزَّةَ الدِّينِ أَيَّامَ ذَلّْ
وَيُوضِحَ رَسْمَ التُّقَى ـ إِذْ عَفَا ـ وَيُطْلِعَ نَجْمَ الْهُدَى إِذْ أَفَلْ

⁂

حَمِدْنَا « الْمُظَفَّرَ » لَمَّا رَأَى « لِمَنْصُورِنَا » سِيرَةً فَامْتَثَلْ
مَلِيكٌ تَجَلَّى لَهُ غُرَّةً تَأَمَّلَهَا غِرَّةً تُهْتَبَلْ
أَشَفُّ الْوَرَى ـ فِي النُّهَى ـ رُتْبَةً ، وَأَشْهَرُهُمْ ـ فِي الْمَعَالِي ـ مَثَلْ (٢)
وَأَحْرَى الْأَنَامِ بِأَمْرٍ وَنَهْيٍ وَأَدْرَى الْمُلُوكِ بِعَقْدٍ وَحَلّْ
يَمَانٍ لَهُ التَّاجُ مِنْ بَيْنِهِمْ بِمَا أَوْرَثَ التُّبَّعُونَ الْأُوَلْ
سَنَامٌ ـ مِنَ الْمَجْدِ ـ عَالِي الذُّرَا يَظَلُّ الْعِدَا مِنْهُ تَحْتَ الْأَظَلّْ (٣)
تَقَيَّلَ ـ فِي الْمَهْدِ ـ ظِلَّ اللِّوَاءِ وَسِيمَ النُّهُوضَ بِهِ فَاسْتَقَلّْ (٤)
وَنِيطَتْ حَمَائِلُهُ الْوَافِيَاتُ ـ مَكَانَ تَمَائِمِهِ ـ فَاحْتَمَلْ
وَمَا بَلَّتِ الْبُرْدَ تِلْكَ الدُّمُو عُ إِلَّا وَفِي الْبُرْدِ لَيْثٌ أَبَلّْ (٥)

---

(١) فى الأصل : « تبارك »

(٢) وقف على « مثل » بالسكون مع أنه منصوب لوقوعه تمييزا ، وربيعة يجرون المنصوب فى الوقف مجرى المرفوع والمجرور فيقفون عليه بالسكون ، وقد اضطرته القافية ـ فى غير ما موضع ـ أن يترك الاستعمال العاشى من لغة العرب ويلجأ إلى هذه اللغة القليلة .

(٣) باطن منسم البعير .

(٤) تقيل : استظل ، وسيم : كلف ، بالغ إلى حد الأغراق فجعل الممدوح وهو فى المهد يقود الجيوش ويتقيل ظل اللواء ويكلف النهوض بهذا العبء فيستقل بحمل اللواء وحده .

(٥) الليث الأبل : الأكل الشديد الحصومة .

عَهِدْنَا المَكَارِمَ فِيـــهِ مَعَانٍ تُبَشِّرُنَا فيـــهِ مِنهَا الجُمَلْ
تُرَى بَعْدَ بِشْرٍ يُرِيكَ الغَمَامَ تَهَلَّلَ بَارِقُهُ فَاسْـــتَهَلّْ
يُصَـــدِّقُ مَا حَدَّثَتْنَا « عَسَى » بِهِ عَنْـــهُ، أَوْ أَنبَأَتْنَا « لَعَلّْ »
فَمَا وَعَدَ الظَّنُّ إِلاَّ وَفَى وَلاَ قَالَتِ النَّفْسُ إِلاَّ فَعَلْ
فَلَـــقِّ مُنَاوِئَهُ مَا اتَّقَى وَأَعْطَى مُؤَمِّـــلَهُ مَا سَأَلْ

*

كَمِ اسْتَوْفَتِ الشُّكْرَ نَعْمَاؤُهُ فَأَقْبَلَ يُنْعِمُ مِنْ ذِي قَبَلْ (١)
غَمَامٌ يُظِلُّ ، وَشَمْسٌ تُنِيرُ ، وَبَحْرٌ يَفِيضُ ، وَسَيْفٌ يُسَلّْ
قَسِـــيمُ المُحَيَّا، ضَحُوكُ السِّمَاحِ ، لَطِيفُ الحِوَارِ ، أَدِيبُ الجَدَلْ
تُوَشِّي البَلاَغَـــةَ أَقْلاَمُهُ إِذَا مَا الضَّمِيرُ عَلَيْهَا أَمَلّْ (٢)
بَيَانٌ يُبَـــيِّنُ ـ لِلسَّامِعِيـــنَ ـ أَنَّ مِنَ السِّحْرِ مَا يُسْتَحَلّْ (٣)
أَلاَ هَلْ سَبِيلٌ إِلَى العَيْبِ فِيـــهِ فَكَمْ عَيْنَ ـ مِنْ قَبْلِهِ ـ مَنْ كَمَلْ (٤)

---

(١) يقال : لقيته من ذى قبل (بفتحتين وبكسر وفتح) أى فيما يستقبل .

(٢) يقال أمل عليه الكتاب أى أملاه ليكتبه ، وفى الكتاب العزيز : (فليكتب وليملل الذى عليه الحق) وفيه أيضا : (وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه)

(٣) السحر الذى يستحل هو سحر البيان ، وفيه الاشارة إلى المثل المشهور : إن من البيان لسحرا ، قاله النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين وفد عليه ، عمرو بن الأهتم ، والزبرقان بن بدر ، وقيس ابن عاصم ، فسأل عليه الصلاة والسلام عمرو بن الاهتم عن الزبرقان . فقال عمرو : « مطاع فى أدنيه ، شديد العارضة ، مانع لما وراء ظهره» . فقال الزبرقان : «يا رسول الله ! إنه ليعلم منى أكثر من هذا، ولكنه حسدنى » . فقال عمرو : « أما والله ! إنه لزمن المروءة ، ضيق العطن ، أحمق الوالد ، لئيم الخال ، والله يا رسول الله ما كذبت فى الأولى ، ولقد صدقت فى الأخرى ، ولكنى رجل رضيت فقلت أحسن ما علمت ، وسخطت فقلت أقبح ما وجدت» . فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : «إن من البيان لسحرا »، وإنما سمى البيان سحرا لتأثيره فى سامعه ، وسرعة قبول القلب له .

(٤) عين : أصيب بالعين ، من عان المحسود يعينه فهو عائن والمحسود معين أصابه بالعين ، يقول : هل من سبيل إلى وجود عيب واحد فيه يقيه شر أعين الحاسدين ، فكثيرا ما أصيب بالعين الكامل الذى لا نقص فيه ولا عيب . وهذا قريب من قول القائل :

«ما كان أحوج ذا الكمال إلى عيب يوقيـــه من العين . »

* * *

لَئِنْ لَبِسَ الْمُلْكَ رَحْبَ الْمُلَا ... ءِ فَاخْتَالَ مِنْهُ بِذَيْلٍ رَفَلْ
فَإِنَّ تَزَوُّدَهُ لِلْمَعَالِي ... وَإِنَّ تَأَهُّبَـــهُ لِلْاجَلْ
فَأَخْـــبَرُ سُوَّاسِ هٰذِي الْأُمُورِ ... وَنَاسِكُ أَرْبَابِ هٰذِي الدُّوَلْ

* * *

وَلِيتَ الثُّغُورَ فَلَمْ تَعْدُ أَنْ ... رَأَبْتَ الثَّأَى (١) وَسَدَدْتَ الْخَلَلْ
سِوَاكَ - إِذَا قُلِّدَ الْأَمْرَ - جَارَ، ... وَغَيْرُكَ - إِنْ مُلِّكَ الْفَيْءَ - غَلّ (٢)
حِمًى لَا يَزَالُ لِمَنْ حَـــلَّهُ ... أَمَانَانِ : مِنْ عَدَمٍ، أَوْ وَجَلْ (٣)
فَأَنْجُمُ دَهْرِهِمُ سَـــعْدَةٌ ... وَشَمْسُ زَمَانِهِمُ فِي الْحَمَلْ (٤)

* * *

« أَبَا بَكْرٍ » اسْمَعْ أَحَادِيثَ لَوْ ... تُبَثُّ بِسَـــمْعِ عَلِيلٍ أَبَلْ (٥)
سَأَشْكُرُ أَنَّكَ أَعْلَيْتَنِي ... بِأَحْظَى مَكَانٍ وَأَدْنَى مَحَـــلّ
وَأَنِّيَ إِنْ زُرْتُ لَمْ تَحْتَجِبْ ... وَإِنْ طَالَ بِي مَجْلِسٌ لَمْ تَمَلّ

---

(١) الثأى : الفساد ، ورأبته أصلحته .

(٢) الفيء : ما حصل للمسلمين من أموال الكفار عفوا بلا قتال ، وتقسيمه غير تقسيم الغنائم ، وغل : خان ، وخصه بعضهم بالغلول (أى الخيانة) فى الفيء والمغنم ، وهو من قول الله عزّ وجلّ : « وما كان لنبي أن يغل . »

(٣) عدم أو وجل : أى فقراً وخوف .

(٤) سعدة : صفة للأنجم ، يقال : يوم سعد وليلة سعدة ، وفى الأصل : « وأنجم دهرهم أسعد » وأسعد وصف للمذكر ، ولا يصح وصف الأنجم به ، وفى السماء كواكب يقال لكل منها : « سعد » وسعود النجوم عشرة وهى : « سعد الذابح ، وسعد بلع ، وسعد السعود ، وسعد الأخبية ، وسعد ناشره ، وسعد الملك ، وسعد البهام ، وسعد الهمام ، وسعد البارع ، وسعد مطر . »

(٥) صح من مرضه .

تَبَسَّمْتَ ثُمَّ ثَنَيْتَ الْوِسَادَ ... فَحَسْبِيَ مِنْ خَطَرٍ مَا أَجَلّْ (١)

فَلَوْ صَافَحَ التِّبْرَ خَدِّي لَهَانَ ... وَلَوْ كَاثَرَ الْقَطْرَ شُكْرِي لَقَلّْ

بِأَمْثَالِهَا يُسْتَرَقُّ الْكَرِيمُ ... إِذَا مَطْمَعٌ بِسِوَاهُ أَخَلّْ

* * *

فَلَا تَعْدَمَنْكَ الْمَسَاعِي الَّتِي ... لِأُمِّ الْمَنَاوِيكَ فِيهَا الْهَبَلْ (٢)

فَأَنْتَ الْجَرِيءُ - إِذَا الشِّبْلُ هَابَ - ... وَأَنْتَ الدَّلِيلُ، إِذَا النَّجْمُ ضَلّْ

وَمَا أَبْنُكَ إِلَّا جِلَاءُ الْعُيُونِ ... إِذَا نَاظِرٌ - بِسِوَاهُ - اكْتَحَلْ

رَبِيبُ السِّيَادَةِ - فِي حِجْرِهَا - ... تُدِرُّ لَهُ ثَدْيَهَا إِذْ حَفَلْ (٣)

تَمَكَّنَ يَتْلُوكَ - فِي الصَّالِحَاتِ - ... فَلَمَّا تَفُتْهُ ، وَلَمَّا يَنَلْ

---

(١) ثنيت الوساد : الوساد المتكأ ، وثنيته أى رددت بعضه على بعض ، وذلك للينه ، أو ثنيته جعلت له ثانيا وضعته عليه ليحصل الارتفاق ، والاتكاء عليه عند الجلوس ، وهذه الحفاوة إما أن تكون حصلت بفعل مباشر من الملك تواضعا منه ومبالغة فى إكرام ذى الورارتين (ابن زيدون) ، وإما أن تكون حصلت من الخدم والاتباع بناء على أمر الملك ، يقول فى هذا البيت والبيتين قبله : سأشكر لك إنك أعليت مكانى ، وأدنيت محلى ، وإنى إن رزتك لم تحتجب وإن طال بى الجلوس فى مجلسك لم تسأم ولم تمل ، وأنى إن جئتك زائرا تبسمت وثنيت الوساد احتفاء بى ، فحسبى هذا من خطر عظيم وشرف ما أجله وما أعظمه .

(٢) يقال : هبلته أمه ثكلته ، ولأمه الهبل أى الثكل . قال الشاعر :

« والناس من يلق خيرا ، قائلون له ... مايشتهى ، ولأم المخطئ الهبل . »

وقال البحترى :

« ولاكم البغى ، ثم انساب نحوكم ... بالمشرفية فيها الثكل والهبل . »

وقال المعرى :

« دع آدما - لاشفاه الله من هبل - ... يبكى على ولده المقتول هابيلا . »

(٣) حفل : امتلأ ، حفل اللبن فى الضرع يحفل حفلا وحفولا ، وتحفل واحتفل : اجتمع وهذا ضرع حفيل أى مملوء لبناً .

موشح

ذكرى قرطبة وايام الصبا

تَنَشَّقَ ـ مِنْ عَرْفِ الصَّبَا [١] ـ مَا تَنَشَّقَا

وَعَاوَدَهُ ذِكْرُ الصِّبَا فَتَشَوَّقَا

وَمَا زَالَ لَمْعُ الْبَرْقِ ـ لَمَّا تَأَلَّقَا ـ

يُهِيبُ بِدَمْعِ الْعَيْنِ حَتَّى تَدَفَّقَا ، وَهَلْ يَمْلِكُ الدَّمْعَ الْمَشُوقُ الْمَصَبَّأُ؟ [٢]

* * *

خَلِيلَيَّ ـ إِنْ أَجْزَعْ ـ فَقَدْ وَضَحَ الْعُذْرُ

وَإِنْ أَسْتَطِعْ صَبْراً فَمِنْ شِيَمَتِي الصَّبْرُ

وَإِنْ يَكُ رُزْءٌ مَا أَصَابَ بِهِ الدَّهْرُ

فَفِي يَوْمِنَا خَمْرٌ ، وَفِي غَدِهِ أَمْرُ [٣] وَلَا عَجَبٌ ، إِنَّ الْكَرِيمَ مُرَزَّأُ

---

(١) الصبا : ريح الصبا أى ريح الشمال . والعرف : الطيب .

(٢) يهيب : مضارع أهاب بصاحبه دعاه ، أى يدعو الدمع ليتدفق ، والمصبأ : ذو الصبوة ، والصبوة جهلة الفتوة يقال صبا صبوا وصبا وصباء . وصبى إليها ـ كرضى ـ حن ، وأصبته المرأة وتصبته : شاقته ودعته إلى الصبا فحن إليها .

(٣) فى المثل : « اليوم خمر وغدا أمر » وقد قاله امرؤ القيس حين بلغه قتل أبيه ، ومعناه : اليوم ناهو وننعم تاركين إلى الغد أداء ما علينا من الواجبات والفروض . ويروى ، وهو أيضاً لامرئ القيس : « اليوم قحاف ، وغدا نقاف » والقحاف جمع قحف ، وهو إناء يشرب فيه ، والنقاف : المناقفة من نقف الهامة شقها عن الدماغ .

* * *

رَمَتْنِي اللَّيَالِي عَنْ قِسِيِّ النَّوَائِبِ
فَمَا أَخْطَأَتْنِي مُرْسَلَاتُ المَصَائِبِ
أُقَضِّي نَهَارِي بِالْأَمَانِي الْكَوَاذِبِ
وَآوِي إِلَى لَيْلٍ بَطِيءِ الْكَوَاكِبِ (١) وَأَبْطَأُ سَارٍ كَوْكَبٌ بَاتَ يُكْلَأُ

* * *

أَقُرْطُبَةَ الْغَرَّاءِ! هَلْ فِيكِ مَطْمَعُ ؟
وَهَلْ كَبِدٌ حَرَّى لِبَيْنِكِ تَنْقَعُ ؟
وَهَلْ لِلَيَالِيكِ الحَمِيدَةِ مَرْجِعُ ؟
إِذِ الْحُسْنُ مَرْأًى فِيكِ وَاللَّهْوُ مَسْمَعُ وَإِذْ كَنَفُ الدُّنْيَا لَدَيْكِ مُوَطَّأُ (٢)

---

(١) إشارة إلى البيت المشهور فى قصيدة النابغة الذبيانى :

« كليني لهم يا أميمة ناصب وليل أقاسيه بطيء الكواكب
تطاول حتى قلت ليس بمنقض وليس الذى يرعى النجوم بآئب
وصدر أراح الليل عازب همه تضاعف فيه الحزن من كل جانب . »

جعل صدره مألفاً للهموم وجعل الهموم كالابل العازبة بالنهار حتى إذا أتى الليل أراحتها الرعاة فى أماكنها والنابغة أوّل من جعل الهموم تعرب بالنهار وتتزايد بالليل ، وتبعه الشعراء فى ذلك ، فقال مجنون ليلى :

« يضم إلى الليل أطفال حبكم كما ضم أزرار القميص البنائق . »

وقال ابن الدمينة :

« نهارى نهار الناس حتى إذا بدا لى الليل هرتنى إليك المضاجع
أقضى نهارى بالحديث وبالمنى ويجمعنى والهم بالليل جامع . »

ولهذا السبب نبرم الشعراء بطول الليل فقال :

« كواكب ليلة طالت وغمت بهذا الصبح رائحة فحورى »

وقال امرؤ القيس :

« فيالك من ليل كأن نجومه بكل مغار الفتل شدت بيذبل »

وقد أكثر الشعراء من أمثال هذه المعانى فلنجتزئ بهذه الأبيات .

(٢) موطأ : ميسر مذلل .

أَلَيْسَ عَجِيباً أَنْ تَشُطَّ النَّوَى بِكِ
فَأَحْيَا كَأَنْ لَمْ أَنْسَ نَفْحَ جَنَابِكِ
وَلَمْ يَلْتَثِمْ شَمْلِي خِلَالَ شِعَابِكِ
وَلَمْ يَكُ خَلْقِي بَدْؤُهُ مِنْ تُرَابِكِ وَلَمْ يَكْتَنِفْنِي مِنْ نَوَاحِيكِ مَنْشَأُ

⁂

نَهَارُكِ وَضَّاحٌ ، وَلَيْلُكِ ضَحْيَانُ
وَتُرْبُكِ مَصْبُوحٌ ، وَغُصْنُكِ نَشْوَانُ
وَأَرْضُكِ تُكْسَى ، حِينَ جَوْكِ عُرْيَانُ
وَرَيَّاكِ رَوْحٌ لِلنُّفُوسِ وَرَيْحَانُ وَحَسْبُ الْأَمَانِي ظِلُّكِ الْمُتَفَيَّأُ (١)

⁂

أَأَنْسَى زَمَاناً « بِالْعُقَابِ » مُرَفَّلاً
وَعَيْشاً بِأَكْنَافِ « الرُّصَافَةِ » دَغْفَلاَ (٢)
وَمَغْنَى ـ إِزَاءَ « الْجَعْفَرِيَّةِ » ـ أَقْبَلاَ
لَنِعْمَ مَرَادُ النَّفْسِ رَوْضاً وَجَدْوَلاَ وَنِعْمَ مَحَلُّ الصَّبْوَةِ الْمُتَبَوَّأُ

⁂

وَيَارُبَّ مَلْهًى « بِالْعَقِيقِ » وَمَجْلِسٍ
لَدَى تُرْعَةٍ ، تَرْنُو بِأَحْدَاقِ نَرْجِسِ
بِطَاحُ هَوَاءٍ مُطْعِمِ الْحَالِ مُؤْيِسِ
مَغِيمٍ وَلَكِنْ مِنْ سَنَا الرَّاحِ مُشْمِسِ إِذَا مَا بَدَتْ ـ فِي كَأْسِهَا ـ تَتَلَأْلَأُ

---

(١) ضحيان : أى بارز ظاهر لا يستره ظلام ، وذلك لكثرة ما يضاء فى قرطبة من المصابيح والسرج بالليل . وعريان : صحو يريد أن أرضها مكسوة بالنبات وجوها صحو صافى الأديم ، المتفيأ : الذى يستظل به ويستريح فيه المقيل . (٢) الدغفل : العيش الواسع المخصب .

وَقَدْ ضَمَّنَا ـ مِنْ « عَيْنِ شُهْدَةَ » ـ مَشْهَدُ
بَدَأْنَا وَعُدْنَا فِيـــهِ ، وَالْعَوْدُ أَحْمَدُ
يَزُفُّ عَرُوسَ اللَّهْوِ أَحْوَرُ أَغْيَدُ
لَهُ مَبْسِمٌ عَذْبٌ ، وَخَدٌّ مُوَرَّدُ ، وَكَفٌّ ـ بِحِنَّاءِ الْمُدَامِ ـ تُقَنَّأُ (١)

* * *

وَكَأَنَّ عَدَوْنَا ـ مُصْعِدِينَ ـ عَلَى الْجِسْرِ (٢)
إِلَى الْجَوْسَقِ (٣) النَّصْرِيِّ بَيْنَ الرُّبَا الْعُفْرِ
وَرُحْنَا إِلَى الْوَعْسَاءِ (٤) مِنْ شَاطِئِ النَّهْرِ
بِحَيْثُ هُبُوبُ الرِّيحِ عَاطِرَةُ النَّشْرِ عَلَا قُضُبَ النُّوَّارِ ، فَهِيَ تُكَفَّأُ

* * *

وَأَحْسِنْ بِأَيَّامٍ ـ خَلَوْنَ ـ صَوَالِحٍ
بِمَضْيَعَةِ الدُّولَابِ ، أَوْ قَصْرِ نَاصِحِ
تَهُزُّ الصَّبَا ـ أَثْنَاءَ تِلْكَ الْأَبَاطِحِ ـ
صَفِيحَةَ سَلْسَالِ الْمَوَارِدِ سَائِحِ تَرَى الشَّمْسَ تَجْلُو نَصْلَهَا حِينَ يَصْدَأُ (٥)

---

(١) تقنأ : تصبغ باللون الأحمر القانى ، وذلك حين تمسك بالكأس فينعكس عليها من لون الراح مايشبه الخضاب بالحناء . (٢) وكم حرينا صاعدين على الجسر .

(٣) الجوسق : القصر ، والربا : جمع ربوة ، وهى ما ارتفع من الأرض والعفر جمع عفراء ـ وهى أرض بيضاء لم توطأ .

(٤) الوعساء : رابية من رمل لينة تنبت أحرار البقول .

(٥) يقول : إن ريح الصبا تهز خلال تلك الأباطح صفيحة جدول سلسال الموارد سائح فى الأباطح ، والشمس تجلو نصل هذا الجدول الشبيه بصفيحة السيف حين يصدأ من الطل .

* * *

وَيَا حَبَّذَا « الزَّهْرَاءُ » بَهْجَةَ مَنْظَرِ
وَرِقَّةَ أَنْفَاسٍ ، وَصِحَّـــةَ جَوْهَرِ
وَنَاهِيكَ مِنْ مَبْدَا جَمَالٍ وَمَحْضَرِ
وَجَنَّةِ عَدْنٍ تَطَّبِيكَ وَكَوْثَرِ بِمَرْأَى يَزِيدُ الْعُمْرَ ـ طِيباً ـ وَيَنْسَأُ (١)

* * *

مَعَاهِدُ ـ أَبْكِيهَا ـ لِعَهْدٍ تَصَرَّمَا (٢)
أَغَضَّ ـ مِنَ الْوَرْدِ الْجَنِيِّ ـ وَأَنْعَمَا
لَبِسْنَا الصِّبَا فِيهَا حَبِيراً مُنَمْنَمَا (٣)
وَقُدْنَا ـ إِلَى اللَّذَّاتِ ـ جَيْشاً عَرَمْرَمَا لَهُ الْأَمْنُ رِدْءٌ (٤) وَالْغَدَاوَةُ مَرْبَأُ

* * *

كَسَاهَا الرَّبِيعُ الطَّلْقُ وَشْيَ الخَمَائِلِ (٥)
وَرَاحَتْ لَهَا مَرْضَى الرِّيَاحِ الْبَلَائِلِ
وَغَادَى بُنُوهَا الْعَيْشَ حُلْوَ الشَّمَائِلِ
وَلَا زَالَ مِنَّا بِالضُّحَا وَالْأَصَائِلِ سَلَامٌ ـ عَلَى تِلْكَ الْمَيَادِينِ ـ يُقْرَأُ

---

(١) تطيبك : تعجبك وتزدهيك ، ينسأ : يؤخر ، أى يطيل العمر ، وقد مرّ التعريف بالزهراء وغيرها من آثار « قرطبة » فى الحاشية ص (٥٤ ـ ٥٦) فارجع إليها إن شئت .

(٢) تصرم : انقضى ومات :

(٣) الحبير : الناعم الجديد ، وضرب من برود اليمن والمنمنم : المنقوش الموشى .

(٤) ردء : ظهير أومعين .

(٥) الخمائل ـ جمع خميلة ـ وهى الموضع الكثير الشجر .

أَإِخْوَانَنَا ! لِلْوَارِدِينَ مَصَادِرُ
وَلاَ أَوَّلٌ إِلاَّ سَـــيَتْلُوهُ آخِرُ
وَإِنِّى ـ لِإِعْتَابِ (١) الزَّمَانِ ـ لَنَاظِرُ
فَقَدْ يَسْتَقِيلُ الْجَدُّ ـ وَالْجَدُّ عَاثِرُ ـ وَتُحْمَدُ عُقْبَى الْأَمْرِ مَازَالَ يُشْنَأُ (٢)

* * *

ظَعَنْتُ ، فَـكَانَ الْحُرُّ يُخْفِى فَيَظْعَنُ (٣)
وَأَصْبَحْتُ أَسْلُو بِالْأَسَى (٤) حِينَ أَحْزَنُ
وَقَرَّ ـ عَلَى الْيَأْسِ ـ الْفُؤَادُ الْمُوَطَّنُ
وَإِنَّ بِلاَدًا ـ هُنْتُ فِيهَا ـ لَأَهْوَنُ وَمَنْ رَامَ مِثْلِى بِالدَّنِيَّةِ أَدْنَأُ

* * *

وَلاَ يُغْبِطُ الْأَعْدَاءَ كَوْنِى فِى السِّجْنِ
فَإِنِّى رَأَيْتُ الشَّمْسَ تُحْصَنُ بِالدَّجْنِ (٥)
وَمَا كُنْتُ إِلاَّ الصَّارِمَ الْعَضْبَ فِى جَفْنِ (٦)
أَوِ اللَّيْثَ فِى غَابٍ، أَوِ الصَّقْرَ فِى وَكْنِ (٧) أَوِ الْعِلْقَ يُخْفَى ـ فِى الصِّوَارِ ـ وَيُخْبَأُ (٨)

---

(١) الاعتاب : إرضاء العاتب .
(٢) يستقيل : ينهض ، والجد : الحظ . ويشنأ : يبغض .
(٣) أى رحلت فكان رحيلى هذا لأنى اقيت جماه فترحلت عن مكان الجفوة والحر إذا نبت به أرضه هاجر إلى غيرها .
(٤) الأسى : جمع أسوة ، وهى التأسى والتجمل، قال ابن دريد :
« فان عثرت بعدها ـ إن وألت نفسى من هاتا ـ فقولا : لالعا .»
وإن تكن مدتنا موصولة بالختف سلطت الأسى على الأسى.»
أى سلطت الصبر والتجمل على الحزن .
(٥) الدجن: الغيم . (٦) جفن : غمد (٧) الوكن : عش الطائر ، لوكنة مثلة .
(٨) الصوار : وعاء المسك .

* * *

يَضِيقُ - بِأَنْوَاعِ الصَّبَابَةِ - مَذْهَبِي
إِلَى كُلِّ رَحْبِ الصَّدْرِ - مِنْكُمْ - مُهَذَّبِ
مَفَضَّضِ لَأْلَاءِ الْأَسَارِيرِ مُذْهَبِ (١)
يُنَافِسُ - مِنْهُ الْبَدْرُ - غُرَّةَ كَوْكَبِ دَرَى أَنَّهَا أَبْهَى سَنَاءً وَأَضْوَأُ

* * *

أَسِفْتُ ، فَمَا أَرْتَاحُ - وَالرَّاحُ تُثْمِلُ -
وَلَا أُسْعِفُ الْأَوْتَارَ - وَهِيَ تَرَسَّلُ -
وَلَا أَرْعَوِي عَنْ زَفْرَةٍ - حِينَ أُعْذَلُ -
وَلَا لِيَ - مُذْ فَارَقْتُكُمْ - مُتَعَلَّلُ سِوَى خَبَرٍ مِنْكُمْ - عَلَى النَّأْيِ - يَطْرَأُ

* * *

حَمِدْتُمْ - مِنَ الْأَيَّامِ - لِينَ خِلَالِهَا
وَسَرَّتْكُمُ الدُّنْيَا بِحُسْنِ دَلَالِهَا
مُؤَمِّنَةً مِنْ عَتْبِهَا وَمَلَالِهَا
وَلَا زَالَ مِنْكُمْ لَابِسٌ مِنْ ظِلَالِهَا يُسَوِّغُ أَبْكَارَ الْمُنَى وَيُهَنَّأُ

---

(١) أسارير الوجه : محاسنه ، والأسارير - جمع أسرار والأسرار جمع سرار وهى خطوط الكف .

إلى ابن عبـــدوس (١)

« وكتب إلى الوزير الكاتب أبى علىّ
ابن عبدوس معاتبا . »

---

(١) كان بين ابن زيدون وابن عبدوس عداوة أصيلة — بعد صداقة أكيدة — وكان من أكبر أسباب تلك العداوة تنازعهما على «ولادة بنت المستكفى» وقد كانت هـذه العداوة حافزا لابن زيدون على إنشاء هذه القصيدة ، كما كانت حافزا له على إنشاء رسالته الهزلية المشهورة التى ستمر بك فى هذا الكتاب . وقد كتب ابن نباته فى مقدمة الرسالة كلمة تمهيدية علل بها أسباب هذه العداوة كما كتب صاحب نفح الطيب وغيره ونحن نجتزئ بما يلى :

كانت بقرطبة امرأة ظريفة من بنات خلفاء الرب الأمويين المنسوبين إلى عبد الرحمن بن الحكم المعروف بالداخل — من بنى عبد الملك بن مروان تسمى : «ولادة بنت المستكفى بالله محمد بن المستظهر بالله عبد الرحمن» ابتذل حجابها — بعد نكبة أبيها وقتله وتعلب ملوك الطوائف — فى خبر طويل — ثم صارت تجلس للشعراء والكتاب وتعاشرهم وتحاضرهم ويتعشقها الكبراء منهم ، وكانت ذات خلق جميل وأدب غض ونوادر عجيبة ، ونظم جيد فمن ذلك ما كتبت به لابن زيدون وهى راضية عنه تقول :

« ترقب — إذا جن الظلام — زيارتى فانى رأيت الليل أكتم للسر
وبى منك ما لو كان بالبدر لم يغر ، وبالليل لم يظلم ، وبالكتم لم يسر . »

وقولها فيه وهى عليه غضبى :

« إن ابن زيدون — على فضله — يلهج بى شتما ولا ذنب لى
يلحظنى شزرا إذا جئته كأنما جئت لأحصى على . »

تعنى غلاما له يسمى عليا . وكان سبب قولها فيه هذا الشعر أنه اتهمها بمواصلة الوزير «أبى عامر بن عبدوس» وكان يلقب بالفار ، فقال فيه وفيها :

« عيرتمونا بأن قد صار يخلفنا — فيمن نحبّ — وما فى ذاك من عار
أكل شهىّ ، أصبنا من أطايبه بعضا ، وعفنا صفحنا عنه للفار . »

ومن شعرها ما كتبت به على كمها وقيل : على تاجها :

« أنا والله أصلح للمعالى وأمشى مشيتى وأتيه تيها
وأمكن عاشقى من ثم ثمرى وأعطى قبلتى من يشتهيها . »

ومما ينسب إليها وهو عندى كثير على شعر امرأة :

« لحاظكم تجرحنا فى الحشى ولحظنا يحرحكم فى الخدود
جرح بجرح ، فاجعلوا ذا بذا فما الذى أوجب جرح الصدود . »

وكان ابن زيدون كثير الشغف بها ، والميل إليها ، وأكثر غزل شعره فيها وفى اسمها ، ثم إن الوزير «أبا عامر بن عبدوس» أيضاً هام بها وكلف بعشرتها ، وكان تصدم الظرف والأدب ، وكانت «ولادة» كثيرة العبث به ، ولها معه نوادر ظريفة ، ومن نوادرها الظريفة أنها مرت يوما بدار «ابن عبدوس» وهو جالس بالباب وحوله جماعة من أصحابه — وأمامه بركة ؛ ولد من مراحيض وأقذار — فوقفت عليه وقالت يا أبا عامر :

« أنت الخصيب وهذه مصر فتدفقا فكلاكما بحر . »

أَثَرْتَ هِزَبْرَ الشَّرَى ـ إِذْ رَبَضْ ـ وَنَبَّهْتَهُ إِذْ هَدَا فَاغْتَمَضْ (١)
وَمَازِلْتَ تَبْسُطُ (٢) ـ مُسْتَرْسِلاً ـ إِلَيْهِ يَدَ الْبَغْيِ لَمَّا انْقَبَضْ

* * *

حَذَارِ حَذَارِ فَإِنَّ الْكَرِيمَ ـ إِذَا سِيمَ خَسْفاً ـ أَبَى فَامْتَعَضْ
فَإِنَّ سُكُونَ الشُّجَاعِ النُّهُو سِ (٣) لَيْسَ بِمَانِعِهِ أَنْ يَعَضّ
وَإِنَّ الْكَوَاكِبَ لاَ تُسْتَزَلُّ وَإِنَّ الْمَقَادِيرَ لاَ تُعْتَرَضْ
إِذَا رِيعَ فَلْيَقْتَصِدْ مُسْرِفٌ مَسَاعٍ يُقَصِّرُ عَنْهَا الْحَفَضْ (٤)
وَهَلْ وَارِدُ الْغَمْرِ مِنْ عِدِّهِ يُقَاسُ بِهِ مُسْتَشِفُّ الْبَرَضْ (٥)

فلم يحر جوابا، فمضت وحفظت هذه النادرة، واشتغل بها الناس، وهذا البيت لأبي نواس تمثلت به ونقلته هذا النقل الحسن من ـ المدح إلى الهجاء ـ وكان كثيرا مايخدعها ويبغى التفرد بها ، وفى ذلك يقول ابن زيدون:

« وغرك من عهد ولادة سراب تراءى وبرق ومض
هى الماء يأبى على قابض ويمنع زبدته من محض . »

وكان أول أمرها معه والباعث لابن زيدون على إنشاء هذه الرسالة : أن «ابن عبدوس» لما سمع بها أرسل إليها امرأة من جهته تستميلها إليه وتذكر لها محاسنه ومناقبه وترغبها فى التفرّد بمواصلته ، فبلغ ابن زيدون ذلك ، فكتب هذه الرسالة البديعة جوابا له عن لسانها تتضمن هذه الغرائب من سب أبي عامر والتهكم له والهجاء له وجعلها جوابا له على لسان ولادة ، وأرسلها إليه عقيب رجوع المرأة ـ فبلغت منه كل مبلغ، واشتهر ذكرها فى الآفاق، وأمسك «ابن عبدوس» عن التعرّض لولادة إلى أن انتقل «ابن زيدون» إلى «اشبيلية» وتوفى بها تغمده الله برحمته ، وغفر لنا ولهم بمنه وكرمه. هذا معنى مادكره ابن حيان وابن بسام وغيرهما من المؤرخين .

(١) أثرت : هجت ، والهزبر : من أسماء الأسد ، والشرى : موضع تكثر فيه الأسود ، وربض : آوى إلى عرينه ، وهدأ : نام .

(٢) يقول : وما زلت تبسط يد البطش والبغى على ذلك الأسد الرابض فى مجثمه على حين أمست يده المنقبضة عنك .

(٣) النهوس : العضوض ، والشجاع الذكر من الحيات ، قال القائل :

« أتيح له ـ وكان أخا عيال ـ شجاع ـ فى الحماطة ـ مستكن . »

(٤) الحفض : الجمل الضعيف .

(٥) العد : أراد به هنا معين الماء الذى له مادة لا تنقطع ، يقال ماء عد أى كثير دائم لا ينقطع ، البرض : القليل . قال ابن دريد :

« أرمق العيش على برض فان رمت ارتشافا رمت صعب المنتسى »

يقال ماء برض (بالسكون) أى قليل وهو خلاف الغمر، والمستشف : الذى يأتى على آخر ما فى الاناء عند الشرب.

إذا الشَّمْسُ قَابَلْتَهَا ـ أَرْمَدَا ـ فَحَظُّ جُفُونِكَ فِى أَنْ تُغَضّْ (١)

* * *

أَرَى كُلَّ مُجْرٍ « أَبَا عَامِرٍ » يُسَرُّ إِذَا فِى خَلَاءٍ رَكَضْ
أُعِيذُكَ مِنْ أَنْ تَرَى مِنْزَعِى (٢) إِذَا وَتَرِى بِالْمَنَايَا انْقَبَضْ
فَإِنِّى أَلِينُ لِمَنْ لَانَ لِى وَأَتْرُكُ مَنْ رَامَ قَسْرِى حَرَضْ (٣)
وَكَمْ حَرَّكَ الْعُجْبُ مِنْ حَائِنٍ فَغَادَرْتَهُ ، مَا بِهِ مِنْ حَبَضْ (٤)

* * *

« أَبَا عَامِرٍ » أَيْنَ ذَاكَ الْوَفَاءُ إِذِ الدَّهْرُ وَسْنَانُ، وَالْعَيْشُ غَضّْ؟
وَأَيْنَ الَّذِى كُنْتَ تَعْتَدُّ مِنْ مُصَادَقَتِى الْوَاجِبَ الْمُفْتَرَضْ؟
تَشُوبُ وَأَمْحَضُ (٥) مُسْتَبْقِيًا وَهَيْهَاتَ مَنْ شَابَ مِمَّنْ مَحَضْ!

* * *

أَبِنْ لِى ، أَلَمْ أَصْطَلِعْ نَاهِضًا (٦) بِأَعْبَاءِ بِرِّكَ ، فِيمَنْ نَهَضْ؟
أَلَمْ تَنْشَ مِنْ أَدَبِى نَفْحَةً حَسِبْتَ بِهَا الْمِسْكَ طِيبًا يُفَضّْ؟

---

(١) قال المتنبي :

« قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد وينكر الفم طعم الماء من سقم . »

(٢) المنزع : السهم الذى يرمى به أبعد ما يقدر عليه لتقدر به الغلوة قال الأعشى :

فهو كالمنزع المريش من الشو حط عالت به يمين المغالى

(٣) حرض : ساقط لايقوى على النهوض .

(٤) الحبض : التحرك والصوت ، والقوة وبقية الحياة ، يقول : كم دفع الغرور من قرب حينه إلى من وأنى فتركته ميتا لاحراك به .

(٥) أى تمزج الصافى بالكدر وأصفيك الهوى خالصا من كل شائبة .

(٦) وفى رواية : « عاديا »

أَلَمْ تَكُ مِنْ شِيَمَتِي غَادِيًا ... إِلَى تُرَعٍ ضَاحَكَتْهَا فُرَضْ[1] ؟
وَلَوْلَا اخْتِصَاصُكِ لَمْ أَلْتَفِتْ ... لِحَالِيكَ مِنْ صِحَّةٍ أَوْ مَرَضْ
وَلَا عَادَنِي - مِنْ وَفَاءٍ - سُرُورٌ ... وَلَا نَالَنِي - لِجَفَاءٍ - مَضَضْ
يَعِزُّ اعْتِصَارُ الْفَتَى وَارِدًا ... إِذَا الْبَارِدُ الْعَذْبُ أَهْدَى الْجَرَضْ[2]

* * *

عَمَدْتَ لِشِعْرِي وَلَمْ تَتَعَبْ[3] ... تُعَارِضُ جَوْهَرَهُ بِالْعَرَضْ
أَضَاقَتْ أَسَالِيبُ هٰذَا الْقَرِيضِ ؟ أَمْ قَدْ عَفَا رَسْمُهُ فَانْقَرَضْ ؟

* * *

لَعَمْرِي لَفَوَّقْتَ سَهْمَ النِّضَالِ ... وَأَرْسَلْتَهُ، لَوْ أَصَبْتَ الْغَرَضْ[4]
وَشَمَّرْتَ لِلْخَوْضِ فِي لُجَّةٍ ... - هِيَ الْبَحْرُ - سَاحِلُهَا لَمْ يُخَضْ
وَغَرَّكَ مِنْ عَهْدِ « وَلَّادَةٍ »[5] ... سَرَابُ تَرَاءَى وَبَرْقٌ وَمَضْ
تَظُنُّ الْوَفَاءَ بِهَا وَالظُّنُو ... نُ فِيهَا تَقُولُ عَلَى مَنْ فَرَضْ :
« هِيَ الْمَاءُ يَأْبَى عَلَى قَابِضٍ[6] ... وَيَمْنَعُ زُبْدَتَهُ مَنْ مَخَضْ »

---

(١) الفرض — جمع فرضة ، والفرضة من النهر ثلمة يستقى منها ومن البحر محط السفن .

(٢) وفى الأصل : « ولكن يعز اغتصار الفتى واردا » ، والجرض معناه الغصص بالريق ، يقال جرض بريقه : ابتلعه بالجهد . والاغتصار : أن يغص الانسان بالطعام فيغتصر بالماء ، وهو أن يشربه قليلا قليلا ، قال عدى بن زيد :

« لو بغير الماء حلقى شرق ... كنت كالغصان بالماء اعتصارى . »

(٣) ولم تأل جهدا . (٤) الغرض : الهدف .

(٥) وفى الأصل : « وغرك من عهد فعالة » ولكنه فى بقية الروايات : « ولادة »

(٦) وفى رواية : « هى الماء يعز على قابض » .

وَنُبِّئْتُهَا بَعْدِيَ اسْتُحْمِدَتْ بِسِرِّي إِلَيْكَ لِمَعْنًى غَمَضْ

* * *

« أَبَا عَامِرٍ » عَثْرَةً فَاسْتَقِلْ لِتُبْرِمَ مِنْ وُدِّنَا مَا انْتَقَضْ

وَلَا تَعْتَصِمْ ضَلَّةً بِالْحِجَاجِ (١) وَسَيِّمْ فَرُبَّ احْتِجَاجٍ دُحِضْ

وَإِلَّا انْتَحَتْكَ جُيُوشُ الْعِتَابِ مُنَاجِزَةً فِي قَضِيضٍ وَقَضّْ

* * *

وَأَنْذِرْ خَلِيلَكَ مِنْ مَاهِرٍ بِطِبِّ الْجُنُونِ إِذَا مَا عَرَضْ

كَفِيلٌ بِبَطِّ خِرَاجٍ قَسَا (٢) جَرِيءٌ عَلَى شَقِّ عِرْقٍ نَبَضْ

يُبَادِرُ بِالْكَيِّ قَبْلَ الضِّمَادِ وَيُسْعِطُ بِالسَّمِّ لَا بِالْحَضَضْ

وَأَشْعِرْهُ أَنِّي انْتَخَبْتُ الْبَدِيلَ وَأَعْلِمْهُ أَنِّي اسْتَجَدْتُ الْعِوَضْ

فَلَا مَشْرَبِي ـ لِقِلَاهُ ـ أَمَرّْ وَلَا مَضْجَعِي ـ لِنَوَاهُ ـ أَقَضّْ

وَإِنَّ يَدَ الْبَيْنِ مَشْكُورَةٌ لِعَارٍ أَمَاطَ وَوَصْمٍ رَحَضْ (٣)

وَحَسْبِيَ أَنِّي أَطَبْتُ الْجَنَى لِإِبَّانِهِ ، وَأَبَحْتُ النُّفَضْ (٤)

وَيَهْنِيكَ أَنَّكَ يَا سَيِّدِي غَدَوْتَ مُقَارِنَ ذَاكَ الرَّبَضْ (٥)

---

(١) الحجاج : الخاجة والجدل .

(٢) وفى الأصل : « خراج حرى . »

(٣) رحض : غسل .

(٤) النفض : ماسقط من الورق والثمر وحب العنب حين يوجد بعضه فى بعض .

(٥) الربض : الأمعاء أو ما فى البطن سوى القلب ، ومأوى الغنم ، وقولك الذى يكفيك من اللبن .

مدح ابن جهور وشكر باديس [1]

« وقال من قصيدة طويلة يمدح بها الوزير
الأجل محمد بن جهور . »

سَلِ الْمَعْشَرَ الْأَعْدَاءَ ـ إِنْ رُمْتَ صَرْفَهُمْ ـ عَنِ الْقَصْدِ إِنْ أَعْيَاكَ مِنْهُ مَرَامُ
أَتَوْكَ كَآسَادِ الشَّرَى فَرَدَدْتَهُمْ كَمَا أَجْفَلَتْ وَسْطَ الْفَلَاةِ نَعَامُ
مَضَوْا يَسْأَلُونَ النَّاسَ عَمَّا وَرَاءَهُمْ فَيُخْبِرُهُمْ ـ بِالْمُبْكِيَاتِ ـ عِصَامُ [2]

---

(١) سبق الكلام عن « باديس » وعن « صنهاجة » فى ص (٢٢٠ و ٢٢١) من هذا الديوان ، فليرجع إليها من شاء .

(٢) يقول المثل : « ما وراءك يا عصام ؟ » وجاء فى مجمع الأمثال عن المفضل الضبي أن أول من قال ذلك الحرث بن عمرو ملك كندة ، وذلك أنه لما بلغه جمال ابنة عوف بن عُلم الشيبانى وكمالها وقوة عقلها ، دعا امرأة من كندة يقال لها « عصام » ذات عقل ولسان ، وأدب وبيان ، وقال لها : اذهبي حتى تعلمى لى علم ابنة عوف ، فمضت حتى انتهت إلى أمها ، وهى « أمامة » بنت الحرث ، فأعلمتها ما قدمت له ، فأرسلت « أمامة » إلى ابنتها وقالت : أى بنية ! هذه خالك أتت لتنظر إليك فلا تسترى عنها شيئا إن أرادت النظر ، من وجه أو خلق ، وتاطقيها إن استنطقتك ، فدخلت إليها ، فنظرت إلى عالم تر قط مثله ، فخرجت من عندها وهى تقول : « ترك الحداع ، من كشف القناع . » فأرسلتها مثلا ، ثم انطلقت إلى الحرث فلما رآها مقبلة ، قال لها : « ما وراءك يا عصام . » قالت : « صرح المحض عن الزبد . » رأيت جبهة كالمرآة المصقولة ، يزينها شعر حالك كأذناب الخيل ، إن أرسلته خلته السلاسل ، وإن مشطته قلت عناقيد جلاها الوابل ، وحاجبين كأنما خطا بقلم ، أو سوّدا بمحم ، تقوسا على مثل عين ظبية عبهرة ، بينهما أنف كحد السيف الصنيع ، حفت به وجنتان ، كالأرجوان ، فى بياض كالجمان ، شق فيه فم كالخاتم لذيذ المبتسم ، فيه ثنايا غر ذات أشر ، تقلب فيه لسان ، ذو فصاحة وبيان ، بمثل وافر ، وجواب حاضر ، تلتقى فيه شفتان حمراوان ، فى رقبة بيضاء كالفضة ، ركبت فى صدر كصدر تمثال دمية ، وعضدان مدمجان ، يتصل بهما ذراعان ، ليس فيهما عظم يمس ، ولا عرق يجس ، ركبت فيهما كفان دقيق قصبهما ، لين عصبهما ، تعقد إن شئت منهما الأنامل ، نشأ فى ذلك الصدر ثديان كالرمانتين يخرقان عليها ثيابها ، تحت ذلك بطن طوى طىّ القباطى المدمجة ، كسر عكنا كالقراطيس المدرجة ، تحيط بذلك المكن سرة كالمدهن المجلو ، خلف ذلك ظهر فيه كالجدول ، ينتهى إلى خصر لولا رحمة الله لانبتر ، لها كفل يقعدها إذا نهضت ، وينهضها إذا قعدت ، كأنه دعص الرمل ، لبده سقوط الطل ، يحمله فخذان لفاوان ، تحتهما ساقان خدلجتان ،

وَمَا ضَاقَ عَنْهُمْ جَانِبُ الْعُذْرِ إِنَّهُمْ كَمِثْلِ الْقَطَا لَوْ يُتْرَكُونَ لَنَامُوا (١)

يحمل ذلك قدمان ، لكذو اللسان ، فتبارك الله مع صغرهما ، كيف تطيقان حمل ما فوقهما ؟ . فارسل الملك إلى أبيها فخطبها فروجها إياه وبعث بصدافها فجهزها إليه ، فلما أرادوا أن يحملوها إلى زوجها قالت لها أمها : أى بنية ! إن الوصية لو تركت لفضل أدب لتركت ذلك منك ، ولكنها تذكرة للغافل ، ومعونة للعاقل ، ولو أن امرأة استغنت عن الزوج لغنى أبويها ، وشدة حاجتهما إليها ، لكنت أغنى الناس عنه ، ولكن النساء للرجال خلقن ، ولهن خلق الرجال ، أى بنية ! إنك إن فارقت الجو الذى منه خرجت ، وخالفت العش الذى فيه درجت ، إلى وكر لم تعرفيه ، وقرين لم تألفيه ، فأصبح بملكه عليك رقيبا ومليكا ، فكونى له أمة يكن لك عبدا وشيكا ، الى آخر ما جاء فى هذا الخبر ، قال فى مجمع الأمثال بعد سياقة هذا الخبر : وروى أبو عبيد ، ما وراءك على التذكير ، وقال : يقال إن المتكلم به النابغة الذبيانى قاله لعصام بن شهير حاجب النعمان وكان النعمان مريضاً ، وقد أرجف بموته ، فسأله النابغة عن حال النعمان ، فقال : « ما وراءك يا عصام . » ومعناه ماخلفت من أمر العليل ، أو ما أمامك من حاله ، ووراء من الأضداد .

(١) يشير إلى المثل المشهور : « لو ترك القطا ليلا لنام » يضرب لمن حمل على مكروه من غير إرادته .

وقد تمثل به الحسين بن على (رضى الله عنه) فى الليلة الأخيرة التى تلاها مصرعه ، قال علىّ ابنه :

إنى لحالس فى تلك العشية — التى قتل أبى فى صبيحتها — وعمتى « زينب » عندى تمرضنى ، إذ اعتزل أبى بأصحابه — فى خباء له — وعنده « حوىّ » مولى « أبى ذر » — وهو يعالج سيفه ويصلحه — وأبى يقول :

«يادهر : أف لك من خليل
كم لك — بالاشراق والأصيل —
من صاحب ، أو طالب قتيل
والدهر لا يقنع بالبديل
وإنما الأمر إلى الجليل
وكل حىّ سالك السبيل . »

قال علىّ بن الحسين :

فأعادها أبى مرتين أو ثلاثاً — حتى فهمتها — فعرفت ما أراد ، فخنقتنى عبرتى ، فرددت دمعى ولزمت السكوت ، وعلمت أن البلاء قد نزل ، فأما عمتى فانها سمعت ما سمعت — وهى امرأة ، وفى النساء الرقة والجزع — فلم تملك نفسها أن وثبت تجر ثوبها — وإنها لحاسرة — حتى انتهت إليه ، فقالت :

« واثكلاه ! ليت اليوم أعدمنى الحياة ! اليوم مانت « فاطمة » أمى و « علىّ » أبى و « حسن » أخى . يا خليفة الماضى ، وثمال الباقى . » فنظر الحسين ، فقال :

« يا أخيه ! لايذهبن حلمك الشيطان ! »

قالت : « بأبى أنت وأمى ، يا أبا عبد الله استقتلت ، نفسى فداك ! » فردّ غصته ، وترقرقت عيناه ، وقال :

« لو ترك القطا ليلا لنام ! »

* * *

فِدَاءٌ « لِبَادِيسَ » النُّفُوسُ ، وَجَادَهُ ... مِنَ الشُّكْرِ ـ فِى أُفْقِ الْوَفَاءِ ـ غَمَامُ
فَمَا لَحِقَتْ تِلْكَ الْعُهُودَ مَلَامَةٌ ... وَلَا ذُمَّ ـ مِنْ ذَاكَ الْحِفَاظِ ـ ذِمَامُ (١)
وَمِثْلُكَ وَالَى مِثْلَهُ فَتَصَافَيَا ... كَمَا صَافَتِ ـ الْمَاءَ الْقَرَاحَ ـ مُدَامُ
رَسِيلُكَ ـ فِى شَأْوِ الْمَعَالِى ـ كِلَاكُمَا ... بَعِيدُ الْمَدَى صَعْبُ الْهُمُومِ هُمَامُ

* * *

لَعَمْرِى لَقَدْ أَحْظَيْتَهُ بِوِفَادَةٍ ... لِاسْنَى كَرِيمٍ أَنْجَبَتْهُ كِرَامُ
فَمَا أَنْفَكَّ إِلَّا عَدْلَ نَفْسِكَ إِنْ يَسِرْ ... فَلِلْجِسْمِ لَا لِلنَّفْسِ مِنْكَ مُقَامُ (٢)
حُسَامُكَ مَهْمَا تَخْتَرِطْهُ لِمِثْلِهَا ... فَقَلَّ غَنَاءُ السَّيْفِ حِينَ يُشَامُ

اسم من أحب

« وقال فى معشوقة يؤخذ اسمها بالتوالى من أرض وسماء وماء ، فيتكوّن من مجموعها « أسماء » . »

إِنَّ لِلْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ وَلِلْمَا ... ءِ عَلَيْنَا أَذِمَّةً لَا تُذَمُّ
هِىَ بَعْضُ اسْمِ مَنْ أُحِبُّ وَلَاءً ... وَبِتَكْرِيرِ بَعْضِهَا يَسْتَتِمُّ

قالت :

« يا ويلتا ! أفتنصب نفسك اغتصاباً ؟ فذلك أفرح لقلبى ، وأشد على نفسى ! » ولطمت وجهها ، وأهوت إلى جيبها وشقته ، وخرت مغشياً عليها .

فقام إليها الحسين فصبّ على وجهها الماء ، وعزّاها بكلام طويل يرجع إليه القارئ ـ إذا شاء فى كتابنا « مصارع الأعيان » من ص « ٢٥ إلى ٥٦ »

(١) عهد . (٢) وفى الأصل :

« فما ابتك إلا عدل نفسك ، إن يسر فللجسم ـ لا للنفس منك ـ مقام . »

وقال

« كان أبو العطاف بن حيي إذ ورد إشبيلية رسولا قد سأله أن يريه من شعره ، فطله حتى كتب إليه شعرا يستمطئه فيه ، فجاوبه عليه فى عروضه وقافيته . »

أَفَدْتَنِي مِنْ نَفَائِسِ الدُّرَرِ ... مَا أَبْرَزَتْهُ غَرَائِرُ الْفِكَرِ (١)

مِنْ لَفْظَةٍ قَارَنَتْ نَظِيرَتَهَا ... قِرَانَ سُقْمِ الْجُفُونِ لِلْحَوَرِ (٢)

أَبْدَعَهَا خَاطِرٌ ، بَدَائِعُهُ ... فِي النَّظْمِ حَازَتْ جَلَالَةَ الْخَطَرِ

الْعِطْرُ مِنْهَا سَرَى لَهُ نَفَسٌ ، ... مِنْ نَفَسِ الرَّوْضِ رَقَّ فِي السَّحَرِ (٣)

* * *

يَا رَاقِمَ الْوَشْيِ ـ زَانَهُ ذَهَبٌ ـ ... رَقْرَقَ إِذْ رَفَّ مِنْهُ فِي الطُّرَرِ (٤)

---

(١) يقول : أفدتنى من نفائس كلك الشبيهة بالدر انشقت عنه الأصداف ما أبرزته غرائز فكرك من مكنون روائع الكلم ، وبدائع الحكم .

(٢) سقم الجفون : فتورها ، والحور : فى العين شدة سواد المقلة فى شدة بياض لون الجسد ، وقيل الحور أن تسود العين كلها كما فى أعين الظباء والبقر ، وهذا ليس بموجود فى الآدميين ، يقول : أكسبتنى من نفائس درر كل لفظة وافقت قرينتها ، وقارنت نظيرتها ، قران سقم الجفون ، لحور العيون .

(٣) يقول : العطر من هذه الكلم البديعة التى أبدعها خاطرك سرى له نفس يحكى فى الأريج والرقة نفس الروض العطر ، سرى به النسيم وقت السحر ، وفى الأصل : « أعطر مهما سرى له نفس . » ، وما أثبتناه هنا هو ما يرشد إليه السياق .

(٤) الوشى : النقش ، ورقرق : تحرك ولمع وصار له بصيص وتلالؤ ، ورف يقال : رف اللون والذهب والبرق يرف (بالكسر) رفيفا برق وتلألأ ، ورفت الأسنان كذلك ، وفى الحديث أن « النابغة » الجعدى أنشد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

« ولا خير فى حلم إذا لم تكن له ... بوادر تحمى صفوه أن يكدرا

ولا خير فى جهل إذا لم يكن له ... حليم إذا ما أورد الأمر أصدرا . »

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : لا يفضض الله فاك . » فبقيت أسنانه ترف حتى مات ، يقول : يا كاتبا يرقم فى الكتاب ما يحكى البرد الموشى المذهب الطرر والحواشى ، والذى للونه رقراق وبصيص ، وفى الأصل « رقراق » وقد وضعنا بدلها « رقرق » ليستقيم المعنى والوزن .

وَنَاظِمَ الْعِقْدِ ـ نَظْمَ مُقْتَدِرٍ ـ يَفْصِلُ بَيْنَ الْعُيُونِ بِالْغُرَرِ (١)

لِي بِالنِّضَالِ الَّذِي نَشِطْتَ لَهُ عَهْدٌ قَدِيمٌ مُعَجَّمُ الْأَثَرِ (٢)

هَلْ أُنْصِلَ السَّهْمَ فِي الْجَفِيرِ وَقَدْ تَعَطَّلَتْ فُوقُهُ مِنَ الْوَتَرِ ؟ (٣)

* * *

مَا الشِّعْرُ إِلَّا لِمَنْ قَرِيحَتُهُ غَرِيضَةُ النَّوْرِ غَضَّةُ الثَّمَرِ (٤)

تَبْسِمُ عَنْ كُلِّ زَاهِرٍ أَرِجٍ مِثْلَ الْكِمَامِ ابْتَسَمْنَ عَنْ زَهَرِ

إِنَّ الشَّفِيعَ الْهُمَامَ سَوَّغَهُ اللهُ اتِّصَالَ التَّأْبِيدِ بِالظَّفَرِ

الْفَاضِلُ الْخُبْرِ فِي الْمُلُوكِ إِذَا أَقْصَرَ خُبْرٌ عَنْ غَايَةِ الْخَبَرِ (٥)

نَجْلُ الَّذِي نُصْحُهُ وَطَاعَتُهُ كَالْحَجِّ تَتْلُوهُ بَرَّةُ الْعُمَرِ (٦)

---

(١) العيون : الخيار المنتخب من حبات العقد ، والغرر البيض ، يقول : ويا ناظم الشعر نظم قدير يفصل بين أجزائه ، ويؤلف بين مواقعه كلها ، كما يؤلف ناظم العقد بين خرزه وحباته ، ويفصل بين الخيار المنتخب منها بدرر اللآلئ .

(٢) النضال : المراماة بالسهام وأراد به هنا المساجلة والمسابقة فى مجال القول ، ومعجم الأثر : مبهم مشكل قد انطمست معالمه وآثاره ، يقول : بعثت إلىّ بهذه الكلم الثمينة ، والنظم الرائع تريد بذلك أن تجدد عهد النضال الذى نشطت له أنت الآن بعد أن طال بى عهده ، وأبهم على أمره ، واستعجم أثره .

(٣) أنصل . مضارع أنصل السهم جعل له نصلا ، والجفير : جعبة السهام ، والفوق : موضع الوتر من السهم ، يقول : هل أجعل للسهم الذى فى الجفير نصلا ، وقد تعطلت فوقه أى مشق رأسه فلم تعد صالحة لأن يوضع الوتر فى موضعه منها ، يريد أن آلة النضال بطلت عنده وتعطلت أسبابها لطول العهد

(٤) غريضة النور : الغريض ، والغض : كلاهما اللين الطرى الناضر من الزهر والنبات وغيرهما .

(٥) الخبر : (بضم وكسر أوله وسكون ثانيه) العلم بالشىء عن عيان وخبرة ، والخبر : النبأ الذى يأتيك عن طريق السماع ، يقول : هو الملك الذى يفصل ويزيد الخبر والعلم بصفاته وأحواله عن الخبر الذى يبلغك عنه فى حين أن غيره من الملوك يقصر الخبر والعلم بأحوالهم عن الخبر الذى يأتيك عنهم .

(٦) برة العمر : أى العمر المبرورة المقبولة جمع عمرة ، وهى فى الأصل الزيارة ، وتتحقق شرعا بالطواف بالبيت والسعى بين الصفا والمروة ، والفرق بينها وبين الحج أن العمرة تطوع وأنه يجوز للانسان أن يعتمر فى السنة كلها بخلاف الحج فانه لايجوز الاحرام به وأداء مناسكه إلا فى أشهر الحج المعلومة وهى شوال ، وذو القعدة ، وعشر ذى الحجة ، يعنى أن نصحه وطاعته من أعمال البر التى تقابل من الله بالثواب ، وهى لكونها من الطاعة والبر بمثابة الحج الذى تتلوه العمر المبرورة .

شَاهِدُ عَهْدِى لَكَ الصَّحِيحُ بِإِخْـــلَاصٍ نَأَى صَفْوُهُ عَنِ الْكَدَرِ

* * *

مَشَيْتُ فِى عَذْلِىَ الْبَرَازَ لِمَنْ لَمْ يَرْضَ فِى الْعُذْرِ مِشْيَةَ الْخَمَرِ (١)

وَقُلْتُ : مَطْلُ الْغَنِىِّ وِرْدٌ مِنَ الظُّـــلْمِ ، يُلَقَّى مَلَاوِمَ الصَّـــدَرِ (٢)

وَلِى مَعَاذِيرُ لَوْ تَطَلَّعُ فِى لَيْلِ سِرَارٍ أَغْنَتْ عَنِ الْقَمَرِ

مِنْهَا اتِّقَائِى لِأَنْ أَكُونَ أَنَا الْـــجَالِبَ مَا قُلْتُهُ إِلَى هَجَرِ (٣)

لَكِنْ سَـــيَأْتِيكَ مَا يُجَوِّزُهُ سَرْوُكَ دَأْبَ الْمُسَامِحِ الْيَسَرِ

فَاكْتَفِ مِنْهُ بِنَظْرَةٍ عَنَنٍ (٤) لَاحَظَّ فِيـــهِ لِكَرَّةِ النَّظَرِ

---

(١) البراز : من الأرض الفضاء الواسع الذى ليس به حمر يستره من شجر أو غيره ، والخمر : ما يستر الماشى ويوارى الصيد من شجر أو جرف أو حبل من حبال الرمل أو غير ذلك ، يقول : عذلك ولمك لوما صريحاً لامواربة فيه ، فكنت فيه كمن يمشى البراز لايواريه حمر ، ولا يستره ساتر من مرتفع أوشجر ، وهو عذل أعلنه لمن لم يرض قبول عذر أستر وراءه مجرى عن مجاراته ، وأخفى فى التماسه ضعفى عن مباراته وفى المثل : « مشى إليه البراز » و « مشى إليه الملا والبراح » أى مشى إليه مظاهراً غير مستتر ، وجاء فى ضد هذا المثل مثل آخر وهو : « مشى إليه الحمر ، ودب له الضراء . »

(٢) المطل : المد يقال مطل الحبل وغيره يمطله مدا ، وفى الحديث : « مطل الغنى ظلم . » والملاوم : جمع الملامة ، والصدر : الانصراف والرجوع عن الشىء .

(٣) فى المثل : « كمستبضع التمر إلى هجر . » و « ناقل التمر إلى هجر » وهو مثل قديم متداول : يضرب فى الخطأ لأن ناقل الشىء إلى معدنه مخطئ ويقال أيضا كمستبضع التمر إلى خيبر . قال النابغة الجعدى :

« وإن امرأ أهدى إليك قصيدة كمستبضع تمرا إلى أرض خيبرا . »

وقد ورد هذا المثل فى كتاب لسيدنا على كرم الله وجهه ورضى عنه بعث به جوابا إلى معاوية رضى الله عنه وهو من محاسن كتبه ، وذلك حيث يقول عليه السلام فى صدر هذا الكتاب : —

« أما بعد » فقد أتانى كتابك تذكر فيه اصطفا الله محمدا صلى الله عليه وآله لدينه ، وتأييده إياه بمن أيده من أصحابه ، فلقد خبا لنا الدهر منك عجبا إذ طفقت تخبرنا ببلاء الله عندنا ونعمته علينا فى نبينا ، فكنت فى ذلك : « كناقل التمر إلى هجر ، أو داعى مسدده إلى النضال . » إلى آخر ماجاء فى هذا الكتاب المتع ، فارجع إليه فى نهج البلاغة إن شئت .

(٤) أى تعترض لك من غير تعمل ولا قصد ، يقول : سيأتيك نظمى هذا الذى يجيزه سروك وإغضاؤك عما فيه أعضاء المسامح اليسهل ، فاكتف منه بنظرة عجلى ، فانه لاحظ فيه لمعاودة النظر كرة بعد كرة .

بين ابن زيدون والمعتمد

« وكتب إليه المعتمد على الله المؤيد بنصر الله وهو جالس فى فصيل من القصر تحت غرفة لزومه :

أيها المنحط عنى مجلسا
وله فى القلب أعلى مجلس
بفؤادى لك حب يقتضى
أن ترى تحمل فوق الأرؤس

فجاوبه ابن زيدون . »

أَسَقِيطُ الطَّلِّ فَوْقَ النَّرْجِسِ ... أَمْ نَسِيمُ الرَّوْضِ تَحْتَ الْحِنْدِسِ
أَمْ نِظَامٌ لِلآلِ نَسَقٍ ... جَامِعٍ كُلَّ خَطِيرٍ مُنْفِسِ (١)
أَمْ قَرِيضٌ جَاءَنِي عَنْ مَلِكٍ ... مَالِكٍ بِالْبِرِّ رِقَّ الْأَنْفُسِ
دَلَّهَتْ فِكْرِيَ مِنْ إِبْدَاعِهِ ... حَيْرَةٌ فِي مَنْطِقِي لِي مُخْرِسِ
بِتُّ مِنْهُ بَيْنَ سَهْلٍ مُطْمِعٍ ... خَادِعٍ يُتْلَى بِحَزْنٍ مُؤْيِسِ

* * *

يَا نَدَى يُمْنَى « أَبِي الْقَاسِمِ » غِمْ ... يَا سَنَا شَمْسِ الضُّحَى أَشْمِسِ
يَا بَهِيجَ الْخُلُقِ الْعَذْبِ ابْتَسِمْ ... يَا مُهِيجَ الْأَنْفِ الصَّعْبِ اعْبِسِ
يَا جَمَالَ الْمَوْكِبِ الْغَادِي - إِذَا ... سَارَ فِيهِ - يَا بَهَاءَ الْمَجْلِسِ
أَنْتَ لَمْ يُقْنِعْكَ أَنْ أَلْبَسْتَنِي ... نِعْمَةً تُذْكِرُ عَهْدَ السُّنْدُسِ
فَتَلَطَّفْتَ لِأَنْ حَلَّيْتَنِي ... مُولِيًا طُولَى مُحَلَّى مَلْبَسِ

---

(١) يقول : أم هى لآلئ منسقة فى نظام جامع أنفس الأعلاق وأجلها خطرا .

ذَاكَ تَنْوِيهُ ثَنَانِى فَخْـــرُهُ ... سَامِىَ اللَّحْظِ أَشَمَّ المَعْطِسِ

شَرَّفَتْ بِكْرَ المَعَالِى خِطْبَةٌ ... مِنْكَ ، فَانْعَمْ بِسُرُورِ المُعْرَسِ

تُمْنَحُ التَّأْيِيدَ يُجْلَى لَكَ عَنْ ... ظَفَرٍ حُـــلْوٍ وَعِزٍّ أَقْعَسِ

وَارْتَشِفْ مَعْسُولَ نَصْرٍ أَشْنَبٍ ... تَجْتَنِيهِ مِنْ عَجَاجٍ أَعْسَسِ

وَارْتَفِقْ بِالسَّعْدِ فِى دَسْتِ المُنَى ... تُصْبِحِ الصُّنْعَ دِهَاقَ الْأَكْؤُسِ

فَاعْتِرَاضُ الدَّهْرِ ـ فِيمَا شِئْتَهُ ـ ... مُرْتَقًى فِى صَدْرِهِ لَمْ يَهْجِسِ

وقال

« وقد أمره بدخول حمام القصر وبعث إليه ببخور وطيب . »

رِضَاكَ لَنَا ـ قَبْلَ الطُّهُورِ ـ مُطَهِّرُ ... وَقُرْبُكَ ـ مِنْ دُونِ الْبَخُورِ ـ مُعَطِّرُ

فَلَوْ عَزَّ حَمَّامٌ لَأَدْفَأَنَا ذَرًى ... يَفِيضُ بِهِ مَاءُ النَّدَى المُتَفَجِّرُ

وَلَوْ لَمْ يَكُنْ طِيبٌ لَأَغْنَتْ حَفَاوَةٌ ... تُمَسِّكُ مِنْهَا حَالَنَا وَتُعَنْبِرُ (١)

فَلَا فَارَقَ الدُّنْيَا سَـــنَاءٌ مُقَدَّسٌ ... بِعَيْشِكَ فِيهَا أَوْ ثَنَاءٌ مُجَمَّرُ (٢)

وَدُمْتَ مُلَقًّى ـ كُلَّ يَوْمٍ ـ صَبِيحَةً ... يُغَادِيكَ فِيهَا ـ بِالْفُتُوحِ ـ مُبَشِّرُ

وقال

« مجاوبا له عن شعر خاطبه به . »

أَمَوْلَايَ بُلِّغْتَ أَقْصَى الْأَمَلْ ... وَسُوِّغْتَ دَأْبًا نَسَاءَ الْأَجَلْ (٣)

---

(١) لو لم نجد الطيب لأغنتنا عنه حفاوتك التى تعطرنا بالمسك والعنبر .

(٢) السناء : الرفعة ، والثناء : المدح ، والمجمر العبق ، يقال : جمر ثوبه : بخره ، وجمر النار : هيأها .

(٣) نساء الأجل : طول العمر .

وَعُمِّرْتَ ـ مَاشِئْتَ ـ فِى دَوْلَةٍ تُقَصِّرُ عَنْهَا طِوَالُ الدُّوَلْ
فَأَنْتَ الَّذِى غُرُّ أَفْعَالِهِ تَحَلَّى بِهَا الدَّهْرُ بَعْدَ الْعَطَلْ
يُشَرِّفُ مَمْلُوكَكَ الْمُسْتَرَقَّ نَظْمٌ مِنَ الْكَلِمِ الْمُنْتَخَلْ (١)
وَرَاحٌ تُعِيدُ إِلَى مَنِ أَسَنَّ طِيبَ زَمَانِ الصِّبَا الْمُقْتَبَلْ (٢)
فَأَخْجَلَنِى الْبِرُّ مِنْ فَرْطِهِ وَإِنَّ الْجَوَابَ لَيُبْدِى الْخَجَلْ
وَقَدْ يَقْبَلُ الدَّهْرَ مَوْلَى الأَنَا مِ جُهْدَ الْعَبِيدِ إِذَا مَا أَقَلْ
سَعِدْتَ كَمَا سَعِدَ الْمُشْتَرِى وَنِلْتَ عُلاً لَمْ يَنَلْهَا زُحَلْ (٣)

جـــواب

« وقال مجاوبا له أيضا . »

هَلْ يَشْكُرَنَّ «أَبُو الْوَلِيدْ» (٤) إِدْنَاءَكَ الأَمَلَ الْبَعِيدْ
أَوْ أَنْ تُسَوِّغَ نِعْمَةً لِلدَّهْرِ أَسْهَرَتِ الْحَسُودْ
إِنْ لَمْ يَدِنْ بِنَصِيحَةٍ تُرْضِيكَ فَهُوَ مِنَ الْيَهُودْ
لاَ زِلْتَ رَافِعَ رَايَةٍ تُضْحِى، السُّعُودُ لَهَا جُنُودْ

وقال يستهديه خمراً

يَا بَانِياً كُلَّ مَجْدٍ وَهَادِمًا كُلَّ وُجْدِ
جِسْمُ السُّرُورِ سَوِىٌّ مِنْ صَوْغِ نُعْمَاكَ عِنْدِى
فَهَبْ لَهُ رُوحَ رَاحٍ يَنْطِقْ بِأَحْفَلِ حَمْدِ

---

(١) المنتخل : المنقى المتخير .
(٢) وقد جاء بعد هذا البيت قوله :
« أنت مع امرىء ما يقتدى وأغرب باكورة تنقل . »
(٣) المشترى وزحل كوكبان معروفان . قال أبو العلاء :
« زحل أشرف الكواكب دارا من لقاء الردى على ميعاد . »
(٤) يعنى لنفسه .

وقال مجاوباً المعتمد

أَفَاضَ سَمَاحُكَ بَحْرَ النَّدَى ... وَأَقْبَسَ هَدْيُكَ نُورَ الْهُدَى
وَرَدَّ الشَّبَابَ اعْتِلَاقُكَ بَعْدَ ... مُفَارَقَتِي ظِلَّهُ الْأَبْرَدَا (١)
وَمَا زَالَ رَأْيُكَ فِيَّ الْجَمِيلُ ... يُفَتِّحُ لِي الْأَمَلَ الْمُوصَدَا (٢)
وَحَسْبِيَ مِنْ خَالِدِ الْفَخْرِ أَنْ ... رَضِيتَ قَبُولِيَ مُسْتَعْبَدَا (٣)
وَيَا فَرْطَ مَا بِي (٤) إِذَا مَا طَلَمْتَ ... فَقُمْتُ أُقَبِّلُ تِلْكَ الْيَدَا
وَرَدَّدْتُ لَحْظِيَ فِي غُرَّةٍ ... إِذَا اجْتُلِيَتْ شَفَتِ الْأَرْمَدَا
وَطَاعَةُ أَمْرِكَ فَرْضٌ أَرَا ... هُ مِنْ كُلِّ مُفْتَرَضٍ أَوْكَدَا
هِيَ الشَّرْعُ أَصْبَحَ دِينَ الضَّمِيرِ ... فَلَوْ قَدْ عَصَاكَ لَقَدْ أَلْحَدَا
وَحَاشَايَ مِنْ أَنْ أَضِلَّ الصِّرَاطَ ... فَيَعْدُونِيَ الْكُفْرُ عَمَّا بَدَا (٥)
وَأُخْلِفَ مَوْعِدَ مَنْ لَا أَرَى ... لِدَهْرِيَ إِلَّا بِهِ مَوْعِدَا (٦)

---

(١) يقول : رد على شبابى بعد أن فارقت ظله الأبرد اعتلاقى بأسبابك واتصالى بدولتك .

(٢) وما زال جميل رأيك فىّ يفتح لى من الآمال كل باب مغلق .

(٣) وكفانى فخرا خالداً أنك رضيت قبولى ضمن من استعبدتهم باحسانك ، ومددت عليهم ظلّ نعمتك الوارف .

(٤) فى الأصل : « يا فرط باوى . »

(٥) يقول : حاشاى أن أضلّ الصراط وأرفض أوّل فرض علىّ من طاعتك التى هى الشرع ، ومعتقد الضمير ، فيبعدنى الكفر عما بدا لى من صحة الايمان .

(٦) فى الأصل : « وأخلف بالوعد » وهو لايتعدى بالباء ، فأبدلناه بالموعد ليصح اللفظ ، والسبب فى أنه يتصل هنا من خلف الموعد أن «المعتمد» كان قد عرض له سفر فجأة فكتب إلى «ابن زيدون» :

« العين بعدك تقذى بكلّ شىء تراه
فليجل شخصك عنها ما بالمغيب جباه . »

فعاقت « ابن زيدون » عن الجواب أشغال توالت عليه ، ثم استبطأه « المعتمد » فبعث إليه بالقصيدة التالية معاتبا :

وعدت وأخلفتنى الموعدا ... وخالفت بالمنتهى المبتدا

أَتَانِي عِتَابٌ مَتَى أَدَّكِرْ ... هُ فِي نَشَوَاتِ الْكَرَى أَسْهَدَا (١)

وَإِنْ كَانَ أَعْقَبَهُ مَا اقْتَضَى ... شِفَاءَ السِّقَامِ وَنَقْعَ الصَّدَى (٢)

ثَنَاءٌ ثَنَى فِي سَنَاءِ الْمَحَلِّ زُهْرَ الْكَوَاكِبِ لِي حُسَّدَا (٣)

قَرِيضٌ مَتَى أَبْغِ لِلْقَرْضِ مِنْهُ ... أَدَاءً أَجِدْ شَأْوَهُ أَبْعَدَا

لَوِ الشَّمْسُ مِنْ نَظْمِهِ حُلِّيَتْ ... أَوِ الْبَدْرُ قَامَ لَهُ مُنْشِدَا

لَضَاعَفَ مِنْ شَرَفِ النَّيِّرَيْـ ... ـنِ حَظًّا بِهِ قَارَنَ الْأَسْعَدَا

وأطمعتنى ثم أيئستنى ... ويمنعنى الود أن أحقدا

وأضعفت بالمطل حبل الرجاء ... فرثّ وأعهده محصدا

وعاد ضياء ارتقابى ظلاما ... وأصبح مصباحه أرمدا

وكان فعالك قبل المقال ... فماذا عدا الآن فيما بدا

وقد كان ظنى بما رأيت ... به أنه الشىء بلّ اليدا

وكم قد توكفتها روضة ... تقرب لى الأمل الأبعدا

ينوّر علمك أرجاءها ... ويقطر طبعك فيها ندا

توكفنها زمنا ناظرى ... إذا مر يوم تمادى غدا

على ذاك أمديك من ماجد ... تشبث بالطرف فيه الهدى

فحيناً أزور به روضة ... وحينا أحيي به مسجدا

لك العلم مهما أرد بحره ... لأروى به أحمد المورد

وفيك تجمعت المأثرا ... ت طرا قصرت بها مفردا

شمائل تبتر شمل الهمو ... م نترك بالرأى شمل العدا

فمتعنى الله بالحظ منك ... ولا زلت لى مؤنسا مرمدا

ودمت ودمت على حالنا ... كما يصحب الفرقد الفرقدا

فلولاك كانت ربوع السرو ... ر منى تجاوب فيها الصدى

(١) أتانى من قبل الممدوح عتاب تسبب لى ذكراه الأرق والسهد كلما رنحتنى نشوات الكرى وغشيتنى أوائل النوم .

(٢) يقول : أسهدنى وأرقنى اذكار هذا العتاب ، وإن كان أعقبه ما اقتضى شفاء الغلوب ، وإطفاء وحر الصدور .

(٣) ثناء ومديح رفعت به محلى ، فأثنت زهر النجوم تحسدنى عليه .

فَدَيْتُكَ مَوْلَى : إِذَا مَا عَثَرْتُ ... أَقَالَ ، وَمَهْمَا أَزِغْ أَرْشَدَا

رَكَنْتُ[1] إِلَى كَرَمِ الصَّفْحِ مِنْهُ ... فَآمَنَنِي ذَاكَ أَنْ يَحْقِدَا

وَآنَسْتُ سُوقَ احْتِمَالٍ أَبَى ... لِمُسْتَبْضِعِ الْعُذْرِ أَنْ يَكْسِدَا[2]

شَفِيعِي إِلَيْهِ هَوَى مُخْلِصٍ ... كَمَا أَخْلَصَ السَّابِكُ الْعَسْجَدَا

وَمِنْ وُصَلِي هِجْرَةٌ لَا أَعُدُّ ... لِحَالِي سِوَى يَوْمِهَا مَوْلِدَا[3]

وَنُعْمَى تَفَيَّأْتُهَا أَيْكَةً ... فَشُكْرِي حَمَامٌ بِهَا غَرَّدَا

تَبَارَكَ مَنْ جَمَعَ الْخَيْرَ فِيكَ ... وَأَشْعَرَكَ الْخُلُقَ الْأَمْجَدَا

مَضَاءَ الْجَنَانِ وَظَرْفَ اللِّسَانِ ... وَجُودَ الْبَنَانِ بِسَكْبِ الْجَدَا

رَأَى شِيمَتَيْكَ لِمَا تَسْتَحِقُّ ... وَقَفَّى فَأَظْفَرَ إِذْ أَيَّدَا

لِيَهْنِكَ أَنَّكَ أَزْكَى الْمُلُوكِ ... بِفَيْءٍ وَأَشْرَفُهُمْ سُودَدَا

سِوَى نَاجِلٍ لَكَ سَامِي الْهُمُو ... مِ دَانِي الْفَوَاضِلِ نَائِي الْمَدَى[4]

هُمَامٌ أَغَرُّ رَوَيْتَ الْفَخَارَ ... حَدِيثًا إِلَى سَرْوِهِ مُسْنَدَا[5]

---

(١) فى الأصل « وكنت » وقد وضعنا بدلها « ركنت » التى هى كصورتها فى الخط ليستقيم المعنى .

(٢) المستبضع : اسم فاعل من استبضع الشىء جعله بضاعة ، والبضاعة طائفة من المال ترسل إلى الأسواق للتجارة ، يقول : إن احتماله وإغضاءه عن الهفوات بمثابة سوق تأبى لمن استبضع إليها الأعذار أن تكسد بضاعته ، وهو مأخوذ من المثل : « كمستبضع التمر إلى هجر . »

(٣) الوصل : جمع وصلة بمعنى الاتصال والاسباب والذرائع ، يقول : ومن أسباب اتصالى به وذرائعى إليه هجرة فارقت فيها موطنى ، واتصلت على أثرها بدولته ، واعتلقت بحبله وذمته ، تلك الهجرة التى لا أعد أن حالى استقرت وولدت ، إلا يوم أن حصلت وتمت .

(٤) الناجل : الكريم الأصل ، يقول : ليس فى الملوك أزكى منك سوى والدك الذى نجلك وأنجبك .

(٥) يقول : إنّ أباك همام أغر مشرق الوجه ، رويت عنه الفخار حديثاً مسنداً إلى سروه ومجده ونبله .

سَلَكْتَ إِلَى الْمَجْدِ مِنْهَاجَهُ ... فَقَدْ طَابَقَ الْأَطْرَفُ الْأَتْلَدَا (١)

هُوَ اللَّيْثُ قَلَّدَ مِنْكَ النِّجَادَ ... لِيَوْمَ الْوَغَى شِبْلَهُ الْأَنْجَدَا (٢)

يُعِدُّكَ صَارِمَ عَزْمٍ وَرَأْيٍ ... فَتُرْضِيهِ جُرِّدَ أَوْ أُغْمِدَا (٣)

وَمَا اسْتَبْهَمَ الْقُفْلُ فِي الْحَادِثَا ... تِ إِلَّا رَآكَ لَهُ مِقْلَدَا (٤)

فَأَمْطَاكَ مَنْكِبَ طَرْفِ النُّجُومِ ... وَأَوْطَأَ إِخْمَصُكَ الْفَرْقَدَا

فَلَا زِلْتُمَا يَرْفَعُ الْأَوْلِيَا ... ءُ مُلْكُكُمَا وَيَحُطُّ الْعِدَا

وَنَفْسِي لِنَفْسَيْكُمَا الْبَرَّتَيْـ ... ـنِ مِنْ كُلِّ مَا يُتَوَقَّى الْفِدَا

فَمَنْ قَالَ : أَنْ لَسْتُمَا أَوْحَدَيْـ ... ـنِ فِي الصَّالِحَاتِ فَمَا وَحَّدَا (٥)

وقال

لَعَمْرِي لَئِنْ قَلَّتْ إِلَيْكَ رَسَائِلِي ... لَأَنْتَ الَّذِي نَفْسِي عَلَيْهِ تَذُوبُ

فَلَا تَحْسَبُوا أَنِّي تَبَدَّلْتُ غَيْرَكُمْ ... وَلَا أَنَّ قَلْبِي مِنْ هَوَاكُمْ يَتُوبُ

وقال

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أُصَادِفُ خَلْوَةً ... لَدَيْكَ ، فَأَشْكُو بَعْضَ مَا أَنَا وَاجِدُ؟

رَعَى اللهُ يَوْمًا فِيهِ أَشْكُو صَبَابَتِي ... وَأَجْفَانُ عَيْنِي ـ بِالدُّمُوعِ ـ شَوَاهِدُ

---

(١) الأطرف : الحديث ، والأتلد : القديم .

(٢) النجاد : حمائل السيف ، والأنجد : الشجاع ذو النجدة والبأس ، يقول : هو أى والدك الملك ليث قلد شبله الأنجد الشجاع السيف ليوم الوغى والحرب .

(٣) يعدك صارم عزم وحزم فى الحرب والسياسة ، فترضيه فى الحالين : جرد السيف ، أو أغمد .

(٤) استبهم : استغلق ، والقفل : مايغلق به الباب ، والمقلد : المفتاح ، يقول : لاتستغلق الحادثات إلا رآك مفتاحاً لأقفالها المغلقة ، وفى الأصل : « الفعل » فوضعنا مكانها « القفل » ليناسب الاستبهام والمقلد .

(٥) يقول : أن من ينكر أنكما فى البر والصالحات أو حدين قد بلغ فى الجحد والانكار مبلغ من ينكر التوحيد ولا يقول بوحدانية الله .

تهنئـــة

« وقال رحمه الله يهنيه أيده الله بالقدوم من سفر . »

أَيُّهَا الظَّافِرُ أَبْشِرْ بِالظَّفَرْ ... وَاجْتَلِ التَّأْيِيدَ فِي أَبْهَى الصُّوَرْ

وَتَفَيَّأْ ظِلَّ سَـــعْدٍ تَجْتَنِي ... فِيهِ مِنْ غَرْسِ الْمُنَى أَحْلَى الثَّمَرْ

وَرِدِ الصُّبْحَ فَكَمْ مُسْتَوْحِشٍ ... غَرِضٍ[1] مِنْكَ إِلَى أُنْسِ الصَّدَرْ

كَانَ مِنْ قُرْبِكَ فِي عَيْشٍ نَدٍ ... عَطِرِ الآصَالِ وَضَّاحِ الْبُكَرْ

كُلَّمَا شَاءَ تَأَتَّى أَنْ يَرَى ... خُلُقَ الْبِرْجِيسِ[2] فِي خَلْقِ الْقَمَرْ

---

(١) غرض : وصف من الغرض (محركة) وهو شـدة النزاع نحو الشيء والشوق إليـه يقال : غرض إلى لقائه فهو غرض اشتاق ، ومنه قول الشاعر :

فمن يك لم يغرض فإني وباقتي ... بحجر إلى أهل الحمى غرضان

نحن فبدى ما بها من صبابة ... وأخفى الذى لولا الأسى لقضانى

وفى الأصل : « عرض » .

(٢) البرجيس

البرجيس : المشترى وهو أحـد الدراري الخمسة : المشترى ، وزحل ، والمريخ ، وعطارد ، والزهرة ، وهـذه الكواكب الخمسة هى الجنس الكنس المذكورة فى قوله تعالى : « فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس . » قالوا : وإنما وصفت بما ذكر فى الآية لأنها من الكواكب السيارة التى تجرى مع الشمس والقمر ، وخنوسها رجوعها مزهرة بعـد اختفائها فى ضوء الشمس ، ولذلك تسمى الرواجع ، وكنوسها اختفاؤها تحت ضوء الشمس من كنس الظبي والوحش إذا دخل كناسه ، وفى النهاية لابن الأثير من حديث ابن عباس رضى الله عنهما ، « أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ سئل عن الكواكب الخنس فقال هى البرجيس وزحل وعطارد وبهرام والزهرة ، البرجيس : المشترى ، وبهرام : المريخ . »

والبرجيس : لفظة فارسـية تدلّ على « المشـترى » وهو كوكب معروف تطلق عليـه الفرنجة اسم « جوبتر » « Jupiter » وهو ـ فى أساطير قدماء الرومان واليونان ، اله الآلهة ، المهيمن على كلّ الكائنات العلوية والسفلية ، قالوا : « وإنما سمى المشـترى ـ من الشراء ، وهو الوضوح لضياء لونه وصفائه . » قال الشاعر :

« يا ربّ ليل بت أرعى نجمه ... ـ حتى الصباح ـ بزفرة وعويل

والمشترى ـ فى الأفق ـ يخفق لامعا ... كفم الحبيب يشير بالتقبيل . »

فَثَوَى دُونَكَ مَثْوَى قَلَقٍ ... يَشْتَكِي مِنْ لَيْلِهِ مَطْلَ السَّحَرْ

قُلْ لِسَاقِينَا : « يَحُزَّ أَكْؤُسَهُ » ... وَلِشَادِينَا : «يَصِلْ قَطْعَ الْوَتَرْ»

حَسْبُنَا سُكْرٌ جَنَتْهُ ذِكَرٌ ... دُونَهُ السُّكْرُ الَّذِي يَجْنِي السُّكَرْ (١)

لَمْ يُغَادِرْ لِي سَقَامِي جَلَداً ... مَعَ أَنِّي لَمْ أَزَلْ ثَبْتَ الْمِرَرْ (٢)

أَيُّهَا الْمَاشِي الْبَرَازَ الْمُنْبَرِي ... لِزَمَانِي إِنْ مَشَى نَحْوِي الْخَمَرْ (٣)

وَالَّذِي إِنْ سِيمَ مَا فَوْقَ الرِّضَى ... وُجِدَ الْأَلْوَى الْبَعِيدَ الْمُسْتَمَرْ (٤)

وَإِذَا أَعْتَبَ فِي مَعْتَبَةٍ ... لَانَ مِنْهُ جَانِبُ السَّمْحِ الْيَسَرْ

نَظْمِيَ الْمُهْدَى إِلَى أَبْرَعِ مَنْ ... نَظَمَ السِّحْرَ بَيَانًا أَوْ نَثَرْ

---

(١) السكر : الشيء غير المطبوخ من ماء التمر المشتد ، والشراب المتخذ من التمر نوعان : ما يسيل من التمر حين يكون رطبا فاذا اشتد سمى سكرا ، وما يفصح أى يشق من التمر ثم يلقى فى الماء ليستخرج الماء حلاوته ثم يترك حتى يشتد وتذهب حلاوته ويسمى فضيخا وكلاهما مسكر . وقد ورد ذكر السكر فى قوله تعالى : « ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا . » ، ومعنى هذا البيت والذى قبله : قل لساقينا : نح كؤوسك عنا فقد أغنانا السكر الذى تحدثه الذكر ، عن السكر الذى يحتيه السكر ، وقل لشادينا : صل قطع الوتر والغناء ، فيما حلا فى السمع من ذكراه الكفاية والثناء .

(٢) ثبت : ثابت ، والمرر : جمع مرة (بالكسر) وهى القوة والشدة أى لم يغادر لى السقام جلدا وصبرا مع أنى لم أزل ذا مرة قويا ، وورد هذا البيت فى الأصل هكذا :

لم يغادر لى شفا من جلد ... مع أنى لم أزل ثبت الغرر

وما أثبتناه من الاصلاح هو مايرشد اليه السياق .

(٣) البراز : المتسع من الأرض الذى ليس به ما يستره من شجر أو غيره ، والخمر : ما يستر الماشى أو الصيد من شجر أو جرف أو حبل رمل أو غير ذلك ، يقول : يا من يدافع عنى إذا رأى زمانى مشى إلى متنكرا يريد ختلى وأخذى على غرة . (٤) الألوى : الشديد الخصومة الجدل السليط ، والمستمر : من استمر استحكم مصدر ميمى يعنى أنه بعيد شأو الخصومة ، وفى المثل : « لتجدن فلانا ألوى بعيد المستمر . » وقد جاء هذا المثل فى قول الراجز :

« إذا تخازرت وما بى من خزر ... ثم كسرت الطرف من غير عور

وجدتنى ألوى بعيد المستمر ... أحمل ما حملت من خير وشر . »

أى وجدتنى خصما سليط اللسان بعيد شأو الخصومة .

لِيَ فِيـــهِ المَثَلُ السَّائِرُ عَنْ ... جَالِبِ التَّمْرِ إِلَى أَرْضِ هَجَرْ

غَيْرَ أَنَّ العُذْرَ رَسْمٌ وَاضِحٌ ... تُنْفِثُ الشَّكْوَى إِذَا الشَّوْقُ صَدَرْ(١)

ثُمَّ قَدْ وُفِّقَ عَبْدٌ عَظُمَتْ ... نِعْمَةُ المَوْلَى عَلَيْهِ فَشَكَرْ

لَا عَدَا حَظَّكَ إِقْبَالٌ تُرَى ... قَاضِيًا أَثْنَاءَهُ كُلَّ وَطَرْ

وَاصْطَبَحْ كَأْسَ الرِّضَى مِنْ مَلِكٍ ... سِرْتَ فِي إِرْضَائِهِ أَزْكَى السِّيَرْ

حِينَ صَمَّمْتَ إِلَى أَعْدَائِهِ ... فَانْتَحَتْهُمْ مِنْكَ صَمَّاءُ الْغِيَرْ

فَاضَ غَمْرٌ لِلنَّدَى مِنْ فَوْقِهِمْ ... كَانَ يُرْوِي شُرْبَهُمْ مِنْهُ الْغُمَرْ(٢)

سَبَقَ النَّاسَ فَصَلَّى مِنْكَ مَنْ ... إِنْ رَأَى آثَارَهُ الزُّهْرَ اقْتَفَرْ(٣)

زُنْتُمَا الْأَيَّامَ إِذْ مُلْكُكُمَا ... سَالَ فِي أَوْجُهِهَا سَيْلَ الْغُرَرْ

فَابْقَيَا فِي دَوْلَةٍ قَادِرَةٍ ... بَعْضُ حُرَّاسِ نَوَاحِيهَا الْقَدَرْ

مُسْتَذِلٌّ مَنْ طَغَى مُسْتَأْصِلٌ ... شَأْفَةَ الْبَاغِي مُقِيلٌ مَنْ عَثَرْ

عَلَمَيْ مَنْ ضَلَّ مُزْنَيْ مَنْ شَكَا ... خَلَّةَ الْإِمْحَالِ بَدْرَيْ مَنْ نَظَرْ

تَضْحَكُ الْأَزْمُنُ عَنْ عَلْيَاكُمَا ... ضَحِكَ الرَّوْضَةِ عَنْ ثَغْرِ الزَّهَرْ

---

(١) صدر : أصاب الصدر ، يقال : صدر فلان فلانا يصدره صدرا (من باب نصر) أصاب صدره .

(٢) الغمر : قدح صغير يتصافن به القوم فى السفر إذا قل الماء ولم يكن معهم منه إلا اليسير ، والتصافن أن يلقوا فيه حصاة ثم يصب فيه من الماء قدر ما يغمر الحصاة ، ثم يعطى الاناء كل رجل منهم بحسب دوره وجاء فى شعر أعشى بأهله : —

« يكفيه حزة فلذ إن ألم بها ... من الشواء ويروى شربه الغمر »

(٣) اقتفر — من اقتفر الأثر — اقتفاه وتتبعه ، والمعنى : « سبق أبوك فجعلك مصلياً وتالياً بعده أنت يامن يقتفى آثار أبيه الزهر .

ذكرى ولادة

« كان يكلف بولادة بنت المهدى هذه ويهيم ، ويستضىء بنور تخيلها فى الليل البهيم ، وكانت من الأدب والظرف ، وتتيم المسمع والطرف ، بحيث تختلس القلوب والألباب ، وتعيد الشيب الى أخلاق الشباب ، فلما حل بذلك القرب ، وانحل عقد صبره بيد الكرب ، كر إلى الزهراء ليتوارى فى نواحيها ، ويتسلى برؤية مافيها ، فوافاها والربيع قد خلع عليها برده ، ونثر سوسنه وورده ، وأترع جداولها ، وأنطق بلابلها ، فارتاح ارتياح جيل بوادى القرى ، وراح بين روض يانع وريح طيبة السرى ، فتشوّق إلى لقاء ولادة وحن ، وخاف تلك النوائب والمحن ، فكتب إليها يصف فرط قلقه ، وضيق أمده إليها وطلقه ، ويعاتبها على إغفال تعهده ، ويصف حسن محضره بها ومشهده [1] : »

إِنِّى ذَكَرْتُكِ « بِالزَّهْرَاءِ » مُشْتَاقَا ... وَالْأُفْقُ طَلْقٌ ، وَمَرْأَى الْأَرْضِ قَدْ رَاقَا [2]

وَلِلنَّسِيمِ اعْتِلَالٌ ـ فِى أَصَائِلِهِ ـ ... كَأَنَّهُ رَقَّ لِى ، فَاعْتَلَّ إِشْفَاقَا

وَالرَّوْضُ ـ عَنْ مَائِهِ الْفِضِّىِّ ـ مُبْتَسِمٌ ... كَمَا شَقَقْتَ ـ عَنِ اللَّبَّاتِ ـ أَطْوَاقَا [3]

يَوْمٌ ، كَأَيَّامِ لَذَّاتٍ لَنَا انْصَرَمَتْ ، ... بِتْنَا لَهَا ـ حِينَ نَامَ الدَّهْرُ ـ سُرَّاقَا

نَلْهُو بِمَا يَسْتَمِيلُ الْعَيْنَ مِنْ زَهَرٍ ... ـ جَالَ النَّدَى فِيهِ ـ حَتَّى مَالَ أَعْنَاقَا

---

(١) قلائد العقيان .

(٢) وفى بعض الروايات : « ووجه الأرض قد راقا » .

(٣) اللبات : جمع لبة ، وهى موضع القلادة من الصدر ، والأطواق : جمع طوق ، وأراد به ما يطيف بالعنق من الثوب ، ولاشك أن الهيئة الحاصلة من انسياب الماء الفضى فى الروض تشبه الهيئة الحاصلة من انشقاق طوق الثوب عند ترائب النحر والصدر ، وجاء فى بعض الروايات : « كما حلت عن اللبات أطواقا . »

كَأَنَّ أَعْيُنَهُ ـ إِذْ عَايَنَتْ أَرَقِي ـ بَكَتْ لِمَا بِي ، فَجَالَ الدَّمْعُ رَقْرَاقا

وَرْدٌ تَأَلَّقَ ـ فِي ضَاحِي مَنَابِتِهِ ـ فَازْدَادَ مِنْهُ الضُّحَى ـ فِي الْعَيْنِ ـ إِشْرَاقا

سَرَى يُنَافِحُهُ نَيْلُوفَرٌ عَبِقٌ وَسْنَانُ ، نَبَّهَ مِنْهُ الصُّبْحُ أَحْدَاقا

كُلٌّ يَهِيجُ لَنَا ذِكْرَى تُشَوِّقُنَا إِلَيْكِ ، لَمْ يَعْدُ عَنْهَا الصَّدْرُ إِنْ ضَاقا

لَا سَكَّنَ اللهُ قَلْبًا ، عَنَّ ذِكْرُكُمُ فَلَمْ يَطِرْ ـ بِجَنَاحِ الشَّوْقِ ـ خَفَّاقا

لَوْ شَاءَ حَمْلِي نَسِيمُ الصُّبْحِ ـ حِينَ سَرَى ـ وَافَاكُمُ بِفَتًى أَضْنَاهُ مَا لَاقَى

لَوْ كَانَ وَفَّى الْمُنَى ـ فِي جَمْعِنَا بِكُمُ ـ لَكَانَ مِنْ أَكْرَمِ الْأَيَّامِ أَخْلَاقا

* * *

يَا عِلْقَ الْأَخْطَرَ الْأَسْنَى الْحَبِيبَ إِلَى نَفْسِي ، إِذَا مَا اقْتَنَى الْأَحْبَابُ أَعْلَاقَا

كَانَ التَّجَارِي بِمَحْضِ الْوُدِّ ـ مُذْ زَمَنٍ ـ مَيْدَانَ أُنْسٍ ، جَرَيْنَا فِيهِ أَطْلَاقَا

فَالْآنَ ـ أَحْمَدَ مَا كُنَّا لِعَهْدِكُمُ ـ سَلَوْتُمُ ، وَبَقِينَا نَحْنُ عُشَّاقَا !

إلى ولادة

يَا نَازِحًا ـ وَضَمِيرُ الْقَلْبِ مَثْوَاهُ ـ أَنْسَتْكَ دُنْيَاكَ عَبْدًا أَنْتَ دُنْيَاهُ

أَلْهَتْكَ عَنْهُ فُكَاهَاتٌ تَلَذُّ بِهَا فَلَيْسَ يَجْرِي ـ بِبَالٍ مِنْكَ ـ ذِكْرَاهُ

عَلَّ اللَّيَالِيَ تُبْقِينِي إِلَى أَمَلٍ ، الدَّهْرُ يَعْلَمُ وَالْأَيَّامُ مَعْنَاهُ

إلى أبي حفص بن برد

قُلْ لِأَبِي حَفْصٍ ـ وَلَمْ تَكْذِبْ ـ يَا قَمَرَ الدِّيوَانِ وَالمَوْكِبِ :
مَا لِأَبِي صَفْوَانَ ـ مَأْلُوفِنَا ـ أَبْرَقَ فِي الْأُلْفَةِ عَنْ خُلَّبِ ؟
وَلَمْ يَعُدْ إِلَّا كَمَا يَتَّقِي مُسْتَرِقُ السَّمْعِ مِنَ الْكَوْكَبِ ؟

* * *

عَفْهُ بِاللهِ عَلَى فِعْلِهِ ، وَاشْتِمْ ـ وَإِنْ لَمْ يَسْتَقِمْ ـ فَاضْرِبِ
وَعَاطِهِ صَهْبَاءَ مَشْمُولَةً يَرَى لَهَا المَشْرِقَ فِي المَغْرِبِ
وَلْيَشْرَبِ الْأَكْثَرَ مِنْ كَأْسِهِ وَاعْمِدْ ـ إِلَى فَضْلَتِهِ ـ فَاشْرَبِ
عُقُوبَةٌ ، أَحْسِنْ بِهَا سُنَّةً ـ فِي مِثْلِهِ ـ مِنْ حَسَنٍ مُذْنِبِ
وَبَاكِرَا الطِّيبَ ، وَرُوحَا لَهُ ، فَانْتُمَا فِي زَمَنٍ طَيِّبِ

ليل انس

« وبات ليلة باحدى جنات اشبيلية فقال : »

وَلَيْلٍ أَدَمْنَا فِيهِ شُرْبَ مُدَامَةٍ إِلَى أَنْ بَدَا لِلصُّبْحِ ـ فِي اللَّيْلِ ـ تَأْثِيرُ
وَجَاءَتْ نُجُومُ الصُّبْحِ ـ تَضْرِبُ فِي الدُّجَا ـ فَوَلَّتْ نُجُومُ اللَّيْلِ ، وَاللَّيْلُ مَقْهُورُ
فَحُزْنَا مِنَ اللَّذَّاتِ أَطْيَبَ طِيبِهَا ، وَلَمْ يَعْرُنَا هَمٌّ وَلَا عَاقَ تَكْدِيرُ
خَلَا أَنَّهُ ـ لَوْ طَالَ ـ دَامَتْ مَسَرَّتِي ، وَلَكِنْ لَيَالِي الْوَصْلِ فِيهِنَّ تَقْصِيرُ

دواء

« وقد أهدى دواء »

قَدْ بَعَثْنَاهُ يَنْفَعُ الْأَعْضَاء ... حِينَ يَحْلُو بِلُطْفِهِ السَّخْنَاء[1]

جَاء يُزْهَى بِمُسْتَشَفٍّ رَقِيقٍ ... يَخْدَعُ الْعَيْنَ رِقَّةً وَصَفَاء[2]

تَنْفُذُ الْعَيْنُ مِنْهُ فِى ظَرْفِ نُورٍ ... مَلَأَتْهُ أَيْدِى الشُّمُوسِ ضِيَاء

أَكْسَبَتْهُ الْأَيَّامُ بَرْدَ هَوَاءٍ ... فَهْوَ جِسْمٌ قَدْ صِيغَ نَاراً وَمَاء

مَنْظَرٌ يُبْهِجُ الْقُلُوبَ ، وَطَعْمٌ ... تَشْكُرُ النَّفْسُ عَهْدَهُ اسْتِمْرَاء

لَذَّةُ الْوَصْلِ نَالَهُ ـ بَعْدَ يَأْسٍ ـ ... كَلِفٌ طَالَمَا تَشَكَّى الْجَفَاء[3]

يَفْضَحُ الشَّهْدَ طَعْمُهُ ـ كُلَّمَا قِيـــسَ ـ إِلَيْهِ وَيُخْجِلُ الصَّهْبَاء

فَضَلَ السَّابِقَ الْمُقَدَّمَ ـ فِى النُّضْـــجِ ـ فَأَزْرَى بِطَعْمِهِ إِزْرَاء

غَـــيْرَ أَنِّى بَعَثْتُ هٰذَا غِذَاءً ... ـ يَشْتَهِيهِ الْفَتَى ـ وَذَاكَ دَوَاء

مُلْطِفٌ يُبْرِدُ الْمِزَاجَ إِذَا جَا ... شَ الْتِهَاباً ، وَيَقْمَعُ الصَّفْرَاء

---

(١) بعثناه : أى الدواء المعهود بينه وبين مخاطبه ، ومعلوم أن الطب وعلم الكيمياء وتركيب الأدوية والصيدلة والجراحة تقدمت فى الأندلس وبخاصة فى القرون الوسطى وعند علماء الأندلس كابن رشد ، وأبى القاسم الزهراوى ، وابن زهر ، وأضرابهم من علماء المشرق ببغداد : كابن سينا والرازى ، وعلى ابن العباس أخذ علماء أوربا علومهم الطبية وغيرها ، وقد مرّ بك كثير من قصائد ابن زيدون التى تتعرض لذكر الطب والعلاج ، وأنت إذا تأملت فيما يمر بك من هـذا النوع وأشباهه تقرأ فيه آيات الحضارة ، وتشعر بآثار المدنية . والسخناء : من قولهم: إنى لأجد فى نفسى سخناء ـ بالمد ـ وسخونة أى حرارة شديدة من وجع أو حمى .

(٢) يقول : إن هذا الدواء قد جاءك يزهى فى رقته وسيولته بوعاء رقيق تستشف العين ما فى داخله ، وينخدع الناظر فلا يكاد يراه لشدة رقته وصفائه .

(٣) يقول : إن متعاطيه يستمرئه ويجد فيه لذة كلذة الكلف المشوق ، ظفر بوصل الحبيب بعد يأس وطول جفاء .

وَمُعِينٌ لِوَاصِلِ الصَّوْمِ، يَسْرِى بَرْدُهُ فِى الْحَشَا فَيُرْوِى الظَّمَاءَ
(فَتَقَبَّلْهُ) شَافِعاً لِأَيَادِيـــكَ الَّتِى بَعْضُهَا يَفُوتُ الثَّنَاءَ [1]

حسبي رضاك

إِلَيْكِ ـ مِنَ الْأَنَامِ ـ غَدَا أَرْتِيَاحِى ، وَأَنْتِ ـ عَلَى الزَّمَانِ ـ مَدَى اقْتِرَاحِى
وَمَا اعْتَرَضَتْ هُمُومُ النَّفْسِ إِلَّا ـ وَمِنْ ذِكْرَاكِ ـ رَيْحَانِى وَرَاحِى
فَدَيْتُكِ : إِنَّ صَبْرِى عَنْكِ صَبْرِى ـ لَدَى عَطَشِى ـ عَلَى الْمَاءِ الْقَرَاحِ [2]
وَلِى أَمَلٌ ـ لَوِ الْوَاشُونَ كَفُّوا ـ لَاطْلَعَ غَرْسُـهُ ثَمَرَ النَّجَاحِ
وَأَعْجَبُ كَيْفَ يَغْلِبُنِى عَدُوٌّ رِضَاكِ عَلَيْهِ مِنْ أَمْضَى سِلَاحِ
وَلَمَّا أَنْ جَلَتْكِ لِىَ ـ اخْتِلَاسًا ـ أَكُفُّ الدَّهْرِ لِلْحَيْنِ الْمُتَاحِ [3]
رَأَيْتُ الشَّمْسَ تَطْلُعُ مِنْ نِقَابٍ ، وَغُصْنَ الْبَانِ يَرْفُلُ فِى وِشَاحِ
فَلَوْ أَسْطِيعُ طِرْتُ إِلَيْكِ ـ شَوْقًا ـ وَكَيْفَ يَطِيرُ مَقْصُوصُ الْجَنَاحِ
عَلَى حَالَىْ وِصَالٍ وَاجْتِنَابٍ ، وَفِى يَوْمَىْ دُنُوٍّ وَانْتِزَاحِ
وَحَسْبِىَ أَنْ تُطَالِعَكِ الْأَمَانِى بِأُفْقِكِ ـ فِى مَسَاءٍ أَوْ صَبَاحِ

---

(١) وجد هذا البيت فى الأصل ناقصاً هكذا :

« . . . . . شافعا لأياديـــك التى بعضها يفوق الثناء . »

والتكملة لا يأباها السياق .

(٢) يقول : إن صبرى عنك كصبرى على الماء القراح لدى عطشى وشدة ظمئى .

(٣) يقول فى هذا البيت والذى بعده : ولما أن جلتك وأبرزتك يد الدهر خلسة لحيى وهلاكى الذى أتيح وقدر لى ، طلعت سافرة كما تطلع الشمس من نقاب ، وخطرت مائسة كما يرفل غصن البان فى وشاح

وَأَنْ تُهْدِى السَّـــلاَمَ إِلَىَّ ـ غِبًّا ـ وَلَوْ فى بَعْضِ أَنْفَاسِ الرِّيَاحِ (١)
فُؤَادِى ـ مِنْ أَسًى بِكِ ـ غَيْرُ خَالٍ وَقَلْبِى ـ عَنْ هَوَى لَكِ ـ غَيْرُ صَاحِ

عودى إلى الوصال

بَاعَدْتِ ـ بِالْإِعْرَاضِ ـ غَيْرَ مُبَاعِدِ وَزَهَدْتِ فِيمَنْ لَيْسَ فِيكِ بِزَاهِدِ (٢)
وَسَقَيْتِنِى ـ مِنْ مَاءِ هَجْرِكِ ـ مَالَهُ أَصْبَحْتُ أَشْرَقُ بِالزُّلَالِ الْبَارِدِ
هَلاَّ جَعَلْتِ ـ فَدَتْكِ نَفْسِى ـ غَايَةً لِلْعَتْبِ ، أَبْلُغُهَا بِجَهْدِ الْجَاهِدِ (٣)
لاَ تُفْسِدَنْ ـ مَا قَدْ تَأَكَّدَ بَيْنَنَا مِنْ صَالِحٍ ـ خَطَرَاتُ ظَنٍّ فَاسِدِ
حَاشَاكِ مِنْ تَضْيِيعِ أَلْفِ وَسِيلَةٍ ـ شَجِىَ الْعَدُوُّ لَهَا ـ بِذَنْبٍ وَاحِدِ (٤)
إِنْ أَجْنِــهِ خَطَأً ، فَقَدْ عَاقَبْتِنِى ظُلْمًا ، بِأَبْلَغَ مِنْ عِقَابِ الْعَامِدِ (٥)

* * *

عُودِى لِمَا أَصْفَيْتِنِيهِ مِنَ الْهَوَى بَدْءًا ، فَلَسْتُ ـ لِمَا كَرِهْتِ ـ بِعَائِدِ
وَضَعِى قِنَاعَ السُّخْطِ عَنْ وَجْهِ الرِّضَا كَيْمَا أَخِرَّ إِلَيْهِ أَوَّلَ سَاجِدِ (٦)

---

(١) وحسبى أن تعنى السلام غبا أى يوما بعد يوم ولو مع أنفاس الرياح التى تهب من ناحيتك ، وفى الأصل « وأن تبدى » وقد وضعنا بدلها « تهدى » التى هى كصورتها حتى لاتكون نابية فى موضعها ، وقد وجد هذا البيت بعد تاليه ، ولكنا آثرنا تقديمه عليه بحكم العطف على قوله :
« وحسبى أن تطالعك الأمانى . »

(٢) باعدت فتى غير مباعد وذلك باعراضك عنه ، وزهدت فى محب ليس فيك بزاهد .

(٣) يقول كان ينبغى أن تجعلى بدنى وبينك نهاية للعتب وغاية أبلغ فيها رضاك بجهدالجاهد وشق النفس .

(٤) يقول : حاشاك أن تضيعى ألف وسيلة توسلت بها إلى رضاك يراها عدوى كالشجا معترضا فى حلقه بذنب واحد .

(٥) إن أجن ذلك الذنب خطأ فقد ظلمتنى بأن عاقبتنى عليه بأشد من عقوبة من أتى بالذنب عمدا .

(٦) أزيلى عن وجه الرضا ما يستره من قناع السخط كيما أكون أول ساجد على نعمة رضاك عنى .

أبو القاسم

« وأمره المعتضد أن يعارض قطعا من أشعار كان يستحسن ألحانها فعارضها رحمه الله بقطع وهى : »

يُقَصِّرُ قُرْبُكَ لَيْلِي (١) الطَّوِيلاَ ... وَيَشْفِي وِصَالُكَ قَلْبِي الْعَلِيلاَ
وَإِنْ عَصَفَتْ مِنْكَ رِيحُ الصُّدُودِ ... فَقَدْتُ نَسِيمَ الحَيَاةِ الْبَلِيلاَ
كَمَا أَنَّنِي (٢) إِنْ أَطَلْتُ الْعِثَارَ ... وَلَمْ يُبْدِ عُذْرِي وَجْهاً جَمِيلاَ
وَجَدْتُ « أَبَا الْقَاسِمِ الظَّافِرَ الْمُؤَيَّدَ بِاللهِ » مَوْلًى مُقِيلاَ
إِذَا مَا نَدَاهُ هَمَى وَالْحَيَا ... شَآهُ ، وَعُدَّ الجَوَادُ الْبَخِيلاَ
وَأَقْلاَمُهُ وَفْقُ أَسْيَافِهِ ... يَظَلُّ الصَّرِيرُ يُبَارِي الصَّلِيلاَ

وقال

أَنْتَ الْمُسَبِّبُ لِلْوُلُوعِ ... وَمُثِيرُ كَامِنَةِ الدُّمُوعْ
يَتَمَنَّيَانِ لَوِ اعْفِيَا ... ـ مَهْمَا طَلَعْتَ ـ مِنَ الطُّلُوعْ
وَالظَّافِرُ الْمَلِكُ الْمُؤَيَّدُ ... وَاحِدٌ عَدْلُ الْجُمُوعْ
الْبَدْرُ فِي سُحُبِ الْبُرُ ... دِ اللَّيْثُ فِي لِبَدِ الدُّرُوعْ
عَنَتِ الْأُصُولُ لِأَصْلِهِ ... وَتَقَاصَرَتْ عَنْهُ الْفُرُوعْ

---

(١) فى الأصل : « الليل »

(٢) فى الأصل : « أنق »

آلام المحب

مَتَى أَبُثُّكَ [1] مَابِي ؟ يَا رَاحَتِي وَعَذَابِي
مَتَى يَنُوبُ لِسَانِي ـ فِي شَرْحِهِ ـ عَنْ كِتَابِي؟
أَللهُ يَعْلَمُ أَنِّي أَصْبَحْتُ فِيكِ لِمَا بِي
فَلاَ يَطِيبُ [2] مَنَامِي وَلاَ يَسُوغُ شَرَابِي

* * *

يَا فِتْنَةَ المُتَعَزِّي [3] وَحُجَّةَ المُتَصَابِي :
الشَّمْسُ أَنْتِ، تَوَارَتْ ـ عَنْ نَاظِرِي ـ بِالْحِجَابِ

* * *

مَا الْبَدْرُ ـ شَفَّ سَنَاهُ عَلَى رَقِيقِ السَّحَابِ ـ
إِلاَّ كَوَجْهِكِ ، لَمَّا أَضَاءَ تَحْتَ النِّقَابِ

كيف السلو ؟

كَمْ ذَا أُرِيدُ وَلاَ أُرَادُ ؟ يَا سُوءَ مَا لَقِيَ الْفُؤَادُ !
أُصْغِي الْوِدَادَ مُدَلَّلاً ، لَمْ يَصْفُ لِي مِنْهُ الْوِدَادُ
يَقْضِي عَلَيَّ دَلاَلُهُ ـ فِي كُلِّ حِينٍ ـ أَوْ يَكَادُ
كَيْفَ السُّلُوُّ عَنِ الَّذِي مَثْوَاهُ ـ مِنْ قَلْبِي ـ السَّوَادُ؟

---

(١) وفي بعض الروايات : « متى أتبيك . » .
(٢) وفي بعض الروايات : « لم يلذ منامي »
(٣) وفي الاصل : « يا فتنة المتقرى »

مَلَكَ الْقُلُوبَ بِحُسْنِهِ، فَلَهَا ـ إِذَا أَمَرَ ـ انْقِيَادُ

⁂

يَا هَاجِرِي كَمْ أَسْتَفِيدُ الصَّبْرَ عَنْكَ، فَلَا أُفَادُ
أَلَّا[1] رَثَيْتَ لِمَنْ يَبِيتُ وَحَشْوُ مُقْلَتِهِ السُّهَادُ؟
إِنْ أَجْنِ ذَنْباً فِي الْهَوَى ـ خَطَأً ـ فَقَدْ يَكْبُو الْجَوَادُ
كَانَ الرِّضَى ـ وَأُعِيذُهُ ـ أَنْ يُعْقِبَ الْكَوْنَ الْفَسَادُ

قسم

أَسْتَوْدِعُ اللهَ مَنْ أُصْفِي الْوِدَادَ لَهُ مَحْضاً، وَلَامَ بِهِ الْوَاشِي فَلَمْ أُطِعِ
إِلْفٌ أَلَذَّ غُرُورَ الْوَعْدِ، يَصْفَحُ لِي عَنْهُ، وَيُقْنِعُنِي التَّعْلِيلُ بِالْخُدَعِ
تَجْلُو الْمُنَى شَخْصَهُ لِي ـ وَهُوَ مُحْتَجِبٌ عَنِّي ـ فَمَا شِئْتَ مِنْ مَرْأًى وَمُسْتَمَعِ
يَا بَدْرَ تَمٍّ بَدَا فِي أُفْقِ مَمْلَكَةٍ، فَرَاقَ مُطَّلِعاً مِنْ خَيْرِ مُطَّلَعِ
أُفْدِي بَدَائِعَ شَكْلٍ مِنْكَ مُضْمِرَةً لِقَتْلِ نَفْسِيَ ـ عَمْداً ـ أَشْنَعَ الْبِدَعِ

⁂

تَاللهِ ـ أَكْرَمَ مَا أَمْضَى الْيَمِينَ بِهِ مَنْ دَانَ فِي حُبِّهِ بِالصِّدْقِ وَالْوَرَعِ ـ
مَا لَذَّ لِي قُرْبُ أُنْسٍ أَنْتِ نَازِحَةٌ عَنْهُ، وَلَا سَاغَ عَيْشٌ لَسْتِ فِيهِ مَعِي

خداع الأماني

وَلَقَدْ شَكَوتُكَ بِالضَّمِيرِ إِلَى وَدَعَوْتُ ـ مِنْ حَنَقٍ ـ عَلَيْكَ فَأَمَّنَا
مَنَّيْتُ نَفْسِي ـ مِنْ صِفَاتِكَ ـ ضَلَّةً وَلَقَدْ تَغُرُّ الْمَرْءَ بَارِقَةُ الْمُنَى

---

(١) ألا : هلا .

فى الغزل

« وله يتغزل و يعاتب من يستعطفه و يتنزل . »

يا مُسْتَخِفًّا بِعَاشِقِيهِ ... وَمُسْتَغِشًا لِنَاصِحِيهِ
وَمَنْ أَطَاعَ الْوُشَاةَ فِينَا ... حَتَّى أَطَعْنَا السُّلُوَّ فِيهِ
الحَمْدُ لِلّٰهِ إِذْ أَرَانِى ... تَكْذِيبَ مَا كُنْتَ تَدَّعِيهِ
مِنْ قَبْلِ أَنْ يُهْزَمَ التَّسَلِّى ... وَيَغْلِبَ الشَّوْقُ مَا يَلِيهِ

إلى هاجر

أَوْسْلَبُ مِنْ وِصَالِكِ مَا كُسِيتُ ؟ ... وَأُعْزَلُ ـ عَنْ رِضَاكِ ـ وَقَدْ وَلِيتُ ؟
وَكَيْفَ ـ وَفى سَبِيلِ هَوَاكِ طَوْعًا ـ ... لَقِيتُ مِنَ المَكَارِهِ مَا لَقِيتُ !
أُسِرُّ عَلَيْكِ عَتْبًا لَيْسَ يَبْقَى ، ... وَأُضْمِرُ فِيكِ غَيْظًا لاَ يَبِيتُ
وَمَا رَدِّى عَلَى الْوَاشِينَ ، إِلاَّ : ... «رَضِيتُ بِجَوْرِ مَالِكَتِى رَضِيتُ.»

دعاء محب

أَنَّى أُضَيِّعُ عَهْدَكْ ؟ ... أَمْ كَيْفَ أُخْلِفُ وَعْدَكْ
وَقَدْ رَأَتْكَ الْأَمَانِى ... رِضًى ، فَلَمْ تَتَعَدَّكْ

* * *

يَا لَيْتَ مَالَكَ عِنْدِى ! ... مِنَ الْهَوَى ـ لِى عِنْدَكْ[1]

---

(٢) وفى بعض الروايات :

« يا ليت شعرى ، وعندى ... ما ليس ـ فى الحب ـ عندك
هل طال ليلك بعدى ؟ ... كطول ليلى بعدك ؟ . »

فَطَالَ لَيْلُكَ بَعْدِى كَطُولُ لَيْلِى بَعْدَكْ
سَلْنِى حَيَاتِى أَهَبْهَا ، فَلَسْتُ أَمْلِكُ رَدَّكْ
الدَّهْرُ عَبْدِىَ ، لَمَّا أَصْبَحْتُ فِى الْحُبِّ عَبْدَكْ

أنت حسبى

يَامَنْ غدَوْتُ بِهِ فِى النَّاسِ مُشْتَهِراً قَلْبِى عَلَيْكَ يُقَاسِى الْهَمَّ وَالْفِكَرَا
إِنْ غِبْتَ لَمْ أَلْقَ إِنْسَاناً يُؤَنِّسُنِى (١) وَإِنْ حَضَرْتَ، فَكُلُّ النَّاسِ قَدْ حَضَرَا

ما الذى أنكروه ؟

قَالَ لِى : « اعْتَلَّ مَنْ هَوِيتَ» حَسُودٌ قُلْتُ: « أَنْتَ الْعَلِيلُ وَيْحَكَ لَاهُو »
مَا الَّذِى أَنْكَرُوهُ مِنْ بَثَرَاتٍ (٢) ضَاعَفَتْ حُسْنَهُ وَزَادَتْ حُلَاهُ
جِسْمُهُ فِى الصَّفَاءِ وَالرِّقَّةِ الْمَا ءِ ، فَلَا غَرْوَ أَنْ حُبَابٌ عَلَاهُ

شوق بعد سلوان

عَاوَدْتُ ذِكْرَى الْهَوَى مِنْ بَعْدِ نِسْيَانِ وَاسْتَحْدَثَ الْقَلْبُ شَوْقاً بَعْدَ سُلْوَانِ
مِنْ حُبِّ جَارِيَةٍ ، يَبْدُو بِهَا صَنَمٌ مِنَ اللُّجَيْنِ ، عَلَيْهِ تَاجُ عِقْيَانِ
غَرِيرَةٌ لَمْ تُفَارِقْهَا تَمَائِمُهَا تَسْبِى الْعُقُولَ بِسَاجِى الطَّرْفِ وَسْنَانِ
لَاسْتَجِدَّنَّ فِى عِشْقٍ لَهَا زَمَناً يُنْسِى سَوَالِفَ أَيَّامِى وَأَزْمَانِى
حَتَّى تَكُونَ لِمَنْ أَحْبَبْتُ خَاتِمَةً ، نَسَخْتُ فِى حُبِّهَا كُفْراً بِإِيمَانِ

---

(١) فى الأصل « يونسى » بابدال الهمزة واوا وهو إبدال مقيس كما يعلم من علم الصرف ، وهو مضارع أنسى (بالتضعيف) أى أزال وحشق كما نسى ، وجاء فى كلامهم :
« إذا جاء الليل استأنس كل وحشى ، واستوحش كل إنسى » .

(٢) البثرات : واحدتها بثرة كسجدة وسجدات ، وهى خراج صغار تظهر على الوجه ، فتنطف جلده ، وأغلب ما يكون ذلك فى أوان الشباب ، ولذلك يعرف عند العامة فى بلادنا (بحب الشباب) ، وقد علله فى البيت التالى تعليلا حسنا ، حيث شبهه بالحباب يطفو على وجه الماء الشبيه ببشرة وجه الحبيب فى الرقة والصفاء .

أسر الهوى

يَا سُؤْلَ نَفْسِيَ - إِنْ أُحَكَّمْ - وَاخْتِيَارِي إِنْ أُخَيَّرْ
كَمْ لاَمَنِي فِيكَ الحَسُو دُ، وَفَنَّدَ الْوَاشِي فَأَكْثَرْ
قَالُوا : « تَغَيَّرَ بِالسُّلُوِّ وَبِالمَلاَمَةِ قَدْ تَغَيَّرْ »
وَتَوَهَّمُوكَ جَنَيْتَ ذَنْباً بِالتَّجَنِّي لَيْسَ يُغْفَرْ
وَبِزَعْمِهِمْ أَنْ لَيْسَ مِثْلِي فِي الرِّضَى بِالْدُّونِ يُعْذَرْ
لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ الْهَوَى رِقٌّ، وَأَنَّ الْحُسْنَ أَحْمَرْ[1]

معذرة

إِنْ تَكُنْ نَالَتْكَ - بِالضَّرْبِ يَدِي - وَأَصَابَتْكَ بِمَا لَمْ أُرِدِ
فَلَقَدْ كُنْتُ - لَعَمْرِي - فَادِيًا لَكَ بِالْمَالِ وَبَعْضِ الْوَلَدِ
فَثِقِ مِنِّي بِعَهْدٍ ثَابِتٍ وَضَمِيرٍ خَالِصِ الْمُعْتَقَدِ
وَلَئِنْ سَاءَكَ يَوْمٌ فَاعْلَمِي أَنْ سَيَتْلُوهُ سُرُورٌ بِغَدِ

وصف الكأس

أَنَا ظَرْفٌ لِلْهَوَى كُلِّ ظَرِيفِ أَنَا مُسْتَوْدَعُ لِعِلْقٍ شَرِيفِ
أَنَا كَالصَّدْرِ فِي الْإِحَاطَةِ بِالرُّو حِ إِذِ الرَّاحُ كَالضَّمِيرِ اللَّطِيفِ
سَلْ عَنِ الطَّيِّبَاتِ فَهْيَ فُنُونٌ أُلِّفَتْ فِيَّ أَحْسَنَ التَّأْلِيفِ
أَيُّ حُسْنٍ يَفِي بِحُسْنِيَ مَحْمُو لاَ بِكَفٍّ وَصِيفَةٍ أَوْ وَصِيفِ

---

(١) من قولهم « الحسن أحمر » أى ذو مشقة وبلاء يريدون أن من تعشق الحسن والجمال تحمل فى سبيله المشقة وصبر على الأذى ، وإنما يقال ذلك لمن يسترقه الهوى ، ويغلبه الحسن على أمره فيلقى فى سبيله الموت الأحمر .

غاية المحبين

لَئِنْ كُنْتَ ـ فى السِّنِّ ـ تِرْبَ الْهِلاَلِ ، لَقَدْ فُقْتَ ـ فى الْحُسْنِ ـ بَدْرَ الْكَمَالِ
أَمَا وَالَّذِى نَكَّدَ الْحَظَّ فِىَّ دُنُوَّ الْمَكَانِ بِبُعْدِ الْمَنَالِ
لَقَدْ بَلَّغَتْنِى دَوَاعِى هَوَاكَ إِلَى غَايَةٍ مَا جَرَتْ لِى بِبَالِ
فَقُلْ لِلْهَوَى : « يَجْرِ مِلْءَ الْعِنَانِ » فَمَيْدَانُ قَلْبِى رَحِيبُ الْمَجَالِ

صفح المذنب

يَا قَمَراً مَطْلَعُهُ الْمَغْرِبُ قَدْ ضَاقَ بِى ـ فى حُبِّكَ ـ الْمَذْهَبُ
أَعْتِبُ ـ مِنْ ظُلْمِكَ لِى ـ جَاهِداً ، وَيَغْلِبُ الشَّوْقُ فَأَسْتَعْتِبُ
أَلْزَمْتَنِى الذَّنْبَ الَّذِى جِئْتَهُ ، صَدَقْتَ ، فَاصْفَحْ أَيُّهَا الْمُذْنِبُ

لا يأس

أَيُّهَا الْبَدْرُ الَّذِى يَمْلَأُ عَيْنَىْ مَنْ تَأَمَّلْ
حُمِّلَ الْقَلْبُ تَبَارِيحَ التَّجَنِّى فَتَحَمَّلْ
لَيْسَ لِى صَبْرٌ جَمِيلٌ ، غَيْرَ أَنِّى أَتَجَمَّلْ
ثُمَّ لاَ يَأْسَ ، فَكَمْ قَدْ نِيلَ أَمْرٌ لَمْ يُؤَمَّلْ

عتب

أَوْجُفَى ـ بِلاَ جُرْمٍ ـ وَأُقْصَى بِلاَ ذَنْبٍ ، سِوَى أَنَّنِى مَحْضُ الْهَوَى صَادِقُ الْحُبِّ
أُغَادِيكَ بِالشَّكْوَى ، فَأُضْحِى عَلَى الْقِلَى وَأَرْجُوكَ لِلْعُتْبَى ، فَأَظْفَرُ بِالْعَتْبِ
فَدَيْتُكَ ، مَا لِلْمَاءِ ـ عَذْباً عَلَى الصَّدَى ـ وَإِنْ سُمْتَنِى خَسْفاً ، مَحَلُّكَ مِنْ قَلْبِى
وَلَوْلاَكَ ، مَا ضَاقَتْ حَشَاىَ ـ صَبَابَةً ـ جَعَلْتُ قِرَاهَا الدَّمْعَ سَكْباً عَلَى سَكْبِ

تجنى الحبيب

ثِقِي بِي ـ يَا مُعَذِّبَتِي ـ فَإِنِّي ... سَأَحْفَظُ فِيكِ مَا ضَيَّعْتِ مِنِّي
وَإِنْ أَصْبَحْتِ قَدْ أَرْضَيْتِ قَوْمًا ... بِسُخْطِي، لَمْ يَكُنْ ذَا فِيكِ ظَنِّي
وَهَلْ قَلْبٌ كَقَلْبِكِ فِي ضُلُوعِي، ... فَأَسْلُو عَنْكِ حِينَ سَلَوْتِ عَنِّي
تَمَنَّتْ ـ أَنْ تَنَالَ رِضَاكِ ـ نَفْسِي، ... فَكَانَ مَنِيَّةً ذَاكَ التَّمَنِّي
وَلَمْ أَجْنِ[1] الذُّنُوبَ فَتَحْقِدِيهَا، ... وَلَكِنْ عَادَةٌ مِنْكِ التَّجَنِّي .

لا يأس فى الحب

أَنْتِ مَعْنَى الضَّنَى وَسِرُّ الدُّمُوعِ ، ... وَسَبِيلُ الْهَوَى ، وَقَصْدُ الْوَلُوعِ
أَنْتِ وَالشَّمْسُ ضَرَّتَانِ ، وَلَكِنْ ... لَكِ ـ عِنْدَ الْغُرُوبِ ـ فَضْلُ الطُّلُوعِ
لَيْسَ بِالْمُؤْيِسِي تَكَلُّفُكِ الْعَتْـ ... ـبَ ـ دَلَالًا ـ مِنَ الرِّضَى الْمَطْبُوعِ
إِنَّمَا أَنْتِ ـ وَالْحَسُودُ مُعَنًى ـ ... كَوْكَبٌ يَسْتَقِيمُ بَعْدَ الرُّجُوعِ

بقية المسواك

أَهْدِي إِلَيَّ بَقِيَّةَ الْمِسْوَاكِ ... لَا تُظْهِرِي بُخْلًا بِعُودِ أَرَاكِ
فَلَعَلَّ نَفْسِي ، أَنْ يُنَفَّسَ سَاعَةً ... عَنْهَا بِتَقْبِيلِ الْمُقَبِّلِ فَاكِ
يَا كَوْكَبًا ـ بَارَى سَنَاهُ سَنَاءُهُ ـ ... تُزْهَى الْقُصُورُ بِهِ عَلَى الْأَفْلَاكِ
قَرَّتْ وَفَازَتْ ـ بِالْخَطِيرِ مِنَ الْمُنَى ـ ... عَيْنٌ تُقَلِّبُ لَحْظَهَا فَتَرَاكِ

---

(١) وفى الأصل : « ولم أجز » .

غرور المنى

إِنْ ساءَ فِعْلُكِ بِي ، فَما ذَنْبِي أَنَا ؟ ... حَسْبُ المُتَيَّمِ أَنَّهُ قَدْ أَحْسَنَا
لَمْ أَسْلُ حَتَّى كانَ عُذْرُكِ ـ فِي الَّذِي ... أَبْدَيْتِهِ ـ أَخْفَى ، وَعُذْرِي أَبْيَنَا
وَلَقَدْ شَكَوْتُكِ ـ بِالضَّمِيرِ ـ إِلَى الهَوَى، ... وَدَعَوْتُ ـ مِنْ حَنَقٍ ـ عَلَيْكِ فَأَمَّنَا
مَنَّيْتُ نَفْسِي ـ مِنْ وَفائِكِ ـ ضَلَّةً ، ... وَلَقَدْ تَغُرُّ المَرْءَ بَارِقَةُ المُنَى

صلينى

أَغائِبَةً عَنِّي ، وَحاضِرَةً مَعِي ، ... أُنادِيكِ ـ لَمَّا عِيلَ صَبْرِي ـ فَاسْمَعِي
أَفِي الحَقِّ أَنْ أَشْقَى بِحُبِّكِ، أَوْ أُرَى ... حَرِيقاً بِأَنْفاسِي ، غَرِيقاً بِأَدْمُعِي
أَلا عَطْفَةٌ تَحْيَا بِها نَفْسُ عاشِقٍ ؟ ... جَعَلْتِ الرَّدَى مِنْهُ بِمَرْأًى وَمَسْمَعِ
صِلِينِي ـ بَعْضَ الوَصْلِ ـ حَتَّى تَبَيَّنِي ... حَقِيقَةَ حالِي ، ثُمَّ ما شِئْتِ فَاصْنَعِي

شكوى ضائعة

سَأُحِبُّ أَعْدائِي لِأَنَّكَ مِنْهُمُ [1] ... يا مَنْ يُصِحُّ ـ بِمُقْلَتَيْهِ ـ وَيُسْقِمُ
أَصْبَحْتَ تُسْخِطُنِي فَأَمْنَحُكَ الرِّضَى ... ـ مَحْضاً ـ وَتَظْلِمُنِي فَلا أَتَظَلَّمُ
يا مَنْ تَأَلَّفَ لَيْلُهُ وَنَهارُهُ ، ... فَالحُسْنُ بَيْنَهُما مُضِيءٌ مُظْلِمُ
قَدْ كانَ ـ فِي شَكْوَى الصَّبابَةِ ـ راحَةٌ ، ... لَوْ أَنَّنِي أَشْكُو إِلَى مَنْ يَرْحَمُ

وفاء المحب

لَمَّا اتَّصَلْتِ اتِّصالَ الحُبِّ [2] بِالكَبِدِ ... ثُمَّ امْتَزَجْتِ امْتِزاجَ الرُّوحِ بِالجَسَدِ

---

(١) وهذا قريب من قول القائل :

« شابهت أعدائى فضرت أحبهم ... إذ كان حظى منك حظى منهم . »

(٢) وفى الأصل : « الحلب »

سَاءَ الْوُشَاةَ مَكَانِي مِنْكِ ، وَاتَّقَدَتْ ـ فِي صَدْرِ كُلِّ عَدُوٍّ ـ جَمْرَةُ الْحَسَدِ
فَلْيَسْخَطِ النَّاسُ لاَ أُهْدِ الرِّضَى لَهُمُ ، وَلاَ يَضِـــعْ لَكِ عَهْدٌ آخِرَ الْأَبَدِ
لَوِ اسْتَطَعْتُ ـ إِذَا مَا كُنْتِ غَائِبَةً ـ غَضَضْتُ طَرْفِي ، فَلَمْ أَنْظُرْ إِلَى أَحَدِ

غدر الحبيب

يَا لَيْلُ طُلْ ، لاَ أَشْتَهِي ـ إِلاَّ بِوَصْلٍ ـ قِصَرَكْ
لَوْ بَاتَ عِنْدِي قَمَرِي ، مَا بِتُّ أَرْعَى قَمَرَكْ
يَا لَيْلُ خَـــبِّرْ : أَنَّنِي أَلْتَذُّ عَنْهُ خَـــبَرَكْ
بِاللهِ قُلْ لِي : هَلْ وَفَا ؟ فَقَالَ : « لاَ ، بَلْ غَدَرَكْ »

حذر العاشق

لَئِنْ فَاتَنِي مِنْكِ حَظُّ النَّظَرْ لَأَكْتَفِيَنْ بِسَمَاعِ الْخَـــبَرْ
وَإِنْ عَرَضَتْ غَفْلَةٌ لِلرَّقِيـــــبِ ، فَحَسْبِيَ تَسْلِيمَةٌ تُخْتَصَرْ
أُحَاذِرُ أَنْ تَتَظَنَّى الْوُشَا ةُ ، وَقَدْ يُسْتَدَامُ الْهَوَى بِالْحَذَرْ
وَأَصْـــبِرُ مُسْتَيْقِنًا : أَنَّهُ سَيَحْظَى ـ بِنَيْلِ الْمُنَى ـ مَنْ صَبَرْ

قناعة المحب

سَأَقْنَعُ مِنْكِ بِلَحْظِ الْبَصَرْ ، وَأَرْضَى بِتَسْلِيمِكِ الْمُخْتَصَرْ
وَلاَ أَتَخَطَّى الْتِمَاسَ الْمُنَى ، وَلاَ أَتَعَدَّى اخْتِلاَسَ النَّظَرْ
أَصُونُكِ ـ مِنْ لَحَظَاتِ الظُّنُو نِ ـ وَأُعْلِيكِ عَنْ خَطَرَاتِ الْفِكَرْ
وَأَحْذَرُ ـ مِنْ لَحَظَاتِ الرَّقِيـــبِ ـ وَقَدْ يُسْتَدَامُ الْهَوَى بِالْحَذَرْ

كيف السلو ؟

هَلْ لِدَاعِيــكَ مُجِيبُ ؟ أَمْ لِشَاكِيكَ طَبِيبُ ؟
يَا قَرِيباً - حِينَ يَنْأَى - حَاضِراً - حِينَ يَغِيبُ - !
كَيْفَ يَسْــلُوكَ مُحِبٌّ زَانَهُ مِنْكَ حَبِيبُ ؟
إِنَّمَــا أَنْتَ نَسِــيمٌ تَتَلَقَّاهُ الْقُــلُوبُ
قَدْ عَلِمْنَا عِــلْمَ ظَنٍّ ، هُوَ - لاَ شَكَّ - مُصِيبُ
أَنَّ سِرَّ الْحُسْنِ مِمَّــا أَضْمَرَتْ تِلْكَ الْجُيُوبُ

أنت المنى

أَرْخَصْتِنِي - مِنْ بَعْدِ مَا أَغْلَيْتِنِي - وَحَطَطْتِنِي ، وَلَطَالَمَا أَعْلَيْتِنِي
بَادَرْتِنِي بِالْعَزْلِ عَنْ خُطَطِ الرِّضَى ، وَلَقَدْ مَحَضْتُ النُّصْــحَ إِذْ وَلَّيْتِنِي
هَلاَّ - وَقَدْ أَعْلَقْتِنِي شَرَكَ الْهَوَى - عَلَّلْتِنِي بِالْوَصْــلِ ، أَوْ سَلَّيْتِنِي
الصَّــبْرُ شُهْدٌ - عِنْدَ مَا جَرَّعْتِنِي - وَالنَّارُ بَرْدٌ ، عِنْدَ مَا أَصْلَيْتِنِي
كُنْتِ الْمُنَى ، فَأَذَقْتِنِي غُصَصَ الْأَذَى ، يَا لَيْتَنِي مَا فُهْتُ فِيكِ : بِلَيْتَنِي

بقاء على العهد

جَازَيْتَنِي - عَنْ تَمَادِي الْوَصْلِ - هِجْرَانَا وَعَنْ تَمَادِي الْأَسَى وَالشَّوْقِ سُلْوَانَا
بِاللهِ هَلْ كَانَ قَتْلِي فِي الْهَوَى خَطَأً أَمْ جِئْتَهُ عَامِدًا ظُلْمًا وَعُدْوَانَا ؟
عَهْدِي كَعَهْدِكَ ، مَا الدُّنْيَا تُغَيِّرُهُ وَإِنْ تَغَيَّرَ مِنْكَ الْعَهْدُ أَلْوَانَا
مَا صَحَّ وُدِّيَ إِلاَّ اعْتَلَّ وُدُّكَ لِي ، وَلاَ أَطَعْتُكَ إِلاَّ زِدْتَ عِصْيَانَا
يَا أَلْيَنَ النَّاسِ أَعْطَافاً ، وَأَفْتَنَهُمْ لَحْظاً ، وَأَعْطَرَ أَنْفَاساً وَأَرْدَانَا
حَسُنْتَ خَلْقاً ، فَأَحْسِنْ لاَ تَسُؤْ خُلُقاً ، مَا خَيْرُ ذِي الْحُسْنِ إِنْ لَمْ يُولِ إِحْسَانَا ؟

أين وفاؤك ؟

أَشْمَتَّ بِي فِيكَ الْعِدَا ... وَبَلَغْتَ مِنْ ظُلْمِي الْمَدَى
لَوْ كَانَ يَمْلِكُ فِدْيَةً ... مِنْ حُبِّكَ الْقَلْبُ افْتَدَى
كُنْتَ الْحَيَاةَ لِعَاشِقٍ ... مُذْ حُلْتَ أَيْقَنَ بِالرَّدَى
لَمْ يَسْلُ عَنْكَ ، وَلَوْ سَلَا ... لَعَذَرْتُهُ ، فَبِكَ اقْتَدَى
ضَيَّعْتَ عَهْدَ مَحَبَّةٍ ... كَالْوَرْدِ سَامَرَهُ النَّدَى
أَيْنَ ادِّعَاؤُكَ لِلْوَفَا ... ءِ ، وَمَا عَدَا مِمَّا بَدَا [1]

صريع الحب

لَوْ كَانَ قَوْلُكَ «مُتْ» مَا كَانَ رَدِّيَ «لَا» ... يَا جَائِرَ الْحُكْمِ ، أَفْدِيهِ بِمَنْ عَدَلَا
أَبْدَيْتَ لِي مِنْ أَفَانِينِ الْقِلَى عِبَرًا ، ... أَرْسَلْنَنِي فِي أَحَادِيثِ الْهَوَى مَثَلَا
لَمْ تُبْقِ جَارِحَةً بِالْهَجْرِ مِنْ جَسَدِي ... إِلَّا خَلَعْتَ عَلَيْهَا بِالضَّنَى حُلَلَا
فَلْيُغْنِ كَفُّكَ أَنِّي بَعْضُ مَنْ مَلَكَتْ ، ... وَلْيَكْفِ طَرْفَكَ أَنِّي بَعْضُ مَنْ قَتَلَا
وَلْتَقْضِ مَا شِئْتَ مِنْ هَجْرٍ وَمِنْ صِلَةٍ ... لَا أَقْضِ مَا عِشْتُ سُلْوَانًا وَلَا مَلَلَا
سَقْيًا لِعَهْدِكَ وَالْأَيَّامُ تُقْبِلُنِي ... وَجْهَ السُّرُورِ بِهِ جَذْلَانَ مُقْتَبِلَا
إِذِ الزَّمَانُ بَلِيغٌ فِي مُسَاعَدَتِي ... يُهْدِي إِلَيَّ - تَفَارِيقَ الْمُنَى - جُمَلَا
إِنْ كَانَ لِي أَمَلٌ إِلَّا رِضَاكَ ، فَلَا ... بُلِّغْتُ - يَا أَمَلِي - مِنْ دَهْرِيَ الْأَمَلَا

---

(١) فى الأصل : « وما عدا فيما بدا . » وأصل المثل كما فى مجمع الأمثال للميدانى : « ما عدا مما بدا . » أى ما منعك مما ظهر لك أولا ، قاله على بن أبى طالب للزبير بن العوام رضى الله عنهما يوم الجمل يريد ما الذى صرفك عما كنت عليه من البيعة ، وهذا متصل بقوله : « عرفتنى بالحجاز ، وأنكرتنى بالعراق ، فما عدا مما بدا . »

وفاء المحب

مَنْ مُبْلِغٌ عَنِّيَ الْبَدْرَ الَّذِي كَمُلاَ ... فِي مَطْلَعِ الْحُسْنِ ـ وَالْغُصْنَ الَّذِي اعْتَدَلاَ

أَنَّ الزَّمَانَ الَّذِي أَهْدَى مَوَدَّتَهُ ... إِلَيَّ مُرْتَهِنٌ شُكْرِي بِمَا فَعَلاَ

أَمَّا الحبيبُ الَّذِي أَبْدَى الجَفَاءَ لنَا، ... فَمَا رَأَيْنَا قِلاَهُ حَادِثًا جَلَلاَ

وَلَمْ نَزِدْ أَنْ ظَفِرْنَا مِلْءَ أَعْيُنِنَا ... بِالْمُشْتَرَى، فَتَجَنَّبْنَا لَهُ زُحَلاَ

أَنْتَ الحَبِيب الَّذِي مَا زِلْتُ أُلْفِهُ ... ظِلَّ الْهَوَى ، وَأُسَقِّيهِ الرِّضَا عَلَلاَ

هٰذِي الحَقِيقَةُ ، لاَ قَوْلِي مُخَادَعَةً : ... لَوْ كَانَ قَوْلُكَ «مُتْ» مَا كَانَ رَدِّيَ «لاَ»

انت حسبي

لَمْ يَكُنْ هَجْرِي حَبِيبِي عَنْ قِلَى ... لاَ وَلاَ ذَاكَ التَّجَنِّي مَلَلاَ

سَرَّهُ شُكْرِيَ ـ إِذْ عَافَى ـ وَلَمْ ... يَدْرِ مَا غَايَةُ صَبْرِي فَابْتَلَى

أَنَا رَاضٍ بِالَّذِي يَرْضَى بِهِ ... لِيَ مَنْ لَوْ قَالَ «مُتْ» مَا قُلْتُ: «لاَ»

مَثَلٌ فِي كُلِّ حُسْنٍ مِثْلَ مَا ... صَارَ ذُلًّى ـ فِي هَوَاهُ ـ مَثَلاَ

يَا فَتِيتَ الْمِسْكِ يَا شَمْسَ الضُّحَا ... يَا قَضِيبَ الْبَانِ يَا رِيمَ الْفَلاَ

إِنْ يَكُنْ لِي أَمَلٌ غَيْرَ الرِّضَا ... مِنْكَ ، لاَ بُلِّغْتُ ذَاكَ الْأَمَلاَ

إلى هاجر

أَتَهْجُرُنِي وَتَغْصِبُنِي كِتَابِي ؟ ... وَمَا فِي الحَقِّ غَصْبِي وَاجْتِنَابِي

أَيَحْمِلُ أَنْ أُبِيحَكَ مَحْضَ وُدِّي ؟ ... وَأَنْتَ تَسُومُنِي سُوءَ الْعَذَابِ

فَدَيْتُكَ، كَمْ تَغُضُّ الطَّرْفَ دُونِي ... وَكَمْ أَدْعُوكَ مِنْ خَلْفِ الْحِجَابِ

وَكَمْ لِي مِنْ فُؤَادِكَ ـ بَعْدَ قُرْبٍ ـ ... مَكَانَ الشَّيْبِ فِي نَفْسِ الْكِعَابِ

أَعِدْ ـ فى عَبْدِكَ المَظْلومِ ـ رَأْيًا تَنَالُ بِهِ الجَزِيلَ مِنَ الثَّوَابِ (١)
وَإِنْ تَبْخَلْ عَلَيْهِ فَرُبَّ دَهْرٍ وَهَبْتَ لَهُ رِضَاكَ بِلاَ حِسَابِ

لاسبيل إلى السلو

أَذْكَرْتَنِي سالِفَ العَيْشِ الَّذِي طَابَا يَا لَيْتَ غَائِبَ ذَاكَ العَهْدِ قَدْ آبَا
إِذْ نَحْنُ فى رَوْضَةٍ ـ لِلْوَصْلِ ـ نَعَّمَهَا مِنَ السُّرُورِ غَمَامٌ فَوْقَهَا صَابَا
إِنِّى لَأَعْجَبُ مِنْ شَوْقٍ يُطَاوِلُنِى فَكُلَّمَا قِيلَ فِيهِ: «قَدْ قَضَى»، ثَابَا
كَمْ نَظْرَةٍ لَكَ فى عَيْنِى عَامِتَ بِهَا ـ يَوْمَ الزِّيَارَةِ ـ أَنَّ القَلْبَ قَدْ ذَابَا
قَلْبٌ يُطِيلُ مَقَامَاتِى لِطَاعَتِكُمْ، فَإِنْ أُكَلِّفْهُ عَنْكُمْ سَلْوَةً يَابَى
مَا تَوْبَتِى بِنَصُوحٍ ـ مِنْ مَحَبَّتِكُمْ ـ لاَ عَذَّبَ اللهُ إِلاَّ عَاشِقًا تَابَا

انت الحياة

أَمَّا رِضَاكِ فَعِلْقٌ مَالُهُ ثَمَنُ لَوْ كَانَ سَامَحَنِى فى وَصْلِهِ الزَّمَنُ
تَبْكِى فِرَاقَكَ عَيْنٌ أَنْتَ نَاظِرُهَا قَدْ لَجَّ فى هَجْرِهَا عَنْ هَجْرِكَ الْوَسَنُ
إِنَّ الزَّمَانَ الَّذِى عَهْدِى بِهِ حَسَنٌ قَدْ حَالَ مُذْ غَابَ عَنِّى وَجْهُكَ الحَسَنُ
أَنْتَ الْحَيَاةُ فَإِنْ يُقْدَرْ فِرَاقُكَ لِى فَلْيُحْفَرِ الْقَبْرُ أَوْ فَلْيَحْضُرِ الْكَفَنُ
وَاللهِ مَا سَاءَنِى أَنِّى جُفِيتُ ضَنًى بَلْ سَاءَنِى أَنَّ سِرِّى ـ بِالضَّنَى ـ عَلَنُ
لَوْ كَانَ أَمْرِى ـ فى كَتْمِ الْهَوَى ـ بِيَدِى مَا كَانَ يَعْلَمُ ـ مَا فى قَلْبِىَ ـ الْبَدَنُ

ذكرى معاهد قرطبة

عَلَى الشِّعْبِ الشَّهْدِىِّ مِنِّى تَحِيَّةٌ زَكَتْ، وَعَلَى وَادِى الْعَقِيقِ سَلاَمُ
وَلاَ زَالَ نَوْرٌ فى الرُّصَافَةِ ضَاحِكٌ بِأَرْجَائِهَا يَبْكِى عَلَيْهِ غَمَامُ

---

(١) قريب من هذا قول البحترى :
« أعيدى فى نظرة مستثيب تونى الأجر أو كره الأثاما »

مَعَاهِدُ لَهْوٍ لَمْ تَزَلْ فِى ظِلَالِهَا ... تُدَارُ عَلَيْنَا - لِلْمُجُونِ - مُدَامُ

زَمَانٌ: رِيَاضُ الْعَيْشِ خُضْرٌ نَوَاضِرٌ ... تَرِفُّ ، وَأَمْوَاهُ السُّرُورِ جِمَامُ

فَإِنْ بَانَ مِنِّى عَهْدُهَا ، فَبِلَوْعَةٍ ... يَشُبُّ لَهَا - بَيْنَ الضُّلُوعِ - ضِرَامُ

تَذَكَّرْتُ أَيَّامِى بِهَا ، فَتَبَادَرَتْ ... دُمُوعٌ ، كَمَا خَانَ الْفَرِيدَ نِظَامُ

وَصُحْبَةَ قَوْمٍ كَالْمَصَابِيحِ ، كُلُّهُمْ ... - إِذَا هُزَّ لِلْخَطْبِ الْمُلِمِّ - حُسَامُ

إِذَا طَافَ بِالرَّاحِ الْمُدِيرُ عَلَيْهِمُ ... أَطَافَ بِهِ بِيضُ الْوُجُوهِ ، كِرَامُ

وَأَحْوَرُ سَاجِى الطَّرْفِ حَشْوُ جُفُونِهِ ... سَقَامٌ بَرَى الْأَجْسَامَ مِنْهُ سِقَامُ

تَخَالُ قَضِيبَ الْبَانِ - فِى طَىِّ بُرْدِهِ - ... إِذَا اهْتَزَّ مِنْهُ مَعْطِفٌ وَقَوَامُ

يُدِيرُ - عَلَى رَغْمِ الْعِدَا - مِنْ وِدَادِهِ ... سُلَافًا ، كَأَنَّ الْمِسْكَ مِنْهُ خِتَامُ

فَمِنْ أَجْلِهِ أَدْعُو لِقُرْطَبَةِ الْمُنَى ... بِسُقْيَا ضَعِيفِ الطَّلِّ وَهْوَ رِهَامُ (١)

مَحَلٌّ غَنِينَا بِالتَّصَابِى خِلَالَهُ ... فَأَسْعَدَنَا ، وَالْحَادِثَاتُ نِيَامُ

فَمَا لَحِقَتْ تِلْكَ اللَّيَالِى مَلَامَةٌ ، ... وَلَا ذُمَّ - مِنْ ذَاكَ الْحَبِيبِ - ذِمَامُ

غدر الحبيب

أَجِدُّ ، وَمَنْ أَهْوَاهُ - فِى الْحُبِّ - عَابِثُ ... وَأُوفِى لَهُ بِالْعَهْدِ ، إِذْ هُوَ نَاكِثُ

حَبِيبٌ نَأَى عَنِّى - مَعَ الْقُرْبِ وَالْأَسَى - ... مُقِيمٌ لَهُ - فِى مُضْمَرِ الْقَلْبِ - مَاكِثُ

جَفَانِى بِإِلْطَافِ الْعِدَا ، وَأَزَالَهُ ... - عَنِ الْوَصْلِ - رَأْىٌ فِى الْقَطِيعَةِ حَادِثُ

تَغَيَّرْتُ عَنْ عَهْدِى ، وَمَا زِلْتُ وَاثِقًا ... بِعَهْدِكَ ، لَكِنْ غَيَّرَتْكَ الْحَوَادِثُ

وَمَا كُنْتُ - إِذْ مَلَّكْتُكَ الْقَلْبَ - عَالِمًا ... بِأَنِّىَ - عَنْ حَتْفِى - بِكَفَّىَ بَاحِثُ

فَدَيْتُكَ ، إِنَّ الشَّوْقَ لِى - مُذْ هَجَرْتَنِى - ... مُمِيتٌ فَهَلْ لِى - مِنْ وِصَالِكَ - بَاعِثُ ؟

---

(١) رهام - جمع رهمة - وهى المطر الضعيف الدائم .

سَتَبْلَى اللَّيَالِي ـ وَالْوِدَادُ بِحَالِهِ ـ جَدِيدٌ ، وَتَفْنَى وَهْوَ لِلْأَرْضِ وَارِثُ
وَلَوْ أَنِّي أَقْسَمْتُ : أَنَّكَ قَاتِلِي وَأَنِّيَ مَقْتُولٌ ، لَمَا قِيلَ : « حَانِثُ . »

اصنع ماشئت

يَا نَاسِيًا لِي ـ عَلَى عِرْفَانِهِ ـ تَلَفِي ذِكْرُكَ مِنِّيَ بِالْأَنْفَاسِ مَوْصُولُ
وَقَاطِعًا صِلَتِي ـ مِنْ غَيْرِ مَا سَبَبٍ ـ تَاللَّهِ : إِنَّكَ ـ عَنْ رُوحِي ـ لَمَسْئُولُ
مَاشِئْتَ فَاصْنَعْهُ ، كُلٌّ مِنْكَ مُحْتَمَلٌ ، وَالذَّنْبُ مُغْتَفَرٌ ، وَالْعُذْرُ مَقْبُولُ
لَوْ كُنْتَ حَظِّيَ ، لَمْ أَطْلُبْ بِهِ بَدَلًا ، أَوْ نِلْتُ مِنْكَ الرِّضَا ، لَمْ يَبْقَ مَأْمُولُ

أمنيـــة

يَا قَاطِعًا حَبْلَ وُدِّي وَوَاصِلًا حَبْلَ صَدِّي
وَسَالِبًا ، لَيْسَ يَدْرِي بِطُولِ بَثِّي وَوَجْدِي
لَوْ كَانَ عِنْدَكَ مِنِّي مِثْلُ الَّذِي مِنْكَ عِنْدِي
لَبِتَّ ـ بَعْدِيَ ـ مِثْلِي ، وَبِتُّ ـ مِثْلَكَ ـ بَعْدِي

نفسي فداؤك

لَوْ تَرَكْنَا بِأَنْ نَعُودَكَ عُدْنَا وَقَضَيْنَا الَّذِي عَلَيْنَا وَزِدْنَا
غَيْرَ أَنَّ الْهَوَى اسْتَطَارَ حَدِيثًا ، فَانْتَحَتْنَا الْعُيُونُ لَمَّا حُسِدْنَا
فَلَوَ انَّ النُّفُوسَ تُقْبَلُ مِنَّا ، لَسَمَحْنَا بِهَا ـ فِدَاءً ـ وَجُدْنَا

دين الحب

يَا غَزَالًا جُمِعَتْ فِيـــهِ ـ مِنَ الْحُسْنِ ـ فُنُونُ
أَنْتَ فِي الْقُرْبِ وَفِي الْبُعْـــدِ ـ مِنَ النَّفْسِ ـ مَكِينُ
بِهَوَاكَ ـ الدَّهْرَ ـ أَلْهُو ، وَبِحُبِّيـــكَ أَدِينُ

مُنْيَةَ الصَّبِّ : أَغِثْنِي ، قَدْ دَنَتْ مِنِّي المَنُونُ
وَاحْفَظِ الْمَهْدَ ، فَإِنِّي لَسْتُ ـ وَاللهِ ـ أَخُونُ
وَارْحَمَنْ صَبًّا شَجِيًّا قَدْ أَذَابَتْهُ الشُّجُونُ
لَيْلُهُ هَمٌّ وَغَمٌّ ، وَسَـــقَامٌ ، وَأَنِينُ
شَفَّهُ الْحُبُّ ، فَأَمْسَى ـ سَقَمًا ـ لَا يَسْتَبِينُ
صَارَ ـ لِلْأَشْوَاقِ ـ نَهْبًا ، فَنَبَتْ عَنْهُ الْعُيُونُ

وفاء

بَيْنِي وَبَيْنَكَ مَالَوْ شِئْتَ لَمْ يَضِعِ سِرٌّ إِذَا ذَاعَتِ الْأَسْرَارُ ـ لَمْ يَذِعِ
يَا بَائِعًا حَظَّهُ مِنِّي ، وَلَوْ بُذِلَتْ لِيَ الْحَيَاةُ ـ بِحَظِّي مِنْهُ ـ لَمْ أَبِـعِ
يَكْفِيكَ أَنَّكَ ـ إِنْ حَمَّلْتَ قَلْبِيَ مَا لَمْ تَسْتَطِعْهُ قُلُوبُ النَّاسِ ـ يَسْتَطِعِ
تِهْ أَحْتَمِلْ ، وَاسْتَطِلْ أَصْبِرْ ، وَعِزَّ أَهُنْ ، وَوَلِّ أُقْبِلْ ، وَقُلْ أَسْمَعْ ، وَمُرْ أُطِعِ

فى سبيل الهوى

قَدْ نَالَنِي مِنْكَ مَا حَسْبِي بِهِ وَكَفَى يَا مَنْ تَنَاهَيْتُ ـ فِي إِلْطَافِهِ فَجَفَا
عَلَّلْتَنِي بِالْمُنَى ـ حَتَّى إِذَا عَلِقَتْ بِالنَّفْسِ ـ لَمْ أُعْطَ مِنْ أَسْبَابِهَا طَرَفَا
غُيِّرْتَ عَنْ خُلُقٍ ـ قَدْ لَانَ لِي زَمَنًا ـ لِينَ النَّسِيمِ ، فَلَمَّا لَذَّ لِي عَصَفَا
لَا يَحْبَطَنْ عَمَلٌ ـ أَرْضَاكَ صَالِحُهُ ـ فَفِي سَبِيلِكَ أَنْفَقْتُ الْهَوَى سَرَفَا

صـــلة المحب

سِرِّي وَجَهْرِي أَنَّنِي هَائِمُ ، قَامَ بِكَ الْعُذْرُ ، فَلَا لَائِمُ
لَا يَنَمِ الْوَاشِي الَّذِي غَرَّنِي هَا أَنَا ـ فِي ظِلِّ الرِّضَى ـ نَائِمُ
عُدْتَ إِلَى الْوَصْلِ ـ كَمَا أَشْتَهِي ـ فَالْهَجْرُ بَالٍ ، وَالرِّضَى بَاسِمُ

حَسْبِي ـ، أَنَا المَظْلُومُ ـ فِيمَا جَرَى، وَإِنْ تَشَأْ قُلْتَ : «أَنَا الظَّالِمُ»
يَا سَائِلاً عَمَّا بِنَفْسِي لَهُ ـ تَجَنِّيًا ـ وَهْوَ بِهِ عَالِمُ
مَعْنَى الْهَوَى أَنْتَ وَشَخْصُ المُنَى، دَعْنِي مِمَّا يَزْعَمُ الزَّاعِمُ

مقيم على العهد

عَذِيرِي مِنْ خَلِيلٍ يَسْتَطِيلُ يَمِيلُ ـ مَعَ الزَّمَانِ ـ كَمَا يَمِيلُ
وَيَرْضَى أَنْ تَضِيعَ سُدَى[1] حُقُوقِي، وَبَاعِي فِي الْهَوَى بَاعٌ طَوِيلُ
أَشَمْسًا أَشْرَقَتْ مِنْ عَبْدِ شَمْسٍ! أَمَالَكَ ـ فِي سِوَى قَلْبِي ـ أُفُولُ؟
أَمَا يُمْحَى عِتَابُكَ كُلَّ يَوْمٍ؟ أَمَا يُرْجَى ـ إِلَى وَصْلٍ ـ وُصُولُ؟
وَلَوْ أَجِدُ السَّبِيلَ لَطِرْتُ وَجْدًا، وَلَـكِنْ مَا إِلَى هٰذَا سَبِيلُ
كِتَابِي ـ عَنْ وِدَادِكَ ـ لَا يَزُولُ، وَعَهْدِي ـ مِثْلَ عَهْدِكَ ـ لَا يَحُولُ

آلام المحب

يَا مُعْطِشِي ـ مِنْ وِصَالٍ كُنْتُ وَارِدَهُ ـ هَلْ مِنْكَ لِي غُلَّةٌ إِنْ صِحْتُ: «وَاعَطَشِي»
كَسَوْتَنِي ـ مِنْ ثِيَابِ السُّقْمِ أَسْبَغَهَا ـ ظُلْمًا ـ وَصَيَّرْتَ مِنْ لُحْفِ الضَّنَى فُرُشِي
إِنِّي بَصُرْتُ الْهَوَى، عَنْ مُقْلَةٍ كُحِلَتْ بِالسِّحْرِ مِنْكَ، وَخَدٍّ بِالْجَمَالِ وُشِي
لَمَّا بَدَا الصُّدْغُ مَسْوَدًّا بِأَحْمَرِهِ أَرَى التَّسَالُمَ بَيْنَ الرُّومِ وَالْحَبَشِ
أَوْفَى إِلَى الْخَدِّ، ثُمَّ انْصَاعَ مُنْعَطِفًا كَالْعَقْرَبَانِ انْثَنَى مِنْ خَوْفِ مُحْتَرِشِ
لَوْ شِئْتَ ـ زُرْتَ وَسِلْكُ النَّجْمِ مُنْتَظِمٌ، وَالْأُفْقُ يَخْتَالُ فِي ثَوْبٍ مِنَ الْغَبَشِ ـ
صَبًّا ـ إِذَا الْتَذَّتِ الْأَجْفَانُ طَعْمَ كَرًى جَفَا الْمَنَامَ، وَصَاحَ اللَّيْلَ: «يَا قُرَشِي»
هٰذَا وَإِنْ تَلِفَتْ نَفْسِي، فَلَا عَجَبٌ، قَدْ كَانَ مَوْتِي ـ مِنْ تِلْكَ الْجُفُونِ ـ خُشِي

---

(١) وفي الأصل : «كذا» .

إلى المعتمـــد

أَيُّهَا الظَّافِرُ لاَ زِلْـــتَ مَدَى الدُّنْيَا مُظَفَّرْ

---

(١) الأحاجى والألغار والمعميات

افتن كثير من النظامين والكتاب فى طرق الالغاز والتعمية ليتحنوا بها الذكاء والقدرة على فك الطلاسم والمعميات ، ويزجوا بها أوقات فراغهم الطويلة ، وهو عمل شاق مضن لا يقدم عليه إلا من فرغ باله من مشكلات الحياة وجدها . وأكثر أنواعه تافه لا خطر له ، وسنلم بطائفة كبيرة منها . وثمة أنواع من التعمية تقوم عند الملوك والأمراء إلى ذلك العهد مقام الشفرة ، وتطيير الحمام الزاجل وما إلى ذلك من وسائل المخابرة السرية ، ومن يدرى ؟ فربما كان مادار بين (ابن زيدون) و (المعتمد) من هذا النوع لم يكن يقصد به قتل الوقت والتسلية أو امتحان الذكاء فحسب ، وإنما كان يقصد به فوق ذلك المران على بعض ضروب المخابرة السرية التى كانت تمس إليها حاجة الدولة ، ويستعملها أنصارها السياسيون للتعمية على غيرهم من خصومهم . وربما كان للتسلية وحدها وتزجية أوقات الفراغ الطويلة أيضا .

والطريقة التى تبعها المعتمد وابن زيدون هى إحدى هذه الطرق العديدة ، ولم نعثر عليها — فيما قرأناه من كتب الألغاز على كثرتها — ولم تشر إليها المعاجم العربية ، ولكننا استنتجناها من الأشعار التى دارت بينهما ، ومن قول « المقرى » صاحب « نفح الطيب » الذى عزز ما ذهبنا إليه .

وخلاصة هذه الطريقة أن يطير أحد المتراسلين إلى الآخر بيتا شائعا فى قصيدة أو ببتين ويرمز لكل حرف من حروفهما باسم طائر بعينه .

قال المقرى :

« وكتب ابن زيدون إلى المعتمد :

« وافاك نظم لى فى طيه معنى معمى اللفظ مستور
مرامه يصعب ما لم يج بالسر قمرى وشحرور . »

قال : « ثم ذكر أبياتاً ، فيها أسماء طيور ، عمى بها عن بيت طيره فيها ، والبيت المطير هو :

« أت — إن تعز — ظافر فليطع من ينافر . »

ففكه « المعتمد » وجاوبه :

« جاءتنى الطير التى سرها نظم به قلبى مسرور » . اهـ .

وستمر بك هذه القصيدة فى « ص ٢٩٩ » من هذا الديوان .

ويؤيد هذا الاستنتاج قول المعتمد :

« أرسل طيور الشعر نحوى فقد بث فؤادى شرك الفهم . »

وقول ابن زيدون للمعتمد :

« وافاك للطير سرب لديه سر مكتم . »

ولا تكاد تخلو قصيدة — من هذا النوع — من ذكر الطيور كما يرى القارئ فى القصائد التالية ، وسنثبت القصيدة التى نحن بصددها فى الشرح ونتبعها بجدول نسرد فيه على الترتيب أسماء الطيور التى ذكرها فيها ، ونقرن كل طائر بحرف هجائه ليتسنى للقارئ استخراج البيت المطير بنفسه ، وهاهى الأبيات :

« فاسأل الشاهين ، والصقرين ، والعنقاء تخبر

أَنْتَ أَسْنَى ٱبْنِ لِأَسْمَى وَالِدٍ فِى ٱلدَّهْرِ فَافْخَرْ
إِنْ تُرِدْ شَرْحَ مُعَمَّى هُوَ فِى نَظْمِى مُضْمَرْ

ثم رال القفر ، والفـ ـياد ، والنسر المعمر
ثم بعـد الديك عد للذ سر ، والرال المنفر
ثم عـد للنسر والرا ل ، فكل قد تكرر
والحبارى ، والسمانى والشـقراق المحبر
ثم سائل بعـدها البا زى ـ إن حل فصرصر
معـه الطاوس والدي ك إذا بالصبح بشر
تـلوه القمرى مهما ردد السـجع فقرقر
ثم ناد الهيق والرأ ل ، لعل السر يظهر
وتعيف ما لدى القبـ ـجين من خاف سيظهر
ثم عـد للنسر والرا ل، هما ـ فى الأمر ـ أكثر
وازجر العقعق حق الزجـ ـر ، إن الطير يزجر
وليـل الرأل سمانى وشـقراق تأخر . »

فليس فيها إلا أسماء طيور بعينها ترمز إلى حروف بعينها ، ونحن نبينها للقارئ لتكون نموذجا ـ لمن يعنيه حل أمثال هذه المعميات ، والبيت المعمى الذى يستخرج من هذه الأبيات هو :

« صدق لنا قال السمه تظفر على الكلمه . »

وأنت إذا تتبعت ما فيها من أسماء الطيور تجد أن كل طائر فى مقابلة حرف من حروف هجاء البيت ونحن نضع حروف البيت وأمام كل حرف طائره الذى يدل عليه فى الجدول الآتى ليتبين للقارئ طريقة الحل ، وهذا هو الجدول :

الحرف	الطائر	الحرف	الطائر	الحرف	الطائر
ص	شاهين	ا	نسر	ع	هيق
د	صقرين	ل	رأل	ل	رأل
ق	عنقاء	س	حبارى	ى	قبجين
ل	رأل	م	سمانى	ا	نسر
ن	فياد	ه	شقراق	ل	رأل
ا	نسر	ت	بازى	ك	عقعق
ف	ديك	ظ	طاوس	ل	رأل
ا	نسر	ف	ديك	م	سمانى
ل	رأل	ر	قمرى	ه	شقراق

فَاسْأَلِ ـ الشَّاهِينَ ، وَالصَّقْرَيْنِ ، وَالْعَنْقَاءَ ـ تُخْبَرْ
ثُمَّ رَالَ الْقَفْرِ ، وَالْفَيَّادَ ، وَالنَّسْرَ الْمُعَمَّرْ

وإلى القارئ معانى هذه الكلمات :

الشاهين : ضرب من الصقور أكدر أبنث أى رمادى اللون .

العنقاء : طائر خرافى لاوجود له إلا فى شعر الشعراء .

رأل : ولد النعام ، وسيرد بك فى « ص ٢٨٤ »

الفياد : ذكر البوم .

نسر : النسر طائر عظيم من جوارح الطير سمى بذلك لأنه ينسر الشيء ويقتلعه ويقتنصه والكثير الريش منه يسمى الفداف .

ديك ـ الديك : ذكر الدجاج .

رال : ولد النعام .

حبارى ـ الحبارى : طائر فى حجم الديك الهندى كثيرة الريش ، ومنها بيضاء وكدراء .

سمانى : طائر معروف فوق العصفور ، ويجمع على سمانيات .

قالوا : وهو يغوص فى البحر بأحد جناحيه ويقيم الآخر كالقلع للسفينة ، فتدفعه الريح إلى ساحل البحر . وكثيراً ما يوجد ببلاد السواحل ، وله صوت حسن ومن شأنه أنه يسكت فى الشتاء ، فاذا أقبل الربيع صاح .

شقراق : طائر صغير بقدر الحمام أخضر مشع الخضرة ، حسن المنظر ، فى جناحيه سواد وعنده الجاحظ نوعًا من الغربان . يألف الروابى ورءوس الجبال . وله مشتى ومصيف ، قال الجاحظ وهو كثير الاستغاثة ، إذا مرّ به طائر ضربه بجناحيه وهاج كأنه هو المضروب .

بازى ـ البازى : من الصقور الأزرق الأحوى ، والأرقط القصير الجناحين الغليظ .

طاوس : طائر فى نحو قدر الاوزة ، حسن اللون ، والذكر منه غاية فى الحسن له فى رأسه ذؤابة قائمة كالشريوش ، وفى ذنبه ريش أخضر طويل فى أحسن منظر ، وليس للأنثى مثل ذلك وفى طبعه الزهو بنفسه والاعجاب بريشه ، وفى الخريف يلقى ريشه كما يلقى الشجر ورقه ، فاذا بدا طلوع أوراق الأشجار طلع ريشه .

قرى سيرد بك فى « ص ٣٠٤ »

هيق : ذكر النعام ، قال أبو العلاء على لسان جنى فى رسالة الغفران :

« وأركب الهيق ـ فى الظلماء ـ معتسفا أو لا ، فذب رياد بات معرورا . »

قبجين : مثنى قبج وهو الكروان وسيرد بك فى « ص ٣٠٤ »

عقعق ـ العقعق طائر كالغراب ضخم طويل المنقار يحجل حجلانا ، وهو يدجن ولونه أبلق ببياض وسواد .

شقراق ـ الشقراق : طائر مرقط بخضرة وحمرة وبياض ويكون بأرض الحرم .

ثُمَّ ـ بَعْدَ الدِّيكِ ـ عُدْ لِلنَّسْرِ وَالرِّئْـ ـلِ الْمُنَفَّرْ

أصل اشتقاق اللغز

وأصل اشتقاق اللغز ـ كما يروى النويرى ـ من ألغز اليربوع ولغز ، إذا حفر لنفسه مستقيما ثم أخذ يمنة ويسرة ليوارى بذلك ويعمى على طالبه .

وللغز أسماء ، فمنها : المعاياة ، والملويس ، والرمز ، والخاجاة ، وأبيات المعانى ، والملاحن ، والمرموس ، والتأويل ، والكناية ، والتعريض ، والاشارة ، والتوجيه ، والمعمى ، والممثل ، ومعنى الجميع واحد ، واختلافها بحسب اختلاف وجوه اعتباراته .

فانك إذا اعتبرته من حيث إن واضعه كأنه يعايبك ـ أى يظهر إعياءك وهو التعب ـ سميته : «معاياة» وإذا اعتبرته ـ من حيث صعوبة فهمه واعتياص استجراحه ـ سميته : « عويصاً . »

وإذا اعتبرته ـ من حيث إنه قد عمل على وجوه وأبواب ـ سميته : « لغزا . » وفعلك له : « إلغازاً . »

وإذا اعتبرته ـ من حيث إن واضعه لم يفصح عنه ـ قلت : « رمز » وقريب منه الاشارة .

وإذا اعتبرته ـ من حيث إن غيرك حاكك ـ أى استجرج مقدار عقلك ـ سميته : « محاجاة . »

وإذا اعتبرته ـ من حيث إنه استجرح كثرة معانيه ـ سميته : « أبيات المعانى . »

وإذا اعتبرته ـ من حيث إن قائله قد يوهمك شيئاً ويريد غيره ـ سميته : «لحنا» وسميت فعلك : «الملاحن»

وإذا اعتبرته ـ من حيث إنه ستر عنك ورمس ـ فهو « المرموس » ، وارمس القبر .

وإذا اعتبرته ـ من حيث أن معناه يؤول إليك ـ سميته : « مؤولا . » وسميت فعلك : «تأويلا.»

وإذا اعتبرته ـ من حيث إن صاحبه لم يصرح بغرضه ـ سميته « تعريضاً » ، و « كناية . »

وإذا اعتبرته ـ من حيث إنه ذو وجوه ـ سميته : « الموجه » وسميت ذلك : « التوجيه . »

وإذا اعتبرته ـ من حيث إنه معطى عليك ـ سميته : « معمى . »

طرق التعمية

ومن ضروب التعمية ـ ما ذكره القلقشندى ـ وهو أن يصطلح الانسان على إبدال حرف معين بحرف اخرمعين ـ حيث وقع فى القلم المعروف بالمعمى ـ وهو أن جعلوا مكان كل حرف من حروف العربية حرفاً آخر من حروفها ، فجعلوا الكاف مبا وبالعكس ، والألف واوا وبالعكس ، والدال راء وبالعكس ، والسين عيناً وبالعكس ، والفاء ياء وبالعكس .

فيكتب « محمد » « كطكر » ، و « على » « سهف » ، و « مسعود » « كسار » وقس على ذلك .

وقد نظم بعضهم ذلك في بيت واحد ذكر فيه كل حرف تلو مايبدل به ، وهو :

« كم أو حط صلاله درسع فى بز خش عض ثغ تدفق . »

ومنهم من يعكس حروف الكلمة، فيكتب « محمد » « دمحم » ، و « على » «يلع » . ومنهم من يبدل الحرف الأول من الكلمة بثانيه مطلقا فى سائر الكلام ، فيكتب : « محمد أخو على » : حمدم خاعويل » . إلى غير ذلك من التمييزات .

ثُمَّ عُدْ ـ لِلنَّشْرِ وَالرَّا ـ لِ ـ فَكُلٌّ قَدْ تَكَرَّرْ

ومنهم من يبدل الحروف بأعدادها فى الجمل فيكتب « محمد » « ٤٠ و ٨ و ٤٠ و ٤ » وتعمل التعمية صفة محاسبة .

ومنهم من يكتب ـ عوض عدد الحروف ـ حروفا ، وهو أبلغ فى التعمية ، فيكتب « محمد » « لى ، بو ، لى ، اج » لأن اللام والياء بأربعين ، وهى عدد ماللميم الأولى ، والباء والواو بثمانية ، وهى عدد مالهاء ، واللام والياء أيضا بأربعين ، وهى عدد ما للميم الثانية ، والألف والجيم بأربعة وهى عدد ما للدال ، فكأنه قال : « م ح م د . »

وإن شاء أتى بغير هذه الحروف مما يتضمن غير هذه الأعداد .

ومنهم من يجعل لكل حرف اسم رجل أو غيره . ومنهم من يضع الحروف على منازل القمر الثمانية والعشرين ، على ترتيبها على حروف « أبجد » :

فيجعل الألف للشرطين ، والباء للبطين ، والجيم للثريا ، وهكذا إلى آخرها : فيكون بطن الحوت للغين من « صطغ » .

وربما اصطلح على الترتيب على أسماء البلدان أو الفواكه أو الأشجار ، أو غير ذلك ، أو صور الطير وغيره من الحيوانات ، إلى غير ذلك من ضروب التسامى التى لا يأخذها حصر .

وأكثر أهل هذا الفن على أن يرسم الحروف أشكالا يخترعها فلما له مقطة على ترتيب حروف المعجم ، والطريق فى ذلك أن يثبت حروف المعجم ، ثم يرتب تحت كل واحد شكلا لايماثل الآخر ، فكما جاء فى اللفظ ذلك الحرف كتبه بحيث لايقع عليه غلط . ثم يفصل بين كل كلتين ، إما بخط أو بنقط ، أو بياض ، أو دائرة ، أو غير ذلك .

وأكثر المتقدمين يجعلون الحرف المشدد بحرفين ، والمتأخرون يحملونه حرفا واحدا .

وقد ذكر القلقشندى ـ فى ذلك ـ فصلا طويلا فى الجزء التاسع من صبح الأعشى ، فليرجع إليه القارئ « من ص ٢٢٩ إلى ٢٤٩ » إذا شاء .

أمثلة من التعمية

ومن الأمثلة التى ذكرها النويرى قول الحكيم أمير الدولة ـ المعروف بابن التلميذ ـ ملغزا فى الميزان :

« ما واحد مختلف الأسماء ـ يعدل فى الأرض وفى السماء
يحكم بالقسط بلا رياء ـ أعمى يرى الرشاد كل رائى
أخرس ـ لا من علة وداء ـ يغنى عن التصريح بالايماء
يجيب ـ إن ناداه ذو امتراء ـ بالرفع والخفض عن النداء
يفصح إن علق فى الهواء . »

فهو بقوله : « مختلف الأسماء » يعنى : « ميزان » الشمس ، والاصطرلاب ، وسائر آلات الرصد » وهو معنى قوله : « يحكم فى السماء . » . وميزان الكلام : « النحو » وميزان الشعر : « العروض » وميزان المال : « المنطق » وهذه الميزان والذراع والمكيال .

وقول آخر فى الميزان :

« ما تقولون : فيما نزل من السماء ، وعلق فى الهواء ، له عين عمياء ، وكف شلاء ، ليس له ـ إذ عدل ـ

ثواب ، ولا عليه — إن جار — عقاب . خلق من ثلاثة أجناس ، تضعضعه الأنفاس . جسمه عار من غير لباس ، أخرس اللسان ، فى أذنه خرصان ، مكرر الذكر فى القرآن ، ينطوى — إذا نام — كالصل ، وفعله المستقبل ممتثل ، وله فى الآخرة أكبر محل . »

وقول ابن الرومى فى فتيلة السراج :

« ماحية فى رأسها درة تسبح فى بحر قليل المدى ؟
إن غيبت كان العمى حاضراً وإن بدت لاح طريق الهدى ! »

وقول السرىّ الرفاء فى شبكة الصياد :

« وكثيرة الأحداق ، إلا أنها عمياء ، مالم تنغمس فى ماء
وإذا هى انغمست أفادت ربها مالا ينال بأعين البصراء . »

وقول آخر فى النوم :

« وحامل يحملنى وما له شخص يرى !
إذا حصلت فوقه وهو لذيذ المنتطى
سربت لا أدرى أفى أرض سريت ؟ أم سما ؟ »

وقول المعرى فى ركابى السرج :

« خليلان نيطا فى جوانب مجلس جداراه قدام له ووراء
متى يصع الرجلين ماش عليهما يزل عنه — فى وشك — حفا وحفاء . »

قوله : « خليلان » لتشابههما ، وانجلس : « السرج » ، وجداراه : « قربوسه » و « رادفته » والحفا مقصور : «وجع الرجل »وممدود ، من مشى الرجل حافياً بغير نعل .

وقوله فى الملح :

«وبيضاء — من سر الملاح — ملكتها فلما قضت إربى حبوت بها صحبى
فباتوا بها مستمتعين ، ولم تزل نخمهم — بعد الطعام — على الشرب.»

قوله : سر أى : « خالصة » والملاح : جمع ملح ، والارب : الحاجة . وقول آخر فى الحرب .

« ماذات شوك لها جناح يختطف الناس عن قريب
وهى عقيم ، ترى بنيها من بين مرد ، وبين شيب
يأكل بعض البنين بعضاً طلوع شمس إلى غروب
تصحيفها الداء — غير شك — قد يحسم الداء بالطبيب
والداء منكوسه مكان يصلح للطائر النجيب
يعرفها من يكون طبا بالشعر والنحو والعريب . »

فهذا لغز معمى فى الحرب ، وشوكها : « السلاح » ، وجناحاها : « جاباها » ، وعقيم لأنها لا تلد ، وبنوها : « رجالها . » وأكلهم : « قتلهم . » ، وتصحيفها : « الجرب » وعكسه : « برج »

وقول آخر فى الثدى :

« وما أخوان مشتبهان جدا كما اشتبه الغرابة والغراب

ثُمَّ سَائِلْ بَعْدَهَا الْبَا زِيَ إِنْ حَلَّ فَصَرْصَرْ

يضـــمهما على مر الليالى ـ وما اجتمعا ، ولا افترقا ـ إهاب
لذاك وذا ، دموع هاملات ، ولـكن كل دمعهما شراب
يصونهما عن الأبصار ـ دين ويضرب ـ دون نيلهما ـ حجاب.»

وهما ثديا المرأة ، ويضمهما إهاب ، وهو : « الجلد »

وقول آخر فى الفخ :

« وما ميت كفنته ودفنته فقام إلى حى صحيح فأوثقه. »

وقول آخر فى الصدى :

« وساكن يسكن فى الفلاة ليس من الوحش ولا النبات
ولا من الجن ، ولا الحيات ، ولا الحيام الشـــعر والأبيات
ولا بذى جسم ولا حياة كلا ، ولا يدرك بالصـفات
بلى ، له صوت من الأصوات يسمع فى الأحيان والأوقات .»

وقد ذكر النويرى أمثلة كثيرة من هذه الأنواع وأشباهها ، ثم قال :

مسائل العويص

ومما يتصل بهذا الباب مسائل العويص .

فمن ذلك قولهم :

« امرأتان التقتا برجلين ، فقالتا لهما : «مرحبا بابنينا وزوجينا ، وابنى زوجينا . »

وذلك أن كل واحد منهما تزوّج بأم الآخر ، فهما ابناهما وزوجاهما وابنا زوجيهما »

وقولهم :

« رجلان كل واحد منهما عم الآخر وابن أخيه . »

وذلك أن كل واحد من أبويهما تزوّج بأم الآخر ، فرزق كل واحد منهما ولدا ، فكل من الولدين عم الآخر وابن أخيه .

وقولهم :

« رجلان، كل واحد منهما خال الآخر وابن أخته »

وذلك أن كل واحد من أبويهما تزوّج بابنة الآخر ، فرزق كل واحد منهما ولدا ، فكل من ولديهما خال الآخر وابن اخته .

وقولهم :

« رجل وامرأتان ، هو خال إحداهما وهى خالته ، وعم الأخرى وهى عمته . »

وذلك : أن جدته أم أبيه تزوجت بأخيه لأمه ، وأخته لأبيه تزوجت بأب أمه ، فولدتا بذين ، فبنت أخته خالته ، وهو خالها ، وبنت جدته عمته وهو عمها .

وهذا أصل الأبيات المنظومة فى ذلك :

« ولى خالة وأنا خالها ، ولى عمة وأنا عمها . »

وقوله :
« رجلان كل واحد منهما ابن خال الآخر وابن عمته »
وذلك أن كل واحد من أبويهما تزوج بأخت الآخر ، فرزق كل منهما ولدا ، فكل من ولديهما ابن خال الآخر وابن عمته .
وقوله :
« رجلان كل واحد منهما عم والد الآخر . »
وذلك أن كل واحد من أبويهما تزوّج بأم أب الآخر ، فكل من أولادهما عم أب الآخر . »
وقوله :
« رجلان كل واحد منهما عم أم الآخر . »
وذلك : أن كل واحد من أبويهما تزوج بابنة ابن الآخر ، فكل من أولادها عم أم الآخر .
وقوله :
« رجلان ، كل واحد منهما خال أم الآخر . »
وذلك أن كل واحد من أبويهما تزوج بابنة بنت الآخر فكل من أولادهما خال أم الآخر .
وقوله :
« رجلان أحدهما عم الآخر ، والآخر حله » وذلك أن رجلين تزوج أحدهما امرأة ، وتزوج الآخر ابنة ابنها ، فولد لكل منهما ولد فابن الأب عم ابن الابن ، وابن الابن من أم امرأة الأب هو أخوها وخال ابنها .
وقوله :
« رجلان ، أحدهما عم الآخر وخاله ، والآخر ابن أخيه وابن أخته »
وذلك : أن رجلا له أخ لأب ، وأخت لأم ، تزوج أخاه لأبيه ، بأخته لأمه ، فأولدها ولدا ، فهما كذلك .
وقد طلب الهمذانى من الحوارزمى — أثناء مناظرته المشهورة — أن يكتب كتابا خاليا من الحروف المواطل ، وآخر أوائل سطوره كلها ميم وآخرها كلها حم الخ » فسمى الخوارزمى ذلك شعبذة . وصدق فى تسميته كل الصدق .
وما أحدر هذا الوصف بأمثال هذه الألاعيب الكلاميه .

ألغاز الحريرى

ومن ألغاز الحريرى الذى اقتفى أثر الحوارزمى فى مقاماته قوله فى المقامة الفرضية — وهى مقامته الخامسة عشرة :

« أيها العالم الفقيه الذى فا ق ذكاء ، فماله من شبيه
أفتنا فى قضية ، حاد عنها كل قاض ، وحار كل فقيه :
رجل مات عن أخ مسلم حرّ تقى من أمه وأبيـــه
وله زوجة ، لها — أيها الحبـــر أخ خالص بلا تمـــويه
فحوت فرضها ، وحاز أخوها ما تبقى بالارث دون أخيه
وأشفنا بالجواب عما سألنا فهو نص ، لا خلف يوجد فيه . »

ثم حل هذا اللغز بقوله :

« قل لمن يلغز المسائل : إني كاشف سرّها الذى تخفيه
إن ذا الميت الذى قدم الشر ع أخا عرسه عن ابن أبيه

رجل زوج ابنه ــ عن رضاه ــ بحماة له ، ولا غرو فيه
ثم مات ابنه ، وقد علقت منه ، فجاءت بابن يسر ذويه
فهو ابن ابنه ــ بغير مراء ــ وأخو عرسه ، بلا تمويه
وابن الابن الصريح أدنى إلى الجد ، وأولى بارثه من أخيه
فلذا ــ حين مات ــ أوجب للزو جة ، ثمن التراث تستوفيه
وحوى ابن ابنه الذى هو فى الأصل أخوها ــ من أمها باقيه
وتخلى الأخ الشفيق ، من الار ث ، وقلنا : يكفيك أن تبكيه
هاك منى الفتيا التى يحتذيها كل قاض يقضى ، وكل فقيه .»

المقامة الشتوية

وقوله فى المقامة الشتوية .

« عدى أعاجيب أرويها ــ بلا كذب عن العيان ــ فكنونى : أبا العجب
رأيت يا قوم ، أقواما غذاؤهم بول العجوز ، وما أعنى ابنة العنب.»

« بول العجوز » لبن البقرة ، والعجوز أيضاً من أسماء الخمر .

« ومسنتين من الأعراب قوتهم أن يشتووا خرقة تعى من السغب.»

« الخرقة » القطعة من الجراد .

« وفادرين ــ متى ما ساء صنعهم ، أوقصروافيه ــ قالوا: الدنب للحطب.»

« الفادر » الطائح فى القدر والقدير المطبوخ فيها .

« وكاتبين وما خطت أناملهم حرفا ولا قرؤا ماخط فى الكتب .»

« الكاتبون » الحرازون يقال كتب السقاء والمزادة إذا حرزهما وكتب البعلة أو الناقة إذا جمع شفريها وخاطهما . قال الشاعر :

« لا تأمنن فواريا حلوت به على قلوصك واكتبها بأسيار .»

« وتابعين عقابا فى مسيرهم على تكميهم فى البيض والبلب . »

« العقاب » الراية وكانت راية النبى صلى الله عليه وسلم تسمى العقاب .

« ومنتدين ذوى نبل بدت لهم نبيلة فانثنوا منها إلى الهرب . »

« النبيلة » الجفة ومنه تنبل البعير إذا مات وأروح يعنى نتن .

« وعصبة لم تر الليت العتيق وقد حجت جثيا بلا شكّ على الركب . »

معنى « حجت جثيا » أى غلبت بالحجة مجادلين جاثين على الركب وجثى جمع جاث .

« ونوة بعد ما أدلجن من حلب صبحن كاظمة من غير ما تعب . »

« كاظمة » فى هذا الموضع من كظم الغيظ .

« ومدلجين سروا منا أرض كاظمة فأصبحوا حين لاح الصبح فى حلب .»

« فى حلب » أى أصبحوا يحلبون اللبن .

« ويافعاً لم يلامس قط غانية شاهدته وله نسل من العقب . »

« النسل » ههنا العدو . قال تعالى ــ وهم من كل حدب ينسلون ــ « والعقب » مؤخر القدم .

ثُمَّ نَادِ الْهَيْقَ وَالرِّا لَ ، لَعَلَّ السِّرَّ يَظْهَرْ

« وشائبا غير محف للشباب بدا في البدو وهو فتى السن لم يشب . »

« الشائب » ههنا مازج اللبن و « المشيب » اللبن المزوج ويقال فيه مشيب ومشوب .

« ومرضعاً بلبان لم يفه فمه رأيته في شحار بين السبب . »

« الشحار » المحمة مالم تكن مظلة ، فان ظلت فهو الهودج ، والسبب ههنا الحبل ، ومنه قوله تعالى — فليمدد بسبب إلى السماء —

« وزارعا ذرة حتى إذا حصدت صارت غبراء يهواها أخو الطرب . »

« الغبراء » المسكر المتخذ من الذرة يسمى أيضا السكركة ، وفي الحديث : إيا لم والغبراء فانها خمر العالم .

« وراكباً وهو مغلول على مرس قد غل أيضا ومابنفك من خبب . »

« المغلول » ههنا العطشان ، وغل أي عطش .

« وذا يد طلق يقاد راحلة مستعجلا وهو مأسور أحو كرب . »

« المأسور » الذي يحد الأسر وهو احتباس البول .

وجالسا ماشيا تهوى مطيته به ، وما في الذي أوردت من ريب . »

« الجالس » الآتي نحداً والماشي الذي كثرت ماشيته ، وعليه فسر بعضهم قوله تعالى — أن امشوا كأنه دعاء لهم بكثرة الماشية والنماء والبركة .

« وحائكا أحدم الكفين ذا خرس فان عجمتم منكم في الخلق من عجب . »

« الحائك » ههنا الذي إذا مشى حرك منكبيه وفج بين ركبتيه .

وذا شطاط — كصدر الرمح قامته — صادفته بمي يشكو من الحدب . »

« الحدب » ما ارتفع من الأرض .

« وساعيا — في مرات الأنام — يرى إمراحهم مأثما ، كالظلم والكذب . »

« إمراحهم » إثقالهم بالدين ، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام : « لايترك في الاسلام ممرح أي مثقل من الدين أو يقضى عنه دينه » .

« ومغرما عما حاة الرحال له وماله في حديث الخلق من أرب . »

« الخلق » ههنا الكذب ، ومنه قوله تعالى — إن هذا إلا خلق الأولين .

« وذا دمام وفت دلهمد دمته ولادمام له في مذهب العرب . »

« الدمام » الثاني جمع ذمة ، وهي البئر القليلة الماء وعنى بالمذهب المسلك أي ماله آبار قليلة الماء في البدو .

« وذا قوى ما استبانت قط ليته ولينه مستبين غير مختجب . »

« اللين » نخيل الدقل ، ومنه قوله تعالى — ما قطعتم من لينة —

« وساجداً فوق ظل غير مكترث بما أتى ، بل يراه أفضل القرب . »

« الفحل » الحصير المتخذ من خلال النخل .

« وعاذرا مؤملا من ظل يعذره مع التلطف — والمعذور وصحب . »

« العاذر » الخاتن « والمعذور » المختون .

« وبلدة ما بها ماء لمغترف ، والماء يجري عليها جرى منسرب . »

وَتَعِيفُ مَا لَدَى الْقَبْـــجَيْنِ مِنْ خَافٍ سَيَظْهَرْ

« البلدة » الفرجة بين الحاجبين وتسمى أيضاً البلاة .

«وقرية ـ دون أخوص القطا ـ شحنت بديلم عيشهم من حلسة السلب . »

« القرية » بيت النمل « والديلم » النمل الكثير « وحلسة السلب » لحاء الشجر .

« وكوكباً يتوارى عند رؤيته الانسان حتى يرى فى أمعع الحجب . »

« الكوكب » الكتلة البيضاء التى تحدث فى العين « والانسان » ههنا إنسان العين .

« وروثة قوّمت مالا له خطر ـ ونفس صاحبها بالمال لم تطب . »

« الروثة » مقدّم الأنف .

وصحفة من نضار حانس ، شريت ـ بعد المكاس ـ بقيراطين الذهب . »

« النضار » هاهنا شجر السمّ ، ومنه قول بعض التابعين: «لا بأس أن يشرب فى قدح النضار» عنى به هذا .

« ومستحيشاً بحشـ ـاش ليدفع ما أطله من أعاديه فلم يحم . »

« الحشحاش » الجماعة عليهم دروع وأسلحة .

« وظالما مرّ فى كلب وفى فهد ثور ، ولكنه ثور بلا ذنب »

« الثور » القطعة من الاقط (وهو نوع من الجبن)

« وكم رأى ناظرى فيلا على حمل وقد تورك فوق الرحل والعتب . »

« الفيل » الرحل الفائل الرأى .

« وكم لقيت ـ مرض البيد ـ مشتكياً وما شتكى قط فى حدّ ولا لعب . »

« المشتكى » المتخذ شكوة وهى القربة الصغيرة .

« وكنت أبصرت كرازاً لراعية ـ لدّ ـ ينذر من عينين كالشهب . »

« الكرّاز » كبش يحمل عليه الراعى أداته .

وكم رأت مقلتى عينين ـ ماؤهما يجرى من العرب ـ والعينان فى حلب . »

« الغرب » مجرى الدمع « والعينان » المقلتان .

« وصادعاً بالقنا من غير أن علقت كفاه بوما برمح لا ولم يثب . »

« القنا » ارتفاع الأنف وتحدب وسطه « وصدع به » أى كسفه .

« وكم نزلت بأرض ـ لا نخيل بها ـ وبعد يوم رأيت البسر فى القلب . »

« البسر » جمع بسرة وهو الماء الحديث العهد بالمطر « والقلب » جمع قليب .

« وكم رأيت ـ بأقطار الفلا ـ طبقاً يطير فى الجوّ منصباً إلى صبب . »

« الطبق » القطعة من الجراد .

« وكم مشائخ ـ فى الدنيا ـ رأيتهم مخلدين ، ومن يغتر من العطب ؟ »

« المخلد » الذى أبطأ شيبه .

« وكم بدا لى وحش ـ يشتكى سغبا ـ بمنطق ذلق أمضى من القضب . »

« الوحش » الرجل الجائع .

« وكم دعانى مستنج لحادثة وما أخل ـ ولا أخللت ـ بالأدب . »

ثُمَّ عُدْ لِلنَّسْرِ وَالرَّا لِهُمَا فِي الْأَمْرِ أَكْثَرْ

« المستنحى » الجالس على نحوة وهو المكان المرتفع .

« وكم أنخت فلوصى — تحت جنبذة — تطلّ ماشئت من عجم ومن عرب . »

« الجنبذة » القبة « والعرب » جمع عروب وهى المتحببة إلى زوجها من قوله تعالى — عرباً أترابا —

وكم نظرت إلى من سرّ ساعته ودمعه مستهلّ القطر كالسحب . »

« سرّ » أى قطع سرره ويسمى ما بقى بعد القطع السرة .

« وكم رأيت قصيراً ضرّ صاحبه حتى انثنى واهى الأعضاء والعصب . »

« القميص » الدابة الكثيرة القموص وهو الوثوب والقفز .

« وكم إزار لو أن الدهر أتلفه لفّ لبد حثيث السير مضطرب . »

« الازار » المرأة ، ومنه قول الشاعر : * فدى لك من أخى ثقة إزارى *

ثم يقول فى ختام قصيدته :

« هذا وكم من أفانين ممتعة عندى، ومن ملح تلهى ومن نخب

فان فطنتم للحن القول بان لكم صدق ودلكم طلعى على رطبى

وإن شدهتم، فان العار — فيه — على من لا يميز بين النبع والغرب . »

المقامة النجرانية

وقوله — فى المقامة النجرانية — فى مروحة الحيش ، وهى ثياب خشنة من الكتان تستعمل فى العراق تكون شبه شراع السفينة ، تعلق فى سقف البيت ، ويعمل لها حبل منها — تجر به — وتبل بالماء ، وترش بماء الورد ، إذا أراد الرجل النوم ، حدث حبلها ، فيهب منها نسيم بارد طيب يذهب أذى الحر ، ويستطاب معها النوم ، وقد ألغز فيها الحريرى بقوله :

« وجاريه فى سيرها — مشمله ولكن — على إثر المسير — تفولها

لها سائق — من حدسها — يستحثها، على أنه — فى الاحتثاث — رسيلها

ترى — فى أوان القيظ — تنطف بالندى، وتبدو — إذا ما الصيف — تفولها. »

وقوله ملغزا فى حابول النحل ، وهو الحبل الذى يصعد به النحل ، ويتخذ من اللحاء أى ليف النحل .

« ومنتسب إلى أم تنشأ أصله منها

يعانقها ، وقد كانت بهته — برهة — عنها

به يتوصل الجانى ، ولا يلحى، ولا ينهى. »

وقوله — ملغزا فى القلم : —

« ومأموم ، به عرف الامام كما باهت بصحبته الكرام

له — إذ يرتوى — طيشان صاد ، ويمسك حين يعروه الأوام

ويدرى — حين يستسقى — دموعا يرقن ، كما يروق الابتسام . »

وقوله ملغزا فى المرود الذى يكتحل به :

« وما ناكح أختين جهراً وخفية ، وليس عليه — فى النكاح — سبيل ؟

متى يعش هذى يغش — فى الحال — هذه، وإن مال بعل لم تجده يميل

يريدهما — عند المشيب — تعهدا وبراً ، وهذا — فى البعول — قليل. »

وَٱزْجُرِ الْعَقْعَقَ ـ حَقَّ الزَّجْرِ ـ إِنَّ الطَّيْرَ تُزْجَرْ

وقوله ـ ملغزاً فى الدولاب : ـ

«وجاف ، وهو موصول وصول ليس بالجافى
غريق بارز ، فاعجب له ، من راسب طافى
يسح دموع مهضوم ويضم هضم متلاف
وتخشى منه حدته ولكن قلبه صافى . »

إلى آخر هذه الألفاز التى تراها فى هذه المقامة .

المقامة الملطية

وانظر قوله ـ فى مقامته الملطية :

«يامن ـ إذا ـ أشكل المعمى جلته أفكاره الذليقه
إن قال يوما لك المحاجى : «خذ تلك» مامثله حقيقه . »

وهو يعنى بذلك كلمة : « هاتيك » وها للتنبيه وبمعنى خذ ، وتيك أى تلك .

وقوله : ماذا مثال قولهم : « حمار وحش زينا . »

يعنى كلمة « فرازين » والفرا حمار الوحش .

وقوله : ما مثل قولك للدى حاحاك : « أنفق تقمع »

يعنى كلمة « منتقم » من : الأمر من مان يمون ، تفم مضارع وقم ، من الوقم وهو الاذلال .

وقوله : مامثل قولك للذى أضحى يحاحى : « غط هلكى »

ومثله : « صنبور » صن الأمر من الصون ، والبور : الهلكى .

وقوله : ماذا يماثل قولى : « استنش ريح مدامه »

ومثله : « رحراح » رح استنشق الرائحة ، والراح : الخمر .

وقوله : « سار بالليل مدة » أى شىء مثله ؟

ومثله : « سراحين » سرى سار ليلا ، وحين : مدة .

وقوله : لك البيان ، فبين ، ماثل : « أحبب فروقه »

ومثله : « مقلاع » من : الأمر من وسق : أى أحب ، واللاع : الجبان .

وقوله : مامثل قولك « أعط ابـ ـريقا يلوح بغير عروة »

ومثله : « أسكوب » أس : الأمر من الأوس ، وهو الاعطاء ، والكوب : الابريق بغير عروة .

وقوله : ما مثل قولك للمحا جى ذى الذكاء : « الثور ملكى »

ومثله « اللآلى » واللأى : ثور الوحش .

وقوله : ماذا مثال : « صفير جعفلة » بينه تبيانا يتم به .

ومثله « مكاشفة » والمكاء : الصفير .

وقوله « ماذا يماثل قولى : جوع أمد بزاد ؟ »

يعنى « طوامير » ، طوى : جوع ومير : من مار الطعام ، وهو مثل قوله : أمد بزاد .

وقوله : ما مثل قول المحاجى : « ظهر أصابته عين ؟ »

يعنى : « مطاعين » جمع مطعون ، ومطا مثل ظهر ، وعين ـ من عانه أى أصابه بالعين .

وَلَيْلِ الرِّالَ سُمَانَى وَشِـــقِرَّاقٌ تَأَخَّرْ

وقوله : ما مثل قولك للذى حاحيت : صادف جائزه ؟ »

ومثله « الفاصـلة » وهى الخاثلة بين الشيئين ضد الواصـلة وكله ألى مثل صادف وتكتب بالياء إذا انفردت ، وصلة : جائزة أو عطية .

وقوله : ألا اكشف لى مامثل : « تمايل ألف دينار »

ومثله : « هادية » تأنيث الهادى ، والعنق أيضا ، ومعنى ها : خذ وتناول ، وديه هي ما يعطى لأهل القتيل ، وهى من الذهب ألف دينار . »

وقوله : مامثل : « أعمل حلية » بين هديب ـ رجل .

ومثله : « العاشـية » وهى اسم لما يغشى الرحل من الأصياف ، غاشية السرج ما يعطى به ومعنى الغى أعطى وشية : حلية »

وقوله : مامثل قولك ـ للذى أضحى يحاحيك : « اكعف اكعف . »

ومثله : « مهمه » وهو الصحراء ، ومعنى مه : اكعف وتكررها للتأكيد .

وقوله : بين ـ قد رات دا بيان ـ مامثل قولى : « الشقيق أفلت »

ومثله : « أحطار » ـ جمع خطر ، وهو ما يؤدى إلى الهلاك ، وإذا فصلته كان : « أخ » من معانيه الشقيق ، وخطار : أمثل .

وقوله : مامثل قولك للمحا حى ذى الجحى : « ما اختار فسه »

ومثله « أنوره » ـ جمع ابريق ، وإذا فصلت كانت أنى أى ما اختار ، ورقة : اسم من أسماء الفضة .

وقوله : أوضح لنا ما مثل قو لك للمحاحى : « دس جماعه »

ومثله : « حاوية » وهى مايطفو على الماء ، وطأ : أمر من وطئ ، والهثة : الجماعة .

وقوله أدت اليين ، فقل لنا ما مثل قولى : « حلى اسكت . »

ومثله : « حلصة » أى خل صه ، ومعناها خلى اسكت .

وقوله فى متابعة السيرة فى حوار طويل بين فقيهين .

ـ ما تقول فيمن توضأ ثم لمس طهر فعله ؟

ـ انتقض وضوءه بفعله .

يعنى من لمس زوجته.

ـ فان توضأ ثم أنكأه البرد ؟

ـ تحدد الوضوء من بعد ؟

يعنى بالبرد : النوم

ـ أيمسح المتوضئ أنفيه ؟

ـ قد ندب إليه ، ولم يوجب عليه .

يعنى : الأذنين .

ـ أيجوز الوضوء مما يقدمه الثعبان

ـ وهل أنظف منه للعريان

لَكَ ذِهْنٌ ـ بِالَّذِي فِي الشِّعْرِ مِنْ خِبْءٍ ـ سَيَشْعُرْ

يعني : جمع شعب ، وهو مسيل الوادي .

ـ أيستباح ماء الضرير ؟

ـ نعم ، ويجتنب ماء البصير .

يعني بالضرير : حرف الوادي ، وبالبصير : الوكف

ـ أيحل التطوف في الربيع ؟

ـ يكره ذلك للحدث الشنيع

يعني بالتطوف : النغوط ، وبالربيع : النهر الصغير

ـ أيجب الغسل على من أمنى ؟

ـ لا ، ولو ثنى .

يعني : من نزل « مني »

ـ فهل يجب على الجنب غسل فروته ؟

ـ أحل ، وغسل ابرته .

يعني بالفروة : جلدة الرأس ، وبالابرة عظم المرفق .

وهكذا إلى أن استوفى مائة مسألة من هذا النوع .

المقامة النحوية

وقوله في المقامة الرابعة والعشرين :

فما كلمة هي ـ إن شئتم ـ حرف مكتوب ، أو اسم لما فيه حرف محلوب ، وأي اسم يتردد بين فرد حازم وجمع ملازم ، وأية هاء ـ إذا التقت ألفاظ المثل ، وأطبقت المعقل ، وأين تدخل السين فتعزل العامل من غير أن تحامل ، وما مضموم أبداً على الظرف ، لايخفضه سوى حرف ، وأي مضاف أخل من ترى الاضافة يعروه ، واختلف حكمه بين مساء وغدوة ، وما العامل الذي يتصل آخره بأوله ، ويعمل معكوسه مثل عمله ، وأي عامل ناشئه أرجح منه وكراً ، وأعظم مكراً ، وأكثر لله ـ تعالى ـ ذكراً ؟ وفي أي موطن تلبس الدكران ، براقع النسوان ؟ وتبرز ربات الخمال ، معائم الرجال ؟ وأين يجب حفظ المراتب ، على المضروب والضارب ؟ وما اسم لايعرف إلا باستضافة كلتين ، أو الاقتصار منه على حرفين ، وفي وضعه التزام ، وفي الثاني إلزام ؟ وما وصف ـ إذا أردت بالنون ـ نقص صاحبه في العيون ، وقوم بالدون ، وخرج من الزبون وتعرض للهون .

وقد فسره بقوله :

« أما الكلمة التي هي حرف مكتوب ، أو اسم لما فيه حرف محلوب » فهي نعم . إن .

(وأما الكلمة التي هي حرف مكتوب أو اسم لما فيه حرف محلوب) فهي نعم إن اردت بها تصديق الأخبار أو العدة عند السؤال فهي حرف وإن عنيت بها الابل فهي اسم والنعم تذكر وتؤنث ، وتطلق على الابل وعلى كل ماشية فيها إبل ، وفي الابل الخرف وهي الناقة الصامرة سميت خرفا تشبيها لها بحرف السيف ، وقيل أنها السمينة تشبيها لها بحرف الجبل (وأما الاسم المتردد بين فرد حازم وجمع ملازم) فهو سراويل . قال بعضهم هو واحد وجمعه سراويلات ، ودلى هذا القول هو فرد وكنى عن ضمه الحصر بأنه حازم ، وقال آخرون بل هو جمع واحده سروال مثل شملال وشمايل ، وسربال وسرابيل ، فهو على

فَتَأَمَّلْ مَا أُنبِّهُكَ فِكْرِي لَهُ ، ثُمَّ تَدَبَّرْ

هذا القول جمع ، ومعنى قوله ملازم أى لاينصرف وإنما لم ينصرف هذا النوع من الجمع وهو كل جمع ثالثه ألف وبعدها حرف مشدد أو حرفان أو ثلاثة أوسطها ساكن لثقله وتفرده دون غيره من الجموع بأن لا نظير له فى الأسماء الآحاد ، وقد كنى فى هذه الأحجية عما لا ينصرف بالملازم كما كنى فى التى قبلها عما ينصرف باللازم (وأما الهاء التى إذا التحقت أماطت الثقل وأطلقت المعتقل) فهى الهاء اللاحقة بالجمع المقدم ذكره كقولك صيارفة وصياقلة فينصرف هذا الجمع عند الحاق الهاء به لأنها قد أصارته إلى أمثال الآحاد نحو رفاهية وكراهية فخف بهذا السبب وصرف لهذه العلة ، وقد كنى هذه الأحجية عما لاينصرف بالمعتقل كما كنى فى التى قبلها عما لاينصرف باللازم (وأما السبب التى تعزل العامل من غير أن تعامل) فهى التى تدخل على العمل المستقبل وتفصل بينه وبين أن التى كانت قبل دخولها من أدوات النصب فيرتفع حينئذ الفعل وتنتقل أن عن كونها الناصبة للفعل إلى أن تصير المخففة من الثقيلة ، وذلك كقوله تعالى — علم أن سيكون منكم مرضى وتقديره علم أنه سيكون (وأما المنصوب على الظرف الذى لا يخصصه سوى حرف) فهو عند إذ لايجره غير من خاصة وقول العامة دهبت إلى عنده لحن (وأما المضاف الذى أخل من عرى الاضافة بعروة واختلف حكمه بين مساء وغدوة) فهو لدن ولدن من الأسماء الملازمة للاضافة وكل مايأتى بعدها مجرور بها إلا غدوة ، فان العرب نصبتها بلدن لكثرة استعمالهم إياها فى الكلام ، ثم نونتها أيضا ليتبين بذلك أنها منصوبة لأنها من نوع المجرورات التى لاتنصرف ، وعند بعض النحويين أن لدن بمعنى عند والصحيح أن بينهما فرقا لطيفا وهو أن عند يشتمل معناها على ماهو فى ملكك ومكنتك مما دنا منك وبعد عنك ولدن يختص معناها بما حضرك وقرب منك (وأما العامل الذى يتصل آخره بأوله ويعمل معكوسه مثل عمله) فهو يا ومعكوسها أى وكلتاهما من حروف النداء وعملهما ما فى الاسم المنادى سيان وإن كانت يا أجول فى الكلام وأكثر فى الاستعمال وقد اختار بعضهم أن ينادى بأى القريب فقط كالهمزة (وأما العامل الذى نائبه أرحب منه وكرا ، وأعظم مكرا ، وأكثر لله تعالى ذكرا) فهو تاء القسم وهذه الباء هى أصل حروف القسم بدلالة استعمالها مع ظهور فعل القسم فى قولك : أقسم بالله ، ولدخولها أيضا على المضمر كقولك بك لأفعلنّ ، وإنما أبدلت الواو منها فى القسم لأنهما من حروف الشفة ، ثم لتقارب معانيهما لأن الواو تفيد الجمع والباء تفيد الالصاق ، وكلاهما متفق والمعنيان متقاربان ، ثم صارت الواو المبدلة من الباء أدور فى الكلام وأعلق بالأقسام ، ولهذا ألغز بأنها أكثر لله تعالى ذكرا . ثم إن الواو أكثر موطنا من الباء لأن الباء لا تدخل إلا على الاسم ولا تعمل غير الجر والواو تدخل على الاسم والفعل والحرف وتجر تارة بالقسم وتارة باضمار رب وتنتظم أيضا مع نواصب الفعل وأدوات العطف ، فلهذا وصفها برحب الوكر وعظم المكر (وأما الموطن الذى يلبس فيه الذكر أن براقع النسوان وتبرز فيه وبات الحجال بعمائم الرجال) فهو مراتب العدد المضاف ، وذلك ما بين الثلاثة إلى العشرة فانه يكون مع المذكر بالهاء ومع المؤنث بحذفها كقوله تعالى — سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام — والهاء فى غير هذا الموطن من خصائص المؤنث كقولك قائم وقائمة ، وعالم وعالمة ، فقد رأيت كيف انعكس فى هذا الموطن حكم المذكر والمؤنث حتى انقلب كل منهما فى ضد قالبه وبرز فى بزّة صاحبه (وأما الموضع الذى يجب فيه حفظ المراتب على المضروب والضارب) فهو حيث يشتبه الفاعل بالمفعول لتعذر ظهور علامة الاعراب فيهما أو فى إحداهما ، وذلك إذا كانا مقصورين مثل موسى وعيسى أو من أسماء الاشارة نحو ذاك ، وهذا فيجب حينئذ لازالة اللبس إقرار

وَاعْتَقِدْ أَنِّيَ فِي « ثُمَّ » كَمَنْ خَطَّ فَسَـــطَرْ

كل منهما فى رتبته ليعرف الفاعل منهما بتقدمه والمفعول بتأخره (وأما الاسم الذى لايفهم إلا باستضافة كلتين أو بالاقتصار منه على حرفين) فهو مهما وفيها قولان أحدهما أنها مركبة من مه التى هى بمعنى أكفف ومن ما ، والقول الثانى وهو الصحيح أن الأصل فيها ما فزيدت عليها ما أخرى كما تزداد ما على أنّ ، فصار لفظهما ما ما ، فثقل عليهم توالى كلمتين بلفظ واحـد فأبدلوا من ألف ما الأولى هاء فصارتا مهما ، ومهما من أدوات الشرط والجزاء ومتى لفظت بها لم يتم الـكلام ولا عقل المعنى إلا بإيراد كلتين بعـدها كقولك مهما تفعل أفعل وتكون حينئذ ملتزما للفعل ، وإن اقتصرت منها على حرفين وهمامه التى بمعنى اكفف فهم المعنى وكنت ملزما من خاطبته أن يكف (وأما الوصف الذى أردف بالنون نفس صاحبه فى العيون وقوم بالدون وخرج من الزبون وتعرض للهون) فهو ضيف إذا لحقته النون استحال إلى ضيمن وهو الذى يقبع الضيف ويتنزل فى النقد منزلة الزيف .

ومن ألا عيب الحريرى قوله فى مقامة أخرى — مما يقرأ طردا وعكسا فى مقامته المغربية :

« لم أحامل ، كبر رجاء أجر ربك ، من يرب إذا بر ينم ، سكت كل من نمّ لك تكس » وقوله :

« أس أرملا — إذا عرا وارع إذا المرء أسا
أســـند أخا نباهة أبن أخاء دنسا
أســـل حناب عاشم مشاغب إن جلسا
أسر إذا هب مرا وارم به ، إذا رسا
اسكن تقو ، فعسى يسعف وقت نكسا . »

المقامة القهقرية

وقوله فى مقامته القهقرية :

« أتعرفون رسالة أرضها سماؤها ، وصبحها مساؤها ، نسـجت على منوالين ، وتحلت فى لونين ، ووصلت إلى جهتين ، وبدت ذات وجهين .

إن بزغت من مشرقها ، فماهيك برونقها ، وإن طلعت من مغربها ، فيا لعجبها »

وهذه الرسالة التى تقرأ من أولها كما تقرأ من آخرها هى :

« الانسان صنيعة الأحسان ، ورب الجميل دعل الندب ، وشـيمة الحر ذخيرة الحمد ، وكسب الشكر استثمار السـعادة ، وعنوان الـكرم تباشير البشر ، واستعمال المداراة يوجب المصافاة ، وعقد المحبـة يقتضى النصح وصدق الحديث حلية اللسان ، وفصاحة المنطق سحر الألباب ، وشرك الهوى آفة النفوس ، وملل الخلائق شين الخلائق ، وسوء الطبع يباين الورع ، والتزام الخزامة زمام السـلامة ، وتطلب المثالب شر المعايب ، وتتبع العثرات يدحض المودات ، وخلوص النيـة خلاصة العطية ، وتهيئة النوال ثمن السـؤال ، وتكلف الـكلف يسهل الحلف ، وتيقن المعونة يسـنى المؤونة ، وفضل الصدر ، سعة الصدر ، وزينة الرعاة مقت السعاة ، وجزاء المدائح بث المنائح ، ومهر الوسائل ، تشفيع المسائل ، ومجلبة الغواية استغراق الغاية ، وتجاوز الحد ، يكل الحد ، وتعدى الأدب ، يحبط القرب ، وتناسى الحقوق ، ينشئ العقوق ، وتحاشى الريب ، يرمم الرتب ، وارتفاع الأخطار ، لاقتحام الأخطار ، وتنوّه الأقدار بمواتاة الأقدار ، وشرف الأعمال ، فى تقصير الآمال ، وإطالة الفكرة ، تنفيح الحـكمة ، ورأس الرياسة ، تهذيب السياسة ، ومع اللجاجة ، تلغى الحاجة ، وعند الأوجال تنفاضل الرجال ، وبتفاضل الهمم تتفاوت القيم ، وبتزيد السـفير ، يزين التدبير ، وبخلل الأحوال تتبين الأهوال ، وبموجب الصبر ثمرة الظفر ، واسـتحقاقه الاجتهاد بحسب الاجتهاد ، ووجوب الملاحظة ، كفاء المحافظة ،

وصفاء الموالى ، بتعهد الموالى ، وتحلى المروءات بحفظ الأمانات ، واختبار الاخوان بتخفيف الأحزان ، ووقع الأعداء بكف الأوداء ، وامتحان العقلاء بمقارنة الجهلاء ، وتبصر العواقب بؤدن المعاطب ، واتقاء الشنعة بنشر السمعة ، وقبح الجفاء بناقى الوفاء ، وجوهر الأحرار عند الأسرار . »

وقوله من خطبة لاتقط فيها ولا إعجام — فى مقامته السمرقندية : —

« الحمد لله الممدوح الأسماء المحمود الآلاء الواسع العطاء المدعو لحسم اللأواء ، مالك الأمم ، ومصور الرمم ، وأهل السماح والكرم ، ومهلك عاد وإرم ، أدرك كل سر علمه ، ووسع كل مصر حلمه ، وعم كل عالم طوله ، وهد كل مارد حوله ، أحمده حمد موحد مسلم ، وأدعوه دعاء مؤمل مسلم ، وهو الله لا إله إلا هو الواحد الأحد ، العادل الصمد ، لا ولد له ولا والد ، ولا رد معه ولا مساعد ، أرسل محمداً للاسلام مهدا الخ »

وفى مقامته المراغية — رسالة ، « حروف إحدى كلتيها يعمها القط وحروف الأخرى — كما يقول — لم يعجمن قط » وهى :

« الكرم — ثبت الله جيش سعودك — يزين ، واللؤم — غض الله جفن حسودك — يشين . والأروع يثيب ، والمعور يحيب ، والخلاحل يعيف ، والماحل يخيف ، والسمح يهدى ، والملك يقدى ، والعطاء ينجى ، والمطال يشجى ، والدعاء يقى ، والمدح يبقى ، والخر يجرى ، والالطاط يخرى ، واطراح ذى الحرمة غى ، وحرمة بى الآمال نمى ، وما ض إلا صبى ، ولا بين إلا ضنين ، ولا خرن إلا شقى ، ولا قبض راحه تقى ، وما متى وعدك بى ، وآراؤك تشفى ، وهلالك يفى ، وحلمك يفضى ، وآلاؤك تمى ، وأعداؤك تفى ، وحسامك يفى الخ الخ . »

وله رسالة سينية كتبها — على لسان بعض الأمراء — إلى بعض أصدقائه عتاباً :

باسم السميع القدوس أستفتح ، وباسماده أستمنح ، سيرة سيدنا الأسفهلار ، السيد النفيس ، سيد الرؤساء ، سيف السلاطين ، حرست نفسه ، واستمارت شمسه ، واتسق أنسه ، وبسق غرسه .

إلى أن يقول :

« وسيف السلاطين مسأثر بأس السماء وحسو الكؤس
سلانى ، وليس لباس السلو يناسب حسن سمات النفيس
وسن تنامى حلاسه وأسوا السجايا تنامى الحليس
وسر حسودى يطمس الرسوم ، ويطمس الرسوم كرمس النفوس
وساق الحسام بكأس السلاف ، وأسهى بعبوس وبوس . »

إلى آخر القصيدة .

ورسالة شينية ، وهى التى كتبها لأحد أصدقائه يمدحه فيها ، وفيها يقول :

« بارشاد المشى أنثى ، شعبى بالشيح شمس الشعراء ، ريش معاشه ، وهشا رياشه ، وأشرق شهابه ، واعشوشبت شعابه ، يشاكل شعف المتشى بالنشوى ، والمرتشى بالرشوى ، والشادن الشرخ الشباب ، والعطشان إلى شيم الشراب ، وشكرى لتعشمه ومشقته ، وشواهد شفقه ، يشاكل شكر الشاشد للمنشد ، والمسترشد للمرشد ، والمستشعر المبشر ، والمستحيش للحيش المشعر ، وشعارى إنشاد شعره ، وإشجاء الكاشح والمكاشر بنشره »

وهكذا إلى أن قال :

« فأشعاره مشهورة ، ومشاعره وعشرته مشكورة ، وعشائره
شأى الشعراء المشعلين شعره مشانيه مشجو الحشا ، ومشاعره
وشوه ترقيش المرتش رقشه ، فأشياعه يشكونه ، ومعاشره

إلى المعتمد على الله

« وكتب أيضا رحمه الله إليه أيده الله . »

يـأَيُّهَا الظَّافِرُ نِلْتَ الْمُنَى ... وَلاَ يَنَلْنَا فِيكَ مَحْذُورُ

إِنَّ الْخِلاَلَ الزُّهْرَ قَدْ ضَمَّهَا ... ثَوْبٌ عَلَيْكَ الدَّهْرَ مَزْرُورُ

لاَ زَالَ الْمَجْدِ الَّذِى شِدْتَهُ ... رَبْعٌ بِتَعْمِيرِكَ مَعْمُورُ

حَتَّى يُوَفَّى فِيكَ مَا يَبْتَغِى ... مُعْتَضِدٌ بِاللهِ مَنْصُورُ

* * *

وَافَاكَ نَظْمٌ لِى فِى طَيِّهِ ... مَعْنًى مُعَمَّى اللَّفْظِ مَسْتُورُ

مَرَامُهُ يَصْعُبُ ، مَا لَمْ يَبُحْ ... بِالسِّرِّ قُمْرِىٌّ (١) وَعُصْفُورُ

وَبُلْبُلٌ ، ثُمَّ يَكُرُّ اللَّذَا ... تَقَدَّمَا ، فَاللَّفْظُ مَكْرُورُ

ثُمَّ تَرَى الْبُلْبُلَ قَدْ حَثَّهُ ... نَسْرٌ ، بِهِ الشَّفْنِينُ (٢) مَنْسُورُ

ثُمَّ الْغُرَابُ الْجَوْنُ ، يَتْلُوهُ قُمْـ ... ـرِىٌّ وَدَرَّاجٌ وَزَرْزُورُ

وشاق الشباب الشم والشب وشيه ، فنشوره بشرى المشوق، ونا شره
شمائله معشوقة — كشموله — وشربه مستبشر، ومعاشره . »

إلى آخر القصيدة .

(١) القمرى : طائر حسن الصوت — ويجمع على قمارى — ويقال للذكر منه : الورشان .
قال ابن سيده : « القمرى طير صغير » وعده — فى الحكم — من الحمام .
وقد زعموا أن القمارىّ — إذا ماتت ذكورها — لم تتزاوج إناثها .
والورشان — الذى هو ذكر القمرى — يوصف بالحنوّ على أولاده ، حتى أنه ربما قتل نفسه إذا رآها فى يد القانص ، وقد مرّ بك فى « ص ١٠٧ » قول ابن زيدون :

« إن تعنى البلبل اهتاج غناء الورشان »

(٢) الشفنين — كما فى حياة الحيوان وابن البيطار — نوع من الحمام ، قالوا : « وهو الذى تسميه العامة بالحمام » وجمعه شفانين .

ثُمَّ يَلِي الدُّرَّاجُ(١) ـ مِنْ بَعْدُ غِرْ نِيقٌ(٢) ـ وَمُكَّاءٌ(٣) وَشُرْشُورُ(٤)
وَبَاشِقٌ، ثُمَّ إِذَا حَلَّقَ الشَّاهِينُ ـ وَالْعُصْفُورُ مَذْعُور ـ
ثُمَّ سَلِ الْمُكَّاءَ يَصْدُقْكَ، وَالْـــعُصْفُورَ، وَالْقُمْرِيُّ مَزْجُورُ
وَإِنْ جَرَى الدُّرَّاجُ ـ فِي إِثْرِهِ الـــزَّرْزُورُ ـ فَالْمَطْوِيُّ مَنْشُورُ
وَثُمَّ فَاعْلَمْ أَنَّ مَوْضُوعَهَا حَرْفٌ، لِفَصْلِ اللَّفْظِ مَقْدُورُ
وَفِي الَّذِي عَمَّسْتُ نُصْحٌ، لِمَنْ جَدَّ ـ مِنَ الْأَعْدَاءِ ـ مَشْكُورُ(٥)

---

(١) الدراج ـ بضم الدال ـ طائر ظاهر جناحيه أغبر ، وباطنها أسود ـ فى حجم القطا إلا أنه ألطف . والجاحظ يعده من جنس الحمام ، لأنه يجمع بيضه تحت جناحه كما يفعل الحمام .

قالوا : وهو كثير التاج يبشر ، بقدوم الربيع ، وهو يصلح بهبوب الشمال وصفاء الهواء ، ويسوء حاله بهبوب الجنوب ، حتى لايقدر على الطيران .

(٢) الفرنيق أو الفرنوق : طائر مائى ، وقيل هو الكركى أو طائر يشبهه .

قالوا :

وهو دون الحمام ـ فى المقدار ـ ولونه الحمرة مع كدورة ، وفى صوته ترجيع وتحزين .

ومن شأنها أنها تحسن أصواتها ـ إذا اختلطت ـ ومن طبعه أنه إذا فقد أشاه لم يزل ـ فيما يزعمون ـ أعزب إلى أن يموت ، وكذلك الأنثى إذا فقدت ذكرها .

قالوا :

وهو شديد الاحتراس ، وفيه ألفة للبيوت .

(٣) المكاء : طائر . (٤) الشرشور : طائر يسمى : « البرقش » وجمعه شراشير .

(٥) والبيت المطير فى هذه القصيدة هو :

« أنت ـ إن تفر ـ ظافر فليطع من ينافر . »

ولنضع فى الجدول التالى أمام كل حرف طائرة على الترتيب الذى ذكره فى القصيدة هكذا : ـ

الحرف	الطائر	الحرف	الطائر	الحرف	الطائر	الحرف	الطائر
أ	قرى	غ	نسر	ف	دراج	ن	عصفور
ن	عصفور	ز	شفنين	ل	غرنيق	ى	مكاء
ت	بلبل	ط	غراب	ى	مكاء	ن	عصفور
ا	قرى	ا	قرى	ط	شرشور	ا	قرى
ن	عصفور	ف	دراج	ع	ياشق	ف	دراج
ت	بلبل	ر	زرزور	م	شاهين	ر	زرزور

جـــواب[1]

« فجاوبه ذو الوزارتين رحمه الله . »

حَظِّيَ ـ مِنْ نُعْمَاكَ ـ مَوْفُورُ وَذَنْبُ دَهْرِى بِكَ مَغْفُورُ

وَجَانِبِي ـ إِنْ زَمَنِي رَامَهُ ـ حَجْرٌ[2] لَدَى ظِلِّكَ مَحْجُورُ

* * *

يَا ابْنَ الَّذِى سِرْبُ الْهُدَى آمِنٌ مُنْذُ اُنْبَرَى يَحْمِيهِ مَوْفُورُ

وليعلم القارئ أن الشاهين فى قوله : « ثم إذا حلق الشاهين . » ساقط ليس له حرف هجاء كغيره من طيور القصيدة ، وقد أشار إليه بقوله :

« وثم فاعلم أن موضوعها حرف لفصل اللفظ مقدور . »

وقد فكه المعتمد ، وجاوبه بالقصيدة التالية :

« يا خير من يلحظه ناظرى، شهادة ما شابها زور

ومن إذا ما ليل خطب دجا لاح به ـ من رأيه ـ نور

رأيك ـ إما شمته ـ صارم عضب على الأعداء مشهور

جاءتى الطير التى سرّها نظم به قلبى مسرور

شعر هو السحر فلا تنكروا أنى به ـ ماعشت ـ مسحور

اللفظ والقرطاس ـ إن شبهما ـ قيل هما مسك وكافور

وإنه لما اعتدى خاطرى مسائلا جاوب عصفور

هوى لجيش الطير من فكرتى صقر فولى وهو مقهور

ولاح لى بيت فؤادى له دأبا على ودك مقصور

حقك من شكرى يا سيدى بما بدا لى منك موفور

قصرت فى نظمى فاعذر فمن ضاهاك فى التقصير معذور

فأنت إن تنظم وتنثر فقد أعوز منظوم ومنثور

لايعدكم روض من الحظ فى ال إكرام والترفيع ممطور . »

(١) بعث ابن زيدون بهذه القصيدة للمعتمد ردا على قصيدته التى ذكرناها فى هذه الصفحة .

(٢) الحجر الكنف أو الحرام ، يقال : « هذا حجر عليك » أى حرام و « نشأت فى حجر فلان » أى فى كنفه ومنعته وحفظه وستره .

أَجَبْتَ أَمْرِى بِالَّذِى لَمْ يَزَلْ يُصْغِى إِلَيْهِ مِنْهُ مَأْمُورُ
أُلْبِسَ مِنْكَ الْمُلْكُ أَسْنَى الْحُلَى بِظَافِرٍ يَنْمِيهِ مَنْصُـــور

* * *

يَا مُرْوِىَ الْمَأْثُورِ ، يَا مَنْ لَهُ مَجْدٌ ـ مَعَ الْأَيَّامِ ـ مَأْثُورُ
عَبْدُكَ ـ إِنْ أَكْثَرَ مِنْ شُكْرِهِ ـ فَهُوَ بِمَا تُولِيهِ مَشْكُورُ
إِنْ تَعْفُ عَنْ تَقْصِيرِهِ مُنْعِماً فَالسَّرْوُ[1] أَنْ يُقْبِلَ مَيْسُورُ
إِنَّ حَلَالَ السِّحْرِ ـ إِنْ صُغْتَهُ ـ فِى صُحُفِ الْأَنْفُسِ مَسْطُورُ
نَظْمٌ زَهَانِى مِنْهُ إِذْ جَاءَنِى عِلْقٌ عَظِيمُ الْقَدْرِ مَذْخُورُ
هَوَى إِلَيْهِ طَرَباً خَاطِرِى كَمَا تَلَقَّى الْوَصْلَ مَهْجُورُ
لَا غَرْوَ أَنْ أُفْتِنَ إِذْ لَاحَظَتْ فِكْرِىَ مِنْهُ أَعْيُنٌ حُورُ
تَشِفُّ عَنْ مَعْنَاهُ أَلْفَاظُهُ كَمَا وَشَى بِالرَّاحِ بَلُّورُ
جَهِلْتُ ـ إِذْ عَارَضْتُهُ ـ غَيْرَ أَنْ لَا بُدَّ أَنْ يَنْفُثَ مَصْدُورُ

* * *

يَا آلَ «عَبَّادٍ» مَوَالَاتُكُمْ ، زَائِدٌ ـ مِنَ الْأَعْمَالِ ـ مَبْرُورُ
إِنَّ الَّذِى يَرْجُو مَوَدَّاتِكُمْ ـ مِنَ الْمُنَاوِينَ ـ لَمَغْرُورُ
مَكَانُهُمْ مِنْكُمْ كَمَا انْحَطَّ ـ عَنْ مَنْزِلَةِ الْمَرْفُوعِ ـ مَجْرُورُ
يَدْنُو إِلَيْكُمْ مَا نَأَى عَنْكُمُ إِنَّ الْعُلَى مِنْ أُنْسِهِ نُورُ
لَا زِلْتُمُ تَشْأَوْنَهُمْ مَا انْجَلَى ـ عَنْ فَلَقِ الْإِصْبَاحِ ـ دَيْجُورُ
وَلَا يَزَلْ يَجْرِى ـ بِإِيرَاثِكُمْ أَعْمَارَهُمْ ـ لِلَّهِ مَقْدُورُ

---

(١) السرو : المروءة والشرف .

إلى المعتمد

« وكتب أيضا رحمه الله إليه أيده الله . »

يَا مُرْضِياً كُلَّ مَخْدَمْ وَمُرْوِيًا كُلَّ لَهْذَمْ
وَيَا سَمِيَّ المصَـــلَّى عَلَى اسْمِهِ وَالْمُسَـــلَّمْ
وَيَا ابْنَ أَعْظَمِ مَنْ هَا بَهُ الْمُلُوكُ وَأَكْرَمْ
وَافَاكَ ـ لِلطَّيْرِ ـ سِرْبٌ لَدَيْهِ سِرٌّ مُكَتَّمْ
إِنْ تَسْأَلِ الطَّيْرَ عَنْهَا مُسْتَعْلِماً مِنْهُ تَعْلَمْ
وَالنَّسْرُ وَالرَّهْوُ (١) يُنْبِيـــكَ وَالظَّلِيمُ (٢) الْمُصَلَّمْ

---

(١) الرهو : الكركي ، وهو ـ كما جاء فى صبح الأعشى ـ طائر أعبر طويل الساقين فى قدر الأوزة ، ويجمع على كراكيّ ، وفى طبعه خور يحمله على التحارس ، حتى إنه إذا ـ اجتمع جماعة من الكراكيّ ـ يحرسها بالنوبة بينها ، ومن شأن الذى يحرس منها ، أن يرتفع بصوت حر ، كأنه ينذر بأنه حارس .

فاذا قضى نوبته قام واحد ممن كان نائما يحرس مكانه حتى يقضى كل منها نوبته من الحراسة ، ولا تطير متفرقة بل صفا واحدا يقدمها واحد منها ـ كالرئيس لها ـ وهى تتبعه ، يكون ذلك حينا ، ثم يخلفه آخر منها مقدما حتى يصير الذى كان مقدما مؤخرا ، وفى طبعها التناصر والعاضد ، ومن خاصتها أن أشاها لانقعد للسفاد بل يسعدها ـ وهى قائمة ـ ويكون سفاده سريعا كالمصفور .

وقال القزوينى ـ فى عجائب المخلوقات :

والكركي لا يمشى على الأرض إلا باحدى رجليه ، ويعلق الأخرى ، أو يضعها وضعاً خفيفاً مخافة أن تخسف به الأرض .

قال ـ فى « المصايد والمطارد » :

وهو من أبعد الطير صوتا يسمع على أميال .

قالوا : وكانت الكراكي تأتى إلى مصر من بلاد الترك ، وفى طلبها وصيدها كانت تتعالى ملوك مصر تغالبا لايدرك حده ، وتنفق فى ذلك الأموال الجمة .

(٢) الظليم ـ ذكر النعام ـ وقد جاء فى صبح الأعشى ـ فى معرض الكلام عن النعام ـ قوله :

« هو طائر معروف ، مركب من صورتى جمل وطائر ، ولذلك تسميه الترك « دواش » بمعنى « طير جمل » وتسميه الفرس « اشتر مرك » ومعناه « جمل طائر » ويسمى ذكر النعامة : الظليم . قالوا : ومساكنها الرمل ، وتضع بيضها سطراً مستطيلا ، يحيث لو مد عليها خيط لم تخرج واحدة منها عن الأخرى ، ثم تعطى كل بيضة منها نصيبها من الحضن ، لأنها لاتستطيع ضم جميع البيض تحتها .

ثُمَّ الْهَدِيلُ (١) تَلِيهِ حَمَامَـــةٌ تَتَرَنَّمْ
إِلَى عُقَابَيْنِ تَدْعُو هُمَا الظَّلِيمَ فَيَفْهَمْ
ثُمَّ الْعُقَابُ (٢) مَعَ الصَّقْـــرِ، فَهْوَ بِالشَّرْحِ أَنْعَمْ
وَالرَّالُ (٣) وَالرَّهْوُ وَالْقَبْـــجُ (٤) فَالثَّلَاثَةُ حُوَّمْ
ثُمَّ الْعُقَابُ فَسَـــلْهُ وَالصَّقْرُ لَا يَتَلَعْثَمْ

وإذا خرجت للطعم ، فوجدت بيض نعامة أخرى حضنه ونسيت بيضها فربما حضنت هذه بيض هذه . ولذلك توصف — فى الطير — بالحمق .

ويقال : إنها تقسم بيضها أثلاثا ، فمنه ماتحضنه ، ومنه ماتحمله غذاء لها ، ومنه ما تفتحه وتجعله فى الهواء حتى يتولد فيه الدود فتغذى به أفراخها إذا خرجت . قالوا :

« وليس للنعام حاسة سمع ، ولكنه قوى الشم ، يستغنى بشمه عن سماعه . حتى يقال : أنه يشم رائحة القانص من بعد . وفى أساطير العرب :

أن النعامة ذهبت تطلب قرنيها فقطعوا أذنيها .

ومن خصائصها أنها تبتلع العظم الصلب والحجر فتذيبه معدتها .

(١) الهديل ذكر الحمام ، قال أبو العلاء فى داليته المشهورة :

« يابنات الهديل : أسعدن أوعد ن قليل البكاء بالاسعاد . »

(٢) العقاب : طائر من الجوارح تسميها العرب بالكاس ، قيل العقاب سيد الطيور والنسر عريفها » وتقول العرب : « أبصر من عقاب » قال ابن دريد فى مقصورته الرائعة :

«فاستنزل الرياء — قسرا — وهى من عقاب لوح الجو أعلى منتمى . »

وقد جاء فى صبح الأعشى : أن العقاب مؤنثة لا تذكر ، وتجمع على عقبان وأعقب .

وجاء فى « المصايد والمطارد » قوله :

« وهى من أعظم الجوارح ، وليس بعد النسر فى الطير — أعظم منها وأصل لونها السواد . »

فمنها سوداء دحوجية ، وخدارية — وهى التى لابياض فيها — ومنها البقعاء — وهى التى يخالط سوادها بياض — ، ومنها الشقراء وهى التى فى رأسها نقط بياض — قال « أبو عبيدة » و « يونس » :

« ويقال لذكر العقاب « الغرن » ويقال إن ذكور العقبان من طير آخر لطاف الجرم لاتساوى شيئا ، تلعب بها الصبيان » والعقاب من أسرع الطير طيرانا . (ارجع إلى صبح الأعشى ج ٢ ص ٥٣)

(٣) الرأل : ولد النعام ، قال أبو العلاء :

« قد كنت قلت — فى كلام لى قديم — إننى قد هجرت الشعر هجر الرأل تركته . »

(٤) القبج : والكروان ، معرب « كبج » بالفارسية وهو طائر فى قدر الدجاجة طويل الرجلين حسن الصوت لاينام الليل .

إِلَى حُبَارَى (١) وَبَازٍ وَحَالِكِ اللَّوْنِ أَعْصَمْ (٢)
ثُمَّ السَّمَامُ (٣) مَعَ الرَّا لِ كَيْ يَبُوحَ الْمُجَمْجَمْ (٤)
إِلَى عُقَابٍ وَرَهْوٍ يُفْصِحْ بِمَا شِئْتَ أَسْحَمْ
وَمَا الظَّلِيمُ بِآلٍ فَلَوْ زَجَرْتَ لَتَرْجَمْ
ثُمَّ الْعُقَابُ سَيُوحِي لِلصَّقْرِ لَا تَتَكَلَّمْ
وَعَقْعَقٌ وَهَدِيلٌ وَالْقُبَجُ فِي ذَاكَ مُلْتَمْ
وَثُمَّ فَصْلٌ كَمَا قَدْ عَهِدْتَ فِيمَا تَقَدَّمْ
يَا مُلْبِسَ الدَّهْرِ وَشْيًا مِنَ الْجَمَالِ مُنَمْنَمْ
اِسْلَمْ سَنِيَّ الْأَمَانِي مُؤَزَّرَ النَّصْرِ مُطْعَمْ (٥)

---

(١) الحبارى : طائر — يقع على الذكر والأنثى — قالوا : «ويضرب به المثل — فى البلاهة والحمق يقال : « هو أبله من الحبارى » قيل ذلك لأنها إذا غيرت عشها ذهلته وحضنت بيض غيرها .

(٢) الأعصم : الظبي . قال ابن دريد :

« لو ناجت الأعصم لانحط لها — طوع القياد فى شماريخ الذرى . »

وجمعه عصم ، قال الشاعر :

« وادتيتنى حتى — إذا ما فتنتنى بقول يحل العصم سهل الأباطح
تناءيت عنى حين — لالى حيلة — وعادرت ماعادرت بين الجوانح . »

(٣) السمام : ضرب من الطير ، واحدته سمامة .

(٤) المجمجم : الذى لايفهم ، قال المعرى :

« جمجم هذا الزمان قولا وكلنا يرتجى بيانه . »

(٥) وبيت المطير — فى هذا الشعر — هو :

« أهلك عدوك ، واسلم ، واظفر بسؤلك — وانعم . »

وقد فكه المعتمد .

بيت مطير

« وكتب اليه المعتمد أيده الله

يا سيدى يامعدن العلم

يا آلة للحرب والسلم

وجه طيور الشعر نحوى فقد

بثّ فؤادى شرك الفهم

فبعث اليه ببيت مطير وجاو به رحمه الله . »

أَلْحَقَنِي بِرِثْكَ بِالنَّجْمِ ... يَا ابْنَ الْبُدُورِ الزُّهْرِ مِنْ خَلَمِ

يَا لَابِسَ الْمَجْدِ الَّذِي زَانَهُ ... بِالْعِلْمِ زَيْنَ الْبُرْدِ بِالرَّقَمِ

قَدْ لَثِمَتْ كَفِّيَ الدَّرَارِيَّ مُذْ ... شَافَهْتُ تِلْكَ الْكَفَّ بِاللَّثْمِ

قُلِّدَ مِنكَ الْمُلْكُ عَضْبَ الظُّبَا ... يَمْضِي مَضَاءَ الْقَدَرِ الْحَتْمِ

فِرِنْدُهُ الرَّقْرَاقُ مِنْ بِشْرِهِ ... وَحَدُّهُ مِنْ نَافِذِ الْعَزْمِ

* * *

قَدْ جَاءَنِي النَّظْمُ الَّذِي خِلْتُهُ ... مُؤَلَّفَ اللُّؤْلُؤِ فِي النَّظْمِ

حَلَّيْتَنِي مِنْهُ بِفَخْرٍ يُرَى ... فِي غُفْلِ حَالِي رَائِقَ الْوَسْمِ

مُسْتَدْعِيًا طَيْرَ الْمُنَى لِكَيْ ... يَصِيدَهَا فِي شَرَكِ الْفَهْمِ

فَهَاكَهَا تُهْدَى إِلَى خَاطِرٍ ... يَسْتَخْرِجُ الْإِفْصَاحَ مِنْ مُعْجَمِ[1]

---

(١) البيت المطير فى هذه القصيدة هو :

« أنت ــ إن تفز ظافر ... وليطع من ينافر . »

والبيت المطير

اِظْفَرْ كَمَا أَنْتَ ظَافِرْ بِكُلِّ غَاوٍ مُنَافِرْ

وطير له أيده الله بيتين وهما

«شعر من محض ودّه
لك فى علم طيره
فهى مهما زجرتها
لم تخبر بغيره . »

ففكهما وجاوبه رحمه الله

أَيُّهَا المَاجِدُ الَّذِى خِيرُهُ وَفْقُ خَيْرِهِ
وَالَّذِى سَيْرُ مُشْتَرِى أُفْقِنَا دُونَ سَيْرِهِ
مَلِكٌ صَحَّ ـ مِنْ أَدِيمِ الْهُدَى ـ قَدْ سَيْرِهِ
فَهُوَ ـ الدَّهْرَ ـ نَفْعُهُ حَاضِرٌ ، دُونَ ضَيْرِهِ

* * *

يَا لِلَيْلِى سَئِمْتُ مِنْ سَهَرِى فى قُمَيْرِهِ ؟
عَزَّ ـ فى وَهْنِهِ ـ مَرَا مُ عَتَا فى سُحَيْرِهِ
«شِعْرُ مَنْ مَحْضُ وُدِّهِ لَكَ فى عِلْمِ صَيْرِهِ
فَهْىَ ـ مَهْمَا زَجَرْتَهَا ـ لَمْ تُخَبِّرْ بِغَيْرِهِ

جواب على بيت مطير

« قال يمدح المعتمد على الله أبا القاسم محمد بن المعتضد بالله وعباد بن محمد بن عباد ، أدام الله تأييده ، فى حياة أبيه ـ وكان قد عمى له بيتا :

« الحاجب الأعلى العضد قرّة عين المعتمد »

ففكه ـ أيده الله ـ وجاو به بأربعة أبيات ، وهى:

يا سيدى ، الأعلى ومن
أعددته أقوى العدد

حلت طيورك بى ، وقد
قرّبت منها ما بعد

كاشفتنا عن سرّها
فوشى إلىّ بها الصرد

بيتا يدلّ على اعتقا
دك ياجميل المعتقد

الحاجب الأعلى العضد
قرة عين المعتضد

فجاو به ذو الوزارتين بقصيدة ، وهى : »

لَوْ أَنَّ مَنْ جَارَ قَصَدْ ... لَمْ يَجْزِ ـ عَنْ وَصْلِى ـ بِصَدّْ
سَيِّئُ عَهْدٍ ـ أَرْخَصَتْ ... عَيْنَاهُ فى قَتْلِى الْعَمَدْ
مَالِكُ سُلْطَانِ الْهَوَى ... أَمَّنَهُ مِنْ الْقَوَدْ (١)
مُخْلِدٌ خَلَّدَ ـ بَرْ ... حَ الشَّوْقِ ـ فى كُلِّ خَلَدْ
وَعْدُ الرِّضَى ، لِحُبِّهِ ... نَهْجٌ ـ إِلَى قَلْبِ ـ جَدَدْ

---

(١) القود : الدية .

قَاسٍ إذا مَا قِيـــلَ : « أَبْـــلَى حُلَّةَ الْهَجْـــرِ » أَجَدّْ
أَوْ قُلْتُ : « قَدْ هَبَّ نَسِـــيمُ الْوَصْلِ لِى مِنْهُ » رَكَدْ
مَا كُنْتُ آبَى صَـــدَّهُ لَوْ أَنَّ سُـــلْوَانِىَ صَدّْ

* * *

فِتْنَةُ وَجْدٍ ، هِىَ كَالْـــفِتْنَةِ فى الْعِجْلِ الْجَسَدْ
غَـــيْرُ مُبِينٍ ، طَرْفُهُ يَعْصِفُ بِالْخَصْمِ الْأَلَدّْ
عَصْفَ « أَبِى الْقَاسِمِ » بِالْـــقَتْلِ إِذَا الْقَتْلُ مَرَدْ
الحَاجِبُ الْأَعْلَى الَّذِى لَوْ مَاجَدَ الشَّمْسَ مَجَدْ
مَحْضُ التُّقَى ، عَفُّ الْهَوَى غَمْرُ النَّدَى ، صَدْقُ الْجَلَدْ
رَكِينُ طَوْدِ الحِـــلْمِ إِنْ حُبَاهُ فى النَّادِى عَقَـــدْ
مُوَفَّقُ الْأَنْحَاءِ عَا دَ فى أَسَالِيبِ الرَّشَـــدْ
لَوْ قَصَّ كُنْهَ جُودِهِ لِلْبَحْرِ وَافَى ، فَاسْـــتَمَدّْ
مُؤَمَّلٌ - مَعَ الرِّضَا - يُهَابُ فى حِينِ الْبُعُدْ
إِنْ قُلِّدَ الْأَمْرَ كَفَى وَإِنْ تَوَلَّى الثَّغْرَ سَـــدّْ
مَاءُ سَمَاحٍ فَاضَ فى جَمْـــرِ ذَكَاءٍ فَاتَّقَـــدْ
يَا عَضُـــدَ الدَّوْلَةِ ، يَا مَوْلَى بِبَارِيهِ اعْتَضَدْ ! (١)
وَمَنْ - بِفَضْلِ اللهِ - حَا زَ النَّصْرَ فى جِدٍّ وَجَدّْ

---

(١) وفى الأصل :

يا عضـــــد الدولة يا من بياريه اعتصد . »

أَصْبَحَ أَعْلَى وَالِدٍ فَاوَقَهُ أَسْنَى وَلَدْ
حَدَّثْتَنَا عَنْ سَرْوِهِ (١) نَاهِيكَ مِنْ قُرْبِ سَنَدْ

* * *

مَلْكٌ - إِذَا نَحْنُ اعْتَمَدْ نَا مِنْهُ أَوْفَى مُعْتَمَدْ -
تَهَلَّلَتْ شَمْسُ جَبِينٍ وَاسْتَهَلَّتْ مُزْنُ يَدْ
مُمَحِّصُ الدَّهْرِ الَّذِى أَصْلَحَ مِنْهُ مَا فَسَدْ
وَعَاضِدُ الدِّينِ الَّذِى قَدْ كَانَ - قَبْلُ - يُضْطَهَدْ
وَنَاصِرِ الْعِلْمِ الَّذِى نَفَّقَهُ لَمَّا كَسَدْ
مَنْ لَمْ يَعِدْ إِلاَّ وَفَى، وَلاَ وَفَى إِلاَّ وَعَدْ
شَاوَرَنِى - فِى أَمْرِهِ - شَيْحَانُ لَوْ شَاءَ اسْتَبَدّْ
يَخْشَى الْعِدُوُّ مِنْهُ عَزْ مَ قَسْوَرٍ شَاكِى اللِّبَدْ
سَمْحٌ لَهُ - مَهْمَا عَنَا - فَظٌّ عَلَيْهِ إِنْ عَنَدْ
كَالسَّيْفِ - فِى حَالَيْهِ - إِنْ رَاقَ فِرِنْدٌ رَاعَ حَدّْ
يَا مُهْدِى السِّمْطِ الَّذِى قَلَّدْتُهُ فَخْرَ الأَبَدْ
أَحْسَنُ مِنْ رَقْمِ عِذَا رِ سَائِلٍ فِى وَشْيِ خَدّْ
أَوْ مَبْسِمٍ حُلْوِ اللَّمَا يَفْتَرُّ عَنْ عَذْبِ بَرَدْ

---

(١) السرو : المروءة : والشرف ، وفى الأصل : « حدثنا عن سروة »

إلى المعتمد

قَدْ قُلْتُ ـ لَمَّا هَزَّنِى مِنْهُ الْبَدِيعُ الْمُفْتَقَدْ ـ
« نَسِيمُ أَيْلولٍ سَرَى أَمْ وَرْدُ نَيْسَانٍ وَرَدْ »
خَاطِرِىَ السَّهْمُ وَشَى بِسِرِّ طَيْرِى لاَ الصُّرَدْ
وَفِطْنَةٌ تَأَلَّفَتْ ـ مِنَ الْمُعَمَّى ـ مَا شَرَدْ
شِنْشِنَةٌ أَعْرِفُهَا فى شِبْلِ مَلْكٍ مِنْ أَسَدْ

⁂

يَا آلَ « عَبَّادٍ » مِثَا لٌ لَيْسَ يَعْدُوهُ السَّدَدْ
مَنْ لِى بِشُكْرِ نِعْمَةٍ ، الْحُرُّ عَنْهَا مُعْتَبَدْ
سُوِّغْتُ مِنْهَا الْعِزَّةَ الْـقَعْسَاءَ فى الْعَيْشِ الرَّغَدْ
حَيْثُ اسْتُضِيفَ مَنْهَلٌ صَفَا إِلَى ظِلٍّ بَرَدْ
كَأَنَّهَا لِى جَنَّةٌ حُفَّتْ بِمَكْرُوهِ الْحَسَدْ
يَحْمِلُهَا مِنِّىَ وَا فِى الشُّكْرِ صَافِى الْمُعْتَقَدْ
كَمْ قَامَ بِالشُّكْرِ إِلَى أَنْ أَثْقَلَتْهُ فَقَعَدْ
قَصَّرَ ، لَكِنْ لَمْ يُقَصِّرْ مُبْلِغُ الْعُذْرِ اجْتَهَدْ
وَقَيْتُ بَطْشَ الْعَيْنِ فِيكُمْ بِالْعَمَى لاَ بِالرَّمَدْ

صرعى الحب (١)

أَخَذْتَ ثُلْثَ الْهَوَى غَصْباً ، وَلِى ثُلُثٌ ، وَالْمُحِبِّينَ ـ فِيمَا يَنْهُمُ ـ ثُلُثُ
تَاللهِ ، لَوْ حَلَفَ الْعُشَّاقُ : أَنَّهُمُ مَوْتَى مِنَ الْوَجْدِ ـ يَوْمَ الْبَيْنِ ـ مَا حَنَثُوا

(١) من شعر ابن زيدون الذى قاله فى مدة صباه ، وقد أورده المراكشى صاحب كتاب المعجب فى تاريخ أخبار المغرب ، ولم يرد فى ديوان ابن زيدون .

قَوْمٌ ـ إِذَا هُجِرُوا مِنْ بَعْدِ مَاوُصِلوا ـ مَاتُوا ، فَإِنْ عَادَ مَنْ يَهْوَوْنَهُ بُعِثُوا
تَرَى الْمُحِبِّينَ صَرْعَى ـ فِى عِرَاصِهِمِ ـ كَفِتْيَةِ الْكَهْفِ ، مَايَدْرُونَ مَالَبِثُوا

ذكرى قرطبة

« ومما قاله يتشوق ابنة المهدى ومعاهده بقرطبة ، وضمنها بيت أبى الطيب ـ فى أوّل قصيدته الكافورية :

« بم التعلل ؟ لا أهل ، ولا وطن ،
ولا نديم ، ولا كأس ، ولا سكن ؟ »

قصيدة أوّلها (١) : »

هَلْ تَذْكُرُونَ غَرِيباً عَادَهُ شَجَنُ ـ مِنْ ذِكْرِكُمْ ـ وَجَفَا أَجْفَانَهُ الْوَسَنُ
يُخْفِى لَوَاعِجَهُ ـ وَالشَّوْقُ يَفْضَحُهُ ـ فَقَدْ تَسَاوَى ـ لَدَيْهِ ـ السِّرُّ وَالْعَلَنُ
يَا وَيْلَتَاهُ ، أَيَبْقَى ـ فِى جَوَانِحِهِ ـ فُؤَادُهُ ، وَهْوَ بِالْأَطْلَالِ مُرْتَهَنُ
وَأَرَّقَ الْعَيْنَ ـ وَالظَّلْمَاءُ عَاكِفَةٌ ـ وَرْقَاءُ قَدْ شَفَّهَا ـ إِذْ شَفَّنِى ـ حَزَنُ
فَبِتُّ أَشْكُو وَتَشْكُو ـ فَوْقَ أَيْكَتِهَا ـ وَبَاتَ يَهْفُو ارْتِيَاحًا بَيْنَنَا الْغُصُنُ

* * *

يَا هَلْ أُجَالِسُ أَقْوَامًا أُحِبُّهُمُ كُنَّا وَكَانُوا ـ عَلَى عَهْدٍ ـ فَقَدْ ظَعَنُوا
أَوْ تَحْفَظُونَ عُهُودًا لَا أُضَيِّعُهَا إِنَّ الْكِرَامَ ـ بِحِفْظِ الْعَهْدِ ـ تُمْتَحَنُ

وَمِنْهَا :

إِنْ كَانَ عَادَكُمُ عِيدٌ ، فَرُبَّ فَتًى بِالشَّوْقِ قَدْ عَادَهُ ـ مِنْ ذِكْرِكُمْ ـ حَزَنُ
وَأَفْرَدَتْهُ اللَّيَالِى ـ مِنْ أَحِبَّتِهِ ـ فَبَاتَ يُنْشِدُهَا ـ مِمَّا جَنَى الزَّمَنُ ـ :
« بِمَ التَّعَلُّلُ ؟ لَا أَهْلٌ ، وَلَا وَطَنٌ ؟ وَلَا نَدِيمٌ ، وَلَا كَأْسٌ ، وَلَا سَكَنُ ؟ »

(١) ذكرها كتاب المعجب فى تاريخ أخبار المغرب ، ولم ترد فى ديوان ابن زيدون .

رسائل ابن زيدون واخباره

وشعر المكين

واخبارهما

الرسالة الهزليـــة [١]

أَمَّا بَعْدُ أَيُّهَا الْمُصَابُ بِعَقْلِهِ ، الْمُوَرَّطُ بِجَهْلِهِ ، الْبَيِّنُ سَقَطُهُ ، الْفَاحِشُ غَلَطُهُ ، الْعَاثِرُ فِى ذَيْلِ اغْتِرَارِهِ ، الْأَعْمَى عَنْ شَمْسِ نَهَارِهِ ، السَّاقِطُ - سُقُوطَ الذُّبَابِ - عَلَى الشَّرَابِ ، الْمُتَهَافِتُ - تَهَافُتَ الْفَرَاشِ [٢] - فِى الشِّهَابِ ، فَإِنَّ الْعُجْبَ أَكْذَبُ ، وَمَعْرِفَةَ الْمَرْءِ نَفْسَهُ أَصْوَبُ ، وَإِنَّكَ رَاسَلْتَنِى مُسْتَهْدِيًا - مِنْ صِلَتِى - مَا صَفِرَتْ مِنْهُ أَيْدِى أَمْثَالِكَ ، مُتَصَدِّيًا - مِنْ خُلَّتِى - لِمَا قُرِعَتْ دُونَهُ أُنُوفُ [٣] أَشْكَالِكَ ، مُرْسِلاً خَلِيلَاتِكَ مُرْتَادَةً ، مُسْتَعْمِلاً عَشِيقَتَكَ قَوَّادَةً ، كَاذِبًا نَفْسَكَ أَنَّكَ سَتَنْزِلُ عَنْهَا إِلَىَّ ، وَتَخْلُفُ - بَعْدَهَا - عَلَىَّ :

« وَلَسْتَ بِأَوَّلِ ذِى هِمَّةٍ دَعَتْهُ لِمَا لَيْسَ بِالنَّائِلِ [٤] »

* * *

وَلَا شَكَّ أَنَّهَا قَلَتْكَ إِذْ لَمْ تَضَنَّ بِكَ ، وَمَلَّتْكَ إِذْ لَمْ تَغَرْ عَلَيْكَ ، فَإِنَّهَا أَعْذَرَتْ فِى السَّفَارَةِ لَكَ ، وَمَا قَصَّرَتْ فِى النِّيَابَةِ عَنْكَ ، زَاعِمَةً أَنَّ الْمُرُوءَةَ لَفْظٌ أَنْتَ مَعْنَاهُ ، وَالْإِنْسَانِيَّةَ اسْمٌ أَنْتَ جِسْمُهُ وَهَيُولَاهُ [٥] ، قَاطِعَةً أَنَّكَ انْفَرَدْتَ

---

(١) انظر ص « ٢٣٧ »

(٢) الفراش مشهور بأنه يطرح نفسه فى النار فيحترق ، قال الشاعر :

« هل أنتم إلا الفرا ش رأى الشهاب وقد توقد
فدنا ، فأحرق نفسـه ولو اهتدى رشد الأمد. »

(٣) قرع الأنف أى العجز والذلة ، والعرب تقول للكفء : « هو الفحل لا يقرع أنفه » وقد قال ابن زيدون فى إحدى قصائده فى « ص ٦٧ » : « وأنف الفحل لا يقرع . »

(٤) البيت للمتنبى ، وهو من قصيدته المشهورة :

« إلام طماعيـة العاذل ولا رأى فى الحب للعاقل
يراد من القلب نسيانكم وتأبى الطباع على الناقل »

والقصيدة مشهورة فليرجع إليها القارئ فى ديوانه إن شاء .

(٥) أصله وحقيقته .

بِالْجَمَالِ ، وَاسْتَأْثَرْتَ بِالْكَمَالِ ، وَاسْتَعْلَيْتَ فِى مَرَاتِبِ الْجَلَالِ ، وَاسْتَوْلَيْتَ عَلَى مَحَاسِنِ الْخِلَالِ ، حَتَّى خَيَّلْتَ أَنَّ يُوسُفَ ـ عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ حَاسَنَكَ فَغَضَضْتَ مِنْهُ ، وَأَنَّ امْرَأَةَ الْعَزِيزِ (١) رَأَتْكَ فَسَلَتْ عَنْهُ ، وَأَنَّ قَارُونَ (٢) أَصَابَ بَعْضَ مَا كَنَزْتَ ، وَالنَّطِفَ (٣) عَثَرَ عَلَى فَضْلِ مَا رَكَزْتَ ، وَكِسْرَى (٤) حَمَلَ غَاشِيَتَكَ ، وَقَيْصَرَ (٥) رَعَى مَاشِيَتَكَ ، وَالْإِسْكَنْدَرَ قَتَلَ دَارَا (٦) فِى طَاعَتِكَ ، وَأَرْدَشِيرَ (٧) جَاهَدَ مُلُوكَ الطَّوَائِفِ بِخُرُوجِهِمْ عَنْ جَمَاعَتِكَ ، وَالضَّحَّاكَ (٨) اسْتَدْعَى مُسَالَمَتَكَ ، وَجَذِيمَةَ

---

(١) امرأة العزيز مشهورة بحبها يوسف الصديق وقصتها معروفة .

(٢) قارون : يضرب به المثل فى الثراء والغنى ، وقد جاء فى الكتاب الكريم : « وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة . »

(٣) قالوا : إنما عنى النطف بن حبير بن حنظلة اليربوعي ، وقد كان مقيما بالبادية مع بنى تميم ، وقد نهب أموالا كان أرسلها كسرى إلى عامله وذهباً ومسكا ولآلئ ، فضرب به المثل بما أصاب من ثروة طائلة ، قال بعض ولده :

«أبى النطف المبارى الشمس ، إنى عريق فى السماحة والمعالى . »

(٤) كسرى : اسم يطلق على كل ملك من ملوك الفرس .

(٥) قيصر : اسم يطلق على كل ملك من ملوك الروم .

(٦) يعنى الاسكندر الأكبر المقدونى وتاريخه مشهور ، و « دارا » هو ملك الفرس الذى انتصر عليه الاسكندر وقتله . (٧) اسم ملك من ملوك الفرس .

(٨) الضحاك يزعمون أنه قتل « جمشيد » ـ سيد الشعاع ، وملك الأقاليم السبعة وأول من عمل السلاح واستخرج الابريسم ، والقزّ ، وألزم أهل الفساد الأعمال الشاقة فى قطع الصخور ، واستخراج المعادن . قالوا : وطال عمر « جمشيد » وتجبر ، وادّعى الربوبية ، فخرج عليه الضحاك ، وتبعه خلق كثير من أعداء « جمشيد » فظفر به الضحاك ، فهرب « جمشيد » بين يديه فظفر به الضحاك وأمر بنشره بمنشار ، وقال له : « إن كنت إلها فادفع عن نفسك »

ثم ملك الضحاك ـ فيما يزعمون ـ وطغى وتجبر وفجر ودان بدين البراهمة ، وكان ـ فيما يقولون ـ أول من غنى له ، وضرب الدنانير والدراهم ، ولبس التاج ، ووضع العشور ، إلى آخر مازعموه له .

الْأَبْرَشَ (١) تَمَنَّى مُنَادَمَتَكَ ، وَشِيرِينَ قَدْ نَافَسَتْ بُورَانَ فِيكَ (٢) ، وَبَلْقِيسَ (٣) غَايَرَتِ الزَّبَّاءَ عَلَيْكَ ، وَأَنَّ مَالِكَ بْنَ نُوَيْرَةَ (٤) إِنَّمَا أَرْدَفَ لَكَ ، وَعُرْوَةَ بْنَ جَعْفَرٍ (٥) إِنَّمَا رَحَلَ إِلَيْكَ ، وَكُلَيْبَ (٦) بْنَ رَبِيعَةَ إِنَّمَا حَمَى الْمَرْعَى بِعِزَّتِكَ ، وَجَسَّاسًا إِنَّمَا قَتَلَهُ

---

(١) جذيمة الأبرش ، قد سبق الاشارة إليه فى «ص ٢٠٢» فليرجع إليها من شاء .

(٢) شيرين : هى زوجة كسرى أبرويز ، وبوران هى ابنته ، وقد أشار المعرى إلى شيرين إشارة ظريفة فى رسالة الغفران فقال :

ولو قالت شيرين الملكة لكسرى: « حملى الله فداءك » لخالبته فى ذلك ونافقته ، وإن رافقته ووافقته ، على أنه أخذها من حال دنيئة ، فجعلها فى النعمة السنية ، وعتبه — فى ذلك — الأحباء ، وجرت لهم — فى ذلك — قصص وأنباء ، وقيل له — فيما ذكر — :

« كيف تطيب نفس الملك لهذه المومس ؟ »

فضرب لهم المثل بالقدح ، جعل فى الانباء الشعر والدم ، وقال للحاضر :

« تحيب نفسك لشرب مافيه ؟ » فقال : « إنها لاتطيب وهى بالأنحاس قطيب . »

فأراق ذلك الشىء ، وغسله وهدب وعاءه ، وجعل فيه — من بعد — مداما . وعرضه على الندامى ، فكلهم يهش أن يشرب ، فقال : « هذا مثل شيرين » .

(٣) بلقيس هى ملك بلاد سبأ ، والزباء هى التى قتلها عمرو بن عدى وقتل أباها جذيمة بن الأبرش ، وقد مرّ ذكره .

(٤) مالك بن نويرة : من مشهورى فرسان العرب وشجعانهم فى الجاهلية ، وقد أدرك الاسلام . قالوا وارتد وبعث أبو بكر خالد بن الوليد لقتال أهل الردة ، فكان إذا صبح قوماً تسمع الآذان فان سمعهم كف عنهم ، وإن لم يسمعهم قاتلهم إلى أن مرّ بالبطاح وبه مالك وأصحابه ، فقيل إنهم لم يستمعوا أذاناً فقاتلهم ، وأتى بمالك بن نويرة أسيراً فأمر خالد بقتله . قالوا : واحتجّ قوم لخالد فى قتله ، وطعن عليه آخرون فى كلام طويل مشهور ، وقد رثاه أخوه متمم رثاء الرائع ، وقد سمعه عمر فقال له : وددت لو رثيت أخى زيداً بمثل مارثيت به أخاك ، فقال له متمم : والله لو علمت أن أخى صار إلى ماصار إليه أخوك لم أرثه ولم أحزن عليه ، ومن أبيات متمم التى سارت فى رثائه مسير الأمثال قوله :

« وقالوا أتبكى كل قبر رأيته لقبر ثوى بين اللوى ، فالدكادك
فقلت لهم : « إن الأسى يبعث الأسى دعونى فهذا كله قبر مالك »

(٥) عروة بن جعفر — كان ينتسب إلى جعفر هو وأهل بيته ، وكان يعرف بعروة الرحال لرحلته إلى الملوك ، وكان هو السبب فى حرب الفجار المشهورة .

(٦) كليب بن ربيعة — هو رئيس الحيين من بكر وتغلب ، وقد بلغ من جبروته وبغيه أنه كان يحمى مواقع السحاب فلا يرعى حماه ويقول وحش كذا وكذا فى جوارى فلا تهاج ولا يورد أحد مع إبله ولا توقد نار مع ناره ، ولا يحتبى فى مجلسه ، ولا يتكلم إلا باذنه كما يدلك على ذلك قول أخيه مهلهل فى رثائه :

« نبئت أن النار — بعدك — أوقدت واستبّ — بعدك — يا كليب المجلس

بِأَنْفَتِكَ ، وَمُهَلْهِلاً[1] إِنَّمَا طَلَبَ ثَأْرَهُ بِهِمَّتِكَ ، وَالسَّمَوْءَلَ[2] إِنَّمَا وَفَى عَنْ عَهْدِكَ ، وَالْأَحْنَفَ[3] إِنَّمَا احْتَبَى فِي بُرْدَتِكَ ، وَحَاتِماً[4] إِنَّمَا جَادَ بِوَفْرِكَ ، وَلَقِيَ الْأَضْيَافَ

وتكلموا فى — أمر كل عظيمة — لو كنت حاضر أمرهم لم ينبسوا .»

وقد قتله جساس بن مرّة زوج أخت كليب ، وكان ذلك سبباً فى حرب البسوس .

(١) مهلهل بن ربيعة — هو أخو كليب والآخذ بثأره فى حرب طويلة تفنينا شهرتها عن ذكرها .

(٢) السموءل — هو السموءل بن عاديا ، وهو من يهودى يثرب ، ويضرب به المثل — فى الوفاء — بعد حادثته المشهورة مع امرئ القيس الذى أودع عنده وديعة ومضى ، وحاول الحارث بن ظالم أن يأخذها من السموءل فأبى ، ثم ظفر الحارث بابنه ، فقال للسموءل : إن لم تعطنى وديعة امرئ القيس قتلت ابنك فأبى . فقتل الحارث ابن السموءل وانصرف ، والسموءل هو صاحب اللامية المشهورة التى يقول فى أولها :

«إذا المرء لم يدنس — من اللؤم — عرضه وكل رداء يرتديه جميل
وإن هو لم يحمل — على النفس — ضيمها ، فليس — إلى حسن الثناء — سبيل .»

(٣) الأحنف — هو الأحنف بن قيس ويضرب به المثل فى الحلم .

(٤) حاتم — هو حاتم الطائى وهو أشهر من ضرب به المثل فى الجود .

قالوا : — « وأجواد العرب فى الجاهلية ثلاثة :

« حاتم الطائى ، هرم بن سنان ، كعب بن مامه »

قالوا « وحاتم أشهرهم ذكراً » .

وقد أدرك مولد النبىّ — صلى الله عليه وسلم — ومات قبل بعثه ، ومن مختار شعره قوله : —

« أعادل إن المال غير مخلد وإنى لعبى عارية فتزود
وكم من جواد يفسد اليوم جوده وساوى قد ذكرنه افقر فى غد
وكم لى آباء ، فما كعب حودهم ملام ، ومن أيديهم خلقت يدى .»

وقوله :

« لحا الله صعلوكا مناه وهمه — من العيش — أن يلقى لبوسا ومطعما
ولله صعلوك يساور همه ويمضى — على الاحداث — والهول مقدما
إذا مارأى يوماً مكارم أعرضت تيمم كبراهن ، ثم صمما . »

وقوله :

« أماوى إن المال غاد ورائح ويبقى — من المال — الأحاديث والذكر
أماوى ما يغنى الثراث عن الفتى إذا حشرجت يوما وضاق به الصدر
أماوى إن يصبح صدائى بقفرة — من الأرض — لا ماء لدى ولا حمر
ترى أن ما أهلكت لم يك ضرنى وأن يدى — مما تملت — به صفر
وقد علم الأقوام لو أن حاتما أراد ثراء المال كان له وفر
وأنى لا آلو — بمالى — صنيعة وأرّله زاد وآخره ذخر
غنينا زماناً بالتصعلك والغنى وكلا سقاناه — بكأسيهما — الدهر
فما زادنا بغياً — على ذى قرابة — غنانا ولا أزرى بأحسابنا الفقر .»

بِبِشْرِكَ ، وَزَيْدَ(١) بْنَ مُهَلْهِلٍ إِنَّمَا رَكِبَ بِفَخِذَيْكَ ، وَالسُّلَيْكَ(٢) بْنَ السُّلَكَةِ إِنَّمَا عَدَا عَلَى رِجْلَيْكَ ، وَعَامِرَ بْنَ مَالِكٍ(٣) إِنَّمَا لَاعَبَ الْأَسِنَّةَ بِيَدَيْكَ ، وَقَيْسَ(٤) بْنَ زُهَيْرٍ إِنَّمَا اسْتَعَانَ بِدَهَائِكَ ، وَإِيَاسَ بْنَ مُعَاوِيَةَ(٥) إِنَّمَا اسْتَضَاءَ بِمِصْبَاحِ ذَكَائِكَ ،

---

(١) زيد بن مهلهل ــ أدرك الاسلام ، وكان فارساً مشهوراً ، بعيد الصيت ، وشاعراً نابغاً ، وكان يسمى زيد الخيل لكثرة ماعنده من الخيل ، فلما أسلم سماه النبيّ ــ صلى الله عليه وسلم ــ زيد الخير .

(٢) السليك بن السلكة جاهلي قديم ، وهو أحد صعاليك العرب وأحد لصوصهم العدائين الذين كانوا لايلحقون ، قال ابن الرومي في وصف شهر رمضان :

« يمشي الهوينا ، فأما حين يطلبنا فلاالسليك يدانيه ولاالسلكة . »

(٣) عامر بن مالك ــ المشهور بملاعب الأسنة ، وأمه أم البنين المشهورة التي افتخر بها لبيد عند النعمان في قوله :

« نحن بنى أم البنين الأربعه . »

(٤) قيس بن زهير ــ هو صاحب الحروب المشهورة بين عبس وذبيان بسبب الفرسين (داحس والغبراء) وكان يضرب به المثل في الدهاء ، ويقال : « أدهى من قيس . »

(٥) إياس بن معاوية ــ هو صاحب الفراسة والأجوبة السديدة الرائعة ، وكان قاضي البصرة ، ويضرب به المثل في الذكاء . قال أبو تمام :

« أقدام عمرو في سماحة حاتم في حلم أحنف في دكاء إياس . »

قالوا : وكان سبب ولايته القضاء أن عمر بن عبد العزيز أرسل رجلا من أهل الشام وأمره أن يجمع بين إياس والقاسم بن أبي ربيعة ويولي القضاء أنقدهما ، فجمع بينهما ، فكان كل منهما يمتنع من الولاية ، فقال إياس للشآمي : « سل الحسن البصري عني وعن القاسم ، وسل بن سيرين . » فعلم القاسم أنه إن سأل عنهما أشارا به ، فقال للشآمي : « لا تسأل عنه ، فوالله الذي لا إله إلا هو إن إياساً لأفضل مني وأعلم بالقضاء ، فان كنت ممن يصدق ، فينبغي لك أن تصدق قولي ، وإن كنت كاذباً فما يحل لك أن تولي القضاء وأنا كذاب » ، فقال إياس للشآمي : « إنك جئت برجل فأقمته على شفير جهنم فافتدى نفسه من النار بيمين كاذبة يستغفر الله منها وينجو من النار » فقال الشآمي : « أما إذ فطنت لها فاني أريدك » فاستقضاه ، فلم يزل على القضاء مدة ثم هرب . قالوا : « ولما ولي القضاء دخل عليه الحسن البصري فبكى إياس وقال له : « بلغني أن القضاة ثلاثة : رجل مال به الهوى فهو في النار ، ورجل اجتهد فأخطأ فهو في النار ، ورجل اجتهد فأصاب فهو في الجنة » فقال الحسن « إنّ فيما قضى الله تعالى في النبي داود مايرد قول مولاي . » ثم قرأ قوله تعالى « ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكماً وعلماً » فحمد سليمان ولم يذم داود ، وأخباره كثيرة مشهورة في كتب الأدب ، فلا حاجة بنا إلى الافاضة .

وَسَحْبَانَ(١) إِنَّمَا تَكَلَّمَ بِلِسَانِكَ ، وَعَمْرَو(٢) بْنَ الْأَهْتَمِ إِنَّمَا سَحَرَ بِبَيَانِكَ ، وَأَنَّ الصُّلْحَ بَيْنَ بَكْرٍ وَتَغْلِبَ تَمَّ بِرِسَالَتِكَ(٣) ، وَالْحِمَالَاتِ بَيْنَ عَبْسٍ وَذُبْيَانَ أُسْنِدَتْ إِلَى كَفَالَتِكَ ، وَأَنَّ اخْتِيَالَ هَرِمٍ لِعَلْقَمَةَ وَعَامِرٍ حَتَّى رَضِيَا كَانَ ذَلِكَ عَنْ

---

(١) سحبان وائل — يضرب به المثل فى الفصاحة والبيان والقدرة على الخطابة ، أدرك الاسلام ومات سنة أربع وخمسين . قال الأصمعى « وكان إذا خطب يسيل عرقاً ، ولا يعيد كلمة ، ولا يتوقف ، ولا يقعد حتى يفرغ » قالوا : « وقدم على معاوية وفد من خراسان فيهم — سعيد بن عثمان — فطلب سحبان فلم يوجد فى منزله فاقتصب — من ناحيته — اقتضاباً وأدخل عليه فقال : « تكلم » فقال : « انظروا لى عصا تقوّم من أودى . » قالوا : « وما تصنع بها وأنت بحضرة أمير المؤمنين . » قال : « ما كان يصنع بها موسى وهو يخاطب ربه وعصاه فى يده . » فضحك معاوية وقال : « هاتوا عصا فجاءوا بها إليه فركلها برجله ولم يرضها . » وقال : « هاتوا عصاى » فأتوا بها فأخذها ، ثم قام وتكلم منذ صلاة الظهر إلى أن قامت صلاة العصر ما تنحنح ، ولاسعل ، ولانوقف ، ولا ابتدأ فى معنى تخرج منه وقد بقى عليه منه شىء ، فما زالت تلك حاله حتى أشار معاوية بيده ، فأشار إليه سحبان : ألا تقطع على كلامى ، فقال معاوية « الصلاة » قال : « هى أمامك ، ونحن فى صلاة وتحميد ، ووعد ووعيد » ، فقال معاوية : «أنت أخطب العرب . » فقال سحبان : « والعجم والجنّ والانس »

(٢) عمرو بن الأهتم — من سادات بنى تميم وخطبائهم فى الجاهلية والاسلام ، وكان — لجماله — يدعونه : «المكحل» قالوا : « ووفد على النبىّ — صلى الله عليه وسلم — هو والزبرقان بن بدر فأسلما وأكرمهما النبىّ — صلى الله عليه وسلم — » فسأل النبىّ — صلى الله عليه وسلم عمرو بن الأهتم عن الزبرقان بن بدر بحضوره فقال عمرو : « مطاع فى أدنيه ، شديد العارضة فى قومه ، مانع لما وراء ظهره » .

فقال الزبرقان: « يارسول الله إنه ليعلم منى أكثر مماقال ، ولكنه حسدنى . » فقال عمرو : «أما والله لئن علمت ماقد علمت ، إنه لزمن المروءة ، أحمق الأب ، لئيم الخال ، ضيق العطن ، حديث الغنى . » فرأى تغير النبىّ — صلى الله عليه وسلم — لما اختلف قوله ، فقال : « يارسول الله لاتغضب ، لما رضيت قلت أحسن ما علمت ، ولما غضبت قلت أقبح ما علمت ، فوالله ما كذبت فى الأولى ، ولقد صدقت فى الثانية . » فقال النبىّ — صلى الله عليه وسلم — : « إنّ من البيان لسحرا . » وتوفى سنة ٥٧ هـ — ومن مأثور حكمه قوله :

« أشجع الناس من رد جهله بحلمه . » وقوله « أفّ للخمر لو كان شىء يشترى ما كان شىء أنفس من العقل ، فالعجب لمن يشترى الحمق بماله فيدخله فى رأسه فيقيء فى جيبه ويسلح فى ذيله . » وكان ممن حرّم الخمر — على نفسه — فى الجاهلية .

(٣) بكر وتغلب ابنا وائل — هم الذين أشعلوا حرب البسوس ، وقد دامت سنين طويلة قتل فيها عظماء الحيين وأخبارها مشهورة .

إِشَارَتِكَ، وَجَوَابُهُ لِعُمَرَ - وَقَدْ سَأَلَهُ عَنْ أَيِّهِمَا كَانَ يَنْفِرُ - وَقَعَ عَنْ إِرَادَتِكَ[١]، وَأَنَّ الْحَجَّاجَ[٢] تَقَلَّدَ وِلَايَةَ الْعِرَاقِ بِجَدِّكَ، وَقُتَيْبَةَ[٣] فَتَحَ مَا وَرَاءَ النَّهْرِ بِسَعْدِكَ، وَالْمُهَلَّبَ[٤] أَوْهَنَ شَوْكَةَ الْأَزَارِقَةِ بِيَدِكَ، وَفَرَّقَ ذَاتَ بَيْنِهِمْ بِكَيْدِكَ، وَأَنَّ هُرْمُسَ[٥] أَعْطَى بَلِينُوسَ[٦] مَا أَخَذَ مِنْكَ، وَأَفْلَاطُونَ[٧] أَوْرَدَ عَلَى إِرِسْطَاطَالِيسَ[٨] مَا نَقَلَ عَنْكَ، وَبَطْلَيْمُوسَ[٩] سَوَّى الْإِصْطِرْلَابَ بِتَدْبِيرِكَ، وَصَوَّرَ الْكُرَةَ عَلَى تَقْدِيرِكَ،

---

(١) يشير بذلك إلى عمر بن الخطاب حين قال لهرم بن قطبة بعد أن أسلم: « أيهما كان الأفضل عندك يعني عامراً وعلقمة » فقال: « لو قلت الآن فيهما كلمة لعادت الحرب بين الحيين . » فأعجب بذلك القول عمر وسرّ من سياسته وبعد نظره وقال له: « بحق حكمتك العرب »

(٢) الحجاج — هو الحجاج بن يوسف الثقفي ولد سنة ٤١ ونشأ بالطائف، وولي الكوفة، واشتهر بسفك الدماء، وهو الذي حاصر مكة وفيها عبد الله بن الزبير وضربها بالمنجنيق (انظر ص ١٦ من كتاب مصارع الأعيان) وحروبه مع شبيب، وعبد الرحمن بن الأشعث مشهورة، وقد ذكرناها في مصارع الأعيان من «ص٥٧ إلى ص١١٥» فليرجع إليها من شاء، وكان يعجب بسرعة الجواب، وله نوادر كثيرة في ذلك، قالوا: إنه قال ذات يوم لأحمد بن يونس « فكرت في أمرك فوجدت دمك وما لك حلالا » فقال: « أيها الأمير أشدّ ما في القضية أن هذا الرأي بعد الفكر » فضحك وعفا عنه، وقالوا إنه أتى بقوم من أصحاب بن الأشعث فأمر بضرب أعناقهم، فقام رجل فقال: « أيها الأمير إن لي عندك يدا » فقال « وما هي؟ » قال « شتمك رجل بحضرة ابن الأشعث فرددت عنك » فقال: « من يشهد لك؟ » فأشار: «هذا» وأشار بيده إلى رجل منهم، فقال: « صدق أيها الأمير» فقال « ما منعك أن تفعل كما فعل؟» قال « بغضي لك » ، فقال الحجاج « أطلقوا هذا ليده عندنا، وهذا لصدقه في مثل هذا الوقت » قال مالك ابن دينار: « والله لربما رأيت الحجاج يتكلم على المنبر ويذكر حسن صنعه إلى العراق وسوء صنعهم له حتى يخيل إلى أنه مظلوم » وقال الحسن البصري « لقد وقذتني كلمة سمعتها من الحجاج « إن امرءا ذهبت ساعة من عمره في غير ما خلق له لجدير أن تطول حسرته . »

(٣) قتيبة — هو قتيبة بن مسلم الباهلي نشأ في المروانية وولي الأمارة، وكان شجاعاً بطلاً .

(٤) المهلب — هو المهلب بن أبي صفرة وهو الذي يعزى إليه الفضل في القضاء على الخوارج (انظر ص ٩٢ : ٩٧ من كتاب مصارع الأعيان)

(٥) هرمس — هو الذي يزعم نفر من الصابئة أنه نبيّ مرسل وأنه إدريس عليه السلام ويسندون إليه شرائعهم في تعظيم الكواكب السبعة والبروج الاثني عشر والتقرّب إليها بالذبائح وغيرها .

(٦) بلينوس — هو الذي تزعم الصابئة أن رسالة هرمس انتقلت من بعده إليه .

(٧، ٨) أفلاطون وإرسطاطاليس — علمان من أعلام فلاسفة اليونان وقادة الفكر الممتازين .

(٩) بطليموس — هو صاحب كتاب المجسطي، والجغرافيا، والاسطرلاب وغير ذلك، وهو أوّل من تعرض للفلك والهندسة .

وَ بِقْرَاطَ [١] عَلِمَ الْعِلَلَ وَالْأَمْرَاضَ بِلُطْفِ حِسِّكَ ، وَجَالِينُوسَ [٢] عَرَفَ طَبَائِعَ الْحَشَائِشِ بِدِقَّةِ حَدْسِكَ ، وَكِلَاهُمَا قَلَّدَكَ فِى الْعِلَاجِ ، وَسَأَلَكَ عَنِ الْمِزَاجِ ، وَاسْتَوْصَفَكَ تَرْكِيبَ الْأَعْضَاءِ ، وَاسْتَشَارَكَ فِى الدَّاءِ وَالدَّوَاءِ ، وَأَنَّكَ نَهَجْتَ لِأَبِى مَعْشَرٍ [٣] طَرِيقَ الْقَضَاءِ ، وَأَظْهَرْتَ جَابِرَ بْنَ حَيَّانَ [٤] عَلَى سِرِّ الْكِيمِيَاءِ ، وَأَعْطَيْتَ النَّظَّامَ [٥] أَصْلًا أَدْرَكَ بِهِ الْحَقَائِقَ ، وَجَعَلْتَ لِلْكِنْدِىِّ [٦] رَسْمًا اسْتَخْرَجَ

---

(١) بقراط — علم من أعلام الطب واليونان .

(٢) جالينوس — من العلماء الممتازين الذين كان لهم الفضل فى ترقية فن الطبّ ، وقد عرف خواص الحشائش ، وقاس أمزجتها وطبائعها ، وشرّح الأعضاء ، ووضع الكتب النفيسة فى الطب .

(٣) أبو معشر : كان فى أول أمره من أصحاب الحديث ببغداد ، وكان يشنع على الكندى الفيلسوف المعروف ويغرى العامة به — قالوا « درس له الكندى من حسن له النظر فى علم الحساب والهندسة فأحبهما ثم عدل إلى أحكام النجوم فتفنن ومهر وانقطع بذلك شرّه عن الكندى لأنه من جنس علومه .

(٤) جابر بن حيان — من أعلام العلماء العرب فى الكيمياء .

(٥) النظام — إمام من أئمة المعتزلة ، وكان آية فى الذكاء من صغره . قالوا : إنه جاء إلى الخليل بن أحمد ليعلمه ، فقال له الخليل يمتحنه وفى يده قدح زجاج : « يابنى صف لى هذه الزجاجة » فقال : « أبمدح أم بذمّ » قال « بمدح » قال « تريك القذى ، ولا تقبل الأذى ، ولا تستر ما وراءها » قال « فذمها » قال « يسرع إليها الكسر ، ولا تقبل الجبر » قال « فصف لى هذه النخلة » وأومأ إلى نخلة فى داره . قال « بمدح أم ذمّ ؟ » قال « بمدح » قال « حلو جناها ، باسق منتهاها ، ناضر أعلاها » قال « فذمها » قال « صعبة المرتقى ، بعيدة المجتنى ، محفوفة بالأذى » فقال الخليل « يابنى نحن إلى التعلم منك أحوج » ثم اشتمل على أبى الهذيل العلاف بمذهب الكلام إلى أن برع وظهر فى أيام المعتصم وتبعه خلق كثير — وحكى عنه قال « مات لصالح بن عبد القدوس ولد ، فعمى إليه أبو الهذيل والنظام معه وهو غلام حدث كالتبع له مرآه محترفاً ، فقال أبو الهذيل « لاأعرف لجزعك وجهاً إذا كان الناس عندك كالزرع » فقال صالح « ياأبا الهذيل إنما أجزع عليه لأنه لم يقرأ كتاب الشكوك » فقال أبو الهذيل « وما كتاب الشكوك ؟ » قال « كتاب وضعته من قرأه شكّ فيما كان حتى يتوهم أنه لم يكن ، وفيما لم يكن حتى يظن أنه قد كان » فقال له النظام « فشك أنت فى موت ابنك ، واعمل على أنه لم يمت وإن مات ، وشك أيضاً فى أنه قد قرأ هذا الكتاب وإن لم يكن قرأه » فحصر صالح وكان مذهبه مذهب السوفسطائية فانهم يزعمون أن الأشياء لاحقيقة لها ، وإن مانستبعده يجوز أن يكون على مانشاهده ، ويجوز أن يكون على غير ماتشاهده ، وأن حال اليقظان كحال النائم ، وتوفى سنة ٢٢١ هـ وسنه ست وثلاثون سنه .

(٦) الكندى — يعقوب الكندى من كبار فلاسفة الاسلام — انتقل إلى بغداد واشتغل بفنّ الأدب ، ثم بعلوم الفلسفة — وحل مشكلات الأوائل وله مؤلفات رائعة — وهو مشهور بالبذل ، وكان يقول : من شرف البذل أنك تقول للسائل « لا » ورأسك مرفوع إلى فوق ، ومن ذل العطاء أنك تقول « نعم »

بِهِ الدقائِقَ ، وَأَنَّ صِنَاعَةَ الْأَلْحَانِ اخْتِرَاعُكَ ، وَتَأْلِيفَ الْأَوْتَارِ وَالْأَنْقَارِ تَوْلِيدُكَ وَابْتِدَاعُكَ ، وَأَنَّ عَبْدَ الْحَمِيدِ بْنَ يَحْيَى[1] بَارِي أَقْلَامِكَ ، وَسَهْلَ[2] بْنَ هَارُونَ مُدَوِّنُ كَلَامِكَ ، وَعَمْرَو بْنَ بَحْرٍ[3] مُسْتَمْلِيكَ ، وَمَالِكَ بْنَ أَنَسٍ[4] مُسْتَفْتِيكَ ، وَأَنَّكَ الَّذِي أَقَامَ الْبَرَاهِينَ ، وَوَضَعَ الْقَوَانِينَ ، وَحَدَّ الْمَاهِيَّةَ ، وَبَيَّنَ الْكَيْفِيَّةَ وَالْكَمِّيَّةَ[5] ،

وأنت مشير برأسك إلى أسفل ، ومؤلفاته كثيرة منها (أقسام العقل الانسى) وكتاب (الجوامع الفكرية) وكتاب (الفلسفة الأولى) وغيرها .

(١) عبد الحميد بن يحيى — هو عبد الحميد بن سعيد الكاتب المشهور ، وكان يقال « بدأت الكتابة بعبد الحميد ، وختمت بابن العميد ، وكان فى أول نشأته معلم صبيان بالكوفة ، فلما اتصل بمروان الجعدى قبل أن يصل إلى الخلافة صحبه وانقطع إليه فلما جاء الأمر بالخلافة سجد مروان وأصحابه إلا عبدالحميد ، فقال له مروان « لم لم تسجد ؟ » فقال « ولم أسجد على أن كنت معنا فطرت عنا يعنى بالخلافة » فقال « إذن تطير معى » قال « الآن طاب السجود » وسجد وطال كاتب مروان طول خلافته .

(٢) سهل بن هارون — من أهل نيسابور — رحل إلى البصرة فنسب اليها وكان شعوبيا ، واشتهر بالبخل . قال الجاحظ : لقى رجل سهل بن هارون فقال : « هب لى ما لا ضرر به عليك » فقال : « وما هو يا أخى ؟ » فقال : « درهم » قال : « لقد هوّنت الدرهم وهو طائع الله فى أرضه لا يعصى ، وهو عشر العشرة ، والعشرة عشر المائة ، والمائة عشر الألف ، والألف عشر دية المسلم ، ألا ترى إلى أين انتهى الدرهم الذى وهنته ، وهل يبوت الأموال إلا درهم على درهم » قال : « فانصرف الرجل ولولا انصرافه لم يسكت » وحكى دعبل الخزاعى قال : « أقمنا يوما عند سهل بن هارون وأطلنا الحديث حتى أضر بنا الجوع فدعا بغدائه فأتى بصحفة فيها صرق تخبره ديك هرم فأحصيت كسرة وتفقدت ما فى الصحفة فلم يجد رأس الديك فبقى مطرقا ثم قال للغلام : « أين الرأس ؟ » قال : « رميت به » قال : « ولم ؟ » قال : « لم أطلك تأكل » قال : « ولم ظننت ذلك ؟ فوالله إلى لأمقت من يرمى برجل ، فكيف برأسه؟ والرأس رئيس يتقابل به ، وفيه الحواس الخمسة ، ومنه يصيح الديك ، ولولا صوته ما أريد ، وفيه مرقه الذى يتبرك به ، وعينه التى يضرب بها المثل ، ودماغه عجيب لوجع الكلية ، ولم أر عظما قط أهش من رأسه فان كان بلغ من خلقك أن لا تأكل بعدنا من يأكل ، أما علمت أنه خير من طرف الجناح والساق ، انظر أين رميته فقال : « والله ما أدرى » قال : « لكنى أدرى أنك رميته فى بطنك » .

(٣) عمرو بن بحر — هو الكاتب المشهور ويكنى بأبى عثمان ويعرف بالجاحظ وهو ممن يفخر به البيان العربى حتى قيل : « مما فضل الله به أمة محمد — صلى الله عليه وسلم — على غيرها من الأمم : عمر بن الخطاب فى سياسته ، والحسن البصرى فى علمه ، والجاحظ فى بيانه » — نشأ ببغداد وتتلمذ على النظام وانفرد بحسن البيان والفصاحة ، وأخباره مشهورة فى كتب الأدب فلا داعى للاطالة فيها —

(٤) مالك بن أنس — هو صاحب المذهب المشهور .

(٥) الماهية — ماهية الشىء ما يحصل فى الذهن من صورة كلية مطابقة له بعد حذف المشخصات عنه إن كان جزئياً . قالوا : وهى أحد حدود العلم عند الحكماء فان العلم ينقسم إلى ثلاثة أقسام . علم (ما) وعلم

وَنَاظَرَ فِي الْجَوْهَرِ وَالْعَرَضِ (١)، وَمَيَّزَ الصِّحَّةَ مِنَ الْمَرَضِ، وَفَكَّ الْمُعَمَّى (٢)، وَفَصَلَ بَيْنَ الِاسْمِ وَالْمُسَمَّى، وَصَرَفَ وَقَسَّمَ، وَعَدَّلَ وَقَوَّمَ، وَصَنَّفَ الْأَسْمَاءَ وَالْأَفْعَالَ، وَبَوَّبَ الظَّرْفَ وَالْحَالَ، وَبَنَى وَأَعْرَبَ، وَنَفَى وَتَعَجَّبَ، وَوَصَلَ وَقَطَعَ، وَثَنَّى وَجَمَعَ، وَأَظْهَرَ وَأَضْمَرَ، وَاسْتَفْهَمَ وَأَخْبَرَ، وَأَهْمَلَ وَقَيَّدَ، وَأَرْسَلَ وَأَسْنَدَ، وَبَحَثَ وَنَظَرَ، وَتَصَفَّحَ الْأَدْيَانَ، وَرَجَّحَ بَيْنَ مَذْهَبَيْ مَانِي وَغَيْلَانَ (٣)، وَأَشَارَ بِذَبْحِ الْجَعْدِ (٤)، وَقَتْلِ بَشَّارِ بْنِ بُرْدٍ، وَأَنَّكَ لَوْ شِئْتَ خَرَقْتَ الْعَادَاتِ، وَخَالَفْتَ الْمَعْهُودَاتِ، فَأَحَلْتَ الْبِحَارَ عَذْبَةً، وَأَعَدْتَ السِّلَامَ رَطْبَةً (٥)، وَنَقَلْتَ غَدًا فَصَارَ

(كيف) وعلم (كم). فالعلم الذى يطلب منه ماهيات الأشياء هو العلم الالهى، والذى يطلب منه كيفيات الاشياء هو الطبيعى، والذى يطلب منه كميات الأشياء هو الرياضى.

(١) الجوهر والعرض: الجوهر — فيما يقولون — هو الجسم، كالانسان والفرس والحجر ونحو ذلك. والعرض الحال والوصف المتعاقب عليه كالألوان من بياض، وسواد وحمرة، والحركات المختلفة من قيام وقعود واضطجاع، وجميع ماعدا الجوهر فاسم العرض واقع عليه.

(٢) وفك المعمى — وهو اللغز، ارجع إلى «ص ٢٨٤»

وكان الجاحظ يقول «ليس المعمى شيء قد كان كبسان مستملى أبى عبيدة يسمع خلاف ما يقال، ويكتب خلاف ما يسمع، ويقرأ خلاف ما يكتب، وكان أعلم الناس باستخراج المعمى — قالوا: «وكان النظام — على قدرته على أصناف العلوم — لايقدر على استخراج أخف ما يكون من المعمى.

(٣) مانى وغيلان — مانى هو الذى تنسب إليه المانوية وهو ثنوى — نسبة إلى الاثنين — لزعمه أن صانع العالم اثنان، أحدهما فاعل الخير وهو النور، والآخر فاعل الشر وهو الظلمة، وهما قديمان لم يزالا ولن يزالا حساسين سميعين بصيرين وهما مختلفان فى النفس والصورة، متضادان فى الفعل والتدبير، فجوهر النور فاضل حسن بهر ونفسه خيرة قديمة نفاعة. منها الخير والسرور والصلاح وليس منها من الشرّ شيء، وجوهر الظلمة على ضد ذلك جميعه، وقد أشار المتنبي إلى هذا المذهب بقوله:

«وكم لظلام الليل عندك من يد تخبر أن المانوية تكذب.»

وكان مانى راهباً بنحران. فالوا: «وكان مؤمنا بالمسيح معظما من أساقفة النصارى، ثم وشى به حاسدوه فأحدث ديناً ودعا إليه وتبعه كثير من المجوس.

وغيلان هو ابن يونس القدرى الدمشقى. قالوا كان أبوه مولى لعثمان بن عفان، وكان غيلان أول من تكلم فى القدر، وخلق القرآن فى الاسلام فى رأى بعض المؤرّخين.

(٤) الجعد — هو مولى بنى الحكم وكان يعلم مروان بن محمد الجعدى ويقطن دمشق وينسب اليه بعض المؤرخين أنه أول من تكلم بخلق القرآن.

(٥) السلام: الحجارة الصلبة.

أَمْسًا ، وَزِدْتَ فِى الْعَنَاصِرِ فَكَانَتْ خَمْسًا [١] ، وَأَنَّكَ الْمَقُولُ فِيهِ :

« كُلُّ الصَّيْدِ [٢] فِى جَوْفِ الْفَرَا . » وَ

« لَيْسَ عَلَى اللهِ بِمُسْتَنْكَرٍ أَنْ يَجْمَعَ الْعَالَمَ فِى وَاحِدِ [٣] . »

وَالْمَعْنِىُّ بِقَوْلِ أَبِى تَمَّام :

« فَلَوْ صَوَّرْتَ نَفْسَكَ لَمْ تَزِدْهَا — عَلَى مَافِيكَ — مِنْ كَرَمِ الطِّبَاعِ . »

وَالْمُرَادُ بِقَوْلِ أَبِى الطَّيِّبِ :

« ذُكِرَ الْأَنَامُ لَنَا فَكَانَ قَصِيدَةً كُنْتَ الْبَدِيعَ الْفَرْدَ مِنْ أَبْيَاتِهَا . »

فَكَدَمْتَ فِى غَيْرِ مَكْدَمٍ [٤] ، وَاسْتَسْمَنْتَ ذَا وَرَمٍ [٥] ، وَنَفَخْتَ فِى غَيْرِ ضَرَمٍ [٦] ، وَلَمْ تَجِدْ لِرِيحٍ مَهَزًّا ، وَلَا اِشْفَرَةٍ مَحَزًّا ، بَلْ رَضِيتَ مِنَ الْغَنِيمَةِ بِالْإِيَابِ ،

---

(١) العناصر : هى فى رأى القدماء أربعة : النار ، والهواء ، والماء ، والتراب .

(٢) كل الصيد فى جوف الفرا — مثل يضرب فى وصف الشىء المربى على غيره قالوا : « وأصله أن قوماً خرجوا للصيد فصاد أحدهم ظبياً وآخر أرنباً وآخر فرا ، وهو الحمار الوحشى ، فقال لأصحابه : كل الصيد فى جوف الفرا — يعنى أن جميع صيدكم يسير فى جنب ما صدته ، ورعم بعضهم أن الفرا اسم واد كثير الصيد وهو قول مردود ، وأما قول الشاعر : « وواد كجوف العير قفر قطعته »

فليس من هذا وإنما أراد الوادى المعروف بجوف حمار ، وحمار اسم رجل قديم كان فى واد خصيب فظلم عشيرته ، وأرسل الله عليه ناراً فأحرقته وأحرقت الوادى فخلا وسكنته الجن فقيل : أحلى من جوف حمار ، وحجب يوماً أبو سفيان بن حرب عن النبى — صلى الله عليه وسلم — ثم أذن له فقال : « يا رسول الله ما كدت تأذن لى حتى تأذن لحمارة الجماتين » فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « يا أبا سفيان كل الصيد فى جوف الفرا » . (٣) هذا البيت من قصيدة لأبى نواس فى مدح الفضل بن يحيى .

(٤) كدمت فى غير مكدم — عضضت فى غير موضع للعض ، وهذا المثل يضرب لمن يطلب مايعجز عنه .

(٥) فى هذا إشارة إلى قول الشاعر :

« ولو ناراً نفخت بها أضاءت ولكن أنت تنفخ فى رماد
لقد أسمعت — لو ناديت حيا — ولكن لا حياة لمن تنادى . »

(٦) يشير إلى قول المتنبى لسيف الدولة معرضاً بأبى فراس :

« أعيذها نظرات منك صادقة أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم . »

وَتَمَنَّيْتَ الرُّجُوعَ بِخُفَّيْ حُنَيْنٍ[١] ، لِأَنِّي قُلْتُ :

« لَقَدْ هَانَ[٢] مَنْ بَالَتْ عَلَيْهِ الثَّعَالِبُ . » وَأَنْشَدْتُ :

« عَلَى أَنَّهَا الْأَيَّامُ قَدْ صِرْنَ كُلُّهَا عَجَائِبَ، حَتَّى لَيْسَ فِيهَا عَجَائِبُ[٣] »

وَنَخَرْتُ[٤] وَبَسَرْتُ[٥] ، وَعَبَسْتُ فَكَفَرْتُ ، وَأَبْدَأْتُ وَأَعَدْتُ ، وَأَبْرَقْتُ وَأَرْعَدْتُ[٦] وَهَمَمْتُ وَلَمْ أَفْعَلْ وَكِدْتُ وَلَيْتَنِي ، وَلَوْلَا أَنَّ لِلْجِوَارِ ذِمَّةً ، وَلِلضِّيَافَةِ حُرْمَةً ، لَكَانَ الْجَوَابُ فِي قَذَالِ[٧] الدُّمُسْتُقِ ، وَالنَّعْلُ[٨]

---

(١) خفى حنين — مثل يضرب لمن يرجع بالخيبة — وكان حنين وبما يقولون إسكافا من أهل الحيرة ساومه أعرابى بخفين ولم يشد منه شيئاً فعاظه ذلك فخرج عليه وعلق أحد الخفين على شجرة فى طريقه وتقدم قليلا وطرح الآخر وكمن ، فجاء الأعرابى فرأى أحد الخفين فوق الشجرة ، فقال « ما أشبه هـذا بخف حنين لو كان معه آخر لتكلفت أخذه » ثم تقدم قليلا فرأى الخف الآخر مطروحا فنزل وعقل بعيره فأخذه ورجع ليأخذ الأول فخرج حنين من المكمن وأخذ بعيره وذهب ورجع الأعرابى إلى أخيه بخفى حنين .

(٢) لقد هان من بالت عليه الثعالب — شطر بيت هو :

« أرب يبول الثعلبان برأسـه لقد هان من بالت عليه الثعالب . »

قاله رجل من بنى سليم كان يعبد صنماً ، فرأى ذات يوم ثعلباً يبول على الصنم فكسره وأنشد هذا البيت وذهب إلى النبىّ — صلى الله عليه وسلم — فأسلم .

(٣) البيت لأبى تمام من قصيدة رثاء ، منها قوله :

وقلت : «أخى» قالوا «أخ ذو قرابة»؟ فقلت لهم : «إن الشكول أقارب»
صديقى فى رأيى وعزمى ومذهبى وإن باعدتنا فى الأصول المناسب
عجبت لصبرى بعده — وهو ميت — وكنت امرءاً أبكى دماً وهو غائب
على أنها الأيام قد صرن كلها عجائب حتى ليس فيها عجائب . »

(٤) نخرت — النخير صوت الأنف عند العضب .

(٥) والبسر — الاستعجال بالشىء قبل أوانه . وهو فى قوله تعالى : « عبس وبسر » معناه أظهر العبوس قبل أوانه . (٦) الابراق والارعاد — كناية عن الوعيد وأصلها من البرق والرعد. قال الشاعر:

«فقل للسماء : ارعدى وابرقى فانا وصلنا إلى المنزل . »

(٧) أى لفعلت بهذه المرأة التى أرسلتها رسولا من قبلك — لولا حرمة الضيافة — فعل سيف الدولة بالدمستق ، وهو لقب يطلق على كل قائد من قواد جيش الروم ، وقد هزمه سيف الدولة وأشار المتنبى إلى ذلك بقوله :

« وكنت إذا كاتبته قبل هذه كتبت إليه فى قذال الدمستق . »

(٨) مثل تضربه العرب وقد ضمنه أحد الشعراء قوله :

« إن عادت العقرب عدنا لها وكانت النعل لها حاضرة . »

حَاضِرَةٌ إِنْ عَادَتِ الْعَقْرَبُ ، وَالْعُقُوبَةُ مُمْكِنَةٌ إِنْ أَصَرَّ الْمُذْنِبُ ، وَهَبْهَا لَمْ تُلَاحِظْكَ بِعَيْنٍ كَلِيلَةٍ عَنْ عُيُوبِكَ ، مِلْؤُهَا حَبِيبُهَا (١) ، حَسَنٌ فِيهَا (٢) مَنْ تَوَدُّ وَكَانَتْ إِنَّمَا حَلَّتْكَ بِحُلَاكَ ، وَوَسَمَتْكَ بِسِمَاكَ ، وَلَمْ تُعِرْكَ شَهَادَةً ، وَلَا تَكَلَّفَتْ لَكَ زِيَادَةً ، بَلْ صَدَقَتْ سِنَّ بِكْرِهَا فِيمَا ذَكَرَتْهُ عَنْكَ ، وَوَضَعَتِ الْهَنَاءَ مَوَاضِعَ النُّقَبِ (٣) بِمَا نَسَبَتْهُ إِلَيْكَ ، وَلَمْ تَكُنْ كَاذِبَةً فِيمَا أَثْنَتْ بِهِ عَلَيْكَ ، فَالْمُعَيْدِيُّ (٤) تَسْمَعُ بِهِ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَرَاهُ :

هَجِينُ الْقَذَالِ (٥) ، أَرْعَنُ (٦) السِّبَالِ ، طَوِيلُ الْعُنُقِ وَالْعِلَاوَةِ (٧) ، مُفْرِطُ الْحُمْقِ وَالْغَبَاوَةِ ، جَافِي الطَّبْعِ ، سَيِّئُ الْجَابَةِ وَالسَّمْعِ ، بَغِيضُ الْهَيْئَةِ ، سَخِيفُ الذَّهَابِ وَالْجَيْئَةِ ، ظَاهِرُ الْوَسْوَاسِ ، مُمْتَنُ الْأَنْفَاسِ ، كَثِيرُ الْمَعَايِبِ ، مَشْهُورُ الْمَثَالِبِ :

---

(١) إشارة إلى قول الخنساء :

« أحامك إجلالا ، ومابك قدرة علىّ ، ولكن ملء عين حبيبها . »

(٢) فى هذا إشارة إلى قول عمر بن أبى ربيعة :

ولقد قال لجارات لها وتعرت ـ ذات يوم ـ تبرد
أكما يعنى تبصرنى ـ عمرك الله ـ أم لم يقتصد؟
فتصاحكن وقد قلن لها : « حسن فى كل عين من تود . »

(٣) الهناء : القطران ، والنقب : الجرب ، وهذا المثل يضرب لمن يضع الأمور فى مواضعها ، وهو نصف بيت للوليد بن عقبة فى الحمساء وهو :

« متبدلا تبغو محاسنه يضع الهناء مواضع النقب . »

(٤) مثل يضرب لمن يكون شهره خيراً من منظره . قاله النعمان لشقة بن ضمرة ، وكان يعجبه مايسمع عنه ، فلما رآه استزرى منظره ، فقال النعمان : لأن تسمع بالمعيدى خير من أن تراه .

فقال له : « أبيت اللعن إن الرجال ليسوا بخبر ، وإنما يعيش المرء بأصغريه قلبه ولسانه . »

(٥) القذال ـ جماع مؤخر الرأس ، وهجين القذال : أى خسيس الأصل . قالوا : « لأن الذى يعرف لؤم نسبه إذا ولى طأطأ رأسه حياء وذلا ، فكأن اللؤم يتبين من قذاله » وقيل « بل لكثرة انهزامه فى الحروب . »

(٦) أرعن : أحمق ، والسبال : جمع سبلة وهى شعرة الشفة العليا وخصت الرعونة بها لأنها علامة الرجل .

(٧) العلاوة ـ الرأس مادام على العنق ، وفى الفراسة أن طول العنق والرأس من دلائل الحماقة .

كَلَامُكَ تَمْتَمَةٌ ، وَحَدِيثُكَ غَمْغَمَةٌ ، وَبَيَانُكَ فَهْفَهَةٌ ، وَضَحِكُكَ قَهْقَهَةٌ (١) ، وَمَشْيُكَ هَرْوَلَةٌ ، وَغِنَاكَ مَسْأَلَةٌ ، وَدِينُكَ زَنْدَقَةٌ ، وَعِلْمُكَ مَخْرَقَةٌ (٢) :

«مَسَاوٍ - لَوْ قُسِمْنَ عَلَى الْغَوَانِي - لَمَا أَبْهَرْنَ إِلَّا بِالطَّلَاقِ (٣) »

حَتَّى إِنَّ بَاقِلاً (٤) مَوْصُوفٌ بِالْبَلَاغَةِ إِذَا قُرِنَ بِكَ ، وَهَبَنَّقَةَ (٥) مُسْتَوْجِبٌ لِاسْمِ الْعَقْلِ إِذَا أُضِيفَ إِلَيْكَ ، وَطُوَيْسًا (٦) مَأْثُورٌ عَنْهُ يُمْنُ الطَّائِرِ إِذَا قِيسَ عَلَيْكَ ، فَوُجُودُكَ عَدَمٌ ، وَالِاغْتِبَاطُ بِكَ نَدَمٌ ، وَالْخَيْبَةُ مِنْكَ ظَفَرٌ ، وَالْجَنَّةُ مَعَكَ سَقَرٌ ، كَيْفَ رَأَيْتَ لُؤْمَكَ لِكَرَمِي كِفَاءً ، وَضَعَتَكَ لِشَرَفِي وَفَاءً ، وَأَنَّى جَهِلْتَ أَنَّ الْأَشْيَاءَ إِنَّمَا تَنْجَذِبُ إِلَى أَشْكَالِهَا ، وَالطَّيْرَ إِنَّمَا تَقَعُ عَلَى أُلَّافِهَا ، وَهَلَّا عَلِمْتَ أَنَّ الشَّرْقَ وَالْغَرْبَ لَا يَجْتَمِعَانِ ، وَشَعَرْتَ أَنَّ الْمُؤْمِنَ وَالْكَافِرَ

---

(١) قال الخليل — التمتمة : التردد فى الباء ، والفأفأة : التردد فى الفاء ، والعقلة : الواء اللسان عند إرادة الكلام ، والحبسة تعذر الكلام ، واللفف : إدخال حرف فى حرف ، والرتة تمتع الكلام ، فاذا جاء منه بشىء اتصل ، وقبل العجمة فيه ، واللثغة أن يعدل من حرف إلى حرف ، واللغة أن يشرب الحرف صوت الحيشوم والخنة أشد منها ، واللكنة أن يعترض الكلام حرف أعجمى ، والطمطمة أن يكون الكلام شبيها بالعجمى .

وأما الغمغمة فهى أن يسمع الصوت ولا يبين تقطيع الحروف — الفهفهة : العى فى المنطق ، والقهقهة : الضحك الشديد يستدلون به على قلة العقل .

(٢) الهرولة : بين المشى والعدو ، والمسألة : الفقر ، والمخرقة : نوع من الحرق ، الذى هو ضد الرفق ، ومنه يقال : المخراق وهو شىء يلعب به كأنه يخرج لاظهار الشىء بخلافه .

(٣) البيت لأبى تمام . (٤) باقل : مضرب المثل فى العى .

(٥) هبنقة : مضرب المثل فى الحمق وضعف العقل — قالوا : ووضع عقداً فى عنقه علامة لنفسه لئلا يضيع قالوا : وراقبه أخوه إلى أن نام ، فأخذ العقد من عنقه وجعله فى عنق نفسه ، فلما انتبه هبنقة ورأى أخاه ، قال « أنت أنا ، وأنا ياترى ، من هو أنا » وهو جاهلى .

(٦) المغنى الماحن المشهور ، وكان يسكن المدينة ، وهو أول من غنى بها على الدف بالعربية ، ويضرب به المثل فى الشؤم ، لأنه ولد يوم مات النبى — صلى الله عليه وسلم — ، وغنى يوم مات أبو بكر ، وحج يوم قتل عمر ، وتزوج يوم قتل عثمان ، وكانت أمه تمشى بالنميمة بين نساء الأنصار ، ونوادر شؤمه كثيرة مشهورة فى كتب الأدب .

لاَ يَتَقَارَبَانِ ، وَقُلْتَ : « الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ لاَ يَسْتَوِيَانِ » وَتَمَثَّلْتَ (١) :

« أَيُّهَا الْمُنْكِحُ الثُّرَيَّا سُهَيْلاً عَمْرَكَ اللهَ كَيْفَ يَلْتَقِيَانِ ؟ »

وَذَكَرْتَ أَنِّي عِلْقٌ لاَ يُبَاعُ (٢) مِمَّنْ زَادَ ، وَطَائِرٌ لاَ يَصِيدُهُ مَنْ أَرَادَ ، وَغَرَضٌ لاَ يُصِيبُهُ إِلاَّ مَنْ أَجَادَ . مَا أَحْسَبُكَ إِلاَّ كُنْتَ قَدْ تَهَيَّأْتَ لِلتَّهْنِئَةِ ، وَتَرَشَّحْتَ لِلتَّرْفِئَةِ ! وَلَوْلاَ أَنَّ جُرْحَ الْعَجْمَاءِ جُبَارٌ (٣) ، لَلَقِيتَ مِنَ الْكَوَاعِبِ مَا لاَقَى يَسَارٌ (٤) ، فَمَا هَمَّ إِلاَّ بِبَعْضِ مَا بِهِ هَمَمْتَ ، وَلاَ تَعَرَّضَ إِلاَّ لِأَيْسَرِ مَا لَهُ تَعَرَّضْتَ ، أَيْنَ ادِّعَاؤُكَ رِوَايَةَ الْأَشْعَارِ ، وَتَعَاطِيكَ حِفْظَ السِّيَرِ وَالْأَخْبَارِ ؟ أَمَا ثَابَ إِلَيْكَ قَوْلُ الشَّاعِرِ :

« بَنُو دَارِمٍ أَكْفَاؤُهُمْ آلُ مِسْمَعٍ وَتُنْكِحُ فِي أَكْفَائِهَا الْحَبَطَاتُ ؟ »

---

(١) البيت لعمر بن أبي ربيعة ، وعمرك الله بالنصب وبهما لأنه لم يرد القسم ، وإنما أراد سألت الله أن يطيل عمرك (بالفتح) أي حياتك ، وبعده قوله :

« هي شامية إذا ما استقلت وسهيل إذا استقل يماني . »

(٢) العلق : النفيس وهو من قصيدة للحريث بن فحطان التميمي كانت له فرس اسمها — سكاب — فأراد بعض ملوك اليمن أخذها منه فهرب بها وقال :

« أبيت اللعن إن سكاب علق نفيس لا تعار ولا تباع
مفداة مكرمة عاينا تجاع لها العيال ، ولا تجاع
فلا تطمع أبيت اللعن فيها ومنعكها شيء يستطاع . »

(٣) العجماء : البهيمة ، والجبار : الهدر ، والمعنى : أن البهيمة إذا جرحت لادية لها ولا قصاص ، وهو مثل يضرب ، لمن يستهان به .

(٤) يسار : اسم عبد دميم أسود كان النساء يرينه فيضحكن منه لقبحه ويحسبهن لنفلته معجبات به حتى نظرت إليه بنت مولاه فضحكت فظن أنها رضيت له ، فقال لصاحب له أسود : « قد والله عشقتني مولاتي ، فلأزورنها الليلة » فقال له صاحبه « يا يسار ، اشرب لبن العشار ، وكل لحم الحوار وإياك وبنات الأحرار » فقال له « والله مارأتني حرة إلا عشقتني » فلما أمسى قال لصاحبه « احفظ على الابل حتى أنصرف ، وأعود إليك » فنهاه فلم ينته حتى دخل على بنت مولاه يراودها عن نفسها ، فقالت له « مكانك فان للحرائر طيباً ، أشمك إياه » فقال لها « هاتيه » فأتته بطيب وموسى قاطعة ، فأشمته الطيب ، ثم أنحت بالموسى على هنه فقطعته ، فخرج هارباً حتى أتى صاحبه ودمه يسيل ، فضرب به المثل .

وَهَلاَّ عَشِيتَ وَلَمْ تَعْتَرَّ ؟ وَمَا أَشُكُّ أَنَّكَ تَكُونُ وَافِدَ الْبَرَاجِمِ [١] ، أَوْ تَرْجِعُ بِصَحِيفَةِ الْمُتَلَمِّسِ [٢] ، أَوْ أَفْعَلُ بِكَ مَافَعَلَهُ عَقِيلُ بْنُ عُلْفَةَ بِالْجُهَنِيِّ ، إِذْ جَاءَهُ خَاطِباً فَدَهَنَ اسْتَهُ بِزَيْتٍ وَأَدْنَاهُ مِنْ قَرْيَةِ النَّمْلِ ، وَمَتَى كَثُرَ تَلاَقِينَا وَاتَّصَلَ تَرَائِينَا ، فَيَدْعُونِي إِلَيْكَ مَادَعَا ابْنَةَ الْخَسِّ إِلَى عَبْدِهَا مِنْ طُولِ السَّوَادِ [٣] ، وَقُرْبِ الْوِسَادِ ؟ وَهَلْ فَقَدْتُ الْأَرَاقِمَ [٤] فَأُنْكِحَ فِي جَنْبٍ [٥] ؟ أَوْ عَضَلَنِي هَمَّامُ بْنُ مُرَّةَ فَأَقُولَ : « زَوْجٌ مِنْ عُودٍ ، خَيْرٌ مِنْ قُعُودٍ ؟ »

وَلَعَمْرِي لَوْ بَلَغْتُ هٰذَا الْمَبْلَغَ لَارْتَفَعْتُ عَنْ هٰذِهِ الْحِطَّةِ ، وَلَارَضِيتُ بِهٰذِهِ الْخُطَّةِ ، فَالنَّارُ ، وَلاَ الْعَارُ ، وَالْمَنِيَّةُ ، وَلاَ الدَّنِيَّةُ ، وَالْحُرَّةُ تَجُوعُ وَلاَ تَأْكُلُ بِثَدْيَيْهَا [٦] :

---

(١) وافدالبراجم : هو رجل من بنى تميم — والبراجم خمسة من أولاد حنظلة — والعرب تضرب المثل بوافد البراجم لأن عمرو بن هند أحرق تسعة وتسعين رجلا من بنى تميم لثأر له عندهم ، وكان قد آلى أن يحرق منهم مائة فبينما هو يلتمس بقية المائة إذ مرّ رجل اسمه عمار فاشتم رائحة القتار فظن أن الملك اتخذ طعاماً فعدل إليه فقبل له « من أنت » فقال : « أنا وافد البراجم » فألقى فى النار .

(٢) شاعر جاهلى وفد هو وابن أخته طرفة بن العبد على عمرو بن هند أحد ملوك الحيرة فنادماه وبينما طرفة يضرب يوماً معه وفى يده جام من ذهب فيه شراب أشرفت أخت عمرو ، فرآها طرفة فقال : «ألا بأبى الظبى الذى تبرق شفتاه ، ولولا الملك القاعد ألثمى فاه » فسمعها عمرو فأسرها فى نفسه وهم بقتله ، ولكنه خاف من هجاء المتلمس ، فكتب لهما كتابين إلى عامل البحرين ، وقال : « إنى كتبت لكما بصلة فاقبضاها من عامل البحرين » فخرجا من عنده بالكتابين ، ومرّ المتلمس بغلام من أهل الحيرة ، فطلب إليه أن يقرأ كتابه فاذا فيه « إذا أتاك المتلمس فاقطع يديه ورجليه واصلبه » فأقبل على طرفة فقال « والله لقد كتب لك بمثل هذا ، فادفع كتابك إلى الغلام يقرؤه » فقال : « كلا ما كان ليجترئ على قومى بمثل هذا » فألقى المتلمس صحيفته فى نهر الحيرة وذهب طرفة فقتل .

(٣) ابنة الخس امرأة جاهلية زنت بعبد لها ، فلما قرعوها وعيروها بفعلتها ولاموها عليها قالت لهم معتذرة : « لقد حملنى على ذلك قرب الوساد ، وطول السواد » وهى تعنى بطول السواد : طول السرار ، وفى الحديث : « السواد من السحر » تقول : ساودته أى سارررته ، أنظر « ص ١٩٨ » (٤) حىّ من تغلب .

(٥) حىّ من اليمن ، وهو من شعر مهلهل التغلبى حين هرب وطالت عليه حرب البسوس فنزل فى طريقه على حىّ من اليمن فخطبوا إليه ابنته فساقوا المهر وهو جلود من أدم وغصبوه على الزواج فقال :

« أعزز على تغلب بما اتقيت أخت بنى الأكرمين من جشم
أنكحها قدها الأراقم من جنـ ـب وكان الحباء من أدم
لوباً بأبانين جاء خاطبها ضرج مأنف خاطب بدم . »

(٦) هذه أمثلة لمن يفضل الهلاك على قبح الاحدوثه .

فَكَيْفَ وَفِى أَبْنَاءِ قَوْمِىَ مَنْكِحٌ وَفِتْيَانِ هَزَّانَ الطِّوَالِ الْغَرَانِقَهْ[1]

⁂

مَا كُنْتُ لَاتَخَطَّى الْمِسْكَ إِلَى الرَّمَادِ ، وَلَا أَمْتَطِىَ الثَّوْرَ بَعْدَ الْجَوَادِ ، فَإِنَّمَا يَتَيَمَّمُ مَنْ لَمْ يَجِدْ مَاءً ، وَيَرْعَى الْهَشِيمَ ، مَنْ عَدِمَ الْجَمِيمَ ، وَيَرْكَبُ الصَّعْبَ مَنْ لَا ذَلُولَ لَهُ ، وَلَعَلَّكَ إِنَّمَا غَرَّكَ مَنْ عَامَتْ صَبْوَتِى إِلَيْهِ ، وَشَهِدَتْ مُسَاعَفَتِى لَهُ ، مِنْ أَقْمَارِ الْعَصْرِ ، وَرَيْحَانِ الْمِصْرِ ، الَّذِينَ هُمُ الْكَوَاكِبُ عُلُوًّا هِمَمٍ ، وَالرِّيَاضُ طِيبَ شِيَمٍ :

«مَنْ تَلْقَ مِنْهُمْ تَقُلْ لَاقَيْتُ سَيِّدَهُمْ مِثْلَ النُّجُومِ الَّتِى يَسْرِى بِهَا السَّارِى[2]»

حَنَّ قِدْحٌ لَيْسَ مِنْهَا ، مَا أَنْتَ وَهُمْ ، وَأَنَّى تَقَعُ مِنْهُمْ ، وَهَلْ أَنْتَ إِلَّا وَاوُ عَمْرٍو فِيهِمْ ، وَكَالْوَشِيظَةِ[3] فِى الْعَظْمِ بَيْنَهُمْ ، وَإِنْ كُنْتَ إِنَّمَا بَلَغْتَ قَعْرَ تَابُوتِكَ ، وَتَجَافَيْتَ عَنْ بَعْضِ قُوتِكَ ، وَعَطَّرْتَ أَرْدَانَكَ ، وَجَرَرْتَ هِمْيَانَكَ ، وَاخْتَلْتَ فِى مِشْيَتِكَ ، وَحَذَفْتَ فُضُولَ لِحْيَتِكَ ، وَأَصْلَحْتَ شَارِبَكَ ، وَمَطَطْتَ حَاجِبَكَ ، وَرَقَّقْتَ خَطَّ عِذَارِكَ ، وَاسْتَأْنَفْتَ عَقْدَ إِزَارِكَ ، رَجَاءَ الِاكْتِنَانِ فِيهِمْ ، وَطَمَعًا فِى الِاعْتِدَادِ مِنْهُمْ ، فَظَنَنْتَ عَجْزًا ، وَأَخْطَأَتِ اسْتُكَ الْحُفْرَةَ[4] ، وَاللَّهِ لَوْ كَسَاكَ مُحَرِّقُ الْبُرْدَيْنِ[5] ، وَحَلَّتْكَ مَارِيَةُ[6] بِالْقُرْطَيْنِ وَقَلَّدَكَ عَمْرٌو الصَّمْصَامَةَ[7] ، وَحَمَلَكَ الْحَارِثُ عَلَى النَّعَامَةِ[8] ، مَاشَكَكْتُ فِيكَ ،

---

(١) اسم قبيلة — والعرانقة الشباب ، والبيت للأعشى .

(٢) البيت للمرندس أحد بنى بكر بن كلاب .

(٣) قطعة العظم تكون زيادة فى العظم الصميم — يقال فلان وشيظة فى قومه أى حشو فيهم .

(٤) مثل يضرب لمن يطلب أمرا فيخطئه ولا يناله . (٥) انظر ص « ٢٠٠ »

(٦) ابنة ظالم زوج الحارث الأكبر الغسانى — وقد أهدت قرطيها إلى الكعبة .

(٧) انظر ص « ٢٠٧ — ٢١٠ »

(٨) فرس الحارث بن عباد التغلبى من سادات بنى وائل .

وَلاَ سَتَرْتَ أَبَاكَ ، وَلاَ كُنْتَ إِلاَّ ذَاكَ ، وَهَبْكَ سَامَيْتَهُمْ فِى ذِرْوَةِ الْمَجْدِ وَالْحَسَبِ ، وَجَارَيْتَهُمْ فِى غَايَةِ الظَّرْفِ وَالْأَدَبِ ، أَلَسْتَ تَأْوِى إِلَى بَيْتٍ قَعِيدَتُهُ لَكَاعِ (١) ؟ إِذْ كُلُّهُمْ عَرَبٌ خَالِى الذِّرَاعِ ، وَأَيْنَ مَنْ أَنْفَرِدُ بِهِ مِمَّنْ لاَ غَلَبَ إِلاَّ عَلَى الْأَقَلِّ الْأَخَسِّ مِنْهُ ، وَكَمْ بَيْنَ مَنْ يَعْتَمِدُنِى بِالْقُوَّةِ الظَّاهِرَةِ ، وَالشَّهْوَةِ الْوَافِرَةِ ، وَالنَّفْسِ الْمَصْرُوفَةِ إِلَىَّ ، وَاللَّذَّةِ الْمَوْقُوفَةِ عَلَىَّ ، وَبَيْنَ آخَرَ قَدْ نَضَبَ غَدِيرُهُ ، وَنَزَحَتْ بِيرُهُ ، وَذَهَبَ نَشَاطُهُ ، وَلَمْ يَبْقَ إِلاَّ ضُرَاطُهُ ، وَهَلْ يَجْتَمِعُ لِى فِيكَ إِلاَّ الْخَسْفُ وَسُوءُ الْكِيلَةِ (٢) ، وَيَقْتَرِنُ عَلَىَّ بِكَ إِلاَّ الْغُدَّةُ وَالْمَوْتُ فِى بَيْتِ سَلُولِيَّةٍ (٣) :

تَعَالَى اللهُ يَا سَلْمَ بْنَ عَمْرٍو ... أَذَلَّ الْحِرْصُ أَعْنَاقَ الرِّجَالِ (٤)

مَا كَانَ أَخْلَقَكَ بِأَنْ تَقْدِرَ بِذَرْعِكَ ، وَتَرْبَعَ بِذِلِّكَ عَلَى ظِلَعِكَ ، وَلاَ تَكُنْ بِرَاقِشَ (٥) الدَّالَّةَ عَلَى أَهْلِهَا ، وَعَنْزَ السُّوءِ الْمُسْتَثِيرَةَ لِحَتْفِهَا ، فَمَا أَرَاكَ إِلاَّ سَقَطَ بِكَ الْعَشَاءُ عَلَى سِرْحَانٍ (٦) ، وَبِكَ لاَ بِظَبْيٍ أَعْفَرَ (٧) ، أَعْذَرْتَ إِنْ أَغْنَيْتَ شَيْئًا ، وَأَسْمَعْتَ لَوْ نَادَيْتَ حَيًّا (٨) .

---

(١) القعيدة : الزوجة ، واللكاع : الدنيئة ، والبيت للحطيئة يقول :
« أطوّف ما أطوف ثم آوى ... إلى بيت قعيدته لكاع . »

(٢) مثل يضرب فى الخلتين السيئتين يجتمعان . قالوا أنه لعمرو بن معديكرب ، والحسف أردأ التمر ، والكيلة مصدر يدل على الهيئة .

(٣) وهى امرأة من سلول ، وهو مثل قاله عامر بن الطفيل عند ماتوعده النبىّ — صلى الله عليه وسلم — فدعا عليه وقال : اللهم اكفنى عامرا بما شئت ، فظهر فى رقبته غدة مات منها وجعل يقول : « غدة كغدة البعير ، وموت فى بيت سلولية . » (٤) البيت لأبى العاصية . (٥) يشير إلى المثل (جنت على أهلها براقش) (٦) الذئب . (٧) مثل يضرب للشيئة بالرجل — أى نزل بك المكروه ولا نزل بطبى ، والأعفر الذى لونه لون التراب . (٨) يشير إلى قول المعرى :

«لقد أسمعت لو ناديت حيا ... ولكن لا حياة لمن تنادى
ونار لو نفخت بها أضاءت ... ولكن أنت تنفخ فى رماد.»

ولعله اقتبسها فى قصيدته من شعر عمرو بن معديكرب .

إِنَّ الْعَصَا قُرِعَتْ لِذِي الْحِلْمِ وَالشَّيْءُ تَحْقِرُهُ وَقَدْ يَنْمِي (١)

وَإِنْ بَادَرْتَ بِالنَّدَامَةِ ، وَرَجَعْتَ عَلَى نَفْسِكَ بِالْمَلَامَةِ ، كُنْتَ قَدِ اشْتَرَيْتَ الْعَافِيَةَ لَكَ بِالْعَافِيَةِ مِنْكَ ، وَإِنْ قُلْتَ جَعْجَعَةٌ وَلَا طِحْنٌ ، وَرُبَّ صَلَفٍ تَحْتَ (٢) الرَّاعِدَةِ ، وَأَنْشَدْتَ :

« لَا يُؤْيِسَنَّكَ مِنْ مُحَذَّرَةٍ قَوْلٌ تُغَلِّظُهُ وَإِنْ جَرَحَا (٣) . »

فَعُدْتَ لِمَا نُهِيتَ عَنْهُ ، وَرَاجَعْتَ مَا اسْتُعْفِيتَ مِنْهُ ، بَعَثْتُ مَنْ يُزْعِجُكَ إِلَى الْخَضْرَاءِ (٤) دَفْعًا ، وَيَسْتَحِثُّكَ نَحْوَهَا وَكْزًا وَصَفْعًا ، فَإِذَا صِرْتَ إِلَيْهَا عَبَثَ أَكَّارُوهَا (٥) بِكَ ، وَتَسَلَّطَ نَوَاطِيرُهَا عَلَيْكَ ، فَمِنْ قَرْعَةٍ مُعَوِّجَةٍ تُقَوِّمُ فِي قَفَاكَ ، وَمِنْ فُجْلَةٍ مُنْتِنَةٍ يُرْمَى بِهَا تَحْتَ خُصَاكَ ، ذٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ ، لِتَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِكَ ، وَتَرَى مِيزَانَ قَدْرِكَ :

فَمَنْ جَهِلَتْ نَفْسُهُ قَدْرَهُ رَأَى غَيْرُهُ مِنْهُ مَا لَا يَرَى (٦)

---

(١) وهما مثلان يضربان فى التحذير ، وقد نظمهما الحارث بن وعلة الشكرى ، وقد قتل بعض سادات قومه أخاه فقال:

« أقتلت سادتنا بلا ترة إلا لتوهن قوة العظم
ووطئتنا وطئا على جنف وطء المقيد نابت الهرم
وزعمت أنا لا حلوم لنا ان العصا قرعت لذى الحلم
لا تأمنن قوماً ظلمتهم وبدأتهم بالشر والفشم
ان يأبروا نخلا لغيرهم والشيء تحقره وقد ينمى
الآن لما ابيض مسربتى وعضضت من نابى على جذم
ترجو الأعادى أن أصالحها جهلا توهم صاحب الكلم
قومى هم قتلوا أميم أخى فاذا رميت يصيبنى سهمى
فلئن عفوت لأعفون جللا ولئن أصبت لأوهنن عظمى . »

(٢) الجعجعة : صوت الرحى ، والطحن : الدقيق ، والصلف : قلة الخير والبركة ، وسحاب صلف : أى قليل الماء كثير الرعد ، وهما مثلان يضربان لمن يتوعد من غير أن يعمل . (٣) هذا البيت لبشار بن برد — وبعده قوله :

« عمر النساء إلى مياسرة والصعب يركب بعد ما جمحا . »

(٤) الناحية : المزروعة من البلد ، والوكز : ضرب الظهر مع الدفع أو الضرب بمجتمع اليد على الذقن .

(٥) الأكارون : الزارعون . (٦) البيت للمتنبى — من قصيدة فى ذم كافور الاخشيدى وهجائه ، ومنها قوله :

« وقد كنت أحسب قبل الحمى ى أن الرؤوس محل النهى
فلما نظرت إلى عقله وجدت النهى كلها فى الحمى
وقد ضل قوم بأصنامهم فاما بزق رياح فلا . »

الرسالة الجدية لابن زيدون [١]

« كتبها لابن جهور »

يَا مَوْلاَىَ وَسَيِّدِى الَّذِى وِدَادِى لَهُ ، وَاعْتِمَادِى عَلَيْهِ ، وَامْتِدَادِى مِنْهُ ، وَمَنْ أَبْقَاهُ اللهُ مَاضِىَ حَدِّ الْعَزْمِ ، وَارِىَ زَنْدِ [٢] الْأَمَلِ ، ثَابِتَ عَهْدِ النِّعْمَةِ ، إِنْ سَلَبْتَنِى ـ أَعَزَّكَ اللهُ ـ لِبَاسَ نَعْمَائِكَ ، وَعَطَّلْتَنِى مِنْ حُلَى إِينَاسِكَ ، وَأَظْمَأْتَنِى إِلَى بَرُودِ [٣] إِسْعَافِكَ ، وَنَفَضْتَ بِى كَفَّ حِيَاطَتِكَ ، وَغَضَضْتَ [٤] عَنِّى طَرْفَ [٥] حِمَايَتِكَ ، بَعْدَ أَنْ نَظَرَ الْأَعْمَى إِلَى تَأْمِيلِى لَكَ ، وَسَمِعَ الْأَصَمُّ ثَنَائِى عَلَيْكَ [٦] ، وَأَحَسَّ الْجَمَادُ بِاسْتِحْمَادِى إِلَيْكَ ـ فَلاَ غَرْوَ قَدْ يَغَصُّ بِالْمَاءِ شَارِبُهُ ، وَيَقْتُلُ الدَّوَاءُ الْمُسْتَشْفِىَ بِهِ ، وَيُؤْتَى الْحَذِرُ مِنْ مَأْمَنِهِ ، وَتَكُونُ مَنِيَّةُ الْمُتَمَنِّى فِى أُمْنِيَّتِهِ [٧] ، وَالْحَيْنُ قَدْ يَسْبِقُ جَهْدَ الْحَرِيصِ [٨] :

كُلُّ الْمَصَائِبِ قَدْ تَمُرُّ عَلَى الْفَتَى ... وَتَهُونُ غَيْرَ شَمَاتَةِ الْحُسَّادِ

وَإِنِّى لَأَتَجَلَّدُ ، وَأُرِى الشَّامِتِينَ أَنِّى لِرَيْبِ الدَّهْرِ لاَ أَتَضَعْضَعُ [٩] ، فَأَقُولُ :

---

(١) ارجع إلى « ص ٤٩ » (٢) الزند : الزناد ، وورى الزند هو اقتداحه وخروج النار منه .

(٣) برود : بارد . (٤) غضضت : حفضت .

(٥) طرف : عين . (٦) يشير إلى قول المتنبي :

«أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى ... وأسمعت كلماتى من به صمم . »

(٧) فيما يؤمله ويتمناه .

(٨) الحين : الهلاك ، والجهد : الطاقة ، وهذا مثل من أمثال العرب مشهور . قال عدى بن زيد :

« قد يدرك المبطئ من حظه ... والحين قد يسبق جهد الحريص . »

(٩) يشير إلى قول أبى ذؤيب الهذلى :

« وتجلدى للشامتين أريهم ... أنى لريب الدهر لا أتضعضع . »

وقد تمثل به معاوية قبيل وفاته .

هَلْ أَنَا إِلاَّ يَدٌ أَدْمَاهَا سِوَارُهَا (١)، وَجَبِينٌ عَضَّ بِهِ إِكْلِيلُهُ (٢)، وَمَشْرَفِيٌّ (٣) ٱلصَقَهُ بِالْأَرْضِ صَاقِلُهُ، وَسُمْهَرِيٌّ (٤) عَرَضَهُ عَلَى النَّارِ مُثَقِّفُهُ، وَعَبْدٌ ذَهَبَ بِهِ سَيِّدُهُ مَذْهَبَ الَّذِي يَقُولُ :

« فَقَسَا لِيَزْدَجِرُوا وَمَنْ يَكُ حَازِمًا فَلْيَقْسُ أَحْيَانًا عَلَى مَنْ يَرْحَمُ (٥) »

هٰذَا الْعُتْبُ مَحْمُودٌ عَوَاقِبُهُ، وَهٰذِهِ النَّبْوَةُ (٦) غَمْرَةٌ (٧) ثُمَّ تَنْجَلِي، وَهٰذِهِ النَّكْبَةُ سَحَابَةُ صَيْفٍ عَنْ قَلِيلٍ تَقَشَّعُ (٨)، وَلَنْ يَرِيبَنِي مِنْ سَيِّدِي أَنْ أَبْطَأَ سَيْبُهُ (٩)، أَوْ تَأَخَّرَ - غَيْرَ ضَنِينٍ - غَنَاؤُهُ (١٠)، فَأَبْطَأُ الدِّلَاءِ فَيْضًا أَمْلَؤُهَا (١١)، وَأَثْقَلُ السَّحَائِبِ مَشْيًا أَحْفَلُهَا (١٢)، وَأَنْفَعُ الْحَيَا مَا صَادَفَ (١٣) جَدْبًا، وَأَلَذُّ الشَّرَابِ مَا أَصَابَ غَلِيلًا (١٤)، وَمَعَ الْيَوْمِ غَدٌ، وَلِكُلِّ أَجَلٍ

---

(١) السوار : نوع من الحلي يلبس فى الساعد ، وقريب من هذا قول المتنبي :

« بوركت - وما أثرت فيهم - يد لم يدمها إلا السوار
لها - من قطعه - ألم ونفس ، وفيها - من جلالته - افتخار . »

(٢) الأكليل : التاج . (٣) المشرفى : السيف .

(٤) السمهرى : الرمح .

(٥) البيت لأبى تمام ، وقريب من هذا المعنى قول المعرى :

« اضرب وليدك - تأديبا على رشد - ولا تقل هو طفل غير محتلم
رب شق برأس جر منفعة ، وقس على شق رأس السيف والقلم . »

(٦) النبوة : الجفوة . (٧) الغمرة : الشدة . قال الشاعر :

« وما هى إلا غمرة ثم تنجلى سريعا وإلا نبوة تتصرم . »

(٨) مثل عربى : يشير إلى أن العسر سيتعقبه اليسر بعد قليل .

(٩) سيبه : جوده أو عطاؤه . (١٠) غناؤه : خيره أو نفعه .

(١١) مثل عربى ، يقولون : « لعل أبطأ الدلاء أملؤها » وقد استشهد به الحريرى فى إحدى مقاماته ، ومعناه إن أبطأ الدلاء فى الصعود هى الدلاء المتلئة بالماء .

(١٢) أحفلها : أكثرها ماء .

(١٣) الحيا : الغيث أو المطر .

(١٤) الغليل : شدة العطش .

كِتَابٌ ، لَهُ الحَمْدُ عَلَى اهْتِبَالِهِ (١) ، وَلاَ عَتْبَ عَلَيْهِ فِى إِغْفَالِهِ (٢) :
« فَإِنْ يَكُنِ الْفِعْلُ ـ الَّذِى سَاءَ ـ وَاحِداً ، فَأَفْعَالُهُ ـ اللاَّتِى سَرَرْنَ ـ أُلُوفُ . »

* * *

وَأَعُودُ فَأَقُولُ :

« مَا هٰذَا الذَّنْبُ الَّذِى لَمْ يَسَعْهُ عَفْوُكَ ، وَالجَهْلُ الَّذِى لَمْ يَأْتِ مِنْ وَرَائِهِ حِلْمُكَ ، وَالتَّطَاوُلُ (٣) الَّذِى لَمْ يَسْتَغْرِقْهُ تَطَوُّلُكَ ، وَالتَّحَامُلُ الَّذِى لَمْ يَفِ بِهِ احْتِمَالُكَ ، وَلاَ أَخْلُو مِنْ أَنْ أَكُونَ بَرِيئاً ، فَأَيْنَ الْعَدْلُ ؟ أَوْ مُسِيئاً ، فَأَيْنَ الْفَضْلُ ؟ »

إِلاَّ يَكُنْ ذَنْبٌ فَعَدْلُكَ وَاسِعٌ أَوْ كَانَ لِى ذَنْبٌ فَفَضْلُكَ أَوْسَعُ (٤)

حَنَانَيْكَ (٥) قَدْ بَلَغَ السَّيْلُ الزُّبَى (٦) ، وَنَالَنِى مَا حَسْبِى بِهِ وَكَفَى ، وَمَا أُرَانِى إِلاَّ أُمِرْتُ بِالسُّجُودِ لِآدَمَ (٧) فَأَبَيْتُ وَاسْتَكْبَرْتُ ، وَقِيلَ لِى نُوحٌ (٨) : « ارْكَبْ مَعَنَا » فَقُلْتُ : « سَآوِى إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ المَاءِ » وَأُمِرْتُ

---

(١) اهتباله : اغتنامه .

(٢) اغفاله : تماضيه وتعافله .

(٣) التطاول : التكبر ، والطول : التفضل ، والتحامل : التكيف بما لا يطاق ، والاحتمال : هو القدرة على الحمل .

(٤) البيت الأول للمتنبى ، والثانى مأخوذ من قول الشاعر :

« هبينى طلوما ملتمسه بمسامة قصاصا وأين الأحذيا عز بالفصل ؟ . »

(٥) حنانيك : رحمتك وهو مثنى كلمة حنان .

(٦) الزبى : جمع زبية وهى الحفرة فى مكان مرتفع لا يعلوه الماء تحفر لصيد الأسد ، فاذا وصل إليها السيل كان سيلا عظيما لا عهد للناس به ، وهو مثل يضرب للشىء يربى على غايته .

(٧) يشير الى استكبار ابليس عن السجود لآدم حين أمره الله بذلك فعصاه وحقت عليه اللعنة ، وفضل نفسه عليه لأنه من نار وآدم من طين ، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك فى قوله تعالى : « فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين » .

(٨) يشير إلى قصة نوح حين فاض الطوفان ، وركب السفينة هو ومن معه وخالفه ابنه وعصاه فهلك ، وقد أشار الكتاب الكريم إلى ذلك فى قول نوح : « يا بنى اركب معنا ولا تكن من الكافرين » وقول ابنه : « سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء » .

بِبِنَاءِ الصَّرْحِ (١) لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلٰهِ مُوسَى ، وَعَكَفْتُ عَلَى الْعِجْلِ (٢) ، وَاعْتَدَيْتُ فِي السَّبْتِ (٣) ، وَتَعَاطَيْتُ (٤) فَعَقَرْتُ (٥) ، وَشَرِبْتُ مِنَ النَّهْرِ الَّذِي ابْتُلِيَ بِهِ جُيُوشُ « طَالُوتَ » (٦) ، وَقُدْتُ الْفِيلَ لِأَبْرَهَةَ (٧) ، وَعَاهَدْتُ قُرَيْشاً عَلَى مَا فِي الصَّحِيفَةِ (٨) ، وَتَأَوَّلْتُ فِي بَيْعَةِ الْعَقَبَةِ (٩) ، وَنَفَرْتُ إِلَى الْعَيْرِ بِبَدْرٍ ، وَانْخَذَلْتُ بِثُلُثِ النَّاسِ يَوْمَ أُحُدٍ (١٠) ، وَتَخَلَّفْتُ عَنْ صَلَاةِ الْعَصْرِ فِي

---

(١) الصرح : القصر — يشير إلى قصة فرعون وهى مذكورة فى الكتاب الكريم حين قال : « يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى فأوقد لى يا هامان على الطين فاجعل لى صرحاً » .

(٢) يشير إلى عجل بنى إسرائيل الذى عبدوه .

(٣) يشير إلى قصة بنى إسرائيل حين نهوا عن الصيد فى يوم السبت فخالفوا ما نهوا عنه، فحق بهم العذاب

(٤) تعاطيت : أى قمت على أطراف أصابع رجلى ورفعت يدى وضربت .

(٥) عقرت : قتلت يقال عقر البعير بالسيف أى ضربت قوائمه به وهو يشير بذلك إلى ناقة صالح وذنب من عقرها ، وإلى الآية الكريمة: « فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها»

(٦) يشير الى الذنب الذى اقترفه جيش « طالوت » عليه السلام ، وإلى الآية : « إنّ الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس منى ومن لم يطعمه فانه منى إلا من اغترف غرفة بيده » ولكن أكثرهم خالفه وشرب منه فوقعوا فى الاثم ، قال أبو العلاء :

« سقيا لدحلة والدنيا مفرقة حتى يعود اجتماع النحم تشتيتا
وبعدها لا أريد الشرب من نهر كأنما أنا من أصحاب طالوتا»

(٧) يشير إلى قصة أبرهة عامل اليمن من قبل النجاشى حين ذهب لهدم الكعبة ومعه الفيلة لغضبه عليها إذ بنى كنيسة فى صنعاء اليمن ليحجّ إليها الناس بدل الكعبة فلم يعنوا بها وتغوط رجل فيها وأحرقها بعض تجار اليمن ، وغضب النجاشى من ذلك ، وأمر أبرهة عامل اليمن بهدمها والقصة مذكورة فى الكتاب الكريم « ألم تر إلى ربك كيف فعل بأصحاب الفيل * ألم تر كيدهم فى تضليل * وأرسل عليهم طيراً أبابيل * ترميهم بحجارة من سجيل * فجعلهم كعصف مأكول . » وقد أشار المعرى إلى هذه القصة فى لزومياته بقوله :

« حديث جاء عن قايي ـ ل ـ فى الدهر ـ وهابيلا
وطير عكفت يوماً على الجيش أبابيـــلا
متى نرحل عن دنيا تزيد العقل تخبيلا . »

(٨) يشير إلى الصحيفة التى كتبها قريش وعلقوها فى الكعبة يقرّرون فيها مقاطعة النبىّ — صلى الله عليه وسلم — وعمارية الاسلام بعد أن رأوا إسلام عمر وحمزة الذى اعتزّ بهما الدين .

(٩) نقض بيعة العقبة : مخالفة الاجماع والشذوذ عن جادة الصواب .

(١٠) يشير إلى واقعة « أحد » حين انخذل ابن سلول هو ومن معه من المنافقين ورجعوا بثلث الجيش .

بَنِي قُرَيْظَةَ (١) ، وَجِئْتُ بِالْإِفْكِ (٢) عَلَى عَائِشَةَ الصِّدِّيقَةِ ، وَأَنِفْتُ مِنْ إِمَارَةِ أُسَامَةَ (٣) ، وَزَعَمْتُ أَنَّ بَيْعَةَ أَبِي بَكْرٍ (٤) كَانَتْ فَلْتَةً ، وَرَوَّيْتُ رُمْحِي مِنْ كَتِيبَةِ خَالِدٍ (٥) ، وَمَزَّقْتُ الْأَدِيمَ (٦) الَّذِي بَارَكَتْ يَدُ اللهِ عَلَيْهِ ، وَضَحَّيْتُ بِالْأَشْمَطِ (٧) الَّذِي عُنْوَانُ السُّجُودِ بِهِ ، وَبَذَلْتُ لِقَطَامِ (٨) .

« ثَلَاثَةَ آلَافٍ وَعَبْداً وَقَيْنَةً وَضَرْبَ عَلِيٍّ بِالْحُسَامِ الْمُسَمَّمِ »

---

(١) بنو قريظة : طائفة من اليهود وقد أمر النبيّ — صلى الله عليه وسلم — أصحابه بعد عودته من غزوة الخندق أن يصلوا العصر فى بنى قريظة يعنى بذلك أن يسرعوا فى الذهاب إليهم .

(٢) يشير إلى جريمة مسطح وحسان فى حادثة الافك ، وهى اتهام عائشة زوج النبيّ — صلى الله عليه وسلم — حين كانت عائدة من غزوة بنى المصطلق ونزلت من الهودج لقضاء حاجتها وسار أصحاب الرسول — صلى الله عليه وسلم — من غير أن يتفقدوا عائشة ، وكانت قد تخلفت عن الركب ، ومرّ بها صفوان وكان متخلفاً عن الركب فأركبها على جمله ، ولما وصلا أشاع أعوان السوء عنها ما أشاعوه ، ثم برأها القرآن ، وأظهر طهارتها ، وألجم أهل الافك والبهتان .

(٣) يشير إلى تولية النبيّ — صلى الله عليه وسلم — أسامة بن حارثة قيادة الجيش الذى ذهب إلى الشام وإلى تعالى بعض المهاجرين ، وأنفتهم من إمارته ، وغضب الرسول — صلى الله عليه وسلم — عليهم وتقريعه إياهم ، وصعوده المنبر وهو عاصب رأسه لمرضه .

(٤) يشير إلى رأى الشيعة فى أن علىّ بن أبى طالب كان أجدر بالخلافة من أبى بكر وعمر ، وأن أبا بكر قد اختلسها لنفسه اختلاساً .

(٥) يشير إلى فتك أبى شجرة السلمى فى بعض حروب الرّدّة بجيش خالد بن الوليد .

(٦) يشير إلى أديم «عمر» أى جلده الذى مزّقه أبو لؤلؤة المجوسى حين قتله ، ويشير إلى قول الشاعر فى رثائه :

«جزى الله خيراً من إمام، وبارك يد الله فى ذاك الأديم المرّق .»

(٧) يعنى بالأشمط : عثمان بن عفان ، وهو يشير إلى قول حسان بن ثابت فى رثائه :

«ضحوا بأشمط، عنوان السجود به، يقطع الليل تسبيحاً وقرآنا .»

(٨) قطام : اسم امرأة أغرت عبد الرحمن بن ملجم بقتل علىّ ومهرته مهراً لها ، فأجابها إلى ماطلبت ، ويلى هذا البيت قوله :

«فلا مهر أغلى من علىّ — وإن علا — ولا قتك إلا دون قتك ابن ملجم .»

وقد أشار البحترى إلى ذلك أبدع إشارة حين قال :

« ولا عجب للأسد إن طفرت بها كلاب الأعادى من فصيح وأعجم
فخربة وحشى سقت حمزة الردى ، وموت علىّ من حسام ابن ملجم .»

وَكَتَبْتُ إِلَى عَمْرِو بْنِ سَعْدٍ : « أَنْ جَعْجِعْ [١] بِالْحُسَيْنِ » وَتَمَثَّلْتُ عِنْدَ مَا بَلَغَنِي مِنْ وَقْعَةِ الْحَرَّةِ [٢] :

« لَيْتَ أَشْيَاخِي - بِبَدْرٍ - عَامِلُوا جَزَعَ الْخَزْرَجِ مِنْ وَقْعِ الْأَسَلْ »

وَرَجَمْتُ الْكَعْبَةَ ، وَصَلَبْتُ الْعَائِذَ عَلَى الثَّنِيَّةِ [٣] ، لَكَانَ - فِيمَا جَرَى عَلَيَّ - مَا يَحْتَمِلُ أَنْ يُسَمَّى نَكَالاً ، وَيُدْعَى - وَلَوْ عَلَى الْمَجَازِ - عِقَاباً .

« وَحَسْبُكَ مِنْ حَادِثٍ بِامْرِئٍ تَرَى حَاسِدِيهِ لَهُ رَاحِمِينَا ! »

* * *

فَكَيْفَ وَلَا ذَنْبَ إِلَّا نَمِيمَةٌ أَهْدَاهَا كَاشِحٌ [٤] ، وَنَبَأٌ جَاءَ بِهِ فَاسِقٌ .

وَهُمُ الْهَمَّازُونَ الْمَشَّاءُونَ [٥] بِنَمِيمٍ ، وَالْوَاشُونَ الَّذِينَ لَا يَلْبَثُونَ أَنْ يَصْدَعُوا الْعَصَا ، وَالْغُوَاةُ [٦] الَّذِينَ لَا يَتْرُكُونَ أَدِيماً [٧] صَحِيحاً ، وَالسُّعَاةُ [٨] الَّذِينَ ذَكَرَهُمُ الْأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ فَقَالَ : « مَا ظَنُّكَ بِقَوْمٍ ، الصِّدْقُ مَحْمُودٌ إِلَّا مِنْهُمْ »

« حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رِيبَةً ، وَلَيْسَ - وَرَاءَ اللهِ - لِلْمَرْءِ مَذْهَبُ »

وَاللهِ ، مَا غَشَشْتُكَ بَعْدَ النَّصِيحَةِ ، وَلَا انْحَرَفْتُ عَنْكَ بَعْدَ الصَّاغِيَةِ [٩] ، وَلَا نَصَبْتُ لَكَ [١٠] بَعْدَ التَّشَيُّعِ ، وَلَا أَزْمَعْتُ يَأْساً مِنْكَ مَعَ ضَمَانٍ تَكَفَّلْتَ بِهِ

---

(١) يشير إلى تحريض عبيد الله بن زياد على قتل الحسين حين أرسل عمر بن سعد لقتله وأعقبه بشمر وأمر عبيد الله عمرو بن سعد أن يجعجع بالحسين أى يضيق عليه الخناق .

(٢) وقعة الحرّة — يشير إلى مافعله يزيد بن معاوية حين أرسل عقبة بن مسلم لمحاربة أهل المدينة ولإباحتها ثلاثة أيام ، ولما تمّ له ذلك تمثل بقول ابن الزبعرى : « ليت أشياخى . . . . . الخ . »

(٣) يشير إلى رجم الحجاج الكعبة بالمنجنيق وصلبه عبد الله بن الزبير وهو يعنيه بالعائذ أى الملتجئ ، والثنية : طريق العقبة . (٤) الكاشح : العدوّ .

(٥) الهمازون : الذين يكثرون الهمز وهو العيبة ، والمشاءون : الذين يكثرون السعى بين الناس بالنميمة .

(٦) الغواة : جمع غاو وهو المضلل . (٧) الأديم الجلد .

(٨) السعاة : الذين يسعون بين الناس بالفساد . (٩) الصاغية : صاغية الرجل خاصته الذين يصغون إليه ويغشون مجلسه . (١٠) ولا نصبت لك : عاديتك .

الثِّقَةُ عَنْكَ ، وَعَهْدٍ أَخَذَهُ حُسْنُ الظَّنِّ عَلَيْكَ . فَفِيمَ عَبَثَ الجَفَاءُ بِأَذِمَّتِي (١) ، وَعَاثَ الْعُقُوقُ فِي مَوَاثِقِي ، وَتَمَكَّنَ الضَّيَاعُ مِنْ وَسَائِلِي ؟ وَلِمَ ضَاقَتْ مَذَاهِبِي ، وَأَكْدَتْ مَطَالِبِي ؟ وَعَلَامَ رَضِيتُ مِنَ المَرْكَبِ بِالتَّعْلِيقِ . بَلْ مِنَ الْغَنِيمَةِ بِالْإِيَابِ (٢) ؟ وَبِأَنْ غَلَبَنِي الْمُغَلَّبُ (٣) ، وَفَخَرَ عَلَيَّ الْعَاجِزُ الضَّعِينُ ، وَلَطَمَتْنِي غَيْرُ ذَاتِ سِوَارٍ (٤) ؟ وَمَا لَكَ لَمْ تَمْنَعْ مِنْ قَبْلِ أَنْ أُفْتَرَسَ ، وَتُدْرِكْنِي وَلَمَّا أُمَزَّقْ (٥) ؟ أَمْ كَيْفَ لَا تَتَضَرَّمُ جَوَانِحُ الْأَكْفَاءِ (٦) حَسَدًا لِي عَلَى الْخُصُوصِ بِكَ ؟ وَتَتَقَطَّعُ أَنْفَاسُ النُّظَرَاءِ مُنَافَسَةً فِي الْكَرَامَةِ عَلَيْكَ ، فَكَيْفَ وَقَدْ زَانَنِي قَدِيمُ خِدْمَتِكَ ، وَزَهَانِي وَسْمُ نِعْمَتِكَ ، وَأَبْلَيْتُ الْبَلَاءَ الْجَمِيلَ فِي سِمَاطِكَ (٧) ، وَقُمْتُ الْمَقَامَ الْمَحْمُودَ عَلَى بِسَاطِكَ ؟

« أَلَسْتُ الْمُوَالِي فِيكَ غُرَّ قَصَائِدٍ ... هِيَ الْأَنْجُمُ اقْتَادَتْ مَعَ اللَّيْلِ أَنْجُمَا

ثَنَاءٍ يَظَلُّ الرَّوْضُ مِنْهُ مُنَوَّرًا ... ضُحًى ، وَيُخَالُ الْوَشْيُ فِيهِ مُنَمْنَمَا »

---

(١) الأذمة : العهود والحرمات . (٢) رضيت من العميمة بالاياب : مثل ضرب فى القناعة بالسلامة قال امرؤ القيس :

« لقد طرقت فى الآفاق حتى ... رضيت من العميمة بالاياب . »

(٣) المغلب : أى الضعيف . قال الشاعر :

« فانك لم يفخر عليك كفاخر ... ضعيف ولم يغلبك مثل مغلب . »

(٤) فى المثل « لو ذات سوار لطمتنى » ، يشير إلى ضعف المعتدى وحقارته والعادة أن السوار لاتلبسه إلا الحرة . قال الشاعر :

« بلاء ليس يعدله بلاء ... عداوة غيردى حسب ودين

يبيحك منه عرضا لم يعره ... ويرتع منك فى عرض مصون . »

وقال المعرى : « خف ياكريم على عرض تعرضه ... لعائب ، فلئيم لا يقاس بكا

إن الزجاجة لما حطمت سبكت ... وكم تحطم من در فما سبكا . »

(٥) وتدركنى ولما أمزق : يشير إلى قول المثقب العبدى ، وقد استشهد به عثمان بن عفان فى كتابه إلى على :

« فان كنت مأكولا فكن أنت آكلى ... وإلا فأدركنى ولما أمزق . »

(٦) الأكفاء : جمع كفء ، وهو الند أى المثيل .

(٧) السماط : الصف ، وقد مر بك قول ابن زيدون فى ص « ١٤٤ »

« إذا ما استوى فى الدست فاندحوة ... وقام سماطا حفله فلى الصدر . »

أى صفا حفله .

وَهَلْ لَبِسَ الصَّبَاحُ إِلاَّ بُرْداً طَرَّزْتَهُ بِفَضَائِلِكَ ، وَتَقَلَّدَتِ الْجَوْزَاءُ إِلاَّ عِقْداً فَصَّلْتَهُ بِمَآثِرِكَ ، وَاسْتَمْلَى الرَّبِيعُ إِلاَّ ثَنَاءً مَلأْتَهُ بِمَحَاسِنِكَ ، وَبَثَّ (١) الْمِسْكُ إِلاَّ حَدِيثاً أَذَعْتَهُ فِى مَحَامِدِكَ ؟ مَا يَوْمُ «حَلِيمَةَ» بِسِرٍّ ، وَإِنْ كُنْتُ لَمْ أَكْسُكَ سَلِيباً (٢) ، وَلاَ حَلَّيْتُكَ عُطْلاً (٣) ، وَلاَ وَسَمْتُكَ غُفْلاً ، بَلْ وَجَدْتُ آجُرًّا وَجِصًّا (٤) فَبَنَيْتُ ، وَمَكَانَ الْقَوْلِ ذَا سَعَةٍ فَقُلْتُ ، حَاشَ لَكَ أَنْ أُعَدَّ مِنَ الْعَامِلَةِ النَّاصِبَةِ (٥) وَأَكُونَ كَالذُّبَالَةِ (٦) الْمَنْصُوبَةِ تُضِىءُ لِلنَّاسِ وَتَحْتَرِقُ ، فَلَكَ الْمَثَلُ الأَعْلَى ، وَهُوَ - بِكَ وَبِى - فِيكَ أَوْلَى ، وَلَعَمْرِى إِنَّ صَرِيحَ الرَّأْىِ أَنْ أَتَحَوَّلَ (٧) إِذَا بَلَغَتْنِى الشَّمْسُ وَنَبَا بِىَ الْمَنْزِلُ ، وَأَصْفَحَ عَنِ الْمَطَامِعِ الَّتِى تَقْطَعُ أَعْنَاقَ الرِّجَالِ .

فَلاَ أَسْتَوْطِنُ الْعَجْزَ ، وَلاَ أَطْمَئِنُّ إِلَى الْغُرُورِ . وَمِنَ الأَمْثَالِ الْمَضْرُوبَةِ : «خَامِرِى أُمَّ عَامِرٍ (٨)» وَإِنِّى مَعَ الْمَعْرِفَةِ أَنَّ الْجَلاَءَ (٩) سِبَاءٌ (١٠) وَالنُّقْلَةَ مُثْلَةٌ (١١) :

---

(١) بثّ : نشر ، وقوله « مايوم حليمة بسر » مثل يضرب فى كل أمر متعالم مشهور ، وأصله أن الحارث بن أبى شمر وجه جيشا إلى المنذر بن ماء السماء فى العروة التى تقتل فيها ، وأمر ابنته حليمة فأخرجت لهم مركبا فيه خلوق أى طيب ، فقال حلقهم فخرجت إليهم ، فجعلت تحلقهم وهى من أجمل نساء عصرها ، ومضى القوم حتى أتوا المنذر ، فقالوا أتيناك من عند صاحبنا وهو يدين لك بالطاعة ويعطيك حاجتك ، فتباشر المنذر بذلك ، وغفل المنذر وعسكره عمن العقلة فحملوا عليه فقتلوه ، وكان الحارث قد أوصاهم بذلك قبل أن يوجههم إليه ، فقيل : مايوم حليمة بسر لمن دهمت مثلا .

(٢) السليب : المسلوب . (٣) العطل : العاطل . قال الطغرائى :

« أصالة الرأى صانتى عن الخطل وحلية الفضل زانتنى لدى العطل . »

(٤) الآجر : الطين ، والجص : الجير . وقد تناول الكتاب والشعراء هذا المعنى ، ولكننا لم نقرأ أبدع من قول أمير الشعراء فى قصة قميز على لسان وصيفة ملكة فارس :

« إنى وجدت ذهابى فى يوتقه ولم أصف - بالطيب - إلا زبدته
وقلت عن شمس النهار : مشرقه . »

(٥) يشير إلى قوله تعالى : « وجوه يومئذ خاشعة عاملة ناصبة تصلى ناراً حامية . »

(٦) يشير إلى قول عباس بن الأحنف :

« صرت كالنى ذبالة نصبت تضىء للناس وهى تحترق . »

(٧) فى المثل « إذا بلغك الشمس فتحول » (٨) خامرى أم عامر : مثل يضرب لمن عرف الدنيا وتقلباتها ولم تمنعه معرفته أن يميل إليها ويغتر بها . قال البهاء زهير :

« خدعوك بالقول المحا ل فصح أنك أم عامر . »

(٩) الجلاء : النزوح عن الوطن . (١٠) السباء : الأسر . (١١) والمثلة : النكال .

«وَمَنْ يَغْتَرِبْ عَنْ قَوْمِهِ لَمْ يَزَلْ يَرَى مَصَارِعَ مَظْلُومٍ مُجَرَّاً وَمَسْحَبَا
وَتُدْفَنُ مِنْهُ الصَّالِحَاتُ، وَإِنْ يُسِئْ يَكُنْ مَا أَسَاءَ النَّارَ فِي رَأْسِ كَبْكَبَا[1]»

عَارِفٌ أَنَّ الْأَدَبَ الْوَطَنُ لَا يُخْشَى فِرَاقُهُ، وَالْخَلِيطُ لَا يُتَوَقَّعُ زِيَالُهُ[2]، وَالنَّسِيبُ لَا يُجْفَى، وَالْجَمَالُ لَا يَخْفَى، ثُمَّ مَا قِرَانُ السَّعْدِ بِالْكَوَاكِبِ أَبْهَى أَثَرًا، وَلَا أَسْنَى خَطَرًا، مِنَ اقْتِرَانِ غِنَى النَّفْسِ بِهِ، وَانْتِظَامِهَا نَسَقًا[3] مَعَهُ، فَإِنَّ الْحَائِرَ لَهُمَا، الضَّارِبَ بِسَهْمٍ فِيهِمَا - وَقَلِيلٌ مَا هُمْ - أَيْنَمَا تَوَجَّهَ وَرَدَ مَنْهَلَ بِرٍّ، وَحَطَّ فِي جَنَابِ قَبُولٍ، وَضَوْحِكَ قَبْلَ إِنْزَالِ رَحْلِهِ، وَأُعْطِيَ حُكْمَ الصَّبِيِّ عَلَى أَهْلِهِ.

وَقِيلَ لَهُ: «أَهْلًا وَسَهْلًا وَمَرْحَبًا فَهَذَا مَبِيتٌ صَالِحٌ وَمَقِيلُ»

غَيْرَ أَنَّ الْوَطَنَ مَحْبُوبٌ، وَالْمَنْشَأَ مَأْلُوفٌ، وَاللَّبِيبُ يَحِنُّ إِلَى وَطَنِهِ، حَنِينَ النَّجِيبِ[4] إِلَى عَطَنِهِ[5]، وَالْكَرِيمُ لَا يَجْفُو أَرْضًا فِيهَا قَوَابِلُهُ[6]، وَلَا يَنْسَى بَلَدًا فِيهَا مَرَاضِعُهُ، قَالَ الْأَوَّلُ:

«أُحِبُّ بِلَادَ اللهِ مَا بَيْنَ مَنْعِجٍ إِلَيَّ وَسَلْمَى أَنْ يَصُوبَ سَحَابُهَا
بِلَادٌ بِهَا حَلَّ الشَّبَابُ تَمَائِمِي[7] وَأَوَّلُ أَرْضٍ مَسَّ جِلْدِي تُرَابُهَا»

هَذَا إِلَى مُغَالَاتِي بِعَقْدِ جِوَارِكَ، وَمُنَافَسَتِي بِلَحْظَةٍ مِنْ قُرْبِكَ، وَاعْتِقَادِي

---

(١) كبكب: الجبل. (٢) الزيال: المفارقة.
(٣) النسق: ما كان على نظام واحد. (٤) النجيب: الفحل الكريم من الابل.
(٥) العطن: مبرك الابل حول الماء.
(٦) القوابل: جمع قابلة وهى التى تتلقى المولود عند خروجه (الداية).
(٧) وفى رواية: «عق الباب.» وفى أخرى: «شق الشاب» وفى رواية الشام: «نبطت على تمائمى» والتمائم: ما يعلق للطفل ليقيه شر الحسد. قال الشاعر:
«وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفع.»

أَنَّ الطَّمَعَ ـ فى غَيْرِكَ ـ طَبَعٌ، وَالْغِنَى ـ مِنْ سِوَاكَ ـ عَنَاءٌ، وَالْبَدَلَ مِنْكَ أَعْوَرُ، وَالْعِوَضَ لَفَاءٌ [١] :

« وَإِذَا نَظَرْتُ إِلَى أَمِيرِيَ زَادَنِى ـ ضَنًّا بِهِ ـ نَظَرِى إِلَى الْأُمَرَاءِ »

وَكُلُّ الصَّيْدِ فى جَوْفِ الْفَرَا [٢]، وَفِى كُلِّ شَجَرَةٍ نَارٌ، وَاسْتَمْجَدَ الْمَرْخُ وَالْعَفَارُ [٣]، فَمَا هٰذِهِ الْبَرَاءَةُ مِمَّنْ يَتَوَلَّاكَ، وَالْمَيْلُ عَمَّنْ لَا يَمِيلُ عَنْكَ، وَهَلَّا كَانَ هَوَاكَ فِيمَنْ هَوَاهُ فِيكَ، وَرِضَاكَ لِمَنْ رِضَاهُ لَكَ :

« يَا مَنْ يَعِزُّ عَلَيْنَا أَنْ نُفَارِقَهُمْ ـ وَجْدَانُنَا كُلَّ شَىْءٍ بَعْدَكُمْ عَدَمُ »

أُعِيذُكَ وَنَفْسِى مِنْ أَنْ أَشِيمَ [٤] خُلَّبًا [٥]، وَأَسْتَمْطِرَ جَهَامًا [٦]، وَأَكْدِمَ [٧] فى غَيْرِ مَكْدَمٍ، وَأَشْكُوَ شَكْوَى الْجَرِيحِ إِلَى الْعُقْبَانِ [٨] وَالرَّخَمِ، فَمَا أَبْسَسْتُ [٩] لَكَ إِلَّا لِتَدِرَّ، وَمَا حَرَّكْتُ لَكَ الْحُوَارَ [١٠] إِلَّا لِتَحِنَّ، وَمَا نَبَّهْتُكَ إِلَّا لِأَنَامَ [١١]، وَمَا سَرَيْتُ إِلَيْكَ، لَا لِأَحْمَدَ السُّرَى [١٢] لَدَيْكَ. وَإِنَّكَ

---

(١) لفاء : حسيس . قال الشاعر :

« وما أنا بالضعيف وظلموني ـ ولا حطى اللفاء ولا الحسيس »

(٢) كل الصيد فى جوف الفرا : انظر « ص »

(٣) المرخ والعفار : نوعان من الشجر سريعا الاتقاد ، وقريب من هذا قول المعرى :

« وأنعمت وك النخل ـ والنخل مثمر ـ وأعجبنى من حك القلح والصال . »

(٤) أشيم : أراقب السحاب لأرى أين يمطر . (٥) الخلب : البرق الذى لا يصحبه غيث .

(٦) الجهام : السحاب الذى لا ماء فيه .

(٧) أكدم : أعض ـ والمثل العربى : « كدمت فى غير مكدم » ـ وهو يضرب لمن يريد الشىء من غير أهله . (٨) يشير إلى قول المتنبى :

« ولا تشكّ إلى قوم فتشمتهم ـ شكوى الجريح إلى العقبان والرخم . »

(٩) أبسست : رفقت من الرفق . (١٠) الحوار : ولد الناقة . (١١) يشير إلى قول بشار بن برد:

« إذا أيقظتك حروب العدا ـ فنبه لها عمراً ، ثم نم

دعنى لا ينام على غرة ـ ولا يشرب الماء إلا بدم . »

(١٢) يشير إلى المثل المشهور : « عند الصباح يحمد القوم السرى » يشير إلى قرب الفرج بعد الضيق .

إِنْ سَنِيْتَ [١] عَقْدَ أَمْرِى تَيَسَّرَ ، وَمَتَى أَعْذَرْتَ [٢] فِى فَكِّ أَسْرِى لَمْ يَتَعَذَّرْ ، وَعِلْمُكَ مُحِيطٌ بِأَنَّ الْمَعْرُوفَ ثَمَرَةُ النِّعْمَةِ ، وَالشَّفَاعَةَ زَكَاةُ الْمُرُوءَةِ ، وَفَضْلَ الْجَاهِ ـ تَعُودُ بِهِ ـ صَدَقَةٌ :

« وَإِذَا امْرُؤٌ أَهْدَى إِلَيْكَ صَنِيعَةً ـ مِنْ جَاهِهِ ـ فَكَأَنَّهَا مِنْ مَالِهِ [٣] »

لَعَلِّى أُلْقِى الْعَصَا بِذَرَاكَ [٤] ، وَتَسْتَقِرُّ بِىَ النَّوَى فِى ظِلِّكَ ، وَأَسْتَأْنِفُ التَّأَدُّبَ بِأَدَبِكَ ، وَالِاحْتِمَالَ عَلَى مَذْهَبِكَ ، فَلَا أُوجِدَ لِلْحَاسِدِ مَجَالَ لَحْظَةٍ [٥] ، وَلَا أَدَعَ لِلْقَادِحِ مَسَاغَ لَفْظَةٍ ، وَاللهُ مُبَشِّرُكَ مِنْ إِطْلَاقِى بِهٰذِهِ الطِّلْبَةِ [٦] ، وَإِشْكَائِى [٧] مِنْ هٰذِهِ الشَّكْوَى ، بِصَنِيعَةٍ تُصِيبُ مِنْهَا مَكَانَ الْمَصْنَعِ ، وَتَسْتَوْدِعُهَا أَحْفَظَ مُسْتَوْدَعٍ ، حَسْبَمَا أَنْتَ خَلِيقٌ لَهُ ، وَأَنَا مِنْكَ حَرِىٌّ بِهِ ، وَذٰلِكَ بِيَدِهِ وَهَيِّنٌ عَلَيْهِ .

⁂

وَلَمَّا تَوَالَتْ عِذَرُ هٰذَا النَّثْرِ ، وَانْسَقَتْ دُرَرُهُ ، فَهَزَّ عِطْفَ غُلَوَائِهِ ، وَجَرَّ ذَيْلَ خُيَلَائِهِ ، عَارَضَهُ النَّظْمُ مُبَاهِيًا ، بَلْ كَايَدَهُ مُدَاهِيًا ، حِينَ أَشْفَقَ أَنْ يَسْتَعْطِفَكَ اسْتِعْطَافُهُ ، وَتَمِيلَ بِنَفْسِكَ أَلْطَافُهُ [٨] : فَاسْتَحْسَنَ الْعَائِدَةَ [٩] مِنْهُ ، وَاعْتَدَّ بِالْفَائِدَةِ لَه ، فَمَا زَالَ يَسْتَكِدُّ الذِّهْنَ الْعَلِيلَ ، وَالْخَاطِرَ الْكَلِيلَ ، حَتَّى زَفَّ إِلَيْكَ عَرُوسًا مَجْلُوَّةً ، فِى أَثْوَابِهَا ، مَنْصُوصَةً [١٠] ، بِحَلْيِهَا وَمَلَابِهَا [١١] :

---

(١) سنيت : يسرت وسهلت .
(٢) أعذرت : طلت العذر .
(٣) البيت لأبى تمام .
(٤) ذراك : كنفك وظلك .
(٥) لحظه : نظره .
(٦) الطلبة : المطلوب .
(٧) إسكائى : إزالة شكواى .
(٨) ألطافه : حيره وبره .
(٩) العائدة : الجميل أو الصنيع .
(١٠) منصوصة : مرفوعة على المنصة ليلة الزفاف .
(١١) الملاب : الزعفران .

الْهَوَى فى طُلُوعِ تِلْكَ النُّجُومِ ... وَالْمُنَى فى هُبُوبِ ذَاكَ النَّسِيمِ (١)
سَرَّنَا عَيْشُنَا الرَّقِيقُ الْحَوَاشِى ... لَوْ يَدُومُ السُّرُورُ لِلْمُسْتَدِيمِ
وَطَرٌ مَا انْقَضَى إِلَى أَنْ تَقَضَّى ... زَمَنٌ ، مَا ذِمَامُهُ بِالذَّمِيمِ
إِذْ خِتَامُ الرِّضَا الْمُسَوَّغِ مِسْكٌ ... وَمِزَاجُ الْوِصَالِ مِنْ تَسْنِيمِ
وَغَرِيضُ الدَّلَالِ غَضُّ جَنَى الصَّبْـــوَةِ ، نَشْوَانُ مِنْ سُلَافِ النَّعِيمِ
طَالَمَا نَافَرَ الْهَوَى ـ مِنْهُ ـ غِرٌّ ... لَمْ يَطُلْ عَهْدُ جِيدِهِ بِالتَّمِيمِ

* * *

أَيُّهَا الْمؤْذِنِى بِظُلْـــمِ اللَّيَالِى ... لَيْسَ يَوْمِى بِوَاجِدٍ مِنْ ظَلُومِ
قَمَرُ الْأُفْقِ ـ إِنْ تَأَمَّلْتَ ـ وَالشَّمْسُ هُمَا يُكْسَفَانِ دُونَ النُّجُومِ
وَهُوَ الدَّهْرُ لَيْسَ يَنْفَكُّ يَنْحُو ... ـ بِالْمُصَابِ الْعَظِيمِ ـ نَحْوَ الْعَظِيمِ

* * *

بَوَّأَ اللهُ « جَهْوَراً » شَرَفَ السُّؤْ ... دَدِ فى السَّرْوِ وَاللُّبَابِ الصَّمِيمِ
وَاحِدٌ سَلَّمَ الْجَمِيعُ لَهُ الْأَمْـــرَ ، فَكَانَ الْخُصُوصُ وَفْقَ الْعُمُومِ
قَلَّدَ الْغُمْرُ ذَا التَّجَارِبِ فِيهِ ، ... وَاكْتَفَى جَاهِلٌ بِعِلْمِ الْعَلِيمِ
خَطَرٌ يَقْتَضِى الْكَمَالَ ، بِنَوْعَىْ ... خُلُقٍ بَارِعٍ وَخَلْقٍ وَسِيمِ

* * *

أَيُّهَا ذَا الْوَزِيرُ : هَا أَنَا أَشْكُو ، ... وَالْعَصَا بَدْءُ قَرْعِهَا لِلْحَلِيمِ
مَا عَنَانَا أَنْ يَأْنَفَ السَّابِقُ الْمَرْ ... بَطَ فى الْعِتْقِ مِنْهُ وَالتَّطْهِيمِ
وَبَقَاءُ الْحُسَامِ ـ فى الْجَفْنِ ـ يَثْنِى ... مِنْهُ بَعْـــدَ الْمَضَاءِ وَالتَّصْمِيمِ

---

(١) انظر شرح هذه القصيدة فى «ص ٥٠» من هذا الديوان .

أَفَصَبْرٌ مِتِّينَ خَمْساً مِنَ الأَيَّا ... مِ ؟ نَاهِيكَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمِ !
وَمُغَنًّى - مِنَ الضَّنَى - بِهَنَاتٍ ... نَكَأَتْ بِالْكُلُومِ قَرْحَ الْكُلُومِ
سَقَمٌ لاَ أُعَادُ فِيهِ، وَفِي الْعَا ... ئِدِ أُنْسٌ يَفِي بِبُرْءِ السَّقِيمِ
نَارُ بَغْيٍ، سَرَى - إِلَى جَنَّةِ الأَمْـ ... ـنِ - لَظَاهَا، فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ
بِأَبِي أَنْتَ - إِنْ تَشَأْ - تَكُ بَرْداً ... وَسَلاَمًا، كَنَارِ إِبْرَاهِيمِ
لِلشَّفِيعِ الثَّنَاءُ، وَالْحَمْدُ - فِي صَوْ ... بِ الْحَيَا - لِلرِّيَاحِ، لاَ لِلْغُيُومِ
وَزَعِيمٌ بِأَنْ يُذَلِّلَ - لِي الصَّعْـ ... ـبَ - مَثَابِي إِلَى الْهُمَامِ الزَّعِيمِ
وَوِدَادٌ - يُغَيِّرُ الدَّهْرُ مَا شَا ... ءَ - وَيَبْقَى بَقَاءَ عَهْدِ الْكَرِيمِ
وَثَنَاءٌ أَرْسَلْتُهُ سَلْوَةَ الظَّا ... عِنِ عَنْ شَوْقِهِ، وَلَهْوَ الْمُقِيمِ
فَهْوَ رَيْحَانَةُ الْجَلِيسِ - وَلاَ فَخْـ ... ـرَ - وَفِيهِ مِزَاجُ كَأْسِ النَّدِيمِ
لَمْ يَزَلْ مُغْضِياً - عَلَى هَفْوَةِ الْجَا ... نِي - مُصِيخاً إِلَى اعْتِذَارِ الْكَرِيمِ
وَمَتَى تَبْدَا الصَّنِيعَةَ يُولِعْـ ... ـكَ تَمَامُ الْخِصَالِ بِالتَّتْمِيمِ

وَقَالَ الأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ :

« لَيْسَ دَهْرِي بِوَاجِدٍ مِنْ ظَلُومِ ... وَبَلاَءٍ مِنْ حَادِثٍ وَقَدِيمِ
لَيْسَ يُسْتَنْكَرُ النُّحُولُ لِمِثْلِي، ... جَسَدِي مُبْتَلًى بِقَلْبٍ مَشُومِ . »

* * *

هَا كَهَا - أَعَزَّكَ اللهُ - يَبْسُطُهَا الأَمَلُ، وَيَقْبِضُهَا الخَجَلُ، لَهَا ذَنْبُ التَّقْصِيرِ، وَحرْمَةُ الإِخْلاَصِ، فَهَبْ ذَنْباً لِحُرْمَةٍ، وَاشْفَعْ نِعْمَةٌ بِنِعْمَةٍ، لِيَتَأَتَّى لَكَ الإِحْسَانُ مِنْ جِهَاتِهِ، وَتَسْلُكَ إِلَى الْفَضْلِ مِنْ طُرُقَاتِهِ، إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى .

إلى المظفـــر (١)

« وكتب إلى المظفر سيف الدولة أبي بكر بن الأفطس،
صاحب بطليوس ، وضمنها قصيدة أوّلها ·
ليص الطلى ، ولسود اللمم
بعقلى — مد بن عبى — لمم »

لَمَّا لَبِسَ الحَاجِبُ — أَعَزَّهُ اللهُ — رِدَاءَ المَجْدِ مُعْلَماً ، وَحَمَلَ لِوَاءَ الحَمْدِ

(١) كان المظفر من أعظم ملوك الطوائف . وكان أحرص الناس — كما يقولون — على جمع علوم الأدب ونوادر الأخبار وعيون التاريخ ، وقد ألف كتاباً كبيراً — فى الأدب — فى عشرة أجزاء ضخمة ، وقد ولى « بطليوس » بعد موت أبيه « عبد الله بن مسلمة » المعروف بابن الأفطس وقد استبد « عبد الله » هذا بالملك سنة ٤٣١ هـ — بعد فتنة بنى أمية بالأندلس — فلما مات أعقبه ابنه « أبو بكر المظفر » وعظم أمره ونبه شأنه ، ومازال بها حتى مات سنة ٤٦١ هـ . وخلفه عليها ابنه المتوكل حتى قتله يوسف بن تاشفين سنة ٤٨٥ هـ وقد كان ابن عباد يغريه بقتله — فيما يقولون — وكان المتوكل قدم راسخة فى صناعة النظم والنثر مع شجاعة مفرطة ومروءة تامة ، وقد رثاه ابن عبدون بقصيدته المشهورة ، وهى :

« الدهر يفجع — بعد العين — بالأثر — فما البكاء على الأشباح والصور
أنهاك أنهاك لا آلوك موعظة — عن نومة بين نأب الليث والظفر
فالدهر حرب — وإن أبدى مسالمة — والبيض والسود مثل البيض والسمر
ولا هوادة بين الرأس — تأخذه — يد الصراب — وبين الصارم الذكر
فلا تغرّنك — من دنياك — نومتها ، — فما صناعة عينيها سوى السهر
ما لليالى — أقال الله عثرتنا — من الليالى ، وحانتها يد الغير —
فى كلّ حين لها — فى كل جارحة — مناب جراح ، وإن زاغ عن البصر
تسرّ بالشىء ، لكن كي تغر به — كالايم ثار إلى الحانى من الزهر
كم دولة — قدمعت والنصر يخدمها — لم تبق منها ، وسل ذكراك من خبر
هوت بدارا ، وولت غرب قاتله ، — وكان عصباً — على الأملاك — دا أثر
واسترجعت — من بنى ساسان — ماوهبت ، — ولم تدع — لبنى يونان — من أثر
وأتبعت أختها طسما ، وعاد على — عاد وجرهم منها ناقض المرر
وما أقالت ذوى الهامات — من يمن — ولا أجارت ذوى الغايات من مضر
ومزقت سبأ — فى كلّ قاصية — ، فما التقى رائح منهم بمبتكر
وأنفذت — فى كليب — حكمها ، ورمت — مهلهلا بين سمع الأرض والبصر

مُعْلِنًا ، فَاسْتَطَارَ بَارِقُ فَخْرِهِ ، وَاسْتَضَاءَ فَائِحُ ذِكْرِهِ ، وَشُهِرَتْ مَحَاسِنُهُ عَلَى كُلِّ لِسَانٍ ، وَسَارَتْ مَآثِرُهُ مَسِيرَ الشَّمْسِ بِكُلِّ مَكَانٍ ، لِمَا سَوَّغَ مِنْ كَرَمِهِ،

ولم ترد — على الصليل — صحته ... ولا ثنت أسداً عن ربها حجر
ودوخت آل دبيان وإخوتهم ... عبساً ، وغصت بى بدر على النهر
وألحقت بعدى — بالعراق — على ... يد ابنه أحمر العينين والشعر
وأهلكت «أبروبزا» بابنه ، ورمى ... بيزد جرد إلى «مرو» فلم يحر
وبلغت «يزد جرد» الصين واختزلت ... عنه — سوى الفرس — جمع الترك والحور
ولم ترد مواضى «رسم» وقنا ... «ذى حاجب» عنه سعداً فى ابنة العير
يوم القليب بنو بدر همو وسمى ... قليب بدر — بمن فيه — إلى سقر
ومرّت «جعفراً» بالبيض ، واختلست ... — من ثيابه — «حمزة» الظلام للجزر
وأشرفت بحبيب — فوق فارعة — ... وألصقت «طلحة» الفياض بالعفر
وحصدت — يد عثمان دما ، وحطت ... إلى الزبير ، ولم تستحى من عمر
وما رعت — لأبى اليقظان — صحبته ... ولم تزوده إلا الصيح فى الغمر
وأجررت سيف أشقاها أبا حسن ، ... وأمكنت — من حسين — راحتى شمر
وليتها — إذ هدت عمراً بجارحة — ... هدت علياً بمن شاءت من البشر
وفى ابن هند وفى ابن المصطفى «حسن» ... أتت بمعضلة الألباب والفكر
فبعضنا قائل : «ما اغتاله أحد» ... وبعضنا ساكت لم يوت من حصر
وأردت ابن رياد بالحسين ، فلم ... يبؤ بشسع له — قد طاح — أو ظفر
وعمت — بالطبى — مودى أبى أنس ، ... ولم ترد الردى عنه قنا «زمر»
وأنزلت مصعبا — من رأس شاهقة — ... كأنه بها مهجة المختار فى وزر
ولم تراقب مكان ابن الزبير ، ولا ... راعت عياذته بالبيت والحجر
وأعملت — فى لطيم الجن — حيلتها ، ... واستوسقت لأبى الدنان ذى البجر
ولم تدع — لأبى الدنان — قاصبه ، ... ليس اللطيم لها «عمرو» بمنتصر
وأحرقت شلو «زيد» بعد ما احترقت ... — عليه وحداً — قلوب الآى والسور
وأظهرت لوليد — بن اليزيد — ولم ... تبق الخلافة بين الكأس والوتر
«حبابة» حب رمان أتيح لها ، ... و «أحمد» قطرته نفحة القطر
ولم تعد قصب السفاح ثانية ... عن رأس مروان أو أشياعه الغبر
وأسبلت دمعة الروح الأمين على ... دم بفج لآل المصطفى هدر
وأشرقت جعفراً — والفضل يبطره — ... والشيخ يحيى بريق الصارم الذكر
وأخفرت — فى الأمين — العهد ، وانتدبت ... لجعفر بابنه والأعبد الغدر
وما وفت بعهود المستعين ، ولا ... بما تأكد للمعتز من مرر
وأوثقت فى — عراها — كل معتمد ، ... وأشرقت — بقذاها — كل مقتدر

وَأَسْبَغَ مِنْ نِعَمِهِ ، وَوَطَّأَ ـ لِلْآمِلِينَ ـ مِنْ أَكْنَافِهِ ، وَهَزَّ ـ إِلَى الرَّاغِبِينَ ـ مِنْ أَعْطَافِهِ ، وَرَفْرَفَتْ أَجْنِحَةُ الْأَهْوَاءِ إِلَيْهِ ، وَاهْتَزَّتْ جَوَانِحُ الْآمَالِ إِلَيْهِ ،

وروعت كل مأمون ومؤتمن ، وأسـلمت كل منصور ومنتصر
وأعـثرت آل عباد ـ لعا لهـم ـ بذيل زباء لم تنفر من الذعر

⁂

بنى المظفر ـ والأيام ما برحت مراحلا ـ والورى منها على سفر
سحقا ليومكم يوما ، ولا حملت ـ بمثله ـ ليلة فى مقبل العمر
من للأسرة ؟ أو من للأعنة ؟ أو من للأسـنة ؟ يهديها إلى الثغر
من للظبى ؟ وعوالى الخط قد عقدت ـ أطراف ألسنها ـ بالمى والحصر
وطوّقت ـ بالمنايا السود ـ بيضهم فاعجب بذاك ، وما منها سوى الدكر
من للبراعة ؟ أو من للبراعة ؟ أو من للسماحة ؟ أو للنفع والضرر ؟
أو دفع كارثة ؟ أو ردع آزفة ؟ أو قمع حادثة تعيى على الفـدر ؟
ويح السماح وويح الباس ـ لو سلما ـ وحسرة الدين والدنيا على عمر
سـقت ثرى الفضل والعلياء هامية تعزى إليهم ـ سماحا ـ لا إلى المطر
ثلاثة ما رأى العصران مثلهم وصـلا ولو عززا بالشمس والقمر
ثلاثة ما ارتقى النسران حيث رقوا وكل ما طار ـ من نسر ـ ولم يطر
ثلاثة كبدوات الدهر ـ منذ نأوا عى ـ مضى الدهر لم يربع ولم يحر
ومر ـ من كلّ شىء ـ فيه أطيبه حتى التمتع بالآصال والبكر
أين الجلال الذى غضت مهابتـه قـلوبا وعيون الأنجم الزهر ؟
أين الاباء الذى أرسـوا قواعده على دعائم من عزّ ومن ظفر
أين الوفاء الذى أصـفو اشرائعه فلم يرد أحد منها على كدر
كانوا رواسى أرض الله ـ منذ نأوا عنها ـ استطارت بمن فيها ولم تقر
كانوا مصابيحها ، فمذ خبوا عثرت هدى الخليقة ـ يا أللّه ـ فى سدر
كانوا شجى الدهر ، فاستهوتهم خدع منه بأحلام عاد فى خطى الحصر
ويل امه من طلوب الثأر مدركه منهم بأسـد سراة فى الوغى صـبر
من لى ـ ولا من بهم ـ إن أظلمت نوب ولم يكن ليلها يفضى إلى سـحر ؟
من لى ومن بهم إن عطلت سـنن وأخفقت ألسن الآثار والسـير ؟
من لى ومن بهم إن طبقت محن ولم يكن وردها يفضى إلى صدر ؟
على الفضائل ـ إلا الصبر ـ بعدهم سـلام مرتقب الأجر منتظر
يرحو عسى ، وله ـ فى أختها ـ أمل والدهر ذو عقب شتى وذو غـير
قرطت اذان من فيها بفاضحة على الحسان حصى الياقوت والدرر .»

وَكَثُرَ التَّغَايُرُ عَلَى تَفَيُّؤِ ظِلِهِ ، وَالتَّنَافُسُ فِى الاِعْتِلاَقِ بِحَبْلِهِ ، وَكُلٌّ اسْتَفْرَغَ جُهْدَهُ ، وَتَرَسَّلَ عَلَى حَسَبِ مَا عِنْدَهُ ، وَلاَ غَرْوَ أَنْ يُسْتَمْطَرَ الْغَمَامُ ، وَيَكْثُرَ — فِى الْمَشْرَبِ الْعَذْبِ — الزِّحَامُ [1] .

وَمَا زِلْتُ — أَبْقَى اللهُ الْحَاجِبَ — أَتَلَقَّى مِنْ مَسَاعِيهِ الْمَشْكُورَةِ ، وَيَقْرَعُ سَمْعِى بِمَآثِرِهِ الْمَأْثُورَةِ ، مَا هُوَ أَنْدَى مِنْ بُلُوغِ الْأَمَلِ ، وَأَشْهَى مِنِ اخْتِلاَسِ الْقُبَلِ ، وَأَغَضُّ مِنْ جَنِىِّ الزَّهَرِ ، وَمَا هُوَ أَلْطَفُ مِنْ نَسِيمِ السَّحَرِ ، حَتَّى انْقَادَتْ نَفْسِى فِى زِمَامِ التَّأْمِيلِ وَالْمَوَدَّةِ ، وَنَازَعَتْ إِلَى الْأَخْذِ بِحَظٍّ مِنَ الاِعْتِلاَقِ وَالْمُمَازَجَةِ ، وَنَظَرْتُ إِلَى مَا دُونَ ذٰلِكَ مِنْ أَسْبَابِ الْبُعْدِ الْمَانِعَةِ ، وَامْتِدَادِ التَّأَنِّى الْمُعْتَرِضَةِ ، فَغَضَضْتُ طَرْفَ الْخَيْبَةِ ، وَطَوَيْتُ كَشْحاً عَلَى الْيَأْسِ مِنْ دَرَكِ الْأُمْنِيَّةِ ، إِلَى أَنْ نَدَبَنِى الْأَدِيبُ « أَبُو فُلاَنٍ » إِلَى مُخَاطَبَتِهِ ، وَحَرَّضَنِى عَلَى مُكَاتَبَتِهِ ، وَنَبَّهَنِى عَلَى مَا فِى التَّثَاقُلِ — عَنْ مُدَاخَلَتِهِ — مِنَ التَّضْيِيعِ الصَّرِيحِ ، وَالتَّقْصِيرِ الْبَيِّنِ الصَّحِيحِ ، إِذْ هُوَ أَسْنَى عِلْقٍ غُولِىَ فِيهِ ، وَأَنْفَسُ ذُخْرٍ نُوفِسَ فِيهِ ، فَطَرِبْتُ — إِلَى ذٰلِكَ — كَمَا طَرِبَ النَّشْوَانُ مَالَتْ بِهِ الْخَمْرُ ، وَاهْتَزَزْتُ كَمَا اهْتَزَّ — تَحْتَ الْبَارِحِ [2] — الْغُصْنُ الرَّطْبُ ، وَرَأَيْتُ شُكْرَ يَدِ الْعَلْيَاءِ فِيمَا حَثَّنِى إِلَيْهِ ، وَحَضَّنِى عَلَيْهِ ، مِمَّا فِيهِ حِلْيَةُ الْفَخْرِ ، وَمَكْرُمَةُ الدَّهْرِ ، أَنْ أَسْتَفْتِحَ بَابَ الْمُكَاتَبَةِ بِالشَّفَاعَةِ ، وَأَنْهَجَ طَرِيقَ الْمُخَاطَبَةِ فِى الْعِنَايَةِ بِهِ ، وَتَبَيَّنْتُ — بَعْدَ ذِمَامِ الطَّلَبِ ، وَحُرْمَةِ الْوُدِّ وَالْأَدَبِ — مَا أَسْتَقْصِرُ نَفْسِى مَعَهُ أَنْ أَتَقَدَّمَ فِى

---

(١) يشير إلى المثل المشهور : « المورد العذب كثير الزحام » .

(٢) ريح بارح — ريح شديدة .

خِدْمَةِ رَغْبَتِهِ قَلَمِي ، وَقَدْ تَأَخَّرَ قَدَمِي ، وَ بَعْدَ الْاِقْتِصَارِ بِغَيْبَةِ كِتَابِي ، دُونَ أَنْ أَزَمَّ إِلَيْهِ رِكَابِي، وَهُوَ فَتًى نَامَ جَدُّهُ ، وَاسْتَيْقَظَ حَدُّهُ ، فَتَنَكَّرَ الزَّمَانُ لَهُ، وَاعْتَرَتِ الْأَيَّامُ لَهُ ، بَيْنَ ذِئَابِ سِعَايَةٍ عَوَتْ عَلَيْهِ ، وَعَقَارِبِ وِشَايَةٍ دَبَّتْ إِلَيْهِ ، وَأُصْلِيَ بِنَارِ حَرْبٍ لَمْ يَجْنِهَا ، وَآلَ بِهِ الْأَمْرُ إِلَى فِرَاقِ أَحِبَّتِهِ ، وَالْبُعْدِ عَنْ مَسْقَطِ رَأْسِهِ ، وَمَعْلَقِ تَمَائِمِهِ ، عَلَى ضِيقِ حَالِهِ ، وَضَعْفِ إِحْسَانِهِ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ ذٰلِكَ لَمْ يَزِدِ الْحَاجِبَ إِلَّا وَلَاءً ، وَعَلَيْهِ إِلَّا ثَنَاءً ، وَأَنَّهُ لَا يَزَالُ يُعِيدُ شُكْرَهُ وَيُبْدِيهِ ، وَيَنْشُرُ حَمْدَهُ وَيُطْوِيهِ ، وَالْحَاجِبُ ـ أَدَامَ اللهُ إِعْزَازَهُ ـ وَلِيٌّ بِأَعْدَائِهِ عَلَى زَمَانِهِ الْغَشُومِ ، وَأَمَلِي بِإِنْصَافِهِ مِنْ دَهْرِهِ الظَّلُومِ ، بِإِلْبَاسِهِ مِنْ جَمِيلِ رَأْيِهِ مَا عَرِيَ مِنْهُ ، وَإِيرَادِهِ مِنْ شَرِيعَةِ رِضَاهُ مَا حُلِئَ عَنْهُ ، وَالتَّخْلِيَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْأُفُقِ الَّذِي لَمْ يَرَ كَوْكَبَ سَعْدٍ إِلَّا فِيهِ ، وَلَا تَلَقَّى نَسِيمَ حَيَاةٍ إِلَّا مِنْهُ ، فَإِنَّهُ مِمَّا يُؤَلِّفُهُ مِنْ إِحْسَانِهِ ، وَيَأْتِيهِ مِنَ الْفَضْلِ فِي شَانِهِ ، مُسْتَجْزِلُ شُكْرِ مَنْ أَنْهَضَهُ لِسَانٌ ، وَاسْتَقَلَّ بِهِ بَيَانٌ ، وَهُوَ أَهْلُ الْفَضْلِ ، وَالْمَعْهُودُ مِنْهُ كَرَمُ الْعَمَلِ ، وَاللهُ يُبْقِيهِ وَيُعْلِيهِ ، وَهُوَ حَسْبُهُ وَحَسْبِي فِيهِ .

وَلَمَّا اطَّرَدَ هٰذَا النَّثْرُ بِحُسْنِ اتِّسَاقِهِ ، وَلَذِيذِ مَذَاقِهِ ، هَزَّتِ النَّظْمَ أَرْيَحِيَّةٌ جُذِبَ لَهَا بِعِنَانِهِ ، وَعَارَضَهُ بِهَا فِي مَيْدَانِهِ ، وَأَبَتْ أَنْ يَنْفَرِدَ النَّثْرُ بِلِقَاءِ الْحَاجِبِ وَمُشَافَهَتِهِ ، وَتَسْتَبِدَّ بِأَنْ تُلْمَحَ غُرَّتُهُ ، وَتُخْدَمَ بِالْحُضُورِ حَضْرَتُهُ ، فَأَثْبَتُّ مِنْهُ مَا إِنْ أَنْعَمَ عِنْدَ تَصَفُّحِهِ بِالصَّفْحِ عَنِ الزَّلَلِ الَّذِي يَعْرِضُ فِيهِ ، وَالْخَلَلِ الَّذِي يَبْدُو مِنْهُ ، وَصَلَ النِّعْمَةَ بِمِثْلِهَا ، وَقَرَنَ الْعَارِفَةَ بِشَكْلِهَا .

لِبِيضِ الطُّلَى وَلِسُودِ اللِّمَمْ بِعَقْلِيَ ـ مُذْ بِنَّ عَنِّي ـ لَمَمْ (١)

---

(١) ارجع الى هذه القصيدة فى « ص ١٢٩ »

فَفِي نَاظِرِي ـ عَنْ رَشَادِي ـ عَمًى، وَفِي أُذُنِي ـ عَنْ مَلَامِي ـ صَمَمْ[1]
قَضَتْ بِشِمَاسِي ـ عَلَى العَاذِلِينَ ـ شُمُوسٌ مُكَلَّلَةٌ بِالظُّلَمْ
فَمَا سَقَمَتْ لَحَظَاتُ العُيُو نِ إِلَّا لِتُغْرِيَنِي بِالسَّقَمْ
يَلُومُ الْخَلِيُّ عَلَى أَنْ أُجَنَّ وَقَدْ مَزَجَ الشَّوْقُ دَمْعِي بِدَمْ
وَمَا ذُو التَّذَكُّرِ مِمَّنْ يُلَامُ وَلَا كَرَمُ الْعَهْدِ مِمَّا يُذَمْ

⁂

وَإِنِّي أُرَاحُ إِذَا مَا الْجَنُو بُ رَاحَتْ بِرَيَّا جَنُوبِ الْعَلَمْ
وَأَصْبُو لِعِرْفَانِ عَرْفِ الصَّبَا وَأُهْدِي السَّلَامَ إِلَى «ذِي سَلَمْ»
وَمِنْ طَرَبٍ عَادَ نَحْوَ «الْبُرُو قِ» أَجْهَشْتُ لِلْبَرْقِ حِينَ ابْتَسَمْ
أَمَا وَزَمَانٍ ـ مَضَى عَهْدُهُ حَمِيداً ـ لَقَدْ جَارَ لَمَّا حَكَمْ
قَضَى بِالصَّبَابَةِ ثُمَّ انْقَضَى وَمَا اتَّصَلَ الْأُنْسُ حَتَّى انْصَرَمْ
لَيَالِيَ نَامَتْ عُيُونُ الْوُشَا ةِ عَنَّا، وَعَيْنُ الرِّضَى لَمْ تَنَمْ
وَمَالَتْ عَلَيْنَا غُصُونُ الْهَوَى فَأَجْنَتْ ثِمَارَ الْمُنَى مِنْ أَمَمْ
وَأَيَّامُنَا مُذْهَبَاتُ الْبُرُودِ رِقَاقُ الْحَوَاشِي صَوَافِي الْأَدَمْ
كَأَنَّ «أَبَا بَكْرٍ» الْأَسْلَمِيَّ أَجْرَى عَلَيْهَا فِرِنْدَ الْكَرَمْ
وَوَشَّحَ زَهْرَةَ ذَاكَ الزَّمَانِ بِمَا حَازَ مِنْ زُهْرِ تِلْكَ الشِّيَمْ
هُوَ الْحَاجِبُ الْمُعْتَلِي لِلْعُلَا شَمَارِيخَ كُلِّ مُنِيفٍ أَشَمّْ
مَلِيكٌ ـ إِذَا سَابَقَتْهُ الْمُلُوكُ ـ حَوَى الْخَصْلَ أَوْ سَاهَمَتْهُ سَهَمْ
فَأَطْوَلُهُمْ ـ بِالْأَيَادِي ـ يَداً، وَأَثْبَتُهُمْ ـ فِي الْمَعَالِي ـ قَدَمْ

---

(١) قال ابن هانئ الأندلسي :
« وفي بصري ـ عن سواكم ـ عمى ، وفي أذني ـ عن سواكم ـ صمم . »

* *
* *

وَأَرْوَعَ ، لاَ مُعْتَـــفِي رِفْدِهِ يَخِيبُ ، وَلاَ جَارُهُ يُهْتَضَمْ
ذَلُولُ الدَّمَاثَةِ صَـــعْبُ الإِبَاءِ ثَقِيفُ الْعَزِيمِ إِذَا مَا اعْتَزَمْ
سَمَا لِلْمَجَـــرَّةِ ـ فِى أُفْقِهَا ـ فَجَـــرٌّ عَلَيْهَا ذُيُولَ الْهِمَمْ
وَنَاصَتْ مَسَاعِيهِ زُهْرَ النُّجُومِ وَبَارَتْ عَطَايَاهُ وُطْفَ الدِّيَمْ
نَهِيكٌ ـ إِذَا جَنَّ لَيْلُ الْعَجَاجِ ـ سَرَى مِنْهُ فِى جُنْحِهِ بَدْرُ تَمْ
فَشَامَ السُّيُوفَ بِهَامِ الْكُمَاةِ وَرَوَّى الْقَنَا فِى نُحُورِ الْبُهَمْ
جَوَادٌ ذَرَاهُ مَطَافُ الْعُفَاةِ وَيُمْنَاهُ رُكْنُ النَّدَى الْمُسْتَلَمْ
يَهِيـــجُ النِّزَالُ بِهِ وَالسُّوَا لُ لَيْثًا هَصُوراً وَبَحْراً خِضَمْ
شَهِدْنَا ، لأَوْتِىَ فَصْلَ الْخِطَابِ وَخُصَّ بِفَضْلِ النُّهَى وَالْحِكَمْ
وَهَلْ فَاتَ شَىْءٌ مِنَ الْمَكْرُمَاتِ جَرَى السَّيْفُ يَطْلُبُهُ وَالْقَلَمْ

* *
* *

وَمُسْـــتَحْمَدٍ بِكَرِيمِ الْفَعَا لِ ـ عَفْواً ـ إِذَا مَا اللَّئِيمُ اسْتَذَمْ
شَمَائِلُ تُهْجَـــرُ عَنْهَا الشَّمُولُ وَتَجْفُو لَهَا مُشْـــجِيَاتُ النَّغَمْ
عَلَى الرَّوْضِ مِنْهَا رُوَاءٌ يَرُوقُ وَفِى الْمِسْكِ طِيبُ أَرِيجٍ يُشَمْ

* *
* *

أَبُوهُ الَّذِى فَلَّ غَرْبَ الضَّلاَلِ وَلاَءَمَ شَعْبَ الْهُدَى فَالْتَأَمْ
وَلاَذَ بِهِ الدِّينُ مُسْـــتَعْصِماً بِذِمَّـــةِ أَبْلَجَ وَافِى الذِّمَمْ
وَجَاهَدَ ـ فِى اللهِ ـ حَقَّ الْجِهَا دِ مَنْ دَانَ ـ مِنْ دُونِهِ ـ بِالصَّنَمْ

فَلاَ سَامِيَ الطَّرْفِ إِلاَّ أَذَلَّ ... وَلاَ شَامِخَ الْأَنْفِ إِلاَّ رَغَمْ

تَقَيَّلَ فِى الْعِزِّ ـ مِنْ حِمْيَرٍ ـ ... مَقَاوِلَ عَزُّوا جَمِيعَ الْأُمَمْ

هُمُ نَعَشُوا الْمُلْكَ حَتَّى اسْتَقَلَّ ... وَهُمْ أَظْلَمُوا الْخَطْبَ حَتَّى اظْلَمْ

نُجُومُ هُدًى ـ وَالْمَعَالِى بُرُوجٌ ـ ... وَأُسْدُ وَغًى وَالْعَوَالِى أَجَمْ

* * *

« أَبَا بَكْرٍ » اسْلَمْ عَلَى الْحَادِثَاتِ، ... وَلاَ زِلْتَ ـ مِنْ رَيْبِهَا ـ فِى حَرَمْ

أُنَادِيكَ ـ عَنْ مِقَةٍ ـ عَهْدُهَا ... كَمَا وَشَتِ الرَّوْضَ أَيْدِى الرِّهَمْ

وَإِنْ يَعْدُنِى عَنْكَ شَحْطُ النَّوَى ... فَحَظِّى أَخَسُّ وَنَفْسِى ظَلَمْ

وَإِنِّى لَأُصْفِيكَ مَحْضَ الْهَوَى ... وَأُخْفِى ـ لِبُعْدِكَ ـ بَرْحَ الْأَلَمْ

وَغَيْرُكَ أَخْفَرَ عَهْدَ الذِّمَامِ ... إِذَا حُسْنَ ظَنِّى عَلَيْهِ أَذَمْ

* * *

وَمُسْتَشْفِعٍ بِىَ ، بَشَّرْتَهُ ... ـ عَلَى ثِقَةٍ ـ بِالنَّجَاحِ الْأَتَمْ

وَقِدْمًا أَقَلْتَ الْمُسِىءَ الْعِثَارَ ... وَأَحْسَنْتَ ـ بِالصَّفْحِ ـ عَمَّا اجْتَرَمْ

وَعِنْدِى ـ لِشُكْرِكَ ـ نَظْمُ الْعُقُودِ ... تَنَاسَقُ فِيهَا اللَّآلِى النُّوَمْ

تُجِدُّ لِفَخْرِكَ بُرْدَ الشَّبَابِ ... إِذَا لَبِسَ الدَّهْرُ بُرْدَ الْهَرَمْ

فَعِشْ مُعْصَمًا بِيَفَاعِ السُّعُودِ ... وَدُمْ نَاعِمًا فِى ظِلاَلِ النِّعَمْ

وَلاَ يَزَلِ الدَّهْرُ ، أَيَّامُهُ ... لَكُمْ حَشَمٌ ، وَاللَّيَالِى خَدَمْ

* * *

هٰذَا أَعَزَّ اللهُ الحَاجِبَ مَا اقْتَنَصَتْهُ القَرِيحَةُ مَعَ اقْتِضَائِهَا ، وَأَجَابَتْهَا بِهِ البَدِيهَةُ عِنْدَ اسْتِدْعَائِهَا ، وَالذِّهْنُ (١) عَلِيلٌ ، وَالطَّبْعُ كَلِيلٌ ، وَالرَّوِيَّةُ فَاسِدَةٌ ، وَسُوقُ الْأَدَبِ — إِلاَّ عِنْدَهُ — كَاسِدَةٌ ، وَلَوْ أَنِّي أُوتِيتُ — فِي النَّثْرِ — غَزَارَةَ عَمْرٍو ، وَبَرَاعَةَ ابْنِ سَهْلٍ ، وَأُمْدِدْتُ — فِي النَّظْمِ — بِنَظْمِ البُحْتُرِيِّ ، وَصِنَاعَةِ الطَّائِيِّ (٢) لَمَا رَدَدْتُ — إِلَى الحَاجِبِ — إِلاَّمَا أَخَذْتُ مِنْهُ ، وَلاَ أَوْرَدْتُ عَلَيْهِ غَيْرَ مَاصَدَرَ عَنْهُ ، وَلا أَنْفَذْتُ مَا أَنْفَذْتُ إِلاَّ بَيْنَ أَمَلٍ يَنْبَسِطُ ، وَخَجَلٍ يَقْبِضُ ، فَرَأْيُهُ مُوَفَّقٌ فِي أَنْ يَمْنَحَ مَا بَعَثَ الْأَمَلُ إِسْعَافاً ، وَمَا أَوْجَبَ الخَجَلُ إِغْضَاءً ، لِيَأْتِيَ الْإِحْسَانَ مِنْ جِهَاتِهِ ، وَيَسْلُكَ — إِلَى الْفَضْلِ — طُرُقَاتِهِ . وَمُرَاجَعَتُهُ لِي عَنْ كِتَابِي بِعَهْدٍ كَرِيمٍ يَكُونُ كُحْلاً لِعَيْنِ الرِّضَا بِوَحْيَةِ القَوْلِ ، أَقِفُ بِهِ مِنْ تَوَالِي النِّعَمِ عَلَيْهِ ، وَانْتِظَامِ الْأَحْوَالِ — بِالصَّلاَحِ لَدَيْهِ — عَلَى مَا تَبْتَهِجُ لَهُ نَفْسِي ، وَيَنْتَظِمُ مَعَهُ عِقْدُ أُنْسِي ، يَدٌ عِنْدِي جَنَاهَا شَهْدٌ ، وَشَذَاهَا عَنْبَرٌ وَوَرْدٌ ، وَرِدَاؤُهَا الشُّكْرُ الجَزِيلُ ، وَأُتْبِعُهَا الثَّنَاءَ الجَمِيلَ ، إِنْ شَاءَ اللهُ .

وَلْيُبَلِّغْ مِنِّي سَلاَمًا يُهْدِي إِلَيْهِ نَدَّهُ (٣) ، وَتَحِيَّةً أَوَّلُهَا عِنْدِي وَآخِرُهَا عِنْدَهُ .

---

(١) وفى الأصل : « والدهر » .

(٢) يعنى أبا تمام .

(٣) الند (بالفتح) وبكسر : الطيب أو العنبر ، وفى الأصل : « يهدى إليه نفسه »

إلى ابن مسلمة

« وكتب من قرطبة إلى ابن مسلمة باشبيلية
قبل تحوّله إليها : »

يَا سَيِّدِى وَأَرْفَعَ عُدَدِى ، وَأَوَّلَ الذَّخَائِرِ فى عَدَدِى ، وَأَخْطَرَ عِلْقٍ مَلَأْتُ مِنِ اقْتِنَائِهِ يَدِى ، وَمَنْ أَبْقَاهُ اللهُ فى عِيشَةٍ بَارِدَةِ الظِّلَالِ ، وَنِعْمَةٍ سَابِغَةِ الْأَذْيَالِ ، قَدْ تَقَاصَرَ الثَّنَاءُ عَلَيْكَ ، وَتَوَالَى الْحَدِيثُ الْحَسَنُ عَنْكَ ، حَتَّى حَلَلْتَ مَحَلَّ الْأَمَانَةِ ، وَكُنْتَ مَوْضِعَ تَقْلِيدِ الْوَطَنِ ، وَثِبَاتِ الطَّوِيَّةِ ، وَاللهُ يُمَتِّعُكَ بِمَا حَازَهُ لَكَ مِنَ الْخَيْرِ ، وَوَفَّرَهُ عَلَيْكَ مِنْ طِيبِ الذِّكْرِ .

فى عِلْمِكَ ـ أَعَزَّكَ اللهُ ـ مَا تَقْتَضِيهِ الْعُطْلَةُ مِنْ إِظْلَامِ الْخَاطِرِ ، وَصَدَإِ النَّفْسِ ، وَيَجْنِيهِ طُولُ الْمُقَامِ مِنْ إِخْلَاقِ الدِّيبَاجَةِ وَإِرْخَاصِ الْقَدْرِ ، وَقَدْ آنَ أَنْ أَجْتَنِيَ ثَمَرَةً مِنْ آدَابٍ أَطَلْتُ الِاعْتِنَاءَ بِهَا ، وَأَخْلَاقٍ أَدَمْتُ رِيَاضَةَ النَّفْسِ عَلَيْهَا ، وَلَمَّا مَخَضْتُ الْمُلُوكَ وَجَدْتُ عَبِيرَهُمُ الَّذِى أَنْسَى[1] السَّالِفَ قَبْلَهُ ، وَتَقَدَّمَ الدَّاهِرَ مَعَهُ ، وَأَتْعَبَ الْغَابِرَ بَعْدَهُ ، الْحَاجِبَ فَخْرَ الدَّوْلَةِ مَوْلَايَ أَطَالَ اللهُ بَقَاءَهُ ، وَكَبَتَ أَعْدَاءَهُ ، مَا خَصَّهُ اللهُ بِهِ مِنْ سَنِيِّ الْهِمَمِ ، وَسَمَاحَةِ الشِّيَمِ ، وَانْتِظَامِ أَسْبَابِ الرِّيَاسَةِ ، وَكَمَالِ آلَاتِ السِّيَاسَةِ ، وَاجْتِمَاعِ الْمَنَاقِبِ الَّتِى أَفْرَدَتْهُ عَنِ النُّظَرَاءِ ، وَأَعْلَتْهُ عَنْ مَرَاتِبِ الْأَكْفَاءِ ، فَرَأَيْتُ ـ قَبْلَ أَنْ أَحْتَمِلَ لِغَيْرِهِ نِعْمَةً ، أَوْ أُوسَمَ مِمَّنْ سِوَاهُ بِصَنِيعَةٍ ـ أَنْ أَعْرِضَ نَفْسِى مَمْلُوكَةً عَلَيْهِ ، عَرْضَ مَنْ لَا يُؤَمِّلُهَا ـ لِإِجَارَتِهِ ـ إِلَّا بِالِاسْتِجَارَةِ ، وَلَا يَطْمَعُ لَهَا ـ فى قَبُولِهِ ـ إِلَّا بِالْمُسَاحَةِ ، فَلَوْ كُنْتُ الْوَلِيدَ بْنَ عُبَيْدٍ بَرَاعَةَ نَظْمٍ ، وَجَعْفَرَ ابْنَ يَحْيَى بَلَاغَةَ نَثْرٍ ، وَإِبْرَاهِيمَ

(١) وفى الأصل : « أطلب »

ابْنَ مَهْدِيٍّ طِيبَ مُجَالَسَةٍ ، وَإِمْتَاعَ مُشَاهَدَةٍ ، ثُمَّ حَضَرْتُ مَجْلِسَهُ الْعَالِي ، لَمَّا كُنْتُ ـ بِسَعَةِ إِحَاطَتِهِ ـ إِلَّا فِي جَانِبِ التَّقْصِيرِ ، وَتَحْتَ غَمْرَةِ النُّقْصَانِ ، غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يَعْدَمْ فِي نَجَابَةِ غَرْسِ الْيَدِ ، وَإِصَابَةِ طَرِيقِ الْمَصْنَعِ ، مِنْ وِلَايَةٍ أُخْلِصُهَا وَنَصِيحَةٍ أَمْحَضُهَا ، وَشُكْرٍ أُجْنِيهِ الْغَضَّ مِنْ زَهَرَاتِهِ ، وَثَنَاءٍ أُهْدِي إِلَيْهِ الْعَطِرَ مِنْ نَفَحَاتِهِ ، مِنْهَا مَا سَوَّغَكَ اللهُ مِنَ الْمَوْهِبَةِ فِي ذٰلِكَ ، وَأَنْهَضَكَ بِأَعْبَاءِ الشُّكْرِ لَهَا ، وَمِنْهَا شَرَفُ مَذْهَبِكَ ، وَكَرَمُ سَجِيَّتِكَ ، وَصِحَّةُ مُشَارَكَتِكَ لِمَنْ لَمْ يَسْتَوْجِبْهَا اسْتِيجَابِي ، وَلَا اسْتَدْعَاهَا بِمِثْلِ أَسْبَابِي ، مِنْ تَدَانِي الْجِدَارِ وَتَصَافِي السَّلَفِ ، وَالِانْتِمَاءِ إِلَى أُسْرَةِ الْأَدَبِ ، فَإِنْ وَافَقَتِ الْمُسَاعَفَةُ الْإِرَادَةَ فَحَظٌّ أَقْبَلَ ، وَعَبْدٌ بَلَغَ مِنْ قَبُولِ سَيِّدِهِ مَا أَمَّلَ

وَلَمْ أَقُلْ ـ عَمْرَكَ اللهَ ـ كَمَا قِيلَ فِي النَّجْمَيْنِ ، بَلْ قُلْتُ : « وَقَدْ يَجْمَعُ اللهُ الشَّتِيتَيْنِ » وَإِنْ عَاقَ حِرْمَانٌ عَادَتَهُ أَنْ يُعَوِّقَ عَنِ الظَّفَرِ ، وَيَعْتَرِضَ دُونَ الْأَمَلِ ، فَأُعْلِمُهُ ـ أَيَّدَهُ اللهُ ـ أَنِّي فِي حَالَيِ الْعُطْلَةِ مَعَ غَيْرِهِ وَالتَّصَرُّفِ ـ وَيَوْمَيِ الِانْقِطَاعِ وَالتَّصَوُّفِ[1] ، كَالْمُهْتَدِي بِالنَّجْمِ حِينَ عَدِمَ ذَكَاءَ ، وَمُتَيَمِّمِ الصَّعِيدِ حِينَ لَمْ يَجِدِ الْمَاءَ .

فَإِنْ أَغْشَ قَوْمًا غَيْرَهُ أَوْ أَزُرْهُمُ فَكَالْوَحْشِ يُدْنِيهِ مِنَ الْأَنْسِ الْمَحْلُ

وَاللهُ يَتَوَلَّاهُ بِالْفُسْحَةِ فِي عُمُرِهِ ، وَالْإِعْلَاءِ لِأَمْرِهِ ، وَيَصْرِفُ الْأَقْدَارَ مَعَ إِيثَارِهِ ، وَيُصَرِّفُ وُجُوهَ التَّوْفِيقِ إِلَى اخْتِيَارِهِ ، وَلَكَ ـ يَا سَيِّدِي ـ فِي انْتِدَابِكَ مَا انْتَدَبْتُكَ لَهُ مَا لِلسَّاعِي الْمُنْجِحِ مِنَ الشُّكْرِ ، وَلِلْمُجْتَهِدِ الْبَالِغِ مِنَ الْعُذْرِ ، مِلَاكُ الْأَمْرِ بِتَقْدِيمِ الْمُرَاجَعَةِ بِالْجَوَابِ ، فَأَسْكُنُ إِلَيْهِ ، وَالْجَنَابُ فَأَعْتَمِدُ عَلَيْهِ ، وَأُهْدِي إِلَيْكَ نَدِيَّ الْغَضِّ النَّاضِرِ مِنْ سَلَامِي ، وَالْأَرِجَ الْعَاطِرَ مِنْ تَحِيَّتِي .

---

(١) القصوف : بالواو والياء. العدول والانصراف . وفي الأصل « ويومي الأيقظان »

رسالة إلى المعتضد

« وكتب إثر ذلك إلى المعتضد رقعة يقول فيها : »

أَطَالَ اللهُ بَقَاءَ الْحَاجِبِ فَخْرِ الدَّوْلَةِ ـ مَوْلاَيَ وَسَيِّدِي وَمَوْلَى الْمَنَاقِبِ الْجَلِيلَةِ ، وَالضَّرَائِبِ النَّفِيسَةِ ـ فِي أَكْمَلِ مَا تَكَفَّلَ لَهُ بِهِ مِنْ عُلُوِّ الْقَدْرِ ، وَنَفَاذِ الْأَمْرِ ، وَأَحْظَاهُ مِنَ النِّعَمِ بِأَسْبَغِهَا سِرْبَالاً ، وَأَبْرَدِهَا ظِلاَلاً ، وَأَحْمَدِهَا مَآلاً.

كُنْتُ ـ أَعَزَّ اللهُ الْحَاجِبَ ـ مَوْلاَيَ قَدْ كَتَبْتُ إِلَى الْوَزِيرِ أَبِي عَامِرٍ عَبْدِهِ بِمَا أَيْقَنْتُ أَنَّهُ انْتَهَى إِلَيْهِ ، وَاسْتَمَلَ عَلَيْهِ ، فَكَتَبَ الْوَزِيرُ إِلَى بَعْضِ أَسْبَابِهِ بِمَا يَقُومُ مَقَامَ الْمُرَاجَعَةِ لِي بِمَا يَرْتَفِعُ عَنْ قَدْرِي ، وَلا تَتَّسِعُ لَهُ سَاحَةُ شُكْرِي ، لِعِلْمِي أَنَّهُ مِنَ الْحَاجِبِ ـ أَيَّدَهُ اللهُ ـ صَدَرَ ، وَبَعْدَ إِذْنِهِ[1] نَفَذَ ، وَالَّذِي عَدَانِي عَنْ أَنْ يَكُونَ الْكِتَابُ فِي ذَلِكَ إِلَى الْحَاجِبِ ـ أَبْقَاهُ اللهُ ـ التَّأَدُّبُ بِآدَابِ خِصْيَانِ الْعَبِيدِ فِي الْإِجْلاَلِ وَالْإِعْظَامِ ، وَتَرْكِ التَّبَسُّطِ وَالْإِقْدَامِ ، وَقَلَّمَا اسْتَغْنَتْ أَوَائِلُ مَطَالِبِ الْأَتْبَاعِ لِحَضْرَةِ الْمُلُوكِ عَنْ وَسَائِطَ تُمَهِّدُ لَهَا وَتَعْتَمِدُ أَوْقَاتَ الْإِمْكَانِ بِهَا ، لِأَنِّي مَا اتَّخَذْتُ إِلَى الْحَاجِبِ ـ أَدَامَ اللهُ عُلُوَّهُ ـ غَيْرَ سِيَادَتِهِ ذَرِيعَةً ، أَوِ الْتَمَسْتُ إِلَيْهِ إِلاَّ مِنْ نَفَاسَةِ نَفْسِهِ شَفَاعَةً ، وَأَيُّ مَعْدًى لِمِثْلِي عَنْ تَفَيُّؤِ ظِلاَلِهِ ، وَالْاِعْتِصَامِ بِحَبْلِهِ . وَصِنَاعَةُ الْآدَابِ كَاسِدَةٌ إِلاَّ عَلَيْهِ ، وَطَرِيقُ الْأَمَلِ مُوحِشَةٌ إِلاَّ إِلَيْهِ ، وَلاَ يَدْعُنِي إِلَى اسْتِطْلاَعِ مَا قِبَلَهُ شَكٌّ فِي كَرَمِهِ ، وَلاَ سُوءُ ظَنٍّ بِسَمَاحَةِ شِيَمِهِ ، بَلْ لُزُومُ الطَّرِيقَةِ فِي التَّوَطُّئَةِ لِلْمَطْلَبِ ، وَالتَّدَرُّجِ إِلَى إِحْرَازِ الْأَدَبِ ، وَحَسْبِي أَنَّ أَمَلِي قَدِ ارْتَادَ الْجَنَابَ

---

(١) فى الأصل : « وبغير إذنه »

الرَّحْبَ ، وَالمَشْرَبَ العَذْبَ ، وَلَعَلَّ الحُظُوظَ سَتُكْشَفُ ، وَالنَّوَائِبَ سَتُصْرَفُ ، إِلَى أَنْ أُبْعَدَ إِلَى أَبْعَدِ غَايَاتِ الْأَمَلِ مِنْ مُشَاهَدَةِ حَضْرَتِهِ الْعَلْيَاءِ ، وَالنَّظَرِ إِلَى غُرَّتِهِ الزَّهْرَاءِ ، فَوَاللهِ مَا يَنْصَرِفُ فِكْرِى ، وَلَا يَنْصَرِمُ حِينٌ مِنْ عُمْرِى ، إِلَّا فِى الذِّكْرِ لَهُ ، وَالشَّوْقِ إِلَيْهِ ، وَالمُثُولِ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَأَنَا أُقَدِّمُ الِاعْتِذَارَ مِنْ مَهَابَةٍ تَتَمَلَّكُ جَنَانِى ، وَحَصَرٍ يَكَادُ يَقْطَعُ فِى أَوَّلِ المُشَافَهَةِ لِسَانِى ، فَإِنْ حَدَثَ ذٰلِكَ فَعُذْرِى عُذْرُ[1] الْفَضْلِ بْنِ سَهْلٍ وَقَدِ انْقَطَعَ بَيْنَ يَدَيِ الرَّشِيدِ ، فَقَالَ : « يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ ! مِنْ فَرَاهَةِ الْعَبْدِ أَنْ تَمْلِكَ قَلْبَهُ هَيْبَةُ سَيِّدِهِ » .

وَسَيُفْضِى - بِمَشِيئَةِ اللهِ - إِلَى مَا يَسْتَجِيزُهُ الْحَاجِبُ مَوْلَاىَ مِنْ إِمْتَاعِ مَنْ شَاهَدَ ، وَيَسْتَطْرِفُهُ مِنْ أَدَبٍ يَسْتَطْلِعُهُ مِنْ إِجْمَالِ طَلَبٍ ، وَجَمَالِ مَذْهَبٍ ، كَمَا أَنِّى أَعْلَمُ أَنِّى سَأَصِلُ إِلَى مَا لَمْ أَعْهَدْ مِثْلَهُ مِنْ بَهَاءِ مَنْظَرٍ ، وَسَنَاءِ مَخْبَرٍ ، وَرِفْعَةِ شَانٍ . وَعِظَمِ سُلْطَانٍ ، وَلَعَلَّ السَّعَادَةَ تُهَيِّئُ لِى مِنَ الْحَظِّ مَا أُثْبِتُ بِهِ مَا ادَّعَيْتُهُ لِنَفْسِى مِنْ هٰذِهِ الصِّفَاتِ ، وَأُنْجِزُ مَعَهُ مَا قَدَّمْتُ عَنْهَا مِنْ هٰذِهِ الْعِدَاتِ ، فَحَوْلُ اللهِ فِى ذٰلِكَ كَفِيلٌ ، وَهُوَ حَسْبِى وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ، زَادَ اللهُ الْحَاجِبَ مَوْلَاىَ مِنْ سَنِىِّ قِسَمِهِ ، وَهَنِىِّ نِعَمِهِ ، وَبَلَّغَهُ النِّهَايَةَ مِنْ آمَالِهِ .

رسالة من قرطبة

« وكتب إليه بعد أن صدر من حضرته إلى قرطبة رسالة يقول فيها : »

أَطَالَ اللهُ بَقَاءَ مَوْلَاىَ لِلنِّعَمِ يُطَوِّقُهَا ، وَالْآمَالِ يُصَرِّفُهَا[2] ، وَالْمِنَنِ يُقَلِّدُهَا وَالْأَحْرَارِ يَسْتَعْبِدُهَا .

---

(١) فى الأصل : « فعذرى عند الفضل . »

(٢) وفى نسخة الذخيرة المنقولة عن النسخة المنقولة عن النسخة المغربية : « يصدقها »

يَعْلَمُ الَّذِى أَسْأَلُهُ إِعْزَازَ مَوْلاَىَ وَإِعْلاَءَ أَمْرِهِ ، وَصِلَةَ تَأْيِيدِهِ ، وَتَمْكِينَ نَصْرِهِ، أَنِّى ـ لَمْ أَزَلْ مُنْذُ فَارَقْتُ حَضْرَتَهُ الْجَلِيلَةَ حَضْرَةَ الْمَجْدِ وَالسِّيَادَةِ ، وَمَحَلَّ الْإِقْبَالِ وَالسَّعَادَةِ ـ لَهَجَ اللِّسَانِ بِمَا حَبَانِى مِنْ ثِمَارِ الْحِكْمَةِ وَالنِّعْمَةِ ، وَأَفَادَنِى مِنْ عَقْدِ الْادَبِ وَالنَّسَبِ ، فَمِنْ كَبِدٍ حَاسِدٍ تَصَدَّعَتْ ، وَأَنْفَاسِ مُنَافِسٍ تَقَطَّعَتْ ، وَنَاعِمِ الْبَالِ أَكْسَفْتُ بَالَهُ ، وَمُتَمَنٍّ لِحَالِى طَالَمَا تَمَنَّيْتُ حَالَهُ ، وَقَلَّمَا أَنَالُ أَدْنَى مَكَانَةٍ مِنْهُ ، وَأَرْقَى أَوَّلَ دَرَجَةٍ مِنَ الْخُصُوصِ بِهِ ، تَحْسُدُهُ الْكَوَاكِبُ فى إِشْرَاقِهَا ، وَتَنْحَسِدُ إِلَيْهِ الْأَمَانِى مِنْ أَطْرَافِهَا ، لِعَبِيدِهِ الذِينَ أَنَا آخِرُهُمْ فى الْخِدْمَةِ ، وَأَوَّلُهُمْ فى شُكْرِ النِّعْمَةِ ، وَيَرْفَعُ مِنْ هِمَمِهِمْ مَا انْخَفَضَ ، وَيَبْسُطُ مِنْ آمَالِهِمْ مَا انْقَبَضَ ، وَلاَ يُعْدِمُهُمُ التَّقَلُّبَ فى نِعْمَتِهِ ، وَالاِعْتِلاَقَ بِأَسْبَابِ ذِمَّتِهِ ، بِمَجْدِهِ وَكَرَمِهِ ، وَكَانَتْ مِنْ مَوْلاَىَ ـ أَعَزَّهُ اللهُ ـ إِشَارَةٌ بَلْ عِبَارَةٌ أَعْدَدْتُهَا طَلِيعَةً لِسُعُودٍ تَتَوَالَى طَلَقاً ، وَمُقَدِّمَاتٍ لِمَسَرَّاتٍ تَتَوَالَى نَسَقاً ، فَلَمَّا لَحِقَ الْجِسْمُ بَعْدَ تَرْكِهِ النَّفْسَ لَدَيْهِ ، وَالْبَرَاءَةَ مِنْهَا إِلَيْهِ ، بِالْوَطَنِ الَّذِى أَسْلاَنِى عَنْهُ ، وَأَسْنَى لِى الْعِوَضَ مِنْهُ ، تَأَتَّيْتُ مِنْ طَاعَتِهِ الْمُقْتَرِنَةِ بِطَاعَةِ اللهِ فى نَفْسِى مَمْلُوكَتِهِ لِمَا أَنَا مُهَنَّأٌ بِهِ مُنَافَسٌ فِيهِ ، فَسَاعَفَتِ الْمَآرِبُ ، وَأَسْمَحَتِ الْمَطَالِبُ ، وَلَمْ يَرَ بِنِى تَعَذُّرٌ وَجْهٍ حَاوَلْتُهُ ، وَلاَ عَدَانِى تَيَسُّرُ أَمْرٍ تَنَاوَلْتُهُ ، وَلَمْ تَبْقَ عِلَّةٌ تُسَوِّغُ بِاعْتِرَاضِهَا الاِعْتِذَارَ إِلاَّ مَا يَتَرَاحَى مَا يُعَاوِدُ أَمْرَهُ ، وَيَتَجَدَّدُ فى الْحَرَكَةِ إِذْنُهُ ، وَلَمْ أَسْتَأْذِنْ لِأَنَّ الْإِذْنَ بَعْدَ عَهْدُهُ ، وَلِأَنَّ الْمِيعَادَ لَمْ يُحْكَمْ عَقْدُهُ ، بَلْ تَجَنَّبْتُ أَنْ أُدِلَّ بِتَرْكِ الْمُشَاوَرَةِ ، أَوْ أُخِلَّ بِرَسْمِ الْمُؤَامَرَةِ، فَلِمَوْلاَىَ الطَّوْلُ فى أَمْرِ الْوَسَاطَةِ عِنْدَهُ بِمُرَاجَعَةٍ أَعْتَمِدُ عَلَيْهَا، وَأَجْتَهِدُ فى الاِنْتِهَاءِ إِلَيْهَا ، وَاللهُ يُبَلِّغُنِى الآمَالَ مِنْ وَقْفَةٍ بِحَضْرَتِهِ ، وَنَظْرَةٍ إِلَى غُرَّتِهِ ، وَتَقْبِيلٍ لِرَاحَتِهِ ، وَتَصَرُّفٍ فى سَاحَتِهِ ، فَهُوَ الْمَالِكُ لِذَلِكَ ، الْقَادِرُ عَلَيْهِ .

من رسالة

« وله من رسالة حذف أبو الحسن هنا أكثرها ولم يذكر إلا قطرة من وابل ، أو نفثة من سحر بابل ، وها أنا مثبتها على تواليها ، إشارة لحسن معانيها ، واستفادة من سنى أدبه فيها ، وهى[1] : »

يَا سَيِّدِى الَّذِى كُنْتُ أَرَاهُ أَعَدَّ عُدَدِى ، وَأَخَصَّ جُنَنِى ، مِنْ زَمَنِى ، وَمَنْ أَبْقَاهُ اللهُ فى أَصْلَحِ الْأَحْوَالِ ، وَأَفْسَحِ الآمَالِ .

أُبْدِئُ جَرْىَ كِتَابِى إِلَيْكَ بِشَرْحِ الضَّرُورَةِ الْحَافِزَةِ إِلَى مَا صَنَعْتَ مِمَّا بَلَغَنِى أَنَّكَ صَدَّكَ اللَّأْمَانِ بِى عَلَيْهِ ، وَأَوَّلَ السَّفِيهَانِ الرَّأْىَ فِيهِ ، وَمِنْ أَمْثَالِهِمْ وَيْلٌ لِلشَّجِىِّ مِنَ الْخَلِىِّ ، وَهَانَ عَلَى الْأَمْلَسِ مَا لَاقَى الدَّبِرُ .

وَأُوسِّطُهُ بِمُعَاتَبَتِكَ عَلَى مَا كَانَ مِنِ انْفِصَالِكَ عَنِّى ، وَبَرَاءَتِكَ مِنْ آكَدِ الْمِحْنَةِ مِنِّى ، وَأَنَّكَ لَمْ تَكُنْ فى وِرْدٍ وَلَا صَدَرٍ مِنْ مُشَارَكَتِى فِيهَا ، وَلَا كَانَتْ لَكَ نَاقَةٌ وَلَا جَمَلٌ فى مُظَاهَرَتِكَ لِى عَلَيْهَا ، مَعَ الْقُدْرَةِ لَكَ عَلَى تَهْوِينِ خَطْبِهَا ، وَتَذْلِيلِ صَعْبِهَا ، وَتَلْيِينِ شَدِيدِهَا ، وَتَقْرِيبِ بَعِيدِهَا ، فَأَرَى صِدْقَكَ الْحَدِيثَ وَمَا ذَاكَ بُخْلاً مِنِّى لِبُخْلِى عَلَيْكَ بِالْإِغْضَاءِ أَنْتَ عَيْنِى (وَلَيْسَ مِنْ حَقِّ عَيْنِى) غَضُّ أَجْفَانِهَا عَلَى الْقَذَى[2] وَإِنَّمَا يُعَاتِبُ الْأَدِيمُ ذُو الْبَشَرَةِ[3] ، وَالْمَثَلُ السَّائِرُ : يَبْقَى الْوُدُّ مَا بَقِىَ الْعِتَابُ ، وَقَالَ الآخَرُ :

---

(١) ابن بسام .

(٢) جملة «وليس من حق عينى» ساقطة من الأصل ، وقد أثبتناها لأن السياق يقتضيها ، وهو يشير إلى قول ابن الرومى :

« أنت عينى ، وليس من حق عينى غض أجفانها على الأقذاء . »

(٣) المعاتبة : المعاودة وبشرة الأديم : ظاهره الذى عليه الشعر ، أى إنما يعاد إلى الدباغ من الأديم ماسلمت بشرته ، وهو مثل يضرب فى إمكان المراجعة والاستعتاب ، وفى الأصل «وإنما يعاتب الأديم على البشرة . »

أَبْلِغْ أَبَا مِسْمَعٍ عَنِّى مُغَلْغَلَةً ... وَفِى الْعِتَابِ حَيَاةٌ بَيْنَ أَقْوَامِ

وَأَخْتِمُهُ بِتَكْلِيفِكَ مَا كَانَ سَبَبَ الْكِتَابِ ، وَالدَّاعِىَ إِلَى الْخِطَابِ ، عَسَاكَ أَنْ تَتَلاَفَى عَوْدًا ، مَا ضَيَّعْتَ بَدْءًا ، وَتَهْتَبِلَ آخِرًا ، مَا أَغْفَلْتَ أَوَّلاً ، فَيَعُودَ عَيْثُ مَا أَفْسَدْتَ ، وَإِنْ كُنْتَ فِى ذٰلِكَ : « كَدَابِغَةٍ وَقَدْ حَلِمَ الْأَدِيمُ » (١) فَمَنَعَتْهُ الْفَوْتَ قَبْلَ الْعَطَبِ .

وَخَيْرُ الْأَمْرِ مَا اسْتَقْبَلْتَ مِنْهُ ... وَلَيْسَ بِأَنْ تَتَبَّعَهُ اتِّبَاعَا

فِى عِلْمِكَ أَبِّى سُجِنْتُ مُغَالَبَةً بِالْهَوَى ، وَهُوَ أَخُو الْعَمَى ، وَقَدْ نَهَى اللهُ عَنِ اتِّبَاعِهِ ، وَذَكَرَ أَنَّهُ يُضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ إِذْ يَقُولُ : « وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ . » وَقَالَ الشَّاعِرُ :

« إِذَا أَنْتَ لَمْ تَعْصِ الْهَوَى قَادَكَ الْهَوَى ... إِلَى بَعْضِ مَا فِيهِ عَلَيْكَ مَقَالُ . »

دُونَ تَأَنٍّ تَدْرَكُ بَعْضُ الْحَاجَةِ بِهِ ، أَوِ اسْتِثْبَاتٍ تُؤْمَنُ مُوَاقَعَةُ الزَّلَلِ مَعَهُ ، بَلْ : « أَوْرَدَهَا سَعْدٌ وَسَعْدٌ مُشْتَمِلْ . » وَشَهِدَ ابْنُ الْعَشَارِ الْعَارِى عَنِ النَّقَةِ وَالْأَمَانَةِ ، الْبَعِيدُ مِنَ الرِّعْيَةِ وَالصِّيَانَةِ ، النَّاشِرُ لِأُذُنَيْهِ طَمَعًا ، الْآكِلُ بِيَدَيْهِ جَشَعًا ، فَكَانَ : « الْقَوْلُ مَا قَالَتْ حَذَامِ » . وَلَمْ يَقْتَصِرْ عَلَى أَنْ أُلْحِقَ بِالشُّهُودِ ، وَهُوَ وَاوُ عَمْرٍو فِيهِمْ ، وَنُونُ الْجَمْعِ الْمُضَافِ مَعَهُمْ ، دُونَ أَنْ يُلْحَقَ بِخُزَيْمَةَ ذِى الشَّهَادَتَيْنِ ، وَيَنُوبَ مُنْفَرِدًا عَنِ اثْنَيْنِ .

« لَيْسَ عَلَى اللهِ بِمُسْتَنْكَرٍ ... أَنْ يَجْمَعَ الْعَالَمَ فِى وَاحِدِ . »

---

(١) يضرب للأمر الذى انتهى فساده ، وذلك أن الجلد إذا حلم أى فسد إهابه ووقع فيه دود فتنقب لم يرج له إصلاح ، ويروى عن الوليد بن عتبة أنه كتب إلى معاوية :

« فإنك والكتاب إلى على ... كدابغة وقد حلم الأديم . »

وَلْيَبْتَنِي مَعَ مَنْ لاَ يَحِلُّ قَوْلُهُ عَلَيَّ ، أُعْذَرُ فِي شَهَادَتِهِ إِلَيَّ ، وَلَمْ يَقْتَرِنِ الْخَشَفُ مَعَ سُوءِ الْكِيلَةِ ، وَيَسْتَضِيفَ لِي الْغُدَّةَ إِلَى الْمَوْتِ فِي بَيْتِ سَلُولِيَّةَ ، خُطَّتَا خَسْفٍ لَمْ أَرَ النَّجَاءَ مِنْهُمَا إِلاَّ أَنْ رَكِبْتُ الْحَوْلِيَّ الْأَشْهَبَ ، وَرَأَيْتُ خُرَاسَانَ مَكَانَ السُّوقِ أَوْ هِيَ أَقْرَبُ ، وَكَانَ الْمُتَوَلِّي سِجْنِي بَعْدَ شَهْرٍ مِنْ إِنْفَاذِهِ ، لَهُ مَجْلِسٌ حَضَرَهُ فُقَهَاءُ الْحَضْرَةِ وَمَنْ أُعْلِمَ بِسِيمَاهُمْ ، وَجَرَى فِي غِشْيَانِ الْحُكَّامِ مَجْرَاهُمْ ، فَذَكَرَ لَهُ أَنَّهُ اتُّهِمَنِي بِالْمُغَيَّبِ عَلَى عَهْدِ الْمُتَوَفَّى مَوْلاَيَ ـ كَانَ ـ نَقَعَ اللهُ صَدَاهُ ، وَبَلَّ ثَرَاهُ ، وَثَبَتَ عِنْدَهُ مَعَ ذٰلِكَ أَنِّي مِمَّنْ تُعَامِلُهُ الْهِمَمُ ، وَلاَ تَرْتَفِعُ عَنْهُ الظُّنَنُ ، فَكُلُّهُمْ أَفْتَى بِالْإِعْذَارِ إِلَيَّ ، فِيمَا شَهِدَ بِهِ مِنْ ذٰلِكَ عَلَيَّ ، ثُمَّ سَجَنَنِي أَنْ لَمْ آتِ بِمَدْفَعٍ ، أَوْ أَصْدَعْ مِنَ الْحُجَّةِ بِمَقْنَعٍ ، فَاحْتَاطَ وَاجْتَهَدَ ، وَتَحَرَّى وَاقْتَصَدَ ، وَصَالَحَنِي مِنْ هٰذِهِ الْفُتْيَا عَلَى النِّصْفِ بِتَأْخِيرِ الْإِعْذَارِ ، وَتَقْدِيمِ الصُّلْحِ ، وَالصُّلْحُ جَائِزٌ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ(١) ، ثُمَّ أَظْهَرْتُ إِلَيْهِ عَقْداً كَانَ الْمُتَوَفَّى قَدَّسَ اللهُ رُوحَهُ ، وَنَوَّرَ ضَرِيحَهُ ، قَدْ أَشْهَدَ فِيهِ أَنْ لاَ مَالَ لَهُ ، وَأَنَّ جَمِيعَ مَا تُحِيطُ بِهِ الدَّارُ الَّتِي تُوُفِّيَ بَعْدَ هٰذَا الْإِشْهَادِ فِيهَا ، إِنَّمَا هُوَ لِلْغَانِيَةِ الَّتِي فِي عِصْمَتِهِ ، حَاشَا دَقَائِقَ يَبَنَّهَا ، وَمُحَقَّرَاتٍ عَيَّنَهَا ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ مَنْ أَشْهَدَ بِهٰذَا عَلَى نَفْسِهِ ، وَتَقَيَّدَ مِثْلُهُ مِنْ لَفْظِهِ ، فَمُحَالٌ أَنْ يُخَلِّفَ عَهْداً ، وَيَهْلِكَ مِنْ وَصِيَّةٍ ، وَسَأَلْتُهُ الشُّورَى فِيمَا أَثْبَتُّهُ مِنْ هٰذَا الْعَهْدِ ، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى ذٰلِكَ ، وَلَوْ لَمْ تَكُنِ الشُّورَى مِنْ أَدَبِ اللهِ إِذْ يَقُولُ : « وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا

---

(١) جاء فى رسالة عمر بن الخطاب رضى الله عنه الجامعة لأحكام القضاء التى أرسلها إلى أبى موسى الأشعرى قوله : « والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحل حراما أو حرم حلالا . » وفى الأصل : « والسجن جائز بين المسلمين »

عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ » . لَوَجَبَ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهَا لَقَاحُ الْعَقْلِ ، وَرَائِدُ الصَّوَابِ ، وَأَنَّ لِلْمُشَاوِرِ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ ، صَوَاباً يَفُوزُ بِمَحْمَدَتِهِ ، أَوْ خَطَأً يُشَارِكُ فِى مَذَمَّتِهِ ، قالَ الشَّاعِرُ :

«وَلاَ تَجْعَلِ الشُّورَى عَلَيْكَ غَضَاضَةً مَكَانُ الْخَوَافِى عُدَّةٌ لِلْقَوَادِمِ (١) . »

قَدْ قَرَعْتُ لَهُ الْعَصَا وَنَبَّهْتُهُ عَلَى أَنَّ الَّذِى دَعَوْتُهُ إِلَيْهِ ، لاَ يَسُوغُ دَفْعِى عَنْهُ ، وَلاَ يَجُوزُ مَنْعِى مِنْهُ (٢) ، فَحِينَئِذٍ عَلَّلَنِى بِمَوَاعِيدَ : كَانَتْ مَوَاعِيدُ عُرْقُوبٍ لَهَا مَثَلاً ، إِذَا قَطَعْنَا مِنْهُ عَلَماً بَدَا عَلَمٌ ، وَكَانَ آخِرَهَا ـ الَّذِى نَسَخَ بِهِ مَا قَبْلَهُ ـ أَنْ تُدْرِجَ الشُّورَى إِلَى أَبْنَاءِ الشُّورَى لِلْوَرَثَةِ ، فَنَوَيْتُ أَرْقُبُ هٰذَا الْحِينَ ، وَأَرْجُو أَنْ يَحِينَ ، كَمَا يَرْجُو أَخُو السَّنَةِ الرَّبِيعَ : وَكَمَا فِى بُطُونِ الْحَامِلاَتِ رَجَاءُ .

« فَكُنْتُ وَإِيَّاهُ سَحَابَةَ مُمْحِلٍ رَجَاهَا ، فَلَمَّا جَاوَزَتْهُ اسْتَهَلَّتِ »

وفى فصل منها :

وَلَمْ أَنُصَّ عَلَيْكَ يَا سَيِّدِى مِمَّا أَجْلَبْتُهُ إِلاَّ مَا شُهِرَ شُهْرَةَ الاِسْمِ ، وَعُرِفَ مَعْرِفَةَ النَّسَبِ ، وَمَا يَوْمُ حَلِيمَةَ بِسِرٍّ ، وَكُنْتُ أَوَّلَ حَبْسِى قَدْ وُضِعْتُ مِنَ السِّجْنِ فِى مَوْضِعٍ قَدْ جَرَتِ الْعَادَةُ بِوَضْعِ مَسْتُورِى النَّاسِ ، وَذَوِى الْهَيْئَاتِ مِنْهُمْ فِيهِ ، وَفِى الشَّرِّ خِيَارٌ ، وَبَعْضُهُ أَهْوَنُ مِنْ بَعْضٍ ، فَنُبِيتُ ـ مِنْ مُطَالَبَةِ بَعْضِ مَا يَهْتَمُّ النَّاظِرُونَ فِى السِّجْنِ لَه وَيَسْعَوْنَ إِلَيْهِ ـ بِمَا اقْتَضَى نَقْلِى إِلَى حَيْثُ الْجُنَاةُ الْمُفْسِدُونَ ، وَاللُّصُوصُ الْمُقَيَّدُونَ ، وَشَكَوْتُ ذٰلِكَ إِلَى الْحَكَمِ الْحَابِسِ لِى فِى الْيَوْمِ الَّذِى مَضَى ذِكْرُهُ بِمَشْهَدِ مَنْ تَقَدَّمَ

(١) البيت لبشار بن برد . (٢) فى الأصل : « ونبه على الذى دعوته إليه ، لا يسوغ لى دفعه عنه ، ولا يجوز معى منه . » وما أثبتناه هنا هو ما يمكن أن يستقيم به المعنى .

وَصْفُهُ ، فَانْتَفَى مِنَ الرِّضَا بِهِ ، وَأَظْهَرَ الِامْتِعَاضَ مِنْهُ ، وَتَقَدَّمَ إِلَى الْمُوَكَّلِ بِالسِّجْنِ فِى اخْتِيَارِ مَجْلِسٍ أُبَايِنُ فِيهِ مَنْ لَا تَلِيقُ بِى مُلَابَسَتُهُ ، وَأَنْتَبِذُ عَمَّنْ لَا تُرْضَى لِى مُجَالَسَتُهُ ، ثُمَّ لَمْ أَلْبَثْ أَنْ أَحْضَرَهُ مَجْلِسَ نَظَرِهِ ، وَأَمَرَ بِتَأْدِيبِهِ ، عَلَى امْتِثَالِهِ فِيمَا أَمَرَهُ بِهِ ، وَانْتِهَائِهِ إِلَى مَا حَدَّ لَهُ ، وَاسْتَأْنَفَ الْعَهْدَ فِى التَّضْيِيقِ عَلَيَّ ، وَمَنَعَ مَنِ اعْتَادَ صِلَتِى مِنَ الْوُصُولِ إِلَيَّ ، فَأُصْعِدْتُ إِلَى غُرْفَةٍ فِى السِّجْنِ أَقْنَعَنِى بِهَا مَعَ خَسَاسَتِهَا ، وَأَسْلَانِى عَنِ الْمُصِيبَةِ بِالْكَوْنِ فِيهَا — عَلَى مَضَاضَتِهَا — انْفِرَادِى مِنْ لَفِيفِ الْأَخْلَاطِ ، وَمَنْ ضَمَّهُ السِّجْنُ مِنَ السَّفْلَةِ وَالسُّقَّاطِ ، فَحِينَ اسْتِوَائِى إِلَيْهَا عَهِدَ بِحَطِّى إِلَيْهِمْ ، وَخَلْطِى بِهِمْ ، وَوَضْعِى بَيْنَهُمْ ، فَنُقِلْتُ وَدَخَلَ إِلَيَّ فِى هٰذِهِ الْحَالِ مَنْ أَبْلَغَ إِلَيَّ عَنِ ابْنِ أَخِى الْحَكَمِ رِسَالَةً جَامِعَةً مِنَ السَّبِّ الْفَاحِشِ فُنُونَهُ ، مُشْتَمِلَةً مِنَ الْوَعِيدِ الْمُرْهِبِ عَلَى ضُرُوبِهِ . فَلَوْ ذَاتُ سِوَارٍ لَطَمَتْنِى .

« وَإِنَّكَ لَمْ يَفْخَرْ عَلَيْكَ كَفَاخِرٍ ضَعِيفٍ ، وَلَمْ يَغْلِبْكَ مِثْلُ مُغَلَّبِ »

فَلَمْ أَسْتَطِعْ صَبْرًا ، وَعَلِمْتُ أَنِّى قَدْ أَبْلَيْتُ عُذْرًا ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ يُعْذِرَ لِى لَبِيدٌ وَكَادَ[1] ، وَرَأَيْتُ أَنَّ الْعَاجِزَ مَنْ لَا يَسْتَبِدُّ . فَالْمَرْءُ يَعْجِزُ لَا مَحَالَهَ ، وَلَمْ أَسْتَجِزْ أَنْ أَكُونَ ثَالِثَ الْأَذَلَّيْنِ الْعَيْرِ وَالْوَتِدِ ، وَذَكَرْتُ أَنَّ الْفِرَارَ مِنَ الظُّلْمِ

---

(١) يشير إلى قول لبيد يخاطب ابنتيه :

فقوما فقولا بالذى قد علمتما ولا تخمشا وجها، ولا تحلقا الشعر

وقولا : « هو المرء الذى لا خليله أضاع ولا خان الصديق ولا غدر »

إلى الحول، ثم اسم السلام عليكما ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر

واعتذر كأعذر أنى بعذر ، فهما بعد تمام الحول اذا أمسكتا عن النوح والبكاء على أبيهما فلهما العذر .

وَالْهَرَبَ مِمَّا لاَ يُطَاقُ مِنْ سُنَنِ الْمُرْسَلِينَ . قالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى لِسَانِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلاَمُ : « فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ » . وَقالَ الشَّاعِرُ :

« لاَ عَارَ لاَ عَارَ فِى الْفِرَارِ، فَقَدْ فَرَّ نَبِيُّ الْهُدَى إِلَى الْغَارِ »

وَنَظَرْتُ فِى مُفَارَقَةِ الْوَطَنِ ، وَالْبَيْنِ عَنِ الْأَحِبَّةِ . فَتَبَيَّنَ لِى أَنَّ إِيحَاشَ نَفْسِى بِإِينَاسِ أَهْلِى ، وَقَطْعَهَا فِى مُوَاصَلَةِ وَطَنِى ، غَبْنٌ فِى الرَّأْىِ ، وَخَوَرٌ فِى الْعَزْمِ ، وَوَجَدْتُ الْحُرَّ يَنَامُ عَلَى الثُّكْلِ ، وَلاَ يَنَامُ عَلَى الذُّلِّ ، وَأَذِنْتُ إِلَى قَوْلِهِمْ : لَيْسَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ الْبِلاَدِ نَسَبٌ ، وَإِذَا نَبَا بِكَ مَنْزِلٌ فَتَحَوَّلْ ، وَقالَ بَعْضُ الْمُحْدَثِينَ :

« أَرَى النَّاسَ أُحْدُوثَةً فَكُونِى حَدِيثاً حَسَنْ
كَأَنْ لَمْ يَزَلْ مَا أَتَى وَمَا قَدْ مَضَى لَمْ يَكُنْ
إِذَا وَطَنٌ رَابَنِى فَكُلُّ مَكَانٍ وَطَنْ »

وَلَمْ أَسْتَغْرِبْ أَنْ أُسَامَ بِمِثْلِ هٰذَا الْخَسْفِ فِى مَسْقَطِ رَأْسِى ، وَمَعَقُّ[1] تَمَائِمِى ، وَأَوَّلِ أَرْضٍ مَسَّ تُرَابُهَا جِلْدِى ، فَقَدِيماً ضَاعَ الْمَرْءُ الْفَاضِلُ فِى وَطَنِهِ ، وَكَسَدَ الْعِلْقُ الْغَبِيطُ فِى مَعْدِنِهِ . قالَ بَعْضُهُمْ :

« أُضِيعُ فِى مَعْشَرِى، وَكَمْ بَلَدٍ يَعُودُ عُودُ الْكِبَاءِ مِنْ حَطَبِهْ »

فَاسْتَخَرْتُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ وَاضِحَ وَجْهِ الْعُذْرِ ، ثَابِتَ قَائِمِ الْحُجَّةِ ، عِنْدَ مَنْ غَضَّ عَيْنَ الْهَوَى ، وَخَزَنَ لِسَانَ التَّعَسُّفِ ، وَاللهُ يُصِيبُ غَرَضَ الصَّوَابِ بِرَأْىٍ ، وَيُقَرِّبُ غَايَةَ النَّجَاحِ عَلَى سَعْىٍ، حَسْبَمَا ذٰلِكَ فِى عِلْمِهِ أَنِّى مَظْلُومٌ مَبْغِىٌّ

---

(١) المعق : الموضع الذى تعق أى تشق فيه عن الصبى التمائم ، ومنه قوله :
« بلاد بها عق الشباب تمائمى وأول أرض مس حلدى ترابها . »

عَلَيَّ، مَنْسُوبٌ مَا لَمْ آتِهِ إِلَيَّ، فَهُوَ الْمُؤَمَّلُ لِذٰلِكَ، وَالْمَرْجُوُّ لَهُ، وَلَعَمْرُكَ يَاسَيِّدِي إِنَّ سَاحَةَ[1] الْعُذْرِ لَتَضِيقُ عَنْكَ، وَمَا تَكَادُ تَتَّسِعُ لَكَ، فِي إِسْلَامِكَ تِلْمِيذَكَ وَابْنَ جَارِكَ وَشَيْخِكَ الَّذِي لَمْ تَزَلْ مُثَابِراً عَلَيْهِ آخِذاً عَنْهُ مُقْتَبِساً مِنْهُ مَعَ إِكْثَارِكَ مِنْ ذِكْرِ هٰذَا، وَالِاعْتِدَادِ بِهِ، وَادِّعَاءِ الْحِفْظِ لَهُ، وَقَدْ رَوَيْتَ أَنَّ حُسْنَ الْعَهْدِ مِنَ الْإِيمَانِ، وَسَمِعْتَ الْمَثَلَ: « انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِماً أَوْ مَظْلُوماً. » فَالْمَرْءُ كَثِيرٌ بِأَخِيهِ، وَلَا أَقَلَّ مِنَ اسْتِعْمَالِ الْجِدِّ، وَاسْتِغْرَاقِ الْجَهْدِ، فَمُبْلِغُ نَفْسِ عُذْرَهَا مِثْلُ مُنْجِحٍ، وَلَا لَوْمَ فِي امْرِئٍ بَلَغَ الْعُذْرَ، وَلٰكِنْ مَنْ لَكَ بِأَخِيكَ كُلِّهِ، وَمَا حُمَّ وَاقِعٌ، وَلَا حَذَرَ مِنْ قَدَرٍ، وَقَدْ سَبَقَ السَّيْفُ الْعَذَلَ، وَتَقَدَّمَ مِنْ فِعْلِي مَا جَفَّ بِهِ الْقَلَمُ، وَأَنَا الْآنَ بِحَيْثُ أَمِنْتُ بَعْضَ الْأَمْنِ، إِلَّا أَنَّ رِزّاً[2] مِنْ وَعِيدٍ سَقَطَ إِلَيَّ بِأَنَّ السَّعْيَ لَمْ يَرْتَفِعْ، وَأَنَّ مَادَّةَ الْبَغْيِ لَمْ تَنْقَطِعْ، وَأَنَّ الْبَصِيرَةَ مُسْتَحْكِمَةٌ فِي اسْتِرْجَاعِي مِنَ الْأُفُقِ الَّذِي أَحُلُّ بِهِ، وَالْجَنَابِ الَّذِي أَحُطُّ فِيهِ، وَأَكَّدَ ذٰلِكَ فِي ظَنِّي مَا كَانَ أَشَارَ لِي إِلَيْهِ بَعْضُ مَنْ كُنْتُ آوِي إِلَى الثِّقَةِ بِعَهْدِهِ، وَأَبْنِي عَلَى الْوَثَاقَةِ مِنْ عَقْدِهِ، مِنَ الْفُقَهَاءِ الْمَوْسُومِينَ بِالْأَثَرَةِ عِنْدَ الْحَكَمِ الْمَذْكُورِ وَالْمَكَانَةِ مِنْهُ، وَقَدْ عَاتَبْتُهُ عَلَى تَأَخُّرِهِ عَنْ مُظَافَرَتِي وَتَقْصِيرِهِ فِي مُؤَازَرَتِي، فَاعْتَذَرَ بِأَنَّ ذٰلِكَ لَا سَبِيلَ إِلَيْهِ، وَلَا مَنْفَذَ لِلْحِيلَةِ فِيهِ، إِذِ الْمُحَرِّضُ عَلَيَّ لَا تَتَأَتَّى مُعَارَضَتُهُ، وَلَا يَتَهَيَّأُ الِاسْتِبْدَادُ عَلَيْهِ، وَأَنَّهُ وَصَفَنِي بِالْبَذَاءِ وَعَابَنِي بِالتَّسَلُّطِ عَلَى الْأَعْرَاضِ، وَوَاللّٰهِ مَا اسْتَجَزْتُ هٰذَا بَعْدَ أَنْ هَتَكَ

---

(١) فى الأصل : « ان ساعة العذر . » وفى هامش الاصل « لعلها سعه » وقد أثبتنا مكانها «ساحة» التى هى على صورتها فى الخط ليستقيم المعنى .

(٢) الرز والركز الصوت الخفى تسمعه من بعيد .

مِنْ سِتْرِى مَا هَتَكَ ، وَانْتَهَكَ مَا انْتَهَكَ ، إِنْ كُنْتُ أَقُولُ مَعْذُوراً ، وَأَنْفُتُ مَصْدُوراً ، فَكَيْفَ قَبْلَ ذٰلِكَ إِذْ لَمْ يَحْدُثْ سَبَبٌ ، وَلاَ غَرَضَ مُوجِبٌ ، وَمَالِى وَهٰذَا الْمَجْتَنَى ثُمَّ مَالِيَا ، وَ « سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ » وَلَيْسَتْ هٰذِهِ بِبِكْرٍ مِنَ النَّمَائِمِ الَّتِي دَخَلَ بِهَا بَيْنَ الْعَصَا وَلِحَائِهَا :

« فَإِنِّى رَأَيْتُ غُوَاةَ الرِّجَا ... لِ لاَ يَتْرُكُونَ أَدِيماً صَحِيحَا »

⁂

وَمَنْ يَأْذَنْ إِلَى الْوَاشِينَ تُسْلَقْ ... مَسَامِعُهُ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادِ

وَيَا سَيِّدِى :

لَوْ بِغَيْرِ الْمَاءِ حَلْقِى شَرِقٌ ... كُنْتُ كَالظَّمْآنِ بِالْمَاءِ اعْتِصَارِى

وَوَاللهِ مَا تَوَهَّمْتُ أَنِّى أُوتَى مِمَّنْ أُوتِيتُ مِنْهُ مَعَ اتِّصَالِى بِهِ ، وَانْقِطَاعِى إِلَيْهِ ، وَانْسَامِى بِالتَّأْمِيلِ لَهُ ، وَالتَّعْوِيلِ عَلَيْهِ . إِنَّ الْمَعَارِفَ فِى أَهْلِ النُّهَى ذِمَمُ .

وَلٰكِنْ :

إِذَا كَانَ غَيْرُ اللهِ — لِلْمَرْءِ — عُدَّةً ... أَتَتْهُ الرَّزَايَا مِنْ وُجُوهِ الْفَوَائِدِ

لَقَدْ كَانَ مِنْ مَحَاسِنِ الشِّيَمِ ، وَشُرُوطِ الْمُرُوءَةِ وَالْكَرَمِ ، أَنْ يَهَبَ لِى مَا أَنْكَرَ لِمَا عَرَفَ ، وَيَغْفِرَ مَا سَخِطَ لِمَا رَضِىَ ، وَيَدْفَعَ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ، وَيُؤْثِرَ الَّذِى هُوَ أَجْمَلُ وَأَرْفَقُ ، وَيَتَوَقَّفَ عِنْدَ مَا نُصَّ لَهُ مِنْ سِعَايَةٍ ، وَزُفَّ إِلَيْهِ مِنْ وِشَايَةٍ ، فَإِنْ كَانَ بَاطِلاً أَلْقَاهُ ، وَفَضَحَ الْمُخْبِرَ الْمُتَقَرِّبَ بِهِ وَأَقْصَاهُ ، وَإِنْ كَانَ حَقًّا صَبَرَ صَبْرَ الْحَلِيمِ ، وَأَغْضَى إِغْضَاءَ الْكَرِيمِ ، وَقَبِلَ إِنَابَةَ الْمُعْتِبِ ، وَاقْتَصَدَ فِى مُؤَاخَذَةِ الْمُذْنِبِ ، فَقَدَّمَ التَّوْقِيفَ ، قَبْلَ التَّثْقِيفِ ، وَالتَّأْنِيبَ ، قَبْلَ التَّأْدِيبِ فَإِنَّ الرِّفْقَ بِالْجَانِى عِتَابُ ، وَالْحُرُّ يُلْحَى وَالْعَصَا لِلْعَبْدِ :

وَلَسْتَ بِمُسْتَبْقٍ أَخًا لَا تَلُمُّهُ عَلَى شَعَثٍ، أَىُّ الرِّجَالِ الْمُهَذَّبُ؟

وَهُوَ يَرَى وَيَسْمَعُ أَنَّ بِالْحَضْرَةِ قَوْمًا لَا يَحْصُرُهُمُ الْعَدُّ تُحْتَمَلُ سَقَطَاتُهُمْ، وَتُغْتَفَرُ هَفَوَاتُهُمْ، وَتُقَالُ عَثَرَاتُهُمْ:

وَمَا شَرُّ الثَّلَاثَةِ أُمَّ عَمْرٍو بِصَاحِبِكِ الَّذِى لَا تَصْبَحِينَا[1]

وَمَا أَعْلَمُ أَنَّهُمْ يُدْلُونَ بِوَسِيلَةٍ إِلَّا شَارَكْتُهُمْ فِيهَا، وَلَا يَمُتُّونَ بِذَرِيعَةٍ يَنْفَرِدُونَ دُونِى بِهَا:

هُوَ الْجَدُّ حَتَّى تَفْضُلَ الْعَيْنُ أُخْتَهَا وَحَتَّى يَصِيرَ الْيَوْمُ لِلْيَوْمِ سَيِّدَا

فَإِنْ كَانَتْ مُسَامَحَتُهُمْ لِسَابِقَةٍ سَلَفَتْ فَقَدْ أَحْرَزْتُ مِنْهَا الْحَظَّ الْأَعْلَى، أَوْ لِكَمَالِ أَدَبٍ فَقَدْ ضَرَبْتُ فِيهِ بِالْقِدْحِ الْمُعَلَّى، أَوْ لِلُطْفِ تَوَدُّدٍ فَمَا قَصَّرْتُ فِى الِاجْتِهَادِ غَيْرَ أَنِّى حُرِمْتُ التَّوْفِيقَ، وَالْأَمْرُ لِلَّهِ، رُبَّ مُجْتَهِدٍ مَا خَابَ إِلَّا لِأَنَّهُ جَاهَدَ.

فَإِنْ كَانَ ذَنْبِى أَنَّ أَحْسَنَ مَطْلَبِى أَسَاءَ فَفِى سُوءِ الْقَضَاءِ لِى الْعُذْرُ

وَاللَّهِ لَقَدْ أَظْهَرْتُ مَدْحَهُ، وَأَضْمَرْتُ نُصْحَهُ، وَتَمَّمْتُ عَلَى الصَّاغِيَةِ لَهُ، وَجَرَيْتُ مِلْءَ الْعِنَانِ إِلَى الِاعْتِلَاقِ بِهِ، أَسْقِيهِ السَّائِغَ مِنْ مِيَاهِ وُدِّى، وَأَكْسِيهِ السَّابِغَ مِنْ بُرُودِ حَمْدِى، وَأُجْنِيهِ الْغَضَّ مِنْ ثَمَرَاتِ شُكْرِى، وَأُهْدِى إِلَيْهِ الْعَطِرَ مِنْ نَفَحَاتِ ذِكْرِى لَا يُفِيدُنِى التَّحَبُّبُ إِلَيْهِ، إِلَّا ضَيَاعًا لَدَيْهِ، وَلَا يَزِيدُنِى التَّقَرُّبُ مِنْهُ، إِلَّا بُعْدًا عَنْهُ:

كَأَنِّى أَسْتَدْنِى بِهِ ابْنَ حَنِيَّةٍ إِذَا النَّزْعُ أَدْنَاهُ مِنَ الصَّدْرِ أَبْعَدَا

وَالَّذِى أُحِبُّهُ مِنْكَ، وَأَثِقُ فِى الْمُسَارَعَةِ إِلَيْهِ بِكَ لِقَاءُهُ مُجَارِيًا ذِكْرِى، مُفَاوِضًا

---

(١) أى ليس شرّ الثلاثة يا أم عمر الذى لا تسعينه الصبوح بصاحبك، وفى الأصل:
« وما شرّ الثلاثة — أم عمرو — لصاحبك الذى لا تصحبينا. »

فى أمْرِى ، مُعْلِمًا لَهُ بِالَّذِى لاَ يَذْهَبُ عَنْهُ ـ مِنْ أَنَّ الَّذِى اخْتَرْتُهُ لِنَفْسِى غَايَةُ مَايُسِىءُ الْعَدُوُّ بِهِ ، وَيُسَاءُ الْمَوْلَى مِنْهُ ـ فَالْجَلاَءُ أَخُو الْقَتْلِ ، وَالْغُرْبَةُ أَحَدُ السَّبَاءَيْنِ قَالَ اللهُ تَعَالَى : « وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِنْهُمْ . » وَقَالَ الشَّاعِرُ :

«وَمَنْ يَغْتَرِبْ عَنْ قَوْمِهِ لاَيَزَلْ يَرَى مَصَارِعَ مَظْلُومٍ مُجَرَّا وَمَسْحَبَا
وَتُدْفَنُ مِنْهُ الصَّالِحَاتُ ، وَإِنْ يُسِئْ يَكُنْ مَا أَسَاءَ النَّارَ فِى رَأْسِ كَبْكَبَا»

وَقَدْ هَجَرْتُ الْأَرْضَ الَّتِى هِىَ ظِئْرِى ، وَالدَّارَ الَّتِى كَانَتْ مِهَادِى ، وَغِبْتُ عَنْ أُمٍّ أَنَا وَاحِدُهَا ، تَمْتَدُّ أَنْفَاسُهَا شَوْقًا إِلَىَّ ، وَتَغُضُّ أَجْفَانَهَا حُزْنًا عَلَىَّ ، وَاللهُ يَرَى بُكَاءَهَا ، وَيَسْمَعُ لِى ـ عَلَى مَنْ ظَلَمَنِى ـ نِدَاءَهَا ، فَالْاِسْتِجَابَةُ مَضْمُونَةٌ لِلْمُخْلِصِ وَالْمَظْلُومِ ، وَقَدْ حَمَلْتُ السِّمَتَيْنِ ، وَاسْتَوْجَبْتُ الصِّفَتَيْنِ ، وَلْتَكُنْ بُغْيَتُكَ الَّتِى تَدَّخِرُهَا عَلَيْهَا كَلِمَةَ تَأْمِينٍ ، وَإِشَارَةً إِلَى تَأْنِيسٍ وَتَسْكِينٍ ، تُرَاجِعُنِى بِهَا فَأَظْهَرُ بِحَيْثُ أَنَا آمِنًا ، وَأُلْقِى الْعَصَا مُطْمَئِنًّا ، فَإِنْ وَجَدْتَ مَحَزَّ الشَّفْرَةِ ، فَالْعَوَانُ لاَ تُعَلَّمُ الْخُمْرَةَ[1] ، فَإِنْ أَشْبَهَتِ اللَّيْلَةُ الْبَارِحَةَ ، أَعْلَمْتَنِى بِذٰلِكَ ، فَطَلَبْتُ الْأَمْنَ فِى مَظَانِّهِ ، وَتَقَرَّيْتُ السَّلاَمَةَ فِى مَوَاطِنِهَا ، وَصَبَرْتُ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ لِى وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ، كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ، وَمَعَ الْيَوْمِ غَدٌ ، وَلِكُلِّ حَالٍ مُعَقِّبٌ ، وَلَرُبَّمَا أَجْلَى لَكَ الْمَكْرُوهُ عَمَّا تَحْمَدُ ، وَلَكَ يَا سَيِّدِى فِى ابْتِدَائِكَ لِمَا نَدَبْتُكَ إِلَيْهِ الْفَضْلُ ، وَالْأَيَادِى قُرُوضٌ ، وَالصَّنَائِعُ وَدَائِعُ :

« لاَ يَذْهَبُ الْعُرْفُ بَيْنَ اللهِ وَالنَّاسِ . »

وَالتَّحِيَّةُ الطَّيِّبَةُ وَالسَّلاَمُ الْمُرَدَّدُ عَلَى سَيِّدِى .

---

(١) الخمرة : اسم للهيئة من الاختمار أى وضع الخمار على الرأس ، وهو مثل يضرب لمن حذق الأشياء وجرب الأمور .

شعر الملكين

(١)

شعر المعتضد

« قال المعتضد بالله المنصور بفضل الله أبو عمرو عباد بن محمد بن عباد رحمه الله . »

« لقد بسط الله المكارم من كفى
فلست على العلات منها أخا كف
تنادى بيوت المال من فرط بذلها
يميني : « قد أسرفت ظالمة كفى »
أتغرى يميني بالسماح فتنهمى
ولا ترتضى خلا يقول لها : يكفى
لعمرك ، ما الاسراف فيّ طبيعة ،
ولكن طبع البخل عندى كالحتف . »

(وقال)

« من للشجاعة والكرم إلا الظلوم المظلم
من لست تعدم عنده غير التبذّل والعدم
أحيا المكارم والعلا وأقام ما آد الهمم
يلقى العداة ، وسيفه قد قط هامات البهم . »

(وقال)

« لعمرك إنى — بالمدامة — قوال ،
وإنى — لما يهوى الندامى — لفعال
وإنى — للخل الخليل — لناعش ،
وانى — للقتل المساوى — لقتال
قسمت زمانى — بين كدّ وراحة —
فللرأى أسحار ، وللطيب آصال
فأمسى — على اللذات واللهو — عاكفا
وأضحى — بساحات الرياسة — أختال
ولست — على الإدمان — أغفل بغيتى
من المجد ، إنى — فى المعالى — لمحتال
إذا نام أقوام عن المجد — صلة —
أسهد عينى أن تنام بى الحال
وإن راق أقواماً — من الناس — منطق
يروق ، بدا منى مقال وأفعال . »

(وقال)

« أقوم — على الأيام — خير مقام ،
وأوقد — فى الأعداء — شر ضرام
وأنفق — فى كسب المحامد — مهجتى ،
ولو كان — فى الذكر الجميل — حمامى
وأبلغ — من دنياى — بعض سؤلها ،
وأضرب — فى كل العلا — بسهام
إذا صح الأملاك نقص ، فانه
يبينه — عند الأنام — تمامى . »

(وقال)

« من كان يسلو عن نوال فأنا الذى لست يسال
البخل عين نقيصة ، والجود عين للكمال
أبصرت رشدى فى الندى ، فالبخل — عندى — كالضلال
هذا زعاف طعمه ، والجود حلو كالزلال . »

(وقال)

« لو كان قلبى — عن الاشغال — منتزحاً ،
نادى لفقد حبيب النفس : واحربا
لكنما شغله بالمجد — مجتهداً —
يلهيه عن حبه إن بان أو قربا . »

(وقال)

« هذى السعادة قد قامت على قدم
وقد خلفت لها فى مجلس الكرم
فان أردت — إلهى — بالورى حسناً
فلكنى زمام الدهر والأمم
فانني لا عدلت الدهر عن حسن ،
ولا عدل بهم عن أكرم الشيم
أقارع — الدهر — عنهم كل ذى طلب
وأطرد — الدهر — عنهم كل ذى عدم. »

(وقال)

« عن القصد قد جاروا ، وما جرت عن قصد
إذا خفيت طرق العرائس عن أسد
إذا اعترضوا للبحل أعرضت عنهم ،
وإن منّ أقوام كتمت الذى أسدى
فلله ما أخفى من العدل والندى ،
ولله ما أبدى من الفضل والمجد
ولا ألتقى صبو بغير بشاشة
إذن فجحدت الله معروفه عندى . »

(وقال)

« ألام ، ومالومى — على الحبّ — واجب ،
وقد صادنى طرف كحيل وحاجب
أنجب عنى — والفؤاد يحبها —
لقد عزّ محجوب تمناه حاجب
أروم فؤادى — فى الغرام — لينثنى
وكيف وما دون الأبية حاجب . »

(وقال)

« زهر الأسنة — فى الهيجا — غدت زهرى
غرست أشجارها مستجزل الثمر
ما إن ذكرت لها من معرك جلل
إلا تحلل — به بالصارم الذكر
حتى غدوت وأعدائى تخاطبنى
يا قاتل الناس بالأجناد والفكر . »

(وقال)

« وإذا توعرت المسالك لم أرد
فيها السرى إلا برأى مقمر
وإذا طلبت عزيمة فمفاتحى
فيها العزيمة والسنان السمهرى . »

(وقال)

« كلام — كمثل الدرّ — تنثره نثراً
ووصل — كظل الروض — تعطيكه نزراً
ولو لم تشب وصلى بهجر لخلتنى
أشاهه منها الشمس أو الثم البدرا . »

(وقال)

« أتاك الليل معتكراً يناقصه سنا البدر
ذر الساعات تبسطه ستقبضه يد الفجر . »

(وقال فى القاضى أبى القاسم أبيه)

« ألا يا مليكا يرتجى ويهاب
وبحراً له — فى المكرمات — عباب
ومولى عدتنى — مذ نشأت — مكارم ،
يصوب سحاب من راحتيه — سحاب
أطعتك — فى سرى وجهرى — جهداً ،
فلم يك لى — إلا الملام — ثواب
وأعملت جهدى فى رضاك دشمرا
ومن دون أن أفضى إليه حجاب
ولما كبا حدى إليك ولم يسع
لنفسى — على سوء المقام — شراب
وقلّ اصطبارى ، حين لا لى عندكم
— من العطف — إلا قسوة وتباب
فررت بنفسى أبتغى فرجة لها
على أن حلو العيش بعدك صاب
وما هزنى إلا رسولك أن جرت
إلىّ به صم الهضاب ركاب
فقال مقالا لم أحد عن مقاله
منابا ، وعن بعض الأمور مناب
دعاك أمير المؤمنين مثوباً
فقلت : « أمير المؤمنين مجاب »
فخف أغذ السير ، حتى كأننا
يطير بسيرى — فى الفلاة — عقاب
وما كنت — بعد الين — إلا موضعاً
بعزمى على ألا يكون إياب

ولـكنك الدنيا إلى حبيبـــة
فما عنك لى ـ إلا إليك ـ ذهاب
وفضـلك فى ترك الملام ، فانه
ـ وحقك ـ فى قلبى ظِباً وحراب
إذا كانت النعمى تكدر بالأذى
فما هى إلا محـــنة وعذاب
ولا تقبضن بالمنع كفى فانه
ـ وحدّك ـ نقص للعلا وخراب
فوالله ما أبغى بذلك غير أن
تحلى بحدوى راحتيك رقاب
ويهدى إليك الناس دون تصنع
غبة صدق لم يشبه كذاب
فكل نوال لى ، إليك انتسابه،
وأنت عليه ـ بالثناء ـ مثاب
بقيت مكبّ الأمر، ماذر شارق،
وما لاح فى أفق السماء شهاب.»

(وقال)

« يا قاتل الصب ولا واق
لا ترض بالله بانفاق
عيناك قد قادت إلىّ الردى
فالقلب مذ لج إلى راق
لولاك ـ والرحمن ـ ما كنت من
يحسب فى حمـــلة عشاق
قد لدغت صدغاك قلبى فهل
تعم للدغ بدرياق . »

(وقال)

« رعى الله من يصلى فؤادى بحبه
ســعيراً ، وعيى منه فى جنة الخلد
غزاليـة العينين شمسية السنا
كثيبية الردفين غصنية القـــد
شكوت إليها حبها بمـــدامعى
وأعلمتها ما قد لقيت من الوجد
فصادف قلبى قلبها ـ وهو سالم ـ
فأعدى، ودوالشوق المبرح قد يعدى
فجادت ـ وما كادت ـ على بخدها
وقد ينبع الماء النمير من الصلد
فقلت لها : « هاتى ثنايك إننى
أفضل نوار الأقاحى على الورد
وميلى على جسمى بجسمك» فاثنت
تعيد الذى أملت منها كما تبدى
عناقاً ولثما أرويا الشـوق بيننا
ـ فرادى ومثنى ـ كالشرار من الزند
فياساعة ـ ما كان أقصر وقتها
لدى ـ تقضت غير مذمومة العهد.»

(وقال)

« ينادون قلبى، والغرام يجيب،
وللقلب ـ فى حين النداء ـ وجيب
مشوق دعاه الشوق والوجد والهوى
يجيب نداء الحب وهو يجيب
يقاسى فؤادى الوجد ـ والحب واصل ـ
فكيف تراه إن جفاه حبيب ؟
إذا أخطأ الأحباب ترتيب حالهم
فانّ فؤادى ـ دائما ـ ليصيب
عليم بأسرار الغرام ، لأنه
بصير ـ بأدواء الحسان ـ طبيب
يواصلنى سرّاً، ويصرم ظاهراً،
وذلك ـ من أعمالهنّ ـ عجيب . »

(وقال)

« بيض الهند والأســل الحداد
أرجى أن يتم لى مرادى
فأبلغ بغيتى ، وأريح نفسى ،
وتحمد حالتى فى كلّ نادى
فقنى الدهر فى قتل الأعادى ،
وحسم رقابهم فى كلّ وادى
فذاك الفرض ـ والرحمن ـ عندى
كمثل الفرض فى حال الجهاد . »

(وقال)

« وليل ظللنا فيه نعمل كأسنا
إلى أن بدت للصبح ـ فى الليل ـ أعمال

وولت نجوم الليل تجرى هزيمة
وجاء ـ مع الاصباح ـ نصر واقبال
فقضيت ـ من هذا وذاك ـ لبانة
وتمّ لنا فتح مبين وآمال . »

(وقال)

« وليل أدمنا فيه شرب مدامة
إلى أن بدا للصبح فى الليل تأثير (١)
وجاءت نجوم الصبح تضرب فى الدجى
فولت نجوم الليل والليل مقهور
فحزنا ـ من اللذات ـ أطيب طيبها
ولم يعدنا همّ ولا عاق تكدير
خلا أنه ـ لو طال ـ دامت مسرة
ولكن ليالى الوصل فيهنّ تقصير . »

(وقال)

« أتعلم أن قلبى غير صاح ؟
وأنى ـ من سلوّك ـ فى انتزاح
وكنت ـ الدهر ـ أصطاد المعالى
فقد أصبحت من صيد الملاح
تسقينى البخيلة كأس صد
وتمزجها ـ لتعليلى ـ براح
ولو شاءت حياتى ـ الدهر ـ سقت
حرور القلب من شبم قراح
وكانت تصنع الحسنى جميلا
ولكن ليس تلقى غير لاح
فسقيني ـ فديتك ـ من عقار
وناديني : هلمّ إلى اصطباح . »

(وقال)

« يطول علىّ الدهر إن لم ألاقها ،
ويقصر ـ إن لاقيتها ـ أطول الدهر
لها غرّة كالبدر ـ عند تمامه ـ
وصدغا عبير نمقا صفحة البدر
وقد كمّل الحسن ـ مالت به الصبا ـ
ولفظ كما انحلّ النظام من الدرّ

(وقال)

« ذكراك فى فيّ قد شيبت بتسبيحى
أفديك يا فتنة الجثمان والروح
الله يعلم أنى لست أهجركم
دهرى ولا تنقضى فيكم تباريحى
إن كنت أشرح معى حبكم شغفاً
فانّ سرّك عندى غير مشروح . »

(وقال)

« ياجاهل الحبّ إنّ الحبّ دو سند
مهما أحزعنه يوماً سوف أعتمد
أيحمل الحب من أضحى به حرق
تكاد من حرّها الأحشاء تتقد
الله يعلم أنى شيق أبدا
لا ينقضى الشوق حتى ينقضى الأبد
إن يشرب الجسم برد الوصل منتعشاً
يهدى إليه فؤادى حر ما يجد . »

(وقال)

« لله درّ الحبّ ماذا يصنع
يعنو له ملك الزمان ويخضع
للحب سلطان عظيم شأنه
مهما يقل قولا فقلبي يسمع
إن يغر بالهجران مالك مهجتى
أقبل إليه بحالتى أتضرّع
ماذا انتفعت بحالتى عند الهوى
حال الهوى أبداً أجل وأرفع . »

(وقال)

« لله ما خلد الأمحاض فى خلدى
لمن غدا والدى كالروح والجسد
للأوحدى أبى الجيش الذى ظفرت
منه بأنفس علق فى الأنام يدى
موفق الرأى فى الرايات لدته
فى الجدّ والجود لا فى العيشة الرغد
إذا رأته العلا نادته مفصحة
ياقرّة العين بل يافلذة الكبد . »

---

(١) هذه المقطوعة أدرجت سهواً ضمن شعر ابن زيدون .

(وقال)

« أترى اللقاء كما نحبّ يوفق
ونظلّ نصبح بالسرور ونغبق

حتام تمطلنى الليالى قرب من
قلبى له متشوّف متشوّق

ملك أغرّ أعار أن تحظى به
لسواى ألحاظ وحظى مملق

أعدى أبا الجيش الموفق أنه
للمكرمات ميسر وموفق

ماهى به الزمن البهى كأنه
نشر على وجه الزمان ورونق

ملك إذا مهنا بطيب ثنائه
طلت به أفواهنا تتمطق

حسب الرياسة أن غدت مرادفة
بسناه مهو التاج وهى المفرق . »

(وقال)

« عرفت عرف الصبا إذ هب عاطره
من أفق من أنا فى قلبى أشاطره

أراد تجديد ذكراه على شحط
وما تيقن أنى الدهر ذاكره

ينأى المزار به والدار دانية
يا حبذا الهول لو صحت زواجره

ذخرى أبا الجيش هل يقضى اللقاء لنا
ويشتفى منك حفى أنت ناظره

فصاره قيصر إن قام ممتجراً
لله أوّله مجـــد وآخره . »

(وقال)

« كأنما ياسمينتنا العصّ
كواكب فى السماء تبيضّ

والطرف الحمر فى حوافله
كخدّ عذراء ناله العضّ . »

(وقال)

« تنام ومدنفها يسهر وتصبر عنه ولا يصبر
لئن دام هذا وهذا به سيهلك وجداً ولا يشعر . »

(وقال)

« أنام وما قلبى عن المجد نائم
وإنّ فؤادى بالمعالى لهائم

وإن قعدت بى علة عن طلابها
فانّ اجتهادى فى الطلاب لقائم

يعزّ على نفسى إذا رمت راحة
براح وتثنينى الطباع الكرائم

وأسهر ليلى مفكراً غير طاعم
وغيرى على العلات شبعان نائم

ينادى اجتهادى إن أحس بفترة
ألا أين يا عباد تلك العزائم

فتهتزّ آمالى وتقوى عزائمى
وتذكرنى لذاتهن الهرائم . »

(وقال)

« أنا فى الحب مغرم مستهتر
كل نيل أناله لى قليل

لى جثمان من يظنّ صحيحاً
وفؤادى من الغرام عليل

(١) أعطى بحقى
إنّ صبرى - على التجنى - جميل
لى ذهن — مثل الحسام — صقيل
هو من كثرة التحنى فليل . »

(وقال)

« إنى على ألفتى بالسهد والكمد
أدعوك يا مضى الأجسام بالسهد

قطعت قلبى الذى أعطاك جوهره
إنى وهبتك محض النفس والكبد

يا درّة لم تلح فى كف غائصها
إلا أهـــل إليها آخر الأبد

قلبى بكفك لا أرجو الفكاك له
مثل الفريسة حلت فى يدى أسد . »

(١) هكذا وجد ناقصاً بالأصل

(وقال)

« يا غرّة تسخر بالبدر
ومقلة تثقف بالسحر
ومبسما نظم من جوهر
وماؤه من أعطر الخمر
ومنطقاً أوتيت من سحره
أحرّ فى قلبى من الجمر
وشادنا تيمنى شخصه
ووكل الأجفات بالسهر
تاجر بى الله تفز بالرضى
وترح الجنة فى التجر . »

(وقال)

« يا درّة قلبى بها مفتون
يسلو، وإن سئل السلوضنين
الله يعلم أن قلبى معرم
من كان ذاصبر فليس يكون
أو أن من يشرى رضاك بموزه
بالخلد قلنا: إنه المغبون . »

(وقال)

« يا قمرا أصبح لى مالكا
لا تتركنى هكذا هالكا
وملذة الكبد التى ضمها
مبيتها الدهر بأوجالكا
رق على قلب العميد الذى
يود أن يجرى على بالكا
حسنت فى خلق وخلق فلم
رضيت بالقبح لأفعالكا . »

(وقال)

« يصبرنى أهل المودة دائما
وإن فؤادى والاله صبور
أعار على مغنى الرئاسة إننى
على كل حسن فى الزمان غيور
أصرف ذهنى فى أمور كثيرة
وأعلم أن الدائرات تدور . »

(وقال)

«غصن من التبر فوقه ورق
كأنه الصبح تحته شفق
يا أبدع الناس فى محاسنه
رق على من أذابه الأرق
مددت كفى رجاء رأفتكم
لا تتركونى ينالنى الغرق
بحر دموعي مغرق جسدى
تداركوا مهجتى وبى رمق . »

(وقال)

« رعي الله حاليا حديثاً وماضيا
وإن كنت قد جردت عزمى ماضيا
فما لليالى لا تزال ترومنى
ويرمين منى صائب السهم قاضيا
وقد علمت أن الخطوب تطيعنى
وما زلت من لبس الدنيات عاريا
أجدد فى الدنيا ثيابا جديدة
يجدد منها الجود ما كان باليا
فما مرّ لى بخل بخاطر مهجتى
ولا مرّ بخل الناس قط بباليا
ألا حبذا فى الجد إتلاف طارفى
وبذلى عند الحمد نفسى وماليا . »

(وقال)

« يجور على قلبى هوى ويجير
ويأمرنى إن الحبيب أمير
أطوع لأمر الحب طوع مسلم
وإن كان من شأنى إباً ونفور
أغار عليه من لحاظى صيانة
وأكرمه إن الحبّ غيور
أخف إلى لقيا الحبيب ولننى
لعمرك فى كلّ الأمور وقور . »

(وقال)

« أطلت بفخار المجد بالبيض والسمر
وقصرت أعمار العداة على قصر
ووسعت سبل الجود طبعاً وصنعة
لأشياء — فى العلياء — صاوبها صدرى
فلا مجد للانسان ما كان ضده
يشاركه فى الدهر بالنهى والأمر . »

(وقال)

« كان عشى القطر فى شاطئ النهر
وقد زهرت فيه الأزاهر كالزهر
ترشّ بماء الورد رشا وتنثنى
لتغليف أفواه بطيبة الخمر . »

(وقال حين دخل على المعتمد مالقه)

« أرية أنت فائدة الزمان
فقد فقت الممالك فى معان
وقد رمناك من بلد بعيد
فأدناك الاله بلا توانٍ
بذلنا جهدنا عزما وحزما
ووطنا الكماة على الطعان
وأجهدنا العزائم والمساعي
وأعملنا الحسام مع السنان
ليهنىء أهل مالقة انتصارى
وإعزازى لهم بعد الهوان
سينقذهم وينميهم جميعا
رضاع الخير إن درت لبانى
وأرقيهم ذرا درج المعالى
كما أجنيهم ثمر الأمانى
وأضعاف الذى يبدى لسانى
إليهم ما يجن لهم جنانى
فحق عليهم شكر امتعاضى
وما خلق امتنان بامتنان
ولكن الحقائق مخبرات
وكم خبر ينوب عن العيان
ألم أعتقهم من ذل كفر
جرى فى ضيمهم ملء العنان
وتوراة محرفة أعزّت
فطالت ذلة السبع المثانى
إلى أن ثار بى عزم يمان
فأدرك سؤله العضب اليمانى
وأنضيت الصوارم خاطبات
فكان قضاؤها سحر البيان
فعاد البرّ معمور المعانى
وآب الفسق مهدوم المبانى
وقام إمام جامعهم يصلى
وآنست المسامع بالأذان
وكان ذوو الهدى مابين ثاو
قتيل أو فقيد العقل فانى
مذ اقترنت ببربرهم يهود
أباح حسامهم حسن القران
عناد جر ما أوليت فيهم
— من الفتكات — بكر أو عوان
وحسبى فى سبيل الله موت
يكون ثوابه خلد الجنان . »

(٢)

شـــعر المعتمد

(قال رحمه الله حين خرج من مالقة مستعتباً لأبيه :)

« سكن فؤادك لا تذهب به الفكر
ماذا يعيـد عليك البث والحذر
وازجر جفونك لا ترضى البكاء لها
واصبر فقد كنت عند الخطب تصطبر
وإن يكن قدر قد عاق عن وطر
فلا مردّ لما يأتى به القـــدر
وإن تكن خيبة فى الدهر واحـدة
فكم غدوت ومن أشـياعك الظفر
إن كنت فى حيرة من حرم مجترم
فان عذرك — فى ظلمائها — قمر
كم زمرة — فى شغاف القلب — صاعده
وعبرة من شـئون العين تنحدر
فوض إلى الله مما أنت خائفه
وثق بمعتضـــد بالله يفتفر
ولا ترعك خطوب إن عدا زمن
فالله يدفع والمنصـــور ينتصر
واصبر ، فإبك من قوم أولى جلد
— إذا أصابتهم مكروهة — صـبروا
من مثل قومك — والملك الهمام أبو
عمرو أبوك — له مجـد ومفتخر
سميدع يهب الآلاف مقتـدراً
ويســـتقل عطاياه ويحتقر
له يد كل جبار يقبلها
لولا نداه لقلنا إنها « الحجر »
يا ضيغما يقتل الأبطال مفترسا
لا توهنى فانى الناب والظفر
وفارسا تحذر الأقران صولتـه
صن عبدك القن فهو الصارم الذكر
هو الذى لم تشم يمناك صفحته
إلا تأتى مراد وانقضى وطر
قد أخلقتنى صروف — أنت تعلمها —
وقال موردها : « مالى بها صدر »
فالنفس جازعة ، والعين دامعة ،
والصوت مرتفع ، والسر منتشر
وزاد همى ما بالجسم من سقم
وشبت رأساً ، ولم يبلغنى الكبر
وذبت إلا دماء فىّ يمسكى
أنى عهدتك تدفو حين تقتدر
لم يأت عبـدك ذنباً يستحقّ به
عتباً ، وها هو قد ناداك يعتذر
ما الذنب إلا على قوم دوى دغل
وفى لهم عهدك المعهود إذ غدروا
قوم نصيحتهم غشّ ، وصدقهم
مين ، ونفعهم — إن صرفوا — ضرر
يميز البغض فى الألفاظ إن نطقوا
ويعرف الحقد فى الألحاظ إن نظروا
إن يحرق القلب نفث من مقالهم
فإنما ذاك من نار القلى شرر
مولاى دعوة مملوك به ظمأ
برح وفى راحتيك السلسل الخصر
أجب نداء أخى قلب تملكه
أسى وذى مقلة أودى بها السهر
لم أوت من زمنى شيئا أسر به
فلست أعهد ما كاس ولا وتر
ولا تملكى دل ولا خفر
ولا سبى خلدى غنج ولا حور

رضاك راحة نفسى لا فجعت به
فهو العتاد الذى للدهر أدخر
هو المدام التى أسلو بها فإذا
عدمتها عبثت فى قلبى الفكر
ما تركى الخمر من زهد ولا ورع
فلم يفارق لعمرى سنى الصغر
وإنما أنا ساع فى رضاك فإن
أخفقت فيه فلا يفسح لى العمر
ما سرنى وأحاشى عصر عطفكم
يوم أخل به فى عينى القصر
أجل ولى راحة أخرى علقت بها
نظم الكلى فى القنا والهام تنتثر
كم راحة لى فى الأعداء واضحة
تفنى الليالى وما يفنى لها الحبر
سارت بها العيس فى الآفاق فانتشرت
فليس فى كل حى غيرها سمر
لا زلت ذا عزة قعساء شامخة
لا يبلغ الوهم أدناها ولا البصر
ولا يزل وزر من حسن رأيك لى
آوى إليه فنعم الكهف والوزر
أليك روضة فكرى جاء منبتها
ندى يمينى لا طل ولا مطر
حملت ذكراك فى أرجائها شجرا
فكل أوقاتها للمجتنى ثمر . »

(وله إليه)

« أيا ملكا يحل عن الضريب
ومن يلتذ غفران الذنوب
ومن فى كفه بؤسى ونعمى
تصرف فى العدو والحبيب
تسحقك المنى أعل نفسى
ومالى غير عفوك من طبيب
ولست بمنكر ذنبى ولكن
بنى قد جئت فى حال المريب
فان عاقبتنى فجزاء مثلى
وإن تصفح فليس من الغريب
بقيت مؤيدا ما لاح برق
وماغنى الحمام على قضيب . »

(وله إليه)

« ألا ياملكا ظل فى الخطب مفزعا
وياواحداً فاق الخلائق أجمعا
ترفق بعبد وده لك شيمة
إذا كان ذو ودّ سواه تصنعا
لئن كنت عن جهل فديتك غافرا
فكم عاثر قالت علاك له : « لعا »
أقلنى تقل عبدا شكورا وصارماً
يجر من الأعداء لينا وأخدعا
علتنى من السخط الأليم سحابة
فأغر بهاريح الرضى كى تقشعا . »

(وله إليه)

« مولاى أشكو إليك داء أصبح قلبى به قريحا
إن لم توجه رضاك عنى فلست أدرى له مريحا
سخطك قد زادنى سقاما
فابعث إلى الرضى مسيحا . »

(وله إليه)

« ياليث حرب ذاق الأعادى
طعمين منه أريا وسما
هذا إذا ناشبوه حربا
وذا إذا استوهبوه سلما
لا غرو أن حم منك جسم
فعادة الأسد أن تحما
وليهنئ أن طلعت بدراً
لأعين الخلق مستتما
لا زلت تلقى العداة بؤسى
منك وتلقى الولاة نعمى
ولتجز من قال من حسود
إن يكن المحق قد ألما . »

(وله)

« يا بدر تم تجلى فالأرض تشرق منه
العجز خلق ذميم فلا تحدث عنه . »

ابن عمار (١)

« وكتب ذو الوزارتين أبو بكر بن عمار
إلى المعتمد على الله حين تقبض النصرانى
على الرشيد ابنه إذ حاول أمر مرسيه . »

« أصدق ظنى أم أصيح إلى صحبى فأمضى عزمى أم أعوج مع الركب

(١) ابن عمار

الوزير أبو بكر « محمد بن عمار » ذو النفس العصاميـة ـ كما يقول المراكشى ـ كان أحد الشعراء المجيدين على طريقة أبى القاسم «محمد بن هانئ الأندلسى» وربما كان أحلى منزعا منه ـ فى كثير من شعره . ولشعره ديوان يدور بين أيدى أهل الأندلس ولم أر أحدا ممن أدركته سبى من أهل الآداب الذين أخذت عنهم إلا رأيته مقدما له مؤثرا لشعره ، وربما تغالى بعضهم فشبهه بأبى الطيب وهيهات . فمن قصائده المشهورة التى أجاد فيها ما أراد ، قصيدته التى كتب بها من سرقطة حين فرق المعتضد بالله بينه وبين المعتمد لأنه شغله عن كثير من أمره فقاله وهى : ـ

« على والا ما بكاء الحمائم وفى وإلا ما نواح الحمائم
وعى أثار الرعد صرخة طالب لثأر، وهز البرق صفحة صارم
ومالبست زهر النجوم حدادها لغير، ولا قامت له فى مآتم . »

وفى هذه القصيدة يقول يمدح المعتمد بالله :

« أبى أن يراه الله إلا مقلدا حميلة (١) سيف أو حمالة عارم . »

ومن جيد نسيبه قوله فى قصيدة يمدح بها المعتمد بالله :

« جاء الهوى فاستشعروه عاره ونعيمه فاستعذبوه أواره
لاتطلبوا ـ فى الحب ـ عزا، إنما عبدانه فى حكمه أحراره
قالوا أضر بك الهوى فأجبتهم: يا حبذاه وحبذا اضراره
قلبى هو اختار السقام لجسمه زيا ، خلعوه وما يختاره
عيرتمونى بالنحول ، وإنما شرف المهند أن ترق شفاره
وشممتم لفراق من آلفته ولربما حجب الهلال سراره
أحسبتم السلوان هب نسيمه ؟ أو انداك النوم عاد غراره؟
إن كان أعيا القلب من حرب الجوى خذلته من دمعى إذن أنصاره . »

ولابن عمار هذا مع المعتمد أخبار عجيبة عنى بجمعها أهل الأندلس، وأنا ـ إن شاء الله ـ مورد منها ما لايخل بالشرط الذى التزمته ، ولا يخرج عن الحد الذى رسمته ، حسب ما بقى على خاطرى من ذلك، لأنى كنت فى

(١) الحميلة والحمالة : علاقة السيف .

وانى لتهفو بى إليك مودة يعثرها ما قد تعرض من ذنبى
إذا انقدت فى رأى مشيت مع الهوى وإن أتعقه نكصت على عقبى

حداثة سنى قد صرفت عنايتى الى أخبار ابن عمار هذا مع المعتمد لما تضمنته من الآداب . وقد فتشت خزانة حفظى فلم ألف فيها إلا نبذة يسيرة وأنا موردها إن شاء الله عزّ وجلّ :

فابن عمار هذا هو محمد بن عمار يكنى أبا بكر أصله من «شلب» من قرية من أعمالها يقال لها : «شنبوس» مولده ومولد آبائه بها، كان خامل البيت ليس له ولا لأسلافه فى الرياسة فى قديم الدهر ولا حديثه حظ، ولا زكا منهم بها أحد . ورد مدينة شلب طفلا فنشأ بها وتعلم علم الأدب على جماعة منهم أبو الحجاج يوسف بن عيسى الأعلم ، ثم رحل الى قرطبة فتأدب بها ومهر فى صناعة الشعر فكان قصاراه التكسب به فلم يزل يجول الأندلس مسترفدا لايخص بمدحه الملوك دون غيرهم بل لايبالى ممن أخذ ولا من استعطف من ملك أوسوقه ، وله فى ذلك خبر ظريف ، وذلك أنه ورد فى بعض سفراته شلب لا يملك إلا دابة لا يجد علفها فكتب بشعر الى رجل من وجوه أهل السوق فكان قدره عند ذلك الرجل أن ملأ له المخلاة شعيرا ووجه بها إليه، فرآها ابن عمار من أجل الصلات وأسنى الجوائز — ثم اتفق أن علت حال ابن عمار وساعده الجد ونهض به البخت وانتهى أمره أن ولاه المعتمد على الله مدينة شلب وأعمالها أول ما أفضى الأمر إليه فدخلها ابن عمار فى موكب ضخم وجلة عبيد وحشم وأظهر نخوة لم يظهرها المعتمد على الله حين وليها أيام أبيه المعتضد بالله ، فكان أول شىء سأل عنه الرجل صاحبه صاحب الشعير ، فقال : ما صنع فلان أهو حى ؟ قالوا : نعم فأرسل إليه بمجلاته بعينها بعد أن ملأها دراهم وقال لرسوله : « قل له لو ملأتها برا لملأناها تبرا » ولم يزل ابن عمار على الحال التى ذكرناها من التقلب فى بلاد الأندلس للاستجداء والاستعطاف إلى أن ورد على المعتضد بالله أبى عمرو فامتدحه بقصيدته المشهورة التى أولها :

« أدر الزجاجة فالنسيم قد انبرى والنجم قد صرف العنان عن السرى
والصبح قد أهدى لنا كافوره لما استرد الليل منا العنبرا

وفيها يقول يمدح المعتضد :

« عباد الحصر تائل كفه والحو قد لبس الرداء الأغبرا
قداح زند الحمد ، لا ينفك من نار الوغى إلا إلى نار القرى
يختار أن يهب الحريدة كاعبا ، والطرف أجرد، والحسام مجوهرا »

وفى هذه القصيدة يقول فى وصف وقعة أوقعها المعتضد بالبربر :

« شقيت بسيفك أمة لم تعتقد إلا اليهود ، وإن تسموا بربرا
أثمرت رمحك من رؤوس كماتهم لما رأيت العصن يعشق مثمرا
وخضبت سيفك من دماء نحورهم لما عهدت الحسن يلبس أحمرا. »

ومن أبيات هذه القصيدة بيت لم أسمع لمتقدم ولامتأخر بمثله وهو قوله :

«السيف أفصح من «زياد» خطبة فى الحرب إن كانت يمينك منبرا. »

ولما أنشد المعتضد هذه القصيدة استحسنها، وأمر له بمال وثياب ومركب ، وأمر أن يكتب فى ديوان الشعراء فكان كذلك، ثم تعلق بالمعتمد على الله — وهو إذ ذاك شاب — فلم تزل حاله معه تتزيد وموات خدمته له تقوى

وما أغرب الأيام فيما قضت به ... تريني بعدى عنك آنس من قربى
أهابك للحق الذى لك فى دمى ... وأرجوك للحب الذى لك فى قلبى

وتتأكد إلى أن صار ابن عمار ألصق بالمعتمد من شعرات قصه(١) ، وأدنى إليه من حبل وريده. كان المعتمد لايستغنى عنه ساعة من ليل ولا نهار ، ثم اتفق أن ولى المعتمد على الله شلب من قبل أبيه فاستوزر بن عمار هذا فى تلك الولاية وسلم إليه جميع أموره فغلب عليه ابن عمار غلبة شديدة ، وساءت السمعة عنهما ، فاقتضى نظر المعتضد التفريق بينهما ونفى ابن عمار عن بلاده حسب ماتقدم الايماء إليه ، فلم يزل ابن عمار مغتربا فى أقاصى بلاد الأندلس إلى أن توفى المعتضد بالله، فاستدعاه المعتمد وقربه أشد تقريب حتى كان يشاركه فيما لايشارك الرجل فيه أخاه ولا أباه . وله معه أيام كونهما بشلب خبر عجيب ، وذلك أن المعتمد استدعاه ليلة إلى مجلس أنسه على ماكانت العادة جارية به إلا أنه فى تلك الليلة زاد فى التحفى به والبر له على المعتاد ، فلما جاء وقت النوم أقسم المعتمد عليه : « لتضعن رأسك معى على وساد واحد » فكان ذلك . قال ابن عمار : فهتف بى هاتف فى النوم يقول : « لاتغترّ أيها المسكين إنه سيقتلك ولو بعد حين » قال : « فانتبهت من نومى فزعا وتعوذت ثم عدت » فهتف بى الهاتف على حالته الأولى فانتبهت ، ثم عدت فسمعته ثالثة فانتبهت فتجردت من أثوابى ، والتففت فى بعض الحصر وقصدت دهليز القصر مستخفيا به ، وقد أزمعت على أنى اذا أصبحت مستحيا حتى آتى البحر فأركبه وأقصد بلاد العدوة فأكون فى بعض جبال البربر حتى أموت ، فانتبه المعتمد فافتقدنى فلم يجدنى فأمر بطلبى فطلبت له فى نواحى القصر وخرج هو بنفسه يتوكأ على سيفه والشمعة تحمل بين يديه ، وكان هو الذى وقع على فكانت منى حركة فأحس بى وقال : « ما هذا يتحرك فى هذا الحصير ؟ » ثم أمر به فنفض ، فخرجت عريانا ليس على الا السراويل . فلما رآنى فاضت عيناه دموعا وقال: « يا أبا بكر ما الذى حملك على هذا ؟ » فلم أر بدا من أن صدقته ، فقصصت عليه قصتى من أولها إلى آخرها ، فضحك وقال : « يا أبا بكر ، أضغاث أحلام هذه آثار الخمار » ثم قال لى « وكيف أقتلك ، أرأيت أحداً يقتل نفسه ؟ماأنت إلا كنفسى» فتشكر لهابن عمار ودعا له بطول البقاء ، وتناسى الأمر فنسيه ، ومرت على ذلك الأيام والليالى إلى أن كان من أمره ما سيأتى الايماء إليه ، فصدقت رؤيا بن عمار وقتل المعتمد نفسه كما قال .

ولما أفضى الأمر إلى المعتمد سأله ابن عمار ولاية شلب وهى كانت بلده ومنشأه كما تقدم ، فأجابه المعتمد إلى ذلك وولاه إياها أنبه ولاية جعل إليه جميع أمورها خارجها وداخلها ، فاستمرّت ولاية ابن عمار عليها إلى أن اشتد شوق المعتمد إليه وضعف عن احتمال الصبر عنه ، فاستدعاه وعزله عنها واستوزره ، فكانت حاله معه شبيهة بحال جعفر بن يحيى مع الرشيد ولم يزل المعتمد يعده لكل أمر جليل ويؤهله لكل رتبة عالية ، وكان ابن عمار مع هذا لايناط به أمر إلا اضطلع به ، وكان فيه كالسكة الحماة ، واشتهر أمره ببلاد الأندلس حتى كان ملك الأذفنش إذا ذكر عنده ابن عمار . قال هو رجل الجزيرة ، وكان ابن عمار هو الذى رده عن قصد اشبيلية وقرطبة وأعمالها ، وذلك أنه خرج فى جيوش ضخمة يقصد بلاد المعتمد طامعاً فيها ، تخافه الناس ، وامتلأت صدور أهل تلك الجهات رعباً منه ، وتيقنوا ضعفهم عن دفاعه. فتولى ابن عمار ردّه بألطف حيلة وأيسر تدبير ، وذلك أنه قام سفرة شطرنج فى غاية الإتقان والابداع لم يكن عند ملك مثلها ، جعل صورها من الأبنوس والعود الرطب والصندل ، وحلاها بالذهب ، وحمل أرضها غاية فى الاتقان فخرج من عند المعتمد رسولا إلى الاذفنش فلقيه فى أوّل بلاد المسلمين فأعظم الأذفنش قدره وبالغ

---

(١) القص: بفتح أوله وتشديد ثانيه أراد به رأس الصدر وهى العظام التى تتلاقى فى وسط الصدر حيث ينبت الشعر.

ولى حسنات لو أمت ببعضها إلى الدهر لم يرتع لنائبة سربى

فى إكرامه وأمر وجوه دولته بالتردد إلى خبائه والمسارعة فى حوائجه فأظهر ابن عمار تلك السفرة فرآها بعض خواص الأدفنش فنقل خبرها إليه وكان العلج (الأدفنش) مولعا بالشطرنج فلما لقى ابن عمار سأله « كيف أنت فى الشطرنج ؟ » وكان ابن عمار فيه طبقة عالية فأخبره بمكانه منه ، فقال له بلمى أن عندك سفرة فى غاية الاتقان ، قال ابن عمار نعم ، فقال كيف السبيل إلى رؤيتها ؟ فقال ابن عمار لترجمانه قل له أنا اتيك بها على أن ألعب معك عليها ، فان غلبتنى فهى لك ، وإن غلبتك فلى حكمى ، فقال له الأدفنش هلمها لتنظر إليها ، فأمر ابن عمار من جاء بها ، فلما وضعت بين يدى العلج صلب وقال ماظننت أن اتقان الشطرنج يبلغ الى هذا الحد ، ثم قال لابن عمار كيف قلت فأعاد عليه الكلام الأول ، فقال له الأدفنش لا ألعب معك على حكم مجهول لا أدرى ماهو ، ولعله شىء لا يمكننى ، فقال ابن عمار لا ألعب الا على هذا الوجه وأمر بالسفرة فطويت وكشف ابن عمار سرّ ما أراده لرجال وثق بهم من وجوه دولة الأدفنش وجعل لهم أموالا عظيمة على أن يوازروه على أمره ففعلوه فتعلقت نفس العلج بالسفرة وشاور خاصته فيما رسمه ابن عمار فهونوا عليه ، فقالوا له : « إن غلبته كان عندك سفرة ليس عند ملك مثلها وإن غلبك فما عساه أن يحتكم وقبحوا عنده إظهار الملك العجز عن شىء يطلب منه ، وقالوا إن طلب ابن عمار ما لم يمكن فنحن لك برده عن ذلك ، ولم يزالوا به حتى أجاب ، وأرسل إلى ابن عمار ، فجاء ومعه السفرة ، فقال له : « قد قبلت ما رسمته . » فقال له ابن عمار : « فاجعل بينى وبينك شهوداً سماهم له ، فأمر الأدفنش بهم فحضروا وافتتحا يلعبان ، وكان ابن عمار كما ذكرنا طلقة فى الأندلس لايقوم له أحد فيها ، فغلب الأدفنش غلبة ظاهرة لجميع الحاضرين لم يكن للعلج فيها مطمع . فلما حققت الغلبة . قال له ابن عمار : « هل صح أن لى حكمى ؟ » قال « نعم » قال : « أن ترجع من هاهنا إلى بلادك » فاسودّ وجه العلج وقام وقعد وقال لخواصه « قد كنت أخاف من هذا حتى هوّنتموه علىّ فى أمثال لهذا القول» وهم بالنكث والتمادى لوجهه . فقبحوا ذلك عليه وقالوا له : « كيف يحمل بك الغدر وأنت ملك ملوك النصارى فى وقتك» فلم يزالوا به حتى سكن وقال : « لا أرجع حتى آخذ أثاوة عامين خلاف هذه السنة ، فقال ابن عمار « هذا كله لك » وجاءه بما أراد فرجع ، وكفّ الله بأسه ، ودفعه بحوله وحسن دفاعه عن المسلمين ، ورجع ابن عمار إلى إشبيلية ، وقد امتلأت نفس المعتمد سروراً به ، ثم إن المعتمد حدث له أمل فى التغلب على مرسية وأعمالها ، وهى التى تعرف بتدمير ، وكانت بيد أبى عبد الرحمن محمد بن طاهر كان هو المتغلب عليها والمدبر لأمرها ، فجهز المعتمد جيوشا عظيمة ، وتكفل له ابن عمار بأخذها وإخراج ابن طاهر عنها فلحق ابن طاهر حين خرج من مرسية بنى عبد العزيز بلنسية ، وكان بها إلى أن مات رحمه الله ، ولما تغلب ابن عمار على مرسية دار ملك بنى طاهر كما ذكرنا حدثته نفسه ، وسوّل له سوء رأيه أن يستبدّ بأمره ، وأن يضبط تلك البلاد لنفسه ، فلم يزل يصرف الحيلة فى ذلك إلى أن تمّ له بعضه ، ودانت له مرسيه وأعمالها ، وطمع فى ملك بلنسية إلى أن قام عليه رجل من أهل مرسية ، يقال له ابن رشيق كان أبوه من من عرفاء الجند بها ، وكان ابن عمار قد خرج لبعض أموره فدعا ابن رشيق هذا إلى نفسه ، وقامت معه العامة وبعض الجند ، فجاء يركض حتى المدينة وقد غلقت أبوابها دونه فحاصروها بمن معه أياماً ، فامتنعت

وكم قد فرت يمنالا بى من صريبة فلا غرو يوما أن تنال من غربى

عليه ولم يقدر على دخولها ، فبقى حائرا لايدرى ما يصنع ولا أين يتوجه ، وقد كان بلغ المعتمد قيامه عليه وخلع يده من طاعته ، فلم ير إلا الهروب ملجأ مهرب حتى لحق ببنى هود بسرقطة فأقام عندهم حتى ثقل عليهم وخافوا غائلته ، وبغضه فى عيونهم مافعل مع صاحبه وولى نعمته، فأخرجوه عن بلادهم ولم تزل البلاد تتقاذفه وملوكها تشناه، إلى أن وقع فى حصن من حصون الأندلس فى غاية المنعة يدعى شقورة،كان المتغلب عليه رجلا يقال له ابن مبارك فأكرم وفادته، وأحسن نزله، ثم بداله بعد أيام فقبض عليه وقيده وجعله فى سجنه . فلما رأى ابن عمار ذلك منه قال له لاعليك أن تكتب إلى ملوك الأندلس يكونى عندك ، وتعرضنى عليهم فما منهم إلا من يرغب فىّ ، فمن كان أشدهم رغبة جعل لك مالا ووجهه بى إليه،ففعل ابن مبارك ذلك فما عرضه على أحد من ملوك الأندلس إلا رغب فيه ، وكتب فيمن كتب إلى المعتمد ، وفى ذلك يقول ابن عمار :

« أصبحت فى السوق ينادى على رأسى بأنواع من المال
والله ما جار على ماله من ضمنى بالثمن الغالى . »

وفى هذا السجن يقول ابن عمار وقد استدعى نورة يستنظف بها فتعذرت عليه فاستدعى موسى فأتى بها ، فقال فى ذلك :

« يوسى شقورة عندى أربت على كل بوسى
فقـــدت هارون فيها فظلت أطلب موسى . »

وبعث المعتمد على الله من رجاله من تسلم ابن عمار من يد ابن مبارك بعد أن بعث إليه بمال وخيل ، وأمر المعتمد الذين تسلموا ابن عمار أن يزيدوا فى الاحتياط عليه وتقييده ، فخرجوا به حتى وافوا قرطبة، ووافق ذلك كون المعتمد بها ، فدخلها ابن عمار أشنع دخول وأسوأه على بغل بين عدلى تبن وقيوده ظاهرة للناس ، وقد كان المعتمد أمر بإخراج الناس خاصتهم وعامتهم حتى ينظروا إليه على تلك الحال ، وقد كان قبل هذا إذا دخل قرطبة اهتزت له وخرج إليه وجوه أهلها وأعيانهم ورؤساؤهم ، فالسعيد منهم من يصل إلى تقبيل يده أو يرد عليه ابن عمار السلام وغيرهم،لايصل إلى تقبيل ركابه أو طرف ثوبه ، ومنهم من ينظر إليه على بعد لايستطيع الوصول إليه ، فسبحان محيل الأحوال ، ومديل الدول ، فدخل ابن عمار قرطبة كما ذكرنا بعد العزّة القعساء ، والملك الشامخ ، والرياسة الفارعة ، ذليلا ، خائفاً فقيراً ، لايملك إلا ثوبه الذى عليه ، فسبحان من سلبه ماوهبه ، ومنعه ما كان به أمتعه ، وأخبر بعض الموكلين به ماانفق لهم معه من فرط ذكائه وسرعة فطنته قال : « لما قربنا من قرطبة بحيث يرانا الناس ، خرج فارس من البلد يركض يقصدنا ، فلما رآه ابن عمار وكان معتما أزال العمامة عن رأسه ، فجاء الفارس حتى وصل إلينا ، فنظر إلى ابن عمار ودخل معنا فى الصف فمشى ، فسألناه فيم جاء فقال « الذى جئت فيه صنعه هذا الرجل قبل أن أصل إليه » فعلمنا أنه أرسل ليزيل عمامته ، فأدخل على المعتمد على الله على الحالة التى ذكرت يرسف فى قيوده ، فجعل المعتمد يعدد عليه أياديه ونعمه ، وابن عمار فى ذلك كله مطرق الرأس لا ينبس إلى أن انقضى كلام المعتمد ، فكان من جواب ابن عمار أن قال : « ما أنكر شيئا مما يذكره مولانا ـ أبقاه الله ـ ولو أنكرته لشهدت علىّ به الجمادات فضلا عمن ينطق ، ولكن عثرت فأقل ، وزللت فاصفح » فقال المعتمد : « هيهات إنها عثرة لاتقال » وأمر به فاحدر فى النهر إلى إشبيلية فدخل به اشبيلية على الحال التى دخل عليها قرطبة وجعل ، فى غرفه على باب قصر المعتمد المعروف بالفصر المبارك وهو باق إلى وقتنا

هذا مطال سجنه هناك . كتبت عنه فى هذا السجن قصائد لو توسل بها إلى الدهر لنزع عن جوره ، أو إلى الفلك لكفّ عن دوره ، فكانت رقى لم تنجح ، ودعوات لم تسمع ، وتمائم لم تنفع ، فمنها قوله :

«سجاياك ـ إن عاديت ـ أندى وأسمح ، وعذرك ـ إن عاقبت ـ أجلى وأوضح
وإن كان ـ بين الحطتين ـ مزية ، فأنت ـ إلى الأدنى من الله ـ تجنح
حنانيك ! فى أخذى برأيك ، لا تطع عداى ولو أثنو عليك وأفصحوا
فان رجائى أن عنـــدك غـير ما يخوض عدوى اليوم فيه ويمرح
ولم لا وقد أسلفت ودا وخدمة يكران فى ليل الخطايا فيصبح
وهى قد أعقبت أعمال مفسد أما تفسد الأعمال ثمت تصلح
أقلنى بما بينى وبينك من رضى له ـ نحو روح الله ـ باب مفتح
وعف على آثار جرم سلكتها بهبة رحمى منك تمحو وتصحح
ولا تلتفت قول الوشاة ورأيهم فكل إناء بالذى فيه يرشح
سيأتيك فى أمرى حديث وقد أتى يزور بنى عبد العزيز موشـح
وما ذاك إلا ما علمت فأننى إذا ثبت لا أنفك آسو وأجرح
كأنى بهم ـ لا درّ لله درهم ـ أشاروا تجاهى بالشمات وصرحوا
وقالوا : « سيجزيه فلان بفعله » فقلت : «وقد يعفو فلان ويصفح»
ألا إن بطشاً للمؤيد يرتمى ولـكن حلما للمؤيد يرجح
وماذا عسى الواشون أن يتزيدوا سوى أن ذنبى واضح متصحح
نعم لى ذنب غـير أن لحلمه صفاة يزل الذنب عنها فيسفح
عليه سلام كيف دار به الهوى إلى فيدنوا أو علىّ فينزح
ويهنيه إن مت السـلو فإننى أموت ولى شوق إليه مبرح
وبين ضلوعى من هواه تميمة ستنفع لو أن الحمام يجلح . »

ولما بلغت المعتمد هذه القصيدة وأنشدت بين يديه كان بحضرته رجل من البعداديين ، فجعل يزرى على البيت وبين ضلوعى ويقول ماأراد بهذا المعنى ، فكان من جواب المعتمد رحمه الله أن قال : أما ان سلبه الله المروءة والوفاء ، لما أعدمه الفطنة والذكاء انما نظر الى بيت الهذلى من طرف خفى وهو —

« وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفع . »

ولم يزل ابن عمار هذا بسجن المعتمد إلى أن قتله صبرا فى شهور سنة ٤٧٩ وتلخيص خبر قتله أنه لما طال سجنه كتب إليه بالقصيدة التى تقدم إنشادها ، فأدركت المعتمد بعض الرقة ، فوجه إليه ليلا وهو فى بعض مجالس أنسه فأتى به يرسف فى قيوده ، فجعل المعتمد يعـدد منته عليه ، وأياديه قبله ، فلم يكن لابن عمار جواب ولا عذر غير أنه أخذ فى البكاء ، وجعل يترفق للمعتمد ، ويمسح عطفيه ، ويستجلب من الألفاظ كل مايقدر أنه يزرع له الرأفة فى قلب المعتمد فتمّ له بعض ما أراد من ذلك ، وعطفت المعتمد سابقته وقديم حرمتـه ، فحبسه ، فكتب ابن عمار من فوره بما دار له المعتمد إلى ابنه الراضى بالله ، فوافاه الـكتاب — وبحضرته قوم كانت بينهم وبين ابن عمار أحن قديمه — فلما قرأ الراضى الـكتاب قال لهم : «ما أرى ابن عمار الا سيتخلص» فقالوا له « ومن أين علم مولانا ذلك » فقال : « هذا كتاب ابن عمار يخبرنى فيه أن مولانا المعتمد قد

ولاشك أن العفو منك سجية فلم يبق إلا أن تخفف من عتبي . »

(مجاوبه المعتمد على الله)

« تقدم إلى ما اعتدت عندى من الرحب ورد تلقك العتبى حجابا من العتب
متى تلقنى تلق الذى قد بلوته صفوحا عن الجانى رءوفا على الصحب
سأوليك منى ما عهدت من الرضى وأعرض عما كان إن كان من ذنب
فما أشعر الرحمن قلبى قسوة ولا صار نسيان الأذمة من شعبى
تكلفته أنفى به لك سلوة فليس يعانى الشعر مشترك اللب . »

(وللمعتمد على الله إلى ذى الوزارتين أبى بكر)

« قد زارنا النرجس الذكىّ وقد عطشنا وثم رىّ
ونحن فى مجلس ندىّ وإن من يومنا العشىّ
ولى حبيب غداً سعيّ يا ليته ساعد السعىّ . »

(وللمعتمد إلى الوزير أبى عمر بن غطمش)

« فديت أبا عمر من فتى متى يختبر غيبه يحمد
وداد صحيح ، وخلق مليح ونطق فصيح ، لدى المشهد
أتتنى البديهة تندى بديعا وأبدع ما فى الرياض الندى
أزاهر : لم تنتشق بالأنو ف لطفا ، ولا جنيت باليد
خجلت لشكواك فى طيها فما كدت أسمع للمنشد
وقد غبرت لك تلك الرؤى ليشبع طاو ويروى صدى
فهون عليك من النائبات إذا كان نصرى بالمرصد
وكن مخبرى أنى سائل سؤال مدلّ على مسعد
فجاءتك صفراء عند المنا م تسرى من الأفق الأبعد
فحييتك بالنفس النرجسى ولاقتك بالملبس السجدى
وعلتك بالريق لو أنه أبيح لذى الزهد لم يزهد . »

وعده بالخلاص « فأظهر القوم الفرح وهم يبطنون غيره ، فلما قاموا من مجلس الراضى نشروا حديث ابن عمار أقبح نشر ، وزادوا فيه زيادات قبيحة صنت هذا الكتاب عن ذكرها فبلغ المعتمد ذلك فأرسل إلى ابن عمار ، وقال له : « هل أخبرت أحداً بما كان بينى وبينك البارحة » فأنكر ابن عمار كل الأنكار ، فقال المعتمد للرسول « قل له الورقتان اللتان استدعيتهما كتبت فى إحداهما القصيدة ، فما فعلت بالأخرى ؟ » فادعى أنه بيض فيها القصيدة فقال المعتمد « هلم المسودة » فلم يحر جوابا ، فخرج المعتمد حنقا وبيده الطبرزين حتى صعد الغرفة التى فيها ابن عمار ، فلما رآه علم أنه قاتله ، فجعل ابن عمار يزحف وقيوده تثقله حتى انكب على قدمى المعتمد يقبلهما والمعتمد لايثنيه شىء فعلاه بالطبرزين الذى فى يده ولم يزل يضربه به حتى برد ، ورجع المعتمد فأمر بغسله وتكفينه وصلى عليه ودفنه بالقصر المبارك ، فهذا ما انتهى إلينا من خبر ابن عمار ملخصا حسب مابقى على خاطرى . « المعجب فى تلخيص أخبار المغرب »

(وله رحمه الله)

« كتابى وعندى من فراقك ماعندى ... وفى خلدى ما فيه من لوعة الوجد
وما خطت الأقلام إلا وأدمعى ... تخط كتاب الشوق فى صفحة الخد
ولولا طلاب الخد زرتك طيه ... عميدا كما زار الندى ورق الورد
فقبلت ما تحت اللثام من اللما ... وعانقت ما فوق الوشاح إلى العقد
أغائبة عنى وحاضرة معى ... لئن غبت عن عينى فإنك فى كبدى
أقيمى على العهد الذى كان بيننا ... فإنى على ما تعلمين من العهد . »

(وللوزير الكاتب أبى الوليد بن المعلم)

« أيدك الله إنه يوم ... تحجب فيه الصلاة والصوم
وتحفز الراح غير وانية ... لاعار فى حفزها ولا لوم
فانشط إليه فانه أمل ... يبلغه فى نديك القوم
لازلت مستيقظ السعود لنا ... وعنك فى أعين الردى نوم . »

(فأجابه أيده الله)

« حمت بخفاقة الجناح وقد ... أمكن ورد فلا يطل حوم
وسمت فى الطيب والسرور فتى ... لم يزر يوما بطيبه سوم
وهاهو المجلس المعد لكم ... فادخل إليه وليدخل القوم
إلى كؤس لو شاء شاربها ... يعوم فيها لأمكن العوم . »

(فجاوبه رحمه الله)

« لبيك لبيك من مناد ... له الندى الرحب والندىّ
ها أنا بالباب عبد قن ... قبلته وجهك السنىّ
شرفه والداه باسم ... شرفته أنت والنبى . »

(وقال)

« سلى تعلمى إن كنت غير عليمة ... بأن ليس فى حبى لغيرك مطمع
وأن لى القلب الذى ليس خاليا ... من الوجد والجفن الذى ليس يهجع
بذكرنيك الغصن يهتز عند ما ... يهب نسيم ، والغزالة تطلع
فوالله لا أنفك أذكر موضعى ... لديك ولا أنفك نحوك أنزع . »

(وقال)

« ألكم إلى الصب الشجى معاد ... تنفك عنه للأسى أصفاد
رحل اصطبارى إذ رحلتم قافلا ... أوب الأحبة بيننا الميعاد
يا من سكنت دنوهم ووصالهم ... فبدا علىّ من الشحوب حداد
كم بت منكم بين غصنى بانة ... كالسيف تضغط متنه الأغماد »

(وقال فى معشوقة اسمها « اعتماد » تؤخذ حروف اسمها من أوائل هذه الأبيات .)

«أغائبة الشخص عن ناظرى وحاضرة فى صميم الفؤاد
عليك السلام بقدر الشجون ودمع الشئون وقدر السهاد
تملكت منى صعب المرام وصادفت ودّى سهل القياد
مرادى لقياك فى كل حين وياليت أنى أعطى مرادى
أقيمى على العهد ما بيننا ولا تستحيلى لطول البعاد
دسست اسمك الحلو فى طى شعرى وألفت فيه حروف اعتماد .»

(وقال)

« قلبى موال لعاديه وعاشق من لا يباليه
خلى الظلوم كلما زدته مودة زاد تجنيـــه
يا غفر الله له ذنبه فى ظلم صب هائم فيه
ياحسن الوجه بحق الهوى لا ترض قبح الهجر والتيه . »

(وقال)

إنى رأيتك فى المنام ضجيعتى وكأن ساعدك الوثير وسادى
وكأنما عانقتنى وشكوت ما أشكوه من وجدى وطول سهادى
وكأننى قبلت ثغرك والطلى والوجنتين ونلت منك مرادى
وهواك لولا أن طيفك زائر فى العب لى ما ذقت طعم رقاد . »

(وقال يستدعى الوزير المصرى الحكيم)

« أيها الصاحب الذى فارقت عيـ ـنى ونفسى منه السنا والسناء
نحن فى المجلس الذى يهب الرا حة والمســمع الغنى والعناء
نتعاطى التى تنسيك فى اللذ ذة والرقــة الهوى والهواء
فأته تلف راحــة ومحيا قد أعــدا لك الحيا والحياء . »

(وله)

«لما نأت نأى الكرى عن ناظرى وصرفتــه لما انصرفت عليــه
طلب البشير بشارة يجزى بها فوهبت قلبى واعتذرت إليه . »

(وله)

« الجود أحلى على قلبى من الظفر ومن منال قصى السـؤل والوطر
ومن غناء أريوى فى الصبوح لنا يا طلعة الشمس فى الآصال والبكر
وقد حننت إلى ما اعتدت من كرم حنين أرض إلى مســتأخر المطر
وقد تناهت يدى عن كأسها غضبا ومجت الأذن أيضاً نغمة الوتر
حتى أملك هــذى ما تجود به وأسمع الحمد بالأخرى على الأثر
فهاتها .. خلعا أرضى السماح بها مخفوفة فى أكف الشرب بالبدر . »

(وله)

« من للملوك بشأو الأصيد البطل هيهات جاءتكم مهدية الدول
خطبت قرطبة الحسناء إذ منعت من جاء يخطبها بالبيض والأسل
وكم غدت عاطلا حتى عرضت لها فأصبحت فى سرى الحلىّ والحلل
عرس الملوك لنا فى قصرها عرس كل الملوك به فى مأتم الوجل
فراقبوا عن قريب لا أبا لكم هجوم ليث بدرع الباس مشتمل . »

(وله إلى المعتضد بالله)

«مولاى ياذا الأيادى كواكفات الغوادى
أنا عبيد معدّ لحسم داء الأعادى
واعتادت النفس منى تصيد الآساد
إنى عليها مقيم لرائح أو لغاد
أكر بالضرب فيها والطعن عند الجلاد
حتى أبحث حماها بمرهفات حداد
إن لم تكن أسد غيل تكن جآذر واد
بحق لحم وطىّ وكندة ومراد
ملكت من أرض حمص إلى قرى سنداد . »

(وله رحمه الله)

« نظن بنا أم الربيع سآمة ألا غير الرحمن ذنباً تواقعه
أأسام ظبيا فى ضلوعي كناسه وبدر تمام فى فؤادى مطالعه
وروضة حسن أجتنى من ثمارها وبارد ظلم لم تكدر شرائعه
إذاً سئمت كفى نوالا تفيضه على معتفيها أو عدواً تقارعه . »

(وله)

« أمطلع زهر نجوم الكلام ومشرقه من خلال الحلك
أتانا قريضك والهم حىّ لدينا فأمسى به قد هلك
فهاك موارد ود صفت يملك فيها الذى أنهلك . »

(وله)

« درا بعثت مفصلا بجمان أو روضة مسكية الريحان
لابل عروساً قد زففت تولدت ما بين فكرنا قد وبنان
سمعاً لأمرك إذ دعوت إلى التى تدع القلوب قليلة الأحزان
أما الكؤس فقد جرت مابيننا بيدى غزال ساحر الأجفان
خنث يسقينى المدام بطرفه وبكفه ومتى أشا غنانى
فعلا لعمرك لم أكن لأضيعه لاتحسبنا من بنى سهوان . »

(وله)

« إن كان تصريدا امير تعمد فلأجعلن مكانه وردا
من قهوة ضمنت أكؤسها نارا تكون على الحشا بردا . »

(وله)

« اشرب الكأس فى وداد ودادك وتأنس بذكرها فى انفرادك
قمر غاب عن جفونك مرآ ه وسكناه فى سواد فؤادك . »

(وله)

« حسدت كتابى على فوزه بإبصاره الغرّة الزاهره
فياليت شخصى يكون الكتاب فتلحظه المقلة الساحره . »

(وله فى اعتماد أيضا)

« بكرت تلوم وفى الفؤاد بلابل سفها وهل يثنى الحليم الجاهل
يا هـذه كفى فإنى عاشق من لا يرد هواى عنها عاذل
حب « اعتماد » فى الجوانح ساكن لا القلب ضاق به ولا هو راحل
يا ظبيـة سلبت فؤاد محمد أو لم يروّعك الهزبر الباسل
من شك أنى هائم بك مغرم فعلى هواك له على دلائل
لون كسته صفرة ومدامع هطلت سحائبها وجسم ناحل . »

(وله فى اعتماد أيضا)

« أدار النوى كم دار فيك تلددى وكم عقنى عن دار أهيف أغيد
حلفت به لو قد تعرض دونه كماة الأعادى فى النسيج المسرّد
لجردت للضرب المهنـد فاقضى مرادى وعزما مثل حد المهند
فما حل خل من فؤاد خليله محل « اعتماد » من فؤاد محمد
ولكنها الأقدار تردى بلا ظبا وتصمى بلا قتل وترمى بلا يد . »

(وله)

« مشمك أفوح فى معطسى ووجهك أملح فى ناظرى
ظفرت بقربك بعد امتناع فمن ذاك سميت بالظافر . »

(وله)

« يأيها الشمس التى قلبى لها أحد البروج
لولاك لم أك مؤثرا فرش الحرير على السروج . »

(وله)

« أباح لطيفى طيفها فى الكرى الخدا فعض به تفاحة واجتنى وردا
وألثمنى ثغراً شممت نسيمه فخيل لى أنى شممت به ندا
ولو قدرت زارت على حال يقظه ولكن حجاب البين ما بيننا مدا

أما وجدت عنا الشئون معرجا ولا وحدت منا خطوب النوى بدا
سقى الله ثوب القطر أم عبيدة كما قد سقت قلبي على حره بردا
هى الظبي جيداً ، والغزالة سنة وروض الربا فوحاء وغصن التقاقدا.»

(وله)

« من عاشق يشكو صبابته إلى محب هائم مثله
كلاهما صب إلى الفه حران ظمآن إلى وصله
يا رب عجل جمع هذا بدا وقرب الشكل إلى شكله . »

(وله)

« بقلبي لبعدك عى غليل فشوق صحيح وجسمى عليل
وودى على حسب ما تعلمين تزول الجبال وما إن يزول
فلا تستحيلى لبعد الديار فانى مع البعد لا أستحيل . »

(وله)

« القلب قد لج فما يقصر والوجد قد جل فما يستر
والدمع جار قطره وابل والجسم بال ثوبه أصفر
هذا ومن أعشقه واصل كيف به لو أنه يهجر
لكن عدتى نائبات النوى فى دوحه والشادن الأحور
والكوكب الوقاد تحت الدجى فى أفقه والقمر الأزهر
والنرجس الفواح غب الندى فى روضه والمندل الأذفر
قد خبرت عى أنى امرؤ فىّ شحوب وصبى يظهر
وأبدت الإشفاق من حالتى ومثل ما تبديه ما تضمر
واستفهمت أن كنت داعلة أو دا اشتياق ناره تسعر
سيدتى ! لم تصفى عاشقا أضحى كما أخبرك المخبر
إذ قلت : هل من ألم طائف ما بك أو شوق فما تصبر
طلعت بالشك هواى الذى يعرفه العيب والحضر
والله ما سقمى إلا هوى كل هوى فى حنبه يصغر
غير جسمى فاعلمى أنى أروم لقياك ولا أقدر
فاستغفرى الله من الظلم لى فإن من يظلم يستغفر . »

(وقال)

« يا طيفة لطفت مى منازلها فالقلب منهنّ والأحداق والكبد (١)
حبى لك الناس طرّا يشهدون به وأنت شاهدة إن يقنهم حسد
لم يعزب الوصل فيما بيننا أبداً لو كنت واحدة مثل الذى أجد. »

---

(١) نسبت هذه الأبيات خطأ لابن زيدون انظر « ص ٢٢٣ » .

(وقال)

« هل راكب ذاهب عنهم يجيبني ... إذ لا كتاب يوافيني فيجيبني (١)
قد متّ إلا ذماء في يمسكه ... أن الفؤاد بلقياهم يرجيني
ما سرح الدمع من عيني وأطلقه ... إلا اعتياد أسى في القلب مسجون
صبراً لعل الذي بالبعد أمرضني ... بالقرب يوما يداويني فيشفيني
كيف اصطباري وفي كانون فارقني ... قلبي وها نحن في أعقاب تشرين
شخص يذكرني فاه وغرته ... شمس النهار وأنفاس الرياحين
لئن عطشت إلى ذاك الرضاب لكم ... قد بات منه يسقيني فيرويني
وإن أفاض دموعي نوح باكية ... فكم أراه يغنيني فيشجيني
وإن بعدت وأضنتني الهموم لقد ... عهدته وهو يدنيني فيسليني
أوحل عقد عزائي نأيه فلكم ... حللت عن خصره عقد الثمانين
ياحسن إشراق ساعات الدنو بدت ... كواكبا في ليالي بعده الجون
والله ما فارقوني باختيارهم ... وإنما الدهر بالمكروه يرميني
وما تبدلت حبا غير حبهم ... إذن تبدلت دين الكفر من ديني
أفدي الحبيب الذي لو كان مقتدراً ... لكان بالنفس والأهلين يفديني
يارب قرب — على خير — تلاقينا ... بالطالع السعد والطير الميامين . »

(وقال)

« ولما التقينا للوداع غدية ... وقد خفقت في ساحة القصر رايات (٢)
وقرت الجرد العتاق وصفقت ... طبول ولاحت لافراق علامات
بكينا دما حتى كأن عيوننا ... لجرى الدموع الحمر فيها جراحات
وكنا نرجي الأوب بعد ثلاثة ... فكيف وقد كانت عليها زيادات »

(وقال)

« أهلا بكم صحبتكم - نحوى - الديم ... وحان أن يقسني لي بكم حلم
حثو المطيّ ولو ليلا بمجهلة ... فلن تضلوا ومن بشرى لكم علم
لا تتم القوم إن خطوا يجد قلم ... وأن يقولوا يصب فصل الخطاب فلم
لا خرق - إن رقموا كتباً - ولا حصر ... إذ يفندون ولا جور إذا حكموا
افدم أبا الأصبغ المحبوب تلق ذفى ... هش المودة لا يزرى به سأم
هذا فؤادي قد طار السرور به ... إذ كنت تقلك الوخادة الرسم
سأكتم الليل ما أشكوه من بعد ... واسأل الصبح عنكم حين يبتسم . »

---

(١) وردت هذه القصيدة في « ص ٦١ » وقد نسبت خطأ لابن زيدون .
(٢) وردت هذه القصيدة في « ص ١٠٩ » وقد نسبت خطأ لابن زيدون .

(وقال)

«الشمس تخجل من جمالك فتغيب مسرعة لذلك
والغيث يحيي أن يصوب لما يراه من نوالك
والبدر يطلع ناقصاً حتى يتمم من كمالك . »

(وقال)

« وشادن أسأله قهوة فجاد بالقهوة والورد (١)
فبت أسقى الراح من ريقه وأجتنى الورد من الخد. »

(وله)

« يا هلالا إذا بدا لى تجلت عن فؤادى دجنة الكربات
وغزالا لفلتيه بقلبي فتكات كأنها فتكاتى
تهت إذ حزت بالوصال وبالهجر حياتى تملكا ومماتى
فترفق بموقف أنت منه فى سواد القلوب والحدقات
أنا أخشى عليك ياساكن القلب المعلى بالصد من نفرات »

(وله)

« أنا فى عذاب من فراقك سكران من خمر اشتياقك
صب الفؤاد إلى لقا ئك وارتشافك واعتناقك
لا تحسبي أنى سلو ت لما توالى من فراقك
هذى جفونى أقسمت لا تلتقى ما لم تلاقك
فصلى جميل الظن بى وثقى بقلبي فى وثاقك . »

(وقال)

« وشمعة تنفى ظلام الدجى بفي للعدم عن الناس
قد جعل الرحمن من لطفه حياتها فى القطع للراس
ساعدتها والكأس يسعى بها من ريقه أشهى من الكاس
ضياؤها لاشك من وجهه وحرها من حر أنفاسى »

(وله)

« يابديع الحسن والإحسان يا بدر الدياجى
يا غزالا صاد منى بالطلى ليث الهياج
قد غنينا بسنا وجهك عن ضوء السراج »

(وله)

« تم له الحسن بالعذار واقترن الليل بالنهار
أخضر فى أبيض تبدّى ذلك آسى وذا بهارى

---

(١) انظر « ص ٦٠ »

فقد حوى مجلسى تماما إن بك من ريقه عقارى . »

(وله)

« لله در أبى السنان من فارس شهم الجنان
تخشاه آساد الرجا ل كما تهيم به القيان
فبأسه يشفى العدا ويحسنه يصبى الحسان . »

(وله)

« يقاتل باللحظ محبوبنا وبالسيف والرمح أمضى قتال
فطورا يصيد ظباء النساء وطورا يصيد أسود الرجال . »

(وله)

« إذا ما افتحمت الوغى دارعا وقنعت وجهك بالمغفر
حسبنا غياك شمس الضحى عليها سحاب من العنبر . »

(وله)

« يا قمرا قلبى له مطلع وشادنا فى مهجتى يرتع
والله ما أطمع فى العيش مذ أصبحت فى وصلك لا أطمع
ليت كما يرتع فى مهجتى أنى فى ريقته أكرع . »

(وله)

« وأغن يلعب بالهموم كما غدت أرماح قومى بالعداة لواعبا
ذى نغمة يسبى العقول بها رشا من عند رضوان أتانا هارباً . »

(وله)

« مجن حكى صانعوه السما لتقصر عنه طوال الرماح
وصاغوا مثال الثريا عليه كواكب تقضى لنا بالنجاح
وتزدان أطواقه بالنجوم كما لبس الأفق توب الصباح . »

(وله)

« أيا نفس لا تجزعى واصبرى فإن الهوى ما به منصف
حبيب جفاك وقلب عصا ك ولاح لحاك ولا ملطف
شجون منعن الجفون الكرى وعوضنها أدمعا تنزف . »

(وله)

« أبصرت طرفك عند مشتجر القنا فبدا لطرفى أنه فلك
أو ليس وجهك فوقه قمرا يجلى بنير نوره الحلك . »

(وله)

« فتكت مقلتاه بالقلب منى وبكت مقلتاى شوقاً إليه

فحكى لحظه لنا سيف عبا د ودمعى له سحاب بديه .»

(وله)

« يا قرا أفقه فؤادى مقالة لم تشب بإفك
ومن غدا مسترق حر الكلام قد حازه بملك
نثرت در القريض نثرا يقوم ذهنى له بسلك
فقلت لله درّ ذهن يخرج درا من بحر فك
وجاءت الطير مودعات سرك يا سركل ملك
بيتان دلا على وداد محضته لى بغير شك . »

(وله)

« بعثت بالمرسل انبساطاً منى على خلقك الجميل
نزراً حقيراً ففيه يأتى فضلك فى العذر والقبول
لو أنه مهجتى لكانت تصغر فى قدرك الجليل . »

(وله)

« ترفقاً يا أبا يحيى ومن ظفرت كفى به فدعانى فضله الظافر
إن حال ما بيننا ريحاننا الناضر فناظر القلب حقا نحوكم ناظر
أحمى مكانك من قلبى وأمنعه كما حمى الحاجب الإسلام بالباتر . »

(وله)

« أخلفتنى وعدك لى ومخلفاً أعهدكا
فعد بأن تهجرنى واجر على عادتكا . »

(وله)

« وردت أبا الفتح ياسيدى ورود الكرى بعد طول السهاد
ولما احتللت بنا لم تحل من العين والقلب غير السواد
ودونك منا طيوراً غدت تطير إليك بريش الوداد . »

(وله)

« أبا الوليد تجاوز وهب لنا التغميضا
واقبل جواباً على نظمك الصحيح مريضاً
زففت نحوى عروساً تجتاب روضاً أريضا
جلوتها فى سواد تجلو المعانى بيضا
وقد منعتك نزراً لا حقك المفروضا
وسوف أرفع جهدى من قدرك المخفوضا . »

(وله إلى أبيه رحمه الله)

« يا متبع الإكرام إنعاما ومتبـــع الإنعام إتماما
وعادلا فى الناس لـكنه أصـــح للأموال ظلاما
قرنت فى كفك بحر الندى بصارم أسكنته الهاما
وجمعت فيك خصال الورى وحزت آراء وإقـــداما
فالموت والعيش بيمناك قد صرفن أســـيافا وأقلاما
أثقلت بالإنعام ظهرى ، فقد أفحمت عن شكرك إفحاما
سفكت إفضالا دمى كي ترى تزيد فى عمرك أعـــواما
فاسلم لاهراق دماء العدا ما طرد الإصباح إظلاما . »

(وله إليه يطلب مجنا)

« أيا ماجدا لم يرم شاحباً من المجد فاحتل غير القنن
سألتك صفراء بكراً فجد على بها شافعاً للمـــنن
ترد الســـنان إذا أمها شبا حده من قويم السنن
وإن كنت من معشر فى الوغى أقاموا القلوب مقام الجنن . »

(وله إليه يطلب جوادا)

« ألا يا غرّة السعد وقرّة نظر الحـمد
ومولاى الذى ما زا ل بسحب حلة الحمد
لعبدك همة هامت بركض الصمر الجرد
ويرغب ضارعا منها إلى عليائك فى الورد
وإن تقبضه من عبد تمنّ به على عبد . »

(فبعث إليه مسرجا فكتب إليه)

« خلعت ثوب الصوّ على العبيـد الوفىّ
يا مســـترقا بنعما ه كل حر سرىّ
أنى على الورد سرج كالهدى فوق الهدىّ
فسوف أورد ريثى عليه قلب الكمىّ . »

(وله إليه)

« يا أيها الملك الذى كفاه بخلت السحاب
أنعمت بالبيض الكعا ب على والخيل العراب
وغدوت تخشى للعنا ب كما ترجى للثواب
برضاك أبصر نائي ال آمال منى ذا اقترب
وبطيب أيامى لديـــك عرفت أيام الشباب
فشكرت ما أولى ليثنيـــه من أياديك العذاب
بشبا سنانى فى الطعا ن وحد سيفى فى الضراب

وشبا لسانى فى المحا فل بالتعثر لا يشاب
لازلت تنتعل النجو م وخد قتلك فى التراب»

(وله إليه)

« يا أيها الملك الذى لم يزل يسرى إلى غرته السارى
وجامعا فى كفه بالنـدى والبأس بين الماء والنار
اهنأ فقد نلت الذى تشتهى نفسك واشكر نعم البارى .»

(وله إليه يطلب الإذن بالصيد)

« امنح عبد رجاك بساعة يرتاح فيها باصطياد أرانب
حتى يصيد بسعدك الأبطال فى يوم الوغى بأسنة وقواضب .»

(وله إليه)

« وساعة للزمان مسعفة قنصت فيها أرانبا وحعل
فلا أرانى الإله منك رضى إن لم أصد من عداك كل بطل .»

(وله إليه)

«أو جه البدر يشرق فى الظلام وستر الله مد على الأنام
وليث العاب إقداما وبأسا ورب الفضل والنعم الجسام
عبيدك مولع بالصيد قدما وحب الصيد من شيم الكرام
فإذنك فيه واسلم للأعادى تدير عليهم كأس الحمام . »

(وله إليه)

« أيا ملكا عمى فضـــله ولم ألف فى بحر نعماه زجرا
عهدت البحار لجزر ومدّ وتأتى بحار أياديك جزرا
دعونا الأمانى لما رضيت فجاءت توالى علينا وتترى
فلم يبق لى أمل أرتجيه سوى أن أقوم بنعماك شكرا
بقيت ولا ملك إلا غـدا غدا ملك كفك قهراً وقسرا

(وقال)

أمعتضـــداً بالله دعوة آمل رجاك على بعد فأصبح ذا قرب
فأمم مأمـــولا وأم ميمما وحامت أمانيه على مورد عذب
موارد ما حلأن عنهن حائما ولا غادرته غير مستعذب الشرب
وها أنا ظمآن لمنهل وردكم وحسبى موقوف على وردكم حسبى
أفز بالذى أملت مذ كنت آملا وتحتل من علياه فى المنزل الرحب
فجئت أغذ السير حتى كأننى لإفراط إغذاذى على ظهر النجب
فألفيت أعلى الناس قدرا وسؤددا وعدلا فدته النفس صدقا بلا كذب
يحن إلى راجيه كالوامق الصب ويهتز للمعروف كالصارم العضب
وانى لما تولى وأوليت شاكر فمن شكر النعماء نال رضى الرب .»

وقال (١)

« لما تماسكت الدموع وتنهنه القلب الصديع
قالوا الخضوع سياسة فليبد منك لهم خضوع
وألذ من طعم الحضو ع على فمى السم النقيع
إن تستلب عنى الدنا ملكى وتسلمنى الجموع

---

(١) جاء فى كتاب المراكشى قبل هذه الأبيات الرائعة مايلى :

قال يوسف بن تاشفين لبعض ثقاته من وجوه أصحابه : « كنت أظن أنى ملكت شيئاً ، فلما رأيت تلك البلاد صعرت فى عينى مملكتى ، فكيف الحيلة فى تحصيلها ؟ » فاتفق رأيه ورأى أصحابه على أن يراسلوا المعتمد يستأذنونه فى رجال من صلحاء أصحابهم رغبوا فى الرباط بالأندلس ، ومجاهدة العدو والكون ببعض الحصون المصاقبة للروم إلى أن يموتوا ففعلوا ، وكتبوا إلى المعتمد بذلك ، فأذن لهم بعد أن وافق على ذلك ابن الأفطس المتوكل صاحب الثغور ، وإنما أراد يوسف وأصحابه بذلك أن يكون قوم من شيعتهم مبثوثين بالجزيرة فى بلادها ، فاذا كان أمر من قيام بدعوتهم أو إظهار لمملكتهم وجدوا فى كل بلد أعواناً ، وقد كانت قلوب أهل الأندلس كما ذكرنا قد أشربت حب يوسف وأصحابه ، فجهز يوسف من خيار أصحابه رجالا انتخبهم ، وأمر عليهم رجلا من قرابته يسمى « بلجين » وأمرّ إليه ما أراده ، فجاز بلجين المذكور وقصد المعتمد من ملوك الجزيرة ، فقال : « أين تأمرنى بالكون ؟ » فوجه معه المعتمد من أصحابه من ينزله ببعض الحصون التى اختارها لهم فنزل حيث أنزلوه هو وأصحابه ، وأقاموا هناك إلى أن ثارت الفتنة على المعتمد ، وكان مبدؤها فى شوال من سنة ٤٨٣ بأخذ جزيرة طريف المقابلة لطنجة من العدوة دون مقدمة ظاهرة توجب ذلك ، فتشعبت جموعه وأهواؤها ملتئمة ، وانتثرت بلاده وقلوب أهلها على محبته منتظمة ،

ولما أخذ المرابطون جزيرة طريف ونادوا فيها بدعوة أمير المؤمنين انتشر ذلك فى الأندلس ، وزحف القوم الذين قدمنا ذكرهم الكائنون فى الحصون إلى قرطبة فحاصروها وفيها عباد بن المعتمد الملقب بالمأمون ، وقد تقدم ذكره ، وهو من أكبر ولده ، فدخلوا البلد وقتل عباد هذا بعد أن أبلى عذراً ، وأظهر فى الدفاع عن نفسه جلدا وصبرا ، وذلك فى مستهل صفر الكائن فى سنة ٤٨٤ فزادت الإحنة والمحنة ، واستمرّت فى غلوائها الفتنة . وأجمعت على الثورة بحضرة اشبيلية طائفة ، فأعلم المعتمد بما اعتقدته الطائفة المذكورة وكشف له عن مرادها ، وأثبت عنده سوء اعتقادها ، وأغرى بتمزيق أديمها ، وسفك دمها ، وحض على هتك حريمها ، وكشف حرمها ، فأبى له ذلك مجده الأثيل ، ورأيه الأصيل ، ومذهبه الجميل ، وما حباه الله من حسن اليقين ، وصحة العقل والدين ، إلى أن أمكنتهم الغرة يوم الثلاثاء منتصف رجب من السنة المذكورة فقاموا بجيش غير مستنصر ، واستنصروا بغاثا غير مستنسر ، فبرز هو من قصره ، سيفه بيديه ، وغلالته ترف على جسده لادرقة له ولا درع عليه ، فلقى على باب من أبواب المدينة يسمى باب الفرج فارساً من الداخلين مشهور النجدة شاكي السلاح ، فرماه الفارس برمح قصير أنابيب القناة ، طويل شفرة السنان ، فالتوى الرمح بغلالته وخرج تحت إبطه ، وعصمه الله منه ودفعه بفضله عنه ، وصب هو سيفه على عاتق الفارس فشقه إلى أضلاعه ، فخرّ صريعاً ، وانهزمت تلك الجموع ، ونزل المتسنمون للأسوار عنها ، وظن أهل اشبيلية أن الخناق قد تنفس ، فلما كان عصر ذلك اليوم ، عاودهم القوم ، فظهر على البلد من واديه ،

فالقلب بين ضـــلوعه لم تسلم القلب الضلوع
لم أستلب شرف الطبا ع أيسلب الشرف الرفيع ؟
قد رمت يوم نزالهـم إلا تحصـنى الدروع
وبرزت ليس سوى القمي ـص عن الحشى شىء دفوع
وبذلت نفسى كى تسيـ ـل إذا يسيل بها النجيع
أجلى تأخر لم يكن بهواى ذلى والخشـوع
ما سرت قط إلى الفتا ل وكان من أملى الرجوع
شـــيم الأبى أنا منهم والأصل تتبعه الفروع.»

ويئس من سكنى ناديه ، وبلغ فيه الأمل حاسده وشانيه ، وشبت النار فى شـوانيه ، فانقطع عندها العمل والقول ، وذهبت القوة من أيدى أهلها والحول ، وكان الذى ظهر عليها من جهة البر رجل من أصحاب يوسف أمير المسلمين والتوت الحال أياما يسيره إلى أن ورد الأميرسير ابن أبى بكر بن تاشفين وهو ابن أخى أمير المسلمين بعساكره متظاهرة ، وحشـود من الرعية وافرة ، والناس فى خلال هـذه الأيام قد خامرهم الجزع ، وخالط قلوبهم الهلع ، يقطعون السبل سياحة ، ويعبرون النهر سباحة ، ويتولهون مجارى الأقدار ، ويترامون من شرفات الأسوار : حرصاً على الحياة والموفون بالعهد ، المقيمون على صريح الود ، ثابتون إلى أن كان يوم الأحد لإحدى وعشرين خلت من رجب من السنة المذكورة ، وهذا يوم الكائنة العظمى والطامة الكبرى فيه حم الأمر الواقع ، واتسع الخرق على الراقع ، ودخل البلد من واديه ، وأصاب حاضره وباديه ، بعد أن جد الفريقان فى القتال ، واجتهدت الفئتان فى النزال ، وظهر من دفاع المعتمد — رحمه الله — وبأسه ، وترامية على الموت بنفسه ، مالامزيد عليه ، ولا تناه لخلق إليه ، وفى ذلك يقول المعتمد بعد مانزل بالعدوة أسيراً حسيراً :

«لما تماسكت الضـــلوع وتنهنه القلب الصديع» . . . . الخ

فشنت الغارة فى البلد ولم يترك البربر لأحد من أهلها سـبدا ولا لبدا ، وانتهبت قصور المعتمد نهباً قبيحا ، وأخذ هو قبضاً باليد ، وأجبر على مخاطبة ابنيه المعتمد بالله والراضى بالله ، وكانا بمعقلين من معاقل الأندلس المشهورة لو شاء أن يمتنعا بهما لم يصـل أحد إليهما . أحد الحصنين يسمى رندة ، والآخر مارتلة ، فكتب رحمه الله ، وكتبت السيدة الكبرى أمهما مستعطفين مسترحمين معلمين أن دم الكل منهم مسترهن بثبوتهما فأنفا من الذل وأبيا وضع يديهما فى يد أحد من الناس بعد أبيهما ، ثم عطفتهما عواطف الرحمة ، ونظرا فى حقوق أبويهما المقترنة بحق الله عزّ وجلّ ، فتمسك كل منهما بدينه ، ونبذ دنياه ، ونزلا عن الحصنين بعد عهود مبرمة ومواثيق محكمة . فأما المعتمد بالله فان القائد الواصل إليه قبض عند نزوله على كل ما كان يملكه وأما الراضى بالله فعند خروجه من قصره قتل غيلة وأخفى جسده ، ورحل المعتمد وآله بعد استئصال جميع أحواله ، ولم يصـحب من ذلك كله بلغة زاد ، فركب بالسفين ، وحل بالعدوة محل الدفين ، فكان نزوله من العدوة بطنجة .

(وقال)

«قل لمن قد جمع العلـ ـم وما أحصى صوابه(١)

---

(١) قال المراكشى فى كتاب المعجب :

« أقام المعتمد بطنجة أياماً ، ولقيه بها الحصرى الشاعر ، فجرى معه على سوء عادته من قبح الكدية وإفراط الالحاف، فرفع إليه أشعاراً قديمة كان قد مدحه بها، وأضاف إلى ذلك قصيدة استجدها عند وصوله إليه ولم يكن عند المعتمد فى ذلك اليوم مما زود به فيما بلغنى أكثر من ستة وثلاثين مثقالا فطبع عليها ، وكتب معها بقطعة شعر يعتذر من قلتها سقطت من حفظى ووجه بها إليه فلم يحاوبه عن القطعة على سهولة الشعر على خاطره وخفته عليه كان هذا الرجل أعنى الحصرى الأعمى أسرع الناس فى الشعر خاطرا إلا أنه كان قليل الجيد منه ، فحركه المعتمد على الله على الجواب بقطعة أولها : قل لمن قد جمع الخ »

وأقام المعتمد بطنجة رحمه الله أيامًا على الحال التى تقدم ذكرها ، ثم انتقل إلى مدينة مكناسة ، فأقام بها أشهرا إلى أن نفذ الأمر بتسييرهم إلى مدينة اغمات ، فأقاموا بها إلى أن توفى المعتمد رحمه الله ودفن بها فقبره معروف هناك ، وكانت وفاته فى شهور سنة ٨٧ وقيل سنه ٨ فالله أعلم ، توفى وسنه إحدى وخمسون سنة ، فمن أحسن ماسمعنى مما رثى به المعتمد على الله مقطوعة من شعر ابن اللبانة أولها :

«لكل شىء من الأشياء ميقات، وللمنى — من مناياهن — غايات
والدهر فى صبغة الحرباء منغمس ألوان حالاته فيها استحالات
ونحن من لعب الشطرنج فى يده وربما قمرت بالبيدق الشاة
فانفض يديك من الدنيا وساكنها فالأرض قد أقفرت والناس قد ماتوا
وقل لعالمها الأرضى قد كتمت مريرة العالم العلوى « اغمات »
طوت مظلتها لابل مذلتها من لم تزل فوقه للعزرايات
من كان بين الندى والبأس أنصله هندية وعطاياه هنيدات
أنكرت إلا التواء للقيود به وكيف تنكر فى الروضات حيات
وقلت هن ذؤابات فلم عكست من رأسه نحو رجليه الذؤابات
رأوه ليثاً فخافوا منه عادية عذرتهم فلعدوى الليث عادات.»

وله من قصيدة يرثيهم بها وهى كثيرة الجيد أولها :

« عريسة دخلتها النائبات على أساود لهم فيها وآساد
وكعبة كانت الآمال تقصرها فاليوم لا عاكف فيها ولا باد
تلك الرماح رماح الخط ثقفها خطب الزمان ثقافا غير معتاد
والبيض بيض الظبا فلت مضاربها أيدى الردى وثنتها دون إغماد
لما دنا الوقت لم تخلف له عدة وكل شىء لميقات وميعاد
كم من درارى سعد قد هوت ووهت هناك من درر للمجد افراد
نور ونور فهذا بعد نعمته ذوى وذاك خبا من بعد إبقاد
ياصيف انفر بيت المكرمات تجد فى ضم رحلك واجمع فضلة الزاد

كان فى الصرة شعر فتنظرنا جـــوابه
قد أثبناك فهـــلا جلب الشعر ثوابه .»

ويا مؤمل واديهم ليسكنه خف القطين، وجف الزرع بالوادى
ضلت سبيل الندى بابن السبيل، فسر لغير قصد، فما يهديك من هاد .»

وفيها يقول :

« نسيت ـ الاغداة النهر ـ كونهم فى المنشـــئات كأموات بألحاد
والناس قد ملئوا العينين، واعتبروا من لؤلؤ طافيات فوق أزباد
حط القناع، فلم تستر مخدرة ومزقت أوجـه تمزيق أبراد
تفرقوا حيرة، من بعد ما نشأوا أهلا بأهل، وأولاداً بأولاد
حان الوداع فضجت كل صارخة وصارخ من مفداة ومن فاد
سارت سفائنهم ـ والنوح يتبعها ـ كأنها إبل يحدو بها الحادى
كم سال فى الماء من دمع، وكم حملت تلك القطائع من قطعات أكباد
من لى بكم ـ يا بنى ماء السماء ـ إذا ماء السماء أبى سقيا حشا الصادى. »

وهى طويلة جدا هذا ما اخترت له منها .

« ولما اتصل بزعانفة الشعراء وملحى أهل الكديه ما صنع المعتمد رحمه الله مع الحصرى تعرضوا له بكل طريق ، وقصدوه من كل فج عميق ، فقال فى ذلك رحمه الله .

« شعراء طنجة كلهم والمغرب ، ذهبوا من الاغراب أبعد مذهب
سألوا العسير ـ من الأسير ـ وإنه بسؤالهم لأحق ، فاعجب واعجب
لولا الحياء وعزة لخميـــة ـ طى الحشا ـ ساواهم فى المطلب
قد كان ـ إن سئل الندى ـ يجزل، وإن نادى الصريخ ببابه اركب يركب »

وله فى هذا المعنى رحمه الله :

« قبح الدهر، فماذا صـــنعا كلما أعطى نفيسا نزعا
قد هوى ـ ظلماً ـ بمن عادته أن ينادى كل من يهوى لما
من إذا الغيث همى منهمراً أخجلتها كفـــه فانقطعا
من ضمام الجود من راحته عصفت ريح به فانقشـــعا
من إذا قيل الخناصم وإن نطق العافون همسا ســـمعا
قل لمن يطمع فى نائـــله قد أزال اليأس ذاك الطمعا
راح لا يملك إلا دعـــوة جبر الله العفاة الضـــيعا . »

معارضات الشعراء لابن زيدون [1]

« أولع كثير من الشعراء من قدماء ومحدثين بمعارضات ابن زيدون ، ولو أردنا أن نثبت معارضاتهم الكثيرة لقصائده المشهورة لاحتجنا إلى سفر ضخم فلنجتزئ بقصيدة « أبي بكر بن الملح » التي ذكرها « ابن بسام » في كتاب الذخيرة من القدماء ، وقصائد أمير الشعراء أحمد شوقي بك التي عارض بها ابن زيدون . »

معارضة أبي بكر

قال ابن بسام بعد أن ذكر نونية ابن زيدون التي أولها :

« أضحى التنائي بديلا من تدانينا » (٢)

« وهذه القصيدة بجملتها فريدة ، وقد عارضه فيها جماعة قصروا عنه منهم « أبو بكر بن الملح » نازعه فيها الراية ، فقصر عن الغاية حيث يقول من قصيدة أولها . »

هل يسمع الرَّبع شكوانا فيشكينا
أو يرجع القول مغناه فيغنينا

ثم استمرَّ في غزلها إلى أن قال :

يا باخلين علينا أن نودعكم
وقد بعدتم عن اللقيا فحيونا
قفوا نزركم وإن كانت فرائدكم
نزراً ، ومنِّكم بالوصل ممنونا
سركم الوصل ظنًّا لا فقدتكم
فكان بالوهم موجوداً ومظنونا
سرى من المسك عن مسراكم خبر
بُعَيْدَ عهد هواكم سَيْرَهُ فينا
أيَّام بدركم يجلو لياليَنا
نوراً وطيبكم يرعى بوادينا
مهلا فلم نعتقد دين الهوى تبعاً
ولا قرأنا بصحف المس تلقينا
قد نصرف العدل يغوينا ويرشدنا
ونترك الدار تسلينا وتشجينا
ونتبع الحيَّ والأشواق محرقة
تحوم بالماء والأرحام تحمينا
كواكب بسماء النقع قد جعلت
لنا رجومًا وما كنا شياطينا

معارضات أمير الشعراء

اندلسية

« نظم أمير الشعراء هذه القصيدة الرائعة وهوى منفاه باسبانيا وفيها يحن للوطن العزيز ويصف كثيراً من مشاهده ومعاهده .

(١) انظر «ص٤١٢» (٢) انظر «ص ٤»

يانائح « الطلح » أشباه عوادينا
نشجى لواديك أم نأسى لوادينا ؟
ماذا تقصُّ علينا غير أن يداً
قصت جناحك جالت فى حواشينا !
رمى بنا البين أيكاً غير سامرنا
أخا الغريب : وظلاً غير نادينا
كل رمته النوى ! ريش الفراق لنا
سهماً ، وسلّ عليك البين سكينا
إذا دعا الشوق لم نبرح بمنصدع
من الجناحين عىّ لا يلبينا
فإن يك الجنس - يابن الطلح - فرّقنا
إن المصائب يجمعن المصابينا
لم تأل ماءك تحناناً ولا ظمأ
ولا آدّ كاراً ، ولا شجواً أفانينا
تجرّ من فنن ساقاً إلى فنن
وتسحب الذيل ترتاد المؤاسينا
أساة جسمك شتى حين تطلبهم
فمن لروحك بالنطس المداوينا !

⁂

آهاً لنا ! نازحى أيك بأندلس
وإن حللنا رفيفاً من روابينا
رسم وقفنا عَلَى رسم الوفاء له
نجيش بالدمع ، والإجلالِ يثنينا
لفتية لا تنال الأرض أدمعهم
ولا مفارقهم إلا مصلينا
لو لم يسودوا بدين فيه منبهة
للناس، كانت لهم أخلاقهم دينا
لم نسر من حرم إلا إلى حرم
كالخمر من « بابل » سارت « لدارينا »
لما نبا الخلد نابت عنه نسخته
ثمائل الورد « خيريا » و « نسرينا »
نسقى ثراهم ثناء ، كلما نثرت
دموعنا نظمت منها مراثينا
كادت عيون قوافينا تحركه
وكدن يوقظن فى الترب السلاطينا
لكنّ مصر وإن أغضت عَلَى مقة
عين من الخلد بالكافور تسقينا
عَلَى جوانبها رفّت تمائمنا
وحول حافاتها قامت رواقينا
ملاعب مرحت فيها مآربنا
وأربع أنست فيها أمانينا
ومطلع لسعود من أواخرنا
ومغرب لجدود من أوالينا
بنا فلم نخل من روح يراوحنا
من برّ مصر وريحان يغادينا
كأمّ موسى ، عَلَى آسم الله تكفلنا
وباسمه ذهبت فى اليمّ تلقينا

ومصر كالكرم ذى الإحسان : فاكهة
لحاضرين ، وأكواب لبادينا

⁂

ياسارى البرق يرمي عن جوانحنا
بعد الهدوء ويهمى عن مآقينا
لما ترقرق فى دمع السماء دماً
هاج البكا فخضنا الارض باكينا
الليل يشهد لم تهتك دياجيه
عَلَى نيام ولم تهتف بسالينا
والنجم لم يرنا إلا عَلَى قدم
قيام ليل الهوى للعهد راعينا
كزفرة فى سماء الليـــل حائرة
مما تردد فيه حـــين يضوينا
بالله إن جبت ظلماء العباب عَلَى
نجائب النور محدوًّا (بجرينا)
ترد عنك يداه كل عادية
إنساً يعثن فساداً أو شياطينا
حتى حوتك سماء النيل عالية
عَلَى الغيوث و إن كانت ميامينا
واحرزتك شفوف اللازورد عَلَى
وشى الزبرجد من أفواف وادينا
وحازك الريف أرجاء مورجة
ربت خمائل ، وآهتزت بساتينا
فقف إلى النيل واهتف فى خمائله
وانزل كما نزل الطل الرياحينا
وآس ما بات يذوى من منارلنا
بالحادثات وَيضوى من مغانينا

⁂

و يامعطرة الوادى سرت سحراً
فطاب كل طروح من مراميتا
ذكية الذيل لو خلنا غلالتها
قميص يوسف لم نحسب مغالينا
جشمت شوك السرى حتى أتيت لنا
بالورد كتباً ، و بالريا عناوينا
فلو جزيناك بالأرواح عالية
عن طيب مسراك لم تنهض جوازينا
هل من ذيولك مسكى نحمله
غرائب الشوق وشياً من أمالينا
إلى الذين وجدنا ود غـــيرهم
دنيا وودهمو الصافى هو الدينا

⁂

يا من نغار عليهم من ضمائرنا
ومن مَصون هواهم فى تناجينا
ناب الحنين إليكم ـ فى خواطرنا ـ
عن الدلال عليكم فى أمانينا
جئنا إلى الصبر ندعوه كعادتنا
ـ فى النائبات ـ فلم يأخذ بأيدينا

وما غلبنا عَلَى دمعٍ ولا جلد
حتى أتتنا نواكم من صياصينا
ونابغىٌ كأن الحشر آخره
تميتنا فيه ذكراكم وتحيينا
نطوى دجاه بجرح من فراقكمو
يكاد ـ فى غلس الأسحار ـ يطوينا
إذا رسا النجم لم ترقأ محاجرنا
حتى يزول ، ولم تهدأ تراقينا
بتنا نقاسى الدواهى من كواكبه
حتى قعدنا بها : حسرى تُقاسينا
يبدو النهار فيخفيه تجلدنا
للشامتين ، ويأسوه تأسينا

⁂

سقياً لعهد ـ كأكناف الرُّبى ـ رِفَةً
أنّى ذهبنا ، وأعطاف الصَّبا لينا
إذ الزمان بنا غيناء زاهيةٌ
ترف أوقاتنا فيها رياحينا
الوصل صافية ، والعيش ناغية
والسعد حاشية ، والدهر ماشينا
والشمس تختال فى العقيان تحسبها
« بلقيس » ترفل فى وشى اليمانينا
والنيل يقبل كالدنيا إذا احتفلت
لو كان فيها وفاء للصافينا
والسعد لو دام ، والنعمى لو اطردت ،
والسيل لو عف ، والمقدار لو دينا
ألقى على الأرض حتى ردها ذهبا
ماء ـ لمسنا به الإكسير ـ أوطينا
أعداه من يمنه « التابوت » وارتسمت
ـ على جوانبه ـ الأنوار من سينا
له مبالغ ما فى الخلق من كرم
عهد الكرام وميثاق الوفيينا
لم يجر للدهر إعذار ولا عرس
إلا بأيامنا أو فى لياليا
ولا حوى السعد أطغى فى أعنته
منا جياداً ، ولا أرخى ميادينا
نحن اليواقيت خاض النار جوهرنا
ولم يهن بيد التشتيت غالينا
ولا يحول لنا صِبغٌ ولا خلق
إذا تلوّن كالحرباء شانينا
لم تنزل الشمس ميزاناً ولا صعدت
فى ملكها الضخم عرشاً مثل وادينا
ألم تؤله على حافاته ، ورأت
عليه آباءها الغر الميامينا ؟
إن غازلت شاطئيه فى الضحى لبسا
خمائل السندس الموشية الغينا
وبات كل مجاج الواد من شجر
لوافظ القز بالخيطان ترمينا

وهذه الأرض من سهل ومن جبل
قبل (القياصر) دِنَّاها (فراعينا)
ولم يضع حجراً بان على حجر
فى الأرض إلا على آثار بانينا
كأن أهرام مصر حائط نهضت
به يد الدهر لا بنيان فانينا
إيوانه الفخم من عليا مقاصره
يفنى الملوك ولا يبقى الأواوينا
كأنها ورمالا حولها التطمت
سفينة غرقت إلا أساطينا
كأنها تحت لألاء الضحى ذهباً
كنوز (فرعون) غطين الموازينا

⁂

أرض الأبوة والميلاد ، طيبها
مر الصبا فى ذيول من تصابينا
كانت محجلة فيها مواقفنا
غرا مسلسلة المجرى قوافينا
فآب ـ من كُرَةِ الأيام ـ لاعبنا،
وثاب ـ من سنة لأحلام ـ لاهينا
ولم ندع للبالى صافياً ، فدعت
«بأن نغص فقال الدهر : آمينا»
لو آستطعنا : لخضنا الجوّ صاعقة
والبر نار وغى ، والبحر غسلينا

سعيا إلى مصر نقضى حق ذا كرنا
فيها إذا نسى الوافى وباكينا
كَنْزٌ (بحلوان) عند الله نطلبه
خير الودائع من خير المؤدينا
لو غاب كل عزيز عنه غيبتنا
لم يأته الشوق إلا من نواحينا
إذا حملنا لمصر أوله شجناً
لم ندر أى هوى الأمين شاجينا

زحـــلة

« وقال معارضاً قصيدة ابن زيدون التى أولها :
« ما للمدام تديرها عيناك »

شيعت أحلامى بقلب باك
ولمحت من طرق الملاح شباكى
ورجعت أدراج الشباب ووردە
أمشى مكانهما على الأشواك
وبجانبى واه كأن خفوقه
لما تلفت جهشة المتباكى
شاكى السلاح إذا خلا بضلوعه
فأذا أهيب به فليس بشاك
قد راعه أنى طويت حبائلى
من بعد طول تناول وفكاك
ويح ابن جنبى كل غاية لذة
بعد الشـــباب عزيزة الإدراك

لم تبقَ منا يا فؤاد بقيـةٌ
لفتوّة أو فضـــلة لعراك
كنا إذا صفقت نستبق الهوى
ونشد شـــد العصبة الفُتاك
واليوم تبعث فيَّ حين تهزنى
ما يبعث الناقوس فى النساك

⁂

يا حارة الوادى طربت وعادنى
ما يشبهُ الأحلامَ من ذكراك
مثّلتُ فى الذكرى هواكِ وَفى الكرى
والذكرياتُ صدى السنينَ الحاكى
ولقد مررت عَلَى الرِّياض بربوة
عناء كنت حيالَها ألقاك
ضحكَتْ إليَّ وجوهها وعيونُها
ووجـدت فى أنفاسها ريّاك
فذهبت فى الأيام أذكر رفرفا
بين الجداول والعيون حواك
أذكرت هرولة الصبابة والهوى
لما خطرت يقبلان خطاك
لم أدر ماطيبُ العناق عَلَى الهوى
حتى ترفّق ساعدى فطواك
وتأوّدت أعطاف بانك فى يدى
واحمرَّ من خَفَرَيْهما خـداك
ودخلت فى ليلين فرعك والدُّجى
ولثمتُ كالصـبح المنوّر فاك
ووجدت فى كنه الجوانح نشوةً
من طيب فيك ومن سلاف لَمَاك
وتعطلمت لغة الكلام وخاطبت
عينَىَّ فى لغـــة الهوى عيناك
ومحوت كل لُبانة من خاطرى
ونَسِيت كل تعاتب وتشاكى
لا أمسِ من عمر الزمان ولا غدٌ
جُمِعَ الزمان فكان يوم رضاك

⁂

لُبنان ردَّتنى إليكَ من النوى
أقدار سَـــيرِ للحياة دراك
جمعت نزيلَىْ ظَهرها من فرقة
كرةٌ وراء صوالج الأفلاك
نمشى عليها فوق كل فجاءة
كالطير فوق مكامن الأشراك
وَلَوَ انَّ بالشوق المزار وجدتنى
ملقى الرحال عَلَى ثراك الذاكى

⁂

بنت البقاع وأم بِرْدَوْنِيَّهَا
طيبى كخلق واسكبى برداك
ودمشق جنات النعيم وإنما
الفيت ســـدة عدنهنّ رباك

قسما لو انتمت الجداول والربا
لتهلل الفردوس ثم نماك
مرآك مرآه وعينك عينه
لم يا زحيلة لا يكون أباك
تلك الكروم بقية من بابل
هيهات نسّى البابلى جناك
تبدى كوشى الفرس أفتن صبغة
للناظرين إلى ألذ حياك
خرزات مسك أوعقود الكهربا
أودعن كافوراً من الأسلاك
فكرتُ فى لَبن الجنان وخمرها
لما رأيت الماء مس طلاك
لم أنس من هبة الزمان عشية
سلفت بظلك وانقضت بذراك
كنت العروس على منصة جنحها
لُبنان فى الوشى الكريم جلاك
يمشى إليك اللحظ فى الديباج أو
فى العاج من أى الشعاب أتاك
ضمت ذراعيها الطبيعة رقة
«صنّين» و «الحرمون» فاحتضناك
والبدر فى ثبَج السماء منوّرٌ
سالت حلاه على الثرى وحلاك
والنيرات من السحاب مطلة
كالغيد من ستر ومن شباك
وكأن كل ذؤابة من شاهق
ركن المجرة أو جدار سماك
سكنت نواحى الليل إلا أنة
فى الأيك أو وتراً شجىّ حراك
شرفاً عروس الأرز كل خريدة
تحت السماء من البلاد فداك
ركز البيان على ذراك لواءه
ومشى ملوك الشعر فى مغناك
أدباؤك الزهر الشموس ولا أرى
أرضا تمخض بالشموس سواك
من كل أروع علمه فى شعره
ويراعه من خلقه بملاك
جمع القصائد من رباك وربما
سرق الشمائل من نسيم صباك
(موسى) بابك فى المكارم والعلا
وعصاه فى سحر البيان عصاك
أحلت شعرى منك فى عليا الذرا
وجمعته برواية الأملاك
إن تكرمى يا زحل شعرى إننى
أنكرت كل قصيدة إلاك
أنت الخيال بديعهُ وغريبه
الله صاغك والزمان رواك

وقال

« وقال معارضا كافية ابن زيدون التى أولها :
« ودع الصبر محب ودعك (١) »

ردت الروح عَلَى المضنى معك
أحسن الأيام يوم أرجعك

مرّ من بعدك ما روعنى
أترى يا حلو بعدى روعك

كم شكوت البين بالليل إلى
مطلع الفجر عسى أن يطلعك

و بعثت الشوق فى ريح الصبا
فشكا الحرقة مما آستودعك

يا نعيمى وعذابى فى الهوى
بعذولى فى الهوى ما جمعك

أنت روحى ظلم الواشى الذى
زعم القلب سلا أو ضيعك

موقعى عنـــدك لا أعلمه
آه لو تعلم عنـــدى موقعك

أرجفوا أنك شاك موجع
ليت لى فوق الضنا ما أوجعك

نامت الأعـــين ، إلا مقلة
تسكب الدمع وترعى مضجعك

(١) انظر « ص ١٢ »

صفحات من كتاب الذخيرة لابن بسام

فصل فى ذكر دى الوزارتين الكاتب أبى الوليد ابن زيدون واجتلاب عيون أخباره ، وفصوص رسائله وأشعاره .

قال أبو الحسن كان أبو الوليد غاية منثور ومنظوم وخاتمة شعراء مخزوم ، أحد من خبر الأيام خبراً ، وفاق الأنام طرا ، وصرّف السلطان نفعا وضرا ، ووسع البيان نظماً ونثرا ، إلى أدب ليس للبحر تدفقه ، ولا للبدر تألقه ، وشعر ليس للسحر بيانه ، ولا للنجوم الزهر اقترانه ، وحظ من النثر غريب المبانى ، شعرى الألفاظ والمعانى . أخبرنى غير واحد من وزراء اشبيلية قال : حلص ابن عبد العزيز من يد عباد ، خلوص الفرزدق من يد زياد ، وبقيت حضرته من أهل هذا الشان ، أعرى من ظهر الأفعوان وأخلى من صدر الجبان ، فهمّ باستجلاب (محمد بن الباجى) المشهور أمره ، الآتى فى القسم الثانى من هذا الديوان ذكره ، فكأنّ أبا الوليد غص بذلك وواطأ أبا محمد بن الجد على الاشارة بالاستغناء عما هنالك ، فكانت الكتب تنفذ من إنشاء أبى الوليد إلى شرق الأندلس ، فيقال تأتى باشبيلية كتب هى بالنظم الخطير ، أشبه منها بالمنثور .

حظوته عند ابن جهور

وقد أجرى ذكره أبو مروان بن حيان فى وصف من كان اصطنع ابن جهور من رجال دولته ، فقال «ونوه بفتى الآداب ، وعمدة الظرف ، والشاعر البديع الوصف ، أبى الوليد أحمد بن زيدون ذى الأبوّة السنية بقرطبة ، والوسامة ، والدراية ، وحلاوة المنظوم ، والسلاطة ، وقوّة العارضة ، والافتنان فى المعرفة ، وقدمه للنظر على أهل الذمة لبعض الأمور المعترضة وقصره بعد مكانه من الخاصة والسفارة بينه وبين الرؤساء ، فأحسن التصرف فى ذلك ، وغلب على قلوب الملوك » قال أبو مروان وكان أبو الوليد من أبناء وجوه الفقهاء بقرطبة فى أيام الجماعة والفتنة وبرع أدبه ، وجاد شعره ، وعلا شأنه ، وانطلق لسانه ، فذهب به العجب كل مذهب وهون عنده كل مطلب ، وكان علقه من عبد الله بن أحمد بن المكرى أحد حكام قرطبة ظفر أحجن ، أداه إلى السجن ، فألقى نفسه يومئذ على أبى الوليد بن جهور فى حياة والده أبى الحزم فشفع له وامتثله من نكبته وصيره فى صنائعه ، والماولى الأمر بعد والده نوه به وأسنى خطته وقدمه فى الذين اصطنع لدولته ، وأوسع راتبه وجلله كرامة لم تقنعه فيما زعموا ، واتفق أن عن له مطلب بحضرة إدريس الحسنى بمالقة ، فأطال الثواء هنالك ، واقترب من إدريس ، وخف على نفسه ، وأحضره مجالس أنسه ، فعتب عليه ابن جهور ، وصرفه فى السفارة بينه وبين أمراء الأندلس فيما يجرى بينهم من التراسل والمداخلة ، فاستقل بذلك لفصل ما أوتيه من اللسن والعارضة ، فاكتسب الجاه والمنفعة ولم يبعده ذلك من التهافت فى الترقى لبعد الهمة ، فهوى عما قليل إلى عباد صاحب إشبيلية اجتذبه إلى ذلك مهاجر عن وطنه إليه ، ونزل على كنفه ، وصار من خواصه وصحابته ، يجالسه فى خلواته ، ويراسل له فى مهم رسائله على حال من التوسعة ، وكان ذهابه لعباد سنة ٤٤١ هـ إحدى وأربعين وأربعمائة . قال أبو الحسن : «فأما سعة ذرعه ، وتدفق طبعه ، وغزارة بيانه ، ورقة حاشية لسانه ، فالصبح الذى لا ينكر ولا يرد ، والرمل الذى لا يحصى ولا يعد . »

بداهته وتصرفه بفنون القول

أخبرنى من لا أدفع خبره من وزراء إشبيلية قال : « عهدى بأبى الوليد قائما على جنازة بعض حرمه والناس يعزّونه على اختلاف طبقاتهم ، فما سمع يجيب بما أجاب به غيره لسعة ميدانه ، وحضور جنانه . » وقد أخرجت من أشعاره التى هى حجول وغرر ونوادر أخباره التى هى ما آثر وأثر ، ورسائله

التى أخرست الحفل ، واستوفت أمد المطق الجزل.

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

وله فى ابن جهور ، وكتب بها من السجن :

« ماجال بعدك لحظى فى سنا القمر
إلا ذكرتك ذكر العين بالأثر. » الخ

وله أيضاً قصيدة فريدة خاطب بها ابن جهور وهو فى تلك الحال من الاعتقال أوّلها :

« ألم يأن أن يبكى الغمام على مثلى
ويطلب ثأرى البرق منصلت النصل. »

وفى بنى جهور يقول :

« بنى جهور أحرقتم بجفائكم
جنانى ، فما بال المدامع تعبق
تعدونى كالعنبر الورد إنما
تطيب لكم أنفاسه حين يحرق . »

وأراه توارد فى هذين البيتين مع أبى على بن رشيق القيروانى حيث يقول :

« أراك اتهمت أحاك الثقه
وعندك مقت وعندى مقه
وأثنى عليك وقد سؤتنى
كما طيب العود من أحرقه . »

وأخذاه معاً من قول أبى تمام :

« لولا اشتعال النار فيما جاورت
ما كان يعرف فضل طيب العود . »

***

وأنشدنى بعض أهل وقتنا ، وهو أبو مروان بن شماخ لنفسه :

« نوائب فالتنى ، فأبدت فضائلى
وكانت وكنت النار والعنبر الوردا. »

ولغيره :

« إن مست النار جسمى
أبديت طيب نسيم

كالدهر إن عض يوما
أبان فضل الكريم . »

***

وأبو الوليد بن زيدون — على كثرة إحسانه — كثير الاهتمام فى النثر والنظام ، وكتب إلى أبى بكر مسلم وهو مختف بقرطبة بعد فراره من السجن ، فصلا من رقعة :

« ولعمرى أنك أحد اللائمين ومن أمثالهم ويل للشجىّ من الخلىّ ، وهان على الأملس مالاقى الدبر واعتبك على انفصالك عنى وترى أنك أحد المحنة منى فلم أستطع صبراً ، وعلمت أن العاجز من لايستمدّ فالمرء يعجز لا محالة ، ولم أستجز أن أكون ثالث الأذلين العير والوتد ، وتذكرت أن الفرار من الظلم والهرب مما لايطاق من سنن المرسلين ، وقد قال تعالى على لسان موسى : ففررت منكم لما خفتكم . وسطرت فى مفارقة الوطن فقد ما ضاع الفاضل فى وطنه ، وكسد العلق العبيط فى معدنه كما قال :

« أضيع فى معشرى وكم بلد
يكون عود الكباء من حطبه »

فاستجرت الله فى إنفاذ العزم ، وأنا الآن حيث أمنت بعض الأمن إلا أن السعى لم يرتفع ومادة البغى لم تنقطع ، وختم رسالته بهذا النظم :

« شحطنا وما بالدار نأى ولا شحط
وشط — بمن نهوى — المزار وماشطوا. »

***

. . . . . .

كأن أوّل هذه القصيدة ناظر إلى قول راشد أبى حكيمة حيث يقول :

« ومستوحش لم يمض فى أرض غربة
ولكنه ممن يحنّ غريب . »

ويناسبه أيضا قول المتنبى :

« إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا
أن لا تفارقهم فالراحلون هم . »

قوله هرمت وما للشيب البيت ناقص عن قول المتنبى :

« إن لا يشب فلقد شابت له كبدى
شيب إذا حصيته سلوة فصلا . »

وقد كرّر هـذا المعنى أبو الطيب فى مواضع من شعره وكلف به وشعب الكلام فيه فتصرف ، وقد تقدّم إنشاده ، ومنه أيضاً قول عبد الجليل المرسى المعتمد ابن عباد :

***

« أتتك على خلائقها جيادى
وإن كان الصياع لها شكالا . »

وكتب أيضاً أبو الوليد بن زيدون من محبسه ذلك إلى أبى حفص بن برد بهذه الأبيات :

« ماعلى طيبىَ باس يجرح الدهر ويأسو (١)
ربما أشرف بالمر ء على الآمال ياس
ولقد ينجيك إخفا ل، ويرديك احتراس
والمحاذير سهام والمقادير قياس
يا أبا حفص وما سا واك فى فهم إياس
من سنا رأيك لى فى غسق الخطب اقتباس
وودادى لك نص لم يحالفه القياس
أذؤب هامت بلحمى فاترام وانتهاس
يلبد الورد السبتى وله بعد اوتراس
إن أكن أصبحت نهبو سأ للعيث احتباس
فتأمل كيف يمشى مقلة الجعد الدماس
ويفت المسك فى التر ب عيوطا ويداس
لا يكن عهدك ورداً إن عهدى لك آس
وأذرذكرى كأساً ما امتطت كفك كاس
عسى أن يسمح الدهر وقد طال الشماس . »

قوله يلبد الورد السبتى اليت كقول النابغة :

« وقلت يا قوم إن الليث منقبض
على براثنه للوثبة الضارى . »

وأخذه ابن الرومى فقال :

« سكنت سكوناً كان وهناً بوثبة
عماس كذاك الليث للوثب يلبد . »

(١) أثبتنا هذه الأبيات هنا لاختلاف روايتها عن رواية الديوان .

وقوله لا يكن عهدك ورداً من قول العباس بن الأحنف :

« لا تجعلى وصلنا كالورد حين مضى
دا طلعة وأذيلى الورد كالآس . »

كرّره العباس فى موضع آخر ، فقال :

« ولكننى شبهت بالورد عهدها
وليس يدوم الورد والآس دائم . »

***

ما أخرجته من شعر ابن زيدون فى النسيب وما يناسبه من قصيدة :

« بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا
شوقاً إليكم ولا جفت مآقينا (١)
لم نعتقد بعدكم إلا الوفاء لكم
رأياً ولم نتقلد غيره دينا
تكاد حين تناجيكم ضمائرنا
يقضى علينا الأسى لولا تأسينا
حالت لفقدكم أيامنا فغدت
سوداً وكانت بكم بيضاً لياليا
إذ جانب العيش طلق من تألفنا
ومورد اللهو صاف من تصافينا
وإذ هصرنا غصون الأنس دانية
قطوفها فجنينا منه ما شينا
ليسق عهدكم عهد السرور فما
كنتم لأيامنا إلا رياحينا
لا تحسبوا نأيكم عنا يغيرنا
إذ طالما غير النأى المحبينا
والله ما طلب أهواؤنا بدلا
منكم ولا انصرفت عنكم أمانينا
ياسارى البرق غاد القصر فاسق به
من كان صرف الهوى والود يسقينا
ويا نسيم الصبا بلغ تحيتنا
من لو على البعد حيا كان يحيينا
ربيب ملك كأن الله أنشأه
مسكا وقدر إنشاء الورى طينا

(١) أثبتنا هذه الأبيات لاختلاف روايتها عن رواية الديوان .

إذا تأودت آدته ـ رفاهية ـ
توم العقود وأدمته البرى لينا
كانت له الشمس ظئرا فى أكلته
بل ما تجـلى لنا إلا أحايينا
يا روضة طال ما أجنت لواحظنا
وردا جلاه الصبا غضا ونسرينا
ويا حياة تملينا بزهـرتها
منى ضروبا ولذات أفانينا
لسنا نسميك إجلالا وتكرمة
وقدرك المعتلى عن ذاك يغنينا
يا جنة الخلد أبدلنا بسلسلها
والكوثر العذب زقوما وغسلينا
كأننا لم نبت والوصل ثالثنا
والسعد قد غض من أجفان واشينا
سران فى خاطر الظلماء يكتمنا
حتى يكاد لسان الصبح يفشينا
إنا قرأنا الأسى ـ عند النوى ـ سورا
مكتوبة ، وأخذنا الصبر تلقينا
أما هواك فلم نعدل بمنهله
شربا وإن كان يظمينا فيروينا
لم نجف أفق جمال أنت كوكبه
ـ سالين عنه ـ ولم نهجره قالينا
ولا اختيارا تجنبناك عن كثب
لكن عدتنا ـ على كره ـ عوادينا
ناسى عليك وقد حثت مشعشعة
فينا الشمول ، وغنانا مغنينا
لا أكؤس الراح تبدى من ـ شمائلنا ـ
سيما ارتياح ، ولا الأوتار تلهينا
دومى على الوصل ـ مادمنا ـ محافظة
فالحر من دان أنصافا كما دينا
فما استفدنا خليلا عنك يصرفنا
ولا استفدنا حبيبا عنك يسلينا
ولو صبا نحونا من علو مطلعه
بدر الدجى لم يكن ـ حاشاك ـ يسبينا
أبدى وفاء ، وإن لم تبد لى صلة
فالذكر يقنعنا ، والطيف يكفينا
وفى الجواب متاع إن شفعت به
بيض الأيادى التى ما زلت تولينا
عليك منى سلام الله ما بقيت
صبابة بك تخفيها فتخفينا . »

وهـذه القصيدة بحملتها مريدة وقد عارضـه فيها جماعة فصروا عنه (١) . . . . . .

وله من أخرى أثر نزهة كانت له بمنية الزهراء :

« إنى ذكرتك بالزهراء مشتاقا
والأفق طلق ووجه الأرض قد راقا . »

وله من أخرى ، وكتب بها من بطليوس أيام تكرره عليها وهى من غرر نظامه وحر كلامه :

« يا دمع صب ما شئت أن تصوبا
ويا مؤادى آن أن تذوبا . »

وله :

« وضح الحق المبين وبقى الشك اليقين . »

وقال :

« صحت فصح بها السقيم ريح معطرة النسيم . »

وقوله :

« يا ليل طل لا أشتهى إلا كعمرى قصرك
لو بات عندى قمرى ما بت أرعى قمرك . »

وقوله :

« ودع الصبر محب ودعك
ذائع من سره ما استودعك . »

وقال :

« بينى وبينك ما لو شئت لم يضع
سر إذا داعت الأشياء لم يذع . »

وفيها يقول :

ته أحتمل واستطل أصبر وعز أهن
وول أقبل وقل اسمع وسر أطع . »

أراه احتذى بهذا البيت مذهب أبى العميثل الأعرابى :

« فاصدق وعف وفه وانصف وأحتمل
واصلح ودار وكاف واحلم واسـمح
والطف ولن وتأن وارفق واشتد
واحزم وجد وحام واحمل وادفع . »

كقول ديك الجن :

« أحل واقرر وضر وانفع ولن واخن
ورش وابن وانتدب للمعالى . »

وهـذا البيت صنعه المولدون وعدوه تقسيما

(١) وقد أثبتنا بعض هذه المعارضات فى ص « ١٠٤ »

وتقطيعا وتبعهم المتنبي فقال :

« اقل انل اقطع احمل عل سـل أعد
زد هش بش تفضل ادن سرصل . »

ثم زاد المتنبيء من هذا وبنى حتى قال :

« عش ابق اسم اسر قد جد
مرانه جد رف اسربل . »

بيته المعروف . وأحسن لعمرى ابن زيدون فى هذا التقسيم، ودامع بالحديث فى صدر القديم ، ولو قرع سمع أبى منصور بهذا الشذوذ لما كان عند ابن وسكير بمذكور ، ولا أغرب بغرائب الصاحب ولا ببدائع البديع . ومن شعر أبى الوليد فى المنسيب السائر العريب الطيار المليح الخفيف الروح قوله :

« أما رضاك فشيء ماله ثمن
لو كان سامحنى فى ملكه الزمن . »

وقال من أخرى :

« أنت معنى الصبى وسر الضلوع
وسبيل الهوى وقصد الدموع . »

وقال :

« غريب بأرض الشرق يشكر للصبا
تحملها منى الســلام إلى الغرب
وما ضر أنفاس الصفا فى احتمالها
سلام فتى يهديه حسم إلى قلب . »

وهذا منقول من قول العباس بن الأحنف حيث يقول :

« تالله ما شطت نوى ظاعن
سار من العين إلى القلب . »

وقال أبو الوليد من أخرى :

« سأحب أعدائى لأنك منهم
يا من يصح بقلتيه ويسقم . »

وقال من قصيدة :

« أما فى نسيم الريح عرف معرف
لنا هل لذات الوقف بالجزع موقف . »

وقال أيضاً أبو الوليد من جملة قصيدة :

« يا أيها الملك الذى تدبيره
أضحى لمملكة الزمان ملاكا . »

وله من أخرى فى ابن جهور :

« هــذا الصباح على سراك رقيبا
فصلى بفرعك ليلك الغربيبا . »

وقال ابن زيدون أيضاً :

« أما وألحاظ مراض صحاح
تصمى وأعطاف نشاوى صواح . »

وفى بنى جهور يقول عند نكبة بنى ذكوان :

« لولا بنو جهور ما أشرقت همم
عند السوالف فى أجيادها تلع . »

قوله فى هــذه القصيدة إن السيوف إذا ما طاب جوهرها فى أول الطبع لم يعلق بها الطبع ، ينظر بلحظ مريب إلى قول حبيب :

« والسيف مالم يلف فيه صيقل
من سنحه لم ينتفع بصقال . »

وله من أخرى يهنىء المعتضد بن عباد بزيمة ابنه اسماعيل لابن الأفطس وقتل ولد إسحاق بن عبدالله فى تلك الحرب :

« ليهن الهدى إنجاح سعيك فى العدا
وإن راح صنع الله نحوك واغتدى . »

وفاة ابن زيدون

ومما يتعلق بذكر وفاة ذى الوزارتين رحمة الله عليه فصل من تاريخ الشــيخ أبى مروان بن حيان رأيت إثباته لنبل مساقه ، وحسن اتساقه . يقول فيــه ، وفى يوم الاثنين لثلاث عشرة ليلة خلت من ذى الحجة ســنة اثنين وســتين وأربعمائة سار الحاجب سراج الدولة عاد بن محمد إلى إشبيلية الحضرة الأثيرة لمطالعتها ، وتأنيس أهلها من وحشة خامرت عامتهم من أجل عدوان رحل منهم على يهودى جاء(١) لأمر جهــة السوق عنــدهم ، فزعم أنه ســب الشريعة فبطش به المســلم وسط السوق وجرحه وحرك عليه العامة ، فقبض عليــه صاحب المدينــة بها عبد الله بن سلام واعتقله فكان لعامة الناس فى حبســه كلام وإكثار خشن ناله ، فخاطب السلطان بقرطبة يعرفه ما كان منه ويستأمره فى شأنه ، فجعل إنفاذ ولده الحاجب سراج الدولة إلى اشبيلية فى جيش

(١) فى القطعة التالية كثير من الاضطراب وقد أثبتناها كما هى .

كثيف من نخبة غلمانه ووجوه رحاله لمشاورة القصة والاحتياط على العامة، نفذوا معه وسط هذا اليوم وأنفذ معه ذا الوزارتين أبا الوليد بن زيدون أحد الثلاثة أكابر وزرائه المثناة وزارتهم عمد دولته ألزمه النفوذ مع الحاجب على بقية وعك متألماً منه ولم يعذره فى التوقف لأجله ، فمضى لطيته مساقا إلى منيته وخلف ولده أبا بكر الفد الوزارة المرتسمة بالكتابة ، ورآه سادا مكانه بالحضرة ، وأقر فيها أياما ، ثم أمر بالمسير وراء والده لأمر كلفه أعجل بالانطلاق له ، فقضى نحبه غداة يوم السبت لثمان خلون من المحرم سنة ثلاث وستين بعدها ، فخلت منهم منازلهم بقرطبة وصيرت إلى سواهم ، فتحدث الناس بسبق مكان الأدب ابن زيدون لذى السلطان وإن استمساكه لعلى مرتبة بعدمختصه المعتضد بالله . كان من المعتمد على الله رعاية لخصوصية أبيه به يعمن باستمرارها تقتاده المختصان به الحظيان لديه المستهمان لخاصته ابن مرتين وابن عمار إلى أن عملا فى إبعاده وإبعاد ابنه الرقيب بعده فأمضى خلعه ، فعندها استساغا غصته ، واستهملا مكانه ، واحتويا على خاصة السلطان ، وتدبير دولته ، ولكل دولة رجال ، ولكل مكتب إبدال ، ولم يطل الأمد لابن زيدون بعد لحاق ابنه به ، ووجدانه إياه متزايدا فى مرضه ، نازعا عن الآلة على جهده فى استدعائها على انتهاء المدة ، وانتهاك القوة ، فاستقر به وجعه إلى أن قضى نحبه ، وهلك بدار هجرته اشبيلية صدر رجب سنة ثلاث وستين ، فدفن بها مشهودا مفتقدا ، واحتوى ترابها عليه ، فيابعد ما بين قبره وقبر أبيه لديا رحمة الله عليهما فقد تولى من أبى الوليد كهل لن يخلف الدهر مثله جمالا وبيانا وبراعة وسلطانا وظرفا وحلولا من مراتب البلاغة نظما ونثرا بمرقبة لم يخلف لها بعده عاطيا بقرانه بين الكلامين وبراعة فى الفنين إلا أن يكون عند أولى التحقيق والتحصيل فى النظم أمد ظلما، واحث عنقا، فلا يلحقه فيه تقصير ولا يخشى رهقا شهوده فى الفنين عدول مقانع حضور عند أهل المعرفة ، ولما اتصل خبر هلكه بمشيرته أهل قرطبة شيعوه وبكوا لفقده وحزنوا عليه،إذ كان منهم متعصبا له،هاويا إليهم،حدبا عليهم وليجة خير بينهم وبين سلطانهم الحديث الولاية ، فصار مصابه كفا فيه من تأميلهم والبقاء لمن تفرد به وحده لارب غيره ولاجرم إذا أعز الله إخوانه بابتدار بقاء فتاه النذب أبى بكر ولده ساد أمثله ساميا مسماه عائطا عداه عاطيا منتهاه بأبوة صدق يجرى إلى العلى بضيفه من سماحة ودماثة وحصافة ونزاهة ومعرفة ووفور حظ من أدب بلاغة وكتابة وشركة فى التعاليم العلمية واشتداد فى رعاية متقادم الذمة لم يفقد إخوان أبيه معها إلا غيبته خلال حر كن حاله عما قليل بعد أبيه عند سلطانه قسطاس السياسة فاستبصر فى استحضاره وأدناه من احتبائه ورقاه فى مراتب والده منقلا له فى درجاتها راضيا بلاءه فيما ناطه به منها حتى مرع ذروتها عما قليل فأحظاه بالوزارة وصيره وزيرا لحضرته الأثيرة اشبيلية، وجمع له أعاظم خططها العلية معاطس التاعس من قوام المملكة خطة ولاية المدينة وواتاه الزمان ، والله يؤتى فضله من يشاء له الفضل والامتنان .

وقال :

« لا طار لى حظ إلى غاية
إن لم أكن منك مريش الجناح
وعتبك بعد العتب آمنية
مالى على الدهر سواها اقتراح
لم يثنى عن أمل ما جرى
قد يرتع الخرق وتؤسى الجراح
فاجهد بحمى الرأى عمن يرتح
منه العدا بكل شاكي السلاح
واشفع فللشافع نعمى بما
تمر من عقد وثيق النواح
إن سحاب الأفق منها الحيا
والحمد فى تأليفها للرياح . »

وكان القاضى أبو بكر بن دكوان أجل من اشتمل عليه أوان مجدا وشرفا ونفنناً فى العلم وتظرفا مع دعابة حين خلواته تحل حبى المحتبى ورفاقه عند نشواته كالتنوخى والمهلبى، فإذا أصبحوا بكر أبو بكر إلى مصادرة ما يتجه عليه الحكم ومواجهته وأذكر

ما كان عليه من فكاهته فكأنه فى بردية الامام وكأنه وقار بديل أوشام مع عدله فى قضائه وإنفاذ الحكم بمقتضى الحق وإمضائه حتى إذا راح الرواح عادوا إلى القصف وتجاروا فى ميدانهم كل وصف إلى أن اختلس أبو بكر منها وتقلس ذيل مؤانسته عنها ، فاعتاض عنه بسواه وأفاضا فيما كانوا فيه وما تعدياه ، واتفق أن مر يوما بقبره فى لمة من إخوانه وجماعة من عمار ميدانه فعطفوا عليه مسلمين ووقفوا عليه متأملين ، فقال أبو الوليد :

« يا قبره العطر الثرى لا يبعدن
حلو من الفتيان فيك حلال »

وله :

« على داره الشرقى منى تحيـة
زكت وعلى وادى العقيق سلام »

وله :

« خليلى لافطر يسر ولا أضحى
فما حال من أمسى مشوقا كما أضحى »

وله يرثى :

« أعباد يا أوفى الملوك لقد عدا
عليك زمان من سجيته الغدر . »

ونلمع من خبر هذه الواقعة بلمحة . قال أبو مروان فى سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة أوقع ابن عباد بابن الأفطس إلى جنب بابرة ، وكان سبب هذه الحرب أن فتح ابن يحيى صاحب لبلة يؤمئذ خليفة ابن الأفطس والى آل عباد للضرورة فكاشفه ابن الأفطس وخانه فيما كان ائتمنه عليه من ماله الصامت عند ما حمله إليه وديعة عند تورطه فى حرب ابن عباد قبل فابيت بينهما العصمة ، وأرسل ابن الأفطس فى ذلك الوقت خيله للضرب على ابن يحيى فاستغاث عباد فأرسل إليه خيلا منتقاة فلحقت الخيل الأفطسية وهى قد شذت الغارة على لبلة ، فكرت عليهم إذ كانوا ضعفهم واسترسلوا فى اتباع العباديين ولا يشعرون ، فإذا بعباد بجملته فى كمين قد خرج أثرهم فدهشوا وولوا الأدبار ، فركبهم السيف ، وبدل عباد المال فى رؤوسهم ، وكانت ثقاة خيل ابن الأفطس وأبطال رجاله نخر لعباد من رؤوسهم مائة وخمسين رأساً ومن خيلهم مثلها فقس جناح قرنه وأفنى حماة رجاله ثم إن عباد أثر ذلك جمع حلفاء خيله وقود عليها ابنه إسماعيل مع وزيره ابن سلام ، وخرج نحو بلاد ابن الأفطس بابرة وقد واستدعى أيضاً ابن الأفطس خليفته إسحاق بن عبد الله فلحقت به خيله مع ابنه أبى الرز بعد أن جمع ابن الأفطس بقايا جيشه من هزيمتهم المتقدمة الذكر ، وأخرج كل من قدر على ركوب دابة من البياض ببلده وحشد من رجال البوادى بعمله خلقاً كثيراً وأقبل بجمعه هذا المنحوب ليدفع خيل ابن عباد عن بلده بابرة ، وقد كان ببرابرة خليفته إسحاق فى عسكره قالوا له لا تلقهم فلست تعرف قدر من زحف نحوك ونحن رأيناهم وسمعنا بجمعهم بإشبيلية فلم يسمع منهم ومضى ، فالتقى الفريقان من غير نزول ولا تعبئة فاختلطوا واجتلدوا مليا فحقق العباديون الضراب وتابعوا الشدات فحاد البرابرة عند أصحاب اسحاق ، وانهزم ابن الأفطس وحمل السيف على جميع من معه ، فاستأصلهم القتل وقتل ولد اسحاق وجز رأسه وبعث إلى إشبيلية مع رأس ابن عم ابن الأفطس صاحب بابرة يدعى عبيد الله الحرار ونجا ابن الأفطس فى خيله إلى بابرة . قال أبو مروان وأقل ما سمعت فى إحصاء قتلى هذه الوقيعة ثلاثة آلاف فأزيد وأخبرنى من أثق به أن بطليوس بقيت خالية الدكاكين والأسواق من استئصال القتل لأهلها فى وقعة ابن عباد هذه بفتيان أعمار الباء الشيوخ الكهول الذين أصيبوا يومئذ فاستدلت على فشو المصيبة ، وجزع إسحاق بن عبد الله بمصاب ابنه ولم يستجر لفقده عباد فى طلب رأس ابنه ، فإن عباداً أضافه إلى رأس جده محمد بن عبد الله بإشبيلية انتهى كلام ابن حيان .

قال ابن بسام ولم يزل الرأسان عند آل عباد مع عدة رؤوس أهدتها الفتنة المبيرة حتى نقلت إشبيلية على الأمير الأجل سير بن أبى بكر فجىء بجوالق مقفل مختوم عليه ، وأمر بفتحه ، لا يشك أنه مال أو ذخيرة فاذا هو مملوء

من الرؤوس فأعظم ذلك وهاله ، وأمر برفع كل رأس منها إلى من بقي من عقبه بالحضرة . حدثني من رأى رأس يحيى بن علي الحمودي ثابت الرسم غير متكلم الشكل فدفع إلى بعض ولده فدفنه .

وقال ابن زيدون في ابن جهور من قصيدة أولها :

«أجل إن ليلى حيث أحياؤها الأزد
مهاة حمتها في مرابضها الأسد »

وكان ابن جهور يومئذ كسر دنان الخمر ، وكان أيضاً يومئذ لمثل ذلك عبد الرحمن بن سعد المصغر يشعر أوله :

« كسرت لجبر الدين أوعية الخمر
فأحرزت خصل السبق في الكسر والجبر
عمدت إلى الشر الذي جمعوا
ففرقت منه فاسترحنا من الشر . »

في أبيات غير هذه استبردت جملتها وإنما ذهب إلى عكس قول من تقدم من أعيان الشعراء من ذم صب الشراب ، ومن أشهره قول بكر بن حارثة الكوفي وقد رأى من سلطان وقته مثل ذلك فقال :

« يا لقومي لقد جنى السلطان
لا يكن للذي أهان الهوان . » الخ

وبلغني أن الجاحظ أنشد هذه الأبيات ، فقال للمنشد من حق الفتوة أن أكتبها عنك وما أقدر إلا أن يعدني للعرس به ، قال المحدث فأعمدته ، وقام يكتبها ، وكان بكر بن حارثة هذا مولى بني أسد طيب الشعر حليما ماجنا ، وكان يألف هدهداً يأتيه كل يوم في موضع يعنيه شرابا فلا يزال يشرب على صوته إلى أن يسكر ، وكان أيضاً يهوى غلاما نصرانيا وهو القائل :

« زناره في خصره معقود
كأنه من كبدي مقدود . »

وبكر القائل :

« قلبي إلى ما ضرّني داعي
يكثر أسقامي وأوجاعي
كيف احتراسي من عدوي إذا
كان عدوي بين أضلاعي . »

ولصالح ابن عبيد في ذلك :

« ليس همي ولا طويل انتحابي
لمشيب أرال عني شبابي . »

رجع وقال ابن زيدون يرثي :

« انظر لحال السرور كيف تحال
ولدولة العلياء كيف تذال . »

وله من أخرى مما وجدته بخط ابن حيان يرثي أبا الحزم ابن جهور :

« ألم تر أن الشمس قد ضمها القبر
وإن قد كفانا فقدنا القمر البدر . »

وله من أخرى في هذا المعروض ، وقد تكرر فيها بعض أبيات القصيدة الأولى ورثى بها أم أبي الوليد ابن جهور يقول فيها :

«هو الدهر، فاصبر للذي أحدث الدهر
فمن شيم الأحرار في مثلها الصبر.»

إلى أبيات غير هذه من سائر أبيات القصيدة استمر فيها بالتقديم والتأخير والتأنيث والتذكير رثى بها آخرا عبادا المعتضد ، وجعل أول قصيدته قوله :

«هو الدهر فاصبر للذي أحدث الدهر . »

ثم أتبعه بقوله :

« حياة الورى نهج إلى الموت مهيع
لهم فيه إيضاع كما يوضع السفر . »

يتلاعب أبو الوليد بهذه القصيدة تلاعب الحطيئة بنسبه ، ويتصرف تصرف أبي حنيفة في مذهبه ، فأنث وذكر وقدم فيه وأخر . قال أبو العلاء :

« رب لحد قد صار لحدا مرارا
ضاحكا من تزاحم الأضداد . »

وبلغني أنه وجد لابن زيدون إثر موت عباد شعر يقول فيه :

« لقد سرنا أن النعي موكل
بطاغية قد حمّ منه حمام
تجانب صوب المزن عن ذلك الصدى
ومر عليه البيث وهو جهام . »

وقال يخاطب الوزير أبا عامر بن عبدوس من قصيدة أولها :

« أثرت هزر الشرى إذ ربض
ونبهته إذ هدا فاغتمض . »

ومما أغفله ابن بسام من نسيب أبى الوليد الصحيح الأقسام ، النازح عن الاطماع والأوهام ، المصدق قول الجفرية فيما ينص من الإلهام قوله :

« ان قصر اليأس فيك الأمل
وحال تحنيك دون الحيل . »

وقوله أيضاً :

« فديتك ليس لى قلب فأسلو
ولا نفس فآنف إن جفيت . »

وقوله :

« أنى أصـــيع عهدك
أم كيف أخلف وعدك ؟ »

ولأبى بكر بن عمار يخاطب أبا الوليد بن زيدون رحمهما الله :

« كيف اعتززت على الدليل
وقطعت أسباب الوصول
وقتلتنى ، وزعمت أن
الذنب منى للقتيـــل
وعليك جاهدت العـــدا
ولديك ملت عن العـذول
يا قاتـــلى ومـــدامعى
فى صفحتى أهدى دليـل
ما أليق الفعل الجميـ
ـل بذلك الوجـه الجميل
فبرزت فى خلق الكريـ
ـم وراءه خلق البخيل
ودعـــوتنى حتى أجبتـ
ـتك ثم حدت عن السبيل
جد بالقليـل فإن نفـ
ـسى منك تقنع بالقليـل
واذكر حلى زمن قطعنا
ه بصافيـة شـــمول
إذ نســـحب الأذيال ما
بين الخليج إلى النخيل
ونحل من سيف الغدير
بفيئـــة الظل الظليـل
والروض ممـــطور تنم
(م) عليـه أنفاس القبول
والشـــمس ترمقها خلا
ل الغيم عن طرف كليل
ابان يحـدو الرعد من
ورق الســـحائب كالحمول
ويهز كف البرق فى الـ
ـآفاق مرهفة النصـــول
زمن ستبكيه الحما
م منى وتذهل عن هديل
يا برق أودية المنى (١)
تفديك نفسى من رسول
عرج بشـــلب محييا
ما شئت من تلك الطلول
والمع على شرفات حمـ
ـص قرارة الشرف الأثيل
فإذا جلاك أبو الوليـــ
ـد بناظر اليقظ النبيل
فاقرأه من قبلى ســـلا
ما يقتضى حسن القبول
يا غرّة الزمن البهيم
(م) وعزّة الأدب الذليل
وبحكم العـلم القصـــ
ـير على شبا الرمح الطويل
أعـــلمت أنى خادم
ذكراك بالشكر الجميل
لم أســـتحل عما عهد
ت مع الزمان المستحيل
شـفع عنايتك الجليـــ
ـلة بى لدى الملك الجليـل

(١) وفى الأصل : أودية التى .

ولئن أجبت لراغب
وأقلت عثرة مســـقيل
يا أنس بدر فى الطلا
م وبدر ظل فى المقيـــل
فلكم أتيت بمثلها
ـــوهى الصنيعة ـــ فى مثيل . »

ولابن زيدون يتغزل فى ولادة :

« يا نازحا وضمير القلب مثـواه
أنستك دنياك عبداً أنت مولاه . »

وله يتشوق إليها :

«غريب بأرض الشرق يشكر للصبا
نحملها منـه الســـلام إلى الغرب
وما ضر أنفاس الصـــبا فى احتمالها
سلام فتى يهديه جسم إلى قلب . »

وله :

« أيوحشى الرماء وأنت أنسى
ويظلمنى النهار وأنت شمسى . »

وله :

« ولقد شكوتك بالضمير إلى الهوى
ودعوت من حنق عليك فأمنا . »

وله يتغزل ويعاتب ويتسعطف ويستنزل :

« يا مستحفاً بعاشـقيه ومستغشا لنا صحيه . »

وكتب عن المعتضد إلى صهره الموفق أبى الجيوش ابن مجاهد :

«عرفت عرف الصبا إذ هب عاطره
من أفق من أنا فى قلبى أشاطره
أراد تجديد ذكراه على شحط
وما تيقن أن الدهر ذاكره
نأى المزار به والدار دانيـــة
يا حبذا الفال لو صحت زواجره
خلى أبا الجيش هل يقضى اللقاء لنا
فيشتفى منك قلب أنت هاجره . »

قال ابن بسام : وأما ولادة التى ذكرها ابن زيدون فى شعره فإنها بنت محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله الناصرى ، وكانت فى نساء زمانها، واحدة أو أنها حضورشاهد ، وغزارة أوابد ، وحسن منظر ومخبر وحلاوة مورد ومصدر ، وكان مجلسها بقرطبة منتدى لأحرار المصر ، وفناؤها ملعباً لجياد النظم والنثر يعشو أهل الأدب إلى ضوء غرتها ، ويتهالك أفراد الشعراء على حلاوة عشرتها ، إلى سهولة حجابها ، وكثرة متابها ، تخلط ذلك بعلو نصاب ، وكرم انساب ، وطهارة أثواب ، على أنها سمح الله لها ، وتغمد زللها، طرحت التحصيل، وأوجدت إلى القول فيها السبيل،لدلة مبالاتها، ومجاهرتها بلذاتها، كتبت ـــ زعموا ـــ على أحد عاتق ثوبها :

« أنا والله أصلح للمعالى
وأمشى مشيتى وأتيه تيها . »

وكتبت على الآخر :

« أمكن عاشقى من لثم خدى
وأعطى قبلتى، من يشتهيها . »

هكذا وجدت هذا الخبر ، وابرأ إلى الله من عهدة ناقليه ، وإلى الأدب من غلط انعمل إن كان وقع فيه، ولها مع أبى الوليد أخبارطوال وقصاريفوت إحصاؤها ويشق استقصاؤها ـــ وأما ذكاء خاطرها ، وغزارة نوادرها ، فآية من آيات فاطرها ـــ مرت بالوزير أبى عامر بن عبدوس المتقدم الذكر ، وكان بقرطبة أحد أعيان المصر ، وبعض من هذى باسمها ، وقصر على حكمها ، وأمام داره بركة تتولد على كثرة الأمطار،وربما استمدت بشىء مما هنالك من الأقذار وقد نشر أبو عامر كميه ، ونظر فى عطفيه ،وحشر أعوانه إليه ، فقالت له أبا عامر :

« أنت الحصيب وهـذه مصر
فتـدفقا ، فكلاكما بحر . »

فتركته لا يحير حرفا ، ولا يرد طرفا ، وطال عمرها وعمر أبى عامر حتى أربيا على الثمانين وهو لايدع مراسلتها ، ولا يغفل مواصلتها ـــ وتحيف هـذا الدهر المستطيل حال ولادة ، فكان يحمل كلها ، ويرقع ظلها ، على خوف واديه ، وحمود روائحه وغواديه ، أثراجميلا أبقاه، وطلقا من الظرف جرى إليه حتى استوفاه ـــ وكانت ـــ زعموا ـــ تعرض أبياتاً من الشعر ، وقد قرأت أشـياء منه فى بعض التعاليق أضربت عن ذكره ، وطويته بأسره، لأن أكثره

ليس له عندى إعادة ولا إبداء ، ولا من كتابى فى أرض ولا سماء . ونشير هنا بشىء من أخبار أبيها المستكفى مدا لأطناب الآداب ، ووفاء بشرط الكتاب ، نسخته من كتاب ابن حيان :

هو محمد بن عبد الرحمن بن عبيدالناصرى ، بويع يوم قتل عبد الرحمن المستظهر يوم السبت لثلاث خلون من ذى القعدة سنة أربع عشرة وأربعمائة ، فتسمى بالمستكفى بالله ، اسما ذكر له فاختاره لنفسه ، وحكم سوء الاتفاق به لمشاكلته لعبد الله المستكفى العباسى أول من تسمى به فى اسمه ووهنه وتخلفه وضعفه بل كان هذا زائداً عليه مقصراً عن خلال ملوكية كانت فى المستكفى سميه لم يحسنها محمد هذا لفرط تخلفه على اشتباههما فى سائر ذلك كله من نوبتهما بالفتنة ، واستطهارهما بالفسقة ، واعتماد كل منهما على ابن عم ذى رحم ماسة ، وتوسط كل منهما فى شأنه بامرأة خبيثة ، فلذلك حسناء الشيرازية ، ولهذا ابنة عسكرى المروزية ، فأصبحا فى ذلك على فرط التباين عبرة ، ومثال صاحب مقط العروس : ومن عجب اتفاقهما فى الأخلاق ، وفى المر واللقب وأن كل واحد منهما خلع عن الأمر ، وكل واحد منهما تركه أبوه صغيراً ، ولم يكن محمد من هذا الأمر فى ورد ولا صدر ، إنما أرسله الله على الأمة محنة وبلية ، إذ كان منذ عرف غفلا عطلا منقطعاً إلى البطالة ، مجبولا على الجهالة ، عاطلا عن كل خلة تدل على فضيلة ، عضته الفتنة فأملق حتى استجاز طلب الصدقة ، وهان حتى أهانه أهله على ما لهم من المهنة رأيته — أيام الحسف بأهل بيته فى الدولة الحودية ، ولم يكن ممن لحقه الاعتقال منهم لركاكته — يقصد أهل الفلاحة يومئذ بقرطبة أوان ضمهم لفلاتهم يسألهم من زكاتها تكليما ومخاطبة ، وبالجملة فى تلخيص التعريف بأمره أن أجمع أهل التحصيل أنه لم يجلس فى الإمارة منذ تلك الفتنة أسقط منه ولا أنقص إذ لم يزل معروفاً بالتخلف والركاكة ، مشتهراً بالشرب والبطالة ، سقيم السر والعلانية ، أسير الشهوة ، عامر الخلوة ضد القتيله عبد الرحمن المستظهر فى الأدب والمعرفة ، وكان افتتح هذه السنة المؤرخة القاسم بن حمود بخلافته وآخرها محمد هذا المذكور

وكان بينهما عبد الرحمن المستظهر فتصرمت تلك السنة المكرة على ثلاثة خلفاء ، وهذا من غريب الأنباء ولله البقاء المرمدى ، وقلد محمد هذا الأمر ولم يكن من أهله ، فناقى جميع الناس بالإيباس واستهامهم بالأهوية ، ورأى أن المال عزيز ، وأن الشر رخيص يقوم مقامه ، وينوب منابه ، وكان يقول للناس أجمعين ، ارتعوا كيف شئتم ، وارتسموا بما أحببتم من الخطط فتسمى بالوزارة فى أيامه مفردة ومثناة أراذل الدائرة ، وأحابث البطار فصلا عن رعاف الكتاب والخدمة ، وأما الشرطة العليا ومادونها من رفيع المنازل ، فحماها كثير من التجار والعامة ، وانثال الناس على ابتغاء هذه المنازل عند السلطان الطاعية فى كرة الدولة فضوا به ، وعمروا فناءه ، وتعللوا بالمنى ، فلما استبانوا ضعفه رفضوا خططهم ، وتبرأ كثير منهم منها ، وأقسم أنه لم يتقلدها ولا سيما عند تكرر التفسيط عليهم للغرامة عند إلحاح الإضاقة ، فجرت لبعضهم عند الانتهاء عن تلك الخطط نوادر ظريفة مضحكة وانتهى هذا التنويه العام بهذا المسلك الهمام إلى أن فصله أيضاً فى طبقات أهل العلم فأسهم منهم الفقهاء فأثر العلية منهم المشاورين أصحاب الصون بالارفاء إلى خطة الوزارة خالطاً لهم فيها بما ذكرناه من رعاف الخدمة وكبار الدائرة ، وجاء فى ذلك بطامة لم تسمع فى الأعصر الخالية فأخطأوا وألحقوا بالدين وصحته ، وطلبوا زيادة المعتلى على العامة ، فافتتنوا بهذه الخطة وشدوا أيديهم عليها ، وهجروا من حظهم فى الخطاب عنها مفرطين بما يعاب من ذلك إلى أن مضوا لسبيلهم ، وارتقى المستكفى أيضاً بكثير ممن يحمل المحابر ، ويدرس مسائل الدفاتر ، من أصاغر الطبقة الفقهية إلى مابلغت عليهم من منزلة الشورى ، فوسم كافتهم بوسم الفتوى فأسرف فى ذلك حتى بلغ عددهم

قرطبة يومئذ الأربعين ، وذلك مما لم يعهد فى الماضين ، وكثر الإرجاف بتغير رحال الدائرة ، فاضطربت قرطبة لكثرة ما فيها من المردة ، فقبض على جماعة من بنى عمه وحاشيته منهم علىّ بن أحمد ابن حزم وابن عمه عبد الوهاب المتقدمى الذكر سجنوا بالمطبق ، ثم عاجل المستكفى ابن عمه عبدالعزيز العراقى فخنق وأمسى ميتاً وتعامى الناس فلم يسهل عليهم اغتياله ، وفى أيام المستكفى هذا استؤصل بقية قصور جده الناصر بالخراب ، وطمست أعلام قصور الزهراء ، واقتلع نحاس الأبواب ورصاص القبى وغير ذلك من الآلات ، وطوى بخرابها بساط الدنيا ، وتدر حسنها إذ كانت له جنة الأرض فعدا عليها قبل تمام المدة من كان أضعف قوة من فارة المسك ، وأوهن بيتا من بقة النمرود ، والله يسلط جنوده على من يشاء له العزة والجبروت ، فلما كانت سنة ست عشرة وتحرك يحيى بن حمود إلى قرطبة ، وضعف أمر المستكفى ، اتفق الملأ على خلعه ودخلوا عليه وقالوا : لقد علم الله اجتهادنا فى تثبيتك ، فاعتاص ذلك علينا ، واضطررنا إلى مقاربة عدونا وهانحن خارجون إليه ، ولا ندرى ما يحدث عليك بعدنا فإن تملك الكرة فلا تيأس ، فمى اليوم غد ، فأجمل الرد ، واستشعر الدلّ ، واهتبل الفرة ، وعزم على الهرب ، فخرج على وجهه وقد لبس ثياب الغانيات ، متنقباً بين امرأتين لم يميز منهن لمراسه على التحديث ، وخرج عن قرطبة ، فمات بإقليش ، فكانت دولته تسعة عشر شهراً صعابا نكدات سوداً مشوّهات مشئومات انتهى ما لخصته من كلام ابن حيان . قال أبو الوليد : كنت فى أيام الشباب ، وغمرة التصابى هائما بغادة تسمى ولادة ، فلما قدم اللقاء ، وساعد القضاء كتبت إليّ :

« ترقب إذا جن الظلام زيارتى
فإنى رأيت الليل أكتم للسر
وبى منك مالو كان بالبدر مابدا،
وبالشمس لم تطلع،وبالنجم لم يسر.»

فلما طوى النهار كافوره ، ونشر عبيره ، أقبلت بقد كالقضيب ، وردف كالكثيب ، وقد أطبقت نرجس المقل ، على ورد الخجل، فلنا إلى روض مديج ،وماء سجسج ، قدقامت رايات أشجاره ، وفاضت سلاسل أنهاره ، ودرّ الطلّ منثور ، وجيب الراح مزرور فلما شببنا نارها ، وأدركت فينا ثارها ،برح كل منا بحبه ، وشكا إليه مابقلبه ، وبتنا بليلة نحنى أعطان الثغور ، وتقطف رمان الصدور ، فلما انفصلنا عنها صباحاً ، أنشدتها ارتياحاً :

« ودع الصبر محب ودعك
ذائعاً من سرّه ما استودعك.»

قال أبو الوليد وكانت عتبة قد غمتنا :

« أحبتنا إنى بلغت مؤملى
وساعدنى دهرى وواصلنى حبى
وجاء يهنينى البشير بقربه
فأعطيته نفسى، وردت له قلبى.»

سألها الإعادة بعيز أمر ولادة ، فخفا منها برق التبسّم ، وبدا عارض التجهم ، وعاتبت عتبة :

« وما ضربت عتبى لذنب أتت به
ولكنما ولادة اشتهت ضربى
فقامت تجر الديل عائرة به
وتمسح طل الدمع بالعنم الرطب.»

فبتنا على العتاب ، من غير اصطحاب ، ودم المدام مسفوك ، وما بدا للهو متروك ، فلما قامت خطباء الأطيار ، على منابر الأشجار ،وانفت من الاعتراف وباكرت إلى الانصراف ، وشت بمسك الأنفاس على كافور الاطراس :

« لو كنت تنصف فى الهوى مابيننا
لم تهو جاريتى ولم تتغير
وتركت غصناً مثمراً بجماله
وجنحت للغصن الذى لم يثمر
ولقد علمت بأننى بدر السما
لكن دهيت لشقوتى بالمشترى.»

صفحات من كتاب نفح الطيب

وقد صنف أبو الوليد بن زيدون كتاب (التبيين) فى خلفاء بنى أميـة بالأندلس على منزع كتاب (اليقين) فى خلفاء الشرق للمسعودى .

ومثل ابن زيدون فى قصـيدته التى لم يقل مع طولها فى النسيب أرق منها وهى التى يقول فيها :

« كأننا لم نبت والوصل ثالثنا
والسعد قد غص من أجفان واشينا
سران فى خاطر الظلماء يكتمنا
حتى يكاد لسان الصبح يفشينا . »

وهل نشأ عندكم من النساء مثل ولاده المروانية التى تقول مداعبـة للوزير ابن زيدون ، وكان له غلام اسمه علىّ :

« ما لابن زيدون على فضـله
يعتابنى ظلماً ولا ذنب لى
ينظر لى شزراً إذا جئتـــه
كأنما حتف لأحصى على . »

ومن حكايات أهل الأندلس فى خلع العـذار والطرب والظرف وغـير ذلك كسرعة الارتجال ما حكاه صاحب (بدائع البدائه) قال :

أخبرنى من أثق به بما هذا معناه —

قال : « خرج الوزير أبو بكر بن عمار والوزير أبو الوليـد بن زيدون ، ومعهما الوزير ابن خلدون من إشبيلية إلى منظرة لبنى عباد لموضع يقال له (الفنت) تحف به مروج مشرقة الأنوار ، متنسمة الأنجاد والأغوار ، متبسمة عن ثغور النوار ، فى زمان ربيع سقت الأرض السحب فيه بوسميها ووليها وجللتها فى زاهر ملبسها وباهر حليها ، وأرداف الربى قد تأزرت بالأرز الخضر من نباتها وأجياد الجداول قد نظم النوار قلائده حول نباتها ، ومجامر الزهر تعطر أردية النسائم عند هباتها ، وهنالك من البهار مايزرى على مداهن النضار ، ومن النرجس الريان مايهز أبناء عس الأجفان ، وقد نووا الافراح للهو والطرب والتنزه فى روضى النبات والأدب ، وسموا صاحباً لهم يسمى (خليفة) هو قوام لذتهم ونظام مسرتهم ليأتيهم بأبيد يذهبون الهم بذهبه فى لجين زجاجه ، ويرمونه منها بما يقتضى تحريكه للهرب عن القلوب وإزعاجه ، وجلسوا لانتظاره ، وترقب عوده على آثاره ، فلما نصبوا به مقبلا من أوّل الفج بادروا إلى لقائه ، وسارعوا إلى نحوه وتلقائه ، واتفق أن فارساً من الجند ركض فرسه فصدمه ، ووطأ عليه فهشّم عظمه ، وأجرى دمه وكسر قصال النبيذ الذى كان معه ، ومزّق من شملهم ما كان الدهر جمعه ، ومضى على غلوائه راكضا حتى غبى عن العين حائفاً من متعلق به يخين بتلقه الحين ، وحين وصل الوزراء إليه تأسفوا عليه ، وأفاضوا فى ذكر الزمان وعدوانه والخفض وألوانه ، ودخوله بطوام المضرّات على تمام المسرات وتكديره الأوبد للمتعات بالآفات المؤلمات ، فقال ابن زيدون :

« أملهو والحتوف بنا مطيفه
ونأمن والمنون لنا شخيفه . »

فقال ابن خلدون :

« وفى يوم وما أدراك يوم
مضى قصالنا ومضى حليفه . »

فقال ابن عمار :

« هما نخلتا راح وروح
تكسرتا فاشتاق وحيفه . »

وكتب الوزير الشهير أبو حامد ابن ريدون إلى الوزير أبى عبد الله بن عبد العزيز اثر صـدوره عن بلنسية .

« راحت فصح بها السعيم . . . . . » الأبيات

ولما ورد إشبيلية نزل بدار الوزير الكاتب ذى

الوزراتين أبى عامر بن مسلمة ، وهو يبنى مجلساً ، مصنع أبياتاً كتبت فيه :

« عمر من يعمر ذا المجلسا . . . . . » الأبيات

وقال فيه أيضا :

« ادرها فقد حسن المجلس . . . . » الأبيات

وكتب إلى الوزير أبى المعالى المهلب بن عامر يستدعيه :

« طاب لنا ليلتنا الحالية . . . . . » الأبيات

وكتب إليه ذو الوزارتين أبو عامر المذكور معاتبا :

« تباعدنا على قرب الجوار
كأنا صدنا شحط المزار
تطلع لى هلال الهجر بدرا
وصار هلال وصلك فى سرار
وشاع شنيع قطعك لى بوصلى
فهلا كان ذلك فى استتار
أيحمل أن ترى عمى صبورا
فأصبح مولعا دون اصطبار
وكنت أريد سماك من عتابى
ولكن خانى فرط الحمار
فراع مودتى واحفظ جوارى
فإن الله أوصى بالجوار
وزدنى منعما من غير أمر
وآنس موحشاً من عقر دار . »

وكتب إليه ابن زيدون :

« هواى وإن تناءت عنك دارى . . . » الأبيات

وكان أبو العطاف إذ ورد إشبيلية رسولا قد سأله أن يريه شيئاً من شعره فخطه به حتى كتب إليه شعراً يستبطئه ، فأجابه ابن زيدون فى العروض والقافية :

« أعدتنى من نفائس الدرر . . . . . » الأبيات

وهى أكثر مما ذكر . وكتب (أعنى ذا الوزارتين ابن زيدون) إلى ولادة :

« أضحى التنائى بديلا من تدانينا . . . . » الأبيات

وإنما ذكرت هذه القصيدة مع طولها لبراعتها ، ولأن كثيراً من الناس لا يذكر جلتها ، ويظن أن ما فى القلائد وغيرها منها هو جميعها وليس كذلك فهى وإن اشتهرت بالمشرق والمغرب لم يذكر جلتها إلا القليل ، وقد كنت وقفت بالمغرب على تسديس لها لبعض علماء المغرب ولم يحضرنى منها الآن إلا قوله فى المطلع :

« ما للعيون بسهم السهج تصمينا
وعن قطاف جنى الأعطاف تحمينا
تألف كانت يحيينا ويصفينا
تمرق عاث فى شمل المحبينا
أضحى الفراق بديلا . . . . . » الخ

وما أحسن قوله فى هذا التسديس :

« ما للأحبة دانوا بالنوى ورأوا
تعويض عهد التلاقى بالبعد حين نأوا
رعاهم الله كانوا للعهود رعوا
فغيرتهم وشاة بالفساد سعوا
عيظ العدا من تساقينا الهوى فدعوا
بأن نغص فقال الدهر آمينا . »

وقد ذكرنا فى الباب الرابع موشحة ابن الوكيل التى وطأ فيها لمونية ابن زيدون هذه فلتراجع — رحم — وقال ذو الوزارتين ابن زيدون يتغزل :

« وصبح الصبح الذى . . . . . » الأبيات

ومحاسن ابن زيدون كثيرة وقد ذكرنا منها فى غير هذا المحل جملة . وسأل جارية من جوارى الأندلس ذا الوزارتين أبا الوليد بن زيدون أن يزيد على بيت أنشدته إياه وهو :

« يا معطشى عن وصال كنت وارده
هل منك لى غلة أن صحت واعطشى . »

وكانت الجارية المذكورة تتشوق فتى قرشياً والوزير يعلم ذلك وهى لا تعلم أنه يعلم ، فقال :

« كم قتلى من ثياب السقم أسبغها ظلما
وصيرت من لحف الضنا فرشى
. . . . . » الأبيات

وحكى أن الوزير أبا الوليد بن زيدون توفيت ابنته وبعد الفراغ من دفنها وقف الناس عند منصرفهم من الجنازة ليتشكر لهم ، فقيل إنه ما أعاد فى ذلك الوقت عبارة قالها لأحد .

ابن جهـــور

ول فى المطمح :

الوزير الأجلّ أبو الحزم جهور بن محمد ابن جهور ، و بنو جهور أهل بيت وزارة اشتهروا كاشتهار ابن هبيرة فى فزاره ، وأبو الحزم هـذا أمجدهم فى المكرمات ، وأنجدهم فى الملمات — ركب متون الفنون فراضها ، ووقع فى بحور المحن فخاضها ، منسط غير منكمش ، لا طائش اللسان ولا رعش ، وقد كان وزّر فى الدولة العامرية فشرفت بجلاله ، واعترفت باستقلاله ، فلما انقرضت ،وعاقت الفتن واعترضت ، تحيز من التدبير مدّتها ، وخلى لأخلافه تدبير الرياسة وشدّتها ، وجعل يقبل مع أولئك الوزراء و يدبر غير مظهر للانفراد ، ولا متصرف فى ميدان ذلك الطراد ، إلى أن بلغت الفتنة مداها ، وسوّغت ما شاءت رداها ، وذهب من كان يجد فى الرياسة ويخب و يسعى فى الفتنة، ولما ارتفع الوبال ، وأدبر ذلك الاقبال راسل مستمدّا بهم ومعتمدا على بعضهم تخييلا منه وتمويها وتداهيا على أهل الخلافة وذويها وعرض عليهم تقديم المعتمد هشام وأومض منه لأهل قرطبة برق خلبه يشام ثقة بسرعة التياثها ، وتعجيل انتكاثها ، وأنابوا إلى دعائه ، وأجابوا إلى استدعائه ، وتوجهوا مع ذلك الامام ، وألموا بقرطبة أحسن الملم ، فدخلوها بعد فتن كثيرة ، واضطرابات مستثيرة والبلد مقفر ، والجلد مسفر ، فلم يبق غير يسير حتى نبذ واضطرب أمره فخلع ، واختطف من الملك وانتزع ، وانقضت الدولة الأموية، وارتفعت الدولة العلوية ، واستولى على قرطبة عند ذلك أبو الحزم ، ودبرها بالجدّ والعزم ، وضبطها ضبطا آمن حائفها ، وردع طارق تلك الفتنة وطائفها ، وخلا له الجوّ فطار ، واقتضى اللبانات والأوطار ، فعادت له قرطبة على أكمل حالتها ،وانجلى به نور جلالتها ، ولم تزل به مشرقة ، وغصون الآمال فيها مورقة الى أن توفى سنة ٤٣٥ فانتقل الأمر الى ابنه أبى الوليد ، واشتمل منه على طارف وتليد ، وكان لأبى الحزم أدب ووفار وحلم سارت بها الأمثال وعلم المثال ، وقد أثبت من شعره ماهو لائق ، وذلك قوله فى تفضيل الورد . .

« الورد أحسن ما رأت عينى وأذ
كى ما سقى ماء السحاب الجائد
خضعت نواوير الرياض لحسنه
فتذللت تنقاد وهى شواهد
واذا تبدّى الورد فى أغصانه
يزهو فذا ميت وهذا حاسد
واذا أتى وفد الربيع مبشرا
لطلوع صفحته فنعم الوافد

ليس المبشر كالمبشر باسمه
خبر عليه من النبوّة شاهد
وإذا تعرى الورد من أوراقه
بقيت عوارفه فهنّ خوالد . »

⁂

وقال صاحب كتاب المعجب :

ولما انقطعت دعوة بنى أمية كما ذكرنا بالأندلس ، ولم يبق من عقبهم من يصلح للامارة ، ولا من تليق به الرياسة استولى على تدبير ملك قرطبة جهور بن محمد بن جهور ، ويكنى أبا الحزم ، وقد تقدّم ذكر نسبه فى ترجمة هشام ، وأبو الحزم هذا قديم الرياسة شريف البيت كان آباؤه وزراء الدولة الحكمية والعامرية ، وهو موصوف بالدهاء ، وبعد الغور ، وحصافة العقل ، وحسن التدبير، ولم يدخل من دهائه فى الفتن الكائنة قبل ذلك وكان يتصاون عنها، ويظهر النزاهة والتدين والعفاف ، فلما خلا له الجوّ وأصفر الفناء ، وأقفر النادى من الرؤساء وأمكنته الفرصة وثب عليها فتولى أمرها ، واضطلع بحمايتها ، ولم ينتقل إلى رتبة الامارة ظاهرا جريا على ما قدّمنا من إظهار سنن العفاف بل دبرها تدبيرا لم يسبق إليه ، وذلك أنه جعل نفسه ممسكا للموضع إلى أن يجىء من يتفق الناس على إمارته فيسلم إليه ذلك ورتب البوّابين والحشم على تلك القصور على ما كانت عليه أيام الدولة ولم يتحوّل عن داره إليها ، وجعل ما يرتفع من الأموال السلطانية بأيدى رجال رتبهم لذلك وهو المشرف عليهم ، وصير أهل الأسواق جندا له وجعل أرزاقهم رؤوس أموال تكون بأيديهم محصاة عليهم يأخذون ربحها ورؤوس الأموال باقية محفوظة يؤخذون بها ويراعون فى كل وقت كيف حفظهم لها ، وفرّق السلاح عليهم، وأمرهم بتفرقته فى الدكاكين والبيوت حتى إذا دهمهم أمر فى ليل أو نهار كان سلاح كل واحد معه حيث كان من بيته أو دكانه ، وكان أبو الحزم هذا يشهد الجنائز ، ويعود المرضى جاريا على طريقة الصالحين ، وهو مع ذلك يدبر الأمور تدبير الملوك المتعلبين ، وكان آمنا وادعا وقرطبة فى أيامه حرما يأمن فيه كل خائف ، واستمرّ أمره على ذلك إلى أن مات فى غرّة صفر سنة ٤٣٥ فكانت مدّة تدبيره منذ استولى إلى أن مات أربع عشرة سنة وأشهرا ، ثم ولى ما كان يتولى من أمر قرطبة بعده ابنه أبو الوليد محمّد بن جهور ، فجرى فى السياسة وحسن التدبير على سنن أبيه غير مخل بشىء من ذلك إلى أن مات أبو الوليد المذكور فى سلخ شوّال من سنة ٤٤٣ فغلب عليها بعد أمور جرت — الأمير الملقب بالمأمون ابن ذى النون صاحب طليطلة فدبرها مدّة يسيرة إلى أن مات ، وخلف فيها بعده من البربر رجل يعرف بابن عكاشة أظن اسمه موسى ، فكان بها إلى أن غلبه عليها وأخرجه منها الأمير الظافر بحول الله أبو القاسم محمد بن

عباد على ما ياتى ببيانه إن شاء الله تعالى . فهذا آخر أخبار قرطبة وكونها دارا للملك وبعدغلبة المعتمد عليها صارت تبعا لاشبيلية.

جهور (١)

جهور بن محمد بن جهور بن عبد الله ابن محمد بن العمر بن يحيى بن عبد الغافر بن أبى عبدة رئيس قرطبة ، يكنى أبا الحزم . روى عن أبى بكر عباس بن الهمذانى ، وأبى محمد الأصيلى ، والقاضى أبى عبد الله بن مفرّج ، وأبى القاسم خلف بن القاسم ، وأبى يحيى زكريا بن الأشج وغيرهم . وسمع منهم وأخذ العلم عنهم ، وقد أخذ عنه أبو عبد الله محمد بن عتاب الفقيه ، فقال حدّثنا ثقة من الشيوخ الأكابر ، وهو يعنى أبا الحزم هذا ، ثم صار تدبير أهل قرطبة إلى أبى الحزم هذا فأنفها بالرياسة فيها ، إلى أن توفى يوم الخميس لسبع بقين من المحرّم من سنة ٤٣٥ ودفن بداره ، وصلى عليه ابنه أبو الوليد محمد بن جهور متولى الأمر من بعده ، وكان سنه يوم وفاته إحدى وسبعين سنة ، وكان مولده أوّل المحرم سنة ٣٦٤ .

أما قرطبة فاستولى عليها أبو الحسن جهور بن محمد بن جهور ، وكان من وزراء الدولة العامرية ، موصوف بالدهاء والعقل ، ولم يدخل فى شىء من الفتن قبل هذا بل كان يتصاون عنها ، فلما خلا الجوّ وأمكنته الفرصة وثب عليها فتولى وقام بحمايتها ، ولم ينتقل إلى رتبة الأمارة ظاهرا بل رتبها ودبرها تدبيرا لم يسبق إليه ، وأظهر أنه حام للبلد إلى أن يجىء من يستحقه ، ورتب البوّابين والحشم على أبواب قصور الامارة ولم يتحوّل عن داره إليها ، ودعا ما يتحصل من الأموال السلطانية بايدى رجال رتبهم له .

وكان جهور يشهد الجنازة ، ويعود المرضى ، ويحضر الأفراح على طريق الصالحين ، وهو مع ذلك يدبر الأمور تدبير الملوك ، وكان مأمون الجانب فأمن الناس فى أيامه ، وبقى كذلك إلى أن مات سنة خمس وثلاثين وأربعمائة ، وقام بأمرها بعده أبو الوليد محمد بن جهور على هذا التدبير إلى أن مات .

بنو عباد

أما أحوال إشبيلية فانها كانت فى طاعة الفاطميين أعنى علىّ بن حمود ، والقاسم بن حمود ، ويحيى بن علىّ بن حمود أيام كان الأمر دائرا بينهم على ما تقدّم ذكره . فلما زحف يحيى بن علىّ بالبربر إلى قرطبة وهرب القاسم بن حمود منها ، وقصد اشبيلية ، وقد كان ابناه محمد والحسن مقيمين بها أجمع أمر أهل إشبيلية ، واتفق رأيهم على إخراج محمد والحسن عنها قبل وصول القاسم أبيهما فأخرجوهما ، وجاء القاسم فمنعوه دخول البلد أيضا ، واتفقوا على تقديم رجل منهم يرجع إليه أمرهم ، وتجتمع به كلمتهم فتوارد

(١) من كتاب الصلة لابن بشكوال .

اختيارهم بعد محض الرأى وتنقيح التدبير على القاضى أبى القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد اللخمى لما كانوا يعلمونه من حصافة عقله ، وسعة صدره ، وعلوّ همته ، وحسن تدبيره ، فعرضوا عليه ما رأوه من ذلك ، فتهيب الاستبداد ، وخاف عاقبة الانفراد أوّلا وأبى ذلك إلا على أن يختاروا له من أنفسهم رجالا سماهم لهم يكونون له أعوانا ووزراء وشركاء لايقطع أمرا دونهم ، ولا يحدث حدثا إلا بمشورتهم ، وهؤلاء المسمون هم الوزير أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدى ، ومحمد بن يربم الاهانى ، وأبو الأصبغ عيسى حجاج الحضرمى ، وأبو محمد عبد الله بن علىّ الهوزنى ورجال آخرون ذهبت عنى أسماؤهم ولا أعرف قبائلهم وبيوتهم ، ففعلوا ذلك وأجابوه إلى ما أراد ، ولم يزل يدبر أمر إشبيلية ، وهؤلاء المذكورون من وزرائه ، وكان له من الولد إسماعيل وهو الأكبر يكنى أبا الوليد وعباد يكنى أبا عمرو ، فأمّا إسماعيل فخرج إلى لقاء البربر بعد أن حدث لأبيه أمل فى التغلب على ما كان البربر يملكونه من الحصون القريبة من إشبيلية بعسكر من جند إشبيلية ، فالتقى هو وصاحب صهاجة ، فأسلمت إسماعيل عساكره ، وكان أوّل قتيل وقطع رأسه وسير به إلى مالقة إلى إدريس ابن علىّ الفاطمى كما تقدّم ، وبقى الأمر كذلك ، والقاضى أبو القاسم يدبر الأمور أحسن تدبير ، وكان صالحا مصلحا إلى أن مات فى شهور سنة ٤٣٩ .

صفحات من كتاب العينى (١)

وأما إشبيلية فاستولى عليها قاضيها محمد ابن إسماعيل بن عباد اللخمى ، وهو من ولد النعمان بن المنذر ، وفى هذا الوقت ظهر أمر المؤيد هشام بن الحكم ، وكان قد اختفى وانقطع خبره ، وكان ظهوره بمالقه ثم سار منها إلى المريّه ، فخافه صاحبها زهير العامرى وأخرجه منها ، وقصد قلعة رياح فأطاعه أهلها ، فسار إليهم صاحبها أوّل إسماعيل ذى النون ، فحاربهم وضعفوا عن مقاومته فأخرجوه ، فاستدعاه القاضى أبو القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد إليه باشبيلية ، وأذاع أمره ، وقام بنصره ، فسار إليه وقام بواجبه ، وكتب بظهوره إلى ملوك الأندلس فأجاب أكثرهم وخطبوا له ، وجرت بيعته فى المحرّم سنة تسع وعشرين وأربعمائة ، ثم إن عباد سير جيشا إلى زهير العامرى بأنه يخطب للمؤيد فاستنجد زهير حيوس بن ماكر الصنهاجى

(١) كتاب عقد الجمان للعينى ، القسم الرابع .

صاحب غرناطة ، فسار إليه بجيشه فعادت عساكر ابن عباد ، ولم يكن بين العسكرين قتال ، وأقام زهير ببأسه ، وجاء حيوس إلى مالقة فملكها وولى بعده ابنه باديس ، واجتمع هو وزهير ليتفقا كما كان زهير وحيوس فلم يستقر بينهما قاعدة واقتتلا فقتل زهير ، وجمع كثير من أصحابه ، والتقى عسكر ابن عباد وابنه إسماعيل مع باديس بن حيوس ، وعسكر إدريس الملوى صاحب سبتة بطنجة واقتتلوا قتالا شديدا فقتل إسماعيل ثم مات بعده القاضى أبو القاسم بن عباد وولى بعده ابنه أبو عمرو ، ولقب المعتضد بالله فضبط ما ولى وأظهر وفاة المؤيد ، واشتغل بأمر إشبيلية وبقى كذلك إلى أن مات وولى بعده ابنه أبو القاسم محمد ولقب بالمعتمد على الله ، فاتسع فى ملكه ، وشمخ سلطانه ، وملك كثيرا من الأندلس ، وملك قرطبة أيضا ، وولى عليها ابنه الظافر بالله فبلغ خبر ملكه لها إلى يحيى بن ذى النون صاحب طليطلة فحسده عليهما فضمن له جرير بن عكاشة ، وسار إلى قرطبة ، فأقام يسعى فى ذلك وهو ينتظر الفرصة ، فاتفق أن فى بعض الليالى جاء مطر عظيم ومعه ريح شديدة ورعد وبرق فثار جرير فخرج الظافر فيمن معه من العبيد والحرس ، وكان صغير السن فحمل عليهم ودفعهم عن الباب ، ثم إنه عثر فى بعض كراته فسقط فوثب عليه شخص فقتله ولم يبلغ الخبر إلى الأجناد وأهل البلد إلا والقصر قد ملك وتلاحق بجرير أصحابه وأشياعه ، وترك الظافر ملقى على الأرض ، فمرّ عليه بعض أهل قرطبة فأبصره على تلك الحالة فنزع رداءه وألقاه عليه ، وكان أبوه إذا ذكره يتمثل بهذا البيت :

« ولم أدر من ألقى عليه رداءه
سوى أنه قد سل عن ماجد محض . »

ولم يزل المعتمد يسعى فى أخذها حتى عاد ملكها إليه وترك ولده المأمون فيها فأقام بها حتى أخذها يوسف بن تاشفين وقتل فيها بعد حروب كثيرة يأتى ذكرها إن شاء الله تعالى وأخذت إشبيلية من أبيه المعتمد ، وبقى مسجونا فى أغمات إلى أن مات بها ، وكان هذا وأولاده جميعهم — الرشيد ، والمأمون ، والراضى ، والمعتمد ، وأبوه ، وجدّه علماء شعراء —

ملوك الطوائف (١)

بقلم الأستاذ نيكلسون

تفرقت امبراطورية عبد الرحمن الثالث العظيمة ، وظهر على أنقاضها عدّة ممالك صغيرة « دويلات » أنشأتها الظروف والمصادفات ، وكان يحكمها بعض القادة المظفرين .

وقد أحسن نيكلسون فى تشبيه تاريخ إسبانيا فى القرن الحادى عشر الميلادى

(١) فصل مختار من كتاب نظرات فى تاريخ الأدب الأندلسى للشارح .

بتاريخ إيطاليا فى القرن الخامس عشر ، فقد كان وجه الشبه — كما يقول — كبيرا جدا بينهما .

وكان هؤلاء القادة الذين اقتسموا بلاد الأندلس أشبه بأولئك القادة الذين كان يطلق عليهم فى إيطاليا اسم : «Condottieri» وكان من بينهم ملوك العبادية الذين قطنوا إشبيلية ، وهم أقوى ملوك ، وقد أطلق عليهم كتاب المسلمين اسم : « ملوك الطوائف »

وعلى الرغم من أن ذلك كان عصر تدهور سياسى ، وعلى الرغم من أن إسبانيا تشكو عجز مواردها الاقتصادية ، فقد وصل المجتمع فى تلك الأيام الى مستوى لم يصل الى مثله من قبل .

وهنا يجدر بنا أن نقف لحظة علنا نستطيع أن نستعرض فيها أمامنا الشوط البعيد المدى الذى قطعته الآداب والعلوم فى طريق النجاح فى ذلك العصر الذى يعد أزهى عصور الاحتلال الاسلامى فى أوروبا .

***

فبينما ترى العرب الفاتحين فى آسيا — كما بينا ذلك — قد سحرتهم حضارة قديمة تفوق حضارتهم بما لا نهاية له فأذعنوا لها وظهر أثرها فيهم إذ تراهم لم يكادوا يعبرون مضيق جبل طارق — فى العرب — حتى انعكست الآية تماما .

وذلك أنهم بعد أن تغلبوا على شبه الجزيرة وقع فى أيديهم آلاف المسيحيين من كل جهة فتحوها فعاش أولئك المسيحيون فى كنف المسلمين ، وأحسنت الحكومة معاملتهم ، ومنحتهم الحرية الدينية وكثيرا ما رفعتهم إلى مناصب عالية فى الجيش وفى بلاط الملك . فاعتنق كثير منهم الحضارة الاسلامية وافتتن بها افتتانا .

حتى رأينا « القارد » كاهن قرطبة فى أواسط القرن التاسع للميلاد يولول فى أوائل ذلك العصر شاكيا من أبناء دينه انصرافهم إلى مطالعة أشعار العرب وأساطيرهم وهيامهم بدراسة كتابات لاهوت نبى المسلمين وفلاسفتهم لا يقصدون بذلك إلى تفنيدها بل يقصدون إلى التعبير عن خواجلهم بأسلوب عربى رائع صحيح .

وكان القارد يتساءل .

أنى يتاح لانسان فى هذه الأيام أن يقابل واحدا من أبناء جنسنا يقرأ التفاسير اللاتينية للكتب المقدسة ؟ ومن ذا الذى يدرس منهم فصول الأناجيل وسير الأنبياء والحواريين ؟ واحسرتاه :

إن كل الشبان المسيحيين ذوى المواهب لا يعرفون الا العربية والا كتابات العرب فهم يقرءونها و يدرسونها بحماسة بالغة منتهاها كما أنهم ينفقون المال الطائل لا قتنائها فى مكاتبهم وتراهم أنى وجدوا يذيعون أن تلك الآداب جديرة بالاعجاب .

فاذا تجاوزت عن ذلك وأخذت تحدثهم عن الكتب المسيحية أزورجانبهم وأجابوك

بازدراء أنها أسفار تافهة لا خطر لها .

واحسرتاه عليهم ! لقد نسى المسيحيون أنفسهم حتى ليندر العثور بين آلاف منا على على فرد يستطيع أن يحرر الى أحد أصدقائه رسالة لاتينية بأسلوب لا بأس به على حين ترى جهرتهم قادرة على الابانة عما فى نفوسهم بأسلوب عربى رائع ، وعلى حين ترى حذقهم فى قرض الشعر العربى قد وصل الى حدّ فاقوا معه العرب أنفسهم .

ومهما يكن فى كلام هذا الكاهن من اغراق فما يترفع عن الجدل والتشكك أن الثقافة الاسلامية قد أخذت بألباب المسيحيين الاسبان ، كما افتتن بها اليهود الذين خدموا الشعر والفلسفة بمساعداتهم العديدة وكتاباتهم التى أنشئوها بلغتهم و بلغة أبناء عمهم العرب .

أما المولدون والصابئون من الاسبانيين الذين لانوا بالاسلام فقد استعربوا تماما بعد أجيال قليلة ، ومن هؤلاء نبغ أشهر من ازدان بهم الأدب العربى .

***

وقد كان للشعر العربى — فى أوروبا — على الاجمال الخصائص التى رأيناها فى الشعر المعاصر له فى الشرق .

فان الأوزان المصطلح عليها والقيود التى لم يستطع أساطين بغداد أن يحرّروا أنفسهم من ربقتها ظلت بحذافيرها فى قرطبة واشبيلية.

وكما تأثر الشعر العربى فى الشرق بالآداب الفارسية ، فقد تأثر فى اسبانيا كذلك باتحاد الآريين والساميين واندماجهم شيئا فشيئا .

فكان ذلك سببا فى ادخال عناصر جديدة ظهرت فى آدابها ، ولعل أمتع ميزات الشعر الأندلسى هى ذلك الوجدان العاطفى الرقيق الذى يندر وجود مثله فى النسيب والذى ظهر كثيرا فى أغانيهم عن الحب وهو وجدان لايقتصر على تصوير فروسية القرون الوسطى بل يتخطى ذلك إلى حد أن تحسبه إحساسا جديدا بمحاسن الطبيعة التى جلته .

وهذه الميزة سهل فهم ذلك الشعر على الكثيرين من الآريين الذين قد لايسهل عليهم تفهم روح المعلقات أو قصائد المتنبى .

دراسات الكتاب لابن زيدون

« أثبتنا فى هذه الصفحات أهمّ الدراسات
التى كتبت — فى العصر الحديث — عن
ابن زيدون إتماما للفائدة . »

— دراسة الدكتور أحمد ضيف [1]

اقترنت الوزارة فى الأندلس بالأدب ، فكان الوزير كاتبا وشاعراً ، وكان أشهر الكتاب والشعراء وزراء ، وكانت الشهرة بالكتابة والشعر ، وفنون الأدب ، وفروع العلوم من وسائل الوصول إلى امتلاك الوزارة ، فكان للوزراء أثر عظيم فى سير البلاغة والأدب ، وأصبحت منزلة الأدب كمنزلة الوزراء أنفسهم فى الدولة ، وظهر فى الأندلس طائفة من الرجال الذين تربعوا فى مناصب الملك ، وتقلبوا فى مراكز الدولة ، وتغلبوا على شئونها ، وهم جميعا من الأدباء والعلماء والكتاب والشعراء وأصحاب الشورى ، وأعلام الحياة العقلية .

ومن أشهر هؤلاء الوزراء الأدباء والشعراء المجيدين ، أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب ابن زيدون المخزومى الأندلسى القرطبى ، أشهر من عرف فى حلبة الأدباء ، وأظهرهم ميزة فى فنون الكلام وأساليب الشعر والبيان ، لأنه صورة من صور الأدب فى الأندلس ، وصحيفة من صحف البلاغة هناك ، وثمرة من ثمار غرس العرب فى بلاد المغرب .

ولد ابن زيدون بمدينة قرطبة فى سنة ٣٩٤ هـ وتوفى بإشبيلية سنة ٤٦٣ هـ وهو ثالث ثلاثة تسموا بابن زيدون : أحدهم أبو بكر عبد الله بن أحمد بن غالب والده ، والثانى أبو بكر ابنه وكان وزيراً للمعتمد بن عباد ومات مقتولا ، وهم من أصل عربى كما أشرنا إلى ذلك فى كلامنا على القبائل التى نزلت الأندلس من العرب . كان أبوه قاضياً مشهوراً بين قضاة قرطبة ، وعالما وأديباً . مات سنة ٤٠٥ فكان عمر ابنه إذ ذاك إحدى عشرة سنة ، وكان أبو الوليد منذ حداثته ميالا إلى العلم والتعليم ، فاندفع يطلب لنفسه الكمال العقلى ، وكانت نشأته فى قرطبة ساحة العلوم والآداب ، فانكب على الدرس والبحث ، وأخذ الأدب عن رجاله المعروفين ، وكان له ميل شديد لعلوم العرب وفنون اللغة فحفظ منها شيئاً كثيراً ، كما وعى كثيراً من أخبار الأدباء والشعراء ، وأمثال العرب وحوادثها ، ومسائل اللغة ، حتى أصبح فى مقدمة الشعراء والأدباء ، واندمج فى مجالس الأدب ، فصار علماً من أعلامها ودعامة من دعائمها ، وكانت قرطبة لاتزال فى أوج علا عزها على الرغم من أفول شمس بنى أمية بها ، وأهلها فى رخاء من العيش ، أكثرهم يميل إلى العلم والأدب ومجالسة الأدباء ، فامتلأت المحافل والمجامع بضروب اللهو والطرب ، وكان لابن زيدون خفة روح ودعابة وميل إلى المجون ، فساعده ذلك على أن يسبق غيره ، وأن ينال شهرة

---

(١) من كتاب بلاغة العرب فى الأندلس للدكتور أحمد ضيف .

واسعة بين أترابه . وكان للنساء أثر عظيم فى هـذه المجالس ، فاتجه الناس إلى الاندماج فيها واستعذبوا هـذا المورد ، وانصرفت هم الأدباء إلى التفوق فى هذا الميدان ، فكان لذلك أثر عظيم فى أخلاق الأدباء وصورة البلاغة من نظم ونثر ، وكأنما ضاعت كل صبغة جدية فى المجامع الأدبية لجرؤ الوزراء على المجاهرة بالمجون ، وكان ابن زيدون أحد أبطال هؤلاء لجذب إليه الأنظار .

وكان لولادة بنت المستكفى الخليفة الأموى شهرة عظيمة فى قرطبة لجمالها وعلمها وأدبها ، فوقع ابن زيدون فى شركها ووقعت فى شركه ، واشتمل كل منهما على صاحبه ، حتى حسد علياً وحسدها الناس عليه ، وكان من بين هؤلاء الحساد الوزير أبو عامر بن عبدوس وهو كبير الحول والطول ، فتقرب إلى ولادة حتى أمالها إليه ، وكانت ولادة ملت صداقة ابن زيدون واتهمته كما اتهمها بذلك أيضا ، فهبت عاصفة من الجفاء بينهما شتتت من شملهما وحالت بين قلوبهما ، لذلك غلب ابن عبدوس ابن زيدون على أمره ، واستولى على قلب ولادة ، ثم حدث أن رجعت إلى ابن زيدون فكتب عن لسانها لابن عبدوس رسالته الشهيرة الهزلية ، ثم استأثر بها ثانية ابن عبدوس ، فكانت هـذه الحال سبب اضطراب فى حياة ابن زيدون العقلية والسياسية وهكذا كانت حال الوزراء وأرباب الدولة وعقول الأدباء وأصحاب الأقلام والمفكرين ، وهـذه الحادثة من أكبر الحوادث فى حياة ابن زيدون . عاش ابن زيدون فى بيئة كلها اضطراب ودسائس ، وترى ودرج فى ذلك وتقلد لوزارة فيها ، لأنه اشترك فى حوادث الاضطراب التى كانت على أثر زوال دولة بنى أمية ، فكان من أشياع ابن جهور أحد ملوك الطوائف الذى ادعى لنفسه الملك فى قرطبة بعد انحلال الدولة الأموية سنة ٤٢٣ وعلت منزلة ابن زيدون هناك ، فاتخذه ابن جهور وزيراً له فملك أزمة الأمور ، وكان أقرب الناس إلى سيده الذى استعان به كثيراً فى المسائل السياسية ، وتأمين الصلة بينه وبين الأمراء الآخرين لذكائه ودهائه ، فكانوا يحسدون ابن جهور على الاختصاص به ، وحدثت حوادث أوغرت عليه صدور كثير من منافسيه والحاسدين على فضله ومنزلته ، فحملوا عليه عند ابن جهور حتى أمر بسجنه فسجنه طويلا ، فاستعفر واستعطف بما يلين من أجله الحديد ، فلم يفلح فى إرضاء الأمير فعزم على إعمال الحيلة والهرب من السجن . واختفى بقرطبة إلى أن استشفع بأبى الوليد بن جهور عند أبيه أبى الحزم حتى شفع له ، وجعله أبو الوليد بعد موت أبيه من المقدمين فى دولته ، ولكن ابن زيدون لم يأمن على نفسه من بقائه فى قرطبة ، فهاجر إلى إشبيلية سنة ٤٤١ ودخل فى حاشية المعتضد بن عباد وصار وزيراً لابنه المعتمد وبقى هناك إلى آخر عمره . هـذه حياته وأخلاقه ، وقد ذكرها فى شعره ونثره ومنها يرى أن حركات عقله كانت تتفوذلك خطوة بخطوة ، فكانت حياته العقلية نتيجة هذه الحياة ، لذلك يمكن أن تقسم آثاره الأدبية إلى أقسام ثلاثة : عشقه لولادة وأثر ذلك فى نفسه وما كتبه فى هذا ، ثم مدحه لابن جهور وابن عباد ثم أثر السجن فى حياته العقلية .

شـــعر ابن زيدون

كان لأخلاق ابن زيدون والبيئة التى عاش فيها وميول الناس إلى اللهو أثر عظيم فى شعره ، فقد كان للمجون مسحة خاصة فى النظم والنثر ، فبرع ابن زيدون فى النزل ، وكثير من شعره فى ذلك كان منبعثا عن ثوران فى نفسه وغلياناً فى ميوله وأهوائه ، أذكى ذلك كله حبه لولادة ، فإن عشقه هذا فتح له باباً واسعاً

من الخيال قال فيه ما شاء وشاءت عواطفه أن توحى إليه ، كذلك كانت آلامه وما لاقاه فى السجن باعثاً من بواعث استنهاض ملكة الشعر فيه وإلهاما من إلهاماته الفنية .

وشى به أعداؤه وحاسدوه إلى ابن جهور ، وكاد له منافسوه فى حب ولادة حتى نالوا منه ، وشفوا غلتهم بحمل ابن جهور على سجنه بعد أن أحله منزلة الوزير يدبر ملكه ، وبعد أن ائتمنه وعرف له رأيه السديد وبراعته فى إدارة الأمور وسلمه زمام الدولة ، ولم يكن لابن جهور أن يخطئ فى نظره لما اشتهر به نفسه من سداد الرأى وصحته ، فإذا ناله ابن زيدون مكانة فى نفس ابن جهور ، فقد كان ذلك عن جدارة واستحقاق ، ولكن أعداؤه تمكنوا من ابن جهور فعصب عليه وأمر بسجنه ، فأثار هذا السجن من نفس ابن زيدون عاصفة فنية جديدة رقت من خياله الشعرى أثارتها آلامه فأخذ يثن أنيناً جميلا ، ويفنن فى آلامه ووصفها والتعبير عنها مرة شعراً ومرة نثراً . . . والفنى يمزج فنه دائما بكل ما يرى ويسمع ويشعر ، ولقد كانت نفس ابن زيدون من النفوس الدقيقة الادراك ، التى إذا أنت تئن أنين الموسيقى ، وإذا شكت تشكو شكاة القلوب المملوءة شعوراً الواسعة التصوّر والإدراك الدقيق ، الذى يجعل الشكوى جميلة والكلام فيها جميلا . كتب ابن زيدون من السجن إلى صديقه أبى حفص بن برد يشكو ويئن من بلواه وهو ينهضه الأمل مرة ويقعده اليأس أخرى ، ولا يترك شاردة تمرّ بخاطره إلا هدأ بها نفسه ، وتسلى بها عن آلامه . يستسلم أحياناً إلى القضاء فيشعر فى نفسه براحة واطمئنان ، ويقلب أمامه صفحات الأيام فلا يعجب من الحوادث التى ألمت به ، ويرجع إلى صديقه فيسليه هو بنفسه ، ويسأله ألا يكف عن مجونه وتسليته ، لأن السعادة خلسة ، ثم يعود فيذكر أعداءه وتيلهم منه ويبين أن ذلك ليس بالعجب لأنه :

إن قسا الدهر فللسماء من الصخر انبجاس

ويرى أنه حسد لمكانته ، ويمزج ذلك بالعبر والحكم والسخرية والتهكم من أحوال العالم وحوادث الحياة ، ويرجع أنينه وألمه وحقده على الناس ، ولا سيما حاسديه ، ويضرب المثل كى يسكن من نفسه ، وهو فى ذلك كعادته فى الشكوى : يهبط مرة إلى الدرك الأسفل من اليأس ، ويترفع أخرى إلى ذروة الرجاء ، وكأنه فى شجار مستمرّ بينه وبين نفسه وشعوره ، كل هذه المعانى فى أبيات قليلة بأسلوب جميل رقيق ، يكاد يلمح الإنسان فيها خاطره المضطرب المتماوج . حيث يقول :

« ما على ظنّ باس بجرح الدهر وياسو » الخ

هذه نفحات القلوب ، وهذا هو الشعر الذى يستولى على النفس ويلهمها الحكمة والعبرة ، وهذا هو جمال القول ، ليس ذلك لأنه مطرب مرقص بوزنه وقافيته ، بل لأنه ساحر بمعانيه وجماله ، كل معنى فيه تحتاج إليه النفس فى مثل هذه المواقف ، ولقد كانت هذه المعانى سائغة للنفس لأن الشاعر صادق فى قوله ، معبر عن شعوره يرسم صوره من نفسه الحزينة المتألمة ، لهذا كان الشعر جميلا .

وقد بدأ قصيدة من قصائده فى هذا بالفخر بنفسه ، وأمعن فى ذلك ، وكأنما كان يبكى حظه وينديه بهذا الأسلوب الفخرى ، أو كأنما كل معنى من هذه المعانى كانت تهدئ خاطره وتريح نفسه ، فلما مدح ابن جهور مدحه فى قالب استعطاف ، وتوسط بين المدح الخالص والعتب الجدى ، وقد ظهر بنفس كبيرة وأنف أشم حتى أنه مدح نفسه أكثر من ابن جهور ، فكان مادحا أشدّ منه عاتباً ، لأنه كثيراً ما كان فى مثل هذا الموقف لاينسى الفخر بنفسه ، ولا يريد أن يملى عليها ولو همسا أنه فى موقف مذلة ، وكأنه كان يتسلى بهذا ، لأنه يرى أن أعداءه لم ينالوا منه إلا لأنه فاتهم بعلمه وفضله حتى إنه قال متهكما :

« ولو أنني أستطيع كي أرضى العدا شريت ببعض الحلم حظا من الجهل . »

وكل قصائده التي أرسلها يستعطف بها ابن جهور هي أثر ذلك الشقاء الذي لقيه في سجنه ، وصورة من صور البؤس الذي حرّك شعوره وفتق من لسانه ، وأثار في نفسه عواطفه الشعرية المدلهمة الملوءة هماً وغماً .

ولكن أسلوبه في الشكوى والاستعطاف واحد في نظمه ونثره ، وما أشبه قصائده في ذلك وما فيها من من المعاني برسالته الجدية ، وكأنما كان فكره سجيناً مثله من شدّة تألمه في السجن ، فانه لم يخرج عن عادته في ضرب الأمثال والفخر بنفسه ، وأنه أفضل إنسان وأكرم من دبّ على وجه الأرض .

غير أن كلامه مع ذلك عذب المذاق ، رقيق الحاشية ، جذاب خلاب ، تظهر عليه سيما الابتكار والصدق في التعبير ، فانه ليس من الخيالات الشعرية العرفة ، بل به كثير من الحقائق التي كان يمليها عليه شعوره كما قال :

« ما جال بعدك لحظي في سنا القمر إلا ذكرتك ذكر العين بالأثر . »

وكتب إلى أحد أصدقائه وهو مختف بقرطبة بعد فراره من السجن ، فقال :

« . . . وبلغني أنك أحد اللائمين لي الخ »

إلى أن قال :

« شحطنا وما بالدار نأي ولا شحط وشط بمن نهوى المزار وما شطوا . »

إلى آخر ماقال في هذه القصيدة التي هي من أبدع قصائد الشكوى وأجمعها لذكر الماضي والحاضر والاستغفار والاستعطاف ، والسرور بذكر ما انقضى والبكاء على الحاضر ، وهي أيضاً أظهر في لهجتها الجدية من كثير من شعره ، ولذلك كانت أحف في أسلوبها ومعانيها ، ليس بها تلك الرقة المهودة في كلامه ، كل ذلك هاجه السجن وماتذوقه من الآلام ، فرسمه في شعره ، لأنه رجل فني يعرف كيف يصوّر مايشعر به ويعبر عما يجول بخاطره . ولقد يلاحظ الانسان أن آراء ابن زيدون آراء عامة ليست ناشئة عن تفكير طويل أو علم واسع ، وإنما هو خيالي أكثر منه مفكراً ، وشاعر أكثر منه عالما ، وهذه كل حال شعره ونثره .

أما مدحه ورثاؤه فهما في المرتبة الأخيرة من شعره ، لأنه على جمال أسلوبه في ذلك ، وحسن تصرفه في المعاني لا يكاد يعتر الانسان فيه على معنى جديد ولا رأي خاص ، بل يكاد يكون كل ماجاء من المعاني من قبيل معارضة غيره من الشعراء والأخذ بمعانيهم ممزوجاً ذلك بما له من البراعة والصناعة والافتنان .

ومن أجمل قصائده كلامه في المعتضد بن عباد وابنه المعتمد ، ومن أرقّ كلامه في الشكوى ، وأقرب عباراته وصولا إلى القلوب بكاؤه على الماضي ، والتلذذ بذكره وما كان فيه من النعيم كقوله :

« الهوى في طلوع تلك النجوم والمنى في هبوب ذاك النسيم . »

ولقد كان ينظر إلى أيامه الماضية فيحن إليها حنيناً مؤلماً ، فاذا قرأت شعره في ذلك رأيت نفسك كأنك واقف على أطلال سعادته البالية ، فبكى وبكيت معه ، كما قال :

« ألا هل إلى الزهراء أوبة نازح تقضت مبانيها مدامعه نزحا . »

الغزل في شعر ابن زيدون

يتبين من أحوال الاجتماع في الأندلس ، وميول النفوس ، واختلاط النساء بالرجال ، واندماج كثير من الأدبيات في مجالس اللهو والطرب ، أن المرأة شغلت جزءاً عظيما من أوقات الرجال المفكرين ، وملأت

رءوسهم ، كما أن مجالس الشرب كان لها سلطان عظيم على نفوسهم ، فكانت المرأة تحرك العواطف والشعور ، والخمر تدر العقول ، وتملى عليها القول ، وتفتح أمامها طرق التصور والخيال ، والعقول ثملة بنشوة الغرام والرءوس مثقلة بحرارة المدام ، والناس لا يفوتهم الطرب ، ولا يريدون أن يتواروا عنه لعلقته بنفوسهم ، حتى فى أشدّ المحن ، فقد رأينا أن ابن زيدون كتب وهو فى سجنه لصديقه أبى حفص بن برد يقول :

« وأدر ذكرى كأساً ما امتطت كفك كاس
واغتنم صفو الليالى إنما العيش اختلاس . »

وقع ابن زيدون فى شرك ولادة بنت المستكفى بالله ، وكانت خليعة ماجنة بارعة رفيعة بين الأدباء « تناضل الشعراء ، وتساجل الأدباء ، وتفوق البرعاء . . . خرجت على نهاية فى الأدب والظرف ، حضور شاهد ، وغزارة أوابد ، وحسن منظر ومخبر ، وحلاوة مورد ومصدر ، وكان مجلسها بقرطبة منتدى لأحرار المصر ، وفناؤها ملعباً لجياد النظم والنثر ، يعشو أهل الأدب إلى ضوء غرتها ، ويتهالك أفراد الشعراء والكتاب على حلاوة عشرتها ، وسهولة حجابها ، وكثرة منتابها ، تخلط ذلك بلوّ نصاب ، وكرم أنساب ، وطهارة أثواب ، على أنها أوجدت للقول فيها السبيل بقلة مبالاتها ، ومجاهرتها بلذاتها . . . » وقالوا « إنها كانت بالمغرب كعلية بالمشرق ، إلا أن هذه تزيد الحسن ، وأما الأدب والشعر والنادرة وخفة الروح فلم تكن تقصر عنها ، وكان لها صنعة فى الغناء ، وكان لها مجلس يغشاه أدباء قرطبة وظرفاؤها ، فيمرّ فيه النادر وإنشاد كثير مما اقتضاه عصرها . . . . . وكانت من الأدب والظرف ، وتمتيع السمع والطرف ، بحيث تختلس القلوب والألباب ، وتعيد الشيب إلى أخلاق الشباب » فنال ابن زيدون رضاها ، ووقع من نفسها كما وقعت هى من نفسه ، حتى كتبت إليه تضرب له موعدا فقالت :

« ترقب إذا جنّ الظلام زيارتى فإنى رأيت الليل أكتم للسر
وبى منك ما لو كان بالشمس لم تلح وبالبدر لم يطلع وبالنجم لم يسر . »

قال أبوالوليد : « فلما طوى النهار نوره ، ونشر الليل دنانيره ، أقبلت بقد كالقضيب ، وردف كالكثيب ، وقد أطبقت نرجس المقل ، على ورد الخجل ، فملنا إلى روض مدبج ، وظل سجسج ، قد قامت رايات أشجاره ، وفاضت سلاسل أنهاره ، ودرّ الطلّ منثور ، وجيب الراح مزرور . فلما شببنا نارها ، وأدركت منا ثأرها ، صرح كل منا بحبه وشكا مابقلبه . . . وأنشدتها :

« ودع الصبر محب ودعك ذائع من سرّه ما استودعك . »

وكتبت إليه بعد ذلك تقول :

« ألاهل لنا من بعد هذا التفرّق سبيل فيشكو كل صب بما لقى . »

إلى أن قالت :

« تمرّ الليالى لا أرى البين ينقضى ولا الصبر من رق التشوق معتق
سقى الله أرضاً قد غدت لك منزلا بكل سكوب هاطل الوبل مغدق . »

ولا نريد الآن أن نتكلم فى العشق وأثره فى النفس وما يوحيه من روائع القول وجمال الفكر حتى عند عامة الناس ، فإن تاريخ الإنسانية حافل بحوادثه . ولكنا نقول : إن العشق فى كلام العرب أو شعر الغزل كما يسمونه ، ليس من المسائل الهزلية . لأن الشعر الذى هو وحى النفوس وجمال الإدراك الإنسانى ، أكثر ما يكون ظهوراً فى التعبير عن الحب ، ووصف هذا الضعف الانسانى الذى نسميه عشقاً ، فإن العشق إدراك

أكبر مظاهر الجمال فى الحياة ، ومن لم يفتح له قلبه يوماً ما ، لم ير غير ظواهرها ولم يتسرب إلى نفسه بصيص ضوء من جمال مظاهر الحياة وأسرار النفوس فى التآلف ، وكثير من آمال الناس فى تلك الصلة النفسية ، والعشق وما فيه من سعادة وجمال سر كامن فى الشعر ، لأنه مصدر الشعر الخيالى الجميل . لذلك كان أجمل الشعر ما يكشف عن سرّ من أسرار النفوس ، ويفتح القلوب . ويظهر مكنونات الإنسان وأخلاقه وآلامه وآماله . إن النساء منبع من منابع الشعر ، والشعراء مدينون لهنّ بأفضل الصفات لديهم وهى وصف شعور الناس ، والشاعر الذى يشعر بالحب لا يتكلم عن نفسه فحسب ، وإنما يجمع آلام العشاق وأنينهم فيتألم ويئن معهم ، وليس أعذب من هذه الآلام ولا أحب للنفس من سماع هذا الأنين . إن الشاعر يصوغ بكلماته اهتزازات القلوب ورنات مايجول من المعانى ويدعها إلى النفوس فتصبو إليها ، ويذيعها بين العشاق فيرى كلّ قلبه وكأنه ينظر فى مرآة يرى فيها صورته ، وذلك لا يكون إلا فى الشعر .

فإذا أخطأ العرب فى إمعانهم فى هذا النوع والإكثار منه ، فقد أخطأوا من جهة واحدة : وهى تكرار المعانى وتقليد بعضهم بعضاً فى ذلك ، وظنهم أن كل قلب يحب بشكل واحد ، وإن صلة الحب بمظاهر الجسم قوية متينة ، وأن المعانى محصورة فى ذلك . ولكن ابن زيدون ليس من هؤلاء المقلدين ، بل من الذين كانوا يجولون جولات واسعة فى الخيال ، فكان فنياً مبدعاً . أرأيت شعراء العرب كيف يطنبون فى وصف الأمكنة التى اجتمعوا فيها مع صديقاتهم ، وهم يتخذون ذلك وسيلة لأمرين : الأول إحياء ذكرى تلك الأيام والأمكنة وما فيها ، إذ كل شىء هناك كان يشهد حبهم ويعطف على عشقهم ، وتلك الأمكنة جميلة لأنها احتوت عليهم ، والأضواء التى تسطع عليهم والأشجار التى كانت تظلهم ، والكواكب التى كانت تتجسس أخبارهم ، جديرة بأن لا تنسى ، لأنها أثر من آثار العشق . الثانى أن الشاعر ففى يفر من التكرار ، ويعرف أن معانى العشق والحب سرعان ماتنفد ، فهو يتحايل على شىّ شىء من المعانى الأخرى التى لها صلة بذلك ، كى يتسنى له أن يجول فى ميدان أوسع ليصل إلى التعبير عن مراده ، أو يمنع العقول من أن يدركها الملل . فهو يستعين بذلك كما يستعين المصور الماهر بالألوان لإظهار الصورة التى يريد أن يبرزها . كذلك كان ابن زيدون من هؤلاء الفنيين أو قريباً منهم . فقد التجأ إلى مدينة الزاهراء الجميلة فى أيام الربيع ، يريد أن يسلى نفسه ويخفف عنها من أثر حبه ولادة ، وذكر فى شعر أرسله إليها كل ما كان يحيط به إذ ذاك وأبدع أيما إبداع ، وافتن افتنانا عظيما فى ذلك ، فقال :

« إنى ذكرتك بالزهراء مشتاقا والأفق طلق ووجه الأرض قد راقا »

وإذا كان لابن زيدون ميزة فى شعره الغزلى فليس ذلك فى ابتكار المعانى التى لم يسبق إليها ، وإنما هى فى طريقة تصويرها بعبارات تملك النفوس وتستولى على القلوب وكأن الانسان لم يقرأ مثلها ولم يسمع بما يشبهها لجودة الافتنان فى التعبير والاسلوب . كما فى قوله :

« إليك من الأنام غدا ارتياحى وأنت من الزمان مدى افتراحى . »

ولقد يسمع الانسان أنينه فى شعره ، ويرى أنته الحزينة من خلال كلامه ، وكأنه يرى تلك الحيرة وذلك القلق النفسى اللذين يملآن نفوس العشاق ويمنعان عنهم راحة الحياة ولذاتها . على أنه يلتذ لذكر محبوبته ويذوق الآلام بسببها . فيقول :

« متى أنبيك ما بى ياراحتى وعذابى . »

ولقد بلغ درجة من التعبير يحمل بها القارئ على الاعتقاد بأنه مخلص كل الإخلاص فى حبه ، وأن حبه هذا هو كل أمنيته ، وأنه يرى فى سبيل العشق ما لا يراه غيره ، ويهون عليه كل شىء فى سبيل إرضاء حبيبه حتى حياته ، وهو مخور بهذا كما قال :

« أنى تضيع عهدك أم كيف تخلف وعدك . »

على أنا لا نبرئ ابن زيدون من التصنع أحياناً فيما يقول لأنه كان كثيره من الشعراء يعبر عن غير شعور ، فإن تمكنه من الصناعة كان يفتق لسانه بقول الشعر ، كما قالوا إن السلطان أمره أن يعارض قطعاً كان يغنى بها ، واستحسن ألحانها ، وأنشأ أبياتاً كأنها صادرة عن عاشق متيم ، وضمنها مدح السلطان ، فقال :

« يقصر قربك ليلى الطويلا ويشقى وصالك قلبى العليلا . »

وفى بعض كلامه ، مايدل على أنه كان يتصيد الألفاظ والمعانى التى قيلت فى العشق ، فينظمها ويلبسها ثوباً جديداً وكأنها له ، وقد برع براعة عظيمة فى ذلك كما قال :

« يا غزالا أسارنى موثقاً فى يد المحن . »

وهو فى كل كلامه مبدع مجيد متفوق على غيره ، خفيف الروح ، عذب الألفاظ ، سهل الأسلوب .

أما نونيته التى أرسلها إلى ولاده وبثها كثيراً من شعوره وآرائه المختلفة . فهى على شهرتها وجمالها ككل شعره ولذلك لم نذكرها .

نثر ابن زيدون

اشتهر بن زيدون برسالتيه الجدية والهزلية . أما الأولى فهى التى كتبها فى سجنه يستعطف بها ابن جهور وأما الرسالة الهزلية فكتبها على لسان ولادة يتهكم على ابن عبدوس ويسأل منه المشاركة فى غرامه .

اشتهر ابن زيدون بهاتين الرسالتين لجودة أسلوبهما النادر المثال ، ولاحتوائهما على كثير من الأسماء التاريخية والأمثال العربية ، واقتباس أبيات من الشعر معروفة وقعت فى صوغ الكلام وكأنها عملت من أجله ، أو قيست على سمته ، وليس من السهل اقتباس المثل فى أماكنه ، ولا من الهين أن يخوض الإنسان غمار الأدب الواسع ويسهل عليه الاختيار منه ، ويحفظ نفسه من الضلال فى نواحيه ، ويميز بين الجيد وغيره ، ويختار ما يناسب المقام ، ويكون ذلك مقبولا لدى النفس ، ثم يصوغ ذلك كله فى قالب واحد ويضم بعض أجزائه إلى بعضها ، ويمحصه كما يمحص الزبد ، فلا يتنافر منه جزء مع آخر .

إن الكلام على هذا النحو لأصعب من الابتكار فى التأليف المبتدأ ، وكلما قرب إلى القارئ الأسلوب وصعب عليه معرفة تأليفه ، شعر بسعة اطلاع الكاتب ، وأعجب به وكبرت فى نفسه منزلته ، وكلما فاجأه اسم لم يكن يخطر له ببال ، أو رأى عاب عن ذهنه ، أو تلميح إلى قصة لا يظن أن تذكر فى مثل هذا الكلام ، أو عبارة تحرك من نفسه حب الاستطلاع ، أو مثل التقط به ، أو ذكر رجل شهير يمجده ، أو نكتة تسر بها نفسه ، أو مسألة فنية يرتاح لها ويلتذ بذكرها ، زاد أعجابه بالكاتب وما كتب ، ورأى أن كل إنسان غير قادر على ذلك ، وأن هذه صفة يمتاز بها الكاتب عن سواه . كل ذلك فى نثر ابن زيدون وهو من دواعى الإعجاب بأسلوبه فى رسائله ، فقد عرف كيف يأتى فى كتاباته بالتناسق فى المعانى والألفاظ ، بل عرف أن يأتى بهذا التناسق فى التأليف والجمع ، وكيف يتصيد كلام غيره ويرصفه رصفاً جميلا ، كما أمكنه أن يرسم لنفسه منهجاً جمع فيه كل معلوماته ، واختار منها ما يناسب حاجته وموضوعه ، فكانت رسائله أنيقة

جميلة ، وكان كالمهندس الماهر الذى يعرف كيف يجمع بين الحجر والحجر ، والمصور الفنان الذى يؤالف بين اللون واللون . ولقد حاول ابن زيدون فى رسالتيه الوصول إلى غرضه ، فلم يدع وسيلة مايجسم بها المعنى فى نفس القارئ لتنهال عليه المعانى ويكون غرضه أوضح ، ورأيه أظهر ، إلا فعلها ، فكل ما ذكره من الأمثلة المقتبسة والمعانى المختارة قصد به توضيح ما يريد .

فى رسالته الجدية أراد أن يستعطف ابن جهور ، ويبرئ نفسه مما اتهم به وينكل بأعدائه ، فبدأ رسالته بالاستعطاف وهو يستذل نفسه تارة ، ويمدح ابن جهور ويظهر إخلاصه له ويتملق إليه أخرى ، ويعتذر عنه فيما وقع منه فى حقه ، ثم يبين له شدة ألمه من شماتة أعدائه ، فقال :

« يا مولاى وسيدى الذى ودادى له . الخ . »

ثم أخذ يتطلل بالآمال ، ويضرب فى ذلك الأمثال ، ليسلى نفسه ويهدئ منها بعبارات شعرية يريد أن يؤثر بها فى نفس المرجو ويحمده على كل شىء ، كما يحمد الله على السراء والضراء ، فقال :

« هذا العتب محمود عواقبه ، وهذه النبوة غمرة ثم تنجلى . »

ثم وقف موقف المذلة وكأنما يسمع الإنسان بكاءه فى كلامه ، واستصغر ذنبه فى ساحة عفو سيده ، وفى جوار ما ارتكبه غيره من الذنوب الكبيرة ، فقال :

« وأعود فأقول : ماهذا الذنب الذى لم يسعه عفوك . الخ »

والعجب فى ذلك من حضور ذهنه وحدته مما يدل على تيقظه الشديد ، ثم أخذ بعد ذلك يبرئ نفسه ، ويعجب من سيده الذى يصغى إلى أعدائه ، على ما كان له من المنزلة التى لم تدفع عنه ذلك ، وأخذ يلوم ابن جهور لو ما لا يظهر إلا من خلال عباراته ، لشدة تمكنه من تصرف الكلام واحتراسه فيما يقول :

« فكيف ولا ذنب إلا نميمة أهداها كاشح . الخ »

ثم ذكره بإخلاصه له ، ومدحه إياه ، وأخذ يرجع إلى استعطافه وتملقه ، فقال :

« وقد زاننى رسم خدمتك . الخ »

ثم حاءته عزة نفسه فانتقل نقلة أخرى ، وبين له أن مثله لا يصبر على الهوان وأنه يستطيع فراقه وهجر بلده إلى مكان آخر ، ويخاطر فى هجرته هذه بما عسى أن يلاقى من الآلام مستأنساً بأدبه وفضله ، فقال :

« ولعمرك ماجهلت أن صريح الرأى أن أحوّل إذا بلفتنى الشمس الخ . »

وكأنه شعر بأن هذا يدعو ابن جهور إلى أن ينسى استعطافه لما يظن فى هذا الكلام من عجب ابن زيدون بنفسه ، فأخذ يلطف من حدته ، ويسكن من هياجه ، ويظهر تمسكه بجوار سيده لأنه أفضل شىء لديه فى الحياة ، فقال :

« غير أن الوطن محبوب ، والمنشأ مألوف . الخ »

ثم أخذ يقوى أمله فى إجابة طلبه ، ويضرب الأمثال فى ذلك ، ويمدح البناء فى جوار سيده بقوله :

« أعيذك ونفسى من أن أشيم خلبا وأستمطر جهاما . الخ »

هذا أكثر مافى هذه الرسالة الجدية ، وأعظم مافيها تأليفها الذى يرى من خلاله تلك النفس الحائرة المضطربة التى تهيج مرة وتجمد أحياناً ثم ترجع وتلين ، وكأنما الكاتب فى نزاع مستمر بين نفسه وأهوائه ، أو كأنه هو ونفسه قرنان : يشتد كل منهما عند مايخاف قوة صاحبه .

هذه صورة نفس ابن زيدون يراها القارئ إذا وقف عن كثب ونظر إلى حركات نفسه وهو يكتب أو

يفكر فى هذه الرسالة . يرى نفسه الأبية وهو يفخر بها ويظن أنه من أهل الفضل ، ويرى نفسه المتهكمة ، وهو يحسب ويعد الذنوب الكبيرة التى تستحق مثل عقوبته ، لايريد أن يقول هذا ظلم ، ولكن يريد أن يقول هذا حق وخرق فى الرأى ، ويرى نفسه الكئيبة التى أخذتها الاكدار فذلت وأخذت تستعطف وتستشفع وتتملق ، يرى الإنسان كل ذلك فى هذه الرسالة ، ومن هنا جمالها وإبداعها . لامابها من الأسلوب المليغ أو العبارات المختارة لا غير .

أما رسالته الثانية التى كتبها لابن عبدوس عن لسان ولادة ، فقد دلّ فيها على اطلاع واسع بالأمثال والأخبار ، وعلى باع أوسع فى الهجاء ، لأنه أقذع فى ذم ابن عبدوس إقذاعا ، وتهكم به تهكماً لا مثيل له حتى إنه ليخيل إلى الإنسان أنه جمع كل مايمكن أن يقال فى الذم والتهكم وأفرغه على ابن عبدوس واستعمل أسلوباً جميلا خلاباً يدل على تمكنه من التصرف فى الكلام ومعرفة امتلاكه عقول القراء ، لأن هذه الرسالة على طولها وكثرة الاقتباس فيها الذى يستغرق أربعة أخماسها أو أكثر ، وعلى مافيها من الأمثال المعروفة والأبيات المشهورة ، والالطاف فى ذكر الأسماء التى يكنى منها القليل ، ليس فيها مايدعو إلى الملل ، ولا مايشعر بالاستهجان والابتذال . على أن بها شيئاً كثيراً من تلك العيوب ، فقد ذكر أكثر من خمسين اسما لمشهورى الرجال ، سردها سرداً ، وكان يكنى عشرها ، وأكثر أيضاً من صفات الذم مما كاد يكون ثرثرة ولغواً ، ولكنه ستر كل ذلك ببراعته فى الصناعة ، وليس أدل على جفاء الطبع وغلظه من هذه الرسالة ، فقد ابتدأها سفاهة نادرة ، ولكنها سفاهة أدبية فنيه فقال :

« أما بعد أيها المصاب بعقله . الخ »

وسار على هذا النحو وأكثر من ذكر هذه الأسماء ، ثم أقذع فى الذم وأفحش فى صفاته فقال :

« وهبها لم تلاحظك بعين كليلة عن عيوبك ملؤها حبيبها حسن فيها من تود . الخ »

واستمرّ على هذا النحو إلى آخر الرسالة يضرب الأمثال للاستهزاء والتهكم ، ولقد كشف ابن زيدون فى هذه الرسالة عن نفس حقودة محبة للانتقام وأنه شديد الحفيظة ، ودل على غلظة فى طبعه ، وخشونة فى أخلاقه مع ذلك وهى رسالة تمتاز بأسلوبها ، وتناسق عباراتها ، ولعلّ ابن زيدون أخذ هذا الأسلوب عن الجاحظ فى بعض رسائله ، كما فى رسالة التربيع والتدوير .

٢ — دراسة الأستاذ السكندرى[1]

علمه وأدبه وبديهته :

نشأ ابن زيدون فى عصر اختل فيه نظام ملك بنى أمية فجأة بثورة البربر المشؤومة ، وقامت هذه الثورة وآثار الحضارة فى كل شىء من علم وأدب وفنون ضاربة بجرانها فى قرطبة ، فكانت غنية بالعلماء والفقهاء واللغويين والشعراء والمحسنين فى كل صناعة ممن نبتوا فى عصر المنصور الهنىّ ، فصادف ابن زيدون من قبل من علمهم وكرم من أدبهم ، وكان أبوه وعشيرته من أهل الفقه والأدب فلم يكن إقباله على ما أخذ به أهلوه أنفسهم بدعاً من نفسه ، وإنما جرى فى مضمارهم فنزهم علماً وأدباً ، وبعد صيت وعلوّ همة .

(١) مقتبسة من بحث طويل ممتع للأستاذ السكندرى نشرته مجلة المجمع العربى .

كتابة ابن زيدون

(أ) طريقته فيها :

كانت طريقة كتابة الأندلسيين منذ عصر الناصر والمستنصر جارية على أسلوب ابن العميد وحلبته من أمثال الصاحب بن عباد والبديع والخوارزمى والصابى ومن تابعهم من أمثال الحريرى والعماد والاصفهانى ، وكان الكاتب الأندلسى الذى ينسج على منوالها ، وإن حلّ المأثور من النظم وضمن بعض القرآن والحديث لايعلب ذلك على قوله فتفقد فيه صورة نفسه وخاصة طبعه ، بل كانت تكون له التشبيهات الرائعة والتعليلات الحسنة ثم هو لا يخرج عن التزام السجع غالباً . وابن زيدون رعى هذه الطريقة من بعض الوجوه وخالفها من بعض ، فأما ما رعاه فى كتابته منها فهو :

١ ــ حل المنظوم من مشهور الأبيات .

٢ ــ الاحتجاج والاستشهاد بكثير من هذه الأبيات مستعملا لها استعمال الأمثال فلا ينسبها إلى قائلها .

٣ ــ الاقتباس من القرآن الكريم أو الحديث بلفظهما أو تغيير بعض نظمهما .

٤ ــ تضمين الحكم والأمثال بلفظ أصحابها أو بتغيير فى نظمها .

وأما ماخالف فيه فهو :

١ ــ عدم التزام السجع .

٢ ــ الاستكثار من أمثال العرب القديمة استكثاراً كاد يعد قوله الخاص بجانبه ضائعاً وبخاصة الغريب من هذه الأمثال .

٣ ــ الاستكثار جداً من ذكر أسماء رجال التاريخ المشهورين .

٤ ــ الاستكثار جداً من أسماء الوقائع الشهيرة فى التاريخ .

٥ ــ الاستكثار من الجمل المترادفة على مثال واحد فى المعنى الواحد حتى يتكوّن منها فصل طويل يشغل فراغاً كثيراً من الرسالة لو اقتصر على فقرة واحدة من الفقر المتكرّرة فى المعنى لنزلت الرسالة إلى خمسها أو سدسها . وهذه الطريقة غلبت على كتابته وهى على رسالتيه الجدية والهزلية أغلب ولاسيما الهزلية .

(ب) منزلته فيهما :

اشتهر ابن زيدون عند المغاربة والمشارقة بأنه من بلغاء الكتاب والشعراء ، فأما الشعر فلا جدال فى استحلاله ، فلاستحقاقه ذلك الصيت الذائع فيها تأويل وتعليل يخرجان عن حدّ بلاغة الكتابة فى ذاتها إلى أمور خارجة عن جوهر الاجادة ، وذلك أن كتابته اشتهرت بين الناس لأمرين :

أولا : أنها ليست على منوال كتابة الأندلسيين فى عصره بل هى مخالفة لها فى بعض الصور ، وصدور العمل المخالف لعمل الناس من رجل متوسط فى الحال لافت بداته للأنظار ، باهر للنفوس ، فكيف به لو صدر عن ذى شأن نبيه بمنصب رفيع ونسب عريق ، وصيت ذائع فى السياسة والأدب والشعر وحسن المحاضرة والمنادمة .

وثانياً : أنها باهرة لابمعانيها وروعة أساليبها وشدة حوكها فى نفس قارئها بل بما اشتملت عليه من وفرة التضمين والاستشهاد والوقائع وأسماء الرجال ، مما يكبر من شأن كاتبها فى الصدور ، ويشهد له

بطول الباع ، وسعة الاطلاع ، ويكبر من شأنها هى ، إذ تكون بمثابة مجموعة أدبية حافلة بمأثور الأقوال ، معرّفة بكثير من حوادث التاريخ وأسماء الأبطال ، بحيث إذا حفظ ناشئ متأدب الرسالة منها أودعت صدره زبدة اطلاع كثير وبحث طويل ، فكأن شهرته آتية من طريق التثقيف والتعليم ، فتكون فى الأدب أشبه بمتن من متون العلم كثير المسائل والاحكام وجيز العبارة ، وهذا السبب بعينه هو سبب شهرة مقامات الحريرى ، وبعض القصائد المحتوية على كثير من أسماء الرجال وحوادث التاريخ والحكم والأمثال ، كقصورة ابن دريد ورائية ابن عبدون فى رثاء دولة بنى الأفطس ، ونونية الرندى ، ولامية ابن الوردى ، ونونية البستى ونحوها ، وكلها عظيمة الأثر فى التعليم والتأديب وسرعة التوقيف على أكثر ما لايسع الأديب جهله فى لفظ يسير وزمن قصير ، لافى بلاغتها ذاتها وحسن تأثيرها فى النفس حتى تستجيب النفس لداعيها ، وتميل على قائلها ، ولذلك تجد رسالة ابن زيدون الجدية التى استعطف بها جمهوراً لم تؤد ما وضعت له . ولا نعنى بكلامنا هذا أن الرجل كان قليل الخاطر ، أو ضعيف الارتجال ، فكل من تعرض لذكر أخباره يصفه بقوّة العارضة ، وسرعة البديهة والارتجال ، وأنه كان فى مجلس ولادة يرتجل المقطعات الشعرية البليغة ، ويحاضر بالنكت النادرة والأجوبة المسكتة ، ودفن بعض حرمه فوقف الناس يعزّونه على اختلاف طبقاتهم فما أحاب أحداً بما أجاب به غيره ، وتلك غاية لاتدرك .

وإنما خلق الرجل شاعراً مطبوعاً ، واضطرته الوزارة إلى الترسل والكتابة فكانت كتابته بالشعر أشبه منها بالنثر ، وأكثر المغاربة لايتحدثون إلا فى شعره على عكس المشارقة .

رسالته الجدية

هذه الرسالة أشهر رسائله وأبلغها ، وأكثرها عائدة على المتعلمين الذين يحفظونها لتوّع فصولها وتعدد الأغراض التى رمت إليها ، والمعانى التى لوحت بها على ما أبانته من أمل كاتبها ، وما حوته من روعة التأثير فى النفس . وهذه الرسالة بعث بها من السجن إلى جهور يستعطفه بها ولكنه مزج الاستعطاف بكثير من الزهو والامتنان ، واستفظاع العقاب على ذنب متوهم على طريقته الكتابية التى وصفناها آنفا .

وإذا حللنا هذه الرسالة إلى عناصر الأغراض التى تألفت منها وجدنا أنها لاتعدو عشرة أغراض تؤدى فى عشرة أسطر إلا أن كثرة الجمل المترادفة الأسلوب والصورة زادت فى ذرعها طولا .

وذلك أنه ناداه بألقاب السيادة أولا ، ثم اعتذر له عن نكبته إياه بعد ما أحس الجماد به الإنسان بصدق خدمته له وثنائه عليه ، بأن عمل الخير قد يعود على صاحبه بالشرّ ، وأوّل هذه المقابلة بأنها صادرة عن حسن نية وقصد تأديب ، ثم أخذ يستريث العفو ، ويستقطع هذا العقاب الذى كان بعضه كافياً لردع الأبالسة وكبار الفتاك والخارجين على الأنبياء والأئمة والدين ، مع إن المسألة لاتخرج عن وشاية حساد سمع جهور لهم فنكى وليه الذى نوه بذكره ، ثم أخذه الزهو فذكر أنه كان فى مكنته أن يستبدل بخدمته خدمة من يرحب به من الملوك ، غير أنه عز عليه مفارقة وطنه ومولاه القديم ، ثم عوذ نفسه من أن يكون معه كالمستجير من الرمضاء بالنار ، وناشده العتبى حتى توقع الفكاك ، ثم استملح نثر هذه الرسالة ورأى أن يستلحقها بقصيدة ، فكانت هذه فى رأينا آتق لفظاً ، وأعذب مورداً ، وأطبع الساقا .

« ثم أورد القصيدة وقال : »

محاسن هذه الرسالة ومعايبها

لا ريب أن مكان هـذه الرسالة من الأدب العربى مكان المشهور المأثور المحفوظ فى الصـدور المخلد فى السطور وذلك لأمور :

الأوّل : أنها جراب أدب حاو لجملة نماذج مختلفة من عيون مواد الأدب بما ضمنت من اقتباس القرآن والحديث ، والأمثال ، والحكم ، والأبيات المشهورة ، وحلّ نظم الكثير منها والإشارة إلى ما فيها من وقائع التاريخ الشهيرة التى يجدر بالأديب معرفتها والاستشهاد بها .

الثانى : حسن ملاءمتها بين هذه الصنوف وجودة رصفها وجمع شتاتها فى موضوع واحد مما يعسر على غير حاذق التوفيق بين متباينه ، ويجعل نمطها غريباً ونسجها وحيداً .

الثالث : حصافة عبارتها وجزالة لفظها فى كثير من مواضعها وخاصة ما استقل به كاتبها معنى وإنشاء . ولـكننا إذا نظرنا إليها بعين الناقد وأنعمنا البحث فى بلاغتها أى مطابقتها فى معانيها ومبانيها لمقتضى الغرض الذى وضعت له ، وهو الاستعطاف ، وجدنا أنها تقصر دون بلوغه لجملة أمور :

الأوّل : كثرة ما ردّده كاتبها فيها من عبارات الامتنان على مولاه بطول ثنائه عليـه وحسن سابقتـه عنده وعظيم بلائه فى إقامة دولته مما يعده الرئيس عادة تعييراً وتجبيهاً .

الثانى : تهديد مولاه بأنه لولا حب الوطن لـكان له أرفع مقام فى خدمة غيره من الملوك الذين يتسارعون إلى الترحيب به ، ويتنافسون فى استخدام أمثاله .

الثالث : أن وضعها بهـذه الصورة يجعلها غـير كفيلة بانجاح الغرض الذى وضعت له (وهو تحريك عاطفة الرحمة والعفو) بما يصرف نفس قارئها عن أن يتأثر ببلاغتها ويشـغلها بتذكر الحوادث والقصص التى أتت عليها ، وأسماء الناس ، ومضرب الأمثال ، فلا يفرغ القارئ من تعرّف اسم رجل حتى يقع فى مضرب مثل ، ولا يخلص من تفهم شاهد حتى يتقحم فى أوعر منـه ، فيتقسم فهمه ، ويتشتت تأثره ، وإنما يأتى التأثر من انصباب غمرة من الانخداعات المتكررة ، بتكرّر العبارات البليغة المؤثرة ، فتحدث بمجموعها أثراً كلياً فى النفس ، فتجيش بالشفقة ، وتهش للعفو ، وبمثل ذلك كان الإنشاء المبرقش بكثير من أنواع البديع غير مؤثر ببلاغته ، لشغله الذهن عن التأثر ، وصرفه إلى تفهم البديعية .

ومن هذه الوجهة نرى أن رسالة ابن زيدون ليست مثالا يحتذى للإنشاء البليغ المؤثر فى النفس .

الرابع : وقوع بعض هفوات له ذكرها الصفدى كاحتياج فقارها إلى ذكر فقار بعـد تتمم معناها وتلتئم بها مع ما بعدها (وهـذه نضرب صفحاً عن ذكرها) وكبعض أخطاء فى المعنى والوقائع (وهـذه نشير إلى بعضها ، ومن أراد مراجعة الجميع فعليه بشرح الصفدى) .

فمن هذه قوله (وتأولت فى بيعة العقبة) وسياق كلامه فى هذا الفصل يقتضى ذكر أسماء أناس منكرات يبرأ هو أن يكون مثلهم ، ولم ينقل أحد من أهل الأثر أن أحداً ممن بايع فيها تأوّلها أو نكثها .

ومنها قوله « وتخلفت عن الصـلاة فى بنى قريظة » ولم يعلم أن رسـول الله — صلى الله عليه وسلم — أنكر على من تخلف عن صـلاة العصر فى بنى قريظة وصـلاها فى الطريق بل أقرّ الجميع على عملها وعد ذلك من اجتهاد الصحابة .

ومنها قوله « وزعمت أن بيعة أبى بكر كانت فلتـة » مع أن قائل هـذه الـكلمة عمر بن الخطاب ، ولم يقلها عن إرادة سوء فلا ينبغى أن يتمثل به فى أعمال الجناة .

ومنها قوله « وكتبت إلى عمرو بن سعد أن جمجم بالحسين » مع أن المكتوب إليه الحرث بن يزيد التميمى لا عمر بن سعد .

وقد أنى الصفدى على عيوب آتية من تصحيف أو سوء تأويل منه هو ، أعرضنا عنها خوف التطويل .

رسالته الهزلية

كان الوزير أبو عامر بن عبدوس ينافس ابن زيدون فى حب ولادة ، فاتفق أن حدثت نبوّة بينهما ، فأرسل ابن عبدوس إليها امرأة من صواحباته تستميلها إليه ، وتذكرها بفضله وأدبه ، فردت ولادة المرأة بالخيبة ، وكتب ابن زيدون إلى ابن عبدوس عقب رجوع المرأة هذه الرسالة على لسان ولادة ، يرد عليه ويتهكم ويهجوه ويتوعده . وفى ظننا أن ابن زيدون كتبها من نفسه تشفياً من ابن عبدوس لا عن رأى ولادة ورضاها مما أفحش فيها وأفذع .

والرسالة كسابقتها فى قلة أغراضها وتكرار أساليب فصولها ، وذلك أنه بدأها بوصف ابن عبدوس بأوصاف الحمق والجهلاء منكراً منه إرسال خليلته إلى ولادة ، مثنية عليه ومرغبة فيه ، واصفة له بأوصاف أعيان الزمان من العلماء ، والأدباء ، والأطباء ، والفلاسفة ، والشجعان من فلان وفلان ، وإن ولادة طردتها أشنع طردة ، ثم أخذ يهجوه بأوصاف فى الخلق والخلق ، وإن ولادة لو أرادت الرجال لكان لها من الاكفاء من قومها وأعيان زمانها من يفضله سناً وشرفاً وجمالا الخ .

٣ — دراسة الأستاذ علام سلامه[1]

هو أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب بن زيدون المخزومى القرطبي كان من أبناء وجوه الفقهاء بقرطبة وبرع فى الأداب والفنون ، فنم عليه فضله ، وذاع صيته ، وارتفعت مكانته ، واختص به أبو الوليد ابن جهور أحد ملوك الطوائف واتخذه وزيراً واعتمد عليه فى السفارات بينه وبين ملوك الأندلس ، فأعجب القوم به ، وتمنوا ميله إليهم لبراعته ، وحسن سيرته ، واتفق أن نقم عليه ابن جهور وحبسه ، فاستعطفه برسالته السابقة وبأمثالها فلم يعن ذلك عنه شيئاً فتحيل لنفسه حتى تسلل من حبسه واتصل بالمعتضد بن عباد صاحب إشبيلية سنة ٤٤١ فحل منه محل السويداء من الفؤاد ، واستخلصه استخلاص المعتصم لابن أبي دؤاد يجالسه فى خلواته ، ويركن إلى إشارته ، ولم يزل عنده وعند ابنه المعتمد قائم الجاه وافر الحرمة حتى توفى سنة ٤٦٣ وكان له ابن يقال له أبو بكر تولى وزارة المعتمد ، وقتل يوم أخذ يوسف بن تاشفين قرطبة سنة ٤٨٤ وقد أثنى عليه ابن بسام فى الذخيرة بقوله : كان أبو الوليد غاية منثور ومنظوم ، وخاتمة شعراء بنى مخزوم ، فاق الأنام طرا ، ووسع البيان نظماً ونثراً ، إلى أدب أيس للبحر تدفقه ، ولا للبدر تألقه ، وشعر ليس للسحر بيانه ، ولا للنجوم الزهر اقترانه ، وحظ من النثر غريب المبانى ، شعرى الألفاظ والمعانى .

ومما يحكى عنه فى سعة البيان والقدرة على التفنن فى أساليب الكلام أن ابنته توفيت فوقف للناس عند منصرفهم من الجنازة ليتشكر لهم ، فما أعاد عبارة قالها لأحد ، وهذا عجيب للغاية ، ولا سيما من مزون فقد قطعة من كبده :

« ولكنه صوب العقول إذا انبرت سحائب منه أعقبت بسحاب . »

---

(١) من مذكرات طلبة دار العلوم .

كتابته

كان ابن زيدون مع صفاء قريحته ، وقوّة سليقته فى البيان يؤثر الرواية والتأنى لنسج القول ، وكان مع سعة روايته افنون الأدب عليما بأخبار العجم والعرب ، متمسكا من كل ما يعوز الأديب بسبب ، فليس بدعاً أن يكون لكل أولئك آثار فى كتابته ، وليس بدعاً أن لم تكن كتابته عفو الخاطر السانح ، ولا وحى البديهة البادهة ، ولا عصارة عصر الجبين ووليدة التكلف ، فقد جاءت خلاصة الرواية الحصيفة تؤيدها قوة الطبع ومصاصة التنقيح السديد ، يؤازره لطف الذوق ، كما جاءت سبيكة رائعة صاغها صنع من مبتكر المعانى الساحرة ، ومستلب الأمثال السائرة ، ومقتبس الأبيات النادرة ، ورصعها بفرائد من أخبار الناس ونوادر الحوادث .

ولئن كان البديع قد فاقه فى استرسال الطبع ، ولطف الخيال ، ورشاقة المعانى ، لقد فاق هو البديع فى متانة المبانى ، والتغلغل فى نواحى المعانى ، والنصر بمواضع الاقتباس ، وتوشية الرسائل بأخبار الناس .

أما أوضح مميزاته ففخامة الألفاظ فى غير كزازة ، وعلوّ الأسلوب فى غير اعتساف ، ورصانة المعانى فى غير جفاف ، والتأليف بين جمال الخيال وجلال الحقيقة .

ومن محاسن رسائله رسالتاه الجدية والهزلية وكلتاهما غرّة فى جبين الآداب العربية ، وقد عنى بشرحهما كثير من الأدباء . أما شعره فله ديباجة رائعة ، وصياغة بارعة كأنما هو سبائك النضار ، أو حدائق الأزهار ، إذا سب أنساك صاحب بثينة ، وإن مدح خلته شاعر مزينه ، ومن مقطعاته التى تشهد له بجودة الطبع ، وإتقان الصنعة قوله :

« بينى وبينك مالو شئت لم يضع سر إذا ذاعت الأسرار لم يذع . »

ومن شعره الذى يختلط بالروح رقة ، وبالهواء لطافة قصيدته التى كتبها إلى ولادة التى كان شديد الكلف بها والهيام بحبها يستديم عهدها ، ويؤكد ودّها ، وفيها يقول :

« أضحى التنائى بديلا من تدانينا ونأب عن طيب لقيانا تجافينا . » الخ

وقد سقنا أكثر هذه القصيدة لبراعتها ، وقد ضمن بعض شطورها ابن الوكيل فى موشحة ، وسدسها بعض أدباء المغرب .

٤ — دراسة الأستاذ أحمد زكى باشا

أولية ابن زيدون

كان فى جملة القبائل التى ذهبت إلى الأندلس رهط من بنى مخزوم توطنوا فى جهات قرطبة وما إليها ، وناهيك بهذه القبيلة ذات الشرف الصميم ، واللسان القويم .

فكان بنو زيدون من رجالاتهم المعدودين ، خصوصاً فى الفقه والأدب ، واشتهر منهم ثلاثة حفظ لنا التاريخ أسماءهم ، وهم :

(١) أبو بكر غالب بن زيدون .

(٢) أبو الوليد أحمد بن زيدون .

(٣) أبو بكر بن زيدون .

كان مولد الأول فى سنة ٣٠٤ ومات سنة ٤٠٥ بعد أن بلغ من العمر مائة سنة . توفى فى ضيعة له . ثم نقلوا تابوته إلى قرطبة ، فدفن بالربض (أى الضاحية) .

وهنالك رثاه أبو بكر عبادة الشاعر الأندلسى بما يعرفنا بمقامه فى قوله :

«أى ركن من الرياسة هيضا وجموم من المكارم غيضا
حملوه من بلدة نحو أخرى كي يوافوا به ثراه الأريضا
مثل حمل السحاب ماء طيبا لتداوى به مكاناً مريضا . »

وأما ثانيهم فهو واسطة العقد ، والذى يدور عليه كلامنا . والثالث هو الذى تقلد بعد أبيه (أبى الوليد) وزارة المعتمد بن عباد ، وانتقم لأبيه من ذى الوزارتين ابن عمار ، وكان أبو بكر هذا هو الذى تولى السفارة عن ابن عباد إلى يوسف بن تاشفين صاحب المغرب الأقصى حينما تنمر الاسبانيون مع ملكهم الإدفونش (الفونس السادس) لملوك الطوائف ، وخصوصاً لبنى عباد فى خطب يطول شرحه ، ولا يسع المقام تلخيصه .

من هو ابن زيدون ؟

هو ذو الوزارتين أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب بن زيدون المخزومى الأندلسى . كان مولده بقرطبة فى سنة ٣٩٤ أعنى فى الوقت الذى سرى فيه الانحلال فى جسم الخلافة المروانية بالأندلس بعد أن بلغت من المجد نهاية النهايات ، وأدركت من الفخامة ما لا تصدق معه الروايات . فى ذلك الوقت تحللت عرى الدولة ، فانقسم المسلمون على أنفسهم ، وتخاذلوا ، واستنصروا أعداءهم على بعضهم بعضا ، وسلموا البلاد والقلاع والحصون واحداً تلو الآخر إلى أعدائهم وأمدوهم بالمعونة على إخوانهم ، وهكذا حتى أودت تلك الفوادح بذلك الملك الكبير ، ثم أتت على القوم بأكملهم فأصبحوا خبراً بعد عين . نتساءل عنهم بقولنا كيف وأين ؟ فى تلك الأيام استظهروا على شهواتهم بجر ذيولها ، وامتروا بطالاتها من أخلاف أباطيلها . حتى انشقت عصاهم ، ودارت بدائرة السوء على الجهالة رحاهم .

كان ابتداء الاضمحلال والانحلال من أول يوم جلس فيه المستعين على عرش الخلافة فى منتصف ربيع الأول سنة ٤٠٠ هـ

فقد كانت أيامه كلها كما وصفها ابن حيان الأندلسى « شداداً نكرات ، صعاباً مشئومات ، كريهات المبدأ والفاتحة ، قبيحات المنتهى والخاتمة ، ما فقد فيها حيف ، ولا ورق خوف ، ولا نم سرور ، ولا فقد محذور مع تعير السيرة ، وخرق الهيبة ، واشتعال الفتنة ، واعتلاء العصبية ، وظعن الأمن وطول المخاوف ، دولة كفاها ذما أنها تمخضت عن الفاقرة الكبرى ، وآلت من التى بعدها إلى ما كان أعضل وأدهى . مما طوى بساط الدنيا ، وعفا رسمها وأهلك أهلها ، وإذا أراد الله شيئا أمضاه . »

وكذلك لم يكن فى المستكفى أدنى كفاية للخلافة . وإنما أرسله الله على الأمة محنة وبلية . إذ كان منذ عرف منقطعاً إلى البطالة ، مجبولا على الجهالة ، عاطلا عن كل حلية تدل على فضله ، عضته الفتنة فأملق ، وهان حتى أهانه أهله ، ولقد رآه أبو حيان مؤرخ الأندلس المشهور أيام الخسف بأهل بيته فى الدولة الحمودية ولم يكن ممن لحقه الاعتقال منهم لركاكته . كان يقصد أهل الفلاحة يومئذ بقرطبة أوان ضمهم لعلائهم يسألهم من زكاتها . قال « وقد أجمع أهل التحصيل أنه لم يجلس فى الامارة منذ تلك الفتنة أسقط منه ،

ولا أنقص . إذ لم يزل معروفاً بالتحلف والركاكة ، مشتهراً بالشرب والبطالة ، سقيم السر والعلانية ، أسير الشهوة ، عامل الحلوة . »

ذلك الوقت هو الذى أشار إليه ابن حزم بقوله :

« فضيعة لم يقع فى الدهر مثلها ، أربعة رجال فى مسافة ثلاثة أيام فى مثلها ، يسمى كل واحد منهم بأمير المؤمنين ، ويخطب له فى زمن واحد : أحدهم خلف الحصرى بإشبيلية على أنه هشام بن الحكم المؤيد. والثانى محمد بن القاسم بن حمود بالجزيرة الخضراء ، والثالث محمد بن على بن حمود بمدينة مالقة ، والرابع إدريس بن يحيى بن على بسبته ، تلك هى الأيام التى بقى العرب والبربر فيها فى خصام مستديم ، وكان كل من الفريقين منقسماً على نفسه ، وكان الجميع فى خلاف مع أهل المغرب الأقصى من الجنوب ، وفى حروب وخطوب مع بقايا الأمم الاسبانية من الشمال والغرب . فى ذلك الوقت العصيب تفرق أهل الأندلس فرقاً . وتغلب فى كل جهة منها متغلب . وهم الذين عرفهم التاريخ باسم — ملوك الطوائف — وقد أرادوا أن يفخموا أنفسهم وممالكهم فتقسموا ألقاب الخلافة ، كما تناهبوا أشلاءها . فكان منهم المعتضد ، والمأمون ، والمؤتمن والمستعين ، والمقتدر ، والمعتصم ، والمعتمد ، والموفق ، والمتوكل . إلى غير ذلك من الألقاب الخلافية . حتى قال فى ذلك أبو على الحسن بن رشيق بيتين سارا سير الشمس ، وبقيا بقاء الدهر ، وهما :

« مما يزهدنى فى أرض أندلس سماع معتضد فيها ومعتصد
ألقاب مملكة فى غير موضعها كالهر يحكى انتفاخاً صولة الاسد . »

فكانت طرطوش ، وسرقسطة ، وافراغه ، ولاردة ، وقلعة أيوب فى يد بنى هود . وكانت بلنسية فى يد عبد الملك بن عبد العزيز ، وكان الثغر أى مامون طليطلة فى يد بنى ذى النون وكانت قرطبة فى يد أبناء جهور ، وكانت اشبيلية فى يد بنى عباد ، وكانت مالقة والجزيرة الخضراء وغرناطة فى يد بنى برزال من البربر ، وأما المرية فكانت فى يد زهير العامرى الحادم ، ثم خيران العامرى الحادم ، ثم ابن صمادح وكانت دانية وأعمالها والجزائر الشرقية (الباليار) فى يد مجاهد العامرى ، وكانت بطليوس وباجة وشنترين فى يد بنى الأفطس ، فلا عجب إذا كثر الوزراء فى تلك الأيام ، ولا عجب إذا كثر أيضاً ذوو الوزارتين ، فالناس على دين ملوكهم ، فكان كل من امتلك مائة كيلو متراً مربعاً فى مثلها يعد نفسه سلطاناً كبيراً . ويتخذ من الحاشية مايضارع به أبهة الخلافة وقد كان عهدهم بها قريباً — فكثر عندهم الوزراء ، وكثر بينهم الذين يلبون أنفسهم بذى الوزارتين .

ومن الطبيعى أن الرياسة إذا انحطت عن جلالتها تبعها المرؤوس فى السقوط ، فلما تدلت الخلافة فى الانحلال صارت الوزارة أيضاً فى درجات الهوان . فإن المستعين الذى ذكرناه قال بعد أن جلس على عرش الخلافة للناس أجمعين . ارتعوا كيف شئتم ، وارتسموا بما أحببتم من الحطط ، فتسمى بالوزارة مفردة ومثناة أراذل الدائرة ، وأخابث النظار ، فضلا عن زعانف الكتاب والخدمة (عن ابن بسام)

وصارت هذه الرتبة تنحط مع انحطاط الدول ، حتى نزلت فى أواسط القرن الثامن للهجرة إلى الدرجة التى وصفها لنا ابن فضل الله العمرى حيث قال :

« سألت الشيخ العلامة ركن الدين أبا عبد الله بن القويع رتبة الوزير بالمغرب ، فقال : ليست بطائل ، ولا لصاحبها شىء من الأمر . بل هو كالجاويش يخرج من قدام السلطان يوم الجمعة : حقيقة دون السمعة » وقد استبد هؤلاء الرؤساء بتدبير ما تغلبوا عليه من الجهات ، وانقطعت الدعوة للخلافة ، فلم يبق لخليفة

هاشمي أو أموي ذكر على منابر الأندلس خلا أيام يسيرة دعي فيها بإشبيلية لهشام المؤيد بن الحكم (أو لشخص شبيه له) حسبما اقتضته الحيلة ، واضطرّ إليه التدبير . ثم انقطع ذلك ، فأشبهت حال ملوك الأندلس بعد الفتنة حال ملوك الطوائف من الفرس بعد قتل دارا . وحال قواد الاسكندر بعد وفاته . ولم يزل هؤلاء الرؤساء في اقتتال وتخاذل ، يستعينون بعدوّهم جميعاً فيميل تارة إلى هذا وطورا إلى ذلك حتى اختلت الأحوال إلى أن تولاهم الضعف فاستنصروا بالمرابطين فانتظم الشمل ، وعادت المياه لمجاريها . ولكن إلى أجل معين . ثم عاد الانشقاق والانقسام ، فانحمت كلمة الاسلام ، وانطفأ ذلك النور ، وباد القوم عن آخرهم في سنة ٨٩٧ هجرية . بعد أن أقاموا فيها ثمانية قرون . لأن دخولهم كان في سنة ٩٢ للهجرة على يد طارق يد زياد .

***

رفعت الستار عن هذا المنظر المحزن ليكون لكم ولأمم المشرق تذكرة وعبرة . خصوصاً في الأوقات الحاضرة ، والآن أقول لكم إنه على الرغم من توالي المحن . واضطراب الأحوال كانت سوق الأدب رائجة وبضاعته نافقة . فكل أمير ، وكل وزير ، وكل كاتب ، وكل وجيه كان له من الأدب نصيب وافر .

عرفنا من تقسيم الأندلس بين ملوك الطوائف أن بني جهور استبدوا بقرطبة وأن بني عباد استأثروا بإشبيلية ، في المملكة الأولى درج دو الوزارتين ابن زيدون وتربى وظهر فضله . وفي الثانية قضى بقية أيامه في العزّ والكرامة . وكانت بها وفاته في محرم سنة ٤٦٣ على التحقيق الدقيق كما نص عليه معاصره ابن بسام ولا عبرة بالأقوال الأخرى عن وفاته . لأن الذين قالوا بوفاته في سنة ٤٠٥ خلطوا بينه وبين أبيه غالب ابن زيدون .

اشتغل ابن زيدون بالأدب ، وفحص عن نكته ، ونقب عن دقائقه . إلى أن برع وبلغ من صناعتي النثر والنظم المبلغ الطائل . حتى قال فيه ابن بسام :

« كان أبو الوليد غاية منثور ومنظوم وخاتمة شعراء بني مخزوم . . . الخ . »

وما عتم أن أصبح في الأندلس « متيم ذلك الحي ، وعاشق ولادة لامى ، زاد على مجنون ليلى ، وقيس لبنى ، وابن أبي ربيعة صاحب الثريا ، تركه هواه أنحف من قلم ، وأشهر من نار على علم . وله مع ولاده أخبار ما حكى مثلها ابن أبي عتيق ، ولا الاصفهاني عن سكان وادي العقيق ، ولا الأصمعي عن أهل ذلك الفريق ، أندى من نسيم الصباح ، وأرق من ريق الغوادي في ثغور الأقاح »

وإذا تصفحنا دواوين الأدب عند الأمم الأخرى لا تجد له شبيهاً سوى تيبولس شاعر الرومان .

وتنقسم حياة ابن زيدون إلى قسمين مهمين (١) في قرطبة ، (٢) في إشبيلية .

***

أولا — في قرطبة : برع ابن زيدون في الأدب ، حتى كان أبو الوليد في الأندلس شبيهاً ومثيلا لأبي الوليد في دولة المتوكل العباسي ، وقد سماه الناس بمحترى الأندلس ، ولقد صدقوا .

فمن جملة المحفوظ عنه في صباه قوله :

أخذت ثلث الهوى غصباً ولي ثلث . . الخ

ثم هام بعد ذلك بحب ولاده بنت المستكفي الخليفة الأموي بالأندلس ، وكانت أديبة ، شاعرة ، جزلة القول حسنة الشعر ، تناضل الشعراء ، وتساجل الأدباء . وعمرت عمراً طويلا ولم تتزوّج قط . جاءت على خلاف

أبيها فى كلّ أوصافها . فكانت مصداقاً لقوله تعالى « يخرج الحىّ من الميت » وقد ابتذل حجابها بعد نكبة أبيها وقتله ، فصارت تجلس للشعراء والكتاب وتعاشرهم ، وتحاضرهم ، ويتعشقها الكبراء منهم . وكانت على خلق جميل ، وأدب غضن .

وكان لابن زيدون معها أخبار تطرف القلوب ، وتشنف المسامع ، لأنه خلع فى هواها العذرى عذاره ، وقد شهد المؤرخون كلهم لها بالعفة والصيانة . ولكن الشعراء فى كل واد يهيمون ، فكيف لايهيم بولاده أبو الوليد بن زيدون .

والمقام لايتسع لاشعاره فيها وإشعارها إليه . ولكى آتيكم براموز ومثال ، واترك الباقى لغير هذا المجال.

ودعها ذات يوم وأنشدها مرتجلا :

« ودع الصبر محب ودعك . . . الخ »

ثم قال :

« يانازحا وضمير القلب القلب مثواه . . . الخ »

ولما كان مجلس ولادة بقرطبة منتدى لاحرار المصر . وفناؤها ملعباً لجياد النظم والنثر . يعشو أهل الأدب إلى ضوء غرتها ، ويتهافت أمراد الشعراء والكتاب على حلاوة مسامرتها ، وهى مع ذلك محافظة على علوّ النصاب ، وكرم الأنساب ، وطهارة الأثواب ، ولقد طمع بعضهم فى الاستئثار بها دون ابن زيدون فنازعه على حبها وزاحمه فى ودها رجل من رجالات عصره ، وهو أبو عبد الله البطليوسى ، فكتب إليه ابن زيدون يزجره بهذا الزجر :

« أيا عبد الإله اسمع . . . الخ . »

ومنهم الوزير أبو عامر ابن عبدوس الملقب بالفار . وكان من أكابر رجالات قرطبة ، فاغتاظ ابن زيدون وبعث إليه بهذه الأبيات :

« أثرت هزبر الشرى إذ ربض . . . الخ »

ثم كتب له رسالته المشهورة على لسان ولادة ، وقد عبث فيها به كما عبث الجاحظ فى رسالته « التربيع والتدوير » بأحمد بن عبد الوهاب الكاتب فى بغداد ، فاشتهرت رسالة ابن زيدون فى المشارق والمغارب وهى التى شرحها كثير من أدباء المشارقة ، كابن نباتة والصفدى .

وشرح ابن نباتة قد طبع فى مصر مراراً . وهو فى غاية الحسن ونهاية الفائدة . وأما شرح الصفدى لهذه الرسالة فلم يصلنا . على أن ابن عبدوس لم يتن عن محاولته . حتى تمكن من إيقاع الجفوة بين ابن زيدون وولادة ، واستأثر بها دونه ، فاغتاظ ابن زيدون والتجأ إلى قريضه الفارس ، فلسع الرجل بقوله :

« أكرم بولادة ذخرا لمدخر لو فرقت بين بيطار وعطار
قالوا أبو عامر أضحى يلم بها قلت الفراشة قد تدنو من النار
عيرتمونا بأن قد صار يخلفنا فيمن نحبّ وما فى ذاك من عار
أكل شهى أصبنا من أطايبه بعضاً وبعضاً صفحنا عنه للفار.»

ولقد فاز ابن زيدون بمناه . من إقصاء الفار عن حماه . بل أن ولادة أخذت تعبث بذلك الوزير. حتى إنها مرت به ذات يوم فى تربها وسربها ، وكان الوزير ابن عبدوس جالساً على داره يستنشق الهواء العليل ، وكانت أمام داره بركة تجمعت فيها مياه المطر ، وانساق إليها شىء من أقذار الدار . وكان الوزير

جالسا فى أبهته وعظمته وقد نشر كية ، ونظر فى عطفيه ، وحشر أعوانه إليه . فلما قربت منه ولادة ناداته باسمه ، فهش إليها وبش ، واقترب من البدر فقالت له وهى تشير إلى البركة : يا ابن عبدوس :

« أنت الحصيب وهـذه مصر فتـدفقا فكلاكما بحر . »

ثم نفرت كالظبى الشارد وتركته حائراً باثراً . باهتاً صامتاً ، لا يحير جواباً ، ولا يبى خطأ ولا صـوابا ، وهذا البيت لأبى تواس تمثلت به ولادة ونقلته هذا النقل الحسن من المدح إلى الهجاء .

غير أن هـذا الوزير صبر حتى خلا جو قرطبة من ابن زيدون فاستأثر بولاده وعاش وعاشت حتى بلغا الثمانين وهما يتراسلان ويرتعان فى بساتين الأدب ورياض المعارف .

***

لم يبلغ ابن زيدون الخامسة والعشرين من عمره حتى نبه ذكره ، وعمّ صيته . اصطنعه أبو الحزم بن جهور المتغلب على قرطبة ونواحيها وضواحيها ونوه به لأنه رآه فتى الآداب ، وعمدة الطرف . والشاعر البـديع الوصف . ولما له بقرطبـة من الأبوة السنية ، والوسامة والدراية ، وحلاوة المنظوم ، وقوة المعارضة ، والافتنان فى المعرفة ، فكانت الكتب تنفذ من إنشائه إلى شرق الأندلس فيقال : تأتى اشبيلية كتب هى بالنظم الخطير ، أشبه منها بالمنثور . ثم ترقى فى وظائف الدولة القرطبية حتى صار إليه النظر على أهل الذمة . ثم رآه ابن جهور أهلا للوزارة فرقاه إليها . بل جعله ذا الوزارتين ، فكان منه بمنزلة السـمير والوزير والمشـير والسـفير . فكم أنفذه إلى ملوك الطوائف لأمور سياسـية ، ولمحابرات تقتضيها المعاملات والمجاملات التى التى يوجبها ، أو تدعو إليها علاقاته معهم أو مع ملوك الاسبانيين الذين كانوا يتربصون به وبهم دوائر السوء . فأحسن ابن زيدون التصرف فى ذلك . وغلب على قلوب الملوك . حتى كان كل ملك يخطب وده . ويتمنى أن يقيم عنده . ولـكنه بعـد انقضاء مهمته يرجع إلى صاحبه بقرطبة وإلى مجالس أنسـه بها . ولهوه بأهلها فى ذلك الوقت المضطرب بالعته الداخلية والخطوب الخارجية . كانت الجاسوسـية لها أثر فى مصالح الدولة ، وفى أحوال الأفراد .

نترك أمور الدولة وسـياستها جانباً . ونقتصر على الدائرة التى ارتضتنا لأنفسنا الجولان فيها وهى ميدان الأدب .

ونذكر حكاية تدل على الجاسوسية الفردية فى تلك الأيام .

كانت بقرطبة جارية تتعشق فتى من القرشـيين . وكانت لوجدها كاتمة . ولـكن الخبر وصـل إلى الوزير ابن زيدون ، فلم يعبأ به لأن القوم كلهم كانوا متغلغلين فى هذه السبيل .

وكانت الجارية تقول الشعر فجاشت نفسها ببيت فذ وامتنع عليها ما تريد . وهذا البيت هو :

« يا معطشى عن وصال كنت وارده هل ملك لى غلة إن صحت : واعطشى . »

فجاءت إلى كبير الوزراء . وأمير الشـعراء . وسألته أن يزيد عليه شيئاً وهى تظن أنه لا يعلم بما هى فيه من الغرام . فأمسك القرطاس واغتنم فرصة الروى ، وما يعلمه من السر المطوى ، فكتب :

« كسـوتنى من ثياب السقم أسبغها ظلماً وصيرت من لحف الضنى فرشى . »

. . . . . .

« جفنى إذا التدّت الأجفان طيب كرى جفا المنام وصاح الليل يا قرشى . »

ومن تأمل أحوال الأندلسيين رأى أنهم كانوا يبالغون فى التشبه بالشرقيين فى كل ما اشتهروا به أو اشتهر

من أحوالهم ، فدائنهم وعمائرهم وقصورهم ومنازههم سموها بما اختاره الشرقيون فى بلادهم كذلك حاكوهم فى مجالس أسهم . وأنا أقصر على مايتعلق بابن زيدون وصحبه ، وأمهد لذلك بما كان فى بغداد .

كان فى دار السلام الوزير المهلبى المشهور ، والداضى التنوخى ، وقد بلغا من الكبر سناً عالياً . ولهما ذقون بيضاء تنهال على صدورهما ، وكانا يتعاطيان فى النهار أمور الدولة بغاية الحشمة والوقار . حتى إذا جنّ الليل اجتمعا فى مجلس العقار ، فكانا يشربان فى أوانى من البلور والنضار ، ولا يكتفيان بلذة الشراب ، بل يغمسان أذقانهما فى الأوانى ، ثم يرشّ كل منهما الشراب بتلك الرشاشات الغريبة على صاحبه لتتم لهما لذّة السكر حسا ومعنى . باطناً وظاهراً ، ويستمرّان على ذلك طرفا من الليل . حتى إذا جاء الصباح عادا إلى أشغالهما ، الوزير فى تدبير الدولة ، وقاضى القضاة فى النظر فى الخصومات ، والحكم على مقتضى الشرع ، واستمرّا على هذه الحال فى معاقرة المدام ، حتى وافاهما الحمام .

فاسمعوا نظير ذلك فى قرطبة . كان القاضى أبو بكر بن ذكوان ، من الجلالة باسمى مكان ، أدركته حرفة الأدب ، وله فى العلم باع طويل ، وكان يتشبه فى خلوته مع ابن زيدون ، بالداضى التنوخى مع الوزير المهلبى ، وهنالك ما شئت من دعابات ورقاعات ، وما تخيلت من فكاهات ومجانات ، حتى إذا أصبحا ، ذهب دو الوزارتين إلى شأنه فى ديوانه ، وبكر أبو بكر إلى مجلس الحكم يمتضى الحق ، ومتى اقترب المساء عادا إلى القصف ، وتجاوزا فى ميدانها كل وصف ، إلى أن سطا الدهر على أبى بكر .

واتفق أن مرّ ابن زيدون يوماً بباب ابن ذكوان فى لمة من إخوانه ، وجماعة من عمار ميدانه ، فعطفوا عليه مسلمين ، فقال أبو الوليد بن زيدون مرتجلا :

« انظر لحال السرو كيف تحال . . . . الخ »

***

فتى أديب حر يصل إلى هذه المكانة قبل أن يصل إلى الثلاثين من العمر ، فكيف لا يكون كما كان المتنبى حرب الزمان والدهر . نعم قد دبت عقارب الغيرة بينه وبين حاسدى نعمته وسعادته ، والماظين والأنداد فتألبوا عليه وتآمروا حتى انتهوا بإيداعه فى شراكهم ، ونجحوا لدى الأمير ابن جهور فحبسه حبساً طالت مدته ، فكانت تلك السجون مثارا لشجونه ، فبعد أن صاغ لبنى جهور ولاسيما لأبى الحزم قلائد وخرائد ، كتب إليه من السجن أشعاراً ورسائل مختاره ، فاضت بها نفسه فى التنصل والاعتذار والاستشفاع والاستعطاف ، ولكن المزاحمين له على مركزه فى الدولة ، وعلى حب ولادة كانوا دائما يفوزون ، فبقى فى السجن مدة تنيف على الخمسمائة يوم .

كتب لابن جهور تلك الرسالة البديعة التى طبعها أحد المستشرقين فى سنة ١٨٨٩ . وهى التى شرحها العلامة صلاح الدين الصفدى .

ولقد زارته أمه فى سجنه . فحانتها دمعتها ، فقال يخاطبها من قصيدته اللامية التى وجهها إلى ابن جهور مستعطفاً :

«ألم يأن أن يبكى الغمام على مثلى . . . . . الخ »

وما ألطف وصفه لنفسه ولوشاته فى إحدى قصائده الطنانة :

« كان الوشاة — وقد منيت بفكهم — أسباط يعقوب وكنت الذيبا . »

هذه الأحوال مضافة إلى نفس كبيرة تنعب فى مرادها الأبدان ، شيبت رأس ابن زيدون وجعلته هرما قبل

الأوان ، فقد رأى الشيب فى رأسه وعارضيه . فبكى على نفسه وقال من قصيدة أخرى يستعطف بها ابن جهور أيضا :

« لم تطو برد شبابى كبرة وأرى برق المشيب اعتلى فى عارض الشعر
قبل الثلاثين إذ عهد الصبا كثب والشيب غصن غير مهتصر . »

وفيها يقول بما يعرفنا بأنه عارف قدر نفسه :

« أحين رف على الآفاق من أدبى غرس له من جناه يانع الثمر ؟
وسيلة سببا إن لا تكن نسبا فهو الوداد صفا من غير ما كدر . »

فدلنا بذلك على أن الشيب ألم برأسه وبلحيته ، قبل أن يصل إلى الثلاثين من عمره . وذلك مصداق لما ذكرناه من أنه بلغ مراتب العلا وهو فى سن الفتوة وريعان الصبا ، وذكر الصفدى أنه كان يخضب بالسواد .

ثم أنه تحيل فى الهرب ونجح . فلما خرج من السجن اختفى بقرطبة وأقام فيها متوارياً ، ثم نظم قصيدة طويلة يخاطب فيها ولادة ويستنهض الأديب أبا بكر بن مسلم للشفاعة ويستنزل أبا الحزم بن جهور وفيها يعرفنا أن مدة حبسه بلغت خمس سنين . قال :

« سنون من الأيام خمس قطعتها أسيراً ، وإن لم يبد شد ولا ربط . »

والقصيدة طويلة جميلة جليلة ، ثم إنه مازال بأبى الوليد بن جهور يستشفع به إلى أبيه أبى الحزم ، حتى شفع له وانتشله من نكبته وصيره فى صنائعه ، ولما ولى الأمر بعد والده نوه به وقدمه فى الدين اصطنع لدولته وجلله كرامة لم تقنعه ، رعموا . فلا غرابة إذا بكى واستبكى حينما مات أبو الوليد بن جهور الذى أذاقه من الحبس والعذاب ألواناً . فقد وجد ابن بسام بخط ابن حيان هذه المرثية البديعة لابن زيدون فى أبى الحزم :

«ألم تر أن الشمس قدصمها القبر . . . . . الخ »

ولكننا نعود إلى ولادة ونتساءل هل نسى أبو الوليد ولادة ؟ كلا . بل عاد إلى التودد إليها والتقرب منها ، وكان يذكرها فى قرطبة ويراسلها بأشعاره الرائعة الفائقة .

ذهب مرّة إلى الزهراء يتأمل فى محاسنها فوصفها بقوله :

« إنى ذكرتك بالزهراء مشتاقاً . . . . . الخ »

ثم أرسله أبو الوليد بن جهور سفيراً إلى حضرة إدريس الحسنى بمالقة .

فأطال الثواء هنالك واقترب من إدريس وخف على نفسه ، وأحضره مجالس أنسه ، فعتب عليه ابن جهور وصرفه عن السفارة بينه وبين أمراء الأندلس فيما يجرى بينهم من التراسل والمداخلة .

إلى هنا انقضت أيامه فى قرطبة ، فلقد خشى أبو الوليد أن يلاقى من الوليد ما لاقاه من الوالد . وحينئذ صحت عزيمته على الهجرة من قرطبة والذهاب إلى المعتضد بن عباد باشبيلية .

فلامه بعض اخصائه على ما اعتزمه من التحول عن وطنه وهجر أهله وخلانه ، فكتب إليه رسالة ضافية يعتذر فيها لنفسه ويقول من جملتها مانصه :

«وكنت أول حبسى قد وضعت من السجن فى موضع قد جرت العادة بوضع مستورى الناس . . . الخ.»

ولكن ابن زيدون كان قد ذاق من الدهر حلوه ومرّه فلم يرض لنفسه بالذهاب إلى إشبيلية دون أن يكون على ثقة من أمره . فلذلك كتب رسائل بديعة إلى بعض المربين من المعتضد ، ثم إلى المعتضد نفسه ، يمهد السبيل إلى الهجرة . حتى إذا تحقق أنه سينزل فى إشبيلية على الرحب والسعة أزمع الرحيل إليها ، وكان ذلك فى سنة ٤٤١ للهجرة .

واتفق فى وقت فراره من قرطبة إلى اشبيلية أن صادفه عيد الأضحى ، فرأى الناس مبتهجين بالعيد ، وهم يتزاورون ويتبادلون التهانى ، وهو شريد طريد ، ففاضت نفسه بوصف حاله :

« خليلى لا فطر يسر ولا أضحى . . . . . الخ »

فلما وصل إشبيلية . نزل على كنف المعتضد ، وأصبح من خواصه ومحابته يجالسه فى خلواته ، ويرسله فى مهم رسائله ، وولاه الوزارة وحفظ له لقبه « ذا الوزارتين » .

كان المعتضد جعل مجلسه محطا عن مجلس ابنه وولى عهده المعتمد بن عباد فكتب المعتمد لابن زيدون :

« أيها المحط عن مجلسا وله فى النفس أعلى مجلس
بفؤادى لك حبّ يقضى أن ترى تحمل فوق الأرؤس . »

فأجابه ابن زيدون يذكره :

« أسقيط الطل فوق النرجس أم نسيم الروض تحت الحندس ؟ »

ولكن هل أساء ذلك ولادة ومحاسنها . أم قرطبة ومساكنها ؟ كلا فلم يزل صاحبا مشغوفا بهذه وبتلك وأشعاره أكبر دليل على ذلك . فكلما حانت له فرصة ، أو هزته نشوة ، قال فيهما أقوالا تذيب الفؤاد .

فلقد تشوّق إلى قرطبه وساكنيها بقصيدة تدل على حنينه لها ولمن فيها ، فقال :

« على الشعب الشهدى منى تحيـة . . . . . الخ »

وكان يبلغه عن بنى جهور ما يسوءه فى نفسه وقرابته فى قرطبة ، فقال يخاطبهم :

« بنى جهور أحرقتمو بجفائكم فؤادى ! فما مال المدائح تعبق
تعـدونى كالعبر الورد إنما تبوح لكم أنفاسه حين يحرق . »

وأما أمداحه فى المعتضد بن عباد فشىء كثير جليل .

وقد كتب عنه إلى صهره الموفق أبى الجيش بن مجاهد العامرى صاحب دانية والجزائر الشرقية المعروفة الآن بجزائر البليار :

« عرفت عرف الصبا اذهب عاطره . . . . . الخ . »

قلت فيما تقدّم إن ملوك الطوائف كانوا منقسمين على أنفسهم ، وإن الحرب كانت دائرة بينهم فإليكم مثالا واحداً مما يتعلق بابن زيدون ، وذلك أن الحرب وقعت بين المعتضد صاحب إشبيلية ، وبين ابن الأفطس صاحب بطليوس ، فانهزم ابن الأفطس هزيمة فظيعة ، وخسر خساره جسيمة ، فقال ابن زيدون يهنئ المعتضد :

« ليهن الهدى إنجاح سعيك فى العدا . . . . . الخ . »

هذا مع أن ابن زيدون سبق له مدح ابن الأفطس بمدحة غراء فى قصيدته التى يقول فيها :

« لبيض الظبى ولسود اللمم . . . . . الخ . »

ولا غرابة فى ذلك ، فالملك عقيم ، وتصاريف السياسة تقضى بالتغيير من حال إلى حال . خصوصا إذا انقسمت أمة من الأمم على نفسها وخاضت فى غمار الخطوب والفتن ، وفوق ذلك ، أوليس التقلب من مديح إلى هجاء ومن ملام إلى سلام ، هو سجية من سجايا الشعراء الكرام وغير الكرام .

فلما مات المعتضد بن عباد وتولى الملك ابنه المعتمد بن عباد كان لابن زيدون عنده تلك الكرامة وهذه الحفاوة ، تدلنا على ذلك شهادة التاريخ ويؤيدها قول ابن زيدون نفسه فى رثاء المعتضد ومخاطبته روحه بعد دفنه :

«أعباد ! ياأوفى الملوك لقد عدا ، عليك زمان من سجيته الغدر.» الخ

ومن المعلوم أن ابن زيدون هو الذى دبر دولة المعتضد وأظهر صولته وأغراه بأعدائه ، وزين له الايقاع بعماله ووزرائه . فغدا شجا فى صدورهم ، ونكدا فى سرورهم . فلما آل الأمر إلى المعتمد ، قام حساده وخصومه وسعوا لديه فى النكاية به ، ثم رموا إليه برقعة فيها قصيدة طويلة أولها :

« يا أيها الملك العلى الأعظم اقطع وريدى كل باغ ينثم !
واحسم بسيفك داء كل منافق يبدى الجميل . وضد ذلك يكتم ! »

وهى قصيدة طويلة تتألف من ٢٧ بيتاً كلها اغواء بابن زيدون على سبيل التصريح المفهوم . ولكن المعتمد كان أعقل من ابن جهور . فلم يصغ لتلك السعاية ، ولم تنفع لديه تلك السعايه فقال فى صدهم وردكيدهم فى نحرهم :

« كذبت مناكم : صرحوا أو جمجموا . . . . . الخ . »

فلما بلغ ابن زيدون ما راجههم به ، وتحقق حسن مذهبه ، وعلم أن حيلتهم قد أخفقت ، وسعايتهم مانفقت ، وسهامهم تهرعت ، ومكائدهم تبددت وتوزعت ، قال يمدح المعتمد ويعرض بأعاديه بقصيدة طويلة مطلعها :

« الدهر إن أملى فصيح أعجم . . . . . الخ . »

واستقرّ المعتمد به فى وزارته ، فكان أحد وزرائه الثلاثة الأكابر المشاة وزارتهم (أى أحد الثلاثة الذين يلقب كل واحد منهم بدى الوزارتين) والآخران هما ذو الوزارتين ابن عمار ، وذو الوزارتين ابن خلدون (جد صاحب التاريخ المشهور) .

خرج الثلاثة فى أحد الأيام من إشبيلية الى منظرة (قصر خلوى) لبنى عباد بموضع يقال له القنت (تقريبا للفظ اسبانى) وهو منتزه تحف به مروج مشرقة الأنوار ، متنسمة الأنجاد والأغوار ، متبسمة عن ثغور النوار . . . فى زمان ربيع سقت الأرض السحب فيه بوسميها ووليها ، وجعلتها فى زاهر ملبسها وباهر حليها ، وأرداف الربى قد تأزرت بالازر الخضر من نباتها ، وأجياد الجداول قد نظم النوار قلائده حول لباتها ، ومجارس الزهر تمطر أردية النسائم عند هبابها ، وهناك من البهار ، مايزرى على مداهن النضار ، ومن النرجس الريان ، ما يبرز بنواعس الأجفان ، وقد نووا الانفراد للهو والطرب ، والتنزه فى روضى النبات والأدب ، وبعثوا صاحباً لهم يسمى «خليفة» هو دوام لذتهم ، ونظام مسرتهم ، ليأتيهم بنبيذ يذهبون الهم بذهبه فى لحين زجاجه ، ويرمونه بما يقضى بتحريكه للهرب عن القلوب وإزعاجه ، فجلسوا لانتظاره ، وترقب عوده على آثاره ، فلما بصروا به مقبلا من أول الفج بادروا إلى لقائه وسارعوا نحوه . واتفق أن فارساً من الجند ركب فرسه فصدمه ، ووطئ عليه فهشّم أعظمه ، وأحرى دمه ، وكسر قصال (١) النبيذ الذى كان معه ، وفرق من شملهم ما كان الدهر جمعه ، ومضى على غلوائه راكضاً حتى خبى عن العين ، خائفاً من متعلق به يحين بتعلقه الحين ، وحين وصل الوزراء إليه تأسفوا عليه وأفاضوا فى ذكر الزمان وعدوانه والحطب وألوانه ، ودخوله بطوام المضرّات ، على تمام المسرّات ، وتكديره الأوقات المنعمات ، بالآفات المؤلمات ، فقال ابن زيدون :

« أفاهو والحتوف بنا مطيفة ونأمن والمنون لنا مخيفه »

فقال ابن خلدون :

« وفى يوم وما أدراك يوم مضى قصا لنا ومضى خليفه »

---

(١) القصال كلمة يستعملها المغاربة والأندلسيون بمعنى جرة النبيذ ، وهو إناء من الفخار .

فقال ابن عمار :

« هما نخارتا راح وروح تكسرتا وأشقاف وجيفه »

ولابن زيدون مدائح فى المعتمد بن عباد كلها درر وغرر ، وآيات بينات ، وله معه مداعبات ومطارحات ومساجلات ، فتارة يشوقه إلى تعاطى الحميا فى قصوره البديعة ، وتارة يرسل له التفاح ويكتب عليه الأشعار ، يدعوه إلى تناول العقار ، وتارة يهنيه ، وأخرى يمدحه ، وله بيتان قد بلغا حدّ الابداع فى هذا الباب . قال يخاطبه :

« مهما امتدحت سواك قبل فانما مدحى إلى مدحى لك استطراد
يغشى الميادين الفوارس حقبة كيما يعلمها النزال طراد »

فما أحسن هذا التنصل بالتمرن على المديح ، حتى إذا أجاد وبلغ المراد أهدى ثمرته إلى ابن عباد .

هذه قطرة من بحر من بحور شعر ذلك الفرد ، وأما نثره فشىء بعيد حصره ، ومما يجهله كثيرون أنه ألف كتابا فى التاريخ وجعله ابن حزم من مفاخر الأندلس ، وقال إن أبا الوليد بن زيدون ألف كتاب التعيين فى خلفاء بنى أمية بالأندلس على منزع كتاب التعيين فى خلفاء المشرق للمسعودى ، وقد نقل صاحب نفح الطيب سطرا أو سطرين عن هذا الكتاب الذى لم يبق له أثر ولا عين .

وما زال ابن زيدون يتشوق لقرطبه ولمن فيها ويعمل لدى المعتمد بن عباد حتى جعل قرطبة منتهى أمله . فسعى فى مداخلة أهليها . ومواصلة ذوى الكلم فيها لأنه رأى عدم العائدة والمكايده لاستمساك أهلها بدعوة الخلافة وأنفتهم من زوالها عنهم وانطماس رسومها فى بلدهم ، فلما فاز بالمرام وانتظمت تلك العاصمة الضخمة فى ملكه ، ذهب إليها مسرعا واهتم بتدبير شؤونها ، هنالك جاشت نفسه بالفخر على سائر ملوك الطوائف فقال:

« من للملوك بشأو الأصيد البطل . . . . . الخ . »

أما ابن زيدون ، فقد عاد قرير العين إلى وطنه وأهله ، وكانت له شيعة كبيرة فى قرطبة ، فارتفع جده ، وزاد إقبال الدنيا عليه وبلغت حظوته عند المعتمد درجة لا يطمع فيها .

فحينئذ سعى فى هلاكه صاحباه ، ابن مرتين وابن عمار ، وتلطفا فى إبعاده وإبعاد ابنه من بعده ليخلو لهما الجوّ ، ولينفردا بالاستئثار بابن عباد ، ولقد ساعدتهما الظروف .

فقد وقعت فتنة فى إشبيلية واضطرّ ابن عباد للتعجيل بارسال جيش كثيف إليها تحت قيادة ابنه سراج الدولة بن عباد ، فسول ابن مرتين وابن عمار لابن عباد أن يرسل ابن زيدون مع سراج الدولة وتلطفا فى تفهيم السلطان أن ذهاب ذى الوزارتين فيه حقن للدماء ، وحفظ للنظام ، لما له من المكانة العالية والجاه الرفيع ، ولأنه محبوب لدى جميع القلوب ، ثم وسوسا له بأن المصلحة كل المصلحة هى فى وجود ابن زيدون الوزير العاقل المدرب المحنك المحبوب بجانب سراج الدولة الذى هو قرة عين الملك ، ومطمح الأنظار لبقاء البيت العبادى ، وما زال الرجلان ينسجان على هذا المنوال حتى أفلحا خصوصاً لغياب ابن زيدون فى مرض ألزمه البيت .

صدر إليه الأمر بالذهاب ولم يعذره السلطان فى التوقف لما به من الآلام ، فخرج منها مع الحاجب سراج الدولة بن عباد والجيش متوجهين إلى إشبيلية ، وكان ذلك يوم ١٣ ذى الحجة سنة ٤٦٢ ، وخلف فى قرطبة ابنه الوزير الكاتب أبا بكر بن زيدون ، ولكن صاحبينا (ابن مرتين وابن عمار) مازالا يعملان لدى ابن عباد حتى صدر الأمر إلى أبى بكر ابن زيدون أيضا بان يلحق بابيه فى اشبيلية .

حينئذ خلا لهما الجو فاستأثرا بالأمور كلها وانفردا بتدبير الدولة بلا مشارك لهما فى اهوائهما ولا معارض

لهما فى اغراضهما ، وكان زوال دولة ابن عباد كان مقدارا على يد هـذين الرجلين فان مرتين ، يكفى فى التعريف بمراميه أنه ابن مرتين أى أنه من أصل غير عربى ، فان جده رجل إسـبانى ، وأما ابن عمار فقد أنكر فضل ابن عباد ، وشق عصا طاعته ، وسعى فى الفساد والحراب ، وخرق العهود ، وخان وأذنب ابن عباد حتى أودى دولته ، على ماهو معروف مشهور .

أما ابن زيدون وهو فى إشبيليه ، فلم يطل الأمد به بعد لحاق ابنه به ، فكأنه جاء ليكفنه ويدفنه بها فى صدر رجب سنة ٤٦٣ ، حينئذ تولى منه كهل لن يخلف الدهر مثله جمالا وبياناً وروعه وظرفاً .

وهو عند أول التحقيق فى النظم أمد طفا ، وأحث عناداً ، فلا يلحقه تقصـير ، ولا يحشى وهناً ، ولما وصل خبره إلى قرطبة ، وله فيها عشرة كبيرة وأشياع كثار ، تنازعوه وحرنوا عليه لأنه كان منهم ، هاوياً إليهم ، حدبا عليهم ، وليحه حير بينهم وبين سلطانهم الحديث الولاية .

فأراد السلطان أن يترضاهم فأرسل لابنه (أى أبى بكر ابن زيدون) وقربه إليه ، ورقاه فى مراتب والده حتى أعطاه وزارة وقد اغتنم هذا فرصة ماوقع من ذى الوزارتين ابن عمار من الخروج على ابن عباد فأوغر صدر ابن عباد عليه ، وما زال يعمل لديه حتى كان سبباً فى هلاك ابن عمار على ماهو معروف مشهور .

انتهى الكتاب

تم طبعه « بشركة مطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده » فى يوم الخميس ٢ ربيع الثانى سنة ١٣٥١ (٤ اغسطس سنة ١٩٣٢) ؎

مدير المطبعة

رستم مصطفى الحلبى

فهرس

القوافى من ديوان ابن زيدون [1]

حرف الألف

	صفحة
فاقن شكرا وعزاء	٧٥
ونلت عافية الشفاء	٧٧
(فيه حكمى أو قضائى)	(٧٧)
وهل يملك الدمع المشوق المصبأ	٢٢٩
حين يجلو بلطفه السخناء	٢٦٠
(يعدل فى الأرض وفى السماء)	(٢٨٥)
(وَنفسى منه السنا وَالسناء)	(٣٨٧)

حرف الباء

يا دمع صب ما شئت أن تصوبا	١٩
تحملها منه السلام إلى العرب	٣٤
فيقصر ـ عن لوم الحب ـ عتاب	٤٠
(خبير بأدواء النفوس طبيب)	(٤٠)
زمنا ، فكان السجن منه ثوابى	٦٠
فصلى بفرعك ليلك الغربيبا	٦٩
يامن تزينت الرياسة حين ألبس ثوبها	٩١
(زأرى وأنذر كاب شر ذيبه)	(٩٦)
(فعذب ساكنيه وعذبوه)	(١٧١)
(وليل أقاسيه بطىء الكواكب)	(٢٣٠)

	صفحة
لأنت الذى نفسى عليه تذوب	٢٥٣
يا قمر الديوان ، والموكب	٢٥٩
يا راحتى وعذابى	٢٦٤
قد ضاق بى ـ فى حبك ـ المذهب	٢٦٩
سوى أننى محض الهوى صادق الحب	٢٦٩
أم لشاكيك طبيب	٢٧٣
وما فى الحق غصبى واجتنابى	٢٧٥
يا ليت غائب ذاك العهد قد آبا	٢٧٦
(يختطف الناس عن قريب)	(٢٨٦)
(وما آجتمعا ولا آفترقا إهاب)	(٢٨٧)
(عن العيان فكنوني أبا العجب)	(٢٨٩)
(فقلت لهم إن الشكول أقارب)	(٣٢٥)
(نادى لفقد حبيب النفس واحربا)	(٣٧٠)
(رقد صادني طرف كحيل وحاجب)	(٣٧١)
(وبحر له فى المكرمات عباب)	(٣٧١)
(وللقلب ـ فى حين النداء ـ وجيب)	(٣٧٢)
(ومن يلتذ غفران الذنوب)	(٣٧٨)
(فأمضى عزمى أم أعوج مع الركب)	(٣٧٩)
(وَرد تلقك العتبى حجابا من العتب)	(٣٨٥)

(١) كل ما وضعناه بين قوسين هو لغير ابن زيدون .

صفحة

(ارماح قومى بالعداة لواعبا) (٣٩٣)
(كفاه بخلت السحاب) (٣٩٥)
(يرتاح فيها باصطياد أرانب) (٣٩٦)
(رجاك على بعد فأصبح ذا قرب) (٣٩٦)
(وَما أحصى صوابه) (٣٩٩)
(ذهبوا من الاغراب أبعد مذهب) (٤٠٠)

حرف التاء

وقد خفقت فى ساحة القصر رايات ٦١ و ٣٩١
وَأعزل عن رضاك وَقد وليت ٢٦٦
(جداول ماء أرسلت فاسبطرت) (٢٠٩)
(ليس من الوحش وَلا النبات) (٢٨٧)
(عن فؤادى دجنة الكربات) (٣٩٢)
(وَلمنى من مناياهن غايات) (٣٩٩)

حرف الثاء

وَأوفى له بالعهد إذ هو ناكث ٢٧٧

حرف الجيم

(قلبى لها أحد البروج) (٣٨٩)
(يا بدر الدياجى) (٣٩٢)

حرف الحاء

فما حال من أمسى مشوقا كما أضحى ٥٤
تصبى ، وَإعطاف نشاوى صواح ٨٩
(وَأخذى الحمد بالثمن الربيح) (٩٦)

صفحة

فهز ـ من الهوى ـ عطف ارتياحى ١٥٨
وَأنت عَلَى الزمان مدى أقتراحى ٢٦١
(وَإنى فى سلوك فى انتزاح) (٣٧٣)
(أفديك يا فتنة الجثمان وَالروح) (٣٧٣)
(أصبح قلبى به قريحا) (٣٧٨)
(وَعذرك ـ إن عاقبت ـ أجلى وَأوضح) (٣٨٤)
(لنقصر عنه طوال الرماح) (٣٩٣)

حرف الدال

(مجاد بالقهوة وَالورد) (٦٠ و ٣٩٢)
(فكانوها وَلكن للأعادى) (٦٨)
وَلم تجهل محلك من فؤادى ٧٤
فلله منا أجمل الشكر وَالحمد ٧٨
(قلت : امران هين وتبديد) (٨٦)
وَفدت خير وَافده ١٦٥
مهاة حمتها ـ فى مراتعها ـ أسد ١٧٧
لو ساعف الكلف المشوق مراد ١٩٧
(وأنت آمرؤ عافى انائك واحد) (٢٠٤)
(ضربت على الأرض بالإسداد) (٢٠٦)
(جهلا بنا وَولدت عبدا) (٢١٠)
(يفحصن بالمعزاء شدا) (٢١٠)
وَإن راح صنع الله نحوك وَأغتدى (٢١٦)
(ماطل فيه سماكى وَلا جادا) (٢١٩)
كالشراب العذب فى نفسى الصدى ٢٢٣

	صفحة
فالقلب منهن والاحداق وَالكبد	٢٢٣
ادناك الأمل البعيد	٢٤٩
وَهادما كل وجد	٢٤٩
وَأقبس هديك نور الهدى	٢٥٠
لديك فاشكو بعض ما أنا وَاجد	٢٥٣
وَزهدت فيمن ليس فيك بزاهد	٢٦٢
يا سوء ما لقى الفؤاد	٢٦٤
وَأصابتك بمالم أرد	٢٦٨
ثم امتزجت امتزاج الروح بالجسد	٢٧١
وَبلغت من ظامى المدى	(٢٧٤)
وَوَاصلا حبل صدى	(٢٧٨)
(وَإن الغنى عارية فتزود)	(٣١٧)
(وَتعرت ذات يوم تبترد)	(٣٢٦)
(إذا خفيت طرق العرائس عن أسد)	(٣٧١)
(متى يختبر غيبه يحمد)	(٣٨٥)
(وَفى خلدى مافيه من لوعة الوجد)	(٣٨٦)
(فتفك عنه للأسى أصفاد)	(٣٨٦)
(وحاضرة فى صميم الفؤاد)	(٣٨٧)
(وكأن ساعدك الوثير وسادى)	(٣٨٧)
(كوا كفات الغوادى)	(٣٨٨)
(فلاجعلن مكانه وردا)	(٣٨٩)
(وَكم عقنى عن دار أهيف أغيد)	(٣٨٩)
(فعض به تفاحة وآجتنى وردا)	(٣٨٩)
(ولاوجدت مناخ طوب النوى بدا)	(٣٩٠)
(فالقلب منهن والأحداق والكبد)	(٣٩٠)
(ورود الكرى بعد طول السهاد)	(٣٩٤)
(وقرة ناظر المجد)	(٣٩٥)
(أساود ـ لهم فيها ـ وآساد)	(٣٩٩)
(خف القطين وجف الزرع بالوادى)	(٤٠٠)

حرف الراء

(ملكا يحسنه الخليفة جعفر)	(٣٣)
لما جرت بالذى تشكوه أقدار	٣٨
كمثل هواى فى حال الجوار	٥٨
وأمرضت حسادى، وحاشاك أن تبرى	٦١
إلا ذكرتك ذكر العين بالأثر	٩٢
(إما من الطول أو من القصر)	(٩٢)
وفاضح الرشأ الوسنان إن نظرا	٩٨
مضمخة الأنفاس طيبة النشر	١١٩
فمن شيم الأبرار ـ فى مثلها ـ الصبر	١٤٠
وأن قد كفانا فقدنا القمر البدر	١٥٠
عذارى دونه ريق العذارى	١٥٢
واطلع كما طلع الصباح الزاهر .	١٦٨
غصن أثمرت ذراه بدر	١٧٠
فمن شيم الأبرار فى مثلها الصبر	١٧٤
(بأن المرء لم يخلق صباره)	(٢٠١)
(تروح بالخورنق والسدير)	(٢٠٥)

	صفحة
ما أبرزته غرائز الفكر	٢٤٤
وقربك من دون البخور معطر	٢٤٨
واجتل التأييد فى أبهى الصور	٢٥٤
إلى أن بدا للصبح فى الليل تأثير	٢٥٩
قلبى عليك يقاسى الهم والفكرا	٢٦٧
واختيارى إن أخير	٢٦٨
لا كتفين بسماع الخبر	٢٧٢
وارضى بتسليمك المختصر	٢٧٢
مدى الدنيا مظفر	٢٨١
(وعشرته مشكورة وعشائره)	(٢٩٨)
(حرف لفصل اللفظ مقدور)	(٣٠١)
(ويبقى من المال الأحاديث والذكر)	(٣١٧)
(غرست أشجارها مستجزل الثمر)	(٣٧١)
(فيها السرى إلا برأى مقمر)	(٣٧١)
(ووصل كظل الروض تعطيكه نزرا)	(٣٧١)
(يناقضه سنا البدر)	(٣٧١)
(إلى أن بدا للصبح فى الليل تأثير)	(٣٧٣)
(ويقصر أن لاقيتها أطول الدهر)	(٣٧٣)
(من أفق من أنا فى قلبى أشاطره)	(٣٧٤)
(وتصبر عنه ولا يصبر)	(٣٧٤)
(ومقلة تنفث بالسحر)	(٣٧٥)
(وإن فؤادى ـ والإله ـ صبور)	(٣٧٥)
(ويأمرنى ، إن الحبيب أمير)	(٣٧٥)
(وقصرت أعمار العداة عَلَى قسر)	(٣٧٦)
(وقد زهرت فيه الأزاهر كالزهر)	(٣٧٦)
(ماذا يفيد عليك البعث والحذر)	(٣٧٧)
(والنجم قد صرف العنان على السرى)	(٣٨٠)
(ومن منال قصى السؤل والوطر)	(٣٨٧)
بابصاره الغرة الزاهره	(٣٨٩)
(ووجهك أملح فى ناظرى)	(٣٨٩)
(والوجد قد جل فما يستر)	(٣٩٠)
(وَاقترن الليل بالنهار)	(٣٩٢)
(وقنعت وجهك بالمغفر)	(٣٩٣)
(كفى به فدعانى فضله الظافر)	(٣٩٤)
(يسرى إلى غرته السارى)	(٣٩٦)
(ولم ألف فى بحر نعماه زجرا)	(٣٩٦)

حرف السين

يجرح الدهر ويأسو	١
(للشيب عذرا فى النزول براسى)	(٩٣)
وقد آن أن تترع الأكؤس	٩٨
أطول عمر يهيج الأنفسا	١٠٦
ويظلم لى النهار وأنت شمسى	١١١
(بها أثر منهم جنى ودارس)	(١٩٣)
(أم نسيم الروض تحت الحندس)	(٢٤٧)
(وارع إذا المرء أسا)	(٢٩٧)

صفحة

(بأنس السماع وحسو الكؤوس) (٢٩٨)
(نفي للعدم عن الناس) (٣٩٢)

• حرف الشين

هل منك لى غلة إن صحت «واعطشى» ٢٨٠

حرف الصاد

(فى غير ذاك من الأمور أرخص) (٦٨)

حرف الضاد

نشب وافر ، وحاه عريض ٨٢
ونهته اذهدا فاغتمض ٢٣٧
(كواكب فى السماء تبيض) (٣٧٤)
(وهب لنا التغميضا) (٣٩٤)

حرف الطاء

وشط ـ بمن نهوى ـ المزار وماشطوا ١٣

حرف العين

(يوما وصلنى ساعه) (٢٢)
وخذ ـ فيما ترى ـ أودع (٦٦)
ذهب الفؤاد فليس فيه براجع ٧٩
(نفيس لا تعار ولا تباع) (٩٧)
عارض كرب بلطفه رفعه ١١٨
(بعقبى الدواء مطامعه) (١١٨)
أم فى المئات التي قدّمت منتفع ١٣٠
(من الدهر حتى قيل لن يتصدعا) (١٤٥)

صفحة

بنعيك أن الدين من بعض ما نعى ١٨٤
(تفرع لمنى شيب فظيع) (٢٠٩)
(وهز المشرفية والوقوع) (٢١٠)
ومثير كامنة الدموع ٢٦٣
محضا ولام به الواشى فلم أطع ٢٦٥
وسبيل الهوى وقصد الولوع ٢٧٠
أناديك لما عيل صبرى فاسمعى (٢٧١)
سر إذا ذاعت الأسرار لم يذع ٢٧٩
(ويا واحدا فاق الخلائق أجمعا) (٣٧٨)
(نفيس لا تعار ولا تباع) (٣٢٨)
(يعنو له ملك الزمان ويخضع) (٣٧٣)
(بأن ليس فى حبى لغيرك مطمع) (٣٨٦)
(ألا غفر الرحمن ذنبا تواقمه) (٣٨٨)
(وشادنا فى مهجتي يرتع) (٣٩٣)
(وتنهنه القلب الصديع) (٣٩٧)
(كلما أعطى تعباً نزعا) (٤٠٠)

حرف الفاء

لنا، هل لذات الوقف ـ بالجزع ـ موقف ٢٣
(تخوفنى الأعداء والنفس أخوف) (٢٠٤)
أنا مستودع لعلق شريف ٢٦٨
ذكرك منى بالأنفاس موصول ٢٧٨
يا من تناهيت ـ فى الطافه ـ فجفا ٢٧٩

صفحة

(وصول ليس بالجافى) (٢٩٣)
(فلست على العلات منها أخاكف) (٣٧٠)
(فإن الهوى مابه منصف) (٣٩٣)

حرف القاف

(على الصديق والعدو صدقه) (٤٩)
جناني ، ولكن المدائح تعبق ٦٠
(وما المرء إلا عهده ومواثقه) (٢٠٠)
والأفق طلق ومرأى الأرض قدراقا ٢٥٧
(فنظل نصبح بالسرور ونعبق) (٣٧٤)
(كأنه الصبح تحته شفق) (٣٧٥)

حرف الكاف

فيميل ـ فى سكر الصبا ـ عطفاك ٩
ذائع من سره ما آستودعك ١٢
بكل السنا جلالك ١١١
واطلب فسعدك يضمن الإدراكا ١٣٦
دعهم فشأنهم غير شانك ١٤٧
(كلاهما ذو أنف ومحك) (٢١٧)
أم كيف أخلف وعدك ٢٦٦
لا تظهرى بخلا بعود أراك ٢٧٠
الا بوصل قصرك ٢٧٢
(لا تتركنى ـ هكذا ـ هالكا) (٣٧٥)

صفحة

(ومشرقة من خلال الحلك) (٣٨٨)
(وتأنس بذكرها فى انفرادك) (٣٨٩)
(فتغيب مسرعة لذلك) (٣٩٢)
(سكران من خمر اشتياقك) (٣٩٢)
(فبدا لطرفى أنه فلك) (٣٩٣)
(مقالة لم تشب بإفك) (٣٩٤)
(ومخلفا أعهدكا) (٣٩٤)
(ولمحت من طرق الملاح شباكى) (٤٠٥)
(ردت الروح علي المضني معك) (٤٠٨)

حرف اللام

(رحال عن الباب الذى أناداخله) (٣٢)
فديتك واعتززت على ذليل ٥٧
أم عهدنا البدر يجتاب الحلل ٦٢
(سهام العدا عنى فكنتم نصالها) (٦٨)
وموردهم حيث الدماء مناهل ٩٩
(نهال وأسباب المنايا نهالها) (٩٩)
تخالط لون المحب الوجل ١٠٥
(لو أبصره الواشى لقرت بلابله) (١٠٨)
و يطلب ثأرى البرق منصلت النصل ١١٢
(فلا تعتصر ماء الصنيعة بالمطل) (١١٥)
وحدى ـ فى رجائكم ـ الكليل ١٢٠
لا تخش منى نسيانا ولا بدلا ١٣٩

	صفحة
وحز المنى وتنجز الآمالا	١٤٩
ولدولة العلياء كيف تدال	١٥٣
فى المنظر الحسن الجميل	١٦٥
(والمرء يعجز لا الحويل)	(١٦٦)
كم لها من ألم يدنى الأمل	١٦٧
فقد لقح التشوق عن حيال	١٦٩
وحال تجنيك دون الحيل	١٩٥
ومطلعها من جيوب الحلل	٢٢٤
(يا دهر أف لك من خليل)	(٢٤٢)
لقد فقت ـ فى الحسن ـ بدر الكمال	٢٦٩
ويشفى وصالك قلبى العليلا	٢٦٣
وسوغت دأبا نساء الأجل	٢٤٨
يا حائر الحكم أفديه بمن عدلا	٢٧٥
لا ولا ذاك التجنى مللا	٢٧٥
يملأ عينى من تأمل	٢٦٩
يميل ـ مع الزمان ـ كما يميل	٢٨٠
(ولكن على أثر المسير قفولها)	(٢٩٢)
(وليس عليه فى النكاح سبيل؟)	(٢٩٢)
(وإنى لما يهوى الندامى لفعال)	(٣٧٠)
(فأنا الذى لست بسال)	(٣٧٠)
(إلى أن بدت للصبح فى الليل أعمال)	(٣٧٢)

	صفحة
(كل نيل أناله لى قليل)	(٣٧٤)
(هيهات جاءتكم مهدية الدول)	(٣٨٨)
(سفها وهل يثنى الحليم الجاهل)	(٣٨٩)
(إلى محب هائم مثله)	(٣٩٠)
(فشوق صحيح وجسمى عليل)	(٣٩٠)
(وبالسيف والرمح أمضى قتال)	(٣٩٣)
(منى على خلقك الجميل)	(٣٩٤)
(قنصت فيها أرانبا وحجل)	(٣٩٦)

حرف الميم

ريح معطرة النسيم	٣٥
والمنى فى هبوب ذاك النسيم	٥٠
وعلقى أنت بها عالم	٧٦
بعقلى ـ مذبن عنى ـ لمم	١٢٢
يعطى اعتبارى ماحهلت فأعلم	١٨٨
إذ العيش غض والزمان غلام	١٩٢
عن القصد إن أعياك منه مرام	٢٤١
علينا أذمة لا تذم	٢٤٣
يا من يصح بقلتيه ويسقم	٢٧١
زكت ، وعلى وادى العقيق سلام	٢٧٦
قام بك العذر فلا لائم	٢٧٩
(كما باهت بصحبته الكرام)	(٢٩٢)
ومرويا لكل لهذم	٣٠٣

	صفحة
(من العيش أن يلقى لبوساً ومطعما)	(٣١٧)
(أخت بنى الأكرمين من جشم)	(٣٢٩)
(إلا لتوهن قوة العظم)	(٣٣٢)
(إلا الظلوم المظلم)	(٣٧٠)
(وأوقد فى الأعداء شر ضرام)	(٣٧٠)
(وقد خلقت لها فى مجلس الكرم)	(٣٧١)
(فان فؤادى بالمعالى لهائم)	(٣٧٤)
(طعمين منه زرياً وسما)	(٣٧٨)
(وفى والا مانواح الحمائم)	(٣٧٩)
(يحجب فيه الصلاة والصوم)	(٣٨٦)
(أمكن ورد فلا يطل حوم)	(٣٨٦)
(وحان أن يتسنى لى بكم حلم)	(٣٩١)
(ومتبع الانعام اتماما)	(٣٩٥)
(وستر الله مد على الأنام)	(٣٩٦)

حرف النون

	صفحة
وناب ـ عن طيب لفيانا ـ تجافينا	٤
ونفى الشك اليقين	٣٩
بعت ودى بلا ثمن	٦٨
فى حلى الظرف الحسان	١٧٠
موثقا فى يد المحن	١٠٨
(أصرحنا بذكرك أم كنينا)	(١٠٨)
إذ لا كتاب يوافينى فيحيينى	(١٠٩)
(بدور الزمان واسد العرين)	(٢٢١)
ودعوت من حنق عليك فأمنا	٢٦٥
واستحدث القلب شوقا بعد سلوان	٢٦٧
سأحفظ فيك ما ضيعت منى	٢٧٠
حسب المتيم أنه قد أحسنا	٢٧١
وحطاتنى ولطالما أعلتنى	٢٧٣
وعن تمادى الأسى والشوق سلوانا	٢٧٣
لو كان سامحنى فى وصله الزمن	٢٧٦
وقضينا الذى علينا وزدنا	٢٧٨
من الحسن فنون	٢٧٨
(يسلو ـ وإن سئل السلو ـ ضنين)	(٣٧٥)
(فقد فقت الممالك فى معان)	(٣٧٦)
(أو روضة مسكية الريحان)	(٣٨٨)
(إذ لا كتاب يوافينى فيحيينى)	(٣٩١)
(من فارس شهم الجنان)	(٣٩٣)
(من المجد فاحتل غير القنن)	(٣٩٥)
(أو يرجع القول معناه فيغنينا)	(٤٠١)
(تشجى لواديك أو تشجى لوادينا)	(٤٠٢)

حرف الهاء

	صفحة
انستك دنياك عبدا أنت دنياه	٢٥٨
ومستغشا لنا صحيه	٢٦٦
(فاق ذكاء فماله من شبيه)	(٢٨٨)

	صفحة
(أن الرؤوس محل النهى)	(٣٣٢)
(فالأرض تشرق منه)	(٢٧٨)
(ونعيمه فاعتذبوه أواره)	(٣٧٩)
(وعاشق من لا يباليه)	(٣٨٧)
(وصرفته لما انصرفت عليه)	(٣٨٧)
(وبكت مقلتاى شوقا إليه)	(٣٩٣)
حرف الواو	
(فوز من قراقر إلى سوى)	(٢١٧)

	صفحة
حرف الياء	
فلتنسناها هذه التاليه	٥٩
(فروق ، فرامح ، فحفيه)	(٢٠٥)
(وإن كنت قد جردت عزمى ماضيا)	(٢٧٥)
(وقد عطشنا ونم رى)	(٣٨٥)
(له الندى الرحب والندى)	(٣٨٦)
(على العبيد الوفى)	(٣٩٥)

مختار الشعر الجاهلي

يتضمن هذا الديوان عيون الشعر الجاهلي

لستة من فحول الشعراء

وهم

(١) امرؤ القيس
(٢) النابغة الذبياني
(٣) زهير بن أبي سُلْمى المُزَني
(٤) طرفة بن العبد
(٥) عنترة بن شداد
(٦) علقمة الفحل

صحح روايته، وشرح غريبه، وضبطه

مصطفى السقا

مدرس اللغة العربية وآدابها بمدرسة الخديو إسماعيل الثانوية بالقاهرة

مطبوع طبعاً متقناً على ورق جيد وحرف جميل مضبوط بالشكل ومصحح بغاية الاعتناء ومجلد بالقماش المذهب .

يطلب من مكتبة :

مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

ص . ب . الغورية رقم ٧١

التي تقدم الفهرس الحاوي للكتب الأدبية وخلافها لمن يطلبه مجاناً .